زفي الدّوبي و جيرولد بالينغر

الجاسوسية الإسرائيلية و حرب الأيام الستّة

تعريب

غسّان النوفلي

الجاسوسية الاسرائيلية
وحرب الأيام الستة
لمؤلفه
زفي الدوبي و جيرولد بالينغر

في صباح يوم من شهر كانون الأول ٩٦٤ – وقبل ايام من موعد تعيينه نائباً لوزير الدفاع . اوقفت السلطات السورية ايلي كوهين كعميل اسرائيلي وكان يحمل اسماً مستعاراً « كامل امين ثابت » . وهو من الجواسيس الذين ارتفعوا الى المرتبة الأولى حتى اصبح يضارع شيشرو ولاميا ولوسي . وقد استطاع كوهين ان يتغلغل الى مراكز السلطة والتوجيه – في سورية – السياسية ، والادارية ، والحزبية ، والعقائدية . واستطاع الحصول بذلك على جميع المعلومات التي كانت اسرائيل في حاجة اليها لتعجيل الظفر في حرب الأيام الستة التي وقعت بعد عامين فقط من تنفيذ حكم الاعدام بكوهين .

انها القصة الوثائقية لالياهو بن شاؤول كوهين الذي استطاع خلال مهمته التي استمرت اربع سنوات في دمشق ان يحصل على اسرار في مستوى القمة من بينها مخططات تحويل نهر الأردن ، وخرائط القواعد العسكرية في مرتفعات الجولان ، وكذلك المعلومات عن تطور العلاقات بين السلطة في سورية والمنظمات الفدائية ، وهويات الألمان الذين يعيشون بأسماء مستعارة في منطقة الشرق الأوسط ، بينهم فرانز راد ماشر المعروف بلقب « مندوب ايخمان » .

ولكي يستطيع المؤلفان جمع المعلومات الواردة في هذا الكتاب لم يكتفيا بمعلومات

المخابرات الاسرائيلية ، بل قاما برحلة اجتازا فيها الاف الأميال ، وسألا اكثر من مئة شخص كانت لهم علاقة مباشرة « بعملية كوهين » الى ان جمعوا المعلومات عن جميع ادوار حياته في حقل التجسس منذ نشاطاته الأولى في المنظمات السرية الصهيونية في الاسكندرية الى ان ذهب الى اسرائيل في عام ١٩٥٩ حيث اوفدته المخابرات الاسرائيلية الى الأرجنتين بعد ان خلقت منه شخصية جديدة « كامل امين ثابت » الوطني الثري ، ثم اوفدته اخيراً الى سورية ليقوم بمهمته الدراماتيكية الأساسية .

وفي دمشق استطاع كوهين ان ينال الحظوة بسرعة لدى رئيس الجمهورية والقادة الآخرين في الحزب الحاكم . والحفلات الليلية الصاخبة التي اقامها في منزله والتي كان يرتادها كبار رجال الحزب والحكم ما لبثت ان تحولت الى مصدر اخباري لا يقدر بثمن حول اوضاع سورية السياسية والاقتصادية والاجتماعية . و استطاع كوهين عن طريق اصدقائه المختارين ان يتولى منصب مدير البرامج الأجنبية في الاذاعة السورية وهي الوظيفة التي لم يكن في حاجة الى غيرها لينقل الى تل ابيب معلوماته اليومية .

والقصة ، بما تشتمل عليه من تقارير ومعلومات ، لا تقتصر على انها قصة جاسوس وانما هي قصة مرحلة من تاريخ منطقة الشرق الأوسط سادتها المكائد والمؤامرات والدسائس التي كانت تحاك على مستويات الحكم ، والسلطة ، والقيادة ، والتوجيه من قبل عملاء اسرائيل في المنطقة – مباشرة تارة وبالوساطة تارة اخرى .

- بعد أربع سنوات على مرور حرب الخامس من حزيران مزقت إسرائيل ستار الصمت عن الأدوار التي لعبتها شبكة الجاسوسية الإسرائيلية (أقوى شبكة تجسس في العالم .) في جميع المخططات والأعمال العدوانية التي خاضتها ضد الحكومات العربية .
- الدور العقائدي الذي لعبه كوهين داخل تنظيمات حزب البعث
- كوهين لعب دوراً اساسياً في هجرة اليهود المصريين إلى اسرائيل
- لم تكن الجاسوسية مهمة كوهين الأساسية في دمشق وانما كان يوجه الحكم في سورية سياسياً وفكرياً وعقائدياً من خلال التعليمات والتوجيهات التي يتلقاها من « الموساد»
- أول كتاب مدعم بالوثائق عن « عملية كوهين » وعمليات التجسس الأخرى ضد الوطن العربي .
كوهين أوقف قبل أن يصدر مرسوم بتعيينه نائباً لوزير الدفاع .
- أول معلومات وثائقية عن إيلي بن شاؤول كوهين مأخوذة عن التقارير السرية التي بعث بها الجاسوس الإسرائيلي من دمشق إلى تل أبيب .

السعـــر
١٢ ل . ل

زفي الدّوبي و جيرولد بالينغر

الجاسوسية الإسرائيلية
و
حرب الأيام الستّة

تعريب

غسّان النوفلي

الجاسوسية الاسرائيلية

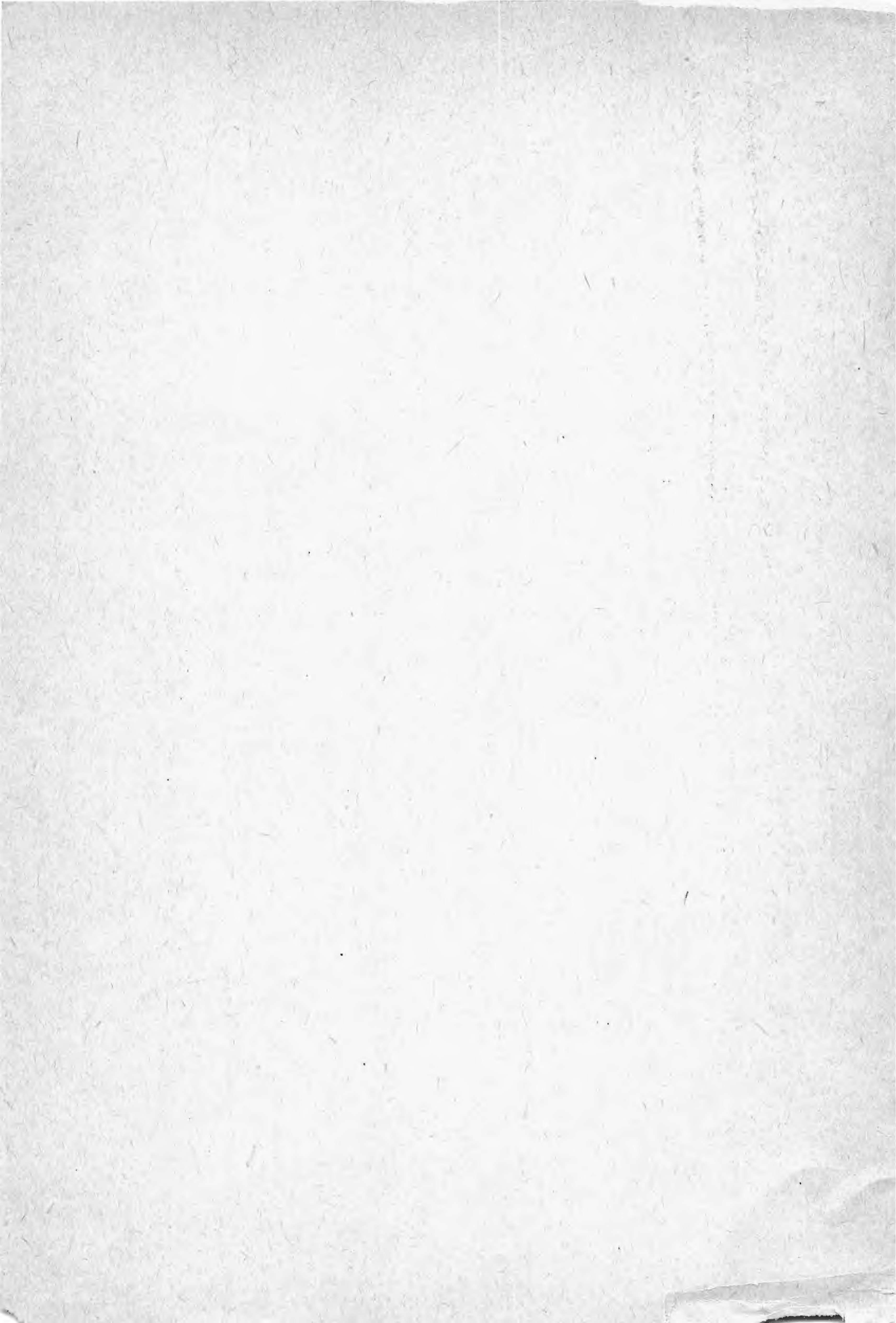
وحرب الأيام الستة

تأليف

زفي الدوبي و جيرولد بالينغر

ZWY ALDOBY — JERROLD BALLINGER

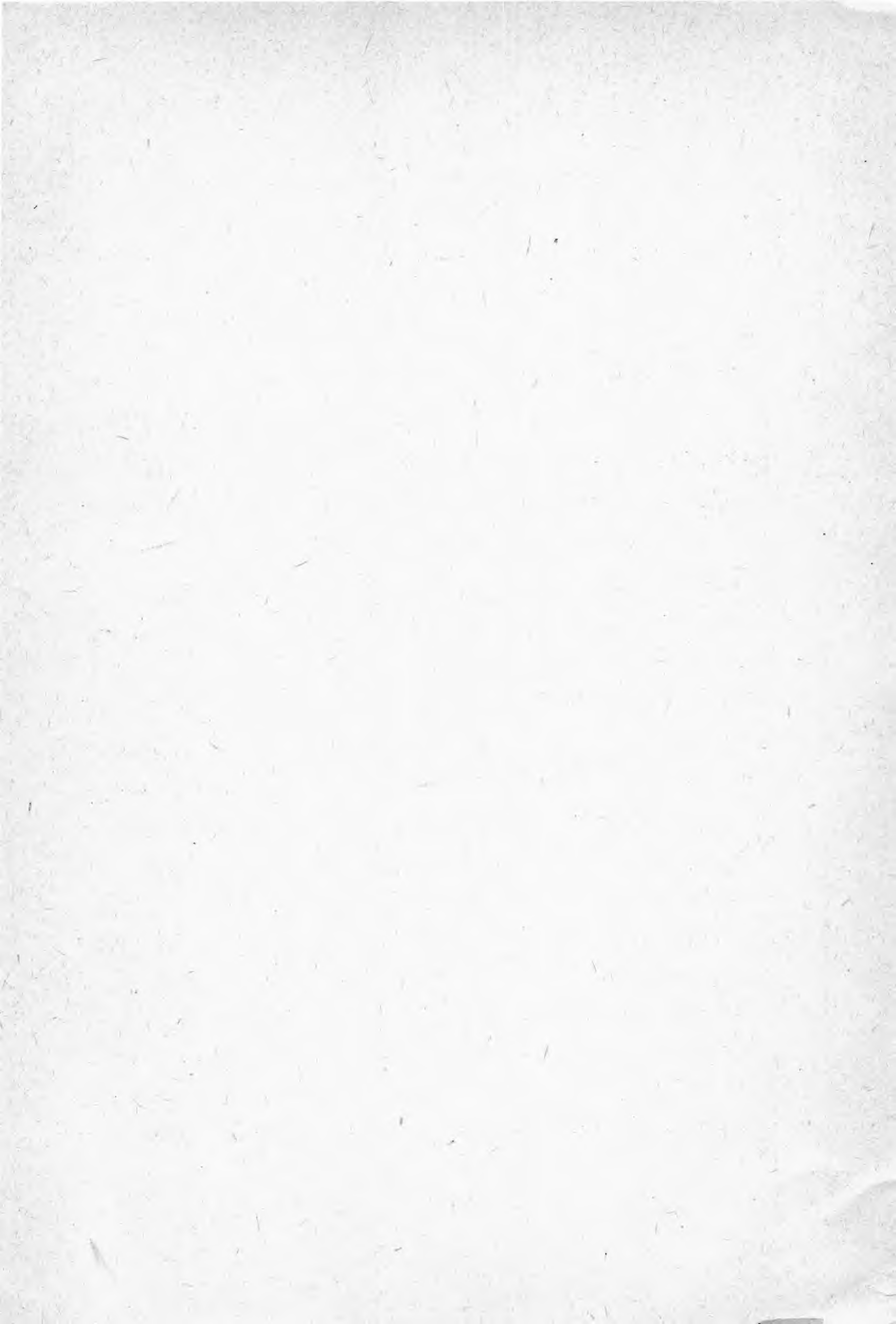
- كوهين كان جاسوساً لاسرائيل في مصر
- اشترك في فضيحة « لافون »
- حمل جـواز سفر مصري
- خطط لانقـلاب ٨ آذار
- ساهم في « مسودات » التأميم
- انتخب عضواً في القيادتين القوميـة والقطريـة
- رشح وزيراً للاعلام ونائباً لوزير الدفاع
- أحبط محادثات الوحدة الثلاثية
- توسط بين الحافظ والتجـار
- أعاد البيطـار لرئاسة الوزارة
- ضرب مدينة حمـاه
- خطط لضرب مشروع التحويل
- و ... و ... و ...



إلى القارىء العربي الكريم

« ستأتي في هذا الكتاب على خمسمائة صفحة تقريباً، غير أن ما يشتمل عليه — الكتاب — من وقائع وأحداث وتطورات يزاح عنها الستار لأول مرة على صعيد الرأي العام العربي ... ستطرح عليك من الأسئلة ما يتجاوز في النص عدد هذه الصفحات » .

المعرب



المقدمـــة

استوقفني هذا الكتاب طويلاً ، وحملني على التردد كثيراً ، وانتابتني بعد أن أتيت على صفحاته الأخيرة روادع كبيرة تنزع بي إلى الإحجام ، ودوافع أكبر تهيب بي إلى المبادرة والإقدام ...

فالحقائق في هذا الكتاب مذهلة ، والوقائع مؤلمة ، والصور والملامح والانعكاسات مفجعة ، ومذلة ومهينة ، وقد يندى لها جبين كل عربي ... ولكن هل يظل المواطن العربي ... وإلى متى ... آخر من يعلم ؟

صحيح أن عدداً من الكتب نشر عن كوهين باللغات الأجنبية ، وصحيح أن واحداً أو اثنين منها فقط ترجم إلى العربية بعد أن حذفت وطمست منهما المعالم الأساسية ... ولكن ليس بين هذه الكتب المعربة أو غير المعربة ما أتى على قصة كوهين بكل مداها وأبعادها ، وبكل تفاصيلها ودقائقها ، بمثل ما أتى عليه هذا الكتاب . كما أن أياً من هذه الكتب لم يعكس صورة النوايا الصهيونية ولا حجم الآمال التي تعلقها الحكومة الاسرائيلية على نشاط تجسسها بمثل ما عكسها هذا الكتاب ..

وإذا كان تاريخ الجاسوسية في العـــالم مفعم بالقصص المثيرة ، وبالمغامرات والمفاجآت التي يقترب بعضها من الأساطير والخيالات ، فليس هذا هو الطابع المميز لهذا الكتاب ، ذلك أن الذين دفعوا به إلى صعيد الرأي العام العالمي أرادوا أن يجعلوا منه ، لا قصة جاسوس ، بل قصة مرحلة من مراحل التاريخ العربي عامة ، والتاريخ السوري خاصة ، كان للجاسوسية الاسرائيلية في أحداثها وتطوراتها ، في تقلباتها وانقلاباتها ، أثر خطير وانعكاسات بعيدة المدى ...

والذين دفعوا بهذا الكتاب إلى صعيد الرأي العام العالمي يذهبون في

إصرارهم على اعتبار الكتاب قصة تاريخية إلى درجة يتقيدون فيها بالمواقيت حتى الساعات والدقائق ، وبتفاصيل الوقائع والأحداث حتى الحركات والكلمات ... ولا شك أن الذين كانوا من العرب عامة ومن السوريين خاصة، على صلة مباشرة أو غير مباشرة بتلك الوقائع والأحداث، سيذهلهم أن هذه المرحلة من التاريخ المعاصر لم تكتب حتى الآن بيد عربي ... وان تلك التفاصيل الدقيقة عن المشاكل والخلافات داخل الحكم ، وداخل حزب البعث الحاكم ، بل وبين الدول العربية الثورية في أخطر المواضيع المصيرية كموضوع الوحدة مثلاً ، لم يأت عليها أي مؤرخ عربي ، ولم يشر إليها أي مصدر من المصادر العربية .. وسيلاحظ القارىء العربي من متابعته لفصول هذا الكتاب كيف أن الأمة العربية كلها كانت في عهودها الثورية في معزل عن كل قضاياها الكبرى ، وعن كل التطورات التي تناولت هذه القضايا ، بينما كانت المخابرات الاسرائيلية ــ كما يبدو من فصول هذا الكتاب ــ تطلع أولاً بأول على أدق التفاصيل وأوسعها ، وعلى أخطر المعلومات وأهمها ...

وإذا كانت دول العالم الصغيرة والكبيرة تتخذ من أجهزة استعلاماتها السرية وسيلة لجمع المعلومات الفنية وغير الفنية ، من سياسية وعسكرية ، واقتصادية ، وصناعية ، فسيلاحظ القارىء من سياق هذا الكتاب أن الموساد « جهاز المخابرات الاسرائيلية » قد استن في الجاسوسية سنة جديدة هي محاولة خلق أنظمة جديدة في بلدان الأعداء ، وتوجيه هذه الأنظمة بحيث تطبق على النحو المتطرف، الذي ينسجم مع ما تريده لهذه البلدان من فوضى واضطراب ، وما تنشده لها من خراب ودمار ، وما يتأتى داخل صفوفها من تطاحن داخلي على كل المستويات ... يودي بها إلى الانحلال والتمزق على كل الجبهات ...

وفي محاولتي المتواضعة لنقل المعلومات الواردة في هذا الكتاب إلى قراء العربية كان يتنازعني عاملان قويان ، ويتناوبني حافزان طاغيان : الأول ينصحني بالتصرف ما أمكن التصرف استجابة لنداء العاطفة

الوطنية والشعور القومي ، أو انسياقاً مع موجبات الكياسة ، وموحيات السياسة . والثاني يأمرني بالأمانة المطلقة في النقل للفصول ، والمقاطع ، والجمل ، والكلمات ، كيلا يحرم القاريء العربي من فوائد صلتـــه المباشرة بالمعاني والمقاصد والدلالات . ولم تطل فترة المفاضلة ، وانصعت إلى جانب الأمانة المطلقة في النقل والتعريب لأنها هي وحدها تحقق الغاية الصادقة والمخلصة التي حدت بي إلى وضع هذا الكتاب بين يدي قراء اللغة العربية ... أبناء الكارثة التي يجسدها لهم كل فصل من فصوله ، وكل مقطع من مقاطعه ، بل كل معنى من المعاني التي تخللت جمله وكلماته .

ومن العوامل الأساسية التي أدت إلى هذا الاختيار ، أنني – يشهد الله – ما قصدت النيل من جهة ولا من جهات معينة ، ولا الغمز من قناة فئات أو هيئات أو أشخاص ، فقد يكون الذين وردت أسماؤهم في هذا الكتاب ، أو بعضهم في أقل الاحتمالات هم أحوج من جميع المواطنين العرب الآخرين للاطلاع على الحقيقة الواقعة وهي أن جميع أعمالهـــم وتصرفاتهم ، ونشاطاتهم ، وتحركاتهم بجميع ألغازها وأسرارها كانت تحت مجهر المخابرات الاسرائيلية تعرف عنها الصغير والكبير ، والمعلن والمكتوم ، بل كثيراً ما وجهتها وحركتها ... وكثيراً ما دفعت بها أو أثارتها أو أثّرت فيها ... !!

قد يقال أن هذا الكتاب ما وضعه مؤلفاه الإسرائيليان إلا بدفع من المخابرات الاسرائيلية أو إيحاء منها ، وما كان لغيرها أن يستطيع الإطّلاع على تقارير الجاسوس السرّية ، والإحاطة بمحاضر استجواباته الدورية ، التي كانت تتم ضمن جدران « الموساد » الكثيفة ، ووراء أبوابها الموصدة . وإن إفشاء هذه الأسرار بدقائقها وتفاصيلها نوعاً ، وكماً ، وتوثيقاً ، ما هو إلا جزء من الحرب النفسية التي تشنها إسرائيل على الأمة العربية ... وإذا كان هذا صحيحاً ، فالصحيح أيضاً أن هذا السلاح الذي تشهره إسرائيل علينا وتحاربنا به ، هو من صنع أيدينا ، ومن أمراضنا التي لن يتأتى لنا الشفاء منها ما لم نقبل على تشخيص المرض تشخيصاً دقيقاً ، وما

لم نكتشف العلة على ضوء أعراضها الحقيقية ، ثم نقدم بشجاعة على ما يقتضيه العلاج من عمليات جراحية ، أو من احتمال مرارة الأدوية وشقاء الحمية .

إن ما تضمنه هذا الكتاب من وقائع وحقائق ، ليست من نسج الخيال ، ولا هي من صنع الدعايات المضللة ، فبعد أن كشفت الصدفة وحدها أمر كوهين شرعت آلاف الألسنة تنطق بما كان يعمل كوهين مما رأوه رأي العين في مختلف ميادين نشاطاته الاجتماعية ، والسياسية ، والحكومية ، والحزبية ، في المكاتب ، والاجتماعات ، والمؤتمرات ، والقيادات ، وفي الاذاعات والنشرات والتوجيهات ، وفي فلسفة المباديء والعقائد ، وفي تدبير وتطوير الأحداث والسلوك ، والتصرفات ، والمنطلقات ...

كثيرة هي القصص ، والحكايات ، والروايات ، التي وضعت قديماً وحديثاً عن أعمال الجاسوسية في بلاد العالم المتقدمة ، والمتخلفة ، بعضها من نسج الخيالات والتصورات المصنوعة ، وبعضها من بنات الحقائق الواقعة المشهورة ، ولكن لا هذه ولا تلك مع ما فيها من مبالغات لا توازي جزءاً يسيراً مما توصل إليه كوهين في منجزاته ، لا بعبقريته النادرة ، ولا بوسائله الخارقة ، بل بخيانة بعض الذين توصل للتعامل والتعاون معهم من ذوي المراكز القيادية والحكومية العليا ، والانحلال الخلقي والنفسي والاجتماعي ، والتحلل من الروابط والالتزامات التي توجبها قيمنا الدينية والروحية والمعنوية ، بحيث لم يبق للروادع اعتبار ولا أثر مادي أو معنوي .

لم يذكر عن السوري — ولا عن الدمشقي بنوع خاص — في زمن من الأزمان ، ولا في حال من الأحوال ، أنه يتصف بالغباء أو بالغفلة ، أو بتبلد الإحساس ، ولكن العكس هو المشهور عن السوري والدمشقي خاصة ، المشهور عنهم ولا سيما في الآونة الأخيرة أنهم يندفون قادتهم وحكامهم كما يندف النداف القطن ، ويغربلونهم كما يغربلون الحبوب ، وينخلونهم كما ينخلون الطحين ...

والسؤال الذي يطرح نفسه فلا يجد الجواب عليه هو :

كيف ينزل بساحتهم أفاق مجهول ... مجهول الماضي ، مجهول الحاضر ، مجهول المنشأ ، مجهول الاسم والهوية ، مجهول المنطلقات والحوافـــز ، مجهول في كل شيء يتفنن السوريون والدمشقيون في البحث والتنقيب عنه .... وبقفزات بهلوانية سريعة ورشيقة ، يشق كل الصفوف ، ويتخطى جميع الحواجز ، وتنهار أمامه الصعاب من العقبات والموانع ، وتتفتح في وجهه المحكمة الإغلاق من الأبواب . فلا تمضي شهور قلائل حتى يصبح نجماً كثير اللمعان في الدوائر الحكومية ، وفي المحافل السياسية ، وفي القيادات الحزبية ، وفي الأوساط العسكرية ، وفي تحصينات الخطوط الأمامية في أقصى الحدود ..

حتى أن رئيس الدولة أمين الحافظ حين اختلف مع رئيس وزرائه السابق صلاح البيطار ثم رغب في مصالحته وإعادته للحكم ، لم يجد بين كل السوريين والدمشقيين مدنيين وعسكريين ، حزبيين وحكوميين ، من هو أهل للوساطة ، ووسيط للمصالحة ، سوى هذا الأفاق المجهول « كوهين » . والغريب العجيب أن كوهين ما يكاد يصل إلى الأردن ، ويجتمع إلى البيطار في الخليل ، حتى يأخذه من يده ، ويسير به إلى الطائرة ، ويعود وإياه إلى دمشق ، ليصالحه مع رئيس الدولة ، ويعيده إلى رئاسة الوزارة ...

وحتى أن : محطة الإذاعة السورية وضعت تحت تصرفه لمدة خمس دقائق كل يوم ليبث منها تقاريره السرّية المستعجلة إلى إسرائيل بشيفرة خاصة موضوعة لهذه الغاية ...

وحتى أن : مؤسس حزب البعث ورئيسه ميشيل عفلق قدم الاقتراح بتعيينه عضواً في القيادة القطرية للحزب ، وزكاه ، وأيده أمين الحافظ وسليم حاطوم وصلاح البيطار متخطين جميع الاعتبارات والتقاليــد والأنظمة الحزبية ، وبذلك تربع الجاسوس الاسرائيلي كوهين عضواً في

المجلس الذي يحكم الحكومة ، كما يحكم جميع الأجهزة الرسمية وشبه الرسمية العاملة في الدولة ...

وحتى ان : حزب الدولة القائد اوفده الى حمص وحلب في ثورة نيسان ليساعد في تهدئة التجار ، إلا أنه كان طيلة الوقت في حماه الى جانب صديقه العزيز امين الحافظ ، وصديقه الأعز سليم حاطوم ، حين اخمدا ثورتها بما هو معروف من العنف والقسوة والضراوة . . .

وحتى ان : مسودات قرارات التأميم ارسلها كوهين الى « الموساد » قبل ايام من اقرارها ومن اعلانها ، ومن المؤكد ان كوهين لم يوافق على اقرارها وتنفيذها الا بعد ان باركتها اسرائيل ورفعت له المصباح الأخضر لتمريرها . . .

وحتى أن : كامل أمين ثابت — كوهين — ظل وراء التلفون ، في مقر القيادة القطرية لحزب البعث ، لا يغادر المكان لا في الليل ولا في النهار ، ليتلقى بالنيابة عن الحزب وعن الدولة ، الأخبار الرسمية جداً ، والسرية جداً ، خلال مباحثات الوحدة التي كان يجريها مع عبد الناصر في القاهرة الوفد الحزبي والحكومي في اعقاب ثورة ٨ آذار ١٩٦٣

وحتى ان : قادة حزب وحكم البعث وافقوا على ان يذهب الجاسوس الاسرائيلي الى امريكا الجنوبية ، على نفقته الخاصة — نفقة المخابرات الاسرائيلية — ليؤسس لهم فرعاً للحزب ... هناك ، وليجمع لهم اموالاً لصندوق الحزب . فذهب ، واسس الفرع ، وجمع المال ، وساهمت المخابرات الاسرائيلية في قسط منه . وأودع المال في احد المصارف . ولم تخطئه اللطافة ولا الحصافة حين عودته الى دمشق ، اذ قدم الشيك بيد الى صديقه رئيس الدولة ، كما قدم باليد الأخرى هدية ثمينة الى زوجته ، فأدخل السرور والبهجة على قلب الزوجين ، كما اثنى الحزب وقادته على غيرته ووطنيته واخلاصه لحزبه . . .

وحتى ان : الجاسوس الاسرائيلي كوهين كان يدعى الى حضور

المناورات التي تجري على الحدود ، وفي اي مكان آخر ، بوصفه عضواً في لجنة الدفاع ، وبوصفه اكثر اعضاء القيادة الحزبية عناية واهتماماً ومعرفة بالشؤون الفنية والعسكرية . . . واكثر من ذلك وأخطر ، انه كان بهذا الوصف ينتدب ليرافق كبار الزوار للخطوط الأمامية في الجبهة ، ولم يكن سواه من بين اعضاء حزب البعث وقادته المدنيين من هو اهل للثقة والكفاءة والجدارة لمرافقة الفريق علي علي عامر رئيس القيادة العربية الموحدة حين قام بدورة تفتيشية على الجبهة الجنوبية . . .

وحتى أن : قيادة الحزب رشحته لمنصب وزاري حين تأليف إحدى الوزارات ، كما أن عدداً من الضباط ذوي النفوذ في العصبة العسكرية للحزب اقترحوا تعيينه نائباً لوزير الدفاع ، ووضع هذا الاقتراح في جدول الأعمال في اجتماع القيادة القطرية في أول ثلاثاء من شهر شباط .

كيف كان كل ذلك في سوريا ، وفي دمشق خاصة . ؟

ليس هو السؤال الوحيد الذي يطرح نفسه ثم لا يجد الجواب عليه ...

هناك سؤال أكثر خطورة ، وأشد خطراً ... كيف استطاع أن يذهب إلى المكان الذي يريد ، في الوقت الذي يشاء ، من الأمكنة التي تضم أعظم الأمور العسكرية سرّية ، والتي هي محرمة على كل من ليس عسكرياً ، كما هي محرمة حتى على العسكريين من غير أصحاب الصلة والعلاقة المباشرة ... كيف كان ذلك ؟

الجيش كله انضباط ، وكله ارتباط ، وأبوابه مغلقة ومقفلة ، ومفاتيحها ليست بيد ضابط ولا رئيس واحد ، ولكنها في أيدي سلسلة متوالية من الضباط والرؤساء ، لا يمكن تخطي ضابط من ضوابط هذه السلسلة . والنظام صارم ، والأوامر نهائية ، لا تقبل المناقشة ولا الاجتهاد ، ولا التفسيرات المتعددة ... فكيف تسنى للجاسوس الاسرائيلي ، أن يتغلغل .. وأن يتغلغل بعيداً جداً ... إلى أعمق الأسرار ، والتحصينات ، والأسلحة ، والخرائط والمخططات ... كيف كان ذلك ؟

معزى زهر الدين ما هو إلا ضابط صغير ، وإن كان عمه قائد الجيش اللواء عبد الكريم زهر الدين ، والرائد أو العقيد سليم حاطوم ما هو إلا ضابط يوجد مثله مئات الضباط وفوقه عشرات من ذوي الرتب العالية ، وأبسط جندي في الحياة العسكرية يستطيع بمنتهى البساطة والعفوية أن يمنع أو يتحدى أكبر جنرال إذا هو حاول أن يخالف التعليمات أو يخترق النظام ... فكيف أمكن تخطي كل ذلك مرات .. ومرات .. ومرات ...

التصوير ممنوع في المناطق العسكرية ، ولكن كوهين أدخل أحد المصورين فالتقط صوراً « تذكارية » لضباط الخطوط الأمامية من رتبة نقيب ورائد وعقيد ... وكانوا مسرورين من حرصه على صورهم « التذكارية » .

الدخول إلى التحصينات في خطوط القتال محرم ، ولكن عضو القيادة القطرية – كوهين – لم يترك مكاناً من الأمكنة المحصنة إلا دخله وقضى منه وطره ...

محظور على الضباط أن يدلوا بأية معلومات عن أعمالهم وخططهم ومخططاتهم ، أو أن يطلعوا أحداً على المصورات التي لها علاقة بالتحصينات ولكنهم في زيارات عضو القيادة القطرية كانوا يتسابقون إلى الإدلاء بما عندهم من معلومات ، وما لديهم من بيانات ، وما في حوزتهم من مصورات وخطط ومخططات ... أليس هو مبعوث وممثل الحزب القائد ، والجيش أصبح جيشاً حزبياً عقائدياً ... ؟ ؟

محرم على أي كائن غير ذوي العلاقة المباشرة من العسكريين أن يدخل إلى مركز تموين السلاح في الهامة ، ولكن عضو لجنة الدفاع في الحزب – كوهين – استطاع أن يدخل ويطوف ويتفقد ويفتش جميع الأمكنة والساحات ويستعلم ويستجوب ، وأخيراً ... استطاع أن يتلقف الفرصة المؤاتية فيخرج من جيبه الكاميرا الالكترونية ويصور جميع الجداول

والخرائط والبيانات المعلقة على جدران غرفة ضابط القاعدة ، والتي يضم مجملها كل ما في المركز من أسلحة وأعتدة مع حركتها وتوزيعها ... الخ ... من المعلومات والبيانات التي لا تقدر بثمن ، على حد قول موظفي « الموساد » .

فهل هو الحظ .. ؟ أم هل هي المصادفة .. ؟ أم هل هي الشطارة والبراعة للجاسوس .. ؟ أم ليس شيء من هذا ولا من ذاك كله ... ! !

ولكن كيف .. ؟ كيف جرى هذا كله .. ؟ واستمر نيفاً وثلاث سنوات ، حتى جاءت المصادفة ، والمصادفة وحدها ، فكشفت المستور .

هل هو كوهين واحد .. ؟ أم عدد غير قليل من الكواهين في سورية ... ؟ ؟

هل الشعب السوري وحده ابتلي « بكوهين » أو « بكواهين » .. ؟؟ أم لكل بلد عربي « كوهينه » أو « كواهينه » ... ؟ ؟

يقول هذا الكتاب : إن إيلي كوهين قبل أن يكون جاسوساً في سورية كان جاسوساً في مصر ، وقام هناك بأدوار وأعمال لها ايضاً خطرها ولها خطورتها ، ولكنه كان حلقة صغيرة من سلسلة طويلة من الكواهين ، يؤلفون شبكات للتجسس والتخريب والتهريب ... وكانت إحدى مهماتها تنفيذ خطة لافون الشهيرة ... التي سيجد القاريء تفصيلها في صفحات هذا الكتاب .

ويقول هذا الكتاب : إن الميجر بنيت الجاسوس الاسرائيلي الذي كانت تشمل أعماله البلاد العربية وعدداً من البلاد الأجنبية ، أسس علاقات في مصر مع اللواء محمد نجيب واستطاع أن يحرز عطفه وثقته ، وبتردده على منزل اللواء نجيب اتصل بعدد من كبار الضباط المصريين ... ولكنه لم يكن مهاجراً عائداً من الارجنتين ، ولا تاجراً للتحف الشامية ، وإنما كان تاجراً يبيع أعضاء بشرية لمشوهي حرب فلسطين ... وإن حوافزه إنسانية ...

إن صفحات هذا الكتاب تكشف عن أن وجود إسرائيل في قلب العالم العربي يشكل في الواقع خطراً دائماً مستمراً أهم من احتلال الأراضي ، وأعظم من قنابل الطائرات ، وأفتك من حمم المدافع ، وأدهى وأمر من الغازات السامة والحرب الكيماوية . وإذا كانت الدول العربية تستعد لمجابهة ومقاومة الاحتلال الاسرائيلي ، واسترجاع الأراضي المحتلة ، وبالتالي إعادة الوطن الفلسطيني إلى أهله الأصليين والشرعيين ، باتخاذ أسباب القوة والتسلح بالأسلحة اللازمة لذلك ، وإذا كان تسلح الدول العربية يجري حثيثاً بنسب متفاوتة في القلة والكثرة يتعاظم مع الزمن ، فإن الجاسوسية الاسرائيلية ليس لها مثيل ولا مقابل في البلاد العربية متفرقة ومجتمعة يمكن أن تقارن معها بنسبة من النسب . وكل ما هنالك مؤسسات ومنظمات ضئيلة هزيلة تسير على أساليب بدائية تافهة ، تخطاها العلم ، وتجاوزها الزمن ، وهي مع ذلك — وقبل ذلك — تصرف من همها ومن الأقل الأصغر في مكافحة الجاسوسية ، وتكرس من عنايتها ومن نشاطها وفعاليتها الأعظم الأكبر للهموم والمشاغل الداخلية والمحلية والشخصية ، بغية المحافظة على الأنظمة المصطنعة في البلاد الثورية ، وبغية مقاومة الحركات والنزعات غير الثورية في البلاد الأخرى ... ولن يكون سراً يذاع ، ولا خبراً يشاع إذا قلنا — بعد الاطلاع على هذا الكتاب — للشعوب العربية في كل بقعة من بقاع العالم العربي ، في المشرق والمغرب : « فتشوا عن يد إسرائيل » وراء الأنظمة الثورية ، فتشوا عن يد إسرائيل وراء التحركات الثورية .. قبل أن « تفتشوا عن يد إسرائيل » وراء الاستعدادات للغزو والاحتلال أو التخريب والتهديم . إسرائيل تحاربنا من الداخل أولاً وقبل كل شيء ، حرباً مستورة غير منظورة ، حتى إذا استوفت هذه الحرب اسبابها ، واستنفدت أغراضها ، كان الاستيلاء والاحتلال بلا مقاومة وبلا معارك ، حتى أن بعض « الكواهين » ينادي بالصوت الداوي بوقوع الاحتلال ، قبل اقتراب العدو وقبل الاحتلال الفعلي « الشكلي » الأخير ... الذي يتم استكمالاً للاجراءات ...

من هنا يجب أن يبدأ العرب بداية صالحة « نظيفة » ...

ومن هنا مركز الانطلاق للشعوب العربية المغلوبة على أمرها ، المسلوبة إرادتها ، المحطمة معنوياتها ، المستولى على مقدراتها ، المتلاعب في مصائرها .

مصادرة الحريات – كل الحريات – هي القاسم المشترك في قائمة الإجراءات المصنوعة والموضوعة لكل نظام من الأنظمة الثورية في العالم العربي .. لم توضع هذه المصادرة في الرأس من كل قائمة من القوائم على سبيل المصادفة والاتفاق ، ولكن ليفرضوا على الشعوب الخضوع والخنوع والجهالة والعيش في الظلام ، حتى لا تعرف ماذا يجري في الخفاء ، وبين الكواليس والدهاليز ... ربع قرن مرت على العالم العربي ، وقعت خلالها أحداث كثيرة وكبيرة وخطيرة ، ولكن المواطن العربي فرض عليه أن يكون على جهل مطلق لا يعرف أسرارها وأسبابها ، محرم عليه اختراق سطحياتها ، فضلاً عن أن ينفذ إلى الأعماق لعله يرى ماذا يجري هنالك . محجور عليه بجدار سميك كيلا يرى الخلفيات وما تحجب وراءها من تحركات ، وشخصيات ، وفعاليات ، ولا يبصر إلا من خلال أشعة باهتة من نور يسربونه إليه بمقدار ، من خلال ثقوب صغيرة جداً ، وضيقة جداً ، لا تهتك حجب الظلام ولا تتيح له الرؤية الواضحة . تلك هي ثوريات الأقزام ، ودكتاتوريات الأشباح ، وقيادات المسوخ ، التي اختبأ وراءها كوهين ، والتي لا يزال يختبيء وراءها عدد لا يحصى من الكواهين ...

من هذا الكتاب يتبين القاريء أن إسرائيل تعرف عن دقائق ما يجري في كل قطر من الأقطار الثورية ، وعلى مختلف المستويات ، ما لا يتأتى لأي مواطن عربي أن يعرفه ، مهما كان بلده أو مركزه أو مستواه . لذلك راح الجميع يتخبطون في الظلام ، فلا هم يبصرون ولا هم يهتدون ، ولا هم على الطريق القويم يسيرون .

* * *

في هذا الكتاب الكثير من الوقائع الدقيقة الصحيحة ، وفيه وقائع مبالغ فيها ، كما فيه أخرى مكذوبة ، أو مشوهة عن عمد أو عن غير قصد ، ولكنها صيغت بقالب دعائي لا يخفى على فطنة أي قاريء. وقد ترجمناها كما وردت ليقيننا أن القاريء العربي لا تخفى ولا تنطلي عليه الدعايات الاسرائيلية الماكرة ، ولا يتأثر بها ، وإن من أهدافنا اطلاع المواطن العربي على أساليب الدعاية الصهيونية في النطاق العالمي ، وعلى وسائلها في اكتساب عطف العالم الخارجي البعيد . فلينظر القاريء مثلاً كيف يصور الكتاب المجتمع الدمشقي بكل ما فيه، وإلى جانبه الصورة التي يرسمها أمام العالم الخارجي للمجتمع الاسرائيلي ... ثم لينظر القاريء كيف يصور الكتاب منطقة الجولان ومناطق الحدود ونسبتها من الطرف الآخر إلى القرى والمستعمرات الاسرائيلية ، وأخيراً لينظر كيف يصور الكتاب حالة اليهود في الاسكندرية والقاهرة ودمشق وحلب في أعقاب حرب ١٩٤٨ وماله صلة بممتلكاتهم ، ولكنه لا يشير ولا بكلمة واحدة إلى مئات الآلاف من اللاجئين الفلسطينيين الذين يعيشون منذ ربع قرن تحت الخيام بعد أن شردتهم الغزوة الصهيونية البربرية التي لم يشهد تاريخ العالم لها مثيلاً .

ويقول الكتاب : « **إن انقلاب ٨ آذار كان نقطة تحول في مهمة إيلي كبعثي وكعميل ، وكان إشارة إلى بداية مهمته الحقيقية** » .

فما هي مهمة كوهين الحقيقية بعد ٨ آذار ؟

هل هي التجسس فقط ؟ هل هي نقل المعلومات والأسرار العسكرية عن التخطيط والتحصين والتسليح فقط ؟ هل هي إرسال التقارير السياسية عن أوضاع البلاد وإدارتها وسياستها وما يطبخ في مطابخ الدولة السرية من أمور وأمور ؟ هل هي في تقديم صورة دقيقة وواضحة وكاملة عن أوضاع البلاد الاقتصادية وفعالياتها التجارية والصناعية والزراعية وبيان طاقاتها وإمكاناتها المالية ، مفرغاً كل ذلك في جداول إحصائية ، ومخططات بيانية ، وأرقام تنطق بكل ذلك ؟

كلا ليست هذه هي بداية مهمة كوهين الحقيقية ...

بداية مهمة كوهين الحقيقية – يقول هذا الكتاب – في انتسابه إلى الحزب (الذي قال ضباط الموساد لكوهين خلال شهور تدريبه في تل أبيب إنه هو حزب المستقبل وإن قوة كافية تشكلت من أعضاء الحزب والمتعاطفين معهم من الضباط وإن انقلاباً وشيكاً سيرفع من حزب البعث الذي يستطيع أن يعمل كقوة توازن النفوذ الناصري في العالم العربي) ، وفي تأسيس علاقات واسعة مع عدد من قادته وفي ارتقائه إلى أعلى المستويات ، وفي نفوذه إلى مختلف أجهزة الدولة الرئيسية والحساسة ...

ومن مركز القوة ، ومن منطلق السلطة ، يستطيع أن يوحي ، وأن يوجه ، وأن يؤثر ، وأن يضغط ، لتنفيذ التعليمات التي يتلقاها على الدوام – وهو في كل يوم يعطي تل أبيب المعلومات ويتلقى التعليمات – مستغلاً أبرع استغلال علاقاته وصلاته الشخصية والحزبية بكل من رئيس الدولة أمين الحافظ ، ورئيس الحزب ميشيل عفلق ، ورئيس الوزارة صلاح البيطار ، وسليم حاطوم حارس الدولة الأمين (هؤلاء فقط الذين عدّدهم الكتاب) وعشرات العشرات غيرهم من الرئاسات والقيادات الأخرى التي امتنع الكتاب عامداً متعمداً عن ذكر واحد منهم لأسباب لا يعرفها إلا رجال المخابرات الاسرائيلية ، كما امتنع كوهين عن ذلك في جميع أطوار التحقيق والمحاكمة . وهذه هي بداية مهمة كوهين الحقيقية .

مثل صغير ، وبسيط ، في حجمه وفي موضوعه ، ولكنه كبير وخطير في دلالاته ومغازيه ، أورده الكتاب في بضع سطور من صفحاته الـ ٤٢٦ ، ولكنه لم يورده قطعاً – للدلالة على المدى المذهل الذي بلغه كوهين من السلطة والنفوذ والتأثير في دولة الثوريين ... يقول الكتاب : إن كوهين عثر في دمشق بمعاونة ماجد شيخ الأرض ، على ضابط ألماني اسمه رادماشر ، تعتبره إسرائيل من مجرمي الحرب ، وهو يشغل وظيفة حكومية بالتعاقد ، وبعد امتناع وتحفظ من تل أبيب حصل

كوهين على الموافقة بالتخلص من هذا الألماني . فأرسل اليه أولاً رسالة متفجرة ، ولكنها لم تقتله بل أصابته إصابات طفيفة خرج بعدها بأيام من المستشفى . وما يكاد يمضي بعض الوقت حتى تلقي الحكومة السورية القبض عليه وتزجه بالسجن وتتهمه بالجاسوسية (الذي وجه التهمة إلى الألماني هي الحكومة السورية لا كوهين) ولكنه بنتيجة المحاكمة تبرأ فأطلق سراحه ، ولكن الحكومة السورية – لا كوهين – لم تعده إلى وظيفته ، وأخرج من البلاد . إلا أن الطائرة التي أقلته من سورية لم توصله إلى البلد الذي كان يقصده ، ولكنها غيرت اتجاهها فأوصلته إلى نورمبرغ ، حيث حوكم وحكم ... فهل هناك شك في أن يد كوهين وراء كل خطوة وكل إجراء اتخذ تجاه هذا الألماني ؟ إن كوهين لم يكن الحاكم المطلق الذي يفعل ما يريد ... ولكن مهمته ابتدأت – فقط – حين أصبح يستطيع أن يفعل مثل هذا العمل ... البسيط .

يقول بعض السوريين ، وغيرهم من أبناء الأقطار العربية الأخرى ، في معرض تألمهم وتفجعهم لما وصلت اليه الحالة المتدهورة في سورية : لو أن إسرائيل أتيح لها العمل مباشرة على تهديم سورية في شتى الميادين لما فعلت أكثر مما فعله حزب البعث ... إنهم يقولون ذلك بعفويتهم ، وانسياقاً مع عاطفتهم ولأنهم لا يعرفون متى ، وكيف ؟ ابتدأت مهمة كوهين الحقيقية ... ولو عرفوا ذلك لما خامرهم الشك قط في أن الذين يخربون بالفعل ويهدمون بالواقع ، هم « الكواهين » لا غيرهم من خلال الحزب القائد ... إنه النظام الدكتاتوري ، والحكم العسكري ، الذي يتيح في كل زمان ومكان للأفاقين والمجهولين أن يقفزوا برشاقة وسرعة ويتسللوا إلى أعلى الهرم ليلعبوا أدوارهم ، ويقضوا أوطارهم ، وينفذوا ما يريدون أو ما يريده غيرهم منهم ، ثم يسقطون ويتلاشون بنفس الخفة والسرعة والبساطة ... ما أكثر القصص والروايات التي تروى عن هؤلاء الأفاقين الذين تدفع بهم الانقلابات الثورية والدكتاتوريات العسكرية إلى القمة ، في عدد كثير من بلاد الدنيا وفي أزمنة مختلفة ومتفاوتة ، ولكن من النادر جداً أن تتيح فرصة لواحد من هؤلاء الأفاقين أن يصل إلى ما وصل اليه كوهين

في الظروف العادية الطبيعية ، أو في ظل الديموقراطية والحرية ... فالحرية هي الأنوار القوية الكاشفة تسلط على جميع الناس وفي كل الأمكنة ، إنها الألسنة تنطق بالسر وتصرخ في العلن ، بين الآحاد وبين الجماعات وفي جميع المستويات ... حرية التحرك .. حرية الفكر .. حرية القول .. حرية النشر .. أقوى رقيب وأعتا حسيب ، ترتجف أمامها فرائص أقوى الأقوياء ، ويتهيبها العقلاء قبل المغامرين ..

إن هذا الأفاق المجهول كامل أمين ثابت – كوهين – ما كان إلا المنفذ فقط ، وكان من ورائه عدد غير قليل من العقول الذكية المسلحة بالعلم والفهم والكفاءة والمران الطويل ، قابعة في المركز الرئيسي للمخابرات الاسرائيلية ، تقرأ وتدرس وتفكر وتخطط ، وتدفع بحصيلة كل ذلك إلى كوهين بصيغة تعليمات يستعمل هو ايضاً ذكاءه في طرق تطبيقها ، بواسطة : الرفاق ، والأصدقاء ، والمحبين ، والمعجبين به أو الطامعين في ماله ، أو المتزاحمين في الدخول إلى بيته لينالوا قسطهم من المطاعم والمغانم مما هيأه لهم من أنواع البذخ والترف واللهو والمتعة والفسق والفجور ، ومما هو مشروح شرحاً كافياً وافياً في صفحات مترعة بالخزي والفضيحة والعار .

حتى إذا كشفت المصادفة وحدها أمر كوهين ، وهوى ، لم يهو معه أحد من شركائه وأعوانه في لعبته ، سواء في ذلك القليلون الذين افتضحوا ، أو الكثيرون الذين ظلوا مستورين تحت رحمة كوهين ومن وراءه ، وكان الذي انكشف من أسرار كوهين ورفاقه وأصدقائه وزبائنه النذر اليسير ، كما كان الذي ظل مخفياً ومستوراً الكثير الكثير ... وقامت حرب شرسة ضارية امتدت عدداً من الأسابيع ، وقبل أن تسيل في هذه الحرب الدماء وتسقط الضحايا ، استطاعت الأيدي التي كانت تحرك كوهين أن تقيم حاجزاً بين المتحاربين ، وتعقد هدنة مؤقتة بينهم ... كان المتحاربون فريقين : فريق كان رفيقاً وصديقاً وزبوناً لكوهين ، وهؤلاء كانوا يقاتلون ويناضلون لإعدام كوهين بالسرعة الخاطفة ليدفنوا معه في القبر

أسراره التي هي أسرارهم ، وفضائحه التي هي فضائحهم ، وكانوا لا يهدأ لهم بال ولا يقر لهم قرار ، ما دام كوهين على قيد الحياة .. والفريق الآخر كان جميع أولئك الذين صعقتهم قصة كوهين ولا ناقة لهم فيها ولا جمل ، ولكن زكمت أنوفهم روائحها النتنة ، وهؤلاء كانوا يقاتلون ويناضلون للابقاء على حياة كوهين بأي ثمن ، لاستجلاء جميع الأسرار المدفونة في صدره ، بكل الوسائل والذرائع ، مهما طال الزمن ، وامتدت الأيام ... وكان الفريق الأول يهلل ويصفق ويهتف مع الدهماء والجماهير بالصوت الغاضب الراعد : الموت لكامل أمين ثابت الخائن ، الموت للجاسوس الاسرائيلي كوهين ... وكانت كلما هدأت أصوات الجماهير أو خفت ، أثارتها وهيجتها أصوات زمرة الفريق الأول ليعلو صوتها على كل الأصوات ، وكانت هذه الجماهير المتحمسة الغاضبة والهادرة بكل حمية وصدق وإخلاص تتألف من جماهير العمال والفلاحين وسائر الطبقات الكادحة ، كما تتألف من الجنود وصف الضباط ، والضباط ، على اختلاف رتبهم ومراتبهم ... وكانت الغلبة للفريق الأول، للأصوات الجماهيرية الهادرة ...

وإمعاناً في الحيطة والحذر ، كان التحقيق يجري بعناية ورعاية أصحاب العنايات والرعايات ، كيلا تكون الا « س » ولا يكون الا « ج » أقصر أو أطول من المقياس الذي تم تقنينه وتعيينه . ثم انتهى التحقيق وجاء بعده دور المحكمة ، ولم يكن للمصادفة أي شأن في جعل صلاح الضللي رئيساً للمحكمة ولا في تعيين سليم حاطوم عضواً فيها ... (سيعرف القارىء من صفحات الكتاب من هما وما دورهما مع كوهين) ثم جرت المحاكمة ، وأعدم كوهين ، ورافقه من رافقه إلى المقبرة ، ليشارك في إهالة التراب على المقبور وما معه ، وليتأكد أنه لن يخرج شيء من هذا القبر أبداً ...

ولئن أعدم كوهين ، وسقط من سقط وبقي من بقي من رفاقه وأصدقائه وزبائنه ، فإن الجاسوسية الاسرائيلية لم تتوقف يوماً واحداً عن المضي في خط سيرها المرسوم . ومما لا شك فيه أن عدداً غير قليل من

الجواسيس ، ومن يتخذونهم من أصدقاء ورفقاء وزبائن ، سيظلـون يعملون بما يستطيعون من فعالية ونشاط ، لا في دمشق وسورية وحدها ، بل في جميع البلاد العربية ، بسهولة ويسر وارتياح ، إلى أن تقوم في كل بلد من البلاد العربية أجهزة مثيلة ومضادة ، مؤسسة على العلم والفهـم والكفاءة والذكاء والدرس والتخطيط مع الصدق والاخلاص والأخلاق والاستقامة ، عندئذ يمكن شل أجهزة التجسس الاسرائيلية وغيرها ، والتخفيف من أضرارها وشرورها .. متى وقر في نفوس الحكام أن هذه الأجهزة لم تنشأ ، (ولا من مهامها الأساسية أو الفرعية) ، لتكون حرباً على المواطنين ، وأداة في يد الحكام يستخدمونها في مآربهم وأطماعهم وشهواتهم ، أو تدعيم نفوذهم وتوطيد سلطانهم .

ولو ان بلداً فيه شعب يحترم نفسه ، وحكام لديهم من النخوة مـا يصونون به سمعة وطنهم ، ثم ظهر بينهم ما ظهر من أمر كوهين والضالعين معه ، لطارت رؤوس ، وامتلأت سجون ، وسالت دماء .. أما في دمشق فلم تسقط شعرة من رأس ، ولا تزحزح كرسي من مكان ، لأن الجميع مشغولون في انصرافهم إلى الصراخ .. وحدة حرية اشتراكية ...

وليس لأحد وقت يقضيه بغير الهتاف : أمة عربية واحدة . ذات رسالة خالدة . دون أن يكلّف واحد من هؤلاء نفسه عناء التساؤل :

ماذا صنعنا بالأمة العربية الواحدة ... ؟

وإلى أين انتهينا بالرسالة الخالدة ... ؟

غسان نوفل



شكر وتقدير

الذين ندين لهم بالشكر والتقدير كثيرون بحيث يستحيل ان نأتي على ذكرهم جميعاً . غير اننا نعترف بأفضل الجميل لكاتبتنا باتريشا بريحوت سليمان **Patricia Brehaut soliman** التي نشكرها علـى ارشاداتهـا ، ونصائحها التي لا تقدر بثمن ، وصبرها الذي بلغ مرتبة القداسة . وقد اولت عناية خاصة لتحيط بما نهدف اليه من خلال هذا الكتاب ، وتفضلت بمساعدتنا في هذا المخطوط وفي تقديم كل الانتقادات المفيدة . وعلينا ان نعترف بدين يثقل اعناقنا لزملائنا : الصحفي جاك لاكوست **Jacques Lacoste** ، ولاري او دونيل **Larry O, Donnell** ، وميغل انجل الفاريز رويغ **Miguel Angel Alvarez Roig** ، الذين ساعدونا على متابعة تحرياتنا في بيروت ودمشق وبونوس ايرس ، والذين ما كان لهذا الكتاب ان يفي بالمطلوب بدونهم . كما يسرنا ان نعرب عن شكرنا للدكتور برونو بيترمان **Bruno Piterman** وجان ج دفنبيكر **John G. Diefenbaker** وم . ب موريس اورباش **MP. Maurice Orbach** وم . ك موشى سنيح **M K. Mochesneh** لاجابتهم على استيضاحاتنـا الواسعة . ونقـر كذلك بفضل المساعدة الكريمة التي قدمتها لنا السيدة هوسمانز **Mrs. Huysmans** لأنها سمحت لنا ، بالاستفادة من الوثائق الخاصة بالمرحوم زوجها وزير الدولة البلجيكي السابق كامي هوسمانزو **Kamille Huysmans** الذي تدخل لمصلحة ايلي كوهين. ونشكر الدكتور ستروثمان **Dr. Strothmann** من وزارة الخارجية لألمانيا الغربية ، كما نشكر م . ب اوجين سلبمان **MB Eugen Selbmann** ونخص بالذكر وكيل الدولـة لورانز روب **Lorenz Rupp** لمساعدتهم التي لا تقدر بثمن .

ونقدم شكرنا الخاص لنقيب المحامـين بول اريغي **Paul Arrighi**

والأساتذة جان تالانديـــه Jean Talandier وادريان ولترز Adrian Wolters الذين لولاهم لم نكن قادرين على المضي بمشروعنا هذا . كما نشكر مراد سماخ Murad Semach وباروخ ساش Baruch Sachs وباروخ مزراحي Baruch Mizrachi وشلومو كوهـــين سيدون Shlomo Cohen Sidon على نصائحهم المفيدة. ولم نكن في غنى عن المعلومات التي قدمها الينا روجيه بولدوين Roger Baldwin وسين ماكبرايد Sean Macbride وفيكتور فيذر Victor Feather واوجين ديكامب Eugène Descamps كما نقدر بصورة خاصة العون الذي قدمه الينا الدكتور اوسكار كارباش Oskar Karbach والسيدة ايلامايير Mrs. Ellamaer من المؤتمر اليهودي العالمي .

ويسرنا ان نقدم شكرنا الخاص الى السيد رسل نيفنز Russel Nevins على ارشاداته الخاصة بالتحرير فقد ساهم بالعمل في هذا الكتاب منذ بدايته تقريباً مقدماً اقتراحاته التي لا تقدر بثمن ، ونتقدم بشكرنا كذلك الى اندريافا ايفانز Andriawa Evans التي انقطعت لتحرير هذا الكتـــاب على الآلة الكاتبة كعمل اضافي .

وأخيراً ، لا آخراً ، نشكر السيد بيل كوهين Bill Cohen على صبره وجهده ومساندته في مرحلة الكتابـــة وليونارد شيرر Leonard Shearer على النصائح المفيدة التي قدمها الينا .

لجميع هؤلاء ، ولآخرين يجب ان تظل اسماؤهم مجهولة لاسباب واضحة نعرب عن اخلص امتناننا .

الكتاب الاول

الاعتقـــال



الغـــارة

في فجر احد ممطر ٢٤ كانون الثاني ١٩٦٥ كانت شوارع دمشق خالية ، وكان يخيم الصمت على ابو رمانة حي المترفين من سكان دمشق الذي يتسلق جبل قاسيون من الشمال . وكانت مصابيح الشوارع تبدو من خلال الضباب وكأنها هالات من نور . ولم يكن يشاهد سوى زمرة من الكلاب تسللت الى المدينة من واحة الغوطة لتجوب الحي باحثة عن الطعام في اكوام الفضلات التي تكدست في الأزقة .

وكان المقر العام لرئاسة اركان الجيش في شارع ابو رمانة هادئاً على غير عادته ، والعلم السوري المثلث الألوان بللته مياه الأمطار فراح يعوم باسترخاء فوق المبنى الرئيسي . والحراس قبعوا في بيوتهم الخشبية ليحموا انفسهم من رياح الغرب الباردة التي كانت تهب عليهم من لبنان . وقوات الأمن المكلفة بمراقبة الممر الضيق وراء الاسلاك الشائكة التجأت الى داخل منزل الحراسة . اما الدبابات التي تجمدت عند المدخل فقد كانت تعكس اجواء ساحة قتال ، بدا كل شيء فيها مقفراً وكئيباً تحت تلك الأنوار الدافئة التي كانت تجلو الساحة كلها .

ولم ينطفيء النور من صليب الكنيسة الأمريكية حتى حطم الصمت موكب صغير من السيارات العسكرية المرقشة بلون الزيتون وسيارات صغيرة عليها ساريات دهنت بلون الصحراء ، كانت تقترب من الأبواب داخل الساحة المسيجة . وكان في المقدمة سيارة لا يميزها عن السيارات الأخرى سوى علمين صغيرين احكم تثبيتهما في مقدمتها فتوقفت عند نقطة التدقيق الخارجية . وهنا اسرع حارس من علبة الحراسة ليتفرس في الضابطين الجالسين في المقعد الخلفي ، وبعد ان تبين الهندام الأنيق لرئيس المخابرات العسكرية اسرع لرفع الحاجز امام رتل السيارات المتقدمة .

وكانت تبدو على العقيد احمد سويداني — رئيس المكتب الثاني السوري — امارات القلق بينما كان يتحدث بنعومة ولكن بسرعة الى مرؤوسه قائد قوى الأمن الداخلي المقدم عزيز معروف . وكان هذا قصير القامة مكتنز الجسم تعلو جبهته مقدمة كثيفة من الشعر الأسود ، له عينان سوداوان وحاجبان كثيفان كأنهما الى حد ما قد رسما باليد . وكان يصغي باهتمام كبير الى رئيسه الذي كان يصف بعناية المصاعب التي تعترض احدى العمليات القادمة . ولكنه عندما استمع الى كلمات المديح التي تناولت دقته وكفاءته بالنسبة للمرحلة التحضيرية كانت معالم وجهه تحاول عبثاً اخفاء زهوه واعجابه بنفسه ، وهنا قطع العقيد سويداني خطابه فجأة ليجيب على تحية الحارس ثم ليلوح للسائق بصورة عفوية ليتابع سيره .

ونزلت القافلة من شارع ابو رمانة في اتجاه البرلمان . وكان في زوايا الطرقات جنود مراقبة ينتعلون احذية ثقيلة ويرتدون معاطف طويلة ، وهم يستندون باسترخاء الى بنادقهم دون ان يغير من اوضاعهم مرور الجنود المفاجيء امامهم . ولم يهبوا فزعين الا عندما وقفت القافلة على بعد مئات الياردات من قصر الضيافة ، حيث قفزت من السيارات حامية من شعبة مقاومة التجسس تحمل رشاشات صغيرة وعدداً من الأشخاص بملابس عادية لا يحملون سلاحاً ظاهراً ، وتجمع هؤلاء على الرصيف حول ضابط صغير السن برتبة رائد اسمه عدنان دوارة رئيس الادارة الفلسطينية في مصلحة الأمن الداخلي (١) ، حيث راحت تستمع الى تعليمات اللحظة الأخيرة . ثم تحرك هذا الضابط نحو مجموعة من الضباط المسلحين تسليحاً ثقيلاً ، وكانوا يشرفون على قوات مختارة كانت تنتظر بفارغ الصبر في السيارات التي التجأت الى زوايا الشوارع الفرعية بعد ان صدرت الأوامر باقامة المتاريس على الطرق حول ساحة الأركان العامة ، واوفدت الدوريات الى المنطقة المجاورة لتحرس الممرات بين نهري يزيد وتورا .

---

(١) ورد اسم الرائد رئيس الادارة الفلسطينية في مصلحة الامن الداخلي في مواضع كثيرة من الكتاب بشكلين مختلفين ، فتارة يكتبه المؤلف Adnan Tawara و تارة يكتبه Adam Tawara فآثرنا نقله الى العربية على انه : الرائد عدنان دوارة . (المعرب)

وفي دقائق معدودات احاطت كتيبة من الشرطة العسكرية تدعمها زمرة من الفدائيين كانت تخفي دلائل الارهاق البادية على وجوه افرادها بثماني عمارات في تلك المنطقة . ثم انتدب دوارة بعد ذلك وحدة أخرى لتقطع الطرق الرئيسية وتوقف حركة المرور ، وتمنع القاطرات والباصات من التوقف عند مواقفها المعتادة ولتبعد المبكرين عن المواقع المجاورة .

وبينما كان الجنود يحتلون مواقعهم تابع الرائد بسيارته الجيب سيارة الليموزين التي كان فيها العقيد سويداني حيث توقفت بعد ان اطفأت انوارها عند حاجز الطريق . وهنا تقدم دوارة بتقريره وتبادل الرجلان كلمات مختصرة ، غير ان حديثهما كان يقطعه سيل من رسائل الراديو التي كانت تتدفق على جهاز الالتقاط الذي احكم وضعه في المقعد الخلفي من السيارة ، وبعد الاجابة على سيل من الاسئلة من الآمرين الذين كانوا يطلبون ايضاحات تتعلق بتحركات الجنود . تقدم الرجلان لالقاء نظرة استراتيجية اخيرة .

وعندما استقرت كل الوحدات في مواقعها اطاحت نسمة باردة بما تبقى من الضباب . وربحت المصابيح الكهربائية اخيراً معركتها ضد الظلام . وتوقفت كل حركة باستثناء بعض الأصوات الخاصة التي كانت تصل الى تلك المنطقة من حي الأكراد القريب : وهي أصوات نهيق حمار او عواء كلاب جائعة .

كانت الساعة السادسة والدقيقة ٢٤ صباحاً عندما غادرت قاطرات عربات الشحن محطة الحجاز في طريقها الى بيروت وهي تنفث دخانها المتقطع وترسل صفيرها الحاد . اما اصوات الديكة ، وهي ايذان بانبثاق الفجر ، فقد كان صداها يختلط مع كورس الأصوات المنبعثة من المدينة القديمة ، أصوات حاملي الشربات وهم ينادون المبكرين لارواء عطشهم ، وكانت هذه الأصداء تتردد من جهة القلعة . واشتد ضجيج حركة النقل كما ان رائحة البنزين الرخيص كانت تتغلب على روائح الياسمين الصباحية .

وعندما انقشعت الغبشة امام انبلاج الصبح ، التمس دوارة الاذن من رئيسه بمباشرة العملية ، غير ان سويداني فضل الانتظار فترة اطول

مشيراً الى اهمية الاغارة على المنزل رقم ٨ في الطابق الرابع من البناية الحجرية البيضاء عند الدقيقة الخامسة بعد الساعة السابعة بالضبط . وفي تلك اللحظة انطلق صوت مؤذن يدعو المواطنين الى الصلاة من ميكروفون ثبت في احدى المآذن القريبة ، وكانت كلمات الله اكبر ، اشهد ان لا اله الا الله ، تتصاعد بنغمات طويلة وحزينة لترتعش وتتلاشى مع الأصوات الأخرى . وكانت تتجاوب معها اصداء بعيدة ترسل نغماتها من مئات المآذن المنتشرة في مختلف انحاء المدينة .

نظر سويداني الى ساعته فكانت تؤشر على الساعة السابعة الا ربعاً . وتبادل الضابطان حديثاً خافتاً ثم اصدر العقيد امره لرجاله بالانطلاق . وانتشرت فرقة من رجال التحري ومن شعبة مقاومة التجسس ، وراحت تهبط ببطء وبترتيب مزدوج شارع الشهبندر الذي يقع في مواجهة رئاسة الأركان العامة وفي مكان غير بعيد عن منزل رئيس الجمهورية الفريق امين الحافظ . وعندما اقتربوا من المنزل صدرت اشارة من احد رجال التحري بأن كل شيء كان هادئاً . وهنا وزع دوارة رجاله بدقة فاختبأ عدد منهم وراء الأشجار المصفوفة على طرفي الشارع كما اختبأ آخرون في مداخل البيوت او في الجيوب التي تظللها الدور ، وهكذا امكنت تغطية مدخل البناية وساحتها وزواياها الأربعة ، اما الباقون فقد اتخذوا اماكنهم على بعد مئات الياردات ليكونوا على استعداد للاغارة على الدار باشارة من الرائد دوارة .

وفيما عدا السويداني فقد كان الذين اطلعوا مسبقاً على هذه العملية: الرائد دوارة وعدد من الضباط المختارين من مصلحة مكافحة التجسس ، من بينهم العميد مزيد الهندي رئيس مصالح الأمن الداخلي والقائد المكلف بالشرطة العسكرية والقادة الآخرون في شعبة المخابرات ، ذلك لأن توقيف احد قادة البعث الرسميين الذين لهم مركزهم في الحكومة السورية كان أبعد من حدود طاقة السويداني . وقد لعبت الصدفة وحدها دورها عندما اكتشفت شعبة مكافحة التجسس التابعة للسويداني ان الرجل الذي يعتبر ولاؤه لسورية فوق كل الشبهات كان يعمل من الداخل على تقويض

أمن البلاد . غير أن هناك شيئاً واحداً لم تستطع هذه الشعبة تحديده وهو الهوية الحقيقية لهذا الشخص والبلد الذي يشتغل لحسابه . وقد اقتضى الاكتشاف غير المتوقع تحريات معقدة ومتعبة قبل العثور على معلومات وثيقة ، ولكن كانت هناك ايضاً مفاتيح ذات ألغاز مغلقة . أما الحقيقة التي لا يشوبها اي شك فهي أن الشبهة تنحصر في المنزل الذي يشغله **كامل امين ثابت** الأعزب الجميل الذي يبلغ التاسعة والثلاثين من العمر ، ويمتلك مكتباً مزدهراً للتصدير والاستيراد ، يتعاطى بصورة خاصة تجارة التحف والمصنوعات الدمشقية . أما المعلومات العامة فتقول إنه ولد في لبنان من أبوين سوريين وإنه هاجر أولاً إلى مصر ثم الى الأرجنتين ووصل الى بونس ايرس في كانون الأول ١٩٦٢ حيث أصبح بسرعة عضواً في مجتمع الدمشقيين الراقي لتلك المدينة ، بحيث جذب اليه الكثيرين من ذلك المجتمع ، ولكن على الرغم من انتصاراته على الصعيد الاجتماعي فقد كان ثابت يتخطى بلباقة شباك الأمهات ذوات النيات المبيتة وكذلك بناتهن المرشحات للزواج .

وانتسب ثابت كماركسي ملتزم ووطني غيور لحزب البعث العربي الاشتراكي قبل ان يصل هذا الحزب الى السلطة عام ١٩٦٣ ، وكجميع رواد هذا الحزب خضع ثابت للفحوص اللازمة للتأكد من ولائه ، ولم يثر ماضيه سوى القليل من الاهتمام لدى المكتب الثاني ، وأدت التحريات التي جرت بعدئذ في مقر قيادة حزب البعث الى ازاحة النقاب عن انه في السنتين الأخيرتين استطاع ان يقيم صداقة متينة مع عدد من الضباط ذوي الرتب العالية ومع شخصيات حكومية هامة كان بينها ميشيل عفلق الأمين العام لحزب البعث وصلاح البيطار رئيس وزراء سابق وامين الحافظ رئيس الجمهورية ، ولم يكن لدى اي من هؤلاء سبب يحمله على التساؤل عن أسباب تكريس الرجل نفسه للاشتراكية العربية . **وكان ثابت عضواً عاملاً في مجلس القيادة القطرية** باقتراح من أمين الحافظ . عين في لجان الحزب التنفيذية **وكان قد قدم اسمه قبل اسبوعين من قبل اعضاء المجلس اي مجلس القيادة القطرية ليشغل منصب وزير للاعلام في الوزارة القادمة .**

وقد زار ثابت الحدود السورية الاسرائيلية المحظورة جداً مرات عديدة بصحبة شخصيات كبيرة سورية ومصرية ، كما علم السويداني ان عدداً من الضباط ذوي النفوذ في العصبة العسكرية لحزب البعث اقترحوا تعيين المهاجر الأرجنتيني نائباً لوزير الدفاع في الحكومة السورية وقد وضع ترشيحه للمناقشة في جدول الأعمال في اجتماع خاص عقده مجلس القيادة القطرية في اول ثلاثاء من شهر شباط .

وبعد ان اتى السويداني على هذه التقارير اصدر اوامره بمراقبة هاتف كامل امين ثابت كما وضع منزله تحت المراقبة الدائمة وكان المكتب يتابع مراقبته اربعاً وعشرين ساعة متتبعاً علاقاته مع كبار البعثيين ، حتى ان السويداني قال بعد ذلك : «منذ احضرت الي قائمة بالاسماء التي كان يعرفها اصبحت اشك في ان ثابت كان متورطاً في عمليات معادية لأمن البلاد ، واشار السويداني الى شخصية امتنع عن ذكر اسمها كانت معروفة بفعاليتها وتأثيرها على ارفع المستويات في دمشق ، وقال ان الدهشة قد تملكته عندما اطلع على اسم هذه الشخصية غير ان التحريات لم ترتكز على ثابت وحده اذ ان جميع من اتصل بهم درست اوضاعهم بدقة ، وقد قال السويداني : لقد تابعنا البحث والتحقيق عن جميع الأشخاص الذين كانوا يزورونه ولكن صادفتنا منذ المرحلة الأولى مصاعب يتصل بعضها بالدقة التي كان كامل امين ثابت يتصرف بها ، ولم تكن عنده خادمة بل كان يقوم هو على تنظيف بيته وغسل ثيابه ، كما كان يتفق مع بعض زواره على اشارات يعلنون فيها عن قدومهم ، ولم يكن يفتح الباب الا بعد سلسلة من رنات متفق عليها (١)» .

ومع ذلك فان هذه الخطوات المتعثرة كانت تلقى نصيبها من النجاح اذ ان مكتب مكافحة التجسس استطاع ان يجمع بسرعة ملفاً كثيفاً ومفهوماً عن اتصالات كامل امين ثابت ، وقد اوقف بهدوء اولئك

---

(١) ورد ذلك في حديث ادلى به العقيد احمد سويداني الى جريدة الاسبوع العربي الصادرة في بيروت بتاريخ ١٩ ايار ٩٦٥ .

الذين امعنوا في هذه الاتصالات بأمل ان يقدموا بعض المعلومات المفيدة عن نشاطاته . ولما كانت التوقيفات الاعتباطية في الحزب مألوفة فليس من المتوقع ان يثير اختفاء بعض الأصدقاء الريب او الشكوك عند كامل امين ثابت . ومع ذلك فان ساعات طويلة من الاستجوابات لم تستطع ان تمكن المكتب من العثور على اية معلومات تؤدي لاكتشاف هوية ثابت الحقيقية .

وفي يوم الجمعة ٢٢ كانون الثاني التقى السويداني ومعروف ودوارة في اول مذاكرة لمناقشة العملية ، وفي هذا الاجتماع حث ضباط مكافحة التجسس على توقيف كل عمل متسرع لمدة ثمان واربعين ساعة فقط يتمكن فيها الضباط من الحصول على معلومات اوسع عن اتصالات كامل امين ثابت ، غير ان السويداني كان في جانب التحرك الفوري محتجاً بأن غارة مفاجئة قد تمكنهم من العثور على ادلة تكشف عن هوية ثابت وموطنه الاصلي . وفي اللقاء الثاني يوم السبت اتفق الثلاثة على تمديد المراقبة يومين آخرين . وعلى هذا فقد تنكر فريق من رجال التحري في زي عمال الطرق كما ان فريقاً آخر كان يلاحق الزوار ، وفريق ثالث كان جاهزاً لالقاء القبض على ثابت نفسه . وقد التمس السويداني الموافقة على هذه الخطة من وزير الدفاع ممدوح جابر الذي رفضها بكل بساطة قائلاً ان الاجراءات المعقدة لن تنتهي الى شيء ، ثم اصدر الوزير امره باعتقال ثابت على الفور (١) .

وقد قام الرائد دوارة الذي كلف بتنظيم الغارة بعملية تنسيق دقيقة عن طريق الاتصال بالشرطتين العسكرية والمدنية وحدد موعداً لها في اليوم التالي ، وقال السويداني لمجلة الاسبوع العربي بتاريخ ١٩ ايار ٩٦٥ : «حددنا ساعة الاغارة على المنزل وهي السابعة صباحاً بقصد العثور عليه في فراشه لأننا كنا نريد منعه من الدفاع عن نفسه او الانتحار مرمياً من الطابق

---

(١) من حديث ادلى به جاك لاكوست في دمشق بتاريخ ١٢ أيار وحديث ادلى به الرائد عدنان

الرابع ، وعهدنا الى ثلاثة باقتحام غرفته بينما كلف رابع بالسيطرة عليه في فراشه . وقد تضمنت التعليمات التي وزعت على الذين كلفوا بهذه العملية بعض الفنون التمثيلية الخاصة بهوليود منها ان المهاجمين اذا عجزوا عن كسر الأقفال فعليهم ان يقذفوا الباب باجسامهم او ان ينسفوا مفصلاته برشاشاتهم .

وعند الساعة السابعة ودقيقتين تحركت الحامية المختلطة التي يقودها سويداني ودوارة الى نقطة اقرب من بناء الشقة المشار اليها ، وعند الدقيقة الرابعة كر الجنود على المنزل من جميع النقاط . وباشارة من الرائد دوارة فتح احد الضباط الباب مثيراً الذعر في نفس رجل كبير السن كان يرتدي البيجاما واقفاً في الردهة وبيده مصباح صغير ، وهنا هرع احد الجيران من سكان الطابق الأول ليتبين اسباب الأصوات الغريبة غير ان المغيرين لم يتيحوا له فرصة فضوله ، ذلك ان قبضة كبيرة سدت فمه بينما اندفع خمسة من المسلحين بالبنادق الرشاشة نحو السلم في اتجاه الطابق الرابع .

ولم يكن يلزم احد رجال التحري سوى لحظة واحدة ليتغلب على الباب حيث تجاوزه الآخرون مندفعين الى داخل الشقة ، فدفعوا باب غرفة النوم فاذا بثابت ينظر اليهم وكأنه لا يصدق عينيه ، وكان يجلس الى جهاز ارسال صغير لا تزال انواره مشعة ، واما يده فقد كانت على مفتاح الجهاز المرسل . وكان ثابت قد بدأ بالارسال قبل ساعة في ذلك الصباح كما كان لا يقل انفعالاً عن السويداني الذي قال فيما بعد : « لقد ادهشنا ثابت لأنه كان مستيقظاً وكان في انتظار رسالة » ولم يحاول ثابت وهو في حالة الذهول ان يمد يده الى المسدس الذي كان مطروحاً على المائدة الليلية ، ولكنه بدلاً من ذلك تناول زجاجة من الأسيد كانت قريبة منه وافرغها فوق الشفرة وارقامها الرمزية . وكان رد فعله التالي ان يحتج باشمئزاز على هذا التدخل المسلح وان يصر على انه مهاجر عربي من الأرجنتين مولع بتشغيل جهاز راديو على الموجة القصيرة . غير ان رجلا كان يرتدي لباساً مدنياً لوى ذراع ثابت الى الخلف دون ان يظهر اي استعداد للممانعة اذ كان مسدسه موجهاً الى رقبة المشبوه من الخلف ، كما ان اصبعه على

الزناد كان يشتد ، ولم يقاوم ثابت وانما كان هادئاً تماماً عندما جرى توقيفه .

وقد استطاع احد رجال التحري الذين وصلوا بعد ذلك ان ينقذ بعض الوثائق من محلول الأسيد بماسورة مسدسه ، وهكذا كوفىء التوقيت الذي حدده دوارة والسويداني ، فقد كان بين الوثائق ورقة كتب عليها ثابت رسالة بالشيفرة انتهى من ارسالها في لحظة اعتقاله ، وكانت آخر كلمات هذه الرسالة « وسأوافيكم بمعلومات اضافية تتعلق ... » ووجدوا داخل اسطوانة معدنية مفتوحة على الأرض صفائح تحتوي على رسائل مكتوبة بلغة واضحة حول التغييرات الكبرى المرتقبة في حزب البعث ، وهي الرسائل التي لم يتح الوقت الكافي لثابت لتحويلها الى شيفرة .

وقام ضباط شعبة مكافحة التجسس بتحري غرف الشقة الثماني حيث جرى تفتيش كل زاوية منها بدقة ، كما رفعت احجار البلاط من الأرض وكسرت الجدران ومزق الأثاث . وفي الحمام وجد مختبر للتصوير كما وجد في ارض المطبخ جهاز ارسال آخر ، ولوحان من صابون ياردلي مملوءان بالبلاستيك ولفات عديدة من الأفلام المصغرة ، ومراسلات كثيرة مع بيوتات تجارية سويسرية وبلجيكية والمانية . وعندما سئل عن المتفجرات انكر ثابت انها كانت ستستخدم في اعمال التخريب ، وزعم انه كان يريد ان يحطم بها جهازي الارسال . وقال السويداني بعد ذلك ان دهشته بلغت ذروتها عندما اكتشف موظفوه جهاز تصوير سينمائي مجهز بأفلام ذات الأشعة دون الحمراء ، وجهاز تسجيل داخل الجدار في غرفة الضيوف الخضراء وفقاً لأفضل تقاليد التجسس الألماني (١) .

---

(١) في نهاية القرن الماضي اقام وليم شتايبر مدير شرطة القيصر وليم الأول « منزلا اخضر » في برلين حيث كان يستقبل كثيرين ممن عندهم اسرار الدولة لتأمين حاجاتهم الجنسية، وقد اتخذت في هذه الدار الترتيبات لممارسة كل ما يتخيله العقل من الفجور ، وكانت هناك ثقوب للاستماع ومرايا مزدوجة للمشاهدة، كان يستطيع عمال شتايبر من خلالها ان يراقبوا كل تحركات ضيوفهم البارزين . وفي الحرب العالمية الثانية كان « صالون كيتي » الأخضر شبيهاً بمنزل شتايبر وقد ابتدعته عبقرية هتلر الشريرة ومدير شرطته السرية الجنرال رين هارد =

ووقف ثابت قرب مكتبه في غرفة المطالعة يحرسه اثنان من ضباط التحري بينما كان يركز كل اهتمامه على المتطفلين ، وقد استغل لحظة من لحظات انشغالهم عنه عندما سحب ببطء من درج خلفه حبة من السيانيد، وما كاد يشعر بالحبة وهي بين اصابعه حتى حاول ان يقذف بها الى فمه . وهنا صاح احد رجال الشرطة منذراً واندفع نحوه اثنان تمكنا من انتزاع السم بعد صراع قصير .

واوثقت يدا ثابت ووضع بالقوة على كرسي مقابل للسويداني الذي بادره بالقول :

– شو تكون انت ؟

– ما هو اسمك الحقيقي

وبدون ان ينتظر جوابه على هذا السؤال امطره بأسئلة أخرى :

– لحساب من تعمل ؟ من الذي ارسلك للتجسس علينا ؟

فأجاب ثابت :

انه عربي من الأرجنتين وان أحد المواطنين في بونس ايرس طلب ان يرسل اليه وان يتلقى منه رسائل بالشيفرة لم يكن يفهم منها شيئاً . وقال : «انني لم أحاول ابداً ان اعرف شيئاً عن محتويات هذه الرسائل . لقد وافقت على العمل كعامل على جهاز الراديو لقاء مبالغ ضخمة من المال . وأضاف ثابت انه كان يلتقي دائماً بموظفيه في سويسرا ولكنه كان لا يعرف شيئاً عن هويتهم ، وبينما كان ثابت يفضي بهذه الأقوال قدم احد رجال التحري الى العقيد سويداني ثلاث مفكرات تشتمل على رموز الشيفرة ، كانت اخفيت في علبة معدنية داخل ذراع احد المقاعد . وهنا سأل السويداني بسخرية كيف استطاع ثابت ان يجد صيغة سرية لشيفرة يتلقاها ويرسلها دون ان يعرف معنى رسائلها؟ وهنا بهت ثابت ولم يجد ما يقوله .

= هيدريج ، وقد كان النازيون يخفون وراء جدران مزدوجة واثاث غريب وانوار خافتة: ميكروفونات ومسجلات واجهزة تصوير ، وكانت هذه كلها شباك ضد البارزين من كبار الضباط الألمان الذين كانوا يؤخذون في لحظات استهتارهم وعلاقاتهم الجنسية .

عندئذ طلب الرائد دوارة من ثابت حزامه وربطة عنقه وشريط احذيته ، واصدر تعليماته الى الاثنين اللذين كانا يرتديان لباساً مدنياً ان يذهبوا بالسجين الى ثكنات فرقة المدرعات ٧٢ في قاعدة الحميدية حيث وضع تحت حراسة دقيقة الى ان تولى امره المحققون . ودفع بثابت الى شاحنة مقفلة ، وقبل ان يستجمع جيرانه المذهولون مشاعرهم كان الفريق كله يتسابق الى الهدف المقصود ، وفي السجن الخاص بالفرقة المدرعة ٧٢ قام حارس الخدمة برفع الأقفال عن الباب الحديدي في نهاية الصالة ثم انتحى جانباً ليمكن الرائد من الدخول . والحجرة الضيقة التي وضع فيها السجين كانت رطبة ومظلمة حتى ان الضابط لم يكن قادراً على تبين الشخص الجالس على الاسمنت في احدى زوايا الحجرة ، فأصدر امره اليه بالوقوف وبأن يتبعه على السلم الى مكتب القيادة في الطابق الثاني حيث كان السويداني ودوارة في انتظاره ومعهما المفتش سليمان السراج مدير لجنة الشرطة العليا .

وقبل ان يقعد ثابت على الكرسي الذي قدم اليه فتح الباب ودخل الفريق امين الحافظ يحيط به خمسة من رجاله ، فأدى الضابطان له التحية وتراجع المفتش خطوات الى الوراء احتراماً ، وهنا تناسى الفريق حفظاً لمقتضيات الموقف .. علاقاته السابقة بثابت وراح يستجوبه كما لو انهما يجتمعان للمرة الأولى ، فسأله عن الجهة التي كان السجين يزوّدها بالمعلومات ، وعن نوع المعلومات التي كان يرسلها . وذكر حافظ فيما بعد : « لقد خيل الينا في بادىء الأمر انه كان عربياً وان المخابرات الاسرائيلية استخدمته في الأرجنتين ثم وضعته في سورية ، ولكن عندما حدقت في عينيه بدأت اشك في هويته العربية » . وهنا بدأ أمين الحافظ يسأل ثابت بحذر عن ممارسته للشعائر الاسلامية . فاضطرب السجين وامره الفريق فجأة ان يتلو الفاتحة فراح ثابت يتلوها غير انه اخطأ عند الجمل الأخيرة ، وحاول ان يشرح اسباب خطئه قائلاً انه لم يعد يذكر القرآن لأنه غادر الشرق الأوسط عندما كان صبياً . ولم يرض هذا الكلام امين الحافظ وحث ثابت على الادلاء بتفاصيل اخرى « عن ديننا » غير ان السجين فضل

التزام الصمت . وقال الفريق فيما بعد: «عند ذلك تحققت ان هناك ما يبرر شكوكي اذ لم يكن ثابت عربياً » والتفت حافظ الى السويداني قائلاً : « اعتقد انه يهودي وانه عميل اسرائيلي » . وقال حافظ بعد ذلك للصحفيين اللبنانيين متفاخراً : لم تكن هذه المرة الأولى في حياتي التي تعرفت فيها على جاسوس يهودي اذ سبقت لي خبرة كافية في استجوابات من هذا النوع » .

وقد اصدر الفريق تعليماته لدوارة بأن يدفع استجواباته في اتجاه جديد وان لا يتوقف عند أية حدود بما في ذلك التعذيب لحمل ثابت على الكلام ، وكان يريد ان يعرف بالضبط ما هي المعلومات التي نقلها العميل وإلى أي عدو ؟ واتجه بعد ذلك الى نادي الضباط حيث راح ينتظر نتيجة الاستجواب .. وبعد ساعتين عندما اخبره السويداني بأن ثابت كان يصر بعناد على قصته الأولية عاد الفريق الى مكتب القيادة ليستمع بنفسه الى السجين وهو يكرر مرة بعد مرة أجوبته السابقة وقد قال حافظ في وقت لاحق : « ان محاولاته السمجة لانكار نوايا التجسس كانت مثيرة للشفقة ولكن يبدو انه كان يحاول التعلق بخيط ما لينجو بحياته ... ولكنه استسلم أخيراً للمصير الذي لا مفر منه »(١) وأصدر الفريق أمره للرائد دوارة لاستخدام الوسائل من الدرجة الثالثة ، ولما هم بمغادرة المكان قال ثابت بصوت هادىء ومضطرد : « **انا عميل سري اسرائيلي اشتغل في خدمة الوكالة العليا للمخابرات والأمن في اسرائيل ، واسمي الياهو بن شاؤول كوهين واعيش مع زوجتي وثلاثة اولاد في بات يام بالقرب من تل ابيب. وكل ما اضيفه الى هذا انني كنت اخدم مصلحة بلادي** » وهنا احمر وجه الفريق غضباً وتقدم من السجين وصفعه على وجهه ، وغادر المكان مسرعاً يحيط به اتباعه .

وفي صباح اليوم التالي استدعي الياهو كوهين الى غرفة الاستجواب ثانية .. ولم يكد يجلس الى الكرسي الوحيد الذي كان في الغرفة حتى دخل

---

(١) من حديث امين الحافظ للاسبوع العربي بتاريخ ١٩ أيار ١٩٦٥

السويداني باندفاع وهو يبتسم . واثناء الاستجواب وعد العقيد السجين بأن يحسن وضعه اذا هو وافق على ارسال معلومات خاطئة الى اسرائيل من خلال جهاز الارسال الذي انتزع منه . ووعد السويداني بانه سينقذ حياته اذا اختار التعاون ، اما اذا رفض فانه سيخضع لعقوبات مضاعفة . فوافق ايلي على الفور ولكنه اضاف: «ان المركز لن يقع في فخ واضح ومتوقع كهذا» ودهش العقيد من رغبته في التعاون وانذره بأن أي استطراد يزيد في الكلمات التي سيفرض عليه ارسالها معناه الموت المعجل . فطمأنه ايلي بأنه سيرسل فقط الكلمات التي يطلب اليه ارسالها .

وبعد لحظات اقتيد السجين الى مكتب آخر حيث كان جهاز ارساله الصغير جاهزاً . وقبيل الساعة الثامنة تقدم منه احد الفنيين الذي اوكل اليه رصد الاذاعة برسالة اعدت بالشيفرة فانطلق ايلي وهو يشعر بالمسدس موجهاً الى رأسه في ارسال محتوياتها دون ان يدقق في هذه المحتويات . واحنى العامل الفني رأسه امام نظرات العقيد المتسائلة اشارة الى ان الاذاعة كانت واضحة .

وبعد ان انتهى ايلي من بث رسالته جلس الجديع في انتظار الجواب . ومرت ثوان فقط عندما وردت اشارة من تل ابيب الى جهاز راديو فيليبس الذي كان موصولاً بجهاز الارسال الصغير . وعلت وجه السويداني ابتسامة الظفر بينما كان عامله يسجل الارقام ويحل رموزها ثم يسلمه الرسالة . وقد جاء في الرسالة بعد احاطة العلم المعتادة : «اخبارك امس لم تكن واضحة . نرجو التكرار» . وهز السويداني رأسه علامة الايجاب وباشر كوهين جوابه بينما كان الرائد يراقب كل تحركاته محولاً نظراته بين حين وآخر الى رئيسه . ووافق المركز على ما جاء في رسالة ايلي ولكنه اصر على ان الاستقبال كان رديئاً واصدر امره الى ايلي بأن يعيد الارسال مرة أخرى في المساء عند الساعة الثامنة .

وهنا اشرق وجه السويداني على اساس ان اسرائيل لم تشك في شيء وان خطته قد نجحت فقد استطاع ان يتصل بمحطة المراقبة في اسرائيل ، وفتح لنفسه قناة اخبارية داخل «الموساد» . اما ايلي فقد تحقق من جهته

بأنه نجح في انذار الموساد الذي كان بدوره يلعب لكسب الوقت . ففي السنين الثلاثة التي عمل كوهين خلالها في دمشق كان السطر الأخير من كل رسالة يرسلها مشوشاً وكان النص المتماسك في السطر الأخير يعني ان المرسل اصبح رهن التوقيف .

وفي المساء بعث كوهين برسالة واضحة وبعد ان انتهى ساد سكون مطبق وعندما تجددت المحاولة في اليوم التالي كان نصيبها الفشل ايضاً . عندئذ فهم السويداني انه خسر اللعبة واصدر اوامره الى الفنيين بارسال رسالة اذاعية اخيرة هذا نصها :

« الى ليفي اشكول والى رئيس دوائر الاستخبارات الاسرائيلية :
« كامل واصدقاؤه هم الآن ضيوفنا في دمشق . نحن بانتظاركم
« لارسال اصدقائهم . وسنحيطكم علماً بمصيرهم في وقت قريب . »

العقيد احمد سويداني
رئيس المخابرات العسكرية
في مصلحة مكافحة التجسس السورية

الكتاب الثاني

الرجل



الحـــارة

عندما كانت قضية كامل امين ثابت في طريقها الى ان تصبح موضوعاً سياسياً سريع التبخر في دمشق فان توقيف ايلي كوهين بتهمة التجسس خلق جواً من الارتباك في بات‌يام — اسرائيل وقد اصبح اقرباؤه واصدقاؤه وجيرانه ابعد عن التصديق عندما اخذت التفاصيل عن مهمة ايلي تتسرب الى الخارج . ولم يكن احد من القريبين الى عائلة كوهين في ضواحي رامات يوسف يشك في ان الموظف الشاب الجذاب يمكن ان تكون له حياة مزدوجة . والحقيقة ان كثيرين ممن عرفوا ايلي في اسرائيل كانوا يقولون في وقت لاحق انه أبعد الناس عن التجسس ، فقد كان ينظر اليه كموظف هادىء مثابر وكزوج مثالي ووالد مخلص ، كما كان يعتبر من جميع الوجوه رجلاً متزناً غير معقد وليست له تناقضات خارجية . وكانت هوايته السباحة والمشي الطويل ومشاهدة مباريات كرة القدم ، ولم يكن له ولع بالفنون ولا بالموسيقى . وكان يشرب قليلاً ولا يقامر ، وكان يتجنب المناقشة في الشؤون الداخلية أو الخارجية حتى ان اصدقاءه لا يذكرون انه كان يقف طرفاً في اي موضوع من المواضيع .

وكان مزاج ايلي الهادىء يكذب الصورة الرومانتيكية لعميل المخابرات، ويخفي طبيعة اكثر غموضاً من كل ما يمكن تصوره . ويتمتع بطاقات غير عادية تجعله كفؤاً للخدمة في « الموساد » فقد قال أحد رؤسائه انه كان لديه وفرة من كل مزية يتطلعون اليها ، فقد كانت له ذاكرة نادرة في قوتها ، ومعلومات رفيعة في الاليكترون واستعداد غير عادي لتعلم اللغات، وفوق هذا كله كان يتمتع بشعور مرهف بمسؤولية المهمة ، وكان يحيا حياة مترعة بحيوية الشباب ولكنها قاسية وخطرة في اكثر الأحيان .

ولد ايلي كوهين في ١٦ كانون الأول عام ٩٢٤ في إسكندرية مصر ،

وهو ابن لحانوتي فقير سبق له ان هاجر مع الوف من اليهود والمسيحيين من ولاية حلب السورية التي كانت ذات اكثرية مسلمة في اواخر عام ١٩١٤ . وقد اختار شاؤول كوهين حياة امن ودعة نسبية في مصر بسبب وجوده غير المستقر في سورية الكبرى التي كانت آنئذ جزءاً من الامبراطورية العثمانية . وفي مطلع هذا القرن كانت الحكومة التي تخضع لنظام السلطان – سلطان العثمانيين وخليفة العرب عبد الحميد الثاني ومحمد الخامس – كان يسود هذه الحكومة الجشع والفساد والفوضى ، وكانت الأكثرية اليهودية في آسيا الصغرى تعيش في حالة بؤس ولكنها على الرغم من ذلك تدفع ضرائب لا تعرف الرحمة . وقد بلغ الابتزاز في الادارة مرحلة ومدى لا مثيل لهما في اي مكان آخر . وكانت حياة العرب والأقليات رهناً بنزوات الباشاوات . وكان العشرات يسجنون بصورة تعسفية ويعدمون او ينقلون الى امكنة نائية في الامبراطورية . ولم تخفّ قسوة السيطرة التركية حتى بعد ثورة جماعة تركيا الفتاة واستبدال حكم السلطان بحكم جمعية الاتحاد والترقي ، وقد قال أحد مؤرخي تلك الفترة ان العدالة كانت بالرشوة ، والملك بالاحسان ، والحياة بالحظ .

وقد عاش شاؤول اكثر ايام شبابه في هذا الجو المخيف وتحت التهديد بالمحاكم العسكرية وبالاعدام رمياً بالرصاص ، وحين تقدمت به السن راح يتمنى الحصول على فرص مجزية اكثر مما يتاح له في مسقط رأسه ، وبما ان العديد من اقربائه استقروا في المجتمع اليهودي المزدهر في الاسكندرية قرر ان يهاجر الى مصر .

ورست الباخرة التي نقلت شاؤول الى مصر في الميناء الشرقي من الاسكندرية قبل اسابيع قليلة من اندلاع الحرب العالمية الأولى ، ووجد المهاجر السوري الشاب ان الاسكندرية تستعد بحرارة لاعتراض سبيل العدوان التركي الألماني من قواعد في فلسطين ، وكانت الحامية البريطانية تنظم الدفاع عن المدينة كما كان السكان يعدون انفسهم لكفاح طويل ، والمواطنون منهمكون في تكديس المواد التموينية وتعزيز مراكز الدفاع التي خلفتها الحروب النابوليونية او حفر خنادق جديدة .

غير ان الحصار الذي كان يخشى منه لم يتحقق ابداً ، وتخلص سكان الاسكندرية من ويلات الحرب ، غير ان حلفاءهم اخضعوهم لاربع سنوات من المعاملة المذلة مع شعور بالخيلاء والتفوق مما عكس في النفوس كراهية استمرت الى ان غادر آخر جندي بريطاني الأراضي المصرية .

ولفترة قصيرة اقام شاؤول مع اقربائه بينما كان يبحث عن عمل ، وقد ساعدته كتب التعريف التي حملها معه من حلب على التوظف في مصنع للكرافات يملكه احد التجار اليهود الأغنياء . وفي سني الازدهار التي اعقبت معاهدة فرساي اتيح لشاؤول ان يعمل لحسابه ، فافتتح مصنعاً صغيراً لصنع الكرافات وراح يبيعها في دكان تقع في حارة اليهود — الحي اليهودي — واستطاع دون ان تمر فترة طويلة ان ينسى كل شيء عن مسقط رأسه فيما عدا ارتباطه العاطفي بوطنه الأصلي ، وظل يتحدث بشوق عن مدينة حلب ولم يفقد ابداً لهجته السورية ، ولكنه استطاع ان يمتزج بسهولة في الطبقة المتوسطة من المجتمع معتبراً نفسه بجميع اهدافه مصرياً . ومع كل هذا لم يتمكن شاؤول من الحصول على الجنسية المصرية . وكجميع المهاجرين الآخرين ارغم على البقاء بدون جنسية .

ولما انشأ في البلد جذوراً ثابتة راح اقرباؤه يشجعونه على الزواج ، واقترحوا عليه كثيرات ممن تناسبنه ولكنه كان يرد عليهم عروضهم بلباقة . وفي يوم من الأيام التقى بصوفي التي كانت هي ايضاً من مدينة حلب وقدمت الى مصر قبل فترة قصيرة من قدومه فتزوجا بعد عشرة قصيرة ، وفي حفلة تقليدية معتادة . ولما لم يكن عند الزوجين المال الكافي للانتقال الى احياء اوسع فقد بقي الزوجان في بيت متواضع الى ان ولدت ابنتهما اوديت ، وهنا تحركوا الى حي اوسع في ممر دواك في مكان لا يبعد عن متجره . وفي السنين التالية ازدهرت اعمال شاؤول فراح يقوم برحلات سنوية الى باريس حيث كان يشتري الحرير الأصلي لتمويل صناعته ، وكانت زوجته تباهي بأن شاؤول كان يصنع الكرافات لكل الأغنياء العرب : « لقد كنا نحيا حياة سعيدة وكانت عندي خادمة » .

* * *

وولدت صوفي ابنها ايلي بعد سنتين من الغاء الحماية على مصر والاعتراف بها بلداً شبه مستقل ، وفي ظل هذا الحكم ظلت الجالية اليهودية تتمتع بحرية كما ظل الدين يتقدم كما في السابق على القومية . وقد كبر ايلي ليفهم انه كان اولاً يهودياً ثم مصرياً ، وقال له والده منذ كان صغيراً جداً : ان يكون الانسان يهودياً فهذا امر في درجة عميقة من الأهمية. وعندما كبر قليلاً علمه شاؤول القوانين والمناقب ونصحه بممارسة الشعائر الدينية بأمانة وحثه على ان يكون عقائدياً وأن يحرص على التقاليد اليهودية . وعلمه العبرية والتوراة وحثه على التمسك بالسبت وبالأعياد وبجميع التعقيدات الأخرى للتراث اليهودي . وقد لعبت الشعائر العائلية وكذلك الأجواء التزمتية التي ترعرع فيها ايلي دوراً هاماً في تعزيز ايمانه بالله ، فقد كان يؤدي صلواته اليهودية دون ان يخطئه احدها ، كما كان يتطلع بشوق للاحتفال بأيام السبت . وكان يراعي باحترام كل الأوامر الدينية ويبتعد عن محرماتها . وقد قال اخوه موريس : «كان اكثرنا تديناً فلم يمتط في حياته عربات الترام في ايام السبت كما لم تمس يده في هذه الأيام مفتاحاً كهربائياً ولا امسك بعملة ولا حرر رسالة » .

وفي السنين التالية كان ايلي يرافق والده الى الكنيس ، وكان يصلي مع الرجال . وفي سن الثالثة عشرة وهو اليوم الذي يحتفل ببلوغ الولد سن المسؤولية Bar Mitzava اعطي شالاً من الحرير الأبيض للصلاة وسمح له ان يصعد الى المنبر للمرة الأولى كي يستجيب لنداء التوراة ، وفي الأسابيع التالية قدم نفسه بدون تحفظ للتأملات في الله .

ومنذ ذلك الحين كان ايلي يلبس الحداد ويصوم مع الكبار في التاسع من آب حزناً على تدمير الهيكل ، وفي ١٧ تموز حزناً على الانشقاق الكبير في جدران القدس ، وفي يوم كيبور وفي نهاية اسبوعي الندم وطلب الغفران والتوسل التي تحدد « ايام الهول » كان يأخذ مكانه الى جانب والده في الصف الأول من الكنيس ، وقد قال احد اصدقاء عائلته انه كان يساهم في اداء الطقوس منذ اول صلاة « كول نيدر » وحتى صياح البوق الذي يؤذن بانتهاء الصلاة ، وكان يجلس هناك كل اليوم دون تململ

كما كان يمتنع عن مغادرة مكانه للاستراحة او استنشاق الهواء النقي ، وكان يلاحق الحاخام كي يقص عليه المحن التي نزلت بالشهداء الذين ماتوا في سبيل التوراة وصهيون . وكان يصغي مستغرقاً للقارىء الذي كان ينشد حكاية النبي يونس الذي حاول الفرار من الله . ويجلس مفتوناً الى ان يرسل البوق صيحاته المرتجفة مشيراً الى نهاية عيد الكفارة **Day of Atonement**

والحرارة التي كان يقبل بها ايلي على ممارسة الطقوس الدينية مع ذكائه الظاهر دفعا بوالده الى التعجيل بتسجيله في المدرسة التي يشرف عليها الكنيس المحلي ، وكان منهاجها يركز بصورة اساسية على معرفة اللغة العبرية ، وخولته سرعة تقدمه في الدراسة حق الدخول الى مدرسة ميمونيد الابتدائية الطائفية وهو في سن السادسة ، اي قبل سنة من السن المعتادة ، وعندما حان موعد تخرجه تغير برنامج التدريس من اللغة الفرنسية الى اللغة العربية ، وكان على ايلي ان يستعد لفحصين نهائيين ، وكان اداؤه اعلى من المعدل بكثير ، وفي سن العاشرة كان جاهزاً للدخول الى الكلية .

كان افراد عائلته مصممين على ان يتابع ابنهم الأكبر دراسته فشجعوه على ان يشترك في مسابقة لمنحة دراسية جزئية في الكلية الفرنسية فاجتاز ايلي هذه التجربة بدون صعوبة ومنحه والده من المال ما استكمل به هذه المنحة .

وفي السنين التي قضاها في الكلية المذكورة كان شاغل ايلي الأول هو ان يحسن من وضعه فبينما كان رفاقه يلعبون كرة القدم كان ينسحب مع كتابه الى زاوية من ساحة الملعب او يبقى في صفه ليحل بعض المعادلات ، وكان مولعاً بالمسائل المعقدة . وقضى اكثر اوقاته في دراسة الرياضيات ، وبذل مجهوداً خاصاً في تعلم اللغات وكثيراً ما كاف يسهر حتى الصباح في استظهار النحو الفرنسي والعربي او في دراسة اليونانية او الايطالية او الألمانية او الانكليزية .

وفي البدء لم يكن هذا الشاب المنعزل ذو العيون الحالمة محبوباً في المدرسة ، ولكن على الرغم من حيائه وعزلته فقد كان في بعض الأحيان

ينضم الى لعبة القرصان التي كان الأولاد يلعبونها على الرمال التي كان يحميها خليج عنقوشي القليل الغور ، وهو مكان كان القراصنة في القديم يستخدمونه بصورة فعلية ، وبعد كل لعبة يتقمص فيها شخصية الخارج على القانون ، كان يعود الى البيت في المساء اشعثاً ومبتلاً بالمياه . ولكن حبه للوحدة كان يفوق حبه للسباحة او الصيد في مياه الميناء القديم ، كما ان المكافآت المدرسية التي كان ينالها سببت له الحسد والكراهية من زملائه الذين كانوا يضايقونه بدون رحمة الى ان اعترفوا اخيراً بما يمتاز به من نكران الذات . وكان ايلي يرى ان عليه ان يقتسم مع الآخرين موهبته في سرعة الفهم ، ولذلك كان دائماً على استعداد لمساعدتهم في اعمالهم المدرسية، وقد قال دافيد كرودو احد زملائه فيما بعد : إن ايلي كان يقضي الساعات الطوال في مساعدتي على انجاز وظائفي البيتية ولم يكن يتركني ابداً قبل ان يتأكد من أنني قد فهمت كل شيء .

ولم يكن زملاؤه التلاميذ هم الذين يسعون وراءه فقط ، فقد كان يعلم الفرنسية لصغار الطلاب من العرب لقاء اجر زهيد وبناء على توصية اساتذته . ولما كان الدخل الذي يعود عليه من الدروس الخاصة غير كاف لتسديد قيمة كتبه او تأمين متطلباته راح يبحث عن عمل يدر عليه مالاً اوفر ، واخيراً وجد عملاً في محل لقريب له يبيع الملابس وهو عمل حجب عنه الكثير من مرح الطفولة . وقد قال احد اصدقائه انه لم يشترك مع رفاق صفه في اية رحلة ونادراً ما ذهب الى دور السينما .

وكان يكرس الفترات القليلة من اوقات الفراغ للحركة الوطنية لتحرير مصر ، وكان يشترك في جمعية مدرسية تضم طلاباً مسيحيين ومسلمين ويهوداً بتشجيع من الأساتذة المصريين الأحرار ، وكان ايلي يعتبر نفسه وطنياً وان معتقداته الدينية لا تتعارض مع انتسابه القومي ، وفي السنين الأخيرة من حياته المدرسية في الصفوف النهائية اصبح عضواً في لجنة تحرير مصر التابعة للكلية التي تمثل فيها طلاب من الأديان الثلاثة ، وكثيراً ما ساهم في مظاهرات نظمت في الشوارع ضد البريطانيين . وقد قال احد رفاقه : «رأيته محاطاً بزملائه الطلاب وهو يهتف ويلوح ويضيح

مصر للمصريين ككل عربي وطني حر . ولما كان ايلي يعرف الأخطار التي قد تنعكس على الطلاب اليهود من زملائه في مظاهراتهم ضد بريطانيا، فقد كان يذهب مبكراً ليجول في الصفوف محذراً الأطفال ومحرضاً لهم على الذهاب الى بيوتهم » .

وعلى الرغم من عواطف الصغار فان اكثرهم كان يتردد في الالتزام بالقضية لأن الجالية اليهودية كانت مقسمة بين مساندة قوات الاحتلال وبين الوقوف الى جانب العرب . وفي الاسكندرية كان موضوع الولاء ادعى للحيرة لأن جوزيف بيجوتو رئيس الجالية اليهودية كان خصماً قوياً للبريطانيين .

وكانت وطنية ايلي تلاقي الترحيب من بعض اصدقائه غير ان القريبين جداً من العائلة كانوا يتغاضون بمرارة عن سلوكه ، فقد كانت عائلة كوهين تنزع الى التخوف من نشاط ابنهم في الحقل العام ومن قناعاته السياسية ، ولكنهم لم يحاولوا ابداً ان يحدوا منها .

ولم يكن ايلي يجد بين دروسه وعمله في مخزن الملابس وقتاً ينصرف فيه الى نفسه ، وكان يقضي ساعات الفراغ التي يصيبها بالتجول بين الخرائب التاريخية او في الأحياء القديمة من الاسكندرية ، وكان يلتقط صوراً لبقايا الحضارة الرومانية او اليونانية وللحياة المضطربة التي تحيط به مستخدماً الكاميرا الكوداك التي اهديت اليه في حفلة بلوغه سن الرشد ، وكان يقدم الصور التي يحمضها ويطبعها هدية لاصدقائه واقربائه .

ومن الهوايات التي كان ايلي قادراً على الاستفادة منها مجموعة من الصور للأسلحة على اختلافها ، وقد اولى اثناء الحرب عناية خاصة بالأسلحة النارية ، وكان يحتفظ بسجل لأحدث انواع الاسلحة ، جمع اجزاءه من الصحف والمجلات ثم ضمها الى دفتر جذاذات ضخم . وكانت الطائرات الحربية تلهب عواطفه . وكانت المواضيع والصور عن الطائرات تغطي كل الجدار وراء سريره ، وقد تعلم كيف يميز بين طائرة مشرز شميت والسافويا والسبيتفاير اثناء متابعته معارك الطائرات الدائرة فوق رأسه عندما قذفت طائرات المحور بقنابلها على المدينة ،

وكان التمييز بين انواع السيارات من الهوايات المفضلة لديه ايضاً ، اذ يستطيع عندما ينحني من شرفته نحو الشارع ان يحدث اخاه عن نوع السيارة وجنسها وسنة صنعها . وكان يمتحن ذاكرته بالرجوع الى البيانات المدونة عن ذلك في قائمته ، وتلك لعبة ابتكرها بعد ان اكتسب خبرة في فن تقوية الذاكرة من ممارسة لا تنتهي في حفظ مقاطع من التلمود .

وكان يكرس عطل نهاية الاسبوع لمساعدة اوديت مع اخوتها واخواتها ، وكثيراً ما كان ايلي يأخذ الأطفال الى مقر المنتزه الملكي ليلعبوا في حدائق الورود او عند المدفع القديم على سطيحة السلملك بالقرب من الساعة الشمسية . كما كانت هناك زيارات لحديقة الحيوانات ورحلات الى رصيف العنقوشي في امسيات الفراغ للسباحة في البحر الأبيض المتوسط او لزيارة حدائق النزهة التابعة للبلدية حيث تعزف اوركسترا عسكرية كل يوم جمعة . وفي بعض الأحيان كانوا يقومون بنزهة قرب بحيرة مريوط او في غابات الصنوبر فوق خليج ابو قير وفي احيان اخرى يذهب الصغار لركوب عربات الترام الدوارة على طول المرفأ الجديد ، وللفرجة على طريقة بناء القوارب بالقرب من الشاطىء الشرقي . وكانوا يحبون القيام برحلة قصيرة في عربة كثيرة الصرير تجرها الخيول على طول قناة المحمدية حتى سوق القطن في مينة البصل حيث كانوا يتزلقون في الشوارع الزلقة لكثرة ما فيها من زغب القطن ، اذ كانوا يجلسون بالقرب من احد العيون يراقبون العربات التي تجرها الحمير وهي تحمل القطن الى الأرصفة .

وعندما كبر ايلي راح يكثر من تجواله منفرداً بعيداً عن حارة اليهود كما اخذ يميل الى الصفقات الرابحة فيبحث عنها بين سلع يتعاطاها التجار اليونانيون والأرمن والايطاليون الذين كانوا يمتلكون اكثر الدكاكين الصغيرة في المدينة . وهكذا تعرف جيداً على عقول المتمولين من الاسكندريين المشارقة . غير ان لقاءاته على صعيد الأعمال مع الشخصيات العسكرية الحليفة لم تكن على هذه الدرجة من المتعة ولا من الفائدة . وان الاسئلة الوقحة ذات العلاقة بالبحث عن المتعة التي كان يطرحها هؤلاء اضطرت ايلي ليتعلم اجوبة فيها تملص دون ان يكون فيها اساءة .

وكان والدا ايلي عازمين على ان ينميا فيه شعور الاعتزاز بتراثه والارتباط بشعبه والاستجابة لمطالب الرب ، وعلى التأكد من انه تلقح كلية بمصل المعرفة اليهودية التي اثبتت مناعتها وفعاليتها ضد اخطار امتصاصها او تمثلها من قبل الآخرين . وهكذا انتسب ايلي الى مدرسة **Midrasha Rambam** وهي المدرسة الخاصة بالتعلم العالي للتلمود ويديرها رئيس حاخامي الاسكندرية موشى فنتورا . وسرعان ما انتبه الحاخام لحافظة ايلي القوية فكان يجد في ارشاده عبر فصول التلمود كلمة فكلمة وجملة فجملة ، ومقطعاً فمقطعاً . وكان ايلي سريعاً في فهم التعقيدات التي تشتمل عليها الكتب المقدسة ، واستطاع في مدة قصيرة ان يتلو بسلاسة تعليقات راشي والانتقادات والايضاحات المتعلقة بها ، ثم اصبح يشارك في المناقشات بالرموز والشعائر الخاصة بشولهان اروش **Shulhan Arush** والتعاليم السرية الخاصة (بالكبالة) **Kabbalah** التي انبثقت من الاسكندرية وكذلك تفسير زوهار **Zohar** .

ولم تمض فترة طويلة حتى انتشرت في الحي القصص عن نضجه المبكر . ونقل رفاقه انه كان قادراً على استظهار تراتيل نيشمات كول خاي **Nishmat Kol Khai** كما يعرف كل اقوال الآباء عن ظهر قلب » . ويقال انه كان قادراً على امتصاص فصول كاملة من الجيمارا **Gemara** وعندما كان الحاخام يختبره باستهلال جملة ما كان ايلي يأتي على النص كله بسهولة ، لذلك لم يندهش احد من اصدقائه عندما رفعه الحاخام من مرتبة ماتميد **Matmid** اي التلميذ المخلص لعمله الى مرتبة ايلوي **Iluy** وهو شرف يمنح للتلميذ عندما يتحلى باعظم الكفاءات .

وفي سنين لاحقة عهد الحاخام فينتورا لايلي بتعليم الأولاد الأصغر سناً ، وانتهى الأمر أخيراً بأن سلمه الصف كله ، وكان يأمل ان يخلفه تلميذه الممتاز لا في المدرسة فحسب بل في منصبه الديني ايضاً . وقد حاول الحاخام ان يقنع ايلي بالسير على خطاه . وقال مرة لصوفي كوهين : إن لابنك رأساً حسناً يستطيع ان يصبح به ما يريد حتى حاخاماً . وكان فينتورا يلح باستمرار على ان يتابع ايلي دراساته الدينية في معهد اللاهوت في

جزيرة رودوس ، ووعد بأن يقنع الجالية اليهودية بضرورة جمع النفقات .
وقد رفض ايلي بلباقة هذا العرض فقد سبق له ان عقد العزم على متابعة دراساته الزمنية في جامعة فاروق بالاسكندرية .

وفي حزيران ١٩٤١ تدفقت فرق البانزر الألمانية التابعة للفيلد مارشال اروين روميل على الحدود المصرية وتلقت بقايا الجيش البريطاني امراً بالانسحاب الى خط الصحراء الحديدي في العلمين . وهكذا اصبح خط الجبهة الجديد على بعد ستين ميلاً فقط غربي الاسكندرية . اما في المدينة فقد بدأ البريطانيون يحرقون الوثائق ويستعدون لتخريب منشآتهم ذاتها .
وقامت قيادة الحلفاء باجلاء الانكليز نساء واطفالاً الى فلسطين والسودان .
وكثيرون من غير العرب كانوا ينتظرون بفارغ الصبر ان يلحقوا بالحلفاء الى المنفى ، غير ان الحياة في الحي اليهودي كانت تسير كالمعتاد . وكان المرشحون للتخرج في منتصف فحوصهم النهائية ، وكان على ايلي ان يجتاز فحصاً شاقاً وهو يركض بين مدرسة ومدرسة أخرى على الرغم من الغارة الايطالية ، حتى انهى الفحوص الأخيرة للبكالوريا في الكلية كما انهى الفحوص النهائية في المدراشا .

وفي ما عدا الغارات الجوية التي لم تحدث سوى القليل من الأضرار لم تعكس الحرب أي أثر مباشر على حياة ايلي على الرغم من احاطته بعلامات واضحة للتغيير ، وقد اثارت انتصارات روميل في الصحراء الليبية مشاعر متأخرة من العطف على الألمان بين العرب . والعطف على الرايخ الثالث صعد القومية المصرية المفرطة ، وقد قوبل تصريح اجهزة الدعاية النازية بأن مصر للمصريين بالترحيب الحار من قبل القصر الملكي ومن قبل حزب الوفد الحاكم . اما الضباط المتحزبون للألمان الذين كانوا يرون في وصول روميل مقدمة لانقاذ مصر عن طريق دول المحور فقد تآمروا بنشاط من أجل الثورة . وقد استغلت الجماعات الموالية للنازية سخط المواطنين من نقص المواد الغذائية من حالة الحصار ومن جو الميدان العسكري لكي يقلبوا المظاهرات الشعبية العفوية الى انفجار ضد البريطانيين . وقد وجدت جماعة القمصان الخضراء التابعة لجمعية مصر الفتاة ، وجماعة

القمصان الزرقاء التابعة لحزب الوفد ، وجماعة الأخوان المسلمين المتطرفين ، وجد هؤلاء في نجاح محاولتهم ما شجعهم على التخطيط للتظاهر ابتهاجاً بانتصار الوير ماخت . وقد حثوا الشعب على اعداد اعلام المانية وايطالية لرفعها ابتهاجاً بيوم التحرير . غير ان الطلاب المتلهفين لهذه الفرصة لم ينتظروا بل اجتاحوا شوارع الاسكندرية والقاهرة لمهاجمة البريطانيين بهتافات : « حذاء فاروق فوق رأسك يا جورج» « والى الأمام يا رومل » .

اما الجالية اليهودية فلم تكن تخشى فقط تقدم دول المحور بل رد الفعل من الفرح والابتهاج لدى المجاهدين العرب ، وكان افراد الجالية مقتنعين بأن انتقال السلطة الى النازيين سيؤدي الى مذبحة او على الأقل الى ترحيل جماعي بدون اي تدخل من الجماهير العربية . ولم يكونوا قادرين على الفرار من مصر لأن الانكليز لا يسمحون لهم بالهجرة الى فلسطين ، لذلك اصبحوا من اكثر مساندي الحلفاء ثباتاً ومتانة . وقد كانت توقعاتهم في محلها ، ذلك ان هزيمة رومل في آب ١٩٤٢ ورحيل قواته المحطمة عن افريقيا الشمالية بعد عام انقذهم من مذبحة حقيقية .

وكان ايلي في حاجة الى وقت طويل ليفهم العالم الاسلامي الغريب المحيط به ، ولكنه استطاع اخيراً ان يفهم عقدة المؤمنين بالقضاء والقدر وبشعبان والأعياد والصيام الذي يسبقها ، ولم تعد المحافظة على الصيام لغزاً بالنسبة اليه ، وكان يحلو له ان يختلط بالجماهير في المسيرة الشعبية عندما تعود الكسوة من مكة . وكان ايلي يستمتع في الدرجة الأولى باعياد شم النسيم الربيعية التي تقع في عيد الفصح للارثوذكس الأقباط عندما يلتقي المسلمون والمسيحيون الاسكندرانيون بجيرانهم اليهود على ضفاف النيل . واكثر من كان يلتقي بهم من العرب هم من الحرفيين الفقراء ، واصحاب الحوانيت ، والخدم والباعة المتجولين الذين كان مستواهم الاجتماعي ادنى من كل ما عرفه في حارة اليهود . ولم يكن الجوع من الأمور النادرة في الأحياء الاسلامية . وقد احس ايلي بما وصل اليه الشعب من يأس وقنوط عندما كان يرى الأولاد من سنه يبحثون عما يأكلونه بين النفايات ، او يقلدون الشحاذين الذين يعرضون ذراعاً مقطوعة او

رجلاً مبتورة ذاكرين اسم الله ليحملوا احد المارة على ان يجود عليهم بقرش واحد .

ولم يكن ايلي يلمح الا نادراً الأغنياء من الباشاوات والبيكوات والأمراء والأميرات الذين كانوا في حاشية الملك فاروق والملكة فريدة عند زيارتهما (زيارة واحدة فقط) للاسكندرية للاقامة في مقر رأس التين او المصيف في قصر المنتزه .

وكان ايلي في سن الثانية عشرة عندما شاهد موكب الملك لأول مرة . وكان الأمير فاروق قد عاد في حينه من الأكاديمية العسكرية في وولويتش انكلترا على ظهر باخرة نائب الملك في الهند لكي يتولى العرش بعد وفاة والده فؤاد الأول . وكان ايلي مع اخوته الصغار الى جانب الآلاف ممن اصطفوا على طرفي الشارع يهتفون مرحبين بالأمير الشاب النحيل بينما كان يمر من شارع فرنسا وحتى محطة سكة الحديد في الباب الجديد . وقد اعترف ايلي فيما بعد انه كان بين اولئك الذين هتفوا « ليحيى فاروق امير المؤمنين » . كما وافق على انه كان يحس بشعور الاعتزاز كلما استمع الى الفرقة العسكرية وهي تعزف النشيد الوطني في وسط طلقات كانت ترسل من مئة مدفع ابتهاجاً بقدومه ، كما كان يراقب الأمير الشاب وهو يحيي العلم الأخضر وفي وسطه هلال وثلاثة نجوم قبل ان يتابع سفره الى القاهرة ليتوج هناك .

غير ان موقفه الرومانتيكي من التاج ومن ارستقراطية المثري عائلة التي كانت تحكم مصر ما لبثت ان تحولت الى مشهد قاتم ، اذ ان سلوك فاروق المنحرف ما لبث ان اصبح حديث المدينة . فقد مني الاسكندرانيون بصدمة كبيرة عندما سمعوا عن شهية فاروق ونهمه وعن طيشه في شرابه وولعه الشديد بالقمار ، وحياته الليلية المسعورة ، وافلاته من كل القيود في حياته الجنسية ، وقد سبق لسمعة الملك ان دنسها عدم اهتمامه بمحنة الفقراء ، اذ انه امر في احدى المناسبات ان تقذف كرات البينغ بونغ بالطائرة على احدى القرى القريبة وهي تحمل رسائل جاء فيها ان من يعيد كرة واحدة يكافأ بكيس من السكاكر . وقد كانت هذه هي طريقة

غريبة في تخفيف اعباء الحياة على الفلاحين .

وراح ايلي يتحدث باشمئزاز عن اسراف الأغنياء عندما كان يراقب من الرأس الذي يشرف على الشاطيء الشرقي الحفلة التي اقامها الملك على شرف صديقاته على ظهر اليخت الملكي فخر البحار او محروسة . وكان يتطلع باشمئزاز الى جانب صديقه باروخ مزراحي الى ذلك الموكب الذي لا ينتهي من الخدم النوبيين المعجبين بمعاطفهم المزركشة وسراويلهم الحريرية السوداء حين كانوا يحملون اطباق الأطعمة من قصر رأس التين الى اليخت الملكي ، في الوقت الذي كان فيه اكثر الناس يعيشون على الخبز والبصل والشاي الأسود . كان ايلي يشعر بصدمة تجاه هذا التناقض الخطر بين الحالتين .

وبما ان ايلي لم يكن من الأشخاص الذين يعتقدون بالمستقبل كقدر مسبق لذلك كان لا يرضى عن الهوة العميقة التي تفصل بين الطبقات . وكان على استعداد للثورة على الأوضاع الظالمة ، ولكنه في نظرته الواقعية الى ما يحيط بهذه المواضيع من تعقيدات كان يعرف انه كيهودي غير قادر على ان يفعل شيئاً كثيراً ولذلك انتابه قنوط متزايد . وكان عليه ان يتغلب اولاً على الكراهية التي تزداد ضد شعبه . كما ان كفاح اليهود من اجل وطن قومي اشتدت وطأته في نهاية الحرب وانعكاسات هذا الكفاح على الجالية اليهودية في الاسكندرية ادت الى اهتزاز عميق في ولاء ايلي لمصر .

وبعد ان عادت الحرب ادراجها الى اوروبا تحول اهتمام اجهزة الأمن البريطانية في الشرق الأوسط الى الصراع في فلسطين بعد ان جددت العصابات اليهودية السرية الثلاث جهودها لاقامة دولة يهودية مستقلة . وقد ساد هدوء يشوبه القلق جميع اطراف النزاع الى ان انهار خط الغزو النازي . وتطوع عدد كبير من اليهود الفلسطينيين في الجيش البريطاني وتألفت فرقة يهودية لقتال النازيين في الجبهة الغربية . ووضعت الهاغانا وهي الذراع السري للوكالة اليهودية تجمعت في داخلها كل العناصر

الصهيونية اليسارية ـــ نفسها تحت تصرف السلطة المنتدبة . اما الايرغون زفاي ليومي وهي المنظمة السرية العسكرية لحركة الصهيونية الثورية فقد تمسكت بهدنة فرضتها على نفسها واوقفت كل عملياتها ضد الادارة البريطانية . ولم تخرج على هــذا الخط سوى عصابة شترن الارهابيــة و « لوخامي هيروت اسرائيل » التي استمرت في مقاومتها للبريطانيين .

وعندما اشتعلت الاضطرابات في فلسطين مرة اخرى بعد سنين من الكبت والاجتمال كان طريقها الى الاشتعال موجة من اعمال العنف فقذفت القنابل على محطات الشرطة ، وقتل الضباط في الشوارع رمياً بالرصاص ، ونهبت المصارف ، وخطفت الاسلحة ، وقد رد المندوب السامي السر هارولد ماكميلان على هذه الحملة بسرعة محاولاً تشديد قبضة الانتداب البريطاني من جديد ، فسجن رجال الشرطة البريطانية مئات المشبوهين من المنشقين وفرض الاقامة الجبرية على آخرين كما فرضت الغرامات واعلن منع التجول ، ونفي الكثيرون الى جزيرة موريسوش واريتريا ، اما الذين القي القبض عليهم وهم يقاتلون فقد اعدموا شنقاً .

وقبل ان يصبح الوطن القومي في فلسطين حقيقة ملموسة بالنسبة لايلي فقد كان هذا الوطن يعيش في مخيلته التاريخية والدينية كأرض اسرائيل **Eretz Israel** وهي الأرض التي كانت مملكة وستكون مرة اخرى مملكة عندما يبعث المسيح من جديد ليعود باليهود الى الأرض المقدسة ، والحقيقة ان هذه القناعة متأصلة في التقاليد اليهودية من الدعوات التي ترفع من اجل الوطن الأم في كل يوم عطلة ومن الصلوات الحارة التي تستنزل بها الأمطار على فلسطين في مهرجانات الفطير حيث ينطلقون من كلمة : « العام القادم في القدس » وهي كلمة يتمتم بها كل متعبد او عابر طريق ، وكانت هذه التعويذات تردد من قبل اليهود الكبار مع القبول بقدر الله ، وكانوا يعتقدون أن المسافة بين الخيال والحقيقة هي من حيث الامكان لا حدود لها غير ان الشباب كانوا لا يعتقدون أن الصراع القائم على بعد مئات الأميال الى الشمال الغربي منهم غير متصل بمصيرهم

كما ان والد ايلي كان يعتقد ان هذا الصراع حتمي وسليم ، وكان يقول ان الجيل السابق قد ناضل للابقاء على اليهودية حية ، اما الأبناء والبنات فعليهم ان يجعلوا من حلم اسرائيل حقيقة واقعة .

واثناء الموجة الجديدة من الاضطهاد في فلسطين لم تكن الجالية اليهودية في مصر تتعاطف علناً مع الأهداف الصهيونية في الأرض المقدسة ، ذلك ان الذين اثروا خلال الحرب كانوا يخشون ان يلحقوا الضرر بثروتهم او بأمنهم في حالة مساندتهم للقضية ، كما ان التحريات التي كان يقوم بها رجال الأمن البريطانيون بصدد نشاط الصهيونية المحلية لعبت دورها في زيادة هذه المخاوف . وكنتيجة لذلك اقدم البارزون من التجار ورجال المهن اليهود في القاهرة كما اقدم رئيس الحاخامين حاييم ناحوم باشا « وكان كفيف البصر تقريباً » على استنكار الصهيونية واغراضها . وفي احدى المناسبات عندما اتصلت عميلة من الهاغانا تدعى روث كليفر بالصناعي اليهودي قطاوى باشا ، وهو زعيم الطائفة اليهودية في القاهرة ، وطلبت اليه تمويل الهجرة غير القانونية الى فلسطين اجابها مهدداً باثارة كلابه عليها . واليهود الأقل تأثيراً والفقراء كانوا ايضاً اما غير مبالين بالحركة او معادين لها . اما الأفراد او المنظمات التي تسند الحركة فلم تستطع ان تفعل الا القليل ولكنها كانت تدعمها عن طريق الصمت .

ونزلت صدمة بالصهيونيين واخصامهم عندما جرت لعبة الصراع الفلسطيني بصورة غير متوقعة على الأرض المصرية ، ففي صباح ٧ تشرين الثاني ٩٤٤ فتح ايلي جريدة البورس ايجيبسيان ليرى صوراً فوتوغرافية لجوازي سفر لاثنين من الفتيان اليهود الفلسطينيين وقد كتب تحتهما « متهمان بجريمة القتل » وقبل يوم من ذلك اقدم الياهو بيت زورى والياهو حكيم على مهاجمة اللورد موين واصابته بجراح مميتة بينما كان يغادر منزله في منطقة الزمالك في القاهرة . واللورد موين كان وزيراً للمستعمرات سابقاً وعين اخيراً وزيراً للدولة لشؤون الشرق الأوسط . وقد اعتقلهما رجال الشرطة المصريون بعد دقائق فقط من اقدامهما على اطلاق النار ،

وفي سجن باب الخلق علم ايلي انهما اعترفا بكونهما عضوين في عصابة شتيرن السرية وانهما تآمرا للقيام بعملية الاغتيال . وقد قال قائد الأمن البريطاني في القاهرة : إنني لم أشاهد في حياتي معتقلين كانا يبدوان اقل تأثراً من هذين الشجاعين المغرورين القاسيين واللذين جعلهما تعصبهما بدون قلب . وفي وقت لاحق من ذلك المساء وبعد عملية مستعجلة قام بها طبيب الملك فاروق مات اللورد موين .

وقد اثار حادث القتل هذا في بادىء الأمر اشمئزازاً بين المصريين مسلمين ومسيحيين ويهود مما ادى الى تأخير النشاط الصهيوني المحلي ، غير ان مظهر التحدي للمتهمين في قاعة المحكمة عكس اثراً قوياً على افراد الجالية ، وفي احدى الجلسات القى بيت زوري خطاباً سياسياً استمر ساعتين متهماً فيه البريطانيين في فلسطين بممارسة سياسة هي ضد مصالح الشعب اليهودي ، وقال بكلمات نارية : « اذا كنا قد لجأنا الى السلاح فلأننا ارغمنا على ان نفعل ذلك بعد ان وجدنا ان كل وسيلة اخرى لم تعد ناجعة وعرفنا ان الطريقة الوحيدة للصراع ضد قاعدة قائمة على العنف هي استخدام العنف ذاته » .

وقد ظهرت تحديات زوري هذه في الصحافة المصرية في اليوم التالي واثارث شعوراً من الاحترام للرجل بين العرب وهكذا فان الطلاب المسلمين الذين احتفلوا برومل هم انفسهم ساروا في شوارع القاهرة وهم ينادون « حرروا قاتلي موين » . وعلى الرغم من ان المظاهرات قد سادها شعور العداء لبريطانيا فان ما بدا في هذه المظاهرات من اعجاب بشجاعة اليهود الفلسطينيين كان صادقاً حتى انه حمل كثيراً من اليهود المصريين على اعادة النظر في رأيهم بالصهيونية .

غير ان الدعم الذي لاقاه زوري وحكيم في الأحياء الاسلامية ، وكذلك موقفهما الدراماتيكي في المحكمة لم يحرك عواطف القضاة ، فبعد اسبوع من المذاكرات اصدرت المحكمة المؤلفة من خمسة حكام قرارها باعدام المتهمين . وقد ثبت مفتي مصر الكبير هذا الحكم بكلمة

من القرآن « القاتل جزاؤه القتل » وبعد شهرين في ٢٢ آذار صعد الشابان بكبرياء الى حبال المشنقة . وبعد ان رفضا ارتداء الطاقية السوداء ماتا وهما ينشدان « هاتيكفا » انشودة الأمل العبرية . وقد تأثر ايلي كثيراً بقناعة هذين الشابين العنيدين من آل الياهو . حتى انه قال بعد ذلك ان استشهاد هذين قربه كثيراً من الفكرة الصهيونية .

وهنا اقتنع قادة اليهود في الاسكندرية بأن مواطنيهم سيقبلون منهم فكرة الولاء المزدوج ، وراحوا يرعون القضية الصهيونية ويغذونها على مستوى اغنياء الجالية وفقرائها . وقد اصبح للتحركات الدينية معنى خاصاً في النضال من اجل الوطن القومي اليهودي ، ورفرف علم الحركة الأزرق والأبيض فوق المدرسة اليهودية التي كانت مقراً لمكاتب الاتحاد الصهيوني في مصر ، وكانت تلقى في الكنيس اليهودي دروس عبرية من قبل الجنود الفلسطينيين الذين يخدمون في القوات البريطانية ، ثم من قبل ثلاثة اساتذة اوفدوا من ارض اسرائيل . غير ان اكثر المؤيدين كانوا من « رجال الصالونات الصهيونية » الذين كرسوا فعالياتهم باقامة حفلات الكوكتيل وحفلات الاستقبال الوثيرة للزوار من قادة الوكالة اليهودية في فلسطين وكانوا يعتبرون انفسهم ملزمين بشراء اشتراكات للجريدة الصهيونية المحلية « تيرون جويف » او برعاية دار التمثيل المسمى « تل ابيب هابيما » ، او « فيلها رمونيك اوركسترا » في كل مرة يقومون بجولة في مصر .

اما الذين يؤمنون بسياسة القوة فقد كانوا يدعون الى نضال اكبر ، وعندما لم تلق طلباتهم اذناً صاغية تحولت جهودهم لتنظيم الفقراء . وهكذا فتح احدهم موشى بن آشير وهو مهاجر بولوني نادياً صهيونياً في « الحارة » وفتح مزرعة للفتيان الصغار المحليين في ضواحي المدينة . وعندما ارسلت منظمة الكشاف اليهودية في فلسطين ZOFIM روفائيل ريكاناتي لتأسيس فرع لها في مصر ساعده ابن آشير على تسجيل اعضاء في نادي الألعاب « مكابي » وحث المنظمتين على السير في طريق الصهيونية .

وعندما كان ايلي في التعليم العالي انتسب الى المكابي مع اخوته وكان ناشطاً في فريق كرة القدم ، وسرعان ما اصبح استاذاً يعلم الرياضة للفتيان الأصغر سناً . وعلى الرغم من انه قضى اوقاتاً طويلة في المكابي فقد كان يظهر اهتماماً متزايداً في الحقل المحلي في جريدة هابت لوتس هازير أي « الرواد الفتيان » وهم جماعة ينتمون الى حركة العمال الفلسطينية التي انتسب اليها فيما بعد . وكان ايلي يقبل بنهم على جريدة تربسون جويف ولم يكن يتخلف عن محاضرات رئيس تحريرها النازي جاكوب رابين التي كان يلقيها في حفلات هاشالوتس ولم يكن يهضم المعلومات الصهيونية لهؤلاء القادة الكبار ، ولكنه ادخل على تعاليم ماركس وانجلس نظرية الحياة الجماعية في الكيبوتس ونضال الهاغانا لاقامة دولة يهودية .

وقبل ان يمر وقت طويل اصبح ايلي معلماً سياسياً في الهاشالوتس وراح يكرس كل فعالياته في سبيل عقائدية الشباب الذين كانوا يحترمون اقواله وسلوكه الودي في المناسبات الرياضية كالمباريات ومخيمات الصيف او الأمسيات حول النار في الشتاء والمسيرات على الأقدام . وفي الهاشالوتس كان ايضاً يشجع على خوض الصراع الصهيوني . وكغيره من الرواد الفتيان خدم كساعي بريد وكدليل للمبعوثين الفلسطينيين الذين كانوا ينتقون مهاجرين من مصر ومهاجرين قادمين من اوروبا . وفي هذا العالم المحفوف بالأسرار تعلم ايلي ان عليه ان يطيع دون سؤال وان ينفذ الأوامر دون تردد .

وعندما كانت المكابي والهاشالوتس تعملان قابل ايلي صاموئيل عازار الذي كان متخلفاً عنه سنوات عديدة في المدرسة الثانوية ، وقد شارك سامي ايلي قلقه الحقيقي على مصر وابدى عواطف متأججة لانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين . وقد اثر التزامه بالقضية تأثيراً عميقاً في نفس ايلي وعلى الرغم من ان ايلي يصغره بخمس سنوات فقد اصبحا صديقين حميمين وكان صاموئيل باخور عازار ابناً لحاخام هاجر من تركيا في الوقت الذي وصل شاؤول كوهين من مصر ، غير ان والده اصبح

عاجزاً عن العمل بسبب اصطدامه باحدى حافلات الترام واضطر لأن يعمل خياطاً وكانت عائلته المؤلفة من خمسة اشخاص تعتمد على معونة ام سامي التي كانت تتقاضى راتباً زهيداً من الحياطة ، وكان سامي الأول في صفه دائماً كما كان تلميذاً على اساس منحة دراسية ، وتخطى درجات عديدة في مدرسة التعليم العالي ، كما كان مصوراً زيتياً بارعاً ونحاتاً في سن الثالثة عشرة من عمره عندما ادخله ريكاناتي في نادي المكابي وكانت اخته اول من التحق بالكشاف .

واصبح الشاب المرح ذو الخيال الخصب عازار استاذاً محبوباً في حركة الرواد وكان تأثيره عظيماً في مرحلة تكوين ايلي سياسياً . وفي اكثر السنين العشرة المضطربة التي تلت ذلك التاريخ كان الاثنان لا يفترقان وكانت صداقتهما تزداد عمقاً عندما جاء الصراع في فلسطين ليحدث تغييراً في حياة يهود مصر وقادهما النضال المر الذي اخذ يشتد الى ساحات الكفاح من اجل الهجرة غير المشروعة والتجسس الذي هو متاهة لا مخرج منها على الاطلاق .

عملية غوشن

في اليوم الثاني من تشرين الثاني ٩٤٥ اخذ الخبر المفزع ينتقل من عائلة الى عائلة في حي اليهود في الاسكندرية : على بعد خمسة وثلاثين ميلاً في حارة القاهرة اقدم المسلمون الذين اثارتهم اخبار النزاع في فلسطين على ذبح عدد كبير من اليهود، فقد اشعل الرعاع النار في الحارة فأحرقوا كنيساً ودنسوا سبعاً وعشرين من لفائف التوراة المطبوعة على الرق ، كما ان مستشفى الجالية اليهودية ومطبخ الحساء ودار العجزة ومأوى الضيوف وكذلك مراكز جمعية الفنون قد دمرت تدميراً كاملاً ، وقد استولى الذعر على الحي اليهودي خوفاً من انتشار الفتنة ، اما عائلة كوهين وجيرانهم فقد اقفلوا ابواب بيوتهم بالمزلاج وراحوا يستجمعون قواهم بانتظار الأسوأ .

وصعق ايلي لهذه المعلومات من القاهرة على الرغم من انه كان يعرف الكثير من امر ذلك الحاجز الرقيق الذي حبس تلك الموجة العارمة من الكراهية ضد اليهود . فقد خلت سني الحرب العالمية الأخيرة من المذابح بفضل المساعي الصادقة التي بذلتها القيادة البريطانية للشرطة في المدينة ، حين منعت المشاغبين والوطنيين المتطرفين من ان يصبوا على يهود الاسكندرية نقمتهم واستياءهم من بريطانيا وحتى بعد ان اصبح الوجود الصهيوني في فلسطين سبباً للدعوة الى الوحدة العربية في مصر، ساد البلاد جو من الهدوء ، ولم يعد ايلي يشعر بالقلق لاشتراكه علناً في النشاط الصهيوني على الرغم من تعزيز الدعاية المتطرفة من قبل الاخوان المسلمين الذين راحوا يلومون اليهود على جميع ما نزل بالبلاد من نكبات وما لاقته من شرور ، وقد ظل شديد الايمان بالعدالة اليهودية وأدان الدعاية القومية قائلاً إنها مجرد حكايات فارغة .

ولم يستمر تفاؤل ايلي طويلاً ، ذلك أن اضطرابات وقعت في جامعة الجزيرة اشتملت على مذبحة بين الطلاب ، وجرى اضراب عام ومسيرة على السفارة البريطانية في القاهرة بدعوة من اليسار ، وأخيراً اضطرابات بلغت ذروتها في الاسكندرية . وهنا خامر ايلي الرعب الذي يحدثه الصدام مع الجماهير الغاضبة الذين ساقهم عجزهم عن النضال ضد الشرطة للالتفات الى اليهود .

وقبل ذلك في مطلع العام ، بعد ان اجتاز ايلي امتحانات مبدئية مرهقة ، تسجل مع رفيق له يدعى مراد سيماخ في الكلية مع الطلاب الذين يعملون في الهندسة الكهربائية في جامعة فاروق الاول في الاسكندرية . وكانا الطالبين اليهوديين الوحيدين اللذين قبلا عام ٩٤٦ في الصف التحضيري لكلية الهندسة ، اما الاساتذة العرب فلم يبذلوا مجهوداً لاخفاء كراهيتهم لليهود . وفيما عدا الاقباط والمسلمين المتحررين فان الطلاب دون التخرج الذين كانوا ينشطون سياسياً – واكثرهم اعضاء في الاخوان المسلمين – لم يكونوا أقل عداء لليهود . وهذا الجو الاكاديمي القاتم يضاف اليه العمل الملح الذي كان ايلي يشغله في محل ريتشارد مزراحي للاستيراد والتصدير جعلت الدراسة الجدية عملاً مرهقا .

وكانت الجيوش البريطانية تستعد خلال هذه الفترة للانسحاب من المدينة ، وكان الطلاب يعلنون الاضراب بصورة متواصلة حتى يتمكنوا من مضايقة البريطانيين وحملهم على انسحاب أسرع . وكان ايلي بينهم دائماً وكان يهتف ، كما ذكر سماخ **SEMACH** : الجلاء .. الجلاء .. بحدة وعنف لا تختلف عن الآخرين . وهكذا فقد كانت الدعوة الى الاضراب مستمرة ، حتى ان صفوف الجامعات كانت في حالة غير مستمرة ، وكان على ايلي ان يتابع الدراسة في منزله ، ولكنه استطاع على الرغم من ذلك ان يجتاز الفحوص وان يتسجل في السنة الاولى من كلية الهندسة .

وعندما انقطعت مفاوضات الجلاء البريطانية عن الدلتا الى منطقة

القناة بعد سنة من هذا التاريخ ، كان اليهود ضحية اضطرابات متقطعة وقعت في المدن الكبرى ، فقد قام الغوغاء بحركة شغب لا يمكن ضبطها في عيد المولد النبوي الذي صادف الثاني من شباط ١٩٤٧ ، ولكن بعد اسبوع فقط كان ايلي بين جماعة من الاصدقاء الذين تعاهدوا على دعم الصراع ضد البريطانيين ، في وسط حشد من الجماهير الغاضبة يراقب انزال العلم البريطاني في ثكنات مصطفى باشا حيث ارتفع لمدة اربعة وستين عاماً . وكان هو والمشاهدون الآخرون يراقبون بفرح وابتهاج المهرجان الذي اقامه البريطانيون لانقاذ ماء الوجه احتفالاً بجلاء آخر جندي بريطاني عن الاسكندرية .

وكانت محاولة ايلي للانتساب الى الجيش في مطلع عام ٩٤٧ منسجمة في طبيعتها مع وطنيته المسلم بها . وعوضاً عن ان يتجنب ايلي الانتساب الى الجيش بدفع بدل نقدي ، يتوقع دفعه من اليهود الذين لم يكن يرحب بهم في خدمة العلم ، فإن ايلي التقى بضابط التسجيل الذي اعلن على الفور انه غير صالح للخدمة بسبب ما يحيط حول ولائه من شبهات . ولم يدهش هذا الرفض احداً بالنظر لشعور الكراهية المتزايدة ضد اليهود ، وهذه العدوى كانت اقوى بين رجال الاعمال العرب الذين كانوا يكرهون اغنياء اليهود ومهارتهم الاسطورية في التجارة ، ويعارضون استيراد البضائع الفلسطينية التي هي ادنى ثمناً وأرفع جودة من بضائعهم ، كانوا يكرهون هذا اكثر من كرههم لوطن يهودي قومي يقام في فلسطين .

وسرعان ما استثمرت هذه الكراهية من قبل الاخوان المسلمين الاقوياء الذين كانوا يبشرون بالتفوق العربي وبالبعث الاخلاقي ، معلنين ان الكفرة — البريطانيين واليهود — يمارسون الظلم والفساد . وهكذا استطاعوا ان يتصرفوا بعواطف الطبقة الوسطى كما سبق لهم ان فعلوا ذلك بالنسبة للفقراء والجائعين ، وراح المشايخ من الاخوان المسلمين يحثون الناس في المساجد وفي الاجتماعات العامة على استخدام العنف ضد الاجانب ، وكان قائدهم المرشد العام حسن البنّا يسوق اتباعه الذين أربى

عددهم على النصف مليون الى ثورة مسعورة ضد الاجانب . وكان يهتف قائلا : « لن نقتصر في كفاحنا على إبادة اليهود . جميع الذين يلبسون القبعة الاجنبية هم اعداء لنا الى الابد» . وكانت خطبه الدينية الغنية بالآيات القرآنية تدعو الى استعادة الثقة بالنفس ، وقد استجاب الأخوان المسلمون فوراً الى نداء الجهاد « الحرب المقدسة» ضد الكفرة . وخلال عام ١٩٤٩ استعدت جمعية تحرير وادي النيل، وجبهة من الأخوان المسلمين للقيام بحملة من اعمال الارهاب . وحصل عملاء الجبهتين على كميات كبيرة من الاسلحة والمعدات ، وسجّلوا المتطوعين وشكلوا كتائب التحرير ، وباشرت الهجمات اخيراً في ايام الشتاء حيث صار قتل اليهود والجنود البريطانيين في وضح النهار ، وراحت القنابل تنفجر في منازل السياسيين غير الموالين . ولما كان للاخوان المسلمين انصار في المناصب العليا فإن قليلين من المعتدين كانوا يساقون الى المحاكمة ، والى هذا الحد بلغت قوة الاخوان المسلمين حتى ان القصر لم يكن يجرؤ على التدخل ، والشرطة السياسية تغض النظر مشيحة بوجهها الى الطرف الآخر ، والمخابرات العسكرية ترفض ان تأخذ بعين الجد التقارير عن ان الضباط المتطرفين في الجيش كانوا يدربون الاخوان ويجهزونهم .

وقد أدى هجوم الاخوان المسلمين على اليهود الى تشجيع ايلي على الانتساب الى لجنة الحرس ، وهي لجنة يقظة جرى تشكيلها برغم العقبات التي وضعها في طريقها الاغنياء واصحاب النفوذ . وقد اقامت هذه اللجنة حزاماً من الحماية حول الجالية عندما انفجرت الاضطرابات مرة أخرى بالعاصمة في ٢٢ ايلول ، ورددت اصداءها مظاهرات لا ضابط لها في الاسكندرية ، وكان اليهود لأول مرة على قدم الاستعداد .

غير ان ايلي كان يعرف بأن هذه الاضطرابات لم تكن سوى البداية اذا صوتت الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة، التي كانت تقرر مستقبل فلسطين آنئذ ، في جانب تقسيم الدولة المنتدب عليها الى دولتين عربية ويهودية . وتحققت مخاوف ايلي هذه عندما مر قرار التقسيم في جلسة

عاصفة بتاريخ ٢٩ تشرين الثاني ، فقد رفض القرار ستة من وفود الدول العربية ، وكان القرار المذكور قد اعطى ٦٧٨ الفاً من اليهود خمسة بالمئة من الأرض الفلسطينية اكثرها قاحل، بينما عهد بما تبقى من فلسطين لمليون و ٢٢٩ الف عربي . وخلال ساعات انفجرت في سورية حركة ضد السامية كما اندلعت المذابح في ايران وقتل المئات في عدن والبحرين . وفي اليوم ذاته اغارت الشرطة السياسية على منازل اليهود وعلى الفنادق في القاهرة والاسكندرية بعد أن أوقفت عدداً كبيراً من الذين ينزلون فيها .

وروى سيماخ فيما بعد : « في باكورة ذلك اليوم من تشرين الثاني وصلنا الى الجامعة دون ان نعرف ان نداء وجه لاضراب عام احتجاجاً على القرار ، ونصحنا بعض اصدقائنا بأن نعود الى المنزل، ونصحونا بأن نتجنب الدوام على الدروس حتى يهدأ الموقف ، غير ان ايلي استشاط غضباً وتحدى المسلمين ان يطاردوه خارجاً اذا ارادوا ، وهو الذي سار الى جانبهم قبل عام من هذا التاريخ مطالباً بانسحاب القوات البريطانية من مصر . يجب ان اعترف انني كنت خائفاً فقد كان ايلي واحداً ضد مئة وحاولت اقناعه بمغادرة المدرسة ولكنه لم يقرر الذهاب إلا بعد تدخل عدد من اصدقائه المسيحيين » .

وبعد هذا ، ونتيجة للمضايقات المتزايدة ، اضطر ايلي لمتابعة دراسته في المنزل واستعد للفحوص النهائية بمساعدة عدد من اصدقائه المسيحيين، الذين زودوه بمخطط الدرس وبإرشادات استاذين يهوديين لم تجرؤ ادارة الجامعة على فصلهم . وقد حصل ايلي مع تسعة من زملائه اليهود على اذن بحضور الفحوص برغم انقطاعهم عن الدوام . ووضعوا تحت حماية الشرطة ، وكانوا يفحصون بصورة متفرقة لتجنب اصطدامهم بالمتطرفين . ومع ان ايلي قد مر بجميع الفحوص فإن شعوره المتزايد بعدم الاستقرار منعه من الدوام على مواد العام التالي .

وشجعت الحكومة استخدام اساليب القسوة ضد يهود مصر اعتقاداً

منها بأن الفلسطينيين العرب وحلفاءهم من البلدان العربية المجاورة سيتصرفون ببراعة مع المقيمين اليهود ، ولم يكن فاروق ولا الأعضاء الآخرون في الجامعة العربية يتصورون ان مستعمرة صغيرة من اليهود مسلحة تسليحاً رديئاً ستكون قادرة على الدفاع عن نفسها ضد جيوش غير مألوفة بالنسبة إليها ، ووضعت خطة احتياطية في مؤتمر سري انعقد في فصل الصيف في مصيف أنشاص ، وتقرر تطبيق تلك الخطة في حالة قبول مشروع التقسيم ، وتقضي الخطة باحتلال القدس وتل ابيب بسهولة ويسر، وإن النصر سيكون سريعاً وكاملا .

والتفت الجماعات العربية في فلسطين في هذه الفترة حول مفتي القدس الحاج امين الحسيني الذي ردد نداءات الحرب للمسلمين المؤمنين ومنادياً ان من ينذر نفسه للموت لن يموت وأن من يبحث عن الموت تهدى له الحياة . وتعهدت الجامعة العربية بمساندة القضية وساعدت على تسجيل ٨٠٠ ألف متطوع لمساعدة الفلسطينيين غير النظاميين « وسلح المصريون من جانبهم ثلاثة آلاف من الاخوان المسلمين » غير ان الجيش الجديد كان حافلاً بالانقسامات نتيجة للشكوك والخصومات والثارات القديمة . ولم يكن هناك ما يجمع المصريين والدروز والسوريين والعراقيين سوى كراهيتهم للصهيونية . وقد ارتكبت الجامعة خطأ فاحشاً عندما لم تحسن تقييم روح القتال في نفوس الصهيونيين ، وعندما هاجمت كتيبة من الاخوان المسلمين من الجنوب بعد يوم من التصويت على قرار التقسيم في هيئة الأمم المتحدة، قوبلت بمقاومة ضارية ، وكان لا بد من اعادة تنظيمها عن طريق ضباط نظاميين استقدموا من القاهرة الى ساحة القتال.

وهذا التدمير كان ايضاً غير كاف لتحويل مجرى التيار ، فقد شنت قوات اليهود السرية هجوماً معاكساً وردت الاخوان الى مستعمرة كفار داروم على الرغم من مساندة المدفعية ومن التفوق العددي ، وقد لعبت هذه النكسة والخسائر التي رافقتها على الجبهات الأخرى دورها في ايقاظ القادة المصريين ، اما الجماهير فلم تكن تعرف شيئاً عن الحقيقة، لأن اكثر

اخبار الجبهة كانت تتسرب من خلال غربال دقيق هو التفاؤل العربي . غير ان الصحافة الأجنبية التي كان يطالعها ايلي بدقة لم تدع اي مجـال للأوهام .

وفي يوم الجمعة ١٤ ايار ١٩٤٨ اقام يهود مصر متاريس لأنفسهم في بيوتهم ، وفي ذلك الصباح فتح شاؤول كوهين جهاز الاذاعة على محطة لندن، والتف جميع افراد العائلة حول الجهاز ليستمعوا الى اذاعة حية عن اللحظات الأخيرة التي يعيشها الحكم البريطاني في فلسطين. وخلال دقائق من الساعة التاسعة قبل الظهر بعد استعراض حرس الشرف في مقر الحكومة بالقدس، صعد المندوب السامي السير الن كوننغهام الى سيّارته السوداء المصفحة ضد الرصاص، وعلى نغمات جنائزية سكوتلندية تاركاً الـ **HIGHLANDERS** الهايلاندرز وراءه مسرعاً الى المطار حيث امتطى احدى طائرات النقل التابعة للطيران الملكي البريطاني متجهاً الى حيفا . وفي حفلة ثانية جرت في الميناء الشمالي، انهى بصورة رسمية وبكلمة قصيرة اربعة وثلاثين عاماً من الحكم البريطاني وأبحر مع الحامية الأخيرة الى جزيرة قبرص .

وبعد فترة قصيرة وعند الساعة الرابعة بعد الظهر صعد رئيس الوكالة اليهودية دافيد بن غوريون على جدار في متحف تل ابيب وسط هتافات القادة الصهيونيين واعضاء الحكومة المؤقتة ، وتحت صـورة ابـي الصهيونية تيودور هرتزل ، اخذ الرجل العجوز يتلو وثيقة الاستقلال معلناً تحول اسرائيل الى دولة . وبعد اقل من ثماني ساعات ، او بالضبط قبل سبع وعشرين دقيقة من إلغاء الانتداب ، قدمت الجمعية العموميـة في ليك ساكساس اقتراحاً بتقسيم فلسطين . وبينما كان ايلي وعائلتـه يصغون الى الكلمات التاريخية لمسوا شعوراً متزايداً بأن الأحداث التي تجري اليوم بعيداً عن « الحارة » ستغير مجرى حياتهم في يوم ما .

اما في القاهرة فقد استقبل قرار هيئة الأمم المتحدة بسورة جنونية . وقررت وفود الجامعة العربية، التي ناقشت ١٢ يوماً حصيلة الحرب غير المعلنة، قررت ان ترسل وحدات من الجيوش النظامية الى فلسطين، بينما

طلب الى الدول الأعضاء ان يستعدوا لحرب شاملة . وكان من المتوقع ان يكون الصراع ضد الصهيونيين صراع إبادة وفناء، وسيتحدث عنها التاريخ كما يتحدث عن مذابح المغول والصليبيين .

غير أن القيادة العليا للجيش المصري تساندها الوزارة والبرلمان كانت تتردد بالمخاطرة في مغامرة ليس جيشها مستعداً لخوضها ، غير ان الملك ضرب عرض الحائط بمخاوف قادة الجيش وأصدر أمره الى جيوشه « بأن يساعدوا على اعادة الأمن والهدوء الى فلسطين » . وفي الساعة الخامسة من صبيحة اليوم الخامس عشر من ايار ٩٤٨ شنت قوات تتألف من ٢٥ الف جندي نظامي وغير نظامي تابع لقوات التحرير الفلسطيني ، وكذلك مجموعة من جيوش مصر والأردن وسوريا ولبنان، تساندها وحدات من العربية السعودية واليمن غزواً جماعياً على فلسطين ، واعلنت القوات المصرية حرب الجهاد على اليهود بغارة قامت بها طائرة سبيتفاير على تل ابيب، بينما زحف جيشها المؤلف من ثلاثة فيالق وعشرة آلاف جندي تدعمها المدفعية والمصفحات والقوات الجوية لاحتلال منطقة النقب المكشوفة .

وكان دخول مصر رسمياً في الحرب بمثابة اشارة او بمثابة انطلاق لحملة عقاب تشن على اليهود داخل البلاد . وبينما كانت الجيوش تتدفق على فلسطين، كانت شراذم من رجال الشرطة السياسية مسلحة بمذكرات خاصة تدخل بيوت حارة اليهود بالاسكندرية عند الفجر مفتشة عن السلاح في المنازل والكنائس وأبنية الجمعيات التابعة للجالية ، ومفتشة عن الكتب والنشرات الصهيونية ، وقد اتهم مئات من المقيمين بالنشاط الصهيوني ، فطوقوا ووضعوا في مدارس الجالية حيث بدأ فريق باستجوابهم محاولاً الحصول على اعترافات بالتجسس وهي التهمة التي تستحق العقوبة القصوى . واخيراً ثبتت التهمة بصورة تعسفية على ١٤١ مشبوهاً بينهم ٢٦ امرأة . وبأمر تنفيذي صادر عن الحاكم العسكري اعتقلوا في ابو قير ، وهي قاعدة جوية تابعة للجيش البريطاني بالقرب من صحراء ليبيا . وكان اقرباء عائلة كوهين بين الموقوفين ، ولأسباب ظلت مجهولة نجا ايلي من التوقيف .

وعلى الرغم من ان القادة اليهود أعلنوا بإصرار معارضتهم للصهيونية مرات عديدة فقد أغير على جميع بيوت الحارة بدون تمييز في الأسابيع التالية واعتقل ما يقرب من الفين استجوبوا جميعاً من قبل الشرطة السياسية . وسارعت القيادة لتؤكد من جديد ولاءها الوطني ، واعلن رئيس الحاخامين حاييم ناحوم : «إننا نقف جميعاً للدفاع عن بلادنا ضد الصهيونيين »، وحث رعاياه على ان يساهموا في « صندوق الجنود المصريين » وفي « صندوق الغوث للاجئين العرب » . وفي محاولة يائسة لإثبات وطنيتهم تبرع يهود الاسكندرية بـ ٨٠٠ ألف جنيه للجيش وبمبلغ مماثل للاجئين العرب .

غير ان هذه التعهدات بالدعم والمساعدة لم تصرف الحكومة عن متابعة سياسة القمع ضد «حلفاء الصهيونية » في مصر، مما جعل العمليات المماثلة السابقة بسيطة وتافهة . وفرض منع التجول على الحارة ومنعت الاجتماعات، بما فيها اجتماع مجالس الجالية والمجالس الكنسية التي يجب ان يسبقها اذن من السلطات الرسمية كي ترسل مراقبيها لحضور هذه الاجتماعات . وكان على مختلف المنظمات ان تتقدم بأسماء المنتسبين الى وزارة الداخلية للتدقيق . وعلى اساس ان اليهود كانوا يمارسون اشرافاً على المال والتجارة والصناعة ويؤلفون نسبة كبيرة وغير متناسبة من اشغال المكاتب، لذلك نفذت الحكومة قانوناً سابقاً يتعلق بالشركات وهو يقضي بأن يكون ٧٥ بالمئة من الموظفين المؤجرين و ٩٠ بالمئة من العمال مواطنين مصريين . وكانت اكثر العقوبات تدميراً هي الأمر بمصادرة الممتلكات الخاصة والأموال لجميع الموقوفين والذين هم تحت رقابة الشرطة . وقد خصص عشرة بالمئة من قيمة هذه الممتلكات لتسديد نفقات ادارتها . ولم يكن هناك اي سبيل للخلاص من ذلك ، كما صدر تشريع خاص يمنع اليهود من مغادرة البلاد بدون اذن خروج . اما المبالغ النقدية او المجوهرات او السندات المالية التي يمكن نقلها الى خارج البلاد فكانت محدودة جداً . وقبل يهود الاسكندرية هذه التدابير التعسفية بإذعان وراحوا يصلوّن من اجل اخوانهم في اسرائيل ، وكثيرون من الكبار كانوا يضعون آمالهم في

نهاية قريبة للحرب. وقد زادت في تفاؤلهم الرسائل الأولى عن الانتصار، التي اشارت الى ان الصراع لن يستمر طويلاً . وبدا ان الحقائق تعزز وتجسد تحقيقات الصحف حيث زحفت القوات الرئيسية للحملة المصرية ظافرة في اتجاه المدن التي سيطر عليها العرب في جنوب النقب واستولت على الطرق العامة وعلى مساحات واسعة من الصحراء ، ولكن بعد استيلائها على احد الكيبوتسات وتطويقها لعدد آخر من المستعمرات اضطرت للتوقف في شمالي النقب، حيث وافقت على وقف اطلاق النار لمدة ٢٨ يوماً التي عرضها الوسيط السويدي الكونت برنادوت . وسبب موافقتها ان التجربة كانت تنقصها من جهة وأنها أرهقت بالابتعاد عن خطوط تموينها من جهة اخرى (١) .

وقد اثبتت فترة الهدوء غير المتوقعة انها كانت نعمة حاسمة بالنسبة للاسرائيليين . فقد اندمجت العصابات السرية الثلاثة في زحال (قوات جيش الدفاع الاسرائيلي) واعيد تنظيم الجيش الى قيادات برية وجوية وبحرية ، وقبل ان ينفجر القتال للمرة الثانية استطاع الجيش الاسرائيلي ان يضع في الميدان ٦٠ ألف رجل مسلحين تسليحاً جزئياً مع عدد من قطع المدفعية وبعض الدبابات المرتجلة والسيارات المصفحة وقليلاً من الطائرات . وفي خلال فترة الهدنة عززت القيادة المصرية جيشها حتى بلغ ١٨ الف رجل فاستنفدت بذلك عملياً طاقة القاهرة العسكرية. وكان ايلي يراقب موكب الحاميات الجديدة قبل أن تغادر مصر الى الجبهة المصرية وقال

---

(١) ملاحظة للمعرب : كانت الدول العربية (مصر والعراق والاردن) في حرب عام ١٩٤٨ ترزح تحت احتلال الجيوش الاجنبية، اما سوريا ولبنان فلم يكن لدى كل منهما جيش بالمعنى الصحيح ، ولم يكن لديهما سلاح سوى القليل القليل والخفيف الخفيف مما خلفه الفرنسيون قبل الجلاء ، وبالجملة فإن جميع الجيوش والأسلحة في سائر الدول العربية لم تكن الا لحفظ الامن الداخلي فقط ، ولم تكن مهيأة ولا مستعدة للدخول في اية معركة حربية . اما اسلحة الجيش البريطاني واعتدته فقد سلمت بشكل او بآخر لليهود . وقد مارست الدول الكبرى ضغوطاً هائلة على الحكومات العربية لحملها على قبول الهدنة ، واستخدمت كل ما لديها من نفوذ وامكانيات لفرض الهدنة .

آنئذ : « إن ذهاب هؤلاء زاد في شكوكنا في القصص السابقة عن الانتصارات المصرية » . ولاحظ احد اصدقائه بعد ذلك قائلاً : «اذا كانوا مستعدين للدخول الى تل ابيب كما يدّعون فلماذا يقذفون بهذه التعزيزات الضخمة الى جبهة القتال ؟ » اما الجيش فقد فسر قراره بمضاعفة الحملة عندما اعلن عن هجوم قادم . غير ان اليهود الذين لديهم طرق الاتصال بالصحف الأجنبية ويستمعون الى محطات الاذاعة الأوروبية والاسرائيلية راحوا يناقشون الموقف العسكري في إطار شكوك كان لها ما يبررها .

وهذه الشكوك المتزايدة عن القتال لم ينفردوا بها وحدهم . ذلك ان التوقف عن القتال بعد شهر واحد فقط اثار الدهشة لدى الشعوب العربية، اذ سبق ان أغرقت بطوفان من اخبار الراديو التي اعلنت عن الانتصارات الرائعة ، مصورة الملك فاروق كبطل وقائد عسكري، وقد ألهب الجماهير ايضاً ستار من الدعاية الضارة ضد « العصابات الصهيونية في فلسطين » ، وقصص تصف الجرائم الاسرائيلية. وظهرت شعارات قبيحة للدعوة اليهودية ، وكان من يتظاهر بأنه ضد الصهيونية يزداد احتراماً. ووضعت المقاهي في الاسكندرية لافتات كتب عليها: «هنا لا يقبل اليهود ولا الكلاب» . ولكن عندما اتضح ان ليس هناك نصر قريب تحولت نقمة المسلمين المتزايدة الى سكان الحارة فنسف ١٢ منزلاً في القاهرة كان يسكنها اليهود من طائفة الكاريت **CARAITE** فقتل عشرون وجرح واحد وأربعون. وقد اتخذت السلطات موقف الصمت من هذه الأعمال العدوانية ورفضت المستشفيات تقديم المساعدة واعترضت الشرطة ورجال الاطفاء اعمال الانقاذ، وهوجم الحي من قبل رواد السلب والنهب من العرب الذين كانوا يجرون اليهود من العربات والباصات وسيارات التاكسي ويضربونهم ويسرقونهم بينما كان شرطي المدينة يتخذ موقف المراقب(١) .

---

(١) لم يشأ المؤلفان اليهوديان ان يشيرا الى ان الاندفاعات الشعبية في مصر وايران وسوريا والعراق كانت ردة فعل عفوية للمذابح واعمال الابادة التي قامت بها العصابات اليهودية في القرى العربية غير المحاربة والمحرومة من السلاح، ولم يتورع اليهود عن التقتيل والتمثيل =

وفي نهاية الأسبوع الأول من تموز نفد صبر المصريين فأنهوا وقف اطلاق النار بهجومين شنوهما على مستعمرات زراعية، غير ان الاسرائيليين اوقفوا الهجومين، ورد الطيران الملكي المصري على ذلك بغضب اذ قام بأول غارة في التاريخ على القدس . اما حرب الأيام العشرة التي تلت ذلك فقد اسفرت عن سلسلة لا تنقطع من الانتصارات الاسرائيلية .

وخلال هذه الجولة احتمل يهود الاسكندرية والقاهرة اعظم احداث السلب والنهب التي تقوم بها الغوغاء ، ففي يوم الجمعة ١٦ تموز كانت وحدة من القلاع الطائرة، التي ابتاعها الطيران الاسرائيلي من جنوب افريقيا، تقوم بمهمتها الأولى في رحلة فوق القاهرة وهي في طريقها الى اسرائيل . وبعد غروب الشمس بقليل اي بعد الافطار ، وكان الشهر شهر رمضان ، حلقت طائرة ب – ١٧ فوق قصر عابدين فألقت أربع قنابل اخطأت اهدافها بشكل وحشي ، ولم يستطع المختصون اطلاق صفارات الخطر الا بعد ان بدأت الغارة ، وهكذا فإن المقيمين في هذه المنطقة المأهولة بكثافة حبسوا في بيوتهم ، كما ان ١٢ بيتاً تقريباً دمرت وعدد من المدنيين قتلوا . وعندما انتشر خبر امطار العاصمة المصرية بالقنابل اليهودية اجتاح مئات من الغوغاء مراكز الجنود المكلفين بحراسة حارة اليهود، ولكنهم صدوا من قبل لجنة الحراسة اليهودية المحلية . ولم تصل شرطة المدينة إلا بعد ثلاث ساعات لتنضم الى الرعاع في عمليات قتل وسلب جنونية .

وقامت الصحف في اليوم التالي بتبرير اعمال العنف متهمة اليهود المصريين بارسال اشارات لطائرات العدو وإرشادها إلى أهدافها . وبدون اي انذار سابق طردت مئتا عائلة من عائلات اليهود التي تعيش قرب القصر من منازلها ، ونقل كل ما تملكه من اثاث في شاحنات كما كدس بعضها في الشوارع وعرض للبيع . وأثارت الحكومة ردود فعل اخرى

= بالأطفال والشيوخ والنساء بصورة لم يشهد التاريخ لها مثيلاً حتى في العصور القديمة المتسمة بالهمجية والوحشية ، وقد نشر الكثير من الصحف العالمية قصصاً ووقائع وصوراً مثيرة عن تلك المذابح التي لا يقدم عليها انسان متمدن . (المعرب)

باجراءات دفاعية زائفة ، كاطلاق صفارات انذار متكررة ، والتعتيم ، واطلاق النار من المدافع المضادة للطيران ، ضد طائرات اسرائيلية غير موجودة . وكان رد الفعل عنيفاً ، فقد حطمت القنابل اكبر محلين تجاريين في المدينة يمتلكها يهود ، فقتل ثلاثة وجرح ١٧، ولحقت اضرار بخمسمائة متجر يحيط بها . وفي وقت لاحق من ذلك الصيف نسفت بيوت ومحلات تجارية اخرى ، وادعت السلطات ان ذلك نشأ عن غارات جوية وعن انفجار اسلحة مخبوءة . واستغل الاخوان المسلمون هذه الأجواء الارهابية باللجوء الى عملية ابتزاز باسم الحماية في حارة اليهود، وأرغمت اصحاب المتاجر والمقاهي على ان يدفعوا جعالة لقاء عدم اصابة ممتلكاتهم بأضرار ، ولكن هؤلاء المبتزين لم ينفعوا اليهود شيئاً، ففي صيف ذلك العام احرقت ممتلكات بلغت قيمتها الملايين بينما ارتفع عدد القتلى الى ٢٢٠ .

وفي ١٩ تموز نفذت الهدنة الثانية بينما كان الاسرائيليون والمصريون يتابعون عملياتهم العسكرية في نطاق محدود، بعيداً عن انظار لجنة الهدنة التابعة لهيئة الامم المتحدة . ولم يأخذ الجيش الاسرائيلي زمام المبادرة الا عندما استأنف القتال في تشرين الأول (١) ، وفي اندفاعه نحو الجنوب فتح الطريق الى النقب ، وفي الوقت الذي عين فيه الملك فاروق قائداً جديداً للحملة، كان الاسرائيليون قد اجتاحوا الصحراء وقذفوا بجيشه الى الوراء في شبه جزيرة سيناء ، ولم يكن لدى القيادة المصرية العليا مفر من الموافقة على وقف اطلاق النار للمرة الثانية في ٢٢ تشرين الأول . وكان انهيار الجيش المصري بمثابة عملية كاشفة للسياسيين الذين اتهموا بالخيانة وبيع ارض الوطن . ولكن على الرغم من هذه المذلة العسكرية رفضت مصر المفاوضة على الهدنة فلا الملك ولا الحكومة وافقا على المخاطرة بقبول

---

(١) خلال الهدنة الاولى وبعدها، اخذت الأسلحة الهجومية والدفاعية تتدفق على اسرائيل من جميع الجهات ، وفي مقدمتها روسيا التي امدتها بالاسلحة التشيكوسلوفاكية التي كانت عنصراً حاسماً في تقرير مصير المعركة ، وانكلترا التي مدتها بصورة غير مباشرة بطائرات من جنوب افريقيا وأسلحة هجومية ثقيلة اخرى (المعرب) .

الهزيمة . وهكذا استعدت القيادة الاسرائيلية العامة لتوجيه ضربة الرحمة ، وفي هجومين متوالين في شهر كانون الأول اجتاز الجيش الاسرائيلي الحدود الى مصر ، وقبل ان ينتهي العام كان مصير الجيش المصري قد تقرر بدون رجعة . وفي هذه المرة تدخل البريطانيون و راحوا يضغطون من اجل وقف اطلاق النار مهددين باستخدام جيوشهم لتنفيذ ارادتهم . وفي ٢٩ ايلول قبل بن غوريون بالهدنة خوفاً من انقطاع العلاقات مع بريطانيا او من الدخول في حرب ضدها ، واصدر امره الى القوات الاسرائيلية بالانسحاب من جزيرة سيناء .

وفي هذه المرحلة اصبحت الكارثة التي نزلت بالجيش المصري في الهجوم الأخير واضحة للعيان ، بينما كان الجنود الجرحى في اجازة يصلون عائدين من الجبهة . ولما كان هذا قد حدث بعد دعاية اعلامية ضخمة عن انتصارات حاسمة على الصهيونيين فقد سبب ظهور الحقيقة اعتقاد الشعب انه كان مضللاً . وامتدت الاضطرابات فقتل مدير الشرطة بينما كان يكافح ضد اضطرابات قام بها طلاب كلية الطب في جامعة فؤاد الأول ، وقتل النقراشي باشا رئيس الوزراء رمياً بالرصاص في مصعد وزارة الداخلية ، وبعد فترة قصيرة قتل حاكم القاهرة برصاص الأخوان المسلمين . وفي محاولة لوقف موجة الارهاب هذه اصدرت الحكومة امرها بحل جمعية الاخوان المسلمين .

وجاءت الوزارة الجديدة لتعيش حالة قريبة من الذعر ، فقد جدد الاسرائيليون هجومهم في ٣ كانون الثاني ٩٤٩ عندما أغاروا على الزاوية الجنوبية من قطاع غزة. وعندئذ ادرك القصر ان الاستسلام الحتمي سيؤدي الى سقوط الحكومة ونشر الفوضى . وبعد اربعة ايام قبلت القاهرة بوقف دائم لاطلاق النار ، وأعلنت موافقتها على المفاوضة من اجل الهدنة . وبعد ثلاثة وأربعين يوماً من المحادثات مع الاسرائيليين دخل الوفد المصري قاعة حفلات الرقص في فندق الورود في جزيرة رودس للتوقيع على اتفاق يسمح لهم بالاحتفاظ بقطاع غزة، ولكنه يفرض عليهم التخلي

عن جميع منطقة النقب ، وكانت هذه هزيمة لم يستطع اي جهاز «مزيت» للدعاية ان يخفي معالمها ، وقد ظلت سلطة فاروق بدون منازع غير أن موجة من ردود الفعل ضد نظامه الفاسد اجتاحت كل المدن .

وهذا الانتصار الكاسح أدى بالطبع الى ردود فعل جديدة ضد اليهود الذين كانوا دائماً كبش الفداء للغوغاء ، وقد كتب مراسل جريدة البريد القبرصي من القاهرة يقول: «لا يمر يوم بدون اعمال قتل ونسف منازل في القاهرة والاسكندرية ، وليس هناك مجال للتفضيل بين غوغاء الشارع وبين رجل الشرطة في الوحشية والخروج على القانون» . وهكذا فان الحارة في الاسكندرية التي كانت في يوم من الأيام ملجأ اميناً اصبحت الآن يغمرها الخوف . اما كوهين الذي وجد له ملجأ في مصر قبل جيل للهرب من الاضطهاد، فقد وجد نفسه مضطراً للافلات من جذوره الجديدة مرة اخرى . وعندما أعلنت الحكومة عام ١٩٤٩ أنها ستمنح سمات خروج لليهود بشرط أن لا يعودوا . قرر أفراد عائلة كوهين ان يغادروا البلاد إلى اسرائيل عن طريق فرنسا مع ابنتيهما ، اما الأولاد الستة فسيبقون بصورة مؤقتة ، وقد طمأن ايلي والدته قبل ذهابها قائلاً : « لا تقلقي فسأكون الى جانبكم خلال شهر » غير أن صوفي كوهين انتظرت سبع سنوات قبل أن ترى ابنها مرة اخرى .

وكان قرار ايلي للبقاء في مصر ناشئاً عن اسباب عملية ، ففي الوقت الذي هاجر فيه اخوته الأربعة عام ١٩٥٠ تاركين وراءهم موريس فقط ، كان هو قد بدأ دراسته للسنة الثانية في الجامعة ، وكان يعلم ان ارضاء طموحه في الحصول على درجة بالهندسة الاليكترونية سيكون صعباً في اسرائيل بدون معرفة كافية للغة العبرية الحديثة (١) . وكان يأمل مع ذهاب ذكريات الحرب في فلسطين ان تنتهي فترة الاضطراب بين

---

(١) هذه المبررات لبقاء ايلي في مصر سبع سنوات بعد نزوح افراد عائلته لا تمت الى الحقيقة ولا الى الواقع بأية صلة ، لأنه كان مكلفاً بأعمال ومهمات سرية للتجسس وغيره كما سيتضح ذلك في الفصول التالية (المعرب).

الطلاب . غير ان توقعاته لم تعش طويلا ، فقد كانت الحياة في الجامعة تعكس حالة من التوتر ، كما كان اليأس يأخذ بخناق الطبقات الدنيا والوسطى ، والبريطانيون لا يزالون يحتلون منطقة قناة السويس . اما الجراح التي سببتها الحرب مع اسرائيل فلم يكن في الجو ما يشير الى انها ستلتئم . وفي اواخر عام ١٩٥١ كانت مصر في حالة انهيار اجتماعي واقتصادي . وكانت نسبة المواليد المتأرجحة تأتي كل يوم بألف ومئتي فم جديد يبحثون عن الطعام في شعب ارتفعت كثافة النفوس فيه الى اعلى ما عرف في العالم ، ففي كل ميل مربع من الأرض ألف وخمسمائة فلاح على طول ضفتي نهر النيل ، ولا يزرع من أرض مصر سوى ٢,٥ بالمئة ، وفي خلال العام كان متوسط الدخل السنوي للفرد لا يزيد على ٧٥ دولاراً بينما ارتفعت تكاليف المعيشة ٢٢ نقطة ، أضف الى قائمة الفقر هذه ان إنتاج البلاد من مادتيها الرئيسيتين القمح والقطن قد هبط بصورة محسوسة . وحتى الفلاحين الذين عرفوا بولائهم للملك بدأوا يعرفون انه لا يهتم بمصيرهم اكثر مما يهتم بمسراته وبأجساد الحسان من صديقاته . وكان ايلي يرى الملك فاروق وهو يدخل من خلال باب خلفي لمستشفى المواساة الذي يطل على البحر الأبيض المتوسط حيث أقام لنفسه عش غرام بالاضافة الى اعشاشه في القصور العشرة التي يملكها ، وفي الغرف السبع عشرة ذات الأثاث الوثير في الطابق الأعلى . وكان كل ما من به فاروق على الجماهير كراهيته العلنية للبريطانيين التي ارضى بها الاخوان المسلمين . ومن المفارقات المضحكة ان هذه الكراهية التي ارادها كبديل لكل ما يجمع الشعب وراء العرش هي التي أدت في النهاية الى سقوطه .

فبعد ان انهارت المفاوضات الانكليزية المصرية لاخلاء منطقة القناة اعلن رئيس الوزراء الجديد النحاس باشا الغاء معاهدة الـ ١٥ عاماً وشن « معركة القناة » ، مصدراً اوامره بمقاطعة الحامية البريطانية ، وقد وافق هذا الحصار الاقتصادي غارات قامت بها عصابات الفدائيين ورد البريطانيون عليها مستخدمين المدافع الثقيلة والدبابات مدمرين قرى بكاملها . وفي كانون الثاني ١٩٥٢ هاجم البلوك نظام « البوليس المصري المساعد »

مستودعات التل الكبير ، فاقتحم البريطانيون منطقة قيادة القنال في الاسماعيلية ، وبعد ست ساعات عندما رفع العلم الأبيض كان ثمانون من رجال الشرطة قد قتلوا وعشرينات جرحوا واكثر من ألف أدخلوا السجن . وكان اليوم التالي هو اليوم الذي عرف بالسبت الأسود الذي زحف فيه البلوك وجماعات المتطرفين على قصر عابدين مجتمعين وهم يهتفون : « الموت للبريطانيين» و « اقتلوا اليهود » ، وفي حمى الانتقام التي تلت ذلك ضرب ايلي وعازار بوحشية عندما كانا يحاولان مع آخرين من لجنة الحرس اليهودية حماية اليهود في « الحارة » من الغوغاء الغاضبة ، وعند حلول الظلام كان ٢٦ قد قتلوا واربعمائة بناء اشتعلت فيها النيران و ١٢ الف شخص ظلوا بدون مأوى وبلغت الأضرار ٧٠ مليون دولار . عند هذا فقط اعلن الملك الاحكام العرفية وامر الجيش بالدخول الى القاهرة . وفي اعقاب السبت الأسود اطيح بالنحاس باشا ، وفي الأشهر الخمسة التالية بقيت الحكومة في حالة أزمة دائمة ، بينما كانت تبديلات سريعة تجري في رئاسة الوزارة . غير ان اساليب الملك الاوتوقراطية كانت تأتيه بنتائج معاكسة ، ففي ٢٣ تموز قام ١٢ من ضباط الجيش برئاسة محمد نجيب بالاستيلاء على المراكز الحيوية للدولة وعلى المواصلات في القاهرة . اما الملك فاروق الذي كان يقضي عطلة الصيف في مقر رأس التين في الاسكندرية فانه لم يستطع في بادىء الأمر ان يدرك الجدية في نوايا الضباط ، وعندما قدمت اليه قائمة بمطالب صارمة بدأ يفهم ان عرشه في خطر ، فاقدم بسرعة على سحب اكثر من مليوني دولار من الحساب الملكي في بنك مصر ، وهرّب مليون آخر من الخزينة بأمر منه ، وأمر بجمع كل الذهب الموجود في القصر واعداده للنقل . وبعد ثلاثة ايام من الانقلاب استسلم فاروق لمطالب مجلس الثورة وفي حركة لانقاذ ماء الوجه استقال لمصلحة ابنه البكر احمد فؤاد .

وفي مساء ٢٦ تموز كان ايلي يراقب على الكورنيش مع آلاف من سكان الاسكندرية خروج الملك في اهابه ، الذي يبلغ ٢٩٠ رطلا وهو ملفوف ببزة اميرال البحر ومعه الملكة ناريمان وحاشيتهما ، وكانت

الجماهير تراقب هذا المنظر بصمت بينما كانت فرقة تعزف النشيد الوطني حيث انزل العلم الأخضر وطوي وقدم الى الملك . وعانق فاروق الرئيس علي ماهر والسفير الأميركي ثم مشى على المعبر الخشبي وهو يرفع رأسه الى اعلى . وفي الساعة الخامسة والدقيقة ٤٥ بعد الظهر كانت الباخرة محروسة المحملة بكنوز الملك تشق طريقها من الميناء حاملة العائلة المالكة الى حيث منفاه الدائم . ولم تحزن اكثرية الشعب المصري على خلع الملك، وخاصة اليهود الذين كانوا يعتقدون ان إبعاده عن العرش سيؤدي الى مولد حكومة تلتفت الى خير الشعب . ولكن بينما كان محمد نجيب يعد باعداد مخططات دراماتيكية تؤدي الى حل بعض المشاكل المزمنة في البلاد كانت مصالح الأمن التي راح يرأسها الآن ضباط لم ينسوا هزيمتهم المذلة في فلسطين، يثيرون حملة معادية للصهيونية. وفي موجة من التوقيفات التي تلت حركة الانقلاب كان ايلي بين الموقوفين الذين تحوم حولهم شبهة الاشتراك في نشاطات صهيونية .

وقد عكس هذا التوقيف الكيدي انطباعاً عميقاً في نفس ايلي الذي ما زال يعتبر نفسه مواطناً مصرياً مخلصاً ، وهذا ما كان يراه فيه اصدقاؤه العرب . وعلى الرغم من الافراج عنه بعد فترة قصيرة بدون ان تسند اليه اية تهمة ، وبعد اخراجه من سجن التوقيف في مقر قيادة الشرطة كان ايلي بعيداً عن الشعور بالأمن . ففي عودته الى جامعة فاروق كان عليه ان يحمل وصمة مثيري الشغب . وفي غيابه ادى نقص الأساتذة المزمن وانصراف الطلاب الجامعيين الى السياسة لهبوط مستوى التعليم الى حد كبير . ومع ذلك فقد اعد ايلي نفسه للامتحانات الأخيرة ، غير ان اساتذته الذين عرفوا بأمر توقيفه رفضوا ان يمنحوه علامات المرور الى الصف الأعلى ، على الرغم من ان تحضيره كان فوق المستوى المطلوب . وكان على ايلي ان يتحمل بالاضافة الى ذلك مضايقات مستمرة من اعضاء الحرس الثوري للطلاب الذين كانوا يقضون اوقاتهم في ضرب من تبقى من الطلاب اليهود ، والاعتداء عليهم اكثر مما يقضونها في التظاهر ضد الانكليز . وفي السنة التالية ارغم ايلي على الانسحاب من الجامعة نهائياً .

ولم يكن العثور على عمل مهمة سهلة . فعندما كان عمره ٢٤ عاماً استطاع ان يجد عملاً فيما تبقى من المحلات التجارية اليهودية . وكان عزاؤه الوحيد عن متاعبه التي لا يجد منها مخلصاً ارملة غنية تملك متجراً للقبعات النسائية في شارع ميسالا . وبعد اشهر من البحث استطاع ان يجد من يستخدمه كمحاسب في شركة للأخشاب . ولكن عندما عرض عليه احد معارفه ابراهام كلارك أن يدير مخزن الألبسة الذي كان في ملكيته وافق ايلي على الفور ، ونمت بين الرجلين صداقة متينة . كان كلارك متزوجاً من فتاة يونانية مسيحية ، وقد تعرف ايلي على اختهـــا ماريا ، وقال صديقه مراد شماس: إن ايلي اولع كثيراً بهذه الفتاة ، فقد كانت فاتنة تموج اشراقاً وحيوية ، وكان ايلي يبدو سعيداً جداً معها كما كان يتحدث عنها باستمرار ، ولا يذهب الى مكان الا معها . ولم يفوت اصدقاؤه فرصة التنكيت عليه بسببها ، ولكن كان لا يضايقه ذلك بل يبدو به سعيداً .

غير ان قصته مع ماريا لم تحد من القلق الذي كان يساوره على شعبه . فقد تلاشت الآن كل تصوراته عن نظام اكثر ديموقراطية ، واصلاحات اجتماعية اساسية ، ونهاية للرشوة والفساد . وكان موزع النقمة بين نظام تسوده تدابير القمع ، وبين نظام سياسي معاد يقوم على اساس من التمييز العنصري ضد اليهود . ولم يجد حلاً للخروج بالجالية اليهودية من مصاعبها سوى هجرة جماعية ، وعلى هذا الأساس راح ينشط في مساعدة الهجرة غير المشروعة الى اوروبا واسرائيل .

ولم تكن عمليات الموساد (المخابرات الاسرائيلية) غريبة عن ايلي (١) . فقد كانت الآليابت : **Le Alia Bet** (الصف ب وكالة الهجرة) هي التي تنظم النقل غير المشروع الى فلسطين . وكان ايلي كعضو في

---

(١) هذه اول اشارة الى ان ايلي كوهين يعمل للمخابرات الاسرائيلية منذ اعقاب حرب ١٩٤٨ ، ثم ارسل الى اسرائيل في اول دورة تدريبية للتجسس، كما سيأتي تفصيل ذلك في الفصول التالية (المعرب) .

الهاشالوتز يتصرف دائماً كساعي بريد للمنظمة ، غير ان طبيعة النشاطات السرية تغيرت بصورة ملحوظة خلال الفترة التي سبقت اعلان الحرب ، وعندما كان الهرب من البلاد العربية والدخول الى فلسطين محفوفاً بالمخاطر. وفي بداية الحرب قام موشي بن آشير بتنظيم اول عملية نقل من الاسكندرية أبحرت على طول الشاطىء المصري الى فلسطين . وفي وقت لاحق ساعد يهود يعملون في خدمة الجيش البريطاني فتيات يهوديات على الهجرة عن طريق زيجات وهمية . وفي منتصف عام ٩٤٣ قام دافيد هاميري وهو شاب يعمل في احدى الكيبوتزات في اشدوت ياكوف ، وكان يشرف على هجرة اليهود من البلاد العربية لحساب الموساد . قام بتشكيل فرع مصري ووضع على رأسه عميلة من الهاغانا سوداء الشعر ، حادة النظرات اسمها روث كليفر ، وقد كسبت شهرة عن طريق نجاحها في تنظيم الحركة العمالية ، الا ان اثرياء اليهود في القاهرة رفضوا حتى الاستماع الى روث ، غير ان حظاً اوفر كان ينتظرها في الاسكندرية حيث ساعدها اكثر اعضاء الجالية نفوذاً على ادخال بعض الشباب الصهيونيين ، وكذلك الذين يتعاطفون مع اليهود – من غير اليهود – في شبكة الموساد التي كانت تهرب المهاجرين المحليين واللاجئين الأوروبيين الى فلسطين سيراً على الأقدام ، او ركوباً على الجمال ، او في القطار ، او في السيارة ، عن طريق غزة الى الكيبوتزيم في شمالي النقب . وكان البرت شويكة احد معاونيها يدير هذا المجهود من مكتب القرطاسية الذي يملكه في الاسكندرية. وعلى الرغم من المصاعب التي كانت تضعها السلطات القنصلية البريطانية فقد كان يزود المهاجرين بجوازات مؤقتة ، وكان يحصل عن طريق هذه الجوازات ، وبالتواطؤ مع الموظفين المصريين ، على سمة ترانزيت الى اوروبا . وقد غادر كثير من الرواد الشبان مصر الى اسرائيل للانضمام الى الهاغانا قبل ان يطلق الرصاص على شريكه في احد شوارع تل ابيب اثناء منع التجول عندما كان في رحلة الى فلسطين لتبادل المعلومات .

وبعد يوم النصر تولى ليفي ابراهامي عمليات الموساد ، وهو من الجيل الثالث ليهود فلسطين الأصليين (سابرا) وقد استطاع تحت غطاء

من ضابط بريطاني برتبة رائد ان يقوم بمهام مماثلة في بلاد عربية اخرى . ولما كان رقم الكوتا الرسمية للمهاجرين الى اسرائيل يقتصر على ١٥٠٠ مهاجر شهرياً فإنه كان يجري النقل من اوروبا وافريقيا الشمالية بمعرفة رجال ابراهامي . وكان ايلي في كثير من الأحيان يزور مقر قيادة ابراهامي لتسليم الرسائل او لاصطحاب اليهود الذين يريدون الهجرة ، وكان هذا المقر بناء من طابقين في ضواحي الاسكندرية ، كما كان في الظاهر ملجأ صحياً لجنود الحلفاء ، ولكنه في الحقيقة مركز لنشاط الهاغانا في المنطقة . وعندما انفجر القتال عام ١٩٤٨ توقفت هذه العمليات ولم تتجدد إلا بعد حل الموساد رسمياً عام ١٩٥٠ ، حيث انتقلت الاتصالات الى مصالح المخابرات الاسرائيلية والوكالة اليهودية تحت رقابة شيئيل مودين **CHEIL MODIIN** من فرقة المخابرات العسكرية وكانت تقوم بعملية التهجير من مصر واسمها بالشيفرة عملية غوشن وكانت تساهم فيها الوكالة اليهودية .

وبانتهاء الاحتلال البريطاني ألغى المصريون كثيراً من قيودهم الخاصة بالهجرة لأنهم كانوا راغبين في الحيلولة دون قيام طابور خامس من اليهود في حالة تجدد اعمال القتال مع اسرائيل . غير ان اليهود الذين كانت لديهم رغبة في مغادرة البلاد دون ان يملكوا حداً أدنى من الرصيد المالي او من الممتلكات كانوا يواجهون عقبات كبيرة ، ولتسهيل مهمتهم طلبت الوكالة اليهودية من الصهيونيين عن طريق مبعوثيها تأسيس مكتب غرونبرغ للسياحة في بناية ايموبيليا ، على ان يكون له فرع في الاسكندرية وكان المهاجرون يحصلون من خلال وكالات السفر هذه على الوثائق الأساسية كسمة خروج وتراخيص الشرطة وبراءة الذمة من ضريبة الدخل وجوازات سفر او اذن مرور وسمات ترانزيت الى ايطاليا او فرنسا وسمات صورية الى اميركا الجنوبية ، وعندما يصل هؤلاء الى مرسيليا او نابولي او جنوى كانوا يوضعون في معسكرات ترانزيت ، وبعد فحوص طبية يبحرون الى اسرائيل ، ولا شك ان هذه الاجراءات المعقدة تحتاج الى اتصالات دقيقة بالموظفين المصريين وكان بعضهم يوافق على التعاون لقاء ثمن .

قدم ايلي مساعدات ثمينة في هذه المرحلة الدقيقة من العملية ، وقضى ساعات طويلة في المقاهي على امتداد شارع الحرية وفي النوادي الليلية في حي العطارين المشع بالأنوار ، وكان يستضيف ضباط شرطة الحدود والجمارك وشعبة الجوازات الذين كانوا يقبلون منه الشراب والطعام والرشوة ، ليتجاوزوا المراحل القانونية ، واقام علاقات مع نواب القناصل في السفارات الفرنسية والألمانية والايطالية والبريطانية التي كانت على استعداد لمنح سمات الترانزيت لقاء اجور اعلى .

وفي الوقت الذي كان فيه ايلي يبني شبكة اتصالاته، استدعي الى منزل صديق له هو سامي عازار الذي كان يتصل به كثيراً للمداولة بشؤون الهجرة، وطلب اليه عازار ان يستأجر غرفة لا تكون قريبة جداً من وسط المدينة ، لتصبح محل لقاء ومناقشة لجماعة الصهيونيين ، ولم يطلب ايلي أية ايضاحات ولم يسأل عن نشاطات الفرقة الا بعد ان وجد الغرفة واستأجرها. وفي هذه المرة اعلن عازار ان الغرفة سوف تستخدم مقراً للقيادة او وكراً للعسكريين من الصهيونيين المحليين ، ومصدر بيانات ومعلومات سياسية واقتصادية لمصالح المخابرات الاسرائيلية ، وعندما كانا يتحدثان في مناسبة اخرى عن مشاكل الهجرة، حث عازار ايلي على الالتحاق بالفرقة، الا انه كان مرهقاً بالأعمال فلم يدل بجواب قاطع .

وقبل عامين اي في عام ١٩٥١ قام الكولونيل بنيامين جبلي رئيس الفريق العسكري في المخابرات الاسرائيلية، وشيل مودين بزيارة قادة الفريق في مكتبه بتل ابيب وحيفا للبحث في الشؤون الخاصة بتجمع رجال المخابرات في مصر ، وكان بين المقترحات التي قدمت بشأن خطط العمليات تشكيل شبكة تجسس جديدة بقصد توسيع اطار الجهاز الحالي . فقد بدأ العمل في في هذا الحقل منذ ١٩٤٤، عندما اقامت الشعبة السياسية للوكالة اليهودية محطة استماع في القاهرة، تحت ستار تقديم الخدمات لنادي الجنود اليهود الفلسطينيين ، واستطاعت كليفر في وقت لاحق ان تجند عدداً من الصهيونيين لمساعدة عملاء شاي شيروت أيودوت، اي مصلحة المعلومات في

القيادة العليا للهاغانا، وجمع الأخبار السرية عن البريطانيين والعرب، ثم قام خلفها ليفي ابراهامي بتطوير هذه الشبكة بحيث لم يقتصر عملها على التجسس السياسي والعسكري بل اشتمل ايضاً على اعمال التخريب وحمل السلاح .

واضطر بعض هؤلاء ان يغادر مصر قبل قليل من حرب عام ١٩٤٨ كما ان بعضهم استدعي وأسندت اليه مهام جديدة ، ولم يبق في مصر سوى القادرين على العمل منفردين، والذين ينشطون في المدن الكبرى او داخل مؤسسات الجيش البريطاني او الشبكات المجندة في الأقليات الدينية — الأقباط واليونانيين والأرمن والايطاليين — . وقبل الغزو بقليل طلبت تل ابيب الى احد رجال المخابرات العاملين الدكتور فيكتور سعادة، وهو طبيب يعمل في المستشفى الاسرائيلي في القاهرة، ان يؤسس حلقة تجسس مع اليهود الذين استطاعوا الافلات من الاعتقال ، واستطاع سعادة ان يجند عدداً قليلاً من الصهيونيين الذين كانوا في مراكز حسنة ، وحافظوا على علاقات ممتازة مع الموظفين المصريين . وكان الاسم الرمزي لفريقه بياهاد **Beyahad** وقد استطاع ان يجمع معلومات سياسية وعسكرية وان يقدم الارشاد لقادة الجالية في شؤون الهجرة ، كما قام بتنشيط الاتصالات مع اليهود والعرب الذين ساعدوا الهاغانا في الهجرة غير المشروعة .

وقد تدفقت على مودين في تل ابيب مجموعة من المعلومات ، واستطاع الاسرائيليون ان يتغلغلوا حتى بين جنود الحملة المصرية متنكرين كمدنيين عرب يشتغلون في القواعد العسكرية ، وقد عجز أمن الميدان المصري والمخابرات العسكرية وشعبة مكافحة التجسس والشرطة السياسية عن ان تكتشف أية حلقة من حلقات التجسس الاسرائيلي اثناء الحرب، مما أتاح للمودين ان يتابع عمله بارتياح الى أن جرى التوقيع على الهدنة .

وكان عدد العملاء يزداد بينما كانت منظمة سعادة تتابع اعمالها ، وبعد ثورة تموز ٩٥٢ بقليل، عين مودين الرائد ماكس بنيت وهو من اقدر العملاء كفاءة في مركز القاهرة ، وكان بنيت هذا نجلاً لأب يهودي وام كاثوليكية ، وهو من مواطني كولونيا في ألمانيا ، هاجر الى فلسطين

مع ابويه عندما كان في سن السادسة عشرة ، وبعد ان عين هتلر مستشاراً للرايخ الثالث ، ودرس الهندسة الكهربائية والتحق بحركة الهاغانا السرية في سن مبكرة ، وفي الحرب العالمية الثانية خدم في السلاح الملكي البريطاني ، وفي حرب فلسطين اصبح ضابط النقل في فرقة المشاة . وخطط بنيت ليعمل في سلاح الطيران ، غير ان شكله الآري ومعرفته باللغة الألمانية ولأنه نصف يهودي فقط وليس مختوناً ، لفت انتباه المشرفين على التجنيد من جماعة مودين ، وما كادت تنتهي الحرب حتى نقل ودرب في عمليات سرية. وأرسل بنيت في بادىء الأمر لتأسيس خلية في انكلترا حيث حصل على الجنسية البريطانية كمهاجر روسي يحمل اسمه الحقيقي . وعندما كان في لندن التقى بجان وهي فتاة من عائلة بريطانية غنية فتزوجها بعد خطبة قصيرة ورزقا ولداً اسمه ميدان بعد سنة من الزواج . وكانت مهمة بنيت الأولى في طهران حيث انشأ خلية عن طريق تظاهره بأنه يملك متجراً لتجارة السجاد العجمي ، بينما كان في الحقيقة يقود هجرة غير مشروعة الى اسرائيل عن طريق سورية ولبنان . ودخل بعد ذلك الى العراق كممثل لمكتب تجاري بريطاني فتح له فروعاً عديدة في البلاد . ومن مكتبه الرئيسي في بغداد جمع بنيت معلومات عسكرية وسياسية وقاد كثيراً من عمليات التخريب، وقبل ان تكشف قوات الأمن العراقية عن هويته فر الى الاردن ثم عاد الى اسرائيل .

وارسله مودين بعد ذلك الى المانيا حيث حصل على حق المواطنة باسم مستعار هو اميل ويتباين وعمل تحت قيادة النقيب ابراهام دار وهو من سكان فلسطين الأصليين – سابرا – وينحدر من اصل يمني . وكستار جديد عثر بنيت على عمل في محل لصنع الأعضاء البشرية ، وفي عام ١٩٥٢ استطاع ان يدخل بسهولة الى القاهرة كممثل للشركة المذكورة وابرم عقداً مع الجيش المصري لتزويده بالاعضاء الاصطناعية ، وكنتيجة لذلك اجتمع باللواء نجيب الذي كان في ذلك الحين رئيس جمعية المتقاعدين في الجيش ، وقد تأثر محمد نجيب كثيراً باهتمام بنيت بجرحى الحرب في فلسطين ، وفي وقت قصير اصبح الاسرائيلي ضيفاً يتردد باستمرار

على منزل اللواء . واستطاع بنيت من خلال نجيب وجماعته ان يقابل كثيرين من الضباط ذوي النفوذ ، وان يطور منابع كثيرة للمعلومات . ومع هذا فان الرائد جبلي كان يرى ان العمليات التي تجري في مصر ليست كافية لتوفير حاجات الأمن لاسرائيل . وبعد كثير من التفكير والتروي طلب الى دار ان ينظر في تجنيد شبكة جديدة تتألف من صهيونيين مؤمنين ، على ان تظل هذه الشبكة نائمة حتى يحين الوقت للاستفادة من نشاطها . وبعد ايام من هذا الاتصال ارسل مودين الى الدكتور سعادة يقول ان مبعوثاً اسمه جان دارلينغ سيصل قريباً من تل ابيب ، غير ان هذا العميل لم يكن سوى دار نفسه . ووصل النقيب دار الى القاهرة في اواخر الصيف ونزل في فندق وثير في منطقة الزمالك وهو يحمل جواز سفر بريطاني تحت اسم مستعار وسجل اسمه كممثل لمصنع الأدوات الكهربائية في نانجستر. واتصل فور وصوله بالدكتور سعادة، واجتمع الرجلان بعد اربع وعشرين ساعة في مقهى بالقرب من نهر النيل . وبعد ان احاطه الدكتور علماً بالأحوال في القاهرة تحدث دار عن حاجة تل ابيب الى شبكة جديدة واقترح ان يجند سعادة عدداً من الصهيونيين ، الذين كرسوا انفسهم للقضية ممن يستطيعون جمع المعلومات، بشرط ان يكونوا راغبين في اجتياز دورة تدريبية في اسرائيل .

واعرب سعادة عن اعتقاده بأن افضل شخص للقيام بهذه المهمة هي فتاة عمرها ٢٤ عاماً، تتمتع في المجتمع بمركز محترم وهي رياضية اولمبية من عائلة تركية يوغوسلافية اسمها فكتورين نينو، تعمل لحساب محل بريطاني للتصدير والاستيراد مختص بالآلات الكاتبة. وبالاضافة الى ما تتمتع به هذه المرأة من احترام في الأوساط الصهيونية فان لها اصدقاء في مجتمع الطبقة الراقية لانها عضو في نادي الليدو في ضواحي هليو بوليس. حيث كانت تدعى مارسيل. وكان لفكتورين علاقة ودية مع كثير من الضباط المصريين الشبان ومع المدنيين الذين لهم صلة وثيقة بكتلة الضباط .

وبطلب من دار اعد سعادة لقاء بينه وبين فكتورين في مقهى قرب

سينما النصر ، وكان تواقاً لتحديد دوافعها لخدمة اسرائيل ، ووجه اليها كثيراً من الأسئلة الشخصية ، فتحدثت الفتاة عن حياتها ببساطة واقنعته بولائها للقضية اليهودية ، وبعد المقابلة وافق دار على رأي سعادة بأن فيكتورين تستطيع ان تقوم بدور مثالي كضابط تجنيد في المخابرات ، واصدر تعليماته بأن يطلب اليها البحث عن مرشحين جدد .

وفي لقاء آخر جاءت فيكتورين وهي تحمل قائمة مثيرة تضم نخبة من الصهيونيين الشبان . واقترحت ان يقود شعبة القاهرة مواطن تونسي هو الدكتور موييز مرزوق ، وهو ابن لصيدلي غني له من العمر ٢٨ عاماً ، وكان زميلاً لسعادة في كلية الطب ومارس الجراحة في المستشفى الاسرائيلي في العاصمة. واشتملت شعبة القاهرة ايضاً على ايلي جاكوب نعيم وهو شاب عمره ٢٢ عاماً يعمل كاتباً في شركة جفارتس وقيصر جوزيف كوهين موظف في بنك زلخا ، ومايير صاموئيل مي يوهاز عميل تجاري ، ومايير جوزف زعفران مهندس عمره ٢٦ عاماً . وجرى اختيار فيكتور موريس ليفي وهو موظف مبيعات كرئيس لشعبة الاسكندرية ، ثم استبدل بعد ذلك بصموئيل عازار وهو الصديق المقرب من ايلي ، وكان يعمل بصورة اسمية تاركاً لليفي اعباء العمل الفعلي ، اما الأعضاء الذين عينوا في وحدته فكانوا جميعاً من سن الواحدة والعشرين، وكان بينهم فيليب هيرمان ناتانسون وهو احد المضاربين في سوق البورصة ، وروبرت نسيم داسا ويعمل كاتباً .

واستأجر داراً في منطقة الزمالك ، وابتاع سيارة شفروليه جديدة ، وفي الشهرين التاليين كان يتنقل بين القاهرة والاسكندرية ، وهو يعلم العاملين الجدد الفنون الأساسية الخاصة بجمع المعلومات. وكان في حصيلة اعماله تعلقه المتزايد بفكتورين اذ اخذت هذه الفتاة الناشطة تعني اكثر فاكثر بدار ، حتى ان علاقتهما راحت في آخر الشوط تؤثر على احكامه في قضايا التجسس ، وعلى الرغم من ان التعيينات التي اقدم عليها الأعضاء في الشعبتين لم تنته الى فوائد اساسية فقد اقتنع الرائد بأن الشبكة ستنتج انتاجاً

حسناً . وفي اوائل عام ١٩٥٢ غادر دار مصر تاركاً فكتورين ومعها رصيداً احتياطياً قدره ١٠٠٠ جنيه مصري ، حيث عاد الى تل ابيب عن طريق اوروبا.

واستمرت الشبكة في تصعيد كفايتها في الأشهر اللاحقة عندما اتصل دار بسعادة طالباً اليه ارسال خمسة اعضاء الى تل ابيب لتدريبهم على اعمال المخابرات . وعلى الرغم من ان عازار وعدداً آخر امتنعوا عن السفر لأسباب شخصية فان ليفي ومرزوق وداسا وناتانسن قد وجهوا لهذه المهمة ، اما العضو الخامس فقد كان ايلي الذي اقنعه عازار ان يلتحق بالشبكة . وكان صديقه ينازعه بحرارة في الاعتقاد بازدياد مشاعر الكراهية ضد اليهود عند المصريين ، وان هذه المشاعر ستصعد خطر ردود الفعل الوحشية ضد الصهيونيين وغير الصهيونيين من اعضاء الجالية في حالة نشوب حرب شاملة اخرى . واشار ايضاً الى ان ايلي لم يبق له ما يخشى منه بعد ان اصبح جميع افراد عائلته آمنين في اسرائيل بحيث لم يبق معه سوى اخوه موريس ، يضاف الى ذلك ان صلاته بموظفي مراقبة الجوازات وحرس الحدود لا تقدر بثمن ، وقد استطاعت هذه الحجج بالاضافة الى ما لعازار من اعتبار وتقدير في نفس ايلي ان تحطم ما تبقى لديه من مقاومة .

وطلب سعادة من الخمسة ان يحصلوا على اجازاتهم السنوية، وحجز لهم تذاكر للسفر الى مرسيليا. وابحر مرزوق اولاً بحجة مرافقة مريض مسافر الى فرنسا للمعالجة الطبية . وفي مؤامرة كهذه يقتضي الاخذ بعين الاعتبار يقظة المصريين ضد محاولة هجرة الأطباء من البلاد . وعلى كل حال فقد قابل مرزوق دار في باريس وبعد محادثة قصيرة لجأ الى غرفته في الفندق حتى ساعة سفره ، وبعد اسبوع استبدل دار وثائقه المصرية بجواز اسرائيلي وعاد مبحراً الى حيفا ، ووصل ليفي بعد وقت قصير يتبعه داسا وناتانسن وايلي .

وفي ميناء حيفا كان مودين قد اوفد ضابط ارتباطه لاستقبال كل منهم على حدة وانجاز معاملاتهم الجمركية ثم نقلهم الى مدرسة للمخابرات في يافا ، وأشرف على تدريبهم خلال الأشهر الثلاثة التالية امرأة برتبة رقيب اسمها

راشيل ، وشاب من السابرا « اليهود الاصليين » اسمه جدعون ، وقد اجتازوا دورات في اذاعة الراديو والشيفرة واستعمال الحبر السري والتصوير والطبوغرافيا والتدريب وجمع المعلومات ، وبعد ثلاثة اشهر اعد مودين التدابير اللازمة لاعادتهم الى القاهرة . وكان عليهم ان يقدموا الأدلة المحسوسة على كفاءاتهم الجديدة عندما وصلوا الى مصر ومعهم الشيفرة وجهازي ارسال ومتفجرات هربت كلها الى مصر وسلمت الى فكتورين .

وقبل ان يغادر مرزوق اسرائيل زودهم بالمعلومات اللازمة عن مهمتهم وأوضح لهم ان ضابطاً من مودين سيصل قريباً ليتولى مسؤولية هذه الفئة ، وان عليهم ان يطيعوا اوامره بدون تردد وان ينفذوا كل الأعمال والمهمات التي يطلب اليهم تنفيذها. وعندما كان الخمسة في دور التدريب قرر جبلي ان يعين ماكس بنيت لمهمة مراقبة نشاط الشبكة ، وعلى الرغم من ان بنيت كان قبل ذلك يعمل منفرداً فقد توفرت له خبرة لا تقدر بثمن في تعامله مع الصهيونيين في ايران والعراق، ويضاف الى ذلك انه كان اسرائيلياً وفي معزل عن الضغوط والتعقيدات الخاصة بالجالية المحلية . اما بنيت الذي غادر مصر قبل قليل من سقوط اللواء محمد نجيب وزود تل ابيب بمعلومات هامة عن الصراع على السلطة داخل مجلس الثورة، فقد كان في المانيا ينتظر تعليمات جديدة . وكان على دار ان يطلعه على مهمته الجديدة وان يزوده بالأدوات اللازمة للشبكة .

وعندما سمع بنيت ان عليه ان يعمل مع فئة من الهاوين نسبياً يقودها ثوريون تربط بينهم صداقة متينة ، ثار على هذه التعليمات ، غير ان القيادة اكدت على الأهمية التي تعلقها على تطور هذا المصدر من المعلومات وامرته بمراقبة الشبكة ، ولما كان بنيت جندياً فلم يسعه إلا الامتثال . وفي نهاية عام ٩٥٣ عندما وثق من نجاح العملية عاد الى القاهرة مع زوجته وابنه كمستشار للوكالة الانكليزية المصرية لشركة فورد ، واستأجر مبنى متسعاً في منطقة الزمالك، ثم قام بزيارة اصدقائه القدماء ورحب به اعضاء نادي الجزيرة

والأوساط المتصلة اتصالاً وثيقاً بمؤيدي ضباط الثورة. وقد شهد له ضابط ذو مركز رفيع فيما بعد قائلاً : ان ويت باين كان خبيراً في النقل وكان الجميع يستنصحونه ويسترشدونه .

وما ان استقر بنيت حتى اتصل بفكتورين وسلمها جهازي الارسال اللذين اتى بهما معه للشبكة ، ثم التقى بمرزوق وعازار ولم يكن يحمل لهما من دار سوى الكلمتين التاليتين : « اطالبكم بإطاعته » واخيراً اصدر بنيت اوامره بأن تجري الاتصالات من خلال فكتورين فقط . وقال عازار فيما بعد : « اننا لم نر بنيت بعد ذلك ولم نوجه بشأنه اي سؤال» .

وخلال ما تبقى من العام استطاعت الشبكة ان تحرز بادارة بنيت ورقابته انتصارات هامة على صعيد التجسس العسكري والسياسي والاقتصادي ، حتى ان الاسرائيليين كانوا في اغلب الأحيان اكثر اطلاعاً على نشاطات مجلس الثورة من كثير من القادة ذوي الرتب العالية في الحكومة المصرية . غير ان المهمة الدراماتيكية المذهلة للشبكة المذكورة كانت لا تزال في الانتظار .

التخريب في الاسكندرية

لم يكن بنيامين جبلي اقل الذين أقلقتهم التقارير الواردة من شبكة القاهرة عن الخطوات التي اتخذها مجلس قيادة الثورة لتعزيز الجيش المصري، ومساندة غارات الفدائيين على إسرائيل. وبالاستناد الى التقارير الخاصة بالتقييم الذي قدم اليه من قبل المحللين، لم يستطع جبلي ان يشارك رئيس الوزراء موشى شاريت وزملاءه المعتدلين وجهات نظرهم من ان عبد الناصر الذي انتزع رئاسة مجلس قيادة الثورة من اللواء محمد نجيب في اوائل عام ١٩٥٤ كان في جانب حل سلمي للنزاع العربي الاسرائيلي.

غير ان البيانات العدائية للزعامة المصرية الجديدة، وتصاعد الاشتباكات على طول حدود اسرائيل الجنوبية، ولو كانت تدعو الى القلق الا انها لم تزعج جبلي كما أزعجته انباء تحول مدمر في سياسة لندن، ذلك ان الاتفاق على قضية السودان كان مرتبطاً بصفقة طائرات للطيران المصري يرافقها انسحاب بريطاني من السويس، وقد زاد في هذه المخاوف احتمال عقد اتفاق عاجل بالانسحاب من منطقة القناة دون اي ضمان يتعلق بحقوق اسرائيل في مياهها: مما يعني ان القناة ستظل مغلقة بدون رجعة في وجه الملاحة الاسرائيلية، وان القواعد في دلتا النيل حيث كدس البريطانيون كميات كبيرة من الأسلحة ستقع في ايدي المصريين.

وكانت الاشارات الواردة من واشنطن اكثر قتاماً. اذ أن دلائل كثيرة كانت تشير الى تحول لمصلحة مصر في سياسة الشرق الأوسط على عهد ايزنهاور. فقد كان وزير الخارجية فوستر دالس يسعى وراء صداقة الزعماء العرب في السنتين الماضيتين مقترحاً اعادة اسكان اللاجئين الفلسطينيين في اسرائيل وتدويل مدينة القدس. وكان يراود اعوانه

في الادارة الأميركية آمال كبار في ان مصر ستصبح حجر الزاوية في حلف اقليمي يتجه نحو الغرب ، وانهم وعدوا عبد الناصر بأن يقدموا اليه لا الدعم المعنوي فقط بل المساعدات العسكرية والاقتصادية التي قدمت الولايات المتحدة مثلها للمملكة العربية السعودية ، وللدول الأعضاء في حلف بغداد ، والعراق وتركيا وايران ، وكدليل على حسن النية سمحت الولايات المتحدة للقاهرة بابتياع مواد استراتيجية من الولايات المتحدة .

وقد كان لهذه التحركات الخطرة في السياسة البريطانية والأميركية انعكاس مدمر على دوائر المخابرات الاسرائيلية ، ولم يجد الأعضاء في القيادة العامة اي عزاء في بيانات التهدئة التي صدرت عن البيت الأبيض وأريد منها تطمين اسرائيل الى ان الحكومتين تريدان ان تحافظا على صداقة العرب واليهود دون الانحياز الى واحدة ضد الأخرى . وعندما ادلى تشرشل بتأكيده الدراماتيكي : « انا صهيوني » ، وعندما تعهدت لندن بالوقوف في وجه كل اعتداء ضد اسرائيل ، لم يخفف هذا كله من مخاوف اسرائيل التي كانت تتوقع ان تتنزل انكلترا عند مطالب عبد الناصر في موضوع القناة، الأمر الذي يجعل التسوية السلمية مع مصر امراً مستحيلاً. وكانت الشكوك نفسها تساور اسرائيل من تأكيدات اميركا بأن العلاقات الطيبة والمطمئنة بين واشنطن وقيادة مجلس الثورة ، مع اشارات عريضة تتعلق باتفاق التسلح ومكان مصر في حلف اقليمي للغرب، كل ذلك لن يؤدي الى الاضرار باسرائيل .

وهكذا فان العقيد جبلي خلافاً لبعض زملائه المدنيين في مجتمع المخابرات الاسرائيلي كان يسخر من هذه النظريات السياسية . ويرى ان العمليات السياسية السرية هي السبيل الوحيد للقضاء على الاتجاه الموالي للعرب في السياسة الغربية . وقد لقيت افكار جبلي هذه تشجيعاً من رؤسائه ، ذلك ان وزير الدفاع بنحاس لافون ، ورئيس اركان الجيش الجنرال موشى ديان، على الرغم من تبادلهما العداء فقد ساندا موقفه هذا . وبدا

كل منهما مصراً على متابعة السياسة العدائية ذاتها نحو الغرب ، حتى ان بن غوريون ترك السلطة منصرفاً الى تأملاته في سيدى بوكر في صحراء النقب البعيدة . غير ان لافون كان على خلاف مع شاريت ومع أكثر اعضاء الحكومة : وكان يزدريه الكثير من اتباعه . وقد اضاف الى عزلته انه استبعد عن جميع المصادر الاعلامية فيما عدا المودين (في هذه الفترة اصبحت الموساد تحت سيطرة رئيس الوزراء كما كانت على وشك الاضطلاع بجميع الأعباء الخاصة بالمعلومات السرية الأجنبية) وهكذا **تردد لافون في الاسترسال في عدائه للعمليات المستورة التي تجري في القاهرة ، وفي ايار بعد مناقشة هذا الموضوع مع جبلي رفض لافون مقترحاته باستخدام شبكات الصهيونيين الشبان في اعمال التخريب ، غير انه وعد بأن يناقش هذه القضية فيما بعد .**

اما جبلي فكان لا يرى اي سبب للانتظار بل كان يرى ، كطامع في منصب رئيس الاركان ، ان عملية سرية ناجحة تقلب الميزان لمصلحة اسرائيل ستخدم بالمقابل اهدافه الخاصة . واذا حققت اعمال التخريب اهدافها فلن تكون هناك صعوبة في الحصول على موافقة لافون وعلى مباركة اكثر المتشائمين في وزارة شاريت، وعندئذ يستطيع ان يدّعي الفضل لنفسه في هذا الموضوع ، اما في حالة الفشل فان اتباعه هم الذين سيلامون . وهكذا فان القوة الناشئة عن اطماعه الشخصية ووثوقه من مساندة ديان (يقال انه ربح ايضاً موافقة بن غوريون ومباركته) قرر جبلي ان يتجاهل غموض موقف لافون وان يتصرف على مسؤوليته .

وعندما اتخذ العقيد قراره عهد الى الشبكة بمهمة القيام بعملية خاصة اطلق عليها بالشيفرة « الوحدة ١٣١ » وكان قائد هذه العملية المقدم مردخاي موتكه بنزور، وكان ضابطاً سابقاً في مخابرات الميدان ومقدماً في الاحتياط . اما بنزور الذي اثبت وجوده في الميدان مرات عديدة فقد كان متشوقاً للقيام بعمليات سرية في خارج البلاد . **وهكذا فان خطة التخريب في القاهرة استقبلت بالحماس والتأييد .**

وفي اول اسبوع من شهر حزيران ، وبعد مشاورات روتينية بين اقطاب الحكم ، طلب جبلي من بنزور ان يظل وراء الستار ، ثم راح يستعرض التقدم الذي احرزه تجمع المخابرات في مصر واشاد بمهارة شعبتي القاهرة والاسكندرية ، وقال ان التقارير التي وصلت من هاتين الشعبتين فاقت جميع التصورات الأولية . اما من الناحية السلبية فان التنافر الذي جرى بين بعض الأشخاص داخل الشبكة ادى الى احتكاك لا لزوم له — وتلك مشكلة لم يستطع بنيت كعميل سري وحيد ان يحلها ، كما ان موقف مرزوق المستقل اغاظ المركز الرئيسي . ومع ذلك كان جبلي يشعر ان الشعبتين قد اكتسبتا خبرة كافية لتوسيع نطاق نشاطهما ، **وكانتا مستعدتين للمرحلة الجديدة من مهمتهما الشاملة ، وهي تخريب المنشآت الأميركية والبريطانية في مصر . وقد اوضح جبلي ان الغرض من اعمال الارهابيين هو أن يبدو قطع العلاقات بين القاهرة والدول الغربية وكأنه من عمل الشيوعيين او المتطرفين من الوطنيين .** وعندئذ اصدر تعليماته الى بن زور بان يعد الشبكة للعمل في شهر تموز ، وعندما اختتم جبلي اعماله التحضيرية فهم بن زور ان الاذن ببدء العملية قد صدر اما من لافون او من ديان .

وكان بن زور حريصاً على ان لا يعرض للخطر مهمة بنيت في جمع المعلومات بتكليفه بتسوية خلافات خاصة ، ولذلك اختار المقدم افرى — رئيسه السابق في كتيبة هاريل والذي تمرس كعميل سري — للاشراف على العملية . وقد استطاع هذا العميل البالغ من العمر ٢٩ عاماً أن ينجز مهاماً عديدة منها انه جعل ستاراً لعمليته ضابطاً من الغستابو الالماني يدعى بول فرنك . واقام عندما كان في القاهرة علاقات مع قائد البحرية ، ومع رئيس المخابرات العسكرية ووزير الداخلية زكريا محي الدين ، ومفتي القدس الكبير ورئيس المستشارين العسكريين الالمان . وهكذا اقتنع بن زور ان العمليات الجديدة الواسعة التي ستقوم بها الشبكة اصبحت اقل عرضة للخطر تحت اشراف افري المذكور .

وبعد سلسلة من المحادثات في مقر قيادة مودين صدر الأمر الى افري

بالسفر فوراً الى فرنسا . حيث كان بن زور في انتظاره لتبادل المعلومات . ووصل رئيس العمليات الخاصة الى باريس في مطلع شهر حزيران ، وفي مقهى سان جان بيريه قدم بن زور الخطة التي رسمتها القيادة . وكان على افري بموجب هذه الخطة ان يتحمل المسؤولية الكاملة لكل مراحل العملية التي ستقوم بها الشبكتان . **اما التفاصيل الاضافية فستذاع يومياً بالشيفرة من محطة اسرائيل من برنامج « كيف تطبخ »** . وفي الاجتماع الثاني الذي عقد في باريس اصدر افري اوامره بالشروع في تفجير القنابل .

وعندما عاد افري الى القاهرة في ٣٠ حزيران وجد الشبكة في حالة اضطراب . فقد توقف مرزوق عن المساهمة في اعمالها وكانت حلقة القاهرة من الناحية العملية في طور الانحلال . ذلك لأن المشاكل الشخصية جعلت عازار غير قادر على العمل ، كما ان ايلي الذي كان يسافر لصالح المجل الذي يعمل فيه لم يستطع تشغيل الجهاز المرسل الذي عهد به اليه . وقد احجم افري عن زج فيكتورين في اعمال التخريب لانها كانت ذات فائدة كبيرة لبنيت . وهذا ما جعله يقرر التعامل مع حلقة الاسكندرية فقط ، واتصل على هذا الأساس بناتانسون الذي كان اكثر العاملين نشاطاً . فدعاه مع ليفي الى اجتماع سري في القاهرة حيث اوضح لهما مهمتهما . ولكن عندما اوضح افري لهما ان الغاية من اعمال التخريب هي عزل مصر عن الغرب لم يحاولا كتمان استيائهما. وفي اجتماع لاحق احتج داسا بأن تفجير القنابل في الابنية العامة سيؤدي الى اصابة كثير من المدنيين الأبرياء ، وانه شخصياً لا يشعر بأية كراهية نحو المواطنين العاديين الذين ليسوا مسؤولين عن سياسة الحكومة ، وليس هناك اي سبب لتعريضهم للألم . ولم يكن عازار اقل معارضة ، وقال لافرى بصراحة انه لا يستطيع الاستجابة وهو مرتاح الضمير . وعندما قوبل افري بهذه المعارضة لجأ اولاً الى وسائل الاقناع ، ثم لجأ اخيراً الى التهديدات وانذر بأن عصيان الأوامر قد يحمله على اتخاذ « التدابير القصوى » .

وعندما صدر الأمر الى الآخرين بالمبادرة بالاعمال التخريبية قابلوها

بالمخاوف ذاتها ، اما ايلي فقد كان رد فعله الغضب والاستنكار لأول مرة منذ التحق بالحركة السرية . نعم من حق قيادة مودين ان تتعاطى كل ما يتعلق بامن اسرائيل بعيداً عن مشاعر العاملين فيها ، غير ان ايلي كان يرى ان ضباط الاستخبارات في تل ابيب كانوا عاجزين عن ان يفهموا ان ليس كل عربي عدواً ، وان المخاطرة بالحاق الأذى بالمدنيين كان لعنة بالنسبة لليهود الذين قضوا حياتهم في مصر ، وهو غير قادر على الالتزام بان يدمر كل شيء مصري ، كما انه لا يعتبر نفسه مخرباً قادراً على تنفيذ مهمات لا تحسب حساباً للعواقب . ومع ذلك فان الأمر الذي تلقاه ليفي وناتانسن وداسا كان حاسماً لا مجال للتملص من تنفيذه . فهم بعد ان تدربوا في اسرائيل فرضت عليهم الطاعة المفروضة على الجنود . وهكذا كان قرارهم النهائي بتنفيذ المهمة مهما كان ثمنها الوجداني بالنسبة اليهم ، وكان سبباً كافياً ليشترك عازار في تفجير القنابل غير ان الاضرار الأدبية التي نزلت باسرائيل من جراء هذا العمل لن يكون من السهل اصلاحها .

وفي اجتماع مشترك عقد في اليوم التالي، دار البحث بين افري وليفي عن الأهداف التي يمكن ان توضع فيها القنابل المحرقة والقنابل الموقوتة . واتفقا على ان العملية يجب ان تنقسم الى مرحلتين ، المرحلة الأولى ان تجري اعمال التخريب في المباني الأولى ، وان توضع بعد ذلك بقصد التمويه قنابل في المؤسسات الأميركية والبريطانية ، وكان على داسا وعازار ان يزرعا القنابل بينما يحافظ ايلي على اتصاله بتل ابيب ، ولن يكون في هذه العملية سوى مجازفة طفيفة لأن مسؤوليتها ستلقى حتماً على القوى المتطرفة في البلاد .

وفي عصر ذلك اليوم أستدعي ايلي وجماعته الى مقر قيادة الشعبة في ساحة الرملة ، حيث كان ليفي يعرض فيلمي تدريب خاصين باعداد واستخدام المتفجرات التي ارسلتها مودين من تل ابيب الى داسا ، موضحاً كيف يمكن اخفاء اجهزة الانفجار الفوسفورية في علب العوينات ، وكيف يمكن اخفاء القنابل ذات الأسلاك الموقوتة في علب الفيم ، وقد

اقتضى ايلي وزملاءه ساعات لاستعادة ذكرياتهم .

واستطاع افرى بعد يومين من وصوله الاتصال بمركز الشعبة في مصر معطياً الاشارة الخضراء ايذاناً ببدء العمل ، **واصدرت قيادة مودين الأمر ببدء اعمال التفجير خلال ٤٨ ساعة بالضبط ، ثم تصعيدها في الذكرى الثانية للثورة وهو التاريخ الذي حدد للاضطرابات التي جرت ضد عبد الناصر .**

وفي يوم الخميس الأول من تموز اقدم افرى على خطوة لا سابقة لها عندما التقى شخصياً باربعة من سكان الاسكندرية : ليفي وناتانسن وداسا وعازار ، حيث ابلغهم تعليماته الأخيرة وقال لهم انه يعلم جيداً ان لديهم اعتراضات على اعمال التخريب غير ان الأوامر الواردة من تل ابيب كانت قاطعة ، فيجب إلحاق الأضرار بالممتلكات الأميركية والبريطانية لخلق حالة من التوتر مع هذين البلدين ، وعملية كهذه قد تتيح للمنشقين من اعضاء مجلس العموم البريطاني فرصة لمنع اخلاء قواعدهم في قناة السويس ، كما قد تثير الرأي العام الأميركي ضد تسليح مصر ، ولكن المهم في رأي افرى ان التدمير الذي سيحدثونه ستقع مسؤوليته على عاتق الشيوعيين والقمصان الخضراء والأخوان المسلمين ، وستعطي للنظام العسكري الصفة غير المحببة وغير المستقرة وغير المستحقة للمساعدة الغربية ، وهنا انتقل الى شرح خطوات المهمة **اذ كان على الشبكة ان تضع القنابل في مراكز البريد الرئيسية وفي محطات السكك الحديدية وفي دور السينما وفي القنصليات البريطانية والأميركية وفي المكتبات التابعة لمكتب المعلومات الأميركي .**

ونفذت المرحلة الأولى من العملية خلال ١٢ يوماً ، ففي يوم الجمعة ٢ تموز وضعت قنابل محرقة في ثلاث رزم بريدية ، مما ادى الى نسف فرقة التوزيع في دائرة البريد العامة في قصر اسماعيل بالاسكندرية وجرح عدد من الموظفين . وفي صباح الخميس الرابع عشر منه وصل داسا وعازار الى مكتبة ساحة التحرير في القاهرة قبل اغلاقها بقليل وقال عازار في

وقت لاحق : « وضعنا المتفجرات بين المقاعد بحجة اننا كنا نتابع بعض الأبحاث، وفي ساعة متأخرة من المساء هز الانفجار بناء المكتبة، غير ان بعض المتفجرات من صنع محلي وضعت في قسم الأمتعة من محطة سكة الحديد الرئيسية مما جعل الأضرار طفيفة . وفي المساء ذاته وقع انفجار آخر بسبب المتفجرات التي زرعها ليفي وناتانسن في مكتبة مكتب المعلومات الأميركي في ساحة الرملة بالاسكندرية فنسفها . وساد المدينتين حالة من الهستيريا، بينما صفارات الانذار تدوي في الشوارع بتواتر متزايد ولم يكن في المدينة مكان في نجوة منها ، ولم يكن لدى مدير الشرطة المصرية اي دليل على ان اياً من الجماعات المتطرفة قد تورطت في هذا الحادث ، ولكن منذ ان دعت الصحافة المسؤولين الى العمل، اعتقل مئات من المشاغبين اليساريين واليمينيين وادخلوا السجن .

وانتقلت شعبة الاسكندرية في الاسبوع الثالث من تموز الى العمل ، وفي عصر اليوم الثالث والعشرين اكتشف اصحاب سينما ريفولي وسينما ريو متفجرتين وضعهما داسا وعازار، فأبطل المختصون مفعولهما قبل انفجارهما ، وفي نفس الوقت اطفىء حريق اشعله ليفي في دار الليدو بالاسكندرية .

وفي مساء يوم الجمعة قام رجال الشرطة تدعمهم وحدات من الجيش باستعراض لكامل قوتهما في مصر ، وقامت المباحث الجنائية في الاسكندرية، التي يرتدي افرادها اللباس العادي ، بمراقبة جميع الأبنية العامة في المدينة ، كما ان النقيب حسن زكي المناوي من مركز الشرطة في العطارين، جعل مقره في ذلك اليوم قرب سينما ريو ، وكان يقف في مواجهة علبة البريد يراقب الجماهير عندما استمع فجأة الى نداءات استغاثة ، وشاهد شاباً امتدت النار الى معطفه وهو يهرول من دار السينما، فدفع به مفتش الشرطة الى ارض الشارع محاولاً اطفاء اللهب ، وفي هذا الصراع سقطت علبة العوينات من جيب الرجل، فانتثر منها مسحوق اسود على الرصيف ، وبعد ان اوقف المناوي المصاب على رجليه ، راح يفحص المادة التي تناثرت

على الأرض وسرعان ما تعرف على المواد التي يمكن بها صنع متفجرات في المنازل . اما الشاب الذي قال ان اسمه فيليب ناتانسن فقد اوقف على الرغم من دعوى عدم اصابته بجراح ، وانطلقت به شرذمة من الشرطة ذات القبعات السوداء الى مستشفى الحكومة القريب من ذلك المكان، حيث وجدت في حوزته اوراق ومواد مذيبة . وحينما استجوب في مقر الشرطة في المنشية انكر ناتانسن ان تكون له اية علاقة بالانفجار ، غير ان التحريات التي جرت في منزله ادت الى اكتشاف رسائل تدينه، عن رجل يدعى بول الذي بدا وكأنه شخصية هامة بالاضافة الى صور فوتوغرافية لداسا وليفي ، ثم ادت تحريات اكثر عمقاً الى العثور على غرفة مظلمة، كان فيها مسودات لصور جسور ومنشآت عسكرية ومخبأ سري فيه علبتان من المتفجرات ، وعدد من القنابل المصنوعة في المنزل ، وسبع قطع من ميكرو فيلم فيها اصطلاحات كيماوية لتحضير قنابل البلاستيك .

وقد تأكد سمير درويش قائد قوات الأمن العام في الاسكندرية الذي قام بالتحقيقات الأولية من عثوره على المفاتيح الأولية لـ « اسرار قنابل تموز »، وواجه السجين بالحقائق التي اكتشفها . وسرعان ما بدل ناتانسن روايته بصورة اساسية حين اصر بعناد على انه كان شيوعياً وانه فعل ما فعله تنفيذاً لتعليمات صدرت اليه بأن يقوم باعمال ارهاب اعتباطية ضد النظام . واحتمل انواع العذاب وضروبه ولكن عندما قال له سمير درويش في الصباح أن امه اعتقلت بتهمة التعاون في اعمال التخريب، انهارت اعصاب ناتانسن وادلى باعترافات كاملة تضمنت اسماء شركائه باسمائهم الرمزية فقال: إن بيير هو ليفي الذي ساهم معه في تفجير القنابل.

ولم يكن ليفي اكثر توفيقاً في مهمته الأخيرة من « هنري » (ناتانسن) غير ان عجزه عن الحصول على تذكرة بسبب ان الحفلات الصباحية هي للنساء فقط حمله على تأجيل العملية . وفي وقت لاحق من ذلك المساء عندما استمع الى شائعات عن توقيف ناتانسن، سارع الى وضع قنبلة في قناة قريبة وقرر الانتظار حتى الصباح قبل ان يسأل (افرى) عن تعليمات

جديدة . وعبثاً حاول ايلي ان يتصل بعازار عن طريق الهاتف ، وذهب بدلاً من ذلك الى موعد عقده مع افرى لتبادل المعلومات . وبعد ان اقدم العميل الاسرائيلي على تهدئة وطمأنينة الشاب الخائف، اقترح ان يجتمعا في اليوم التالي بالاسكندرية . وكان يرجو ان ينجح خلال ذلك في تقييم الموقف والتخطيط للتحرك الجديد ، ولكنه سرعان ما انهار امام المحققين فكشف عن هوية « روجرز » وهو شريكه داسا .

اما داسا الذي اودع قنبلة في سينما القاهرة، قبل ليلة واحدة من توقيف ناتانسن، فقد بقي ليلة في القاهرة ليتابع سفره الى منزله في الصباح الباكر دون ان يعرف شيئاً عن التوقيفات التي جرت . وباغت فريق من رجال الأمن السريين داسا وهو في محطة الاسكندرية واقتادوه الى محطة المنشية حيث اخضعه درويش لسلسلة من اعمال التعذيب . وأنكر داسا ان يكون قد اطلع على اي من التفجيرات، ولكن عندما قوبل بناتانسن وليفي اللذين اعترفا بتورطهما في العملية، إعترف بمساهمته فيها مع جاك (عازار) .

وفي خلال ذلك قام عازار بزيارة منزل داسا للحصول على تقرير عن اعماله في العاصمة فعلم من اهله باخبار توقيفه . وعندما قرأ في صحف الصباح عن حادث سينما ريو سارع لمقابلة افرى في مكان حدد من قبل . ووصل عازار الى شارع البنوك وهو في حالة اضطراب شديد ، واقدم غير عابىء بمقتضيات الأمن على الدخول معه في حديث مفتوح . وتحدث الى افرى عن التوقيفات وأصر على وجوب القيام بعمل ما قبل ان يغير رجال الشرطة على من تبقى من الشبكة. ورفض افرى ان يختار للعمل خطة جديدة وأصدر اليه ببرود امره بالعودة الى منزله والبحث عن تفاصيل جديدة . واطاع عازار ولكن بتردد .

وفي اجتماع لاحق عقد في اليوم التالي كان عازار في حالة ذعر شديد . وبعد ان نقل لأفرى ما كان يعرفه أصدر اليه الأمر بالمشاركة في تدمير كل الشواهد والبينات التي لا تزال في مقر الخلية . وسارع كلاهما

الى ساحة الرملة ودخلا الى الدار من احد النوافذ واخفوا بسرعة الوثائق وأجهزة الارسال ، وتسلم عازار من افرى المواد ذات الحجم الكبير بعد ان طلب اليه اتلافها ، ولم يأخذ معه سوى جهاز اذاعة صغير ولكنه غالي الثمن . وقد حالفهما التوفيق في التوقيت لانهما ما كادا يغادران المكان حتى دخله رجال الشرطة بقوة كبيرة .

وفي الاجتماع الثالث اي بعد مضي اسبوع على التوقيفات حاول افرى ان يقنع عازار بأن يغادر البلاد معه ، غير ان عازار رفض بحجة انه لا يستطيع ان يغادر امه . ومنحه افرى فرصة اخرى لتغيير رأيه ، وحدد موعداً رابعاً للقاء اخير . وبعد ثمان وأربعين ساعة وصل عازار قبل الوقت — ومع كل الاحتياطات اللازمة — الى المكان الذي تقرر الاجتماع فيه ، وعندما كان يستعد للاقتراب من زاوية في الطريق ، وبعد لحظات كان عازار قد اقتيد في احدى شاحنات السجن ووضع في المكان الموعود للقاء ، غير ان افرى شعر بذلك وغادر المكان بهدوء .

وفي هذه الأثناء ، وبينما كان عازار في طريقه الى المخفر ، كان ايلي يحتسي القهوة في مقهى يقع على طريقه من المكتب الى المنزل ، عندما انبأه احد رجال الشرطة السريين — وكان يعرفه جيداً — بنبأ توقيف صهيوني محلي متورط في التفجيرات الأخيرة ، فتظاهر ايلي بأنه صعق من تدخل اليهود في مثل هذه المواضيع ، وبعد حوار قصير غادر المقهى وذهب بسرعة الى المقر الذي استأجره للشبكة راجياً ان يوفق في تدمير كل ما يمكن استخدامه كشاهد او دليل . غير انه شاهد البناء وقد احاطت به الشرطة من كل جانب ، ومن الغريب ان أياً من الموقوفين لم يذكر الاسم المستعار لايلي .

وبدأ المحققون يعززهم ضباط من الأمن العام في استجواب عازار ليلاً ونهاراً . ولما كانوا قد وجدوا في حوزته الجهاز الذي طلب اليه افرى ان يدمره ، فقد اضطر اخيراً للاعتراف بدوره في اعمال تفجير القنابل ، وقال انه اجتمع مؤخراً بروبرت « افرى » ، الذي كان يعرفه

باسم مستعار بول فرانك ، واعترف بالاتفاق معه على الاتصال به بعد عدة ايام . ومن عازار استطاع ان يتعرف رجال الشرطة على اسماء زعفران وميواس ، اللذين ادى توقيفهما لإلقاء القبض على آخر من تبقى من حلقة القاهرة : نعيم وكوهين ومرزوق . وعندما سئل زعفران عما اذا كان يعرف بول الذي ورد ذكره في رسائل ضبطت في منزل ناتانسن اجاب ببساطة : نعم بكل تأكيد انه الاسم التنكري الذي يستخدمه الدكتور مرزوق .

وعلى الرغم من ان الدكتور مرزوق كان عارفاً بتوقيف كل المتورطين بالعملية في القاهرة والاسكندرية ، فقد داوم على عمله في المستشفى ، حيث ألقت عليه القبض قوة من رجال التحري وموظفي مكافحة التجسس التابعة للمخابرات (مصلحة الامن العام) . وفي المرحلة الأولية لاستجوابه كشف مرزوق عن بعض التفاصيل الخاصة بالجهاز الصهيوني في مصر ، واعترف بأن مقر الجهاز في الاسكندرية «لم يقصد به ان يكون للاذاعة فقط بل هو ايضاً مقر لاجتماعات ضباط المخابرات الاسرائيليين ، الذين كانوا يأتون الى مصر للقيام بأعمال التفتيش في مناسبات دورية» . وقال مرزوق : ان احد هؤلاء هو الآن في القاهرة غير انه لا يستطيع ان يرشد الشرطة الى مكان اقامته لأن اتصاله به لم يكن مباشراً بل عن طريق « كلود » (نينو) الذي كان صلة الوصل بين حلقتي الشبكة وبين المركز في اسرائيل . اما فيكتورين مارسيل الذي ورد اسمها على لسان مشبوهين آخرين فقد صدرت على الفور مذكرة بتوقيفها .

ولم تسمع فيكتورين مارسيل بأخبار التوقيفات الا على سبيل الصدفة ، فحاولت الاتصال ببنيت عن طريق رسالة تركتها في مكان اجتماعاتهما السابقة ، وبما انه لم يحضر الاجتماع حتى عصر يوم الاثنين فقد اعتبرت بقاءها في المدينة خطراً كبيراً عليها ، فحصلت على اجازة بحجة الاهتمام بأمها المريضة ، وغادرت الاسكندرية بكل هدوء . غير ان قلقها لم يمر دون ان يلفت الانظار ، اذ بعد مغادرتها المكتب بفترة قصيرة تلقت شرطة

القاهرة هاتفاً من مجهول يشي بها ، وهو احد زملائها الذي اثار حقده وغيرته شهرة فيكتوريا وسعة اتصالاتها فراح يشك في سلوكها . وعندما داهم رجال التحري منزلها لاعتقالها كانت قد غادرت البلد ، غير ان رجال الشرطة شاهدوا في المنزل اكثر مما كانوا يتوقعونه : جثة عميل اسرائيلي شاب – عرفت هويته فيما بعد – كانت مدلاة من سقف غرفة الحمام » .

وتعقب رجال التحري آثار فيكتورين الى منتجع صحي بالقرب من الاسكندرية ، واقتحموا غرفتها حين كانت تحاول ان ترمي بنفسها من النافذة . ولما ووجهت باعترافات شركائها اقرت بدورها في الشبكة ، وانكرت انها تعرف شيئاً عن مقر ماكس بنيت ، وقالت انها لا تعرف عنه سوى رقم الرخصة التي يقود سيارته بموجبها . وعلى الرغم من ان هذه المعلومات كانت جزئية فقد كانت كافية لتعقب آثاره . وقامت الشرطة بالتحقيق مع بعض البوابين في منطقة الزمالك الى ان عثرت على الشيفروليه الزرقاء التي يملكها، وبعد البحث اكتشفوا انه يملك جهازاً للارسال موضوعاً في مستودع الزيت. فاقاموا له كميناً في المرآب واعتقلوه بالجرم المشهود بينما كان يحاول الاتصال بتل ابيب .

وبعد اقتحام الشرطة لهذا المرآب انقطع اتصال افرى بالمركز الرئيسي فارسل برقية مفتوحة الى عميل في المانيا : « بيير (اسم رمزي لليفي) افلس ، سأبقى هنا لانقاذ الرصيد » ووقع على البرقية اسم ابنه . وارسلت البرقية الى تل ابيب بالبريد العادي وبعد ثمانية واربعين ساعة صدر الأمر الى بنيت من قيادة مودين بوجوب مغادرته القاهرة . ومع ذلك فقد رأى ان ارسال عائلته الى خارج البلاد كافياً ليكون آمناً مطمئناً .

ولما كان افرى غير عارف باعترافات افراد الشبكة فقد حاول تضليل رجال الشرطة عن طريق متابعة تفجير القنابل . فنسف مصفاة بالقرب من القاهرة وقذف قنبلة يدوية من سيارة عابرة في مدخل قاعدة عسكرية في منطقة القنال . ولكنه بعد توقيف عازار انتهى الى ان اية محاولة لتنظيم

فرار الباقين لم تعد تجدي نفعاً لا سيما بعد ان عجزت المودين عن تزويده بالوثائق المزورة التي اعدت لمثل هذه الحالات المستعجلة . كما انتهى الى ان توقيفه سيلحق بالمخابرات الاسرائيلية اضراراً تفوق تخليه عن الشبكة، وهكذا اصبح ابتعاده عن مصر من الأمور الجوهرية . وكيلا تفوز قوات الأمن بإغلاق الحدود في وجهه باع سيارته وفر في احدى طائرات اللوفتهانزا الى ميونيخ .

وبالاضافة الى افرى فقد استطاع سعادة مع عدد من اعضاء الشبكة الذين لم تكشف هويتهم ان يراوغوا رجال الشرطة . وبعد اسبوعين من توقيف ناتانسن، كان احد عشر عميلاً من عملاء الشبكة رهن التوقيف.

وقد اكتشفت علاقة ايلي بهذه العملية من الوثائق التي وجدت في منزل عازار ، وعثر عليها بعد التوقيفات الأولية التي شملت ١٥٠ شخصاً من يهود القاهرة والاسكندرية . وكان لجميع هؤلاء ملفات تشير الى علاقتهم بالصهيونية كما تشير الى ان صداقة كانت تقوم بينهم وبين افراد الشبكة ، وعندما استحضر ايلي امام فريق من المستجوبين يرأسهم المحامي العام العسكري امين عبد العال، اخضع الى سيل متقطع من الأسئلة غير المترابطة ، غير انه انكر باصرار اية معرفة بالحلقة وعملياتها . الا ان عبد العال لم يكن راغباً في اخلاء سبيله فنقله الى السجن الواقع في صحراء سيوه، قرب الحدود الليبية حيث حشر اعداء النظام من جميع الميول والمعتقدات في حالة من الشقاء مذلة ، ومنعوا من الاتصال بالعالم الخارجي . وبعد اربعة اشهر من الاستجوابات الدورية عجز المحامي العسكري عن ان يجد اية صلة بين ايلي والمتهمين الآخرين فأمر باخلاء سبيله مع عشرين آخرين من المشبوهين (١).

(١) إن انباء هذه الشبكة من الجواسيس الاسرائيلية بجميع دقائقها وتفاصيلها ما كانت اسرائيل لتسمح بنشر شيء منها لولا أنها اعلنت في المحاكمات العلنية التي اجريت للجواسيس ، كما لم يتضمن هذا الكتاب اية معلومات ذات شأن لم يكتشف امرها وتصبح معروفة بعد افتضاحها. =

وبعد ان اغلقت التحقيقات المبدئية من قبل رجال التحري في القاهرة والاسكندرية ومصالح الأمن العام، نقل المخربون الأحد عشر الى مركز اعتقال الجيش في القاهرة ، وعهد بهم الى فرع التحريات العسكرية ، وهناك عزلوا عن كل الاتصالات واستمر استجوابهم ثلاثة واربعين يوماً وليلة . وقد اعترفوا جميعاً بصلاتهم بالصهيونية ولكنهم غير راغبين في التجاوب مع المحققين على الرغم من البينات التي جرمتهم والتي وجدها رجال الشرطة في حوزتهم . وبتفتيش سبعة منازل تابعة للشبكة في القاهرة والاسكندرية عثرت شعبة مكافحة التجسس على ثروة من الأدوات والمعدات الخاصة بالتجسس ، والوثائق ، والخرائط ، والصور والميكروفيلمات ، ونسخاً من الرسائل المتبادلة مع جبهات الموذين في اوروبا ، واشرطة تسجيل ، ومتفجرات ، وموزع اوتوماتيكي للمناشير ، ومما اثار الدهشة العثور على عدد لأجهزة الارسال ، وعلى الرغم من ان بنيت كان يقوم بتشغيل ثلاثة فقط فقد كان في حوزة حلقتي القاهرة والاسكندرية بناء على بيانات دوائر الأمن ستة اجهزة اخرى كانت مخبوءة في مرطبانات المربى وفي مستودعات البنزين وحتى داخل الانجيل . وقد ظهر استياء المساجين من توريطهم في هذه العملية عندما قامت فيكتورين بمحاولة ثانية للانتحار ، ففي ١١ آب بينما كانت في انتظار وصول المحقق سمعت ضربات على الباب ، وعندما نهض الحارس ليجيب انتصبت في مكانها وبحركة سريعة قفزت من النافذة غير ان

= وهذا ما يفرض على كل مواطن عربي ، وخاصة من كان منهم في مراكز الحكم ، أن لا يتردد في التفتيش عن يد الجاسوسية الاسرائيلية من وراء اعمال التخريب التي تجري في هذا البلد او ذلك من البلاد العربية، سواء أكان التخريب بالمتفجرات او بأعمال ومواقف واجراءات وتصرفات هي اشد خطراً وأعظم اثراً من القنبلة والديناميت في تدمير مقومات الشعوب العربية من سياسية واقتصادية واجتماعية وعسكرية . ولا شك أن امعان البصر والبصيرة في التفتيش عن يد اسرائيل في اعمال التدمير والتخريب هذه، من شأنه أن يعطي الجواب المنطقي والمعقول على مئات الأسئلة التي يدور حولها الكثير من الشبهات والريب المحيطة بأفراد وجماعات يلعبون على المسرح العربي ألعاباً مدهشة ومثيرة، ولكنها تفتك في المجتمعات العربية فتكاً مدمراً ذريعاً يفوق مئات المرات اضرار شبكة الجواسيس الاسرائيلية . (المعرب)

محاولتها كانت فاشلة، اذ سقطت على الأرض وانكسرت رجلها ولحقت بها اصابات طفيفة ، وقال احد المحامين العسكريين فيما بعد عندما كانوا يتحدثون عن الروح المعنوية للموقوفين اليهود : « يفضل العملاء الصهيونيون ان يموتوا على ان يلحقوا الأذى بالمخابرات الاسرائيلية ، او ان يكشفوا اسرارها » .

ولكي يمكن اختراق الحجاب الكثيف من السرية قررت شعبة التحريات العسكرية اللجوء الى التدابير القصوى وهي التعذيب والتهديد ، وهذا ما استخدم في النهاية ضد بنيت ونينو ومرزوق، الذين ارغموا على توقيع أعترافات اعدت من قبل ، وقد اثبتت وسائل التنكيل هذه فعاليتها حيث انهار المتهمون الأحد عشر امام مستجوبيهم .

وكانت محطة دمشق هي الأولى التي اعلنت نبأ توقيف « العصابة الصهيونية التي كانت تهدد الأمن الداخلي في مصر » ، وتحاول تقويض المحادثات المصرية البريطانية . اما البيان المصري عن القضية فلم يعلن إلا في ٦ تشرين الأول من راديو القاهرة من قبل وزير الداخلية زكريا محي الدين، الذي اعلن ان التحقيقات قد انتهت باعتراف المتهمين، وانه اصبح الآن قادراً على ان يكشف « مؤامرة اسرائيل لنشر الفوضى والتحريض على الفتنة في مصر » ، وكشف زكريا محي الدين عن ان الغرض من هذه المؤامرة هو « اساءة العلاقات بين مصر من جهة وبريطانيا والولايات المتحدة من جهة اخرى » . وأضاف انه ثبت بما يكفي للاقتناع بأن اليهود الذين يعيشون في مصر قد ارغموا على العمل في الشبكة على الرغم من رغبتهم في الاحتفاظ بولائهم للحكومة . وسارعت الصحف لنشر تأكيدات وزير الداخلية، وقالت جريدة المصور : «على جميع اليهود في مصر ان يتابعوا بدقة محاكمة الجواسيس اليهود ، وان يعيدوا قصتها على اولادهم ليعرفوا ان ما تريده اسرائيل هو حملهم على خيانة وطنهم الذي عاملهم بشهامة وكرم» .

وبينما كان موعد المحاكمة يقترب كانت هناك علائم اخرى تزيد

الجو حلكة بالنسبة للمتهمين ، اذ تعرضت العلاقات الاسرائيلية المصرية لمزيد من التوتر على اثر حادث نشأ عن اتفاق القناة ، الذي وقع بين مصر وبريطانيا . ووقعه عبد الناصر في ضجيج من الفرح والابتهاج بتاريخ ٢٧ تموز ٩٥٤ . فقد كان موسى شاريت يخشى ان تقدم مصر على اغلاق كل المساعي الدبلوماسية المبذولة لإبقاء القناة مفتوحة في وجه الملاحـة الاسرائيلية ، لذلك قرر اختبار نوايا عبد الناصر . ففي ٢٨ ايلول دخلت القناة الباخرة بيت غاليم وهي ترفع العلم الأبيض ونجمة داوود الزرقاء ، وحمولتها ٥٠٠ طن وعليها عشرة من البحارة الاسرائيليين وكمية مـن اللحوم ورقائق الخشب ، غير ان سلطات بور سعيد اوقفت البحـارة وصادرت السفينة مع حمولتها .

وبالاضافة الى المشاكل التي يواجهها ضباط الثورة بالنسبة لاسرائيل فقد اقلقهم النضال الداخلي ، وكان رد فعل عبد الناصر تجاه الهجمات على نظامه ان سدد ضربات عنيفة لاعدائه ، واقدم على توقيفات تعسفية ومحاكمات تطهير ضد المنشقين الذين وصموا بـ « الشيوعيون الذين يوجههم الصهيونيون » . غير ان محاولات ناصر لخنق المعارضة كانت تزيد في ضجيجها ، فقد شن الاخوان المسلمون – الذين جمعوا الى دعايتهـم البارعة المظاهرات التي احسنوا تصعيدها – حرباً شاملة على الرئيس ، وقام المرشد العام الجديد حسن الهضيبي بتحضير انقلاب ، ينطلق من اغتيال عبد الناصر ويؤدي الى اغتيال جميع اعضاء الوزارة و ١٦٠ من ضباط الثورة . وفي آخر اسبوع من تشرين الأول بلغت الحملة درجتها القصوى ، اذ بينما كان عبد الناصر يلقي خطابه في ساحة محمد علي في الاسكندرية امام مئتي الف من الجماهير استبدت فيها العواطف الحماسية ، تقدم احد افراد الاخوان المسلمين – وهو عضو في الجناح السري – الى الأمام مطلقاً ثماني طلقات من مسافة قريبة . وقد اخطأت الطلقات اهدافها لأسباب لا يمكن تفسيرها . فحلت جماعة الاخوان المسلمين للمرة الثانية ووصل عدد الموقوفين الى الألف ، وصرح وزير الدولة وهو احد وزراء عبد الناصر : « يجب ان ننتهي دفعة واحدة من اولئك الذين يستخدمون

السلاح والعنف وقد صممنا على ان لا ندع لهذه الأفاعي سبيلاً للزحف بين صفوفنا» . ومن الأمور التي لها مغزاها ان هذا المنطق نفسه استخدمته الصحافة المصرية عندما تحدثت عن المتهمين الصهيونيين . فقد اعلنت جريدة الجمهورية ان المحاكمة ستظهر ان « مصر تريد تطهير ارضها من الجواسيس والخونة بمثل ما تريد تطهيرها من الرجعيين والعملاء والأمبريالية والفساد » .

وافتتحت المحكمة العسكرية في القاهرة يوم السبت ١١ كانون الاول ٩٥٤ في جو لم يسبق له مثيل من العنف والاضطهاد ، ووصل ايلي الى محكمة الاستئناف ، وهي عبارة عن بناء من ثلاثة طوابق من الحجر الأصفر تقع في قلب المدينة القديمة – وصل قبل قليل من ضرب المطرقة ايذاناً بافتتاح المحكمة عند الساعة التاسعة والنصف قبل الظهر – وكان يعرف ان حضوره قد يثير شبهة السلطات ، وفضول اصدقائه من المتهمين الذين كانوا يشعرون بالقلق وبأن جماعتهم قد تخلت عنهم . ومع ذلك فقد كان يعتقد ان من الأمور الجوهرية ان يثبت لأولئك الذين شاركهم في كثير من الأعمال خلال السنتين الماضيتين انهم لم يتركوا لوحدهم .

وقام اثنا عشر رجلاً من رجال الشرطة ذوي البزّة الزرقاء والطربوش الأحمر باقتياد الموقوفين الى غرفة حقيرة فاسدة حيث نصب قفص مغطى بالصفائح الفولاذية يتخلله قضبان معدنية، وأخذ كل من المساجين مكانه امام حارسين ، وخصص لفيكتورين وحدها مكاناً في الصف الثاني وراء المقعد المخصص للدفاع . وجلس الأعضاء الخمسة في المحكمة العسكرية العليا يرأسهم العميد محمد فؤاد الدجوي وراء مائدة طويلة وتحت لوحة ضخمة كتب عليها « واذا حكمتم فاحكموا بالعدل » . وفيما يشبه العلبة الى اليمين كان اربعة من المدعين العسكريين يلعبون بأوراقهم بينما وقف وراء المقسم في الصف الأمامي سرية من ثمانية اشخاص يمثلون الدفاع ، وبينهم الفرنسي والبريطاني والألماني الذين انكر عليهم حق المرافعة ، وكانوا يتحدثون همساً وبحدة . وقد عين الكيدورسيه استاذين للدفاع

عن مرزوق الذي يحمل الجنسية التونسية، كما ارسلت بون محامياً للدفاع عن بنيت لأنه من رعايا المانيا الغربية ، واحتفظت زوجته بخدمات الحماية البريطانية . اما قسم الصحفيين فقد امتلأ بكل من يتسع له ، وكان بين السبعين مشاهداً الذين احتشدوا في قاعة المحكمة ثلاثة من المراقبين الدبلوماسيين وممثل عن المؤتمر اليهودي العالمي ، وكان عشرة بالمئة ممن حضروا من شعبة الشرطة السياسية . ولم يسمح بالدخول سوى لأقرباء المتهمين بعد ان أخطروا بعدم التكلم معهم ، او حتى النظر إليهم .. (١)

وافتتح محضر المحاكمة وفقاً للقانون العثماني العسكري من قبل ضابط قضائي تلا اسماء الثلاثة عشر متهماً — جرت محاكمة دار وافري غيابياً — ووقف فترة قصيرة قبل ان يعدد بصوت حاد، كأنه متحرر من جسد صاحبه، اسماء اعضاء المحكمة العسكرية العليا الذين لم يجتز سوى واحد منهم فقط فحص المحاماة . وعندما انتهى من ذلك طلب محامي مرزوق وهو الأستاذ احمد رشدي وزير العدل السابق وعضو في نقابة المحامين المصرية تأجيل الجلسة لأن الشرطة رفضت منحه حق التشاور مع موكله قبل المحاكمة ، كما ان النيابة عجزت عن تزويده بملف المتهم ، وانه لا يزال حتى الآن غير عارف بالتهم الموجهة اليه . وقال محامي الادعاء بقسوة ان الاتهام لم يوزع على اي من وكلاء الدفاع لأنه لم تكن هناك نسخ جاهزة . ولكن رئيس المحكمة لم يتأثر بالظروف الرديئة وغير المتكافئة لهيئة الدفاع وطلب من المحامي ان يحصل على معلوماته من مجرى القضية اثناء المحاكمة .

وجلس الأحد عشر متهماً هادئين في قفص الاتهام ، ولم تظهر عليهم علامات التأثر عندما بدأ النائب العام يتلو قرار الاتهام وقال : « ان المتهمين قد اشتركوا في جمع ونشر المعلومات التي تساعد اعداء البلاد

---

(١) يعترض القارىء هنا سؤال : ايلي المشبوه هذا الذي سبق له أن أوقف ألا يثير وجوده وحضوره الشبهة والشكوك لاسيما وانه احد افراد الشبكة الاسرائيلية ؟ فكيف كان يحضر بدون تحرج كل جلسات المحاكمة ؟ وكيف كان يحصل على الأذن بالدخول ، والحظر على حضور المحاكمة بالغ الشدة ؟ (المعرب).

على خلق حالة من الاضطرابات وتقلق الأمن العام وتعرض سلامة مصر للخطر، وهم متهمون اما افرادياً او جماعياً بإعداد مؤامرة اجرامية، وبالتجسس لاسرائيل، وبصنع وامتلاك المتفجرات والقنابل المحرقة، والقيام باعمال التخريب. وبعد استراحة قصيرة طلب محامي الاتهام اصدار حكم الموت على الثلاثة عشر متهماً، وعندما انتهى وسئل كل متهم عن جريمته اجاب انه ليس مذنباً.

وقبل اختتام الجلسة الأولى كان ايلي يصغي بألم وخيبة الى ناتانسن الذي حاول ان يبرىء نفسه من مسؤولية الانفجارات، عندما قال متفاخراً انه احبط مؤامرة الصهيونيين في تدمير دور السينما والمباني العامة عندما اشعل النار في نفسه امام سينما ريو، وان مساهمته في الانفجارات الأولى كانت بعد تهديد من افرى بكشف خبر زيارته لاسرائيل للسلطات المصرية.

وفي اكثر الأيام السبعة التالية كان ايلي يقوم برحلة الى القاهرة يومياً، وكان في قاعة المحكمة عندما قدم الاتهام ١٧ شاهداً اكثرهم من ضباط الشرطة لاثبات جريمة اولئك الذين تورطوا في «جرائم وحشية ضد مصر». وبعد مرور ثمانية وأربعين ساعة على هذه البيانات غير داسا وليفي وعازار وناتانسن من استراتيجيتهم، واعترفوا بالتهم الموجهة اليهم معلنين انهم كانوا مضللين، وأنهم لا يعرفون الأغراض الحقيقية للذين كانوا يوجهونهم، وانهم ما كان في نيتهم ان يعملوا ضد مصر.

وعندما استأنفت المحكمة اعمالها في الاسبوع الثاني طلب مساعد محامي الاتهام الاذن ليعلن خبراً، وساد الصمت غرفة المحكمة عندما قال: ان ماكس بنيت الذي كان مقرراً ان يدلي بشهادته هذا الصباح الثلاثاء قد انتحر في زنزانته في الليلة السابقة، وقد كشف تحقيق قامت به المحكمة بعد ذلك ان بنيت كان يخضع لمراقبة دقيقة قبل موته، لأنه حاول رشوة حارس لكي يهرب الى زنزانته كمية من سيانيد البوتاسيوم، كما انه توصل لاقناع حارس آخر بأن يبادله شفرة حلاقة بنصف دجاجة ارسلت اليه من قبل القنصلية البريطانية، وعندما وجد بنيت مطروحاً على

الأرض كان قد فقد كمية كبيرة من دمه ، فطلب جرعة من الماء ثم مات . وترك مذكرة طلب فيها ان تزرع شجرة لإحياء ذكراه ، كما حث زوجته على الزواج من بعده، وقالت احدى صحف القاهرة اليومية : « لقد مات بنيت بفعل يديه عندما علم ان مصر هي قبر للصهيونية والصهيونيين » .

وقد زاد موت بنيت في كآبة ايلي فقد رفض النقيب ان يضع نفسه تحت رحمة المحكمة التي بدا انها اصرت على ان تسجل رغبة الآخرين الظاهرية في التعاون من اجل الحصول على احكام رحيمة ، وبعد استراحة اخرى انتقلت المحكمة الى الاسكندرية لتحقق محلياً في موضوع « معمل القنابل » ومكان المتفجرات ، وشاهدت ناتانسن وليفي وهما يمثلان كيف وضعا متفجرات في علبة البريد. وكان تعاون المتهمين منسجماً مع استراتيجية محامي الدفاع الذين خططوا ليظهروا موكليهم بمظهر الضحية في مؤامرة لم يكن لديهم قدرة السيطرة عليها . وقالوا بالنيابة عن اكثر المتهمين : « كانوا مجرد اطفال لا يعرفون ماذا يفعلون لعبوا بالنار فأحرقت اصابعهم فيجب ان يضربوا بالعصا ويرسلوا الى منازلهم ، كانوا فريسة مغامرات بل وضحية ابتزاز» . وحاول بعض المتهمين تعزيز هذا الايضاح زاعمين انهم يجهلون الأهداف الحقيقية للذين كانوا يوجهونهم وقال ناتانسن بصراحة : « انا لست صهيونياً واسرائيل لا تعنيني » ، واعترف عازار : « ان الغاية من الانفجارات هي الإساءة الى العلاقات بين مصر والولايات المتحدة، وخاصة في الوقت الذي تجري فيه المفاوضات لتقديم مساعدات اقتصادية لمصر ، حاولت الانفصال عنهم ولكني لم اوفق ». وعندما سأله العميد عما اذا كان اليهود المصريون يباهون بأعماله اجاب عازار بحزن : « اعتقد انهم جميعاً متألمون، إنني لم اقصد ابداً ان اخون مصر ، لقد ألقيت بالقنابل المحرقة في البحر حتى لا ألحق الأذى بالمواطنين من ابناء بلدي » .

وعكست شهادة مرزوق شعور الخيبة ايضاً على ايلي الذي كان لا يشك في صدقه مع نفسه، فهو في محاولته الدنيئة للتخلص من مسؤولية

اعماله بادر الى التأكيد قائلا : « لقد خدعنا جان دارلينغ ولقد رفضت التعاون معه عندما عرفت ان هناك عوامل اخرى تحركه» . غير ان حجة مرزوق هذه كانت تشير الى الموقف الخبيث الذي عزم على اتخاذه اذ اصر على ان الشبكة قد تألفت كي تساعد على انهاء التوتر بين مصر واليهود، وقال انه لم يشعر ابداً انه كان يتجسس لحساب اسرائيل الى ان صدرت هذه الكلمات على لسان محامي الاتهام » ، وانكر كذلك انه كان رئيساً لحركة القاهرة وصحح اعترافات سابقة عندما انكر كل الاتهامات ذات العلاقة بالتجسس العسكري ، ولم يكن المتهمون الآخرون اقل عبقرية ، اذ قال ليفي: «اريد من المحكمة ان تعلم انني كنت ارى الموضوع كله هزلاً فأنا مصري قبل ان اكون يهودياً ولم يخطر على بالي في اي يوم انني سببت ضرراً لمصر التي هي بلادي ، انا لن اعيش او اموت كعدو لمصر » ، اما داسا فقد قال بكل بساطة : «انا لم اعرف الغاية الحقيقية للحملة وكان لي من العمر ١٧ عاماً فقط » .

وجاء دور فيكتورين لتمثل ما اعتبره ايلي دور التحدي الشريف امام المحكمة . فقد اتهم محاميها الأستاذ برصوم سلامة رجال الشرطة بأنهم عذبوها وضربوها وأرغموها على الكلام تحت الضغط — وهذه تهمة لم تحقق فيها المحكمة ولم تنكرها — : «واكدت ان كل ما فعلته هو انها قبلت مساعدة مالية من جان دارلينغ لإغاثة امها التي كانت تموت بمرض السرطان ». ومع ذلك فإن فيكتورين لم تبذل اي مجهود كي تحظى بعطف المحكمة، وعندما سئلت مرات عديدة عن علاقتها بدارلينغ كانت تجيب باستمرار ليس لدي ما اقوله ، وهنا تدخل رئيس المحكمة دجوى فقال: «وماذا تعنين ان ليس لديك ما تقولين ؟ »

فيكتورين : اعني انني لا اريد الجواب على هذا السؤال .
دجوى : تعنين انك تعرفين الجواب ولكنك لا تريدين ان تجيبي .
فيكتورين : نعم
دجوى : لماذا لا تريدين ان تجيبي على هذا السؤال ؟

فيكتورين : لأنني لا اريد ان اجيب عليه .

وفي ٦ حزيران ٩٥٥ بعد تلخيص نهائي لأقوال الاتهام والادعاء ، اختلت المحكمة لوضع قرارها ، وبعد مرور ثلاثة اسابيع وفي صبيحة اليوم السابع والعشرين اجتمعت المحكمة لمدة خمس دقائق لاعلان الحكم . كانت قاعة المحكمة مليئة برجال الشرطة والمراسلين الأجانب والدبلوماسيين وموظفي التلفزيون . اما اقرباء المتهمين فقد كانوا غائبين فيما عدا والد داسا الذي جلس على مقعد في الوسط. وكان جو من التفاؤل يسود الصحفيين الذين تجمعوا في احدى الزوايا ، وكان ينظر الى الفترة بين المحاكمة وبين صدور الحكم بأنه لا سابقة لها وانها قد تعكس املاً للمتهمين ، وعند الساعة الثانية عشرة تماماً دخل العقيد ابراهيم سامي ليجلس على مقعد رئيس المحكمة ، ثم التفت ليواجه المتهمين متفحصاً وجوههم قبل ان يتكلم ، وأمسك عن قراءة الحكم الذي يتألف من ستين صفحة ، ونادى فقط بالمحكومين. وكان اول المتهمين مرزوق الذي وقف متحاملاً على نفسه ومستنداً على الحاجز الخشبي عندما علم ان قد حكم عليه بالموت شنقاً ، اما سامي عازار فقد كانت عيناه تلتهبان عندما استمع الى الحكم ذاته قبل انهياره ، ثم تلا العقيد ببطء الأحكام الأخرى : فيكتور مويز ليفي وفيليب هرمان ناتانسن السجن مدى الحياة ، وفيكتورين نينو وروبرت نسيم داسا ١٥ سنة ومايير جوزيف زعفران ومايير صاموئيل ميواس ٧ سنوات ، والجميع بالأشغال الشاقة . اما ايلي جاكوب نعيم وقيصر جوزف كوهين فقد صدر الحكم ببراءتهما . وهنأ مرزوق ببرود الاثنين الأخيرين ، ولم يصدر رد فعل عن المحكومين عندما اعلن العقيد ان الأحكام قد صدّقت من قبل الرئيس جمال عبد الناصر كحاكم عسكري لمدينة القاهرة ، ولو ان هذا التغير في الاجراءات قطع الطريق على مجهودات الدفاع وعلى كل محاولة للاستئناف .

وقد استقبلت احكام الموت هذه بصيحات من الغضب والاستنكار ،

اما المراقبون الأجانب الذين حضروا المحاكمة قد وصفوا قرارها بأنه حكم انتقامي ، وقالوا ان هذا الحكم معلل بأسباب تتعلق بالسياسة الداخلية والخارجية ، وأنها صدرت لتثبت للجامعة العربية التي كانت في حالة انعقاد في القاهرة ان النظام يقسو لا على قادة الاخوان المسلمين فقط الذين اعدموا قبلاً بل على اليهود ايضاً .

وطلبات الاستئناف التي تقدمت بها بريطانيا وفرنسا والفاتيكان مرت دون اهتمام ، اما الولايات المتحدة التي اعتبرت الأحكام قضية مصرية داخلية فلم تعر الموقف اهتماماً من الناحية الرسمية ، كما ان طلبات الرحمة التي رفعتها عائلات المحكومين كانت غير مجدية ، والتزمت ام مرزوق وإحدى شقيقات عازار باب منزل الرئيس عبد الناصر بأمل رؤيته واسترحامه ، وحتى رئيس الحاخامين في مصر الذي كان يستطيع الوصول الى عبد الناصر بسهولة طلب اليه اللقاء به مرتين الى ان شعر بأن نفوذه لن يفيد شيئاً في هذا الموضوع .

ونفذت الحكومة عقوبتها يوم الاثنين في ٣١ كانون الثاني في الرجلين اللذين حاولا في البدء منع تفجير القنابل ولكنهما وقعا في مباءة الولاءات المتناقضة ، والعواطف المتضاربة ، وانتشرت الأخبار عن موتهما في الصباح التالي في حارة اليهود . وعند الفجر التحق ايلي بجماهير يبلغ عددها المائتين تجمعت امام سجن باب الخلق . وعند الساعة الثانية قبل الظهر اقتيد مرزوق مغلول اليدين الى المشنقة ووقف بين حارسين وهو يرتدي قميصاً اسود وسراويل حمراء فاقعة اللون وقبعة خمرية ، وهو اللباس المزخرف للمحكومين بالاعدام . وعند وصوله الى منصة المشنقة تلي عليه الاتهام والحكم من قبل احد الضباط ذوي الرتب العالية فتغضن وجهه ، وقال الحاخام باروخ صلاح فيما بعد : بدا وكأن الكلمات لم تكن موجهة اليه ، وبعد ان تليت عليه الصلاة بالعبرية كان طلب مرزوق الأخير ان يدفن الى جانب والده ، وتحرك الجلاد الى الأمام ومعه الحبل وغطاء الرأس ، وبعد عشر دقائق اعلن عن موت مرزوق رسمياً . ومضت نصف

ساعة قبل ان تجيء تشكيلة جديدة من الحرس بعازار من زنزانته فصلى وتلقى الدعاء من الحاخام حاييم مطرى ، ورفض عازار ان يدلي بطلب اخير ، غير انه كما ذكر الحاخام مطرى فيما بعد، كان اكثر انفعالاً من مرزوق، وتدفقت الدموع الى عينيه عندما قال: (VIDUI) وكان يتمتم قائلاً : ربي اغفر لي . وخارج ابواب السجن كان ايلي يراقب العلم الأسود يرتفع الى الأعلى .

وقد ادى اعدام وسجن احد عشر صهيونياً الى مضاعفة الجهود التي تبذلها الشرطة السياسية لاستئصال بقايا ما يسمونه بالطابور الخامس اليهودي ، وكان ما تبقى من الجالية اليهودية وعدده ٤٥ الفاً معرضين لجميع تهم التخريب . وفي عام ١٩٥٥ كان جميع اليهود يعيشون تحت التهديد الدائم بمحاكمتهم كجواسيس وكمشتركين في نشاطات شيوعية صهيونية . ولكن بينما كان الصهيونيون يعتبرون الهدف الأول للشرطة السياسية فقد ظهر ان كل يهودي اخذ يشعر بنقمة ناصر وكراهيته ، ولم تعد تلتفت الحكومة الى التمييز بين المواطنين وبين اولئك الذين يساندون اسرائيل . وعندما فتح ايلي جريدة الأهرام شبه الرسمية اتى على مقالات مصورة لم يسبقها اليها، بالنسبة لسمها وبعدها عن الشعور بالمسؤولية، سوى ما كان ينشره الرايخ الثالث ، فقد كانت هناك بيانات عن الجرائم التي ترتكب ضد العرب في المناطق المحتلة ، وهناك مقالات اخرى تتهم رجال الأعمال والأطباء اليهود والرسميين من ابناء الجالية بالتجسس والتخريب والمضاربة . وفي عربات الترام والباصات وزوايا الأزقة ومحطات السكك الحديدية كان ايلي يعترض الشبان وهم يوزعون مناشير ضد اليهود صادرة عن المؤتمر الاسلامي . وحتى برامج الاذاعة كان يسيطر عليها معلقون يحرضون على الشعور المعادي لليهود ، وكذلك ضيوف البرامج كانوا يوضحون اخطار اليهودية على الاسلام . ووعدت جريدة الجمهورية قراءها قائلة: «ان اليهودية العالمية ستشهد في وقت قريب او بعيد يوم فنائها مثل ما فعل بها النازيون من قبل» . واقدمت دور النشر التابعة للحكومة على طبع امثال هذه الأقوال العنيفة ، كما ان مكاتب

الاسكندرية امتلأت بالقصص الرخيصة المناوئة لليهود ، وكان توجيه الأطفال في المدارس نحو كراهية اليهود جزءاً من المنهاج الدراسي ، كما ان مذكرات صادرة عن الوزارة كانت توعز الى الأساتذة بما فيهم اليهود بالقيام بحملات توعية عن اسرائيل العدوة المرة للعرب والمسلمين . وكانت التوجيهات تقول : ازرعوا في قلوب الصغار الكراهية لاسرائيل ونحن نفعل مثل ذلك في القوات المسلحة .

واثارت السياسة الجديدة شعور المرارة في نفس ايلي ، ويتذكر باروخ مزراحي قوله : « رأيته وقد خرج عن صوابه للمرة الأولى عندما علم ان اقرباءه من الصغار سيتعرضون لمثل هذه الافتراءات والأكاذيب». واصدرت وزارة المعارف امرها للمدارس اليهودية بقبول الطلاب المسلمين في مدارسها حتى تستطيع ممارسة ضغط اشد على الطلاب الآخرين . وحتى ذلك الحين لم يكن هناك حظر على تعلم اللغة العبرية ، وكانت مدارس الجالية في الاسكندرية تدرس الستمائة وخمسين طالباً يهودياً منهاجاً كاملاً لتعاليم جودا . اما الآن فقد جرى تفتيش ١٢٠ منزلاً بسبب الكتابة العبرية ، ودفع الى السجن بفريق من الشبان لأنهم اخلّوا في تعهدهم بعدم تعلم اللغة . وأصدر العملاء الصهيونيون اوامرهم لأتباعهم بأن يزيلوا كل آثار تعرضهم للخطر . وأحيط جميع الصاغة في الاسكندرية علماً ان صنع الحلي على شكل نجمة داوود او اوسمة تحمل احرفاً عبرية ممنوع بصورة قطعية . وأوقفت الفتيات في الشوارع حيث ارغمن على تسليم اطواقهن ، اما اللواتي كن يرفضن فقد وضعن رهن التوقيف . ولما تنطوي عليه هذه التدابير من تهديد للثقافة اليهودية وجه رئيس الحاخامين نداء الى عبد الناصر قائلاً : «ان انكار حق استخدام الشعارات العبرية على اليهود يضرب الديانة اليهودية في جذورها» . غير ان نداءه هذا لم يسفر عن اية نتيجة .

وقد اصابت حملة الاضطهاد الجديدة الأقليات الأخرى في البلاد ، ذلك ان كثيرين من اصدقاء ايلي الأقباط والكاثوليك اعربوا عن قلقهم

من الحملة المحمدية . وبعضهم كان يشتكي علناً من التمييز الديني وخاصة من جانب رجال الدين المسلمين ومن اقصائهم التدريجي عن الوظائف العامة . وعندما احسّوا باخطار العنف استعدوا للرحيل . وكان الأقباط والكاثوليك يعرفون الصلات الودية القائمة بين ايلي وموظفي الهجرة المصريين فساعد الكثيرين منهم على مغادرة البلاد ، مستخدماً في اغلب الأحيان التسهيلات التي توفرها الأجهزة الصهيونية غير المشروعة . ولكن بينما كان الأرمن ، والفرنسيون ، والبريطانيون ، والمالطيون ، والقبارصة يغادرون البلاد بالجملة، كان كثيرون من اليهود يفضلون البقاء لمواجهة المستقبل المجهول (١) .

وقاد ايلي حملة لاقناع مواطنيه بضرورة الفرار من المذبحة التي لا مفر منها ، وكنتيجة لهذه الحملة تسجل الكثيرون مطالبين بالهجرة ، غير ان ايلي كان يلاقي مقاومة كبيرة من جانب كبار السن من اليهود الذين كانوا يترددون في التنازل عن اجوائهم المريحة كي يتعرضوا لمصاعب استقرار جديد في الخارج ، غير ان تطورات التاريخ الوحشية ما لبثت ان قضت نهائياً على ما بقي لديهم من حرية الاختيار .

وعندما اشتد الغضب بالقاهرة على اثر الهزيمة الثانية عام ١٩٥٦ لم تتردد في شن حملة جديدة من الاضطهاد ضد اليهود ، وتدخل عنصر جديد في هذه الموجة ، ذلك ان برنامج الاضطهاد كان يديره هذه المرة رجال من النازيين القدماء . وفي حملة سيناء ضبط عدد من السيارات المصرية وعليها راية السواستيكا (الصليب المعقوف) كما ان نسخاً من كتاب هتلر «كفاحي» وجدت في اكياس الموتى والمعتقلين من الجنود ، وكان النازيون السابقون منذ سقوط الرايخ يفرون الى اسبانيا وامريكا

---

(١) هذا المقطع والذي يليه يهتك الستار عن المبالغة والتهويل في معاملة اليهود في البلاد العربية ، ويثبت أن الكثيرين وخاصة المتقدمين في السن كانوا لا يريدون الهجرة ، و لا يرغبون في التخلي عن اجوائهم المريحة ... ولا شك أن التحريض على الهجرة كانت له دوافع وأهداف سياسية غير خافية على احد (المعرب) .

الجنوبية خوفاً من ملاحقتهم بجرائم الحرب ، غير انهم وجدوا ان الشرق الأوسط يلوح لهم بفرص اكبر . وفي عام ١٩٤٨ وصل منهم الى مصر عدد كبير ، وكثير كان يحصل على مراكز تنفيذية عليا في الحكومة .

ولم تكن الصدفة وحدها هي التي أوكلت إلى ستة آلاف ومائتين وخمسين المانياً، من الألمان المستعمريين الذين يعيشون في مصر مهمة صيانة الأمن الداخلي ، وكان كثيرون قد شغلوا مناصب عليا في ملاكات امن الدولة ، وكانت هذه الملاكات امتداداً لمصالح الأمن الملكية التي انطبعت بعد الثورة بطابع الضباط الأحرار . وقد كانت هذه القوة المؤلفة من سبعين الف رجل العظم الفقري لجهاز الأمن المصري ضد كل العناصر المعادية صهيونية وامبريالية ، كما كانت تحت سلطة وزير الداخلية زكريا محي الدين ، وتولى ادارتها المقدم علي النشار الذي كان اسمه سابقاً ليوبولد غليم، الذي اشرف على حرس هتلر الشخصي « الليبشتاندارد » ثم اصبح بعد ذلك رئيساً للجستابو في وارسو .

وكان العقيد ابن سالم يشرف على شعبة غليم السياسية ، اما الاسم السابق لهذا العقيد فهو بيرنهارد بيندر ، الذي كان يخدم في الحرس الشخصي لرئيس الرايخشفوهرهنريك هملر . وبناء على امر صادر من زكريا محي الدين اعد بيندر تقريراً عنوانه « الحل النهائي للمشكلة الصهيونية اليهودية داخل اراضي مصر المستقلة » . وقد نفذت وزارة الداخلية ما جاء في هذا التقرير بتاريخ ٢٦ كانون الثاني ١٩٥٦ . وكنتيجة لهذا التنفيذ خول بيندر كرئيس لشعبة اليهود (سابقاً الشعبة الصهيونية) حق الرقابة على حارة اليهود ، وكان لكل عائلة يهودية ملف خاص يشتمل على احدث اخبارها وجميع البريد الصادر والوارد كان يراقب ويصور . واقدمت الشعبة السياسية على توقيفات جماعية ، وتعرض الموقوفون لاستجوابات في مراكز خاصة انشئت في مخفر الشرطة في المعادى وعلى ظهر الباخرة مارينا روسو الراسية في ميناء الاسكندرية، حيث كانت تحضر الاتهام ويجرى الاشراف على معسكرات التوقيف . اما الوسائل التي

كانوا يلجأون اليها فهي تذكر بعصور سابقة . فالتوقيفات كانت تجرى عند الفجر ، وكان الموقوفون يصنفون الى درجات : آ ، ب ، ج ..الخ والمشبوهون كان يجري توقيفهم مدداً طويلة بدون ان توجه اليهم ايـة تهمة . كما كان يجرى اعتقال للرهائن كلما هدد الاسرائيليون بعمليات عسكرية مقابلة على الحدود .

اما قسم المساجين داخل الشرطة فقد كان يرأسه المدعو منير جمال واسمه السابق الكولونيل حواشيم داملينغ وهو من الغستابو الألماني شعبة دوسلذورف . لذلك لم تتخل السلطات المصرية عن تجاربه السابقة على صعيد الأحكام العرفية . واصدر بيندر اوامره بانشاء معسكرات اعتقال لليهود ولأخصام الثورة السياسيين . فأقام داملينغ معسكراً نموذجيـاً في قلعة الهليوبوليس وفي ثكنة الجيزة في القاهرة ، وفي معسكر مصطفـى حنون باشا قرب ألماظة ، وفي مركز برج العرب في الاسكندرية . وكان اسوأ هذه المعسكرات ذلك الذي اقيم في ثكنة سامارا في الصحراء الليبية ، وهي تبعد ١٣٥ ميلاً الى الجنوب الغربي من القاهرة . وكان لشعبة غليم الاقتصادية وحدة اسست وفقاً للويرماخت التابعة للغستابو وكان فيهـا قسم للتسجيل يحتفظ بكل الأرقام الدقيقة عن ممتلكات اليهود . وكان يفرض على الذين يغادرون البلاد منهم ان يوقعوا على سندات يتنازلون فيها عن جميع الممتلكات التي يخلفونها وراءهم . وكانت هذه الممتلكات تصادر ، فيحتفظ بها قسم البيع في هذه الشعبة او تباع للمسلمين فـي مراكز البيع . ولم يكن هناك احجام عن اية اجراءات تضمن عدم تخطي اليهود للقيود المفروضة على العملة . وكان هناك في وزارة المالية شعبـة خاصة تراقب كل محاولة يقوم بها اليهود للتهرب من دفع الضرائب ، كما كان هناك عشرون من رجال التفتيش يعملون في سويسرا بأسمـاء مختلفة ، ويجمعون المعلومات عن تهريب رؤوس الأموال وعن حسابات اليهود المصريين في المصارف السويسرية .

وكان اليهود المصريون يعتقدون ان كابوس الرايخ الثالث بعيـداً

عنهم غير ان ايلي والمطلعون في الجالية اليهودية كانوا يلاحظون عـزم عبد الناصر على استضافة النازيين كي يشرفوا على جهاز لاضطهـاد اليهود . وقد جاءت البوادر الأولية لتؤكد مخاوفه ، اذ ان عشرات من اليهود قد اوقفوا في « الحارة » قبل ان ينتهي القتال في منطقة القنال ، كما ان قادة الجاليات لجميع الأقليات وضعوا رهن الاعتقال دون بيـان الأسباب (١). وفي الحي اليهودي في الاسكندرية اغارت الشرطة على ٩٠٠ منزل دون تمييز واعتقلت شخصاً واحداً من كل عائلة كرهينة لمنـع اليهود من القيام بأي عمل من اعمال الثأر . وفرض نظام جماعي من الاقامة الجبرية في المنازل . وعندما رفع الحصار في آخر الأمر حظر على اليهود اللقاء في الأمكنة العامة او الاشراف على مطاعم او مقاه . وهكذا فقد اتخذت كل التدابير لتدمير الجالية اليهودية وتفتيتها . ولم تجد الحكومة اي حاجة لتبرير اعمالها، فيما عدا انها ارفقت امرها القاضي باغلاق اكثر الكنائس اليهودية بدعوى ان هذه الكنـائس تستخدم لنشر الدعايـة الصهيونية . وباختصار فقد اغلقت المدارس اجمالاً ووضعت المستشفيات تحت اشراف الجيش ، ولم ينج اي يهودي مهما كان مركزه من وطأة هذه التدابير . وصدرت قوانين حكومية تمنع المحامين اليهود من حق المرافعة امام المحكمة كما سحبت اجازات العمل من اطبائهم ومهندسيهم ، اما العمال الذين ليست لهم خبرة فنية فقد فصلوا عن العمل . واعلنـت خطط لبيع جميع المحلات التجارية والبنوك العائدة لليهود الى المواطنين المصريين (٢) .

---

(١) في حالة الحرب ، وخلال الحرب ، تلجأ قوى الأمن الداخلي في جميع دول العالم الى اتخاذ تدابير احترازية ، وفي جملتها توقيف الاشخاص المشبوهين من وطنيين وأجانب ، وتقييد لبعض اوجه نشاطاتهم ، وما ترويه الصفحات التالية من هذا الكتاب عن التحركات اليهودية ضد مصر ولصالح اسرائيل والصهيونية، هو المبرر القانوني والمعقول لاتخاذ بعض التدابير الاحترازية المنصوص عليها في قوانين الطوارىء في جميع دول العالم على اختلاف انظمتها ومن جملتها مصر (المعرب) .

(٢) ان ما يرويه المؤلفان في هذا الصدد ، مع ما فيه من مبالغات واضحة ، لا توازي واحداً بالمئة مما فعلته اسرائيل بسكان فلسطين العرب، الذين جعلتهم المذابح يهاجرون افراداً وجماعات=

وقد امتد اسلوب المصادرة حتى الى اليهود الذين يملكون قليلاً والذين لا يملكون على الاطلاق ، وعندما صدر الأمر الى ايلي بالتنازل عن منزله الى اللاجئين الفلسطينيين لم يكن له الخيار في ترك منزله . ولكنه لجأ الى طريقة التحدي عندما رفض نقل امتعته وسلم المفاتيح الى رجل وامرأته يقطنان في البناء ذاته طالباً اليهما المحافظة عليه ، ولم يكن يخشى من ان ينظر في امر هجرته بالوسائل غير الشرعية . وفي هذه الفترة كانت الحاجة ماسة اكثر من اي وقت مضى الى عملاء ماهرين لمساعدة آلاف اليهود الذين تقاطروا على مراكز الجالية باحثين عن وسائل تمكنهم من الهرب . وقد اتخذت الحكومة كل التدابير التي تضمن خروج اليهود دون حصولهم على اية حقوق ، اذ لم يكن في امكانهم تحويل اي مبلغ من المال ، وحتى اولئك الذين كانوا يحملون سمات خروج لم يسمح لهم بأن يحملوا اكثر من عشرين جنيهاً مصرياً . وكان ايلي آنئذ منهمكاً بالاستفادة من اتصالاته ليضمن فرار المهاجرين بطرق مقبولة تمكنهم من بدء حياة جديدة في الخارج .

وبينما كانت الأيام تمر كانت الحياة تزداد خطراً في مصر . فقد اصدر وزير الأوقاف قراراً تلي في جميع المساجد معتبراً جميع اليهود مسؤولين عن الأعمال التي يقوم بها اعداء مصر ، وقضى هذا القرار بطردهم من البلاد ، ولكن حتى هذا القرار لم يكن يعني نهاية لحملة المضايقات ، اذ أن عدد اليهود الموقوفين تصاعد من جديد ، والذين نجوا من الاعتقال لم ينجوا من المتاعب بالصفوف الطويلة التي كانت تقف امام مكاتب الجوازات ، واخذت تزداد طولاً حينما كانت عائلات

= دون ان يمكنهم الغزاة من حمل شيء من متاعهم ، وقد صادر الغزاة الصهيونيون كل ما يملكه اصحاب البلاد الاصليون من متاع وأموال ومنشآت وأرض ، وهم موزعون في بلاد الدول العربية المجاورة لفلسطين ، يعيش معظمهم تحت الخيام منذ نيف وخمس وعشرين سنة ، على ما تجود عليهم به وكالة غوث اللاجئين الدولية ، مما لا يكاد يقوم بأود الحياة ، بينما ينعم ببلادهم واموالهم وممتلكاتهم اولئك الذين حلوا محلهم ، قادمين لا من مصر وحدها بل من مختلف اصقاع العالم ..... (المعرب) .

بكاملها تنتقل وفقاً لأوامر الترحيل من دائرة الى دائرة اخرى ، وكانت لا تمنح سمات الخروج إلا بعد ان توقع على تعهد بعدم العودة. وخلال فترة استمرت ثلاثة اشهر فقط استطاعت السلطات ان ترغم عشرة آلاف يهودي على مغادرة البلاد .

ولم يستطع ايلي ان يكون في معزل عن هذا التخطيط ، ففي السعات المبكرة من صباح احد ايام تشرين الثاني قطعت عليه النوم ضربات على باب غرفته غير المفروشة التي عثر عليها بعد كثير من الصعوبات ، وبعد ان حل السلاسل وجد نفسه امام اثنين من رجال التحري السريين الذين راحوا يقومون ببحث مرهق وغير منتج قبل ان يسوقوه بدون اي سبب الى مخفر الشرطة في المنشية في ساحة محمد علي ، وهناك قال له مفتش الشرطة انه رهن التوقيف دون ان يوجه اليه اية تهمة، وقذف به آنئذ في زنزانة كريهة الرائحة احتشد فيها عدد من المشبوهين ، وبعد نصف ساعة نقل الى سجن الحضرة ، وفي الأيام التالية كان ايلي مع موقوفين آخرين يضربون اخماساً بأسداس عن مصيرهم المنتظر . كانت التخمينات تتراوح بين الاخراج من البلاد والاعدام . وصدر امر بنقله دون ان تكون هناك دلائل مسبقة على ذلك ، واقتيد ايلي مغلول اليدين الى مركز اعتقال تابع للجيش في شارع السلطان حسين ، وهناك جرد من حاجاته الشخصية واقتيد الى غرفة مظلمة مكعبة الشكل يقيم فيها عشرون شخصاً لم يقدم اليهم اي طعام خلال ثلاثة ايام ؛ ونام السجناء منهوكي القوى على اسرة على الأرض، وكانوا لا ينهضون الا عند ذهابهم الى دورة المياه ليزحفوا على اجسام اخرى لا حراك فيها ، اما التمارين الرياضية فكانت ممنوعة، وكل حرية سبق لهم ان تمتعوا بها في حياتهم لم تعد سوى خيال مزعج . ومن سخرية القدر ان المركز لم يكن بعيداً عن حديقة كرومر التي كان ايلي يلعب فيها ايام طفولته :

وفي احد الأيام بينما كان يغالب النعاس في فراشه ناداه احد الحراس من الباب ، وخلال ساعة من الزمن قال له الجندي انه سينقل الى سفينة

مارينايو روسو ، فاستقبل ايلي النبأ بملامح متحجرة تعلم ان يبديها لرجال الشرطة ، غير ان مخاوفه ازدادت لأن الاسم الذي كان يطلق على هذه السفينة بين اليهود وهو « جهنم العائمة » لم يكن مبالغ فيه . وهي سفينة نقل ايطالية رست بصورة دائمة في الميناء الشرقي، ثم تحولت الى سجن فيه ثمانين زنزانة ، وأعدت للقضايا ذات الأهمية الخاصة . وكان في السفينة جهاز استماع ينقل الى غرفة المركز جميع الأحاديث التي تدور بين السجناء . كما كانت تستخدم فيها وسائل التعذيب من الدرجة الثالثة مع اولئك الذين يترددون في الكلام في غرفة التعذيب التي اعدت في الطابق السفلي . وبعد ان مر ايلي بتجربتين من هذه التجارب اعد الآن لتعذيب لا يعرف الرحمة خاص بصلاته بالصهيونيين ونشاطه في الهجرة غير المشروعة . وبقي على ظهر مارينا روسو اياماً قليلة، وعندما جاء دوره للافراج عنه قال له مستجوبوه انه سيتلقى قريباً اوراقاً تأمر باخراجه من مصر .

وعندما استلم هذه الأوراق بالبريد تقدم ايلي بكتاب الى وزارة الداخلية يطلب فيه حق البقاء شهرين آخرين، ولكن يبدو ان الطلب كان له رد فعل معاكس ، اذ طلب اليه فوراً ان يحضر الى مكتب الجوازات مع صورتين ، وهنا بدأت سلسلة من اللقاءات مع البيروقراطية المصرية . وقد كتب ايلي بعد ذلك يقول: «استقبلني موظف بدين كان يحتسي القهوة وكان على مكتبه لوحة كتب عليها «الرائد محمد» كنت لا اعرفه، ولكن هذا لم يمنعني من ان اذكر ان الضباط المصريين على الرغم من كراهيتهم للانكليز فقد كانوا تواقين الى تقليدهم، إذ تبنوا الرتب العسكرية البريطانية واللباس العسكري البريطاني وحتى الأخطاء البريطانية » . واخرج الرائد ملف ايلي من مجموعة الملفات التي كانت على مكتبه وراح يوجه اليه اسئلة غير متصلة بالموضوع ، حتى انه اضطر ان يشرح ان هذه الأسئلة قد وضعت من قبل موظف اعلى منه في القاهرة . وفي نهاية المقابلة طلب الضابط من ايلي ان يوقع على استمارة يتنازل فيها عن كل ممتلكاته وعن حقه في العودة الى مصر . وقرر ايلي قبل ان يغادر المكان الاستفادة من

مزاج الضابط الذي كان في حالة حسنة ، سائلاً اياه عما اذا كان يستطيع العودة اليه لطلب التمديد . وهنا تغير مزاج الضابط وقال مختصراً ان لا فائدة من زيارة اخرى لهذا المكان ، وقال لإيلي: « ابق حيث انت وانتظر التعليمات من القاهرة » .

وفي يوم عيد الميلاد ظهر الرائد فجأة في منزل ايلي سائلاً اياه عن سبب عدم مراجعته في مكتبه فلم يرتبك ايلي واجاب مبتسماً ان هذا ما طلب اليه ان لا يفعله . وهنا قطب الرائد وجهه وسأله عما اذا كان يحمل جوازاً ، فسلمه ايلي الجواز ليتلقى منه امراً بالحضور الى المكتب بعد عيد الميلاد « حيث سنتخذ كل الترتيبات اللازمة لسفرك » .

وبعد ثمان وأربعين ساعة اقتيد ايلي الى مكتب موظف صغير الحجم حاد النظرات كان يصغي الى قصيدة لأم كلثوم . ووقف الرائد محمد وراءه دون ان يظهر الموظف انه شعر بوجوده ، وبعد قليل اغلق جهاز الراديو وفتح ببطء احدى الملفات وقال له بلهجة جافة : لقد جاءت من القاهرة موافقة لتوقيف سفرك واضاف ان التمديد يشمل عشرين يوماً . وعندما سأل ايلي عما اذا كانت العشرون يوماً تبدأ من اليوم، فأجاب الموظف دون ان يكون في ملامحه اية اشارة الى النكتة : ان العشرين يوماً الممنوحة لك قد انتهت الآن . وحدجه الرائد محمد بنظرة باردة قائلاً : احجز في اول باخرة . وهنا زال كل تردد عند ايلي في مغادرة البلاد . وكتب يقول فيما بعد: «بدأت اشعر انني اخف وزناً عندما تلقيت هذا الأمر النهائي ، فمنذ الغزو الانكليزي الفرنسي اصبحت اشعر ان وجودي في مصر لم يعد له لزوم » .

وفي صباح اليوم التالي استأجر ايلي سيارة تاكسي الى الميناء الشرقي حاملاً معه حقيبة تزن عشرين باوندا ، وبين الأوراق التي كان يحملها اجازة مرور ختم عليها « غير صالحة للعودة الى مصر » واقلته الباخرة مصر التي استأجرها الصليب الأحمر مع ٩٦٩ لاجئاً الى مدينة نابولي، حيث

وصلها في المساء واستقبله هناك موظف من الوكالة اليهودية انزله في غرفة في فندق صغير يقع عند محطة سكة الحديد . وبعد ايام قليلة سافر بالقطار الى جنوه حيث اقلته باخرة اتجهت به نحو اسرائيل .

ناديـــا

في يوم ١٢ شباط ١٩٥٧ رست في ميناء حيفا الباخرة الايطاليـــة فيليب غريموني ، وكانت تحمل عدة مئات من المهاجرين من مصر ، وكان في انتظارها جماعة من موظفي الصحة وشؤون الهجرة الذيـــن راحوا يدققون الوثائقَ وينجزون المعاملات اللازمة للنزول .

وبينما كانت هذه المعاملات تجري ببطء انضم ايلي الى المسافرين الآخرين بالطابق الأعلى من الباخرة ليلقي نظرة على المدينة، وكن ينظر بدون اكتراث الى المستقبلين الذين كانوا يلوحون بمناديلهم للقادمين ، لأنه لم يكن احد في انتظاره ، ولأن سفره المفاجيء من الاسكندرية حال دون وصول اشعار منه بموعد قدومه ، واستولى عليه شعور من العزلة عززه عدم معرفته للمكان الذي يعيش فيه ابواه ، والعنوان الوحيد الذي كان يستطيع الاتصال عن طريقه بعائلته هو عنوان اخيه الصغير موريس .

وقبل ان يستطيع الوصول الى الرصيف استعرض مشاهد من الفرح والدموع والدعوات التي كانت ترافق العودة الى صهيون ، فاجتاحته موجة عاطفية عارمة . وعندما جاء دوره حمل حقيبته الوحيدة واخذ مكانه في الصف الطويل من البناء الضخم الذي كان مستودعاً للجمارك ومركزاً للهجرة . وكانت شخصيات شبه رسمية من الوكالة اليهودية تقف في محطات مختلفة موجهة اسئلتها الى القادمين الجدد ، وكان يتبع هذه المقابلات الطويلة استجوابات متعبة لا تحصى ، وأخيراً منح ايلي بطاقة مهاجر التي خولته بصورة أوتوماتيكية حق المواطن الاسرائيلي .

وحين سئل عن المكان الذي يختاره للسكن أجاب أنه يريد أن يلتحق بأخيه في تل أبيب، ولما وجهت إليه أسئلة تتعلق بعمله تلقى نصيحة قصيرة

هي أن يتصل بجمعية اليهود المصريين للحصول على معلومات أوفى .
وأخيراً قاده أحد رجال شرطة السير الى الخارج حيث يوجه موظفو الوكالة اليهودية المهاجرين بالباصات إلى المدن والكيبوتسات . وبينما كان ايلي يراقب هذا المشهد بحالة نفسية غير مرتفعة إذا بصوت رجل يناديه باسمه ، فلما التفت رأى أحد أصدقاء والده القدماء وكان يعرفه في الإسكندرية قبل خمسة عشر عاماً ، وكان لا يعرف سوى اسمه بيريتز ، وفي المحادثة التي تلت ذلك علم ايلي أن أخاه موريس قد انتقل إلى رامات كان بالقرب من تل أبيب ، وأن والديه ابتاعا منزلاً جديداً وهما يعيشان الآن في بات يام جنوبي المدينة . وقبل ان يفترق الرجلان وضع بيريتز في يد ايلي عدداً من الليرات الاسرائيلية واعداً إياه بأن يلتقي به في وقت قريب ، وقد فعل ذلك لأنه يعرف أن المصريين قد انتزعوا من المهاجرين كل ما يملكونه .

ولما وصل ايلي إلى رامات كان كانت زخات المطر تهطل بشدة على سطوح المنازل فوقف ايلي عند منزل أخيه في شارع هارو وقرع الباب فلم يجبه أحد ، وانتظر قليلاً فإذا بزوجة أخيه موريس قد وصلت فعرفته على نفسها ، وحين عاد موريس كان عليه أن يحدق كثيراً قبل أن يتعرف على الرجل الشاب وتعانق الأخوان ، وعندما دخل إلى البيت لاحظ ايلي أن شقيقه لم تؤثر فيه السنين ، وكان يعلم أن حياة موريس لم يطرأ عليها سوى تغييرات عادية، فقد تزوج من فتاة عراقية وعمل ككاتب في مصلحة البريد في تل أبيب ثم استقر في ضواحي المدينة . اما موريس الذي لم ير ايلي منذ ست سنوات فقد لاحظ ان مرور الزمن قد نال من اخيه اكثر من من المعتاد ، ولكي يتبين السبب سأله عن السنين الأخيرة التي قضاها في الاسكندرية ، وعندئذ عرف إيلي أن الأخبار الوحيدة التي تلقتها العائلة في السنين السبعة الأخيرة لم تكن سوى اخبار شفهية نقلها اليهم المرحلون من مصر ، لأن الكتابة إلى اسرائيل من هناك تعتبر تجسساً وعقوبتها الاعدام . وتحدث ايلي بدون انفعال عن سجنه لأنه كان يمارس نشاطاً في موضوع الهجرة غير القانونية، وفيما عدا ذلك كان يفضل عدم الخوض

في الماضي . وفهم موريس كل شيء ولم يصر على التفاصيل .

ثم قص عليه ان سارة تعيش في مكان قريب ، وأن اوديت تحيا حياة سعيدة بعد ان تزوجت من موظف يدعى كرمونا ، وما كاد ايلي يعرف عن وجود هاتف في منزل اخته الكبيرة حتى سارع للاتصال بها ، فلم تعرف اوديت صوته ولم تعتقد انه هو حقيقة الا بعد ان ذكرها بالتفاصيل عن ايام طفولتهم بالاسكندرية . واصرت اوديت على شقيقها ايلي ان يحضر فوراً الى منزلها .

وخشي أن يحدث اتصاله الهاتفي صدمة في نفس امه وابيه فاقترح ان يذهب لمشاهدتهم على الفور ، ولكنه رفض في بداية الأمر ان يسمح لأخيه بمرافقته وأصر على أن يسافر منفرداً الى بات يام ، فرافقه موريس الى المحطة المحلية ثم انضم في اللحظة الأخيرة ، وكان على الأخوين ان يقطعا عدة مئات من الياردات بعد وصولهما الى محطة رامات يوسف ، حيث وصلا الى عمارة تعاونية تقع في شارع شهداء القاهرة في احد الضواحي القريبة من الشاطيء ، التي تكثر فيها المنازل المبنية بالاسمنت الأبيض على كثبان الرمال المشرفة على البحر الأبيض المتوسط حيث يعيش والداه . و عندما وقف ايلي امام المنزل لاحظ طفلاً لم يكن منظره غريباً عليه فسأله بالفرنسية عما اذا كان شاؤول كوهين في البيت، وقبل ان يتمكن الطفل من الاجابة صرخت امرأة كانت واقفة في الطابق الثاني « ابراهيم ، من هو هذا الرجل؟ » فأجابها ايلي باللغة العربية، فتنهدت المرأة ثم انفجرت بالبكاء واسرعت الى الشارع لتعانق ابنها البكر .

وفي ليلة الجمعة كان منزل كوهين الصغير مكتظاً بالأولاد وابناء الأولاد ، وعند الظهر جلس الجميع يستمعون إلى أمهم وهي تتمتم بكلمات التبريك التقليدية ، أما وجهها وعيناها فقد احتفظتا بمسحة من الحزن. وساعد ايلي والده في قراءة الكتاب المقدس ، أما الآخرون الذين كانوا أقل تديناً فقد انتظروا بأدب حتى نهاية الصلاة ، لقد بارك شاؤول رغيف الخبز وناول قطعة منه إلى كل فرد على الطاولة وكذلك فعل بالخمر ، وكان

ايلي يجيب آمين . ثم رفع الجميع كؤوسهم ليشكروا « الله الذي أبقى لنا الحياة وحفظنا ومد في أعمارنا حتى هذا اليوم » . وكان تمسك ايلي بشعائره الدينية لا غبار عليه ، فهو لا يزال يمتثل لكل التعليمات ويأكل المسموح به من الطعام ويحافظ على أيام السبت .

ووصل الأصدقاء والأقربون بعد الغداء إلى حفلة أقامها آل كوهين على السطح . وخلال السهرة أحس ايلي أنه يشاطر أخاه موريس وأمه أوديت الشعور ذاته الذي نقلاه إليه ببراءة وإن كان من بعض الوجوه غريباً ، ذلك أن أخوته وأخواته فيما عدا إبراهيم الذي يبلغ من العمر ١١ عاماً قد تزوجوا وشقوا لأنفسهم طريق حياتهم الخاصة في المحيط الإسرائيلي الذي تكثر فيه الأعباء ، والصغار الذين كانوا بعهدته في يوم ما أصبحوا من المبرزين في حملة سيناء وصارت لهم أسماء جديدة : عزرا ، زيون ، افرام ، أما أبواه اللذان لا يزالان يتكلمان العربية السورية مع لهجة حلبية فقد كانا يدرجان في أحاديثهما بعض الكلمات العبرية . وبدت العائلة كلها ناعمة بالحرية في المجتمع الجديد أما الحياة في مصر فقد كانت كلها في حكم المنسية .

وقد ابتهج ايلي واستبد به الذهول لما شاهد في تل أبيب من حركة وضجة وحيوية ، فالسيارات والباصات كانت تتدفق من الضواحي ، والبائعون ملأوا شوارع بن يهودا والملك جورج واللنبي ، والمدينة التي هي بيت الفن والألحان الموسيقية توجد فيها أوبرا و ٤٩ داراً للسينما و ١٢ مسرحاً و ٩٠ مصرفاً ، كما كانت عرضة لكل المشاكل البلدية : التلويث ، المواصلات ، جرائم الطفولة . الخ ... وقد امتلأت الشوارع بالمتجولين على أضواء النيون في شارع دزينكوف حيث يدخلون لارتشاف القهوة في أحد النوادي الليلية أو لمشاهدة الستريبتيز . كل ذلك رفع تل أبيب إلى مستوى مدن الملاهي في البحر الأبيض المتوسط . ولكن وراء هذه الواجهة المتلألئة تعرف ايلي على حياة وسلوك شعب يعرف كيف يعيش على مرمى من المدافع العربية ، وكيف يشتغل ستة أيام في الأسبوع ويستصلح أرض

الصحراء ويزرع الحدائق والغابات ويبني المباني الرئيسية ويعزز بهذا كله كبرياء الشعب اليهودي .

إن إسرائيل الحقيقية إسرائيل كل يوم هي تلك الصرخة البعيدة من الأرض اليهودية أرض الحلم والصلاة . لقد لاحظ أن المجتمع الجديد كان أقل تمسكاً بالدين ولكنه أشد حماساً لوطنيته ، ولم يدرك ايلي في بادىء الأمر رغبة « السابرا » والمهاجرين القدماء في أن يفصلوا بينهم وبين الماضي اليهودي ، فقد جاءوا ليشتركوا في ديانة غامضة وتاريخ من الاغتراب والعجز والضعف وكانوا يتوقون لسماع قصص الدياسبورا ويحاولون أن يثبتوا بهويتهم أنهم ليسوا من اليهودية العالمية بل من جنود حامية الماسادا الذين انتحروا كي لا يستسلموا لفرق الرومان .

إن إسرائيل التي ولدت في وسط من العنف غذت جيلاً من الرجال والنساء الذين أصبحوا صارمين ومنقادين في آن واحد ، لأنهم عاشوا في ظل المحق والإبادة . وقد أعجب ايلي بما يتحلون به من إدراك قدرهم واتقاد معنوياتهم ، وكان يحترم فيهم روح الإبداع وقدرتهم الصبيعية على الارتجال، ولكنه كان يكره انفراديتهم التي تتجلى فيها السذاجة الريفية التي خلفها وراءه .

وكان الإسرائيلي ينظر إلى اليهودي الشرقي نظرة استخفاف لأنه احتفظ بمشاعر الخيبة وانفصام الجذور، كما يكره ذلك السيل من القادمين الجدد من البلاد العربية والسرعة التي يجري بها تحويل اسرائيل إلى بلد شرقي ، وعلى الرغم من أن لكثيرين من اليهود المصريين خلفيات صهيونية كما لإيلي ، وأنهم يمتازون بالبراعة اللازمة للنمو الاقتصادي، فإن الإسرائيليين الأوروبيين يزدرونهم في المجالس الخاصة ، حتى أن بعض اليهود المصريين راحوا يتساءلون عما إذا لم يكن من الأفضل لهم أن يستقروا في مأواهم الوقتي في أوروبا على أن يتابعوا السفر إلى إسرائيل ، وهذا الجو من التمييز الذي أحس به ايلي كان أقرب إلى الخيال ولكنه كان مع ذلك موجوداً .

وفي الأشهر التالية عاش ايلي مع أبويه مقتسماً غرفة النوم مع أخيه إبراهيم. وقام بأعباء ومسؤوليات الأخ الأكبر تماماً كما كان يفعل قبل سنين في الاسكندرية ، وكان ينادى باسم ابراهيم المدلل بعد أن دخل المدرسة العليا لبلدية بيت يام كما كان يساعده في اللغات والرياضيات حتى أصبح ألصق رفاقه به. وكان الشاب الصغير الناعم اللسان الدقيق العينين الطويل الوجه يستمتع أكثر فأكثر بالألعاب التي تعلمها من أخيه ايلي . وفي عيد الاستقلال من عام ١٩٥٧ عندما كان الأخوان بانتظار مرور الوحدات الميكانيكية راهن ايلي شقيقه الصغير بأنه قادر على معرفة رقم التسلسل لكل دبابة وسيارة مصفحة تجري في الميدان، ورسم ابراهيم قائمة لأرقام مئة عربة كان ايلي يكررها بدون أية أخطاء . وأعمال الذكاء هذه وما يشابهها جعلت من ابراهيم شريكاً في الممارسات ذاتها التي استمتع بها ايلي حين كان صغيراً .

ولم يكن التصاق ايلي بابراهيم ليمنعه من مشاركة أخوته وأخواته الأصغر ، كما أن سهولة مأخذه اجتذبت اليه محبة أولاد بنات أخيه ، وكان يقضي الساعات وهو يمرح على الأرض مع الصغار يقص عليهم حكايات الليل وهو يلعب الدومينو مع الأكبر سناً، وكان يقنع الذين يرفضون الطعام ويداعبهم بالقصص المضحكة، حتى أنه نزل مرة في حوض الحمام بكامل لباسه لإنقاذ الموقف عندما كان أحد الأطفال يمانع في الاستحمام. ولم يرفض في أية مرة اصطحابهم في نزهة صباحية إلى الشاطىء أو إلى حديقة الألعاب في يافا ، وبعد فترة وجيزة أصبح هادود ايلي « العم ايلي » الكبير المفضل لدى الأصدقاء الصغار .

وقليلاً ما كان يسمح له الوقت بزيارة أصدقائه من الاسكندرية ولكنه كان يرتاد المقاهي المحلية ، وفي أيام السبت يذهب لمشاهدة مباراة في كرة القدم ، أو أحد الأفلام في تل أبيب ، وكان على رأس ما يشغله التفتيش عن عمل . وقد تأكد لايلي أنه بدون الحصول على درجة في الجامعة لن يكون له أمل بإيجاد عمل في الهندسة الكهربائية ، وكانت

تداعبه فكرة إنجاز دراسته في التكنيون «مؤسسة التكنولوجيا في حيفا» لأنه كان كالكثيرين من زملائه في جامعة فاروق الأول الذين آرغموا على مغادرة الكلية قبل التخرج مستحقاً لمنحة تغطي قسطه وغرفته وطعامه، إلا أن لغته العبرية لم تكن تعتبر كافية، ونصحه أحدهم بأن يدخل في أولبان «مدرسة عبرية للبالغين»، وعندما اكتشف ايلي أن فحوص الدخول تجرى في السنة الدراسية القادمة اختار أن يؤجل خطته وأن يبحث عن عمل لأن خبرته في اللغات تشجعه على التطلع إلى وظيفة مترجم بينما يستطيع في الوقت نفسه أن يتابع دراسة العبرية، ولم يتصل خلال هذه الفترة بالمخابرات الإسرائيلية كما أن رجال المخابرات لم يتصلوا به، والحقيقة أنه كان راغباً في نسيان الماضي وكان يعتبر الأسرار التي أصبحت في حوزته في السنين الأخيرة من إقامته في مصر بمثابة صندوق سري لا يستطيع أحد من أفراد عائلته فتحه. وعندما كان في السادسة والثلاثين كانت تحدوه الرغبة في أن يقيم لنفسه حياة جديدة هادئة مستقرة.

ولم يمض وقت طويل حتى شعر ايلي أنه عندما يكون في بلد تتزاحم فيه اللغات بالعشرات فإن معرفة سبع لغات أجنبية غير كاف ليضمن له مركزاً حسناً، ومرت أسابيع البطالة بسرعة دون أن يجد في الأفق حلاً سريعاً، وبدأ يشعر بالضيق عندما اقترح عليه أحد زملاء صفه في الجامعة أن يتصل بجمعية المهاجرين المصريين. وكان أمل ايلي كبيراً في أن يجد عملاً هناك، غير أن الذي أثار دهشته أن ابراهام سيرمانو أحد أصدقائه القدامى ورفيق صفه في الاسكندرية هو الذي كان يرأس الجمعية، وكان سيرمانو يعرف تورط ايلي في أعمال الهجرة غير المشروعة فاقترح عليه أن يعمل في المخابرات، فوافق ايلي بتردد وأحالته الجمعية إلى شركة «استيراد وتصدير» في شارع اللنبي الذي قيل له إنها في حاجة إلى مترجم.

وبعد أيام قليلة كان سكرتير أكبر سناً يرشد ايلي إلى غرفة بسيطة متواضعة في مكتب يقع في الطابق الثالث فوق شارع هرتزل، فاستقبله بحرارة نقيب في الجيش ضخم الجثة يبلغ من العمر ثلاثين عاماً، ولم يكن

في ذلك المكان أو ما يحيط به ما يوحي بالشبهات ، ولكن عندما طلب إليه الضابط أن يترجم له مقالاً من جريدة الأهرام المصرية فهم إيلي أن المحل واجهة لنشاط المخابرات وبدا على النقيب أنه كان مسروراً بالنتيجة، اذ قال له إنه سيخطره بقراره خلال أسابيع . وفي نفس اليوم كتب النقيب إلى رؤسائه مع توصية ملحة بتعيين المرشح الجديد . وسرعان ما أخضع ايلي لاختبارات الأمن الكثيرة التي كان من نتائجها أن قدم الى مصلحة الذاتية في شن بت « مصلحة الأمن العام » حيث أجرى مقابلة مع أحد المدنيين للسرة الثانية في أحد المقاهي وكانت النتيجة أن عرضت عليه وظيفة براتب قدره ١٧٠ ليرة اسرائيلية (٥٥ دولاراً) في الشهر في مركز الأبحاث لوكالة مكافحة التجسس ، وبدأ ايلي يتنقل بين يافا وتل أبيب حيث كان يعمل ضمن مجموعة مختارة يترجم ويقيم الصحف العربية. وكان زملاؤه الثلاثة يهوداً من مصر والعراق . غير أن معرفتهما بالعبرية كانت أوسع منه بكثير . أما رئيسا الشعبة فقد كان أحدهما نقيباً في الجيش اسمه شيمشون والآخر مدني اسمه عزرائيل، ولم يقيّم هذان ترجمة ايلي بدرجة عالية فاقترحا بلباقة نقله إلى قسم الملفات.

ولم يبق طويلاً في وظيفته الجديدة اذ أن إعادة تنظيم الملاك اضطرت ايلي لترك العمل وكان في هذه الفترة قد التحق باتحاد عمال الهيستدروت ، وكان من حقه أن يبحث عن عمل في مكاتب الاستخدام للاتحاد ، وهكذا قضى الأسابيع التالية . حتى أنه قبل الانتساب إلى أي عمل مؤقت إذا كان جاهزاً ، وهكذا استأجرته إحدى شركات الغاز لفترة قصيرة وتلت ذلك خدمات في مراكز التنمية في كبريات كات وبيريا كوف وعشقلون . وبينما كان يتابع بحثه للحصول على عمل دائم، تسجل في دورات ليتعلم مسك الدفاتر والتسويق وهي دورات تنظمها وزارة العمل ، وانصرف في ذلك الحين انصرافاً كلياً إلى دراسته وحصل بسهولة على الدبلوم الحكومية. وبتوصية من أحد أصدقاء الطفولة استطاع أن يجد عملاً في هاماشبير هامر كازى وهي المؤسسة التي تمتلك مخازن تعاونية للمواد الغذائية في جميع أنحاء البلاد . وقد عين مبدئياً في شعبة المحاسبة في مقر المؤسسة الواقع في

شارع سلامة بوسط المدينة في تل أبيب ، وسرعان ما رفع إلى مفتش محاسبة حيث بدأ يقوم برحلات إلى أنحاء البلاد لمراجعة الحسابات في مختلف الفروع .

وكان ايلي كعادته بطيئاً في صنع الصداقات فلم يكن في مكتبه من يعرفه معرفة صميمية، وكثير من الذين اشتغلوا معه يذكرون تحفظه المطلق، وأكثرهم يتحدث عنه بإعجاب ويذكر ما كان عنده من روح النكتة واستعداد للتعاون ، وسرعان ما اكتشف موظفو المؤسسة طموحه الكبير وفعاليته الاستثنائية. وعلى الرغم من انصرافه الكلي إلى أعمال المؤسسة فقد كان كثيرون يشعرون أنه لن يبقى فيها لفترة طويلة . وقد قال أحد معاونيه: كنا نتوقع أن يتحرك إلى شيء فيه قدر أكبر من التحدي إذ كان أكثر لمعاناً من أن يستمر في عمل كتابي طول حياته .

وعلى الرغم من صدق التنبؤات عن مستقبل ايلي فلم يكن في اعماله اليومية ما يشير الى انه غير راض عن اوضاعه ، فقد كان مطمئناً الى مركزه كما ان اصدقاءه يؤكدون ان ما ينقصه هو الزوجة والعائلة ، وقالت امه : جميع اخوته الصغار تزوجوا وكنا نريد له ان يفعل مثلهم ، غير ان ايلي كان يستحي من النساء وكان اصدقاؤه واقرباؤه يتحينون الفرص لتعريفه على الفتيات اللواتي يعتقدون انهن جديرات به ، ولكن ايلي كان يهز رأسه عند كل تلميح او اقتراح صريح بالزواج .

وفي لقاء جرى في ربيع عام ٩٥٩ تغيرت افكار ايلي بهذا الموضوع ، ففي سهرة جرت يوم الجمعة في منزل موريس، عرفته زوجة اخيه على صديقة لها تعتقد انها تليق به وتدعى ناديا، وقد دهش الجميع عندما لاحظوا ان ايلي اظهر اهتماماً غير عادي بالفتاة الطويلة اللطيفة ذات العينين العسليتين والشعر الأسود القصير ، وقد اعترف فيما بعد انه احبها منذ النظرة الاولى . وقال اخوه موريس : « لقد دهشنا لأن ايلي وان كان دائماً لبقاً مع لنساء الا انه لم يكن في اية مرة جاداً مع احداهن » . وفي الحديث الذي تلى التعارف علم ان الفتاة العراقية التي بلغت من العمر ٢٧ عاماً كانت ايضاً

في قائمة المهاجرين الجدد وكانت تنتسب الى « الهاتشرا » جماعة الشباب في «كيبوتس نيردافيد» ولكنها بعد ان وجدت صعوبة في الانسجام مع حياة الكيبوتس عادت لتعيش مع والديها ثم تابعت دورة للتمريض في تل ابيب ، وعندما التقت بايلي كانت تشتغل في فوج ليلي في مستشفى هاداسا .

وقد افتتنت ناديا بايلي وقالت له بصراحة انها تتوق الى اللقاء به مرة اخرى. وفي خلال ايام قليلة راح يتودد اليها. وفي الاشهر القليلة التالية لم تكن هناك اوقات تجمعهما فيما عدا العطل الاسبوعية ، وكانا يلتقيان على موعد في أمسيات الجمعة في أحد مقاهي تل أبيب ، حيث يذهبان لمشاهدة أحد الأفلام أو يشتركان في سهرة عند واحد من الأصدقاء. وفي أكثر أيام السبت كان ايلي ينتظر ناديا أمام سينما راما في رامات كان حيث كانا يتابعان مسيرتهما إلى نهر ياركون القريب للتجديف أو لمراقبة القوارب المارة والحديث عن الماضي ، وقد أعجب ايلي بأسلوب نادية الصريح وانفتاحها، ولكن على الرغم من ذلك كان سلبياً عندما سألته عن حياته الماضية في مصر . وفي إحدى الليالي بدأ حديثه بدون سبب عن عازار وعن الشنق وكان يختار كلماته بعناية بمثل ما يختار الأحجار في لعبة الشطرنج ، وفي عطلة أسبوعية أخرى صعدوا إلى الماسادا وراحوا يتجولون على طول الشاطىء في قيصرية وهرزلية ، وعلى هذه الشواطىء من البحر الأبيض المتوسط قال ايلي لناديا إنه راغب في الزواج منها .

وفي خلال أسابيع قليلة اصطحبت ناديا ايلي إلى بيتها لمقابلة عائلتها ، ثم قدمها ايلي إلى أبويه وكانت مرتاعة من أن يحكما عليها حكماً قاسياً ، غير أن أم ايلي طمأنته إلى حسن اختياره . وعلى الرغم من اختلاف المنشأ واختلاف الأصول الاجتماعية فقد توصلت العائلتان إلى قبول الخطوبة ، وبمساعدة العائلتين وأعمال التوفير المزدوجة استطاع الزوجان أن يدفعا سلفة على بيت من غرفتين لإحدى التعاونيات في شارع هاتشيا في بات يام ، وإلى أن يتم إنجاز هذا البيت كان عليهما أن يعيشا في الأحياء الضيقة حيث

منزل والدي ايلي .

وفي آب ٩٥٩ وبعد خطبة قصيرة تزوج العروسان في حفلة سفاردية متواضعة في تل أبيب ، ولما كان قد ربح في ورقة يانصيب رحلة إلى إيلات ، فقد قرر تمضية شهر العسل على شواطىء البحر الأحمر ، وكانت تلك تجربة قاسية لهما . فلم يصل الباص والسيارات المرافقة إلى إيلات إلا بعد رحلة استمرت ١٢ ساعة في الصحراء على طريق لم تكن السيارات الصغيرة تجرأ على السير فيه منفردة ، غير أن راحتهما في فندق سيناء كانت مؤمنة بشكل غير متوقع . وقام الزوجان الجديدان باستكشاف بلدة الحدود الجنوبية كما شاهدا التشكيلات المرجانية تحت الماء واصطادا في الأعماق الشفافة وسارا فوق التلال والوديان على طول الحدود .

وعاد ايلي يغمره تفاؤل لا حدود له وهو ما يسود عادة جميع « السابرا » « سكان فلسطين القدماء » وراح يتحدث عن تأثره بما شاهده ، وعن إحتمال انتقاله مع ناديا إلى إيلات وكان يحاول بحماس إقناعها بفوائد ومزايا الحياة على الحدود . وكان ميناء إيلات بمثابة الدورادو للشباب ، وسبب ذلك أن التجارة مع إفريقيا الشرقية أصبحت رابحة بعد تحرير خليج العقبة ، وقد ارتفع عدد سكان الميناء إلى ١٥٠٠ شخص. غير أن ناديا التي راودتها الشكوك في هذا الانتقال أشارت إلى المعوقات كالطقس الحار ورياح الصحراء الباردة وقلة المياه وعدم وجود المستشفيات ، ولم تكترث بأقوال ايلي عندما أكد لها ضاحكاً ان مجلس المدينة ملزم بأن يقدم بطاقة طيران مجانية وأن يسدد نفقات الفندق لكل أم تتوقع ولداً بحيث تستطيع أن تؤمن ولادتها بالطرق الحديثة .

وبعد أيام من عودة ايلي إلى مكتبه قال له موظف الاستعلامات أن زائراً هو في طريقه اليه . وبعد دقائق اقترب رجل من مكتبه **وقدم نفسه باسم النقيب زلكان وأضاف بدماثة « ليس الاسم الأخير مهماً فأنا من وزارة الدفاع »** فقدم اليه ايلي مقعداً وراح يصغي لما يقوله بدهشة وذهول ، وقال النقيب إن الذي أرشده اليه سيرمانو الذي حدثني كثيراً

عن كفاءاتك. وعرض عليه بدون مقدمات ولا شكليات مركزاً في الوزارة . وفي مطعم صغير فوق أحد المقاهي القريبة ، توسع زلمان في عرضه طالباً من ايلي أن يدرس موضوع تعيينه في مركز هام ومسؤول يتطلب القيام برحلات طويلة إلى أوروبا وأمريكا الجنوبية وربما إلى البلاد العربية ، وأضاف إنه عمل يحتاج إلى عناية فائقة وجهد أكبر ولكنه يتقاضى فيه أجراً هو ضعف الأجر الذي يتقاضاه حالياً ، **وقبل أن يجيب ايلي على العرض اعترف النقيب بأنه أحد ضباط المخابرات وأن مصلحته توالي دائماً البحث عن رجال قادرين كما أن رؤساءه ليسوا غرباء عن ماضي ايلي ، وأنهم كانوا يراقبونه منذ وقت غير قصير وهم مقتنعون أنه صالح لأعمال التجسس.** غير أن ايلي رفض بأدب، ولكن بتأكيد، العرض الذي قدم اليه وقال للنقيب إنه لم يتزوج إلا مؤخراً وإنه غير راغب في مغادرة البلاد . وبدت ملامح الخيبة على وجه زلمان ولكنه لم يتابع البحث واكتفى بأن يطالب ايلي بأن لا يفضي لأحد بشيء عن هذا الحديث .
ولم تساور ايلي مشاعر الذنب عند رفضه هذا العرض، ذلك أن هذه هي المرة الأولى في حياته التي تمكن من أن ينعم بالاستقرار والراحة والطمأنينة . فقد استطاع أخيراً أن يطلق العنان لقراءته وتحليلاته الذاتية ، وأن يجد الوقت لتصفح الكتب واستعارتها من المكتبة العامة ، واكتشف القصائد المثيرة التي نظمها ناشمان بياليك وشاؤول تشيرنيفوسكي اللذين مجدا ثوار إسرائيل القدماء ، وراح يدرس آثار هاآم وبنسكر والفلاسفة الذين راحوا يتحدثون عن التحرير الأخير ، وشجعته ناديا على التصوير الزيتي والتصوير الفني ، واستيقظ حبه للبحر فراح يبحر مع أخيه افرام في قارب يملكه أحد أصدقائه على ساحل تل أبيب ، وكان يشترك في المسابقات الساحلية التي يجريها نادي زيفولون كما كان يستفيد بما تبقى من فراغه في متابعة التطورات الجديدة في الإليكترون من خلال الأبحاث والمجلات، آملاً أن يحصل يوماً على الدرجة الجامعية التي يسعى اليها .

والتقى النقيب زلمان بايلي في مناسبات عديدة ولكنه فشل في إقناعه . أما ناديا فقد تركت عملها عندما أصبحت حاملاً ، واضطر ايلي ان يعمل

ساعات إضافية ليعوض عن الدخل المفقود . وفي هذه الفترة بالذات اتصل به زلمان مرة أخرى مقدماً اليه هذه المرة عرضاً سخياً لوظيفة مدنية براتب قدره ٣٥٠ ليرة شهرياً، (١) وتابع قائلاً : «إن المصلحة ستقوم على تدريبك لمدة ستة أشهر فإذا لم يعجبك ذلك فأنت حر في أن تستقيل» . وعندما أنهى النقيب حديثه تردد ايلي في الجواب غير انه رفض مرة أخرى .

وبعد أربعة أسابيع من هذا اللقاء تلقى ايلي مذكرة من رئيسه هاماسبير جاء فيها إن الشركة تخطط لإعادة جهازها، الأمر الذي اضطر الإدارة على تضييق ملاكها ولذلك فإن عدداً من الموظفين الذين عينوا مؤخراً سيكونون عرضة للتسريح وأنذر ايلي لمدة شهر . واضطرته ظروفه الجديدة لأن يعيد النظر في عرض النقيب زلمان ، وقال ايلي فيما بعد. «كانت تراودني أسوأ المشاعر عندما لجأت الى المنزل لأرقب زوجتي وهي تذهب إلى العمل في الصباح ثم تعود في المساء منهكة» . وعندما اتصل به النقيب مرة أخرى وافق ايلي على أن يتطوع في أعمال التجسس في الميدان (٢) .

وبتوجيه من زلمان قال ايلي لناديا إنه قبل وظيفة في قسم المبيعات في وزارة الدفاع ، وإن عليه أن يجتاز برنامجاً تدريبياً قد يستغرق عدة أشهر ، وأضاف إنه من غير المسموح لها وفقاً للتعليمات أن تتلفن اليه أو أن تزوره في عمله ، ولما كانت هذه البرامج التوجيهية غير غريبة على الوظائف

---

(١) عملاء الميدان في المخابرات الاسرائيلية يدفع لهم وفقاً لسلالم ثابتة بمقدار ما ما يدفع لموظفي الحكومة من الدرجة الوسطى . فمدير هذه المصالح يتقاضى شهرياً ١٦٠٠ ليرة اي ٣٣٥ دولار والأجر الشهري الأدنى للعميل لا يتجاوز ثلث هذا المبلغ وخلافاً لما يجري في البلدان الأخرى فان العمال الاسرائيليين لا يتقاضون دخلا اضافياً على الأعمال الخطرة التي يقومون بها .

(٢) قيل ان تسريح ايلي من وظيفته فور رفضه للمرة الأخيرة العرض الذي قدمه اليه زالمان لم يكن على سبيل الصدفة . وقد لاحظ احد المصادر ان الموساد كانت تستخدم هذه الأساليب في محاولاتها لتجنيد عملائها، غير ان الموساد انكرت فيما بعد بطريقة غير رسمية انها تسببت في تسريح ايلي، مشيرة الى ان عدداً كبيراً من الموظفين في المؤسسة هاماشبير قد سرحوا في ذلك الوقت .

المدنية لذلك لم تلح ناديا في طلب التفاصيل وقالت بعد ذلك : «قال لي إنه عين في قسم المبيعات لدى الحكومة وإن عليه أن يقوم برحلات عديدة إلى اوروبا ، وكان غير راغب في الحديث عن وظيفته الجديدة لذلـــك انقطعت عن توجيه الأسئلة اليه» .

المنزل في شارع اللنبي

كان عليه أن يقابل زالمان في اليوم الأول من تدريبه في قهوة تقع عند زاوية من ساحة روتشيلد شارع اللنبي . وبعد ان بادله التحيات تابع الرجلان سيرهما صامتين على طول الشارع في اتجاه مغربي بلازا . وأرشد زالمان إيلي إلى طريق جانبي في قلب المنطقة الصناعية ثم الى سلم يصل الى الطابق الثالث الذي استأجرته الموساد . وكان عليه ان يعيش هناك خلال الأشهر الاربعة التالية، حيث يهضم المبادىء الاولية لعمليات التجسس .

وقدمه زالمان الى رجل يدعى اسحق وكان عليه ان يراقب سير التدريب ، وما كاد زالمان يغادر المكان حتى قدم اسحق التلميذ الجديد الى اشير وهو احد المدربين في شؤون التخريب وكان يحسن تكلم العربية بلهجة سورية . وجلس الثلاثة للبحث عن اسم مستعار فتوصلوا الى اختيار اسم اليكس . ثم باشر اسحق باصدار التعليمات موعزاً لايلي بالتزام البيت وبأن لا يغادره الا في الظلام مع احدهما . وقال : « قد يبدو لك إن هذه حياة مساجين . ولكن لا بد لنا من اتخاذ هذه الاحتياطات لأسباب تتعلق بالأمن » .

وفي الأيام الخمسة التالية كان الصباح مكرساً للمناقشات في المواضيع السياسية الجارية ذات العلاقة بالشرق الأوسط وما يتصل خاصة بالجمهورية العربية المتحدة التي كانت تعتبر من إختصاص إسحق . وفي أصيل اليوم السادس وصل رجل خشن الصوت متوسط العمر ، قدم إلى ايلي باسم جدعون ، وكان عليه أن يعلمه الشؤون المتعلقة باستخدام الراديو . وبدون أي تعليق فتح جدعون جهازاً للمورس أعد للتدريب وطلب إلى ايلي أن

يرسل عن طريقه سلسلة من النقاط والخطوط الأفقية ، فأرسل ايلي مجموعة كاملة من الإشارتين . وعندما انتهى من التجربة سأل ايلي عن الوقت الذي يحتاج اليه كي يصبح محترفاً . فابتسم جدعون وقال له : « أكتب من الحروف الهجائية ما تستطيع كتابته في دقيقة واحدة ثم أضرب الحروف بثلاثة وترجم الجميع إلى شيفرة . والنتيجة هي متوسط عدد النقاط والخطوط التي يجب إرسالها وتلقيها قبل أن يصبح التلميذ محترفاً .

وقد دهش جدعون من السرعة التي تحكم بها ايلي في أبجدية المورس . فقد تقدم تدريجياً من إيقاع الضربتين إلى إيقاع الثلاث ضربات . وبعد دروس قليلة استطاع أن يحسن إيقاع الأربع ضربات وأكثر . ثم شرح جدعون الأوزان المختلفة التي يمكن بها تذكر الحروف . وأخيراً استطاع ايلي أن يرسل وأن يتلقى من أربعين إلى ستين حرفاً بالدقيقة . ثم انتقل إلى مرحلة أكثر صعوبة في حقل الإتصالات وهي دراسة أساليب الشيفرة واستعمال الطرق المختلفة لحل رموزها . ثم صدرت اليه الإرشادات لاستخدام الجهاز اللاسلكي وجهاز الإرسال الصغير ، وكان يتصل يومياً بأحد عملاء الموساد دون أن يعرف اسمه وهويته .

ولم تختلف حياته في المنزل عن حياة الرهبنة الرتيبة : يقظة باكرة ، طعام الفطور ، التدريب ، الغداء ، التدريب ، ثم العشاء ، ثم التدريب ، وأخيراً المسيرة الليلية ... وكانت حياته أقرب إلى حياة ناسك منها إلى عميل مخابرات . وقد لاحظ ايلي فيما بعد : « كنت أشعر وكأنني رجل ضائع مع رجال ضائعين » ولكنه لم يكن يشتكي من حياته هذه . وعندما إنتهى ايلي من الفصل الخاص بجهاز الأخذ والإرسال إنتقل إلى فن التخريب . فعلمه أشير كيف يصنع المتفجرات بمواد كيماوية بسيطة يستطيع الحصول عليها من أية صيدلية . وقد استخرج الترمايت من نيترات كلورات البوتاسيوم ممزوجة بالسكر الذي يحترق في درجة حرارة قدرها ٣٠٠٠ . كما علّمه الطريقة التي يصنع بها الديناميت البسيط من الزيت

وكلورات البوتاسيوم . وقد ذكرت هذه الدروس ايلي بالمحاولات التي كان رفاقه يقومون بها في الإسكندرية لصنع القنابل المحرقة . وقد دهش من السهولة التي كان يصنع بها أشير القنابل عن طريق وصل سلكين من ساعة اليد ببطارية تتصل بمزيج ملتهب هو الفلنايت أو البلاستيك . وكان يجهز المستحضر لمدة تمتد إلى ١٢ ساعة وكان يحتاج إلى وقت أطول لإعداد قنابل موقوتة بعد سبعة أيام أو ٢٤ يوماً . أما لعبة الأسيد فقد كانت أكثر بساطة إذ يثقب غطاء زجاجة مملوءة بالأسيد سولفريك وتولج في مدخلها قطعة من المقوى ويذوب المحلول في مدة ساعتين ثم يطفو المحلول ويحرك العبوة فيحدث الإنفجار .

وبعد أن أنهى ايلي دورة الإذاعة والأعمال التجريبية خفف عنه إسحق أكثر القيود وسمح له بالتحرك مع بعض الحرية . ولكن لم يكن هناك ما يشير إلى أنه سيسمح له بالذهاب إلى البيت في إجازة . وسرعان ما صدرت اليه التعليمات لاجتياز دورة خاصة بأعمال التدمير في قاعدة عسكرية للجيش في الجنوب . وقد علّمه المحاربون القدامى كيف يضع قنبلة في مخبأ فينسف القطارات ويدمر الجسور . وبعد أن برز بين الأوائل في صفه أعيد إلى وحدته في مسقط رأسه .

ثم اتسعت أعمال التدريب لتشمل فنون المخابرات العسكرية والطبوغرافيا ، والتجمعات ، وتسجيل وتحليل الأخبار السرية ، ثم تمرين على إستخدام المسدس كان يجرى بصورة يومية تقريباً . وتدرب ايلي على تمييز الشارات العسكرية السوفيتية والعربية كما عرف أنواع سلسلة كبيرة من الطائرات والدبابات والمدفعية والأسلحة الفردية . وعندما عاد إلى منزله تعلم معالجة الأقفال كما تدرب على أسلحة التجسس الحديثة وآلاف الطرق لبناء المخابىء وإخفاء الأسلحة والأفلام .

وعلّمه أستاذ آخر في الموساد طريقة استخدام الحبر السري وهي أن يمسح طرفي ورقة من نوع ممتاز بالقطن الجاف لمدة عشرين دقيقة ثم يضعها عمودياً على سطح زجاجي ثم يطبع برفق مذكرته بمساعدة عود

كبريت يغطه في محلول خاص وبعدها توضع الورقة أُفقياً وتستخدم في كتابة الرسالة إما باليد أو على الآلة الكاتبة . (والفريق الذي يتلقى الرسالة المكتوبة لديه طريقة الكشف عنها إما بالآلة أو بالمحلول الكيميائي) . ولكي يتحكم ايلي في استخدام الحبر السري كان يكتب كل يوم رسائل نموذجية كما كان يتلقى تعليقات على أخطائه إلى أن شهد له الإختصاصي في الموساد بأنه أتقن العملية .

ثم علّمه اسحق عدداً من التمارين التي يتنكر فيها في مختلف الظروف التي تعترضه في ميدان عمله فأمر ايلي أن يذهب إلى مكان لبيع الصحف وأن يتبين وهو يشتري الجريدة هوية الشرطي الذي يقتفي أثره دون أن يعكس إنطباعاً بأنه عرف وجوده وعندما عاد إلى المنزل جرى التحقيق في تحركاته على ضوء فيلم آخر صور العمليات ذاتها ، وكلف كذلك بملاحقة شرطيين غير مشبوهين كما تمرن على الإختفاء عن أعين مطارديه . وعندما سئل اسحق من قبل الموظفين في الموساد عن الخطوات التي اجتازها تلميذه قدم اليهم عنه تقريراً رائعاً ، إذ كان ايلي آنئذٍ على استعداد لاجتياز الإختبار الأخير .. ولم يبق أمامه سوى عشرة أيامٍ ليظهر بهوية جديدة مقنعة ، فقد حمل جوازاً فرنسياً ليهودي مصري هاجر إلى أفريقيا وهو الآن يعيش في فرنسا ، ثم سافر بعد ذلك إلى القدس وكان يتكلم فقط الفرنسية والعربية ، وتعرف على أشخاص قد يستطيعون في المستقبل التعرف عليه . وركب ايلي قطاراً في رحلة إستمرت ساعة إلى العاصمة حيث نزل في فندق صغير وبسرعة استطاع التعرف على عدد من سكان مدينة القدس الذين هم فوق الشبهات. وقال ايلي فيما بعد إنه زار القدس في وقت سبقت إقامته في إسرائيل . ثم قام باتصالات أكثر أهمية فتناول الطعام مع أحد الموظفين من وزارة العدل وتناقش معه في موضوع نقل أمواله من فرنسا لإيداعها في مصرف محلي .

وفي هذه المرحلة النهائية من تمارينه وفي مطلع السنة العبرية الجديدة عاد ايلي إلى تل أبيب حيث منح إجازة قصيرة قضاها هو وناديا مع

أفرايم الذي أصبح عضواً في كيبوتس رافيفيم في النقب . وعند عودته قيل له إنه كان خلال هذه المدة يخضع لرقابة دائمة من قبل فريق من ضباط الشرطة في القدس وإن تقارير هؤلاء تشير إلى أنه قام بنجاح بجميع ما أسند اليه ، وبعد المقابلة أرسله اسحق لاجتياز فحوص طبيعية ونفسية وتكنيكية، وقال له عندما تعود سندرس معاً تفاصيل المهمة الأولى التي ستسند اليك .

وعندما كان ايلي يخضع لعمليات تدريب واسعة اتصل بدوائر كثيرة تابعة للوكالة العليا للأمن والمخابرات. وكان الأشخاص الذين تحدث اليهم يمتازون بروح التعاون والحذر فقد كانوا يعطونه فقط المعلومات اللازمة لمهمته الأخيرة ، غير أن هذه المحادثات بالإضافة إلى ملاحظاته الشخصية مكنته من تجميع صورة إجمالية عن أهداف المخابرات ومهامها وتنظيماتها .

والموساد الذي أخذ اسمه عن منظمة الهجرة غير الشرعية للوكالة اليهودية أسس في عام ١٩٥٣ بنواة من الإداريين وعملاء الميدان في الشعبة السياسية لوزارة الخارجية بقصد جمع المعلومات السرية من البلدان المعادية لإسرائيل ، وكانت هذه المؤسسة تتبادل الخبراء وتقوم بعمليات مشتركة مع أربع تنظيمات أخرى لمكافحة التجسس ، وخاصة المودين وقسم الأبحاث في وزارة الخارجية . وكان رئيس الموساد يرئس أيضاً اللجنة المركزية لمصالح الأمن المؤلفة من مديرين يقومون على تنسيق المصالح الخمسة .(١) وكان يحمل لقب ميمون **Memune** أي « الرجل المكلف »،

---

(١) التكوين الحالي لجماعة المخابرات الاسرائيلية نشأ عام ١٩٥٣ واختص بجمع المعلومات عن التطورات السياسية والعسكرية في البلدان العربية مما امكن جعله اساساً لتخطيط استراتيجي آني وعلى المدى البعيد ، بالاضافة الى القرارات التي تجمع ويجري تحليلها من قبل شائيل مودين او شامان وهي فرقة المخابرات في الجيش وكانت المصادر المكشوفة والتقارير المبوبة عن نشاطات السياسة الحربية تجمع وتدرس من قبل مشليكا ميدينيت **Machlika Medinit** شعبه الأبحاث في وزارة الخارجية . اما عمليات الأمن الداخلي وجمع المعلومات =

كما كان يحمل المسؤولية عن كل الوكالات ويرفع تقاريره مباشرة إلى رئيس الوزراء، وهويته تعتبر من أسرار الدولة ولا يباح باسمه الا بعد أن يترك الخدمة .

أما رئيس الموساد إيسر هاريل **I'ser Harel** الذي سمع عنه ايلي كثيراً في القسم الأول من تلمذته فقد كان قصير القامة طوله ١٥٥ سم أصلعاً وكان يلقبه زملاؤه بـ«إيسر الصغير» وقد ولد باسم إيسر هالبرن عام ١٩١٢ في فيتبسك روسيا وهاجر مع عائلته إلى لاتفيا بعد الثـورة البلشفية ليفر من موجة إضطهاد اليهود ، وقد انضم الشباب الذين هم من منشأ يتصل بالطبقة الوسطى إلى منظمة **Zionist Poalei** الصهيونية اليسارية . وبعد أن تأثر بتعاليمها هاجر إلى فلسطين في عام ١٩٢٥ . وكان عمر هالبرن ١٦ عاماً عندما وصل إلى كيبوتس شافايين بالقرب مـن هرزيليا وهو يخفي مسدساً ويحمل حقيبة واحدة . وفي السنين الثلاث عشرة التي تلت كان يقوم بتعبئة البرتقال ويعمل في مشاريع الري إلى أن التحق أخيراً بالهاغانا، ثم تزوج وأصبح أباً لطفلة . وفي عام ١٩٤٢ انتحل إيسر إسماً عبرانياً هو هاريل وتسجل في البتوبريم وهي البوليس اليهودي المساعد وكان موقفه من البريطانيين غير متسم بالطاعة ، ولذلك فصل من وظيفته لأنه رفض الإعتذار من رئيسه البريطاني بعد أن ضربه لأنه أبدى

عن عملاء الأعداء داخل اسرائيل فقد كان يقوم بها شيروت بتاشون كلا لي او شين بيت **Shin Beth** او مصلحة الأمن العام . اما مكافحة التجسس داخل الجالية اليهودية فيقودها الـ آكاف ليتافكيديم ميرخاديم **Letafkidim Meuchdim** اي الفرقة الخاصة للتحريات في شرطة اسرائيل ، وتعمل هذه كفرع للشين بيت . واعمال التجسس على جميع البلدان الأجنبية واخبار التجسس يجري جمعها من قبل الموساد اليون ليمودين او بيتاشون **Mosad Elion Lemodin Ubitachon** اي الوكالة العليا لشؤون الأمن والمخابرات وقد تأسست عام ٩٥٣ من نواة الأداريين وعملاء الميدان في قسم الابحاث ويقوم بمهمة التنسيق بين الوكالات الـ فيدا ميرلزيت ليشيروته هابيتاشون **Veada Merkazit Lesheruteu Habitachon** اي اللجنة المركزية لمصالح الأمن وهي تتألف من خمسة مديرين وكل عضو في اليدا هو على حساب لجنة فرعية تابعة لمجلس الوزراء وهذه بدورها تقوم على رقابتها لجنة الشؤون الخارجية ولجنة الأمن في الكنيست .

ملاحظة اعتبرها مناوئة للسامية . وكرس هاريل فعاليته كلها بعد ذلك للهاغانا وأصبح عميلاً في الشاي **Shai** وعندما أعجب دايفيد شالتيل رئيس مصلحة المعلومات في الهاغانا بفعاليته وطاقاته التحليلية أوكل اليه الشؤون الخاصة بمصلحة الأمن الداخلي ، حيث لفت إهتمام دافيـد بن غوريون رئيس الوكالة اليهودية وإسرائيل غاليلي قائد الهاغانا ، واستطاع هاريل بما أحدثه من تغييرات أن يحوز على أعلى مركز في الشاي وهـو قائد منطقة تل أبيب وعهد اليه في مطلع الحرب العربية الإسرائيلية بتأسيس الشين بيت ثم تشكيل الموساد الذي أصبح مديراً له ، وبعد أن عين مسؤولاً عن كل المصالح اكتسب سمعة الموظف المخلص والرئيس المحترم أو المهاب . ولم يكن يوفر جهداً لحماية عملياته وإنقاذها من المواطن الصعبة ، وقد ربح الموساد بقيادته سمعة عالمية كان يرى أن هناك ما يبررها حتى نقل عنه أنه قال : « اذا كانت المخابرات هي معركة ذكاء فليس في العالم من يتقدم على مخابرات إسرائيل » . وعلم ايلي أن العملاء في مجهودهم الرامي للوصول إلى أعلى درجات الكفاية تعلموا أحدث الأساليب الفنية المتعلقة بالتجسس والأمن في حقول خاصة ، وكان الذين يتخرجون من مؤسسات المخابرات يلتحقون بأعداد من الممتهنين الذين توافدوا عليها من حقول مختلفة . وكان عدد الموظفين الإداريين ، وضباط الأمن والوكلاء المحليين ، والعملاء فيما وراء البحار ، صغيراً جداً ، وكذلك كان رقم الميزانية إذا قورنت بميزانية مخابرات الولايات المتحدة الأميركية التي تبلغ أربع مليارات دولار سنوياً .

وكان موظفو الموساد كغيرهم من موظفي المصالح المماثلة يختارون من العناصر المخلصة للبلاد. وكانت الموساد تتجنب استخدام موظفين من طراز جيمس بوند . وقد لاحظ إيسر هاريل مدير المؤسسة قائلاً : «نحن لا نريد أبطالاً ولا مغامرين في مصلحتنا ، كما لا نريد متطوعين من أمثال أولئك الذين يتصلون بنا باستمرار ويعرضون علينا خدماتهم . إن قاعدتنا هي أن نختار الرجل بعد أن نقوم بتحرياتنا فإذا وجدناه صالحاً عرضنا عليه الخدمة ، ونريد من رجالنا أن يكونوا شرفاء متفرغين مخلصـين

وطنيين . وبكلمة أُخرى نريدهم إنسانيين . والمواهب التي تفي بحاجتنا هي التواضع والاقتصاد وفوق كل شيء السرية المطلقة . والأشخاص الذين يضايقهم أن يظلوا مجهولين أو الذين يميلون للكشف عن ارتباطاتهم في المهام السرية الموكولة اليهم ، على هؤلاء أن ينفصلوا عنا بسرعة » .

والنساء العميلات كن يستخدمن في أغراض التغطية وكثيراً ما كن يتجاوزن عمليات الرجال وكانت تراعى في الإدارة قواعد صارمة كيلا يشتمل إستخدام السيدات على سلوك غير أخلاقي . وقال هاريل نحن لا نستخدم الجنس للوصول إلى أهدافنا . وموقف التزمت هذا الذي أعلنه المسؤول الأول عن الموساد ينسجم مع العقلانية الرفيعة التي يتميز بها جماعة المخابرات الإسرائيلية . وقد استخدمت الموساد عرباً وألمان وقوميات أُخرى من نساء ورجال كانوا يعملون بدون حدود فيمارسون الجنس ، والقتل والخطف والإبتزاز كوسائل للحصول على المعلومات .

وعندما دخل تدريب ايلي مرحلته النهائية ، أصبحت سورية نقطة الارتكاز في دراساته . واستطاعت مجموعة من الأبحاث والكتب والوثائق والمعلومات التي قدمها اليه الموساد أن ترشده إلى الخلفيات السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية التي كان عليه أن يمتصها قبل أن يكون قادراً على استكمال تغطيته . فقد كان الإسرائيليون يعتبرون سورية أكثر البلدان غموضاً من بين الجارات الخطرات . وقد اتصف تاريخها الحديث بالإضطراب المزمن نتيجة لحياة حزبية لا تعرف المصالحة ، ولمجموعة من المتناقضات متأصلة في البلد ذاته . يضاف إلى ذلك ولاءات دائمة التحول ، وأنظمة متعاقبة قصيرة العمر . وقد خلقت هذه الأحوال بالنسبة للمخابرات الإسرائيلية جواً جعل الحكومة السورية أكثر الأهداف اجتذاباً للتغلغل .

ويمكن العودة بمظاهر القلق الوطني هذا إلى الحرب العالمية الثانية عندما قاتل الحلفاء بنجاح ليمنعوا استخدام سورية كقاعدة لعمليات المحور . ولم يعترف الجنرال ديغول بسورية دولة مستقلة بعد أن برز

زعيماً لقوات فرنسا الحرة عام ١٩٤٣ إلا بعد تردد طويل ، وعين الشيخ تاج الدين رئيساً للجمهورية . على أن تنازلات الفرنسيين لم تكن كافية لإرضاء الوطنيين السوريين الذين زادوا من ضغطهم لإجراء انتخابات تشريعية . وأدت اضطرابات أخرى إلى إسناد رئاسة الجمهورية لشكري القوتلي وأرغمت الفرنسيين على سحب كل قواتهم . وبعد عامين حصلت سورية على اعتراف كامل بسيادتها من جانب الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . وفي شباط ١٩٤٥ دخلت الحرب إلى جانب الحلفاء ففازت عن هذه الطريق بالعضوية في الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة .

وتم انسحاب الوحدات الأخيرة من الجيش الفرنسي عام ٩٤٦ . وفي الانتخابات التالية أصبح اختيار القوتلي لرئاسة الجمهورية أمراً واقعاً . وكان في أول مساعي النظام الجديد تعجيل الخطوات في سبيل الوحدة . وعندما قامت دولة إسرائيل عكست المحادثات العربية إيقاعات هستيرية . واجتاحت أفواج المتطوعين التي بلغت ٢٧ ألفاً تعززها وحدات الجيش الحدود الشمالية لفلسطين وقاتلت دون أن يسعفها الحظ بالنجاح . وعلى الرغم من أن سورية لم تعان من نكسة خاصة بها ، غير أن الهزيمة العربية الشاملة أصبحت أيضاً من نصيبها .

وكانت حرب ١٩٤٨ حافزاً لتولي الجيش زمام السلطة . فقد جعلت من سورية أول دولة عربية تعتنق الديكتاتورية العسكرية . فقد تآمرت عصبة من الضباط السوريين أثارتها الهزيمة وزاد في مرارتها فساد النظام القديم على استلام الحكم في عام ١٩٤٩ . وفي آخر شهر آذار قام رئيس أركان الجيش الزعيم حسني الزعيم بانتزاع السلطة بانقلاب أبيض ، فمنح نفسه رتبة المارشالية وباشر التخطيط للاصلاح على الصعيد الاجتماعي . ولكن قبل أن تمر عدة أسابيع قل من بقي في سورية ممن لم يتعرض لإساءات الزعيم . وهكذا تكشف حكمه عن ديكتاتورية سافرة عندما أصبح مجرداً من كل سند شعبي . وكان يقول لأخوته في السلاح : « أعطوني خمس سنوات أجعل من سورية بلداً مزدهراً ومستنيراً كسويسرا » ولكنهم

أعطوه أقل من خمسة أشهر ، ففي منتصف آب زحف سامي الحناوي على دمشق وألقى بحسني الزعيم في السجن منددا « بفساده واستهتاره بالقوانين وخروجه على تقاليد البلاد القومية» ثم أصدر أمره بإعدامه (...) .

وحكم البلاد لمدة شهرين مجلس حربي بالاشتراك مع جبهة مدنية يرأسها رجل الدولة المحرم هاشم الأتاسي . ولكن عندما انتهى المطاف بهاشم الأتاسي إلى موضوع الوحدة مع العراق اعترضت شرذمة عسكرية يرأسها العقيد أديب الشيشكلي هذا الاندماج بأشد ما يكون من العنف . وفي منتصف كانون الأول وللمرة الثالثة في ثلاثة أرباع العام أعلن الجيش حركة العصيان ووجه الشيشكلي إلى الحناوي تهمة الخيانة وطرده إلى بيروت حيث أطلق عليه الرصاص إنتقاماً لإعدامه حسني الزعيم .

وقد سمح الحاكم العسكري الجديد للأتاسي بالبقاء رئيساً للجمهورية ولكنه كان يسيطر على الحكومة من وراء ستار ، غير أن خوفه من طبيعة البلاد السياسية بعد تبني الحياة الدستورية حمله على القيام بانقلاب آخر عام ٩٥١ حيث حكم في السنتين التاليتين بيد حديدية . وفي عام ٩٥٣ كانت كل دعاوى الديموقراطية قد استبعدت وتولى الشيشكلي مهام رئاسة الجمهورية ورئاسة الوزراء في آن واحد .

وعندما اشتدت وطأة الحكم العسكري راح السياسيون يتواطؤون على الثورة مع ضباط الجيش . وفي شباط ٩٥٤ تم تشكيل مجلس عسكري مؤقت من ثلاثة ضباط من ذوي الرتب العالية يمثلون مختلف الأحزاب السياسية ، فقام هذا المجلس بتوجيه التعليمات التي أدت إلى الإطاحة بالشيشكلي وإرغامه على الفرار إلى البرازيل حيث قتل أخيراً على يد أحد القتلة . وفي حركة لم يسبق لها مثيل سلم الانقلابيون زمام السلطة إلى السياسيين. وبعد انتخابات جديدة عاد شكري القوتلي من منفاه في سويسرا وتولى منصب الرئاسة . وفي السنين الأربعة التالية كان الحكم البرلماني وحرية الصحافة والجمعيات من الأمور التي لم يتسن تحقيقها . فقد كان النظام البرلماني موجوداً من الناحية النظرية فقط غير أن سورية كانت لا تزال

بحكومة من فريق من الضباط يقودهم رئيس الأركان الجنرال شوكت شقير . وقد أدى هذا الموقف إلى مؤامرات متوالية ، واضطرابات غير منقطعة ، ووزارات متعاقبة غير ثابتة .

وضاعف القوتلي من انفتاح الحكم في سورية على الإتحاد السوفيتي مقتفياً بذلك أثر أديب الشيشكلي ، حتى أن محاولاته للحصول على مساعدات اقتصادية وعسكرية من موسكو أصابت نجاحاً كان أبعد من كل تقدير . وفي عام ١٩٥٥ تلقت دمشق من روسيا شحنات أساسية من الأسلحة ، ووقعت مع موسكو وبكين اتفاقات تجارية ، وبعد عامين عاد الرئيس من الاتحاد السوفيتي يحمل تعهداً بمساعدات تبلغ قيمتها ٧٥٠ مليوناً من الدولارات .

وبينما كان المحور السوفيتي السوري في طريق الصنع اشتدت الغارات والغارات المعاكسة على طول الحدود مع إسرائيل . وقامت مواقع المدفعية في مرتفعات الجولان بقصف الكيبوتزيم في شمال بحيرة طبرية ، بينما رد الجيش الاسرائيلي (زحال) بعمليات الكوماندوس حيث اعتقل عدداً من الأسرى وقتل العشرات من الجنود والمدنيين . ولم ينتقم للسوريين من هذه المهانة سوى تأميم قناة السويس وهي الضربة التي اعتقدت سورية أنها محطمة للاقتصاد الإسرائيلي . وقد أثارت خطوة ناصر الجريئة مظاهرات الحماس في جميع أنحاء سورية وهي أكبر مظاهرات جرت في منطقة الشرق الأوسط ، ولكن على الرغم من هذا الضجيج فإن إدارة القوتلي لم ترسل قوات إلى المعركة لمساعدة المصريين عند انفجار حملة سيناء في تشرين الأول ٩٥٦ .

وفي هذه الفترة لم يضعف الحماس للوحدة في العاصمتين . فمنذ الاستقلال أصبحت سورية هدفاً لجاراتها المتخاصمات . فدمشق « قلب العالم العربي » كانت في وقت واحد الغنيمة والساحة في الصراع بين العراق والأردن ومصر والعربية السعودية . وقد أدت هذه الضغوط إلى تمزيق سورية سياسياً من الداخل ، وكان أكثر السياسيين لا يعتقدون بقابلية

استمرار الكيان الإقليمي لبلدهم . وكانوا يرون الخلاص السياسي على شكل تحالف أو وحدة كما كانوا ملتزمين بهذا المعسكر أو ذاك من المعسكرات العربية . وأقدم القوتلي الذي قضى فترة مريحة في منفاه في مصر — والذي كان شديد الحماس في إعجابه بعبد الناصر — أقدم على المناورة في سبيل الوحدة مع الرئيس . وقد أيده في ذلك جماعة حزب البعث الاشتراكي لأن قيادتهم كانت تطمع في أن يساعدها عبد الناصر على أن تربح السلطة التي فشلت في الحصول عليها عن طريق الاقتراع . وقد سمح للقوات المصرية بالدخول إلى سورية كي تعجل في القضاء على كل التحركات ضد الوحدة من داخل الجيش . ولم تكن سورية آنئذٍ سوى على مسافة قصيرة من المسرح المعد لها .

وبعد أقل من ثلاثة أسابيع من المفاوضات أعلنت الجمهورية العربية المتحدة التي تضم سورية ومصر وسط مظاهر الابتهاج التي عمت جميع أنحاء البلاد . « وكانت تلك خطوة أولى نحو وحدة من البلدان العربية تضم ستين مليوناً »(. . ! !) وكان ذلك في شهر شباط ٩٥٨ وكان عبد الناصر رئيساً لهذا الإتحاد والقوتلي واحداً من أربعة نواب للرئيس (١) . وقسمت الجمهورية العربية المتحدة إلى إقليمين شمالي (سورية) وجنوبي (مصر) تحكمها وزارة مركزية مؤلفة من عشرين وزيراً مصرياً و ١٤ وزيراً سورياً . وكثير من المراكز راح يشغلها بصورة مشتركة وزير عن كل إقليم . وبعد أيام قليلة من إعلان الوحدة قدم عبد الناصر منهاجاً من ١٧ نقطة للجماهير في دمشق ، نص أحدها على أن جيوش البلدين ستوضع تحت قيادة ثنائية وستعتمد على أراضي البلدين .

ولم تكن هذه الوحدة الارتجالية كافية لحل المشاكل السورية . فالملايين الأربعة والنصف من السوريين في الشرق الأدنى وإن أصبحوا ناصريين في الظاهر فقد كان يفصلهم ١٥٠ ميلاً من مياه البحر ، وكذلك دولة

---

(١) لم يعين القوتلي نائباً للرئيس قط . (المعرب)

إسرائيل ، عن ٢٦ مليوناً من إخوانهم المصريين الأفريقيين ، ولم يكن يجمعهم بهم سوى اللغة العربية . يضاف إلى ذلك أن السوريين قساة في نزعتهم الفردية ، ولا يمكن حكمهم من الناحية التاريخية ، ولا ينصاعون للسلطة المركزية من الناحية التقليدية ، وهم يشبهون في ذلك ما كان عليه الفيتناميون بالنسبة للصينيين . وهكذا فإن حكم عبد الناصر حمل منذ بدايته علامة ارتجاله وعدم ثباته .. ولم يتح للسوريين أي معنى من معاني المشاركة في إدارة شؤونهم الخاصة . وكانوا يتصورون الحكومة في حدود إشرافها على الأمن والنظام لا في نطاق تجربة بناءة يستفاد فيها من مواهب السوريين ومن تعلقهم بالوحدة . وهكذا برزت في الإقليم الشمالي حكومة بوليسية لا حزبية .

ونشأ الفراغ السياسي عن حظر نشاط كافة الأحزاب ، ولم يكن في قدرة الاتحاد القومي أن يملأ هذا الفراغ ، وقد زاد الأزمة الاقتصادية سوءاً انقطاع الأمطار ثلاث سنوات متوالية ، الأمر الذي زاد في النقمة على المصريين ، وسرعان ما وجدت هذه النقمة سبيلها للتعبير عن نفسها بصراحة ، واتجه الانتاج إلى التناقص المستمر ، ونزلت أرقام التصدير ، بينما ارتفعت أرقام الإستيراد ، وزاد عجز الميزان التجاري ، وارتفع معدل الضرائب ، وتضاءلت كميات الذهب والعملة الصعبة بصورة عمودية ، ومنع الاستيراد من الخارج ، وأغرقت الأسواق السورية بسيل ثابت من السلع الرخيصة . وأخيراً أثارت قوانين التأميم الظالمة الشركات الخاصة فبلغت بالاستياء العام أقصى درجاته . ذلك أن التأميم ومركزية الإجراءات المتخذة أصابت غالبية السكان . فرد ملاكو الأراضي وكذلك رجال الأعمال الأقوياء الضربة للخطوات المتطرفة التي اتخذت في حقل الإصلاح الزراعي والبرامج الاشتراكية التي حاول عبد الناصر فرضها من القاهرة .

ولم يقتصر شعور الاستياء على الصناعيين والمزارعين والتجار فقد كان للأقليات الدينية والطائفية، التي تأثرت حرياتها بما فرضه المصريون

عليهم من برامج التعريب ، كان لهؤلاء أيضاً ما ينكرونه على النظام . وأساء الرئيس أيضاً إلى الموظفين والسياسيين ومن بينهم البعثيين عندما استأثر بالسلطة المركزية كلها . وأخيراً أقدم على عزل الجيش السوري عندما عين له ضباطاً مصريين كانوا أقل اعتباراً لكرامة السوريين من الاقليم الشمالي . وقال عبد الناصر فيما بعد إن نتيجة هذا كله كانت ثلاث سنوات من الاضطرابات التي لا تنتهي .

وفي نهاية العام اجتاز ايلي آخر مرحلة من مراحل التوجيه التي أثبتت أنها أكثر إرهاقاً . فقد أعد له إسحق إقامته في الناصرة حيث انصرف أحد القضاة المسلمين إلى تعليمه القرآن سراً . وقد قيل لأستاذه الشيخ محمد سليمان إن التلميذ يجري اختصاصه في العلوم الشرقية في جامعة القدس وهو في حاجة إلى تثقيف من خارج الجامعة . وحاول ايلي أن يتعلم بإرشاد الشيخ الصلوات اليومية الخمسة في الدين الإسلامي وعادات وتقاليد العطل والأعياد . وعلى الرغم من أنه أجرى تمريناته في الجامع وفي صلوات الجمعة من كل أسبوع فقد عجز عن التحكم تماماً في النصوص المقدسة . لذلك كان عجزه عن هضم تعاليم الإسلام سبباً في تعريض الثقة به لخطر كبير .

وعندما اقترب موعد رحيله خضع ايلي إلى فحص الذاكرة في ما يتعلق بقصة غطائه ، فقد أبلغه إسحق أن « الموساد » قد استعارت له هوية شخص يدعى كامل أمين ثابت وهو مسلم لبناني متوفى من أصل سوري ترعرع في مصر ثم هاجر إلى أميركا الجنوبية . وولد كامل هذا في بيروت عام ١٩٣٠ لأبوين هما سعدة إبراهيم وتاجر منسوجات دمشقي يدعى أمين ثابت الذي غادر سورية للبحث عن حياة أفضل في لبنان . أما أخته الكبيرة « عينه » فقد توفيت عندما كان عمره ثلاث سنوات . وبعد سنة تحركت العائلة مرة أخرى لتستقر هذه المرة في الاسكندرية . وفي عام ٩٤٦ هاجر أحد أعمامه وهو من الأثرياء إلى الأرجنتين ، وما كاد يستقر حتى حث عائلته على الالتحاق به فما كان من والد كامل الذي تأثر كثيراً بحالـة الركود التي أصابت فترة ما بعد الحرب إلا أن قبل العرض ، فباع متجر

المنسوجات ، وفي عام ١٩٤٧ غادر البلاد الى بونوس أيرس . وبعد وصول عائلة ثابت إلى الأرجنتين التحق الأخوان بشريك ثالث بفتح مخزن في شارع ليغازي غير أن المحاولة فشلت وأرغموا على إعلان إفلاسهم . ومات أمين ثابت عام ١٩٥٦ وفقد كامل أمه بعد نصف عام فعاش لفترة قصيرة مع عمه بينما كان يتابع العمل لحساب وكالة مارادي، وهي شركة تهتم بشؤون السياحة في العاصمة . وقال إسحق: إن «الموساد» أقامت غطاءها على أساس هذه الشخصية الحقيقية . وكان على ايلي أن يدافع بالحجة عن مشاعره لسورية عندما شرح أن والده لم يتنازل عن جنسيته، وأنه كان يكنّ حباً عميقاً للوطن الأم . وأن أمين ثابت كان يلح على كامل دائماً بأن يعود إلى سورية حالما يتسنى له جمع ثروة صغيرة . ولإضفاء جو من الصدق على هذه القصة كان على ايلي أن يدعي أنه وإن كان لا يذكر شيئاً عن دمشق أو بيروت فهو يعرف الاسكندرية جيداً . وأنهى إسحق قائلا : عندما توفق في إثبات شخصيتك ومنشئك فلن تجد أية صعوبة في إقناع الجالية العربية بأنك تخطط أخيراً للعودة إلى الجمهورية العربية المتحدة .

ولم تمض فترة طويلة على هذه المقابلة ، وفي أصيل يوم من أواخر عام ١٩٦٠ أخطر إسحق ايلي بأن لديه ٤٨ ساعة فقط للسفر إلى أمريكا الجنوبية . أما النبأ الذي تلقته ناديا بمشاعر متضاربة فهو أن ايلي سيسافر في رحلة إلى أوروبا تستمر ستة أشهر . وعلى الرغم من أنها كانت تتوقع سفره إلا أن الخبر كان صدمة لها ، غير أنها مع ذلك دعت أفراد العائلة كلها إلى سهرة وداعية ، وقد ذهل اخوته عندما شاهدوه وهو يداعب شاربين كثيفين . ولما كان موريس يعرف أن ايلي كان يرفض الشاربين دائماً سأله لماذا غير رأيه على هذا النحو المفاجىء ، ثم قال له : « إنك تبدو الآن وكأنك عربي » . وأجاب ايلي أنه أطلق شاربيه حتى إذا رزق ولداً حلقهما شكراً لله .

وعاد ايلي إلى المنزل في شارع النبي ليعلم أن رحلته قد تأجلت إلى أجل غير مسمى ، فاستبد به القلق في الأيام التالية . وكان إسحق تواقاً

إلى رحيله ولكنه قال إن عليه أن ينتظر حتى تستكمل الإجراءات الخاصة بغطائه .

وورد الأمر بالمغادرة بعد ثمان وأربعين ساعة ، واقتاده إلى المطار بالسيارة جدعون، وهو من عمال الموساد الشباب الذي أصبح الضابط المختص بقضية ايلي تحت إشراف إسحق . وقيل لايلي إن شخصاً يدعى إسرائيل سالينغر رئيس « الموساد » في أوروبا سيكون بانتظاره في أوروبا ليشرف على إجراءات الترانزيت . وسيجري استبدال جوازه مع أحد المقيمين الإسرائيليين في الشيلي بعد أن أعدت له تأشيرة أرجنتينية قانونية لمدة ثلاثة أشهر . وفي خلال تلك الفترة يقوم إبراهام ، رئيس شعبة الموساد في بونوس أيرس ، بتزويده بالأوراق الأرجنتينية الصادرة باسم : كامل أمين ثابت .



الكتاب الثالث

المهمة



كامل أمين ثابت

لم تكن الرحلة من زوريخ إلى بونوس أيرس على ظهر الطائرة سويس اير زاخرة بالأحداث . فالغيوم التي غطت الساحل عندما أخذت الطائرة تحوم للنزول في مونتفيديو بدأت بالإنقشاع ظهر الجمعة عندما تابعت رحلتها القصيرة من الأروغواي إلى الأرجنتين . وظلت الطائرة تحوم في الجو أكثر من عشر دقائق منتظرة إشارة المرور من برج المطار قبل أن تنزل على مدينة ريو دي لابلاتا .

وتم النزول في مطار عزيزة الدولي بنعومة وهدوء عند الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة بعد الظهر . وشق ايلي طريقه إلى إجراءات الوصول المتعبة في وسط الهرج والمرج الذي يسود المطار عادة .. وبعد أن حصل على أمتعته واجتاز إجراءات الجمارك بعد فترة إنتظار بدت وكأنها لن تنتهي إتجه رأساً لمراقبة أول مشهد للمدينة .

وكان في طلبات سائقي السيارات الأرجنتينيين من الفظاظة والإلحاح ما اعتاد ايلي على مثله في منطقة البحر الأبيض المتوسط . وقد إستطاع أن يشرح لأحد السائقين في مزيج من الإنكليزية والإسبانية المحدودة أنه يريد الذهاب إلى البلد قريباً من وسط المدينة . وعند الظهر إستطاع أن ينزل في أحد الفنادق الصغيرة في منطقة سان مارتن نزولاً عند نصيحة مكتب الاستعلامات السياحية ، ولم يكن الفندق بعيداً عن سوق الأوراق المالية .

وفي صباح يوم السبت سار ايلي مشياً على الأقدام إلى قهوة لاباز في كال كورينتيه أي مونتفيديو ، وهي ملتقى الكتّاب والسياسيين . ووصل الشخص الذي كلف بلقائه عند الساعة الحادية عشرة . وقد قضت

التعليمات بأن لا تكون هناك إشارات ولا كلمات سر . أما عامل الموساد فكان عليه أن يتعرف عليه من خلال إحدى صوره .

فقبل دقائق من مرور ساعة تقدم رجل في الستينات بدين الجسم قصير القامة وقدم نفسه باسم إبراهام ، وحيا ايلي بحرارة قائلاً له : صباح الخير يا صديقي . ولاحظ ايلي فيما بعد أن الشعر الأبيض الذي كان يجلل رأس هذا الرجل أفرغه في قالب إنجيلي . وبعد حديث قصير بالعبرية عن الرحلة الجوية خفض إبراهام صوته منتقلاً إلى موضوع الساعة . فأعلن عدم ارتياحه لاختيار الفندق واقترح أن يبحث ايلي عن شقة مفروشة بعيداً بعض الشيء عن مركز المدينة ، وأضاف « يجب أن تظل محتجباً ما أمكن إلى أن تصبح وثائقك جاهزة » .

وانتقل الحديث بناء على اقتراح إبراهام من العبرية إلى الفرنسية ، ثم تابع الأخير ناصحاً ايلي بالتمكن من اللغة الإسبانية ، وأن يتعلم طبائع سكان الارجنتين وعاداتهم ، وأن يجمع المعلومات الكافية عن البنية السياسية للأرجنتين ، وأن يستكشف العاصمة جيداً : وسائل النقل والمطاعم والوسائل الثقافية . وحذره ابراهام قائلاً : عليك فوق كل شيء أن تبتعد عن الحي اليهودي وفي الوقت الحاضر تجنب العرب واجتماعاتهم العامة » . وقبل أن يودعه قدم اليه اسم معلم أسباني ، وطلب اليه ان يغادر الفندق يوم الأحد صباحاً . وأن يتجه في إحدى سيارات الاجرة الى كابيلدوبلازا ديمايو حيث سيكون في انتظاره .

ويوم الأحد الساعة العاشرة صباحاً كان ابراهام واقفاً في ظل الكابيلدو . و كان قد مر على صفحات دليل « كلارين » المصنفة ليهتدي الى شقة في باريوسان مارين . واستطاع بالاسم المستعار ان يحصل من صاحبة الشقة على وعد بحجزها لحسابه. وعندما وصل ايلي اطلعه ابراهام على التفاصيل، واتفق الرجلان على اللقاء في ظهر اليوم التالي الساعة الثانية بعد الظهر في مكتبة كلية الحقوق والعلوم الاجتماعية التابعة للجامعة الوطنية . . وكان على ايلي ان يملأ عدداً كبيراً من الاستمارات للحصول على اوراق ثبوتية

ارجنتينية . وكان لابراهام الحق في استخدام مهجع صغير للابحاث حيث كانا يستطيعان العمل دون ان يزعجهما احد .

وعندما وصل ايلي الى الشقة بعد نصف ساعة من مغادرته الكابيلدو وجد ان المكان الحالي في بناء من ثلاثة طوابق مزخرف بالجص الابيض ، وقد شيد بطريقة غير تقنية في جانب ضيق من الطريق ، اما المالكة فهي السنيورا ترينيداد رود ريكز وكانت بدينة في الخمسينيات من عمرها . وخلف وزنها الذي اثقلته السنين كان هناك بقايا من ملامح امرأة كانت فيما مضى فاتنة وجذابة. وارشد ايلي من خلال عدد من السلالم الى الغرفة رقم ٥ ، وكانت غرفة نظيفة ومريحة . لم يكن فيها جهاز هاتفي كما ان النوافذ التي امتدت من السقف الى ارض الغرفة كانت تشرف على الشارع . وقالت السيدة مالكة البيت فيما بعد : « لقد قام بفحص مصاريع النوافذ وبدا مرتاحاً لأنها تؤمن له ما يريده من سرية». ودفع ايلي أجرة أسبوعين ثم انتقل إلى الغرفة فوراً .

وعندما فتحت المحلات التجارية أبوابها يوم الإثنين ذهب لشراء ملابس جديدة . فقد لاحظ إبراهام عند لقائهما للمرة الأولى أن طقمه خيط وفقاً للأزياء الدارجة في الشرق الأوسط وأعطاه عنوان خياط معروف في شارع كال فاوريدا . وقضى ايلي الصباح كله وهو يتململ بعصبية واهتياج بين أكداس من القطع المفصلة وفقاً لمقاييس أمريكا الجنوبية وأزيائها . وفي طريقه إلى الجامعة من أجل لقاء آخر مع إبراهام وقف أمام جهاز أحد المصورين للحصول على ست صور لجواز السفر . وقبل الساعة الثانية صعد السلم المؤدي إلى مكاتب كلية الحقوق والفنون الإجتماعية ليبدأ في إنجاز الأوراق الرسمية .

وفي يوم الثلاثاء حصل ايلي على موعد لمقابلة أستاذة اللغة الإسبانية التي أوصاه إبراهام بالتتلمذ عليها ، وكانت تقطن في منزل قديم ولكنه أنيق في الضواحي الشمالية من العاصمة . وكانت ماري كروز أشيفاريا إمرأة طويلة القامة ، متحفظة يقارب سنها التسعين ، ذات عينين زرقاوين

نافذتين وشعر أشقر مقلم اللون . وكان يبدو من مظهر بيتها أن عائلـــة أشيفاريا عرفت في أيام سابقة ثراء أكثر . فعلى الأرض سجاد عجمي ثمين ولكنه مع السنين أصبح باهتاً و رثاً . كما إن غطاء الأثاث الذي حالت ألوانه بسبب الرطوبة وأشعة الشمس جعل الغرف في حالة تشبه الظلام . وبعد أن حيته السينيورا أشيفاريا بالفرنسية وبدون مناقشة إضافية أظهر ايلي ميلاً شديداً لتعلم اللغة الإسبانية ، لا سيما وإنه اجتاز فصلاً دراسياً في ثلاثة أسابيع فقط قبل أن يغادر تل أبيب . وقد قالت عنه السنيورا فيما بعد: «كان محباً للغات بطبيعته ، ولم أعرف قبله تلميذاً كان يتعلم بهذه السرعة وبهذه السهولة » .

وفي الأشهر الثلاثة التالية كرس ايلي نفسه أربع ساعات في اليـــوم وخمسة أيام في الأسبوع لتعلم اللغة . وعندما أصبحت لغته الإسبانيـــة سلسة إلى درجة مقبولة قرر أن يقضي عدة أيام على شاطىء ماردیل بلاتا، وهذه المنطقة هي ريفييرا الأرجنتين . وقد سافر ايلي اليها بالقطار في الدرجة الثانية لأنها تبعد ٢٥٠ ميلاً ولأن ميزانيته المحدودة لا تسمح له بغير هذه الوسيلة . ونزل في البلان برلا التي وإن كانت غير مــزودة بأسباب الرفاهية المتوفرة في الشواطىء الأخرى إلا أنها أكثر من مريحة . وكان يحرص على عدم الظهور بالقرب من « بلايا غراندي » ، وهـــو البلاج نصف الدائري الذي يقع على الأطلسي والذي يعج بالألوف من عشاق حمام الشمس ، أو في كازينو البريستول حيث يمكن أن يشاهده الأثرياء من العرب الذين يقضون إجازاتهم هناك . وعندما التقى إبراهام بايلي بعد فترة قصيرة لاحظ عليه أنه ذهب بعيداً في مصاحبة زوجـين شابين وصلا أخيراً من سانتياغو ديل أستيرو ، وهي أقدم مدن الأرجنتين للعمل في ماردیل بلاتا . وكان تعليقهم الوحيد على لهجته أنه يسعدهم أن يلتقوا بالأجانب ...

وعندما عاد ايلي إلى بونوس أيرس كان يشعر أن في وسعه أن يزيل بعض القيود في علاقاته بالسيدة دوناتريني وابنتها جوانيتا . والفائـــدة

التي حصل عليها في صداقته مع جوانيتا لم تقتصر على تمرين لغته الاسبانية ولكنها وفرت له الصداقة التي يستفيد منها في زياراته لبعض النقاط الهامة في المدينة . وكان يتوقع أن يستكمل معلوماته عن المدينة الأرجنتينية قبل أن يلتقي بالسوريين المفرطين في شكوكهم وفي تعصبهم لقوميتهم . وكان يجوب بونوس أيرس دائماً مع جوانيتا بانتظار صدور التعليمات أليه بالاحتكاك بالجالية السورية . وكانت تلك فترة نادرة من فترات الإستجمام وكان يعرف ايلي أهمية استخدام الوقت في استعداده للضغوط القادمة .

وتجول ايلي في المدينة فحصل على صور للمتاحف والقصور والنصب التذكارية . وكان يشاهد مع جوانيتا واجهات المحلات الغنية في « كال فلوريدا » ، ويقضي الأمسيات في شارع ريشيليو وهي المنطقة التي تعج بالمرح والنوادي الليلية . وفي أيام الآحاد يذهبان للسياحة في باصات ذات لونين أخضر وأصفر من الأحياء الإيطالية القديمة في لابوكا في الجنوب وحتى المناطق الحديثة شمالي أفنيدا دي مايو حيث المنازل المزخرفة حلت محل البنايات العالية ، وإلى جانبها شقة إضافية وأحواض للسباحة . وأخذته جوانيتا كذلك إلى معهد الفنون الجميلة ، وإلى قبر جوزيه سان مارتان ، وكاتدرائية القرن السابع عشر ، وتصفحت معه السلسلة السوداء **Serie Noire** أو سيمونون في مكتبة أنطونيو ، وفي نهاية الأسبوع كانت ترافقه لبرنامج ثلاثي **Programa tripl** في صالة رخيصة في لافال . وأصبح ايلي زبوناً دائماً لقهوة الرصيف **cafe petit** في أفنيدا سنتافيه حيث كان يقضي فترة بعد الظهر في احتساء البيرة **Quilmes** أو ما هو أرفع ثمناً كالريو تيرسيرو **Rio Tercero** أو السنزانو مع الفرنيت **Fernet** وهو مشروب محلي .

وفي منتصف شهر كانون الثاني تلفن إبراهام لتحضير لقاء مع ايلي في حديقة روزدال الواقعة في بالرموبارك ، وعندما انتهى ايلي من تقديم تقريره سلمه إبراهام كتيباً فيه قائمة تشتمل على مشاهد البارك . وفي داخل

القائمة جواز سفر أزرق اللون بحروف ذهبية وختم أرجنتيني باسم كامل أمين ثابت . وهكذا فإن ايلي لم يكن في حاجة لانتظار السنتين الضروريتين للحصول على أوراق الجنسية ، كما لم يكن في حاجة لإثبات وجوده أمام مخفر الشرطة الفيدراليه . وقد كان فرع الموساد في حاجة إلى تسعين يوماً كي يخلق شخصية كامل أمين ثابت .

ويعيش في القطاع الجنوبي من مدينة بونوس أيرس نصف مليون أرجنتيني عربي ، وهم يعتبرون أنفسهم أرجنتينيين كجميع الآخرين ويفاخرون بأنهم ذابوا بسهولة في المجتمع الأرجنتيني ، ولم يؤلفوا جماعة طائفية منعزلة كما فعل اليهود . ومع ذلك فإن السوريين الذين كانوا يقطنون المنطقة الجنوبية الشرقية من العاصمة كانوا يحافظون في أكثر أوقاتهم على أن يعيشوا على سجيتهم وببساطة. وعلى الرغم من أن كثيرين من السوريين يعملون في الصرافة والتجارة التي تتيح لهم الإتصال بالمنابع الرئيسية للشؤون الأرجنتينية، غير إن مشاعر العرب القومية والحاجز اللغوي والرغبة في الحفاظ على التقاليد، كل ذلك حد من نشاطاتهم الإجتماعية في الجمعيات التي يوجد فيها مواطنون آخرون .. في هذه الجالية المغالية في تعصبها الشديدة الحذر من الغرباء حاول كامل أمين ثابت أن يحوز الرضى والقبول ...

وباشر ايلي البحث عن شقة في جوار القسم السوري من المدينة عندما راحت معرفته بالعاصمة تعزز في نفسه الثقة والطمأنينة . وأخيراً اختار غرفة رشيقة ومريحة ومفروشة فرشاً حسناً في الطابق الثاني من كال توكوراي ١٤٨٥ بإجرة أربعين بيزوس يومياً . وكانت صاحبة الغرفة كارمن أرنيا دي ايزمندى إمرأة متقدمة في السن من منشأ إيطالي وهي تدير عدة غرف للايجار في الجوار . وقد كان غطاء كامل ثابت فعالاً بالنسبة لدونا كارمن . وعندما سئلت هذه فيما بعد عن نزيلها أجابت وقد أخذت الحيرة منها مأخذها : كوهين ؟ لم أسمع عنه أبداً ... ولكن عندما ذكر أمامها اسم ثابت أجابت متسائلة بمزيج من الدهشة وعدم

التصديق : « أمين ؟ التركي (معرفة السيدة ببلدان البحر الأبيض المتوسط أضعفها كما يبدو بعد الشقة وطول الوقت) طبعاً كنت أعرفه » .

وذكرت السينيورا أن ثابت كان يترك البيت عادة في الصباح ويعود في ساعة متأخرة من الليل. كان شاباً هادئاً وفاتناً وقد كان بالنسبة لمعلوماتها مرتبطاً بعمل . غير أن دونا كارمن لم تكن واثقة من نوع عمله غير أنها تذكر إنه عندما كان يبقى في البيت لم يكن يغادر غرفة الحمام . وأضافت بلهجة تشوبها السخرية والشكوى : وفي تلك الأيام لم يكن أحد غيره قادر على الإستحمام . إنني لم أشاهد في حياتي رجلاً يستحم ست مرات في اليوم « (كان ايلي يستخدم غرفة الحمام كمكان مظلم لإخراج صور الموظفين السوريين في الأرجنتين) » . وعندما علمت أن ثابت إستخدم كعمل تغطية لحكومة لم يذكر إسمها، لاحظت وهي ترفع يديها إلى السماء : « هذا الرجل جاسوس ، إنه لم يكن قادراً على إيذاء ذبابة » .

أما العمل الذي كان يزاوله ثابت فلم يكن عند السنيورة ايزماندى عنه سوى فكرة غامضة . إذ إرتبط بمحل تجاري يتعاطى شؤون النقل في منطقة فلورس ، فقد نصحه إبراهام أن يمارس عملاً ما إحتياطاً للأسئلة التي قد توجه اليه عن مصادر دخله ، وقدم ثابت إلى السنيور كارسيا عن طريق تاجر أثاث يدعى كوغلر . والسنيور كارسيا هو أحد ملاكي مؤسسة النقل . وقص ايلي قصته فقال: «قلت له إني تاجر ويهمني أن أتعلم إدارة الأعمال ولدي دخل شهري مناسب ، وسأرث مبلغاً كبيراً من المال. وقال غارسيا : « إستخدمناه عندنا بدون أجر فأثبت أنه ماهر جداً ، والحقيقة إنه كان نافعاً لنا » . وعندما سمع كارسيا بنشاطات ايلي في المخابرات الإسرائيلية أسقط في يده: فقال: «كنت على اتصال برجال الشرطة مدة خمسة وعشرين عاماً ولكني لم أجد إشارة واحدة تدل على أن ثابت كان أكثر مما أراد التظاهر به .

وعندما إنتحل ايلي شخصية كامل ثابت كان عمال الموساد في الأرجنتين يراقبون كل التطورات التي يحتمل أن تكشف غطاءه ، وكانت

حرب المخابرات الدائرة بين الدول العربية وإسرائيل لا تقل عنفاً في الأرجنتين عما هي في الشرق الأوسط . ففي شهر أيار الماضي كان أدولف إيخمان قد اعتقل في بونوس أيرس وأرسل في الطائرة إلى إسرائيل . وكان موظفو الموساد يشعرون أن ليس من السهل التغلغل بالأوساط العربية في اعقاب إختطاف إيخمان إلا إذا اتخذت الاحتياطات الكافية لمواجهة كل احتمالات التحري والتدقيق . وعلى أساس هذه الاحتمالات كانوا يعتقدون أن قصة أمين ثابت ستؤتي أكلها .

ولما كان ثابت تبعاً لهذه القصة لبنانياً من أصل سوري في إنتظار ميراث كبير فقد كان يتحرك بحرية حيث يجتمع السوريون . وكان المد والجزر في حياة المغترب في بونوس أيرس يرتكز على الفنادق والمطاعم والنوادي الخاصة والحانات والمسارح . ففي هذا الوسط استطاع ثابت أن يلتقي بسوريين من أصحاب النفوذ وسرعان ما أصبح الأعزب الجميل محبوباً من السيدات ، وقد كسب بتواضعه وما يمتاز به من روح النكتة صداقة الرجال ، وأهم من هذا كله أن الذين تعرفوا عليه كانوا مقتنعين بوطنيته الصادقة واهتمامه بالتطورات التي تقع في العالم العربي واستعداده لتقديم المساعدات إلى شعبه .

وبينما كان ايلي يشق طريقه على الصعيد الإجتماعي ، كان من جهة أخرى يعزز غطاءه بفتح حساب وتأسيس اعتماد في الفرع المحلي للمصرف السوري اللبناني . فقد استطاع عمال الموساد في بونوس أيرس أن يقيموا بواسطة رجل أعمال يهودي من السفرديين أسس التعارف بين ايلي ومدير المصرف موريس عزيز الذي كفل شخصياً أمين ثابت ، وكانت العلاقات بين العرب واليهود في الأوساط التجارية الأرجنتينية ودية دائماً . وكان السفارديون اليهود قد لعبوا في الماضي أدواراً بارزة في تطوير المنظمات العربية غير السياسية ، حتى إن بعضهم كانوا أعضاء في اللجان التنفيذية . والمساعي التي بذلها الدبلوماسيون العرب ومندوبوهم في الجامعة العربية لتنمية روح العداء ضد الصهيونية وتخريب تضامن اليهود مع إسرائيل

عكست كثيراً من المضاعفات على الصعيد الاجتماعي . غير إن بعض الصداقات القديمة ظلت قائمة وغير معروفة بالنسبة لايلي الذي حصل بواسطتها على اعتماده المصرفي .

وزار أمين ثابت مكان جريدة العالم العربي بحجة رغبته بالاشتراك فيها ، وهي مجلة أسبوعية يدعمها السوريون ويقرؤها العرب الآخرون . فدفع أربعمائة وخمسين بيزوس اشتراكاً سنوياً ، وراح يتحدث مع صاحب المجلة عبد اللطيف الحسن الذي يبلغ من العمر ستين عاماً ويراسل عدداً من الصحف السورية ، وهو واحد من أقدم رجال الدولة (...!) في الجالية العربية . وتحدث الحسن في وقت لاحق عن اجتماعه الأول بايلي فقال :« قال لي أمين إنه كان وحيداً وإنه جاء من الاسكندرية ، وأطلعني على جواز سفر مصري ليثبت لي حقيقة ما يقول ، ولكنني لا أعرف كيف حصل على ذلك الجواز » . وكان مع كامل بالإضافة إلى هذا صور فوتوغرافية عن نفسه وعن أبويه المزعومين ، وكانت كلها عبارة عن – مونتاج – رائع أحكم صنعه في بونس أيرس .

وقامت علاقات من الصداقة المتينة مع الحسن على أساس من تبادل المصالح على المشاكل العربية ، وراح السوري الشاب يعرض وجهات نظره في القومية العربية، مما كان له تأثير على رئيس تحرير المجلة الذي حثه على زيارته دائماً ، وقال له نريد أن نراك هنا . وهنا زوده ثابت برقم الهاتف وكان يتلقى منه باستمرار دعوات لزيارة مكتبه .

وأدت الصداقة مع صاحب مجلة العالم العربي إلى عضوية في الجمعية الإسلامية : **Acociacion islamica** وفي النادي الإسلامي الذي يقع في كال بوغوتا رقم ٣٤٤٩ ثلاثة آلاف وأربعمائة وتسعة وأربعين إلتقى ثابت بسليمان الأحمد وهو رجل من أصحاب الأعمال المحليين ، كان يتكلم الاسبانية بصورة ضعيفة ومتقطعة على الرغم من أنه قضى أكثر أيام طفولته في الأرجنتين . وقال سليمان وهو يتذكر :« كان إبتداء من ذلك اليوم يحضر إلى هنا كل ليلة يشرب القهوة ويلعب الورق ».

ولم يجد ثابت صعوبة كبيرة في أن يشق طريقه إلى أحمد وإلى نياته الطيبة واعترف أحمد فيما بعد : (لقد أحببته منذ اللحظة الأولى التي قابلته فيها) وكان الذين يعرفون أحمد كثيرون بمثل الذين يعرفون الحسن . إذ قدم ثابت إلى شخص يدعى كابالان خليل نائب رئيس الجمعية وهو تاجر غني بارز يقوم بعمليات تجارية واسعة في العاصمة . وعلى الرغم مما لقيه ثابت من اهتمام خليل به ، وربما بسبب هذا الاهتمام كانت أجوبة التاجر على الأسئلة التي تتعلق بثابت تعكس المرارة والإستياء ، وفي إحدى المرات بدا وكأنه قد أصيب بخيبة كبيرة حين قال : « لم ينعكس في نفسي إنطباع حسن عن ثابت فقد كان يتكلم قليلاً ويتاجر في أغلب الأحيان بميراثه الذي لم يحصل عليه بعد » .

ووافق خليل على أن ثابت كان أنيقاً في لباسه وأنه كان لا يوفر رقصة واحدة وكان يقضي بعض ساعات راحته بعيداً عن الجالية ، كان غالباً يجتمع بالأشخاص الذين يعمل معهم . وقال شريك السنيور كارسيا وهو يتذكر : « كنا نبدو وكأننا عائلة صغيرة نتناول الغداء سوية في أيام السبت ، وكان ثابت يؤثر تناول الأسادو (باريكيو) وكان أكولاً بل كان يأكل كالحصان . هذا ما قاله شريك السنيور كارسيا وهو من باراغواي ويفضل أن يبقى اسمه مجهولاً . وكان أمين يحب المهرجانات ويحب النساء الناضجات ويجن بمباريات كرة القدم ، هذا ما أكده ريكاردو ، وهو أحد كتاب المحل وكان يخرج كثيراً مع ثابت .

وكان كثيرون من أفراد الجالية العربية ينظرون إلى ايلي كقائد مرتقب إذا عاد إلى سورية ، فقد تبنى النظريات والأفكار المناوئة للصهيونية ، وأظهر إهتماماً شديداً بالقضية التقدمية للقومية العربية عندما أصبح عضواً عاملاً في حركة الشباب العربية الأرجنتينية والتحق بحركة الثقافة السورية (وبجمعية الجامعة العربية) .

وبإشارة من عبد اللطيف الحسن راح إسم أمين ثابت يضاف إلى قائمة المدعوين لأكثر حفلات الإستقبال التي يقيمها الدبلوماسيون العرب ،

وأصبح وجهاً معروفاً ومألوفاً في الحفلات والمآدب والسهرات التي تقيمها الجمهورية العربية المتحدة ، كما كان ضيفاً يلقى الترحيب في القنصلية العامة اللبنانية في كال مارتين . وفي أكثر من مناسبة كان ثابت يشاهد برفقة سفير الجمهورية العربية المتحدة أحمد عبدالله طعمة ، كما كان يلتقي في هذه الاجتماعات بالملحق العسكري في الجمهورية العربية المتحدة أمين الحافظ ، وهو عقيد في الجيش السوري وصديق حميم لعبد اللطيف الحسن . وكان ثابت يزور الحافظ في مكتبه في الطابق الثاني من شارع أفينيدا فيامونته قبل أن يستدعى العقيد إلى القاهرة ، غير أن الرجلين ـ ثابت وحافظ ـ قد تحدثا في مناسبات كانت كافية ليتأكد ثابت أن ولاء الحافظ كان لحزب البعث الاشتراكي الممنوع .

وكان ايلي يرسل تقاريره عن كل ما يحققه من نجاح في إتصالاته بالموظفين الرسميين من الجمهورية العربية المتحدة إلى رؤسائه في مقر قيادة الموساد ، المخابرات الإسرائيلية . وبعد سبعة أشهر ، وبعد الاقتناع والرضى عن التقدم الذي أحرزه ايلي أصدرت تل أبيب تعليماتها إلى إبراهام بأن يبلغ ايلي إنه قد أنهى المرحلة الأولية من مهمته . وفي الأسبوع الأول من شهر أيار أخبر ايلي دونا كارمن والسنيور كارسيا إنه يخطط للقاء بعمه الذي كان مريضاً، وأحاط أصدقاءه السوريين علماً بأنه ذاهب ليتولى شؤون الميراث والقيام بجولة في البلاد العربية قبل أن يقيم نهائياً بسورية . وفي الثالث عشر من الشهر ذهب للقاء الحسن في مكتبه في شارع كمبانه ٦٢١ حيث دفع اشتراكاً لسنة أخرى، وحصل على كتب توصية وتعريف لإبن الحسن الذي يدعى كمال ولإبن عم في الإسكندرية ولصاحب مصرف في بيروت وصديق حميم في دمشق هو النائب العام حبيب غريب **Habib Kharib** . وزوده خليل بكتب توصية أخرى إلى أقرباء كانوا يشغلون مناصب هامة في لبنان وسورية ، كما أن هناك رسائل فرضت على ثابت من قبل أصدقائه السوريين . وهذه التوصيات من أشخاص لا غبار عليهم قدمت براهين إضافية على أن كمال أمين ثابت كان شخصاً موجوداً وأنه كان معروفاً من القطاعات ذات النفوذ في

الجالية العربية في الأرجنتين .

وكان الموظفون في سفارة الجمهورية العربية المتحدة يشعرون بالرضى عندما زودوا ايلي بسمة ترانزيت إلى مصر كما إن القنصل اللبناني منحه على الفور تأشيرة دخول مدتها ستة أشهر . وبعد أن أتم ثابت ترتيباته وصل إلى المطار بتاريخ ١٦ أيار ١٩٦١ يرافقه عدد من أصدقائه الخلص، وودعه السوريون بالعناق والقبلات على الطريقة العربية، وبعد ربع ساعة امتطى الطائرة إلى لندن في طريقه إلى تل أبيب .

الرحلة الى دمشق

بعد توقف قصير في لندن وزوريخ وصل ايلي بإحدى طائرات اللوفت هانزا إلى ميونيخ ليعقد محادثات مع رئيس الشعبة هناك . وكان ممثل الموساد يدعو نفسه سالينكر كما كان ملحاً في أسئلته إلى درجة غير عادية ، حتى إنه حوّل المقابلة إلى جلسة إستجوابات مرهقة . وعلى الرغم من إطلاعه على كل تقارير ايلي الدورية ومعرفته للمهمة التي قام بها في بونوس أيرس كان يلح على معلومات إضافية وكان على ايلي أن يقضي القسم الأكبر من اليوم الأول وليله في غرفة ضيقة من أحد الفنادق وهو يجيب على الأسئلة ، حتى إن عشاء مستعجلاً في مطعم قريب لم يوفر له فترة من الراحة .

وقبيل الفجر أنهى سالينكر إستجواباته بالشكل المفاجىء التي بدأها طالباً من ايلي أن يعد تقييماً مفصلاً عن الجهود التي بذلها لتوطيد غطائه. وهنا جرت عملية تبادل : إذ سلم ايلي لسالينكر أوراق إعتماد كامل أمين ثابت ، ووثائقه الثبوتية الأرجنتينية وملابسه وإستلم بالمقابل قطعتين من الأمتعة ، طقمان ، قمصان ، ألبسة داخلية وفرشاة أسنان . وكان فوق الثياب التي حزمت بأناقة جواز فرنسي بإسم منتحل . وقد قال ايلي لصديق له في الموساد فيما بعد : «كان إنفراجاً عظيماً إنني استعدت نفسي مرة أخرى ، فالتوتر الذي ينشأ عن إنتحال هوية ثانية بدا لي وكأنه غير قابل للاحتمال .

ونزلت طائرة شركة الأير فرانس في مطار اللد في صباح يوم الجمعة في آخر أسبوع من آب ١٩٦١، وكان في إنتظاره خارج قسم الجمارك جدعون الذي ودع ايلي قبل ثمانية أشهر ، وخلافاً لسالينكر لم يكن يحمل

قناعاً رسمياً وإنما راح يكيل له المدائح حول نجاح مهمته في الأرجنتين . وفيما عدا المحادثات الودية على الطريق إلى تل أبيب لم يكن هناك أي حديث حول المستقبل . ووعد جدعون أن لا تكون هناك مقابلات فورية واقتاده رأساً إلى بيت يام .

ولم يكن الترحيب الذي لقيه ايلي من ناديا يحمل شيئاً من شعور الإرتياب ، فالشكوك لم تكن قد خامرتها في الأسباب الحقيقية لغيابه . وكانت ناديا لا تزال مطمئنة إلى إعتقادها أنه كان يعمل في أوروبا لحساب المشلاشات هاكيموت Mishlachat Hakmiot وكانت المخاوف التي قد تشعر بها أثناء غيابه تنمحي بالبطاقات البريدية التي كانت تصلها باستمرار من ألمانيا وسويسرا وبلجيكا وفرنسا (هذه البطاقات كتبت قبل رحلة ايلي إلى بونس أيرس كما كان يضعها في البريد سالينكر وعملاؤه بالتاريخ الذي كتبت فيه الرسالة) . كما أن الدفعات بالشيكات كانت تصل إلى ناديا بانتظام والهدايا التي جلبها ايلي معه أقنعت العائلة أنه كان في مهمة عادية تتعلق بشؤون الحكومة ، والزيارة التي قام بها جدعون لمقابلة زوجها في أول أُسبوع من وصوله لم تثر شكوك ناديا لأنها كانت تحت ستار من الصداقة . غير إنه قبل أن يذهب إنتحى بإيلي جانباً ليبلغه الأمر بالإتصال بشعبة العمليات من أجل مرحلة أُخرى من مراحل التدريب . وكانت الشقة في شارع اللنبي هي ذاتها مسرحاً للفصول المبدئية الجديدة حيث كان عليه أن يعيش طوال مدة إقامته في تل أبيب ، أما بالنسبة لناديا فقد قال لها إن عليه أن يرحل مرة أُخرى .

وكان يهوذا المعلم في قسم المواصلات في الجيش هو الذي قاد المرحلة الأولى من مراحل تطرية الذهن فيما يتصل بموضوعات سبق له درسها . وبإشراف يهوذا هذا تمرن ايلي على شيفرة المورس ساعات طويلة كل يوم إلى أن تحكّم في المهنة وزاد معدل إرساله من ثمانين إلى مئة كلمة في الدقيقة ، وهي سرعة مؤثّرة بالنسبة لعميل لم تكن له تجربة سابقة في الميدان . وعلمه يهوذا كذلك كيف يفكك أو يصلح أنواعاً

جديدة من الأجهزة الإذاعية الصغيرة ذات الموجة القصيرة وهو معصوب العينين . وكان ايلي يدرس خارج الدرس مخططات ويحفظ موجات وبرامج أوقات يحتمل أن يحتاج اليها في وقت ما ، ثم إجتاز بعد ذلك تمارين مع فنيين كان عليهم أن يعرفوا الفوارق الدقيقة في جهازه بحيث يستطيعون أن يكتشفوا فوراً شارات إرساله عندما يقوم بعملية البث، ثم إجتاز فصولاً أخرى تتعلق بالكتابة السرية تلتها فصول حول رموز الشيفرة وحل هذه الرموز .

والتجارب التي حصل عليها ايلي عن طريق الهواية كانت لا تقدر بثمن ففي حقل التصوير اضطلع على أحدث وسائل المخابرات ، واستطاع بالتسهيلات التي قدمها مختبر الموساد أن يصغر مئات الوثائق إلى حجم نقطة الآلة الكاتبة ، كما استطاع أن يتحكم في طريقة النقاط المصغرة وهي الطريقة المعقدة التي اخترعها الألماني أبوير **Abwehr** (المخابرات العسكرية) ، وفي الوقت نفسه أنهكته الدراسات الخاصة بالتعرف على هويات الوحدات السورية والأسلحة السوفياتية إلى أن أصبح قادراً على أن يميز بنظرة واحدة بين الشارات المختلفة ، وأنواع الأسلحة الروسية دبابات وطائرات . وزودته المودين بمعلومات أوسع عن تنظيمات جيش الجمهورية العربية المتحدة وقادته ، كما درّبته الشين بيت على تمارين أكثر تعقيداً تتعلق بتعقب الآثار وبالرقابة السرية . وأشرف معلمون من المظليين على تمرينه في الشؤون الخاصة في تحديد الأهداف وأعمال التدمير .

وفيما تبقى من العام عمل ايلي بجد في الشعبة السورية التابعة للمخابرات الإسرائيلية بحيث هضم التقارير والتحاليل لجماعة المخابرات في الإقليم الشمالي من الجمهورية العربية المتحدة ، وقد تناولت الملفات درساً لجميع أوجه الحياة السورية : سياسية وعسكرية واجتماعية واقتصادية . وعندما مر ثانية على هذه المواد المرهقة تأكد أن ذاكرته لا تستطيع أن تحيط بكل الحقائق غير أن الاختبارات المفهومة كشفت عن قدرته على امتصاص كل المعلومات المتعلقة بـ« من هو ذا في سورية» واستطاع تقريباً أن يستظهرها

إلى جانب تفاصيل عن الأسرار الفردية ذات العلاقة بالشخصيات الكبيرة في سورية سواء سياسية أو عسكرية .

وخططت برامج التدريب الحادة على أساس الإفتراض بأن ايلي سيدخل الإقليم الشمالي بوصفه الوحدوي المتحمس والناصري كامل أمين ثابت ، ولكنه لم يكد يتعرف على هذا الغطاء السياسي من شخصيته حتى وقع حادث لم يكن ينتظره أحد ، فبعد دقائق من الساعة الخامسة من صباح يوم الخميس الواقع في ٢٨ أيلول إستيقظ ايلي على جرس الهاتف وهو يرن بمخابرة من رئاسة الشعبة السورية في المخابرات، التي أحيطت علماً من قبل الضابط المناوب في قيادة الموساد أن إذاعة دمشق بدلاً من أن تفتتح بتلاوة من القرآن كما هي العادة ، أذاعت عند الساعة الرابعة بلاغاً صادراً عن مجلس قيادة الثورة التابع للقوات المسلحة يعلن أن سورية لم تعد جزءاً من الجمهورية العربية المتحدة فوعد ايلي بالحضور إلى المكتب على الفور .

وفي الساعة السادسة والنصف قبل مغادرته المنزل أصغى إلى الأخبار من إذاعة إسرائيل، غير إن هذه الإذاعة في برنامجها العبري والعربي ذكرت الإنقلاب بتعابير متحفظة وقد هزت ايلي هذه التطورات ، فالموساد والمودين على الرغم من إطلاعهما على العداء المتزايد للمصريين في الإقليم الشمالي وعلى المؤامرات التي يحيكها أعداء الناصرية ، لم يكن هناك من يتوقع إنقلاباً يؤول فيه الحكم الى معارضي الوحدة، فهيبة عبد الناصر لا تزال في الأوج ، وكان في إعتقاد الموساد أن أقوى خصومه غير قادر على أن يعلن عن نفسه . نعم إن المخابرات الإسرائيلية كانت تتوقع حدوث إضطرابات من جانب القوى اليمينية غير إن المحللين في المخابرات كانوا ينتهون دائماً إلى التأكيد بأن كل حركة ضد الوحدة لم يكن لها سوى القليل من إحتمالات النجاح .

ووصل ايلي إلى مقر قيادة الموساد خلال ساعة، وراح من هناك يتتبع أنباء الإنقلاب بدقة . فقد أدى الإنفصال بين البلدين السوري والمصري

إلى تغيير كل التوجيهات الخاصة بمهمة ايلي . إذ كان عليه أن يتحول من ناصري مهاجر إلى وطني سوري غيور ، ولكي يحصل ايلي على هـذه الهوية السياسية كان من الضروري تحليل كل التفاصيل الجديدة ، ولما كان الصراع بين سورية ومصر على أمواج الأثير قد شن بالحدة ذاتها ، فإنه لم يكن من الصعب متابعة أخبار الحركة من تل أبيب . وكان ايلي يراجع بواسطة جهاز مستقبل الجهاز الإذاعي المرسل من دمشق ومن صوت العرب ، كما كان يتلقى ساعة فساعة التقارير عن محطات الاذاعة الأخرى وخاصة راديو بيروت ، كما كان يشاهد برامج الأخبار من محطات التلفزيون على الشاشة في غرفة المراقبة ، وبالاضافة إلى الصحف الأجنبية كان يقرأ التحاليل والبرقيات الموجزة التي تصل من عملاء في سورية ومصر ولبنان ، وما كاد ينتهي النهار حتى برزت صورة واضحة عن الموقف في دمشق .

جرت الحركة الإنقلابية كما جرت الحركات السابقة بتدبير من العميد عبد الغني دهمان قائد حامية دمشق ، واللواء موفق عصاصة نائب قائد القوات الجوية ، تؤيدهما الفرقه المدرعة ٧٢ وأربعة عقداء تمركزت قواتهم من المشاة والفدائيين والقوات الجوية ورئاسة الأركان في العاصمة وفيما حولها . كانت استراتيجية الثوار بسيطة : ذلك أنه جرياً على الأسلوب المتبع في الاستيلاء على السلطة عام ١٩٤٩ خططوا لاحتلال المباني الهامة في دمشق وأوقفوا رجال القيادة الحالية . فإذا نجحت الخطة التحقت حاميات أخرى بالثوار ، وعندما يستولي الجيش على السلطة فإن السياسيين سيتبعونهم بكل تأكيد .

وكان على المتآمرين أن يلتزموا جانب الحذر الشديد وكان يقود الجيش الأول للجمهورية العربية المتحدة (وكان يدعى قبل ذلك القوات السورية المسلحة) الفريق جمال فيصل ، وهو أحد مساندي عبد الناصر المخلصين وصديق حميم لممثله الشخصي في الإقليم الشمالي نائب الرئيس اللواء عبد الحكيم عامر ، وكان فيصل كنائبه المصري اللواء أنور القاضي

شديد الحماس للوحدة ، فقد نفذ دمج القوات المسلحة السورية والمصرية ، وقبل في قيادته الضباط المصريين ، وكان غيوراً في محاولاته للمحافظة على المولود الجديد وجعله فعالاً . وكانت هذه السلطة العسكرية وكذلك الحكومة المدنية التي تسندها هي الهدف الذي عمل المتآمرون على قلبه . وصدرت الأوامر إلى قوة مؤلفة من ثلاثمئة جندي التزموا جانب الفريق العسكري لدخول دمشق قبل نصف ساعة من منتصف الليل ، وعند الساعة الواحدة صباحاً زحفت وحدة من الدبابات من معسكرات قطنا ، وهي أكبر قاعدة عسكرية في سورية وتبعد سبعة عشر كيلومتراً إلى الجنوب من العاصمة. وبعد نصف ساعة بدأت العربات المصفحة والسيارات التي تحمل المشاة تشق طريقها باتجاه الشمال من معسكر المزة . وفي الوقت نفسه تقريباً تركت قوة من حرس البادية معسكر الضمير الذي يبعد ٣٩ كيلومتراً إلى الشرق . وفي قاعدة حرستا الجوية كان سرب من طائرات الميغ سبعة عشر مستعد لنسف المنشئات العسكرية التي قد تلتزم جانب المقاومة .

وفي الساعة الواحدة والنصف بدأت كل الوحدات بالتحرك إلى مراكزها ، وقامت فصائل بحماية المطار وسجن المزة ، وأُقيمت متاريس في الشوارع بالقرب من وزارتي الصحة والتعليم ، وأحاطت بالجامعة السورية في شارع فلسطين والساحة المقابلة لخط الحجاز ، كما أحاطت وحدات مدرعة بالبرلمان وبالمصرف السوري ونادي الضباط بشارع العفيف في الصالحية ، بينما احتلت الشرطة العسكرية قصر العدل ومقر الدرك والمحافظة في دمشق .

ووقعت المناوشة الأولى في الساعة الثانية صباحاً . إذ داهمت قوات البدو دار البريد والهاتف وأطلقوا النار في عدة دفعات على الحراس ثم احتلوا المبنى ، واستسلمت قبضة من الجنود التي كانت تحرس محطة إذاعة دمشق بعد مقاومة طفيفة . وفي الوقت نفسه تقدمت دبابتان سوفياتيتان من طراز ت ٥٤ في حدائق سراي الحكومة التي كانت تضم مكاتب

الحكومة المركزية . وراحت مدافعها تصوب فوهاتها على المدخل . وعندما رأى الحرس أن الأرجحية ليست في جانبهم ألقوا سلاحهم بدون قتال . وسدت دبابة أُخرى يرافقها عدد من السيارات المصفحة الطريق في شارع الجمهورية مغطية بذلك مخفر الشرطة المركزي الذي لم يبد أية مقاومة . وجرى إتِّباع الخطة ذاتها في وزارة الدفاع ومقر قيادة الجيش ، حيث صدرت طلقات من الطابق الذي يقيم فيه المكتب الثاني ، وبعد أن أعلنت الوعود بمكبرات الصوت بأن أرواح الوحدويين ستصان إستولى المهاجمون على المبنى .

وفي هذه الأثناء زحف المقدم عبد الكريم النحلاوي مرافق المشير عبد الحكيم عامر ، وشريكه في المؤامرة حيدر الكزبري على مقر الرئاسة في المهاجرين على رأس ستة من حرس البدو. فصعدوا سلم القصر وهم يطلقون النار على الحراس وحاول حرس المشير وهم من الألبانيين المقاومة ولكنهم أُبيدوا بعد معركة دامية وصلت إلى القصر خلالها تعزيـزات جديدة .

واقتحم المقدمان غرفة نوم المشير باسم القيادة العليا لمجلس الثورة الذي « يمثل سورية الحرة مستقلة » . وصرخ عامر غاضباً ومحاولاً الخروج غير ان فوهة النار سددت إلى رأسه . وقال له أحد الضابطين : « لا تضطرني لاستخدام العنف فنحن لن نتأخر عن شيء لتحقيق حريتنا » .

وأُلقي بعامر في السيارة وهو في بيجامة النوم واقتيد إلى رئاسـة الأركان ، وعهد به إلى مكتب تابع لقيادة الجيش الأول حيث وضـع تحت الحجز وكان في انتظاره فيصل والقاضي .

وبعد أن وضع القواد الثلاثة الذين يشغلون أرفع المراتب في الجيش الأول في الإقليم الشمالي كرهائن، شعرت شرذمة الضباط الستة ببوادر الثقة . وسرعان ما اتصل أفرادها بالقواد المحليين الذين يعطفون عـلى قضيتهم وطلبوا النجدة لإخضاع خمسة آلاف من الجنود المصريـين

المتمركزين حول دمشق ، وعرض الجميع تقريباً مساعدتهم الفورية . وعند الساعة الثالثة صباحاً تمت سيطرة الإنقلابيين على جميع المؤسسات الرئيسية . وهنا أُرسلت فصائل خاصة لتوقيف السياسيين الموالين للجمهورية العربية المتحدة . وكانت هناك بعض حالات المقاومة فصدرت طلقات نارية متقطعة من رشاشات بعض الوحدويين المتحمسين مما عكر مــزاج الدمشقيين الذين كانوا لا يزالون يغطون في نوم عميق .

وفي الساعة الرابعة صباحاً كانت منطقة دمشق كلها في أيدي الثوار ، وشعرت الشرذمة العسكرية بالإطمئنان الذي كان كافياً لإستدعاء قواد المناطق من مختلف أنحاء البلاد وإطلاعهم على الحركة الإنقلابية ومطالبتهم بالإنضمام اليها . واستجابت الأكثرية على الفور مصدرة بيانات الطاعة والولاء .

واستمع أكثر السكان إلى أنباء الإنقلاب في ساعات الفطور مــن محطة دمشق ، وتلا المذيع التسعة عشر بلاغاً التي صدرت عن مجلس قيادة الثورة وهي تحيط السوريين علماً بأنهم أُنقذوا من الإضطهاد المصري . وكانت هذه الإذاعة هي التي حملت الضابط المناوب في مقر قيــادة الموساد على الإتصال برئيس الشعبة السورية الذي قام بدوره بإشعار ايلي بالحادث .

وفي خلال ساعة صدرت عن الجيش ثلاثة بلاغات أُخرى تهــدد باتخاذ إجراءات صارمة ضد المخربين والمتآمرين ، وتحض المواطنين على « معاملة الإخوان المصريين بشهامة وعناية وإخلاص » . وكانت جميع الموانيء والمطارات قد أُغلقت بموجب البلاغ رقم ٤ .

ودفعت أنباء الإنفصال السوريين إلى الرقص في الشوارع والمدن والقرى ، وكان المتظاهرون يهتفون : « كانت عوجة وعدلناها » . ومن قبائل الدروز في الجنوب وحتى اليزيديين من عباد الشيطان في الشمال ، بدت سورية بجميع مواطنيها وكأنها تعانق الثورة . وأقدمت الجماهير في

كل مكان على تمزيق علم الجمهورية العربية المتحدة المؤلف من الأحمر والأبيض والأسود مع نجمتين خضراوين ، ورفعت بدلاً منها الأعلام السورية المثلثة الألوان مع ثلاثة نجوم حمراء في كل مكان من البلاد .

وفي الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والأربعين أسرع الرئيس عبد الناصر إلى الإستديو رقم واحد من محطة صوت العرب ليقص على الشعب المصري رواية الأزمة . (إن ما حدث في سورية اليوم هو أخطر بكثير من أي شيء حدث حتى الآن ... فقد خان الثوار في دمشق المثل العربية العليا وهم ليسوا سوى جماعة من الرجعيين والإنفصاليين) ثم تحدث عن الشرذمة العسكرية التي حلت الوحدة فصاح مهدداً .. (إنني لن أعلن هذا الحل مهما كان من أمر المتاعب التي سأصادفها ، إن أعلامنا أعلام القومية العربية لن تنزل لقد أصدرت الأوامر إلى جنودنا في الجيش الأول للتحرك إلى دمشق وسحق الثورة) .

وما كاد عبد الناصر ينتهي من حديثه حتى أجابته إذاعة دمشق بسيل من برقيات التأييد من قوات الميدان كما أعلن البلاغ رقم خمسة إنتصار الإنقلاب نهائياً . وقامت وحدات في المناطق الساحلية بمعارضة الحركة ، واعتبر قوادها أنفسهم ممثلين للحكومة المركزية في القاهرة ، وبقي الجنود موالين لضباطهم برغم الوعود التي قطعتها شرذمة الضباط بزيادة الرواتب وهدايا الحلوى ورؤية الأفلام مجاناً كل ليلة » .

وفي مقر القيادة العامة إستمرت المفاوضات مع القادة الموقوفين طوال بعد الظهر ، وشرح ضباط الحركة الأمور التي كانت تسيء إلى الجيش مؤكدين إنه لم يكن في نيتهم الإقدام على الإنقلاب ولكنهم كانوا يعتقدون أن قياداتهم كانت في خطر ، وإنهم يريدون إنقاذ أنفسهم من إشراف القاهرة وتحويل الوحدة مع مصر إلى إتحاد . وإذا استجيب إلى هذه المطالب فإن مجلس قيادة الثورة سيحل نفسه وستستمر الجمهورية العربية المتحدة قائمة .

ورفع عامر مطالب الضباط إلى عبد الناصر وأوصى بأن يوافق الرئيس على إعادة تنظيم القيادة وسحب خمسة عشر ألف جندي من الإقليم الشمالي ، وعودة الضباط السوريين المرتبطين بالجيش المصري ، وقرر الرئيس أن يكسب الوقت فطلب من عامر أن يمضي في المحادثات بينما أقدم على استشارة الوزارة .

وبينما كان ايلي يصغي إلى المهاترات المتبادلة بين دمشق والقاهرة إستنتج أن المفاوضات مع عامر كانت لا تسير سيراً حسناً ، وصرخ راديو القاهرة قائلاً : أيها الإخوة العرب إن وحدتكم في خطر من الأمبرياليين وإسرائيل فعليكم الدفاع عنها . وردت دمشق بتحقيقات عن الطغيان المصري وعن الدكتاتورية .

وفي أعقاب هذه البلاغات صدر البلاغ رقم تسعة لتهدئة أولئك الذين كانوا يعتقدون بأن حركة هؤلاء كانت ناجحة .

إن القيادة العليا لمجلس الثورة لا تريد أن تقطع الطريق على الإنجازات القومية، فقد قدمت بياناً بأهداف الجيش ومشاكله إلى نائب الرئيس القائد الأعلى، الذي تفهم حقائق قضايا الجيش واتخذ التدابير الملائمة لحلها لمصلحة الوحدة ومصلحة القوات المسلحة ومصلحة الجمهورية العربية المتحدة . إن القضايا العسكرية قد عادت الآن إلى مجراها الطبيعي وأنتم تصغون الآن إلى إذاعة الجمهورية العربية المتحدة من دمشق .

أما القاهرة التي اختلطت عليها الأمور فقد أعادت إذاعة نداء رئيس الجمهورية الصباحي بينما عادت دمشق إلى إذاعة بلاغاتها السابقة وبياناتها، وذلك حتى الساعة الثانية والدقيقة الخامسة بعد الظهر، عندما صدر بلاغ شرذمة الثوار رقم عشرة ليقول للسوريين الذين سادتهم الحيرة والإرتباك : إن عامر الذي تعهد بالتخلص من الإنتهازيين والمخربين قد تراجع عن عهده، وإن البلاغ رقم تسعة قد ألغي وفرض منع التجول وأمر جميع العسكريين السوريين المأذونين بالإلتحاق بوحداتهم .

والحقيقة أن الثوار كانوا قد اتفقوا مع عامر على إعادة الخناجر إلى أغمادها حتى يستمر جريان المياه كعادتها ، غير ان الفريق بينما كان يتابع المحادثات وفاقاً لما تلقاه من تعليمات راح يطالب ناصر بتعابير غامضة لإرسال النجدات، غير أن الفنيين الذين كانوا يستمعون إلى هذه الإتصالات أحاطوا الشرذمة الثورية بها علماً، وعندما تبين لهذه الشرذمة بأنها خدعت أقدمت على قطع المحادثات وأنذرت المشير بأن عليه أن يغادر سورية في مساء ذلك اليوم . وسمح لعامر باتصال أخير وفيه قال للرئيس بصراحة : «لقد ضاعت الوحدة وخرج السوريون منها» .

وفي الساعة الخامسة بعد الظهر قام ممثلو الثورة بمرافقة عامر وفيصل ووزراء الجمهورية العربية المتحدة إلى المطار ، وبعد وداع رسمي ودي سمح لطائرة نقل عسكرية بنقلهم إلى القاهرة ، وبعد دقائق من سفر الطائرة أذاع راديو دمشق أن نظام الطغيان قد إنتهى .

وعندما فتح ايلي الراديو على إذاعة صوت العرب لم يسمع أي خبر أو بلاغ يؤكد ما أذيع من سورية ، وإنما استمع فقط إلى أصوات المرشات العسكرية . أما أسباب الصمت فقد أوضحها ناصر عن طريق الإذاعة عند الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر، فبعد أن دافع عن أهداف الوحدة قال للمستمعين : «إن حركة شعبية هي الآن في طريقها لإنقاذ الجمهورية العربية المتحدة ، إن الشعب السوري يقاتل الآن في الشوارع لإعادة الوحدة، وأنا شخصياً غير قادر على حل الجمهورية العربية المتحدة ، إن ذلك يقع فوق سلطتي ، أنا مسؤول تجاه كل سوري وكل مصري وكل عربي عن حماية الجمهورية العربية المتحدة، وإنني أطالب كل ثائر أن يكرس في سبيلها نفسه وروحه وقلبه وضميره ، وعلى كل ثائر أن يتحمل مسؤولية العصيان الذي أقدم عليه ، والذي يؤثر بسلامة هذه الجمهورية ومستقبلها وكفاح أبطالها الشجعان من أجل الحرية والعدالة» .

وصدر قرار خاص على الفور بإعفاء الضباط الستة الثوار من قياداتهم فأجاب السوريون ببلاغ رقم ثلاثة عشر ساخرين من قرار الإعفاء هذا .

وكان رد فعل عبد الناصر سريعاً إذ تدفق ألفان من الجنود المصريين إلى الإسكندرية وركبوا في سفن تجارية، وفي ساعات المساء المبكرة أقلعت قوة من البحرية المصرية في إتجاه اللاذقية ، وكانت المنطقة الساحلية لا تزال في أيدي الوحدويين . لذلك خطط عبد الناصر لهجوم معاكس للاستيلاء على المناطق التي وقعت في أيدي العصاة . وما كادت دمشق تعلم أنها أصبحت عرضة للهجوم حتى أصدرت بلاغاً يفرض منع التجول بعد الظلام، وكان على كل الحدود والموانىء والمطارات أن يحكم إغلاقها عند الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والثلاثين بعد الظهر ، وهكذا إنسحبت سورية التي شعرت بالأمن في ظل العصاة باحثة عن ملجأ لها بين مفاجآت الليل .

وبينما كان الأسطول المصري يتخذ مراكزه على طول الشاطىء السوري وتستعد وحدات المظليين للالتحاق بقوات الوحدة بحلب واللاذقية ، قامت وحدات مؤيدة للثوار بالإغارة على محطة الإذاعة في حلب وأسكتت الإذاعة بأنشودة النصر « ناصر المحبوب محب المصريين والسوريين » ، وتلا ذلك عودة إلى تقريع مطول : « الطاغية عبد الناصر الذي كان يريد شراً بالأمة العربية » . وبعد قتال دارت رحاه في شوارع المدينة انضمت حامية حلب أخيراً إلى جانب العصاة، أما إذاعة اللاذقية فقد أرغمت على الصمت عند منتصف الليل، وسقط آخر معقل للجمهورية العربية المتحدة في الإقليم الشمالي في أيدي الثوار .

وقام رجال المخابرات المصريين في المنطقة ببث أنباء هذا الفشل إلى رجال المخابرات العسكرية في مصر ، فأحيط الرئيس عبد الناصر علماً بها وسحب أمراً بنزول قوته البحرية في الشواطىء السورية (نزلت كتيبتان من الفدائيين في شمال اللاذقية لأن الأمر وصلها متأخراً فأرغمت على الإستسلام) وقال ناصر بعد ذلك وهو يشرح أسباب إنسحابه : « إن العرب لا يقتلون عرباً »، أما السبب الحقيقي من وراء قراره فهو يتعلق بشؤون تموين الجيش ، ذلك إن القوات المصرية لم تكن مزودة بما

يلزم لعمليات نزول واسعة وليست لديهم قدرات برمائية للهجوم ولا رجال يكفون للصمود في بلد معاد يبعد عنهم مئة وخمسين ميلاً . وفي يوم السبت ٢ تشرين الأول أعلن المجلس الأعلى للقيادة الإستقلال عن الجمهورية العربية المتحدة وإنشاء الجمهورية العربية السورية ، متهمة عبد الناصر بكل شيء إبتداء من «الدكتاتورية» وحتى « الإجرام » . وأعلن المجلس أن سورية إذا هوجمت فهي على إستعداد للقتال حفاظاً على حريتها . وفي وقت متأخر من ذلك اليوم سلم العسكريون زمام السلطة إلى حكومة من المدنيين يرأسها أستاذ في القانون متخرج من جامعة السوربون عمره أربعون عاماً واسمه مأمون الكزبري . وأقدم الكزبري وكان وزيراً سابقاً للعدل على تعيين حكومة إنتقالية مؤلفة من ١١ وزيراً ، ووعد المواطنين بحياة ديموقراطية صادقة وبحكومة شرعية وانتخابات خلال أربعة أشهر .

وبينما كانت الحكومة تتقدم لاستلام السلطة ذهب ناصر إلى مكرفون الإذاعة وكان هادئاً ولكنه حزيناً . وبدأ كلمته قائلاً : « إنني أشعر أن ليس من الأمور الحتمية أن تظل سورية جزءاً من الجمهورية العربية المتحدة ، وإنني أطالب جميع الذين يصرون على بقاء هذه الجمهورية أن يتحققوا أن ما هو مهم في الوقت الحاضر هو الشعب السوري » وهكذا كان الإنفصال بين المصريين والسوريين كاملاً كما قال عبد الناصر. وهو لذلك لن يعارض طلب سورية بالدخول في هيئة الأمم المتحدة أو بالجامعة العربية ككيان مستقل . وكان صوت عبد الناصر متهدجاً عند سطوره الأخيرة ، فابتهل إلى الله أن يحفظ سورية ويبارك شعبها ، غير إنه أضاف محذراً بأن مصر لن تقبل بالنظام الجديد حتى تتأكد من أن هذا النظام يعبر عن إرادة الشعب السوري .

كانت هذه التطورات في الجمهورية العربية السورية ذات أهمية عظمى لإيلي الذي كان يتقدم من نهاية أعماله التدريبية ، ولم تكن الأسابيع القليلة التي أعقبت الإنتفاضة كافية لإعطائه إشارة نحو المجرى الذي ستتجه

اليه الأمور في البلاد . فعلى الرغم من أن القيادة الثورية قد تخلت عن المسرح للسياسيين، فقد كان الموساد يتوقع أن يبقى الجيش الحكم في شؤون السلطة . وقد قال اللواء عبد الكريم زهر الدين : « لقد عدنا جميعاً إلى ثكناتنا وواجباتنا ، وبعد أن أنقذنا السفينة أعدناها إلى الشعب فعليه أن يقوم على قيادتها ، إن السياسة ليست مهنتنا ولا هي في حدود أطماعنا » . ولكنه أنذر على الرغم من هذا بأن الجيش يقف على استعداد للدفاع « عن وطننا ضد المعتدين والمتآمرين والمخربين » .

وفي الأشهر الثلاثة التالية ساد الحياة السورية جو غريب من الغموض فالحكومة كانت منهمكة في نقل سبعة وعشرين الفاً من الجنود المصريين كانوا يعملون في الإقليم الشمالي ، بينما مضى الرئيس الكزبري في تكرار تعلقه بالقومية العربية واقتراحه إتحاداً جديداً مع مصر . أما على الصعيد الداخلي فكان قليلون ما عدا الأثرياء راضين عن الثورة . وعندما كان الرئيس يعلن على الجماهير بأن الإصلاح الزراعي الذي وضعه الرئيس عبد الناصر سينفذ وبأن حصة العمال من الأرباح ستزداد، رفع التأميم عن الصناعة وأعاد آلاف الهكتارات إلى ملاكي الأراضي . وفي هذا الجو غير المستقر للاستقلال المستعاد كان ايلي يستعد للسفر إلى دمشق .

وبعد أن أتم ايلي بنجاح برنامج الخمسة أشهر سمح له بقضاء عطلة نهاية الأسبوع مع عائلته . وفي منزله بعيداً عن عالم التجسس المنعزل ، إنتاب ايلي شعور كامل بأن مهمته ليست مجرد تمرينات ثقافية ولكنها لعبة موت . ولم يكن يعرف الا القليل عن العالم الغريب الذي سيصادفه بينما هو يلعب دور رجل آخر ، وكما قال فيما بعد فقد كان لديه من الشعور الإنساني ما يحمله على الخوف من الاحتمالات القادمة .

وكانت ناديا شديدة الحساسية بمزاجه المتحول ، وخلال فترة الأسبوع كان ايلي شديد الحرص على كتمان مخاوفه ، وحاول أن يضع مشاعره تحت رقابة دقيقة مستعيناً بعادات عمل على تطويرها طوال حياته تتعلق بتجارب مماثلة بغية التركيز على الساعة التي يعيشها والاستمتاع بها ، غير

أن مسعاه لم يكن ناجحاً فقد كان حزيناً كما لاحظت ناديا بعد ذلك عندما غادر إسرائيل للمرة الثانية .

وعند عودته إلى تل أبيب تناقش ايلي مع جدعون حول مهمته بينما كانا يشربان الأكسبرسو في مقهى تشيليت الواقعة في ساحة روتشيلد ، **وقال له جدعون إن هدفه هو أن يتغلغل في المستويات الرفيعة في الحكومة السورية لكي يجمع المعلومات على كل مستوى ، أما جهاز الإرسال والأدوات الضرورية الأخرى فسيسلمها اليه سالينكر في أوروبا ، وهناك سيجتمع بالرجل المعتمد ماجد شيخ الأرض،** وهو سوري ثري من جنوة كما سيتصل به في دمشق جورج سيف ، وهو إبن لمهاجر سوري مسيحي عاد مؤخراً من الأرجنتين وهو يستخدم من قبل وزارة الأعلام ، وكلا الرجلين شيخ الأرض وسيف لم يعرفا شيئاً عن هوية ايلي الأصلية ، وشرح له جدعون قائلاً إنه مقتنع بأنك وطني سوري مناضل ، تمثل مصالـح غلاة المحافظين على وطنيتهم . وهناك قاعدة كانت تتبع في الحرب الصامتة التي تدور في المنطقة وهي إن الخائن الذي يعمل جاسوساً يجب أن يعتقد دائماً بأن الذين يستخدمونه ليسوا أسوأ أعداء بلاده ، وأضاف يقول : **« يجب أن تدخل في روع الذين هم من الجناح اليساري أنك تعمل لحساب شبكة شيوعية وجماعة الجناح اليميني أنك تعمل لحساب منظمات محافظة ،** وأضاف قائلاً إن الذين يتصلون بك من العرب إذا عرفوا هويتك فقد يخونونك لأن إسرائيل في نظرهم الشيطان مجسماً » ، وعلى هذا فقد أصدر جدعون تعليماته إلى ايلي **أن لا يحاول معرفة مكان سيف أو الاقتراب منه إذا التقى به على سبيل الصدفة ، وأن السوريين هم الذين يجب أن يقوموا بالخطوة الأولى .**

وكانت هناك تعليمات اللحظة الأخيرة قبل أن يدعو جدعون ايلي للدخول إلى مكتب ايسر هاريل ، وهو المسؤول الأصلع الصغير الحجم الذي حياه بحرارة بلغة عبرية تشوبها لهجة روسية قوية ، وكان ايسر يرتدي طقماً أنيقاً وقميصاً أبيض مفتوحاً . كما كان يبدو وكأنه في غير

مكانه لما كان يحيط به من مظاهر التقشف ، وقد كان المسؤول راضياً بما أنجز من الأعمال السرية حتى الآن ، فقد وصف البيان التقويمي ايلي بأنه أفضل ما يمكن أن ينتجه التدريب المهني ، ويقال بأن هاريل قد أعرب عن إعجابه بالعزم والصبر الذي نسب إلى عميله ، ثم أعطى موافقته التامة على العملية . ومنذ ذلك الحين أصبح جدعون ضابط هذه العملية ، وكان عليه أن يقوم شخصياً بتوجيه نشاطات ايلي وبمساعدة موظفين مختارين من « شعبة العمليات الخاصة » ، وفي الثامن والعشرين من كانون الأول بعد الظهر اقتيد ايلي من قبل رئيسه المباشر إلى المطار في رحلة يقوم بها إلى ميونيخ عن طريق بروكسل ، وقبل مغادرته سلمه جدعون ظرفاً يشتمل على خمسمائة دولار ، وتمنى له حظاً سعيداً وفارقه بسلام فيه من الحب أكثر مما فيه من الحزن والإشفاق ، فقد بدأ جدعون يشعر بالمودة نحو العميل غير الواثق من نفسه وكان حزيناً لفراقه .

وفي ميونيخ جرى تبادل الوثائق مرة أخرى مع سالينكر إذ أعاد ايلي « جواز الأمن » وتسلم الأوراق الخاصة بكامل أمين ثابت ، وأُعطيت التعليمات بشراء بطاقة في الباخرة الأنيقة أوزونيا وهي الباخرة التابعة للشركة الإيطالية **Etalian Adriatica Line** وقد أبحرت الباخرة عن طريق جنوة إلى الإسكندرية في الثالث من كانون الثاني وكان من المفروض أن يلتقي على ظهر الباخرة بماجد شيخ الأرض، الذي سيتعرف عليه وسيسهل له دخوله إلى لبنان وسوريا .

وبعد ساعات من لقائه بسالينكر غادر ايلي ميونيخ إلى زوريخ حيث أخرج تأشيرة مرور ايطالية وتأشيرة إقامة سورية ، وفي نفس اليوم فتح حساباً باسمه في مصرف محلي وأعطي رقم الحساب إلى واحد من رجال سالينكر كان يتولى الشؤون المالية . وأبلغ أن ودائع مالية ستودع لإستعماله وستنقل عن طريق مصرف في بيروت إلى دمشق تحت غطاء صفقات تجارية مع محلات سويسرية للاستيراد والتصدير .

وقدم له عميل الموساد في زوريخ جهاز راديو صغير جداً « أقوى

الأجهزة وأكثرها تعقيداً في ذلك الحين » يمكنه من إرسال إشارات مباشرة إلى تل أبيب ، وكان الجهاز مخفياً في قسم سري من جهاز للمزج مصنوع في الولايات المتحدة . كما إن سلكاً « أنتين » كان مثبتاً داخل حبل متصل بحلاقة كهربائية . بعد جهد كبير في التركيب أصبح الجهاز صالحاً لأن يدخل سورية على شكل هدية دون أن يلفت الأنظار ، وكان على ايلي أن يرسل رسائل عادية إلى أن يتم تأمين نمط للاتصالات . كما طلب اليه أن لا يستعمل طريقة الشيفرة المرقمة إلا بعد أن يستقر وأن يعمل وفقاً لبرنامج أُعد تنظيمه من قبل . وكتبت رموز الشيفرة بحبر غير منظور على صفائح من الورق الأبيض ووضعت بين قرطاسيته الشخصية، أما المتفجرات الضخمة فقد أُدخلت في أقراص مجوفة من صابون ياردلي . وكان هناك علبة أسبيرين تحوي على كبسولات من السيانيد وكان ايلي يحمل واحدة منها في جميع الأوقات على سبيل الإحتياط . (١)

وقضى ايلي الساعات الأخيرة من عام ١٩٦١ وحيداً في غرفة فندق بزوريخ ثم امتطى القطار السريع إلى جنوة في ٢ كانون الثاني . وعندما وصل إلى الميناء الإيطالي كانت الباخرة واقفة إلى جانب الرصيف ، وقبل أن يستقر في مكانه سحبت الباخرة مراسيها وراحت تبحر في اتجاه نابولي .

وقال ايلي فيما بعد : « وفي صباح اليوم التالي عندما كنت جالساً في الدرجة السياحية من ظهر الباخرة اقترب مني رجل وبدأ يتحدث إلي ». وجرى اللقاء بماجد شيخ الأرض بتعارف بسيط كما لو كان للمرة الأولى ، ثم إنتقل الحديث عن الإنقلاب في سورية وعن محاولة الانقلاب اليمينية في لبنان ، ولم يشترك ثابت في الحديث إلا بصورة جزئية على أساس أن استيطانه من جديد يحمله على تجنب التعبير عن آرائه فيفضل الاصغاء .

---

(١) كان العملاء يقتنون حبات السيانيد لأغراض تخريبية ولم تصدر اليهم التعليمات في استعمالها في حالات الاعتقال ذلك ان قرار الانتحار هو دائماً من اختصاص الفرد شخصياً.

وانتهز شيخ الأرض لحظة كان الآخرون لا ينظرون اليهما فقال بصوت منخفض : « أتركهم واتبعني » وعلى مائدة في زاوية مظلمة من زوايا الردهة في الباخرة قال ماجد شيخ الأرض إن معه سيارة بيجو جديدة على ظهر الباخرة، وإنه سيصطحب ايلي معه إلى دمشق وأضاف: «لي صديق هو أحد ضباط الأمن يشتغل عند نقطة التدقيق على الحدود اللبنانية وسأكون قادراً على تسهيل مرورك من خلال الجمارك» .

وكان شيخ الأرض تاجراً ناجحاً في أوائل خمسينياته وكان أصلع وقامته مربوعة نوعاً ، وكان يحب الطقوم الإيطالية الأنيقة كما كان يبدو عجوزاً أكثر مما يبدو كملاك عربي رصين . وكان الغموض يغلب في طبيعته على ما هو في مظهره الذي كان فيه ما يشير إلى السرية والغموض أكثر مما في حقيقته ، وعدا عن أشغال شيخ الأرض القانونية كانت تعكس أعماله ظلال المؤامرات ، ففي الحرب العالمية الثانية عندما كان العمل الوطني دارجاً فر إلى بلدان المحور وأقام في ألمانيا ، ولما كان ليس من الذين يهتمون بالنشاط السياسي فضل أن لا يتعاون مع المنفيين العرب في مساعدة النازيين ، وتبين له أنه من الأربح أن يصبح وسيطاً في بيع تجهيزات عسكرية للعرب المقيمين في منطقة فيشي الفرنسية من أن يتجسس لمصلحة حركة مفتي القدس السرية ضد بريطانيا ، وهو المفتي الكبير الذي كان يرأس المكتب العربي في برلين .

وبعد سقوط الرايخ كان شيخ الأرض يعمل كممثل بيع للمحلات التجارية اللبنانية، ثم تزوج فيما بعد من يهودية مصرية هاجرت إلى سورية واعتنقت الدين الإسلامي ، وعلى الرغم من أن الإسلام يقبلون اعتناق دينهم بدون تردد كان شيخ الأرض يشتكي من أن زواجه استخدم حجة ضده من قبل السلطات السورية، مع إنه كان بعيداً عن أن يكن أية محبة لليهود ، وعندما اندلعت الحرب الكورية عام ١٩٥٠ أصبح شيخ الأرض في سيؤول عضواً معتمداً في هيئة الأمم المتحدة ، وعندها عاش عدة سنين في الأرجنتين وقبل أن يعود إلى سورية تحسنت أحواله بمعاونة

عرب أثرياء ومن ذوي النفوذ . وفي دمشق راح يعمل لنفسه وأصبح من الملاكين .

وكان ماجد شيخ الأرض يعتبر محافظاً في نظرته السياسية والاقتصادية ، ولم يكن يعطف على قيادات اليسار في سورية الذين كان يخشى أن يزداد نفوذهم باستمرار ، ومن المحتمل أن الإتجاهات نحو اليمين الوسط كانت وراء موافقته على التجسس لمصلحة الغرب ، هذا بالإضافة طبعاً إلى ما يتلقاه من دفعات ثمناً لخدماته (١) .

وعندما رست الأوزونيا في ميناء الإسكندرية الساعة السادسة صباحاً نزل ايلي إلى الشاطىء مع أول فريق من المسافرين ، ولما كان يخشى أن يتعرف عليه أحد قرر أن يقوم بمسيرة طويلة في المحيط الذي كان يألفه ، ليتخلص من القلق الذي كان يشعر به كغريب في أرض معادية . ولكن تبين له ـ بعد ذلك ـ أنه لا يستطيع أن ينظر في وجوه الناس، وقال: «كنت أمر وأُحاول أن أبدو طبيعياً على قدر الإمكان » .

ولم يتغير شيء كثير في الإسكندرية منذ غادرها إلى إسرائيل قبل خمس سنوات ، فالأصوات والروائح كانت هي ذاتها ، ولكنه لم يستطع سوى الإعتراف بما كان ينطوي عليه الموقف من تعبير سافر : ففي دوره الجديد ككامل أمين ثابت العربي كان قادراً على أن يتحرك في المدينة دون أن يزعجه شيء ، وهي حرية قلّ أن استمتع بها عندما كان اليهودي ايلي كوهين . وكانت وقفته الأولى في ساحة محمد علي حيث سلم كتاب توصية إلى ابن عم المحامي الحسن (على الرغم من الإنفصال فإن مناعة الصداقات في مصر قد تكون ذات قيمة لا تحد) . وقد أثارت

---

(١) كان مما توصلت اليه المحكمة العسكرية التي حاكمت ايلي وشركاءه بعد ذلك ان ماجد شيخ الأرض كان يعلم بأن ثابت كان يعمل لمخابرات اجنبية وكان يعلم بأنه يعمل لمصلحة دولة غربية او دولة من منظمة شمالي الأطلسي ، وكان معروفاً ان الموساد جندت عملاء لها متنكرين بالحلف الأطلسي وكان بين هؤلاء من لا يحتمل ان يقبلوا بربط انفسهم بعجلة الصهيونيين .

الرسالة محادثة ودية على فنجان من القهوة التركية عن الأوضاع السورية غير المستقرة ووعد بالبقاء على إتصال معه ، وبعد هذه الزيارة إشترى ايلي بعض المانغا من أحد الباعة المتجولين ثم عاد بسيارة التاكسي إلى حجرته في الباخرة بعد أن مهر أحد رجال الشرطة المصريين جواز سفره بالخاتم المصري .

لماذا وجهت الموساد ايلي بالسفر بالباخرة إلى الإسكندرية بينما كان في وسعه أن يطير إلى بيروت ليلتقي هناك بشيخ الأرض ؟ وأكثر من هذا لماذا لم يبق على ظهر الباخرة حيث كان قادراً على أن يتظاهر بالمرض بكل سهولة ؟ لقد كان المهم أن يكون هناك أساس قابل للتصديق في كل تحركاته ، وقد شرح ايلي فيما بعد قائلاً إن من الأفضل أن يجازف في البداية لكي يقوي من تغطيته ، فالرحلة البحرية خططت لكي تمكنه من اللقاء بشيخ الأرض في ظروف طبيعية جداً وعلى مرأى من العرب الآخرين، كما كان على ايلي أن يسلم رسائل التوصية وأن يتعرف على عرب من أصحاب النفوذ ممن يحتمل أن يستشهد بهم إذا اقتضى الأمر ، وأهم من هذا كله أن اختيار هذا الطريق قد مكن ثابت من ختم جواز سفره في بلد عربي آخر غير سورية استبعاداً لكل الشكوك التي قد تراود الموظفين في دمشق . ورست الباخرة أوزونيا في بيروت بعد رحلة استمرت خمسة أيام في صباح الثامن من كانون الثاني. وكان الميناء يعج بالجنود المسلحين ورجال الشرطة ، وشعر ايلي بالتوتر بين رجال الجمارك ، وفُحص الجواز فحصاً دقيقاً ، كما جرى التدقيق بشدة مع جميع المسافرين وخاصة المتوجهين إلى سورية ، غير أن الوثائق الأرجنتينية جنبت ثابت الأسئلة الشديدة ، وعندما سأل عن تدابير الأمن القوية قيل له إن قراراً صدر قبل أربعة أيام يفرض قيوداً ثقيلة على زيارة الأجانب ؛ وذلك بعد الإنقلاب اليميني الذي انهار في عيد رأس السنة ..

ولم تكن الشرطة المحلية راغبة في أن تسمح للسوريين بالبقاء بالبلاد مدة طويلة ، لذلك منح ايلي وماجد شيخ الأرض ٤٨ ساعة فقط كإذن مرور .

ونزل الرجلان في فندق أنيق إسمه فندق بلاج ، وسكنا غرفتين متجاورتين كانتا تطلان على الكورنيش الذي تحف به أشجار الأرز على طول خليج سان جورج ، وبعد أن فتحوا أمتعتهم غادر ايلي الفندق ليلتقي بالصراف الذي حمل له رسالة توصية من الحسن .

أما شيخ الأرض فقد راح يرعى شؤونه الخاصة ، وكانت بيروت بمصارفها وتجارتها بؤرة مالية لشيخ الأرض ، فتبادل النقد كان يجري بقيود قليلة وبتدخل من الحكومة أقل ، فالمقايضة كانت تجري على الطريقة العربية التقليدية ، ورجال المال المحليون كانوا يتدخلون في صفقات دولية فيها من التعقيد ما في المؤامرات البيزنطية ، وكانوا ينصرفون فقط لتحقيق الأرباح العاجلة . وكان اعتياد شيخ الأرض على النشاط الخارجي للتجارة اللبنانية سبباً في استفادة ايلي عندما راح يبحث عن إنشاء محل للإستيراد والتصدير في دمشق .

وكانت بيروت كذلك ساحة لهو مفضلة عند شيخ الأرض فهي منتجع الحكام الأغنياء من رجال البترول ، وكذلك الأثرياء العرب الفارين من التقشف الاشتراكي ، وبدت العاصمة التي نصفها من المسلمين ونصفها الآخر من المسيحيين وكأنها مدينة مباحة إذا قورنت بالحياة في دمشق ، ولم يتغاض ثابت وشيخ الأرض عن المسرات التي تتيحها المدينة ، ففي اليومين التاليين قاما بجولة في الأسواق وعلى واجهات المحلات ومخازن التحف ، وكانا يقضيان الليل بين المقامرة في كازينو لبنان أو الشراب في علب الليل أو الحانات المزدحمة بالشخصيات العربية التي تتلذذ بالمشروبات الروحية المحرمة بالقرآن .

ولكن هذه الرحلة القصيرة ما لبثت أن انتهت بسرعة في الساعة ١١ والدقيقة ١٥ قبل الظهر من يوم الخميس العاشر من كانون الثاني ، فغادر أمين ثابت وشيخ الأرض فندق البلاج مع الأمتعة المشدودة إلى الحبال فوق سيارة شيخ الأرض البيجو ذات اللون الأشقر ، وراحت متجهة نحو طريق بيروت ــ دمشق العريض، مبتدئة المئة وخمس كيلومترات

التي هي المسافة بين العاصمتين . وازدحم الطريق باديء الأمر بعربات الحمير وهي تحمل المحاصيل الزراعية إلى المدينة ، ثم أصبح الطريق خالياً عندما وصلوا إلى المنحدرات الشرقية لجبال آنتي لبنان التي يعم الثلج قممها ، وبعد ساعة وصلوا إلى شتورة وهي آخر مكان مأهول قبل الحدود الدولية، حيث كان ضباط الجمارك اللبنانيون يقومون بتفتيش عاجل للأمتعة قبل أن يسمح لإيلي وشيخ الأرض بالدخول إلى الأرض المجردة ، وليس هناك ما يشعرك بأن هذه المنطقة مقفرة سوى صليب من الحجر أُقيم على رأس تلة نصبت على قبر طيار فرنسي قتل هناك في الحرب العالمية الثانية . وعلى مسافة ما إستطاع ايلي أن يشاهد الخنادق السورية ومواقع المدفعية ، ولوحات تعلن عن منتجات اوروبا الشرقية وبرنامج برحلات طائرات أيرفلوت إلى موسكو وخارطة ضخمة للعالم العربي من شمال إفريقيا حتى الجزيرة العربية . ولم تكن هناك خطوط تفصل بين حدود البلدان العربية وكانت هذه مساهمة السوريين ذات المغزى بالقومية العربية .

وكان المرور أسهل مما توقعه ايلي فقد تقدم شاب برتبة ملازم أول في الجيش وهو المسؤول عن الجمارك وتفتيش الجوازات – تقدم لتحية شيخ الأرض وتعانق الرجلان ، وقدم شيخ الأرض ثابت بصفته الصديق الشجاع الذي قرر العودة إلى وطنه، « ثم انتحى بالضابط جانباً ليتحدث اليه حديثاً خاصاً (وقال الشيخ لإيلي في بيروت إن الضابط الذي كان يدعوه أبا خلدون كان في الحقيقة من ضباط مكافحة التجسس واسمه ناصر الدين ولادى الذي استطاع تأمين مبالغ إضافية من هنا وهناك عن طريق مساعدة أصدقائه في تهريبه البضائع من لبنان إلى سورية) وتظاهر ناصر الدين هذا بالتردد عندما قبل ٧٠٠ ليرة سورية كقرض ووضعت على أمتعته الإشارة البيضاء دون أي تفتيش وسمح لسيارة شيخ الأرض بالمرور مع كلمة : شكراً ...

وبعد ساعة وصل الرجلان إلى مزرعة شيخ الأرض الواقعة في ضواحي

دمشق ، حيث أخفى ايلي جهاز الراديو ، وبعد أن أمضى ليله قلقاً أصرَّ على الرغم من إحتجاجات شيخ الأرض على أن يذهبا بأسرع ما يمكن. وكان شيخ الأرض يفهم جيداً أسباب رغبة ايلي في الوصول إلى العاصمة ، ولكن شعوره بحب الضيافة قد أحرج ايلي الذي قبل أن يستضاف عدة ليال في فندق يملكه أحد أصدقائه .

عميل الموساد

عندما غادر شيخ الأرض مزرعته ليجتاز بإيلي الأميال الأخيرة من رحلته إلى العاصمة السورية إجتاحت المنطقة عاصفة من غيوم الغرانيت القادمة من الغرب جاعلة أجواء دمشق في ظلام دامس . وعلى الرغم من عاصفة الرعد المتوقعة فإن الطريق العام كان مكتظاً بالسيارات العسكرية والمدنية ، مما اضطر شيخ الأرض إلى القيادة ببطء واتباع رتل السيارات التي أمامه ، وكان شيخ الأرض يتحدث بدون انقطاع ويقفز من موضوع إلى آخر ، وقد لخص رحلته إلى باريس وروما وتباهى بما أصاب من توفيق في تجارته مع أميركا الجنوبية ، ثم راح يقص قصصاً مسلية حول تجارته في ألمانيا النازية ، وكان ايلي يصغي باهتمام ويهز رأسه موافقاً على كل ما قاله ، ولكنه كان يوجه اليه بعض الأسئلة .

وسرعان ما انتقل شيخ الأرض إلى السياسة محللاً حركة الإنفصال وإعادة تأسيس الجمهورية ، ثم راح يمجد بإدارة الكزبري ويمتدح إنجازاتها الإقتصادية . وقد لاحظ ايلي أن عواطف شيخ الأرض كانت حقيقية ولم يقاطعه سوى مرة واحدة عندما سأله عن إتصالاته بوزارة الداخلية ، فتجنب شيخ الأرض الإدلاء بجواب مباشر وراح ايلي يقود الحديث باتجاه آخر .

وعند وصولهما إلى حدود المدينة أشار شيخ الأرض إلى قاعدة عسكرية إجتازها على اليسار، وسرعان ما تعرف ايلي على صفوف من البيوت الخشبية ذات الطابق الواحد ، وكذلك ثكنات من الإسمنت بناها الفرنسيون خلال فترة الإنتداب ، وعلم ايلي من التعليمات التي لديه أن الحامية كانت بمثابة قيادة غير رسمية لكثيرين من الضباط السوريين الذين ينشطون

سياسياً ، وعلى الجانب المقابل من الطريق كان يوجد معرض دمشق وهو معرض تجاري دائم يرمز لإتجاه الجمهورية العربية المتحدة نحو اليسار ، ومحاولتها إعادة الحياة إلى اقتصاد المنطقة التي فقدت حيويتها في أعقاب الإنقلاب اليميني المناهض للوحدة ، غير ان الروس والصينيين والأوروبيين الشرقيين الذين أقاموا أجنحة مثيرة للإعجاب (لم تشترك سوى شعوب غربية قليلة في المعرض) كانوا لا يزالون يعرضون إنجازاتهم الخاصة بنماذجهم الشيوعية .

ودخل شيخ الأرض المدينة من خلال شارع فاروق الأول على طول نهر بردى ، ثم اجتازا جسراً من بقايا القرون الوسطى ومرا بسلسلة من البساتين ، ثم انعطفا إلى شارع الجمهورية حيث وقف شيخ الأرض لتأمين الحجز في أوتيل سميراميس الجديد . وانتظر ايلي في الردهة بينما كان شيخ الأرض يفتش عن مكان صاحب الفندق ، وفي خلال ذلك لم يتمالك عن ملاحظة المستوى الذي انخفض اليه الفندق ، فقد كان فيه أثاث عتيق وطلاء مائل اللون وأعمدة عليها أشرطة زرقاء ، كل ذلك كان يوحي بأن الفندق لم يعد يجذب الأميركيين الأغنياء ، ولا الزبائن الأوروبيين الذين كانوا يتقاطرون على دمشق قبل أن تصبح الجمهورية العربية المتحدة معادية للغرب ، وفي جملة المساعي التي بذلت لدعم التجارة المهتزة وضعت ملاحظة رسمية وراء المكتب الأمامي جاء فيها أن الأطفال دون السادسة عشرة والذين يقومون على خدمة السواح يحصلون على أجور منخفضة . وصدرت نشرة ثانية (المقطع ٢٥ من قرار وزارة الإقتصاد الوطني) كانت محاولة بيروقراطية شريفة لتطمين السواح بأنهم سيكونون موضع ترحيب وسيعاملون برقة وأناة ، وصدرت التعليمات إلى رجال الشرطة بحماية الزوار بدون تحميلهم أية نفقات وبدون مقابل .

وقدم شيخ الأرض ايلي إلى مالك الفندق على اعتبار أنه صديق قديم وصل الآن من الأرجنتين ليقيم في بلاد أجداده ، ورجاه أن يعامل ضيفه كما لو انه يعامله هو ، ثم ارتحل واعداً أن يتصل به هاتفياً في اليوم التالي .

وفي خلال هذه الفترة كان ايلي قد أعطى الكاتب جوازه الأرجنتيني الذي يحتاج إلى المرور على محفوظات الشرطة ، وكانت هناك استمارة مطلوبة من كل الأجانب ، وحمل سوداني أسود أمتعته إلى الطابق الثالث حيث وجد ايلي أن وسائل الراحة كانت تتسم بالصرامة ، وعندما حلّ وثاق أمتعته كان قد قرر بأن لا يطيل التفتيش عن شقة يسكنها .

وفي الأيام العشرة التالية كان ايلي يتجول في دمشق مع شيخ الأرض محاولاً أن يتأقلم بالمحيط الجديد بينما كان يوجه أسئلة سرية عن المنازل المعدة للإيجار . ولم تكن العاصمة غريبة عنه تماماً فقد تلقى معلومات عن الحياة في مدينة دمشق من أساتذة في الموساد كانوا يعيشون في دمشق ، وكذلك الخرائط والأفلام والصور الفوتوغرافية عن الأحياء الرئيسية ، وعلى الرغم من مساعي الموساد لحمله على الشعور بالطمأنينة فلم تكن هناك وسيلة يمكن إعداده بها لاحتمال الزحام والضجيج في العاصمة السورية .

وتقع مدينة دمشق ، أقدم مدينة في العالم ، على حافة سهل الغوطة الخصب في جنوب سورية وهي المحافظة الأم في سورية، ويبلغ عدد سكانها ٥٢٦ ألف نسمة . ويطلق على سكانها إسم « الشوام » وهي قائمة على ضفتي نهر بردى ، تحيط بها صحراء وتلال قاحلة . وظلت دمشق قروناً ووسيلتها للاتصال بالعالم الخارجي قوافل تسوقها الجمال وتشق طريقها بين الرمال . ولم تكن هذه العزلة الجغرافية أقل أسباب ضيق الأفق عند سكانها . وعلى الرغم من وسائل المواصلات الحديثة فقد إستمرت الحساسية المفرطة تجاه الغرباء المستندة إلى كراهية الأجانب أو الخوف منهم ، بل ازداد خطرها بالانهيار العاصف الذي نزل بالجمهورية العربية المتحدة .

وكانت المدينة التي راح ايلي يستكشفها في الأسبوع الأول من وصوله تشتمل على أكثر التناقضات إثارة في منطقة الشرق الأوسط . فقد ذكرته أقسامها الجنوبية على ضفاف بردى ذات الشوارع العريضة المشجرة بتل

أبيب والإسكندرية . غير ان تضارب الحضارات في العاصمة السورية كان أكثر دراماتيكية . فرجال الأعمال يرتدون ملابس اوروبية ينقصها الزي الأوروبي ، وعلى رؤوسهم الكوفية التي تمسكها على الرأس حبال سوداء أو ذهبية اللون ، والعمال في ثوب أزرق ذي أكمام طويلة، والأولاد في قميص سبور ياقته مفتوحة ، وهم يرون إلى جانب مشايخ على رؤوسهم طربوشاً ، وموظفين معممين يرتدون ثوباً حريرياً مقلماً ، وهناك عراقيون يرتدون عباءات بنية اللون ، وسعوديون بقنابيز طويلة . وقد يكون التناقض بين الأزياء النسائية أدعى لإثارة الإهتمام. فهناك نساء مسلمات يرتدين الثوب التقليدي الأسود ، ويغطين وجوههن بخمار أسود . ويزيد عدد هؤلاء على مجتمع السيدات ذوات الشعور المزينة ، والسيدات نصف المحجبات والفتيات ذوات الثياب القصيرة وطالبات المدارس باللباس الموحد الأزرق أو الأبيض .

ومقابل ذلك ، تتداخل المدينة القديمة المثلثة الشكل مع مظاهر القرن العشرين بشوارعها الضيقة والملتوية وجوامعها ومدافنها ، وحماماتها العامة وقصور لم تتقوض بعد برغم انها قائمة منذ ثمانية قرون أي في أيام الغزو المغولي . وقد وجد ايلي بهذا ما يعوضه عن تجواله خلال الغبار والأوساخ وروائح العطور . وقد ضاع في ممرات كثيرة التعرج وذهب في إتجاهات لم يكن يتوقعها وسار في المنعطفات بيدين ممدودتين ليتلمس طريقه من خلال الجدران ، ومشى تحت أقواس وممرات متأملاً في الساحات، وفي البيوت التي ليس لها شبابيك والتي لا يستهويك النظر اليها من الخارج ولكنها كانت على غاية من الترف في الداخل ، وبعد أن رفض خدمات دليل هرم وملتح قام وحده بجولة على مشاهد القلعة ذات اللون العسلي ، وهناك شاهد عالماً خيالياً من فن البناء العربي الباهر منقط كسراب الصحراء : حرم سليمان الكبير ، وقصر العظم باشا ، والتكية ذات المآذن التي يشبه شكلها قلم الرصاص ، والسنانية ، وآثار ضواحي سالينيا والقبب ذات القناطر في خان العظم ، وكذلك قبر صلاح الدين والمقبرة التي يقال إن رأس حنا المعمدان قد دفن فيها .

وفي وسط هذه المتاهة من الممرات الخضراء التي أتى عليها الزمن تسمع زمور سيارات الفيات والرينو والسكودا التشيكية والفورد القديمة الكلاسيكية وسيارات التاكسي ، وقد توقفت كلها عن السير بسبب الفلاحين الذين يمتطون البغال أو يقودون الحمير ، والكهول الذين يركبون الدراجات وقد ثبتت النراكيل إلى ظهورهم . وإذا تجاوزت هذا الجحيم من الهرج والمرج وجدت نفسك وسط كتلة مختلطة قروسطية من الشراكسة والأرمن والأكراد والإسماعيليين واليزيديين منصرفين إلى عملهم بسراويل مهلهلة وأحزمة مطرزة . أما القرويات فقد ارتدين الفساتين الطويلة وقد علت جباههن إطارات مزدانة بالعملة الذهبية ، والفتيات العلويات شدت إلى خصورهن صداري ضيقة وعلت رؤوسهن وشاحات بنفسجية داكنة ، والنساء الدرزيات في ثياب مشدودة الزنانير وقلنسوات مغطاة ببراقع بيضاء ، وفلاحات وقد وشمت ذقونهن بالنجوم الزرقاء وهن يسرن خلف رجالهن في صمت جامد الحس والمشاعر .

واستطاع ايلي أن يشق بصعوبة طريقه من خلال هذه الكتلة المتشابكة من الأسواق حيث يعقد الدمشقيون صفقاتهم بفظاظة توتونية . وهناك عشرات الأسواق تتقاطع في المدينة القديمة : فهناك سوق النراكيل ، وسوق للدكاكين التي تبيع التحف القديمة ، وشارع يبسط فيه تجار السجاد بضاعتهم ، ثم ممر للصاغة الذين جلسوا ضمن متاجر صغيرة ذات واجهات زجاجية ، ثم سلسلة من الدكاكين التي تستجيب لحاجيات الفلاحين العملية ، وأسواق الحرير والأحذية ، والتوابل ، والقهوة ، والمربيات ، والفواكه والخضار ، والملابس العتيقة . وهكذا فإن المناظر التي شهدها ايلي كانت تذكره بقصص ألف ليلة وليلة: بائعو الشربات وقد لفت وسطهم تنانير من الأحمر والأبيض ، وشدت إلى صدورهم أباريق نحاسية وراحوا يقتربون منه وهم يقرعون طاساتهم وينادون : «برّد على قلبك» ثم باعة العصير وهم يعصرون الليمون والجزر تحت ملزمة حديدية ويرجونه أن يشرب العصير الدمشقي ثم «يعمل الحب خمس مرات في اليوم . » ...

ولم يكن ايلي قادراً على أن يفرّ من الإضطراب الذي عمّ الجمهورية السورية وقد ولدت من جديد وعكس آثاره على المقاهي والمطاعم التي كان يرتادها . فالمقاهي على نهر بردى ليست سوى منتدى عام للمناظرة والنقاش وكذلك للمؤامرات السياسية وهو ممتلىء بالطلاب الذين إنجذبوا إلى الإشتراكية ، والعمال الذين يداعبون الشيوعية ، والضباط الناقمين على الحكومة ، والسياسيين الهواة الذين يتحدثون عن معرفة في شؤون الدولة ، وبعض موظفي الحكومة الذين يأتون بالأخبار التي يعتمد عليها . وكان موضوع القومية العربية والوحدة مع مصر لا يزال في القمة بالنسبة للمواضيع الأخرى غير أن ايلي إستمع إلى أنواع مختلفة من الآراء حول تحقيق الوحدة يوازي عددها عدد القادة أو المعلمين في البلاد .

ومنذ الحكم العثماني كانت (القهوة) المكان المقبول للتجار المتآمرين وضباط الجيش والموظفين ، وكان بعضها يعرف بالإتجاهات السياسية لروادها . والحقيقة أن الشرطة ومصالح الأمن الداخلي التي كانت تثق بالمثل العامي القائل : « رأس الكسلان مشغل الشيطان » ، قامت بتصنيف مقاهي المدينة ودكاكينها حتى قلّ أن كانت في حاجة لأن تسأل مشبوهاً عن المعلم الذي يدين له بالولاء .

وكان الجو الماكر الذي يسود القهوة (المقهى) الدمشقية يبدو وكأنه أنسب الأجواء لحياكة المؤامرات المعاكسة . وكان المعلمون يجلسون على كراس قصيرة حول مناضد من القش أو من الخشب يلعبون الورق أو الدومينو ويرشفون القهوة التركية بفناجين من البورسلين ويدخنون النرجيلة ، والراديو يرتفع إلى أعلى طاقته الميكانيكية وهو يرسل الأغاني العربية التي لا تقطعها كل ساعة سوى نشرات الأخبار . وتجاه هذه الخلفيات كانت الحكومة تخلق وتسقط . ولم يكن من السهل على المرء — طبعاً — أن يعرف جهة رياح التغيير التي تهب لمجرد شائعات تنتشر على سبيل الصدفة أو أخبار كاذبة . غير إن المحادثات كانت تلتقطها أجهزة الاستقبال العائدة لجمهرة من المخبرين السريين ، ورجال المخابرات

العسكرية ، وشعب مكافحة التجسس ، والجواسيس الناصريين ، والذين هم ضد الناصرية ، وكذلك العملاء الذين يشتغلون بنصف دوام لحساب مختلف الأحزاب يمينية ويسارية . وقد قال شيخ الأرض لإيلي مبالغاً : « إن عدد العملاء السريين في البلاد يفوق عدد أفراد الجيش السوري » .

وبينما كانت الحكومة المدنية تراقب بدقة عناصر التخريب ، كانت في الوقت نفسه تحاول منع الجماهير عن العمل في سبيل وحدة أخرى مع مصر عن طريق التشجيع المستمر على مساندة القوات المسلحة « التي أنقذت إستقلال البلاد من الجمهورية العربية المتحدة» ، وكذلك عن طريق جو من الحصار في المدن الكبرى وخاصة دمشق . وقد أثيرت المشاعر الوطنية بعرض أسلحة جديدة في متحف الجيش السوري، ونشر قطع من المدفعية والدبابات التي جرى إنتزاعها من اليهود في الجهاد (الحرب المقدسة) عام ١٩٤٨ . وكانت هناك أيضاً مظاهر من الفظاظة أريد بها إثبات أن الدولة مدعومة بالوجود العسكري ، فكان الجنود بالخوذ الفولاذية يقومون بدوريات في الشوارع في سيارات جيب سوفياتية الصنع . وكان رجال الشرطة العسكريون يحرسون الجسور والمباني العامة ، والأناشيد العسكرية كانت تتحكم في أمواج الأثير ، كما إن الإعلانات الملصقة على الجدران في كل مكان تحذر الجماهير بشدة : إنتبه .... فالعدو يصغي اليك » .

وبمساعدة شيخ الأرض استطاع ايلي أن يختصر بحثه عن منزل في «أبو رمانة» ، وهي منطقة سكن تشتمل على مقر رئاسة أركان الجيش ومكاتب اللجنة المختلطة لمراقبة الهدنة وعشر سفارات ومفوضيات وقنصليات عامة . وقد أحاط ايلي الملاك علماً أنه قرر الإقامة في دمشق بصورة دائمة وإنه في حاجة إلى منزل واسع أو دار « فيلا » يمكن أن يستخدمها كمنزل ومكتب للأشغال التجارية التي ينوي القيام بها . وكان بين متطلباته شيئان لا يستطيع الإفصاح عنهما : أولهما أن لا تكون الدار منعزلة بحيث تكون تحركاته عرضة لتدقيق هو في غنى عنه ، والثاني أن يكون على

السطوح عدد من الأسلاك الهوائية بحيث تضمن له عدم لفت الأنظار إلى شريط جهازه السري، وقد اضطره فقدان هذين الشرطين لرفض دور كثيرة مناسبة بحجة أو بأخرى .

وبعد أسبوعين قضاهما في فندق سمير وجد ايلي الشقة التي كان يبحث عنها . وكانت هذه الشقة على الطابق الرابع من بناء يقع في مقابل رئاسة القيادة العامة ، وفي الشقة خمس غرف وردهة مريحة مع شرفة تطل على المكتب الثاني ومطبخ حديث وحمام مريحة ، وكان على الأرض سجاجيد عجمية ودمقس مزدان بالرسوم والصور ، كما كان فيها جهاز هاتف وهو حاجة كمالية بالنسبة لغير الموظفين . وطلب صاحب الشقة أن يكون أجرها الشهري ٣٢٥ ل . س فوجد ايلي أن الطلب كان معقولاً ، وبعد قليل من المساومة إتفق معه على مبلغ سنوي معجل قدره ٣٩٠٠ ل . س، أي ما يعادل ألف دولار. عندئذ طلب من شيخ الأرض نقل أمتعته إلى المنزل الجديد . (ولم ينتبه ايلي إلا في وقت لاحق أن الشقة كان ينقصها طريق للهرب ، ذلك أن السلم الرئيسي كان يقود إلى سطح مغطى بالإسفلت ومزدحم بالأنتينات وحبال نشر الغسيل ولم يكن هناك ما يسمح بالاختباء ، أما الأبنية المجاورة فقد كانت منفصلة عن بعضها بشكل لا يتيح له فرصة الفرار من أسطحتها ، أما وسائل الخروج الأخرى فقد كان أنبوباً ثخيناً للمياه يمتد إلى الأرض من شرفة مطبخ ايلي) .

وفي إحدى الليالي وبعد أن كان قد استقر في بيته بصورة معقولة انتزع ايلي المصباح النحاسي وهو تحفة قديمة معلقة في سقف بيت النوم ووضع جهاز الإرسال في فتحة الأشرطة وأدخل الأنتين في حبل جهاز الحلاقة ومده من شباك الطابق الرابع إلى السطح، وهي مسافة قصيرة لا تسبب له المتاعب ، ثم ربط بالجهاز شريطاً هوائياً كان قد أعده في السابق لاستقبال تل أبيب أو كما قال ليكون في مواجهة تل أبيب ، ولم يكن في المنطقة أفضل من هذا لإقامة محطة الإذاعة ، ولم يكن في وسع أحد أن يكتشف شريطه في هذه الغابة من الأشرطة الذي لا يمكن تمييزه عن

الأشرطة الأخرى ، وأشرطة الآخرين الذين يعملون في البعثات السياسية أو العسكرية ، ومنذ جعل ايلي من أبو رمانة قاعدة لعملياته راح يضع أساساً لعمل التغطية الذي قرر القيام به ، فعرّفه الشيخ على التجار البارزين في الصناعات المحلية حيث ناقشهم في تصدير التحف السورية والمفروشات إلى اوروبا وأمريكا الجنوبية ، وقال لهم إن شركات سويسرا والأرجنتين أظهرت إهتماماً بشراء مناضد القهوة والكراسي المضلعة وطاولات الزهر والعلب المصنوعة من عظم الجمل والصناديق المحفورة من شجر الورد ، وذكر للذين يبيعون البضائع الأجنبية بالقطع والذين إهتموا بمخططه الخاص بالاستيراد أن هناك أصنافاً من وسائل الترف يمكن إضافتها إلى قائمة المحل ولكي يثبت أن موارده كانت وافرة قدم مصادر تعريف أرجنتينية وأشار إلى ميراث ضخم أودع في مصارف بلجيكا وسويسرا ، وقد رحب معظم التجار بمشروعه وحتى أولئك الذين لم يقترحوا أسماء آخرين ممن يرغبون في التعاقد معه على بعض الأعمال ، وقال العقيد سويداني فيما بعد: «لقد أدهشتني سذاجة كثيرين من المواطنين السوريين وبساطتهم لا سيما عندما اعتقدوا أن لإيلي حسابات في البنوك الأجنبية وقبلوا منه الهدايا لقاء ما كانوا يقدمونه اليه من معلومات مصنفة » .

وكثيرون من الدمشقيين الذين دخل معهم ايلي في مفاوضات كانوا أعضاء في أقلية مسيحية معروفة في أطماعها ومضارباتها ، وكانت تمارس نفوذها على المجتمع التجاري بشكل يفوق بكثير نسبة عددها ، وكان ثلاثة ممن يزودونه بالبضاعة أصحاب دكاكين في منطقة شرقي باب توما ، وكان أغلب زبائنه من المسلمين في المدينة القديمة ، كما كانت له صلات بالأكراد في حي الأكراد شرقي الصالحية ، وبالأرمن الذين كان ينظر شيخ الأرض إلى جدهم وذكائهم بمزيج من الإعجاب والحسد .

وما لبث تعرفه على رجال أعمال أكثر أهمية أن تطور إلى صداقة متينة . وكثيراً ما تناول ايلي معهم طعام الغداء في مطعم الآغا والغزال

ومراكش ، كما كان كثيراً ما يقيم سهرات على العشاء في الواحة وفي النادي العصري **Assare** أو يستقبل في نادي شهرزاد الأنيق في الربوة الذي يقع على الطريق إلى بيروت ، وفي مجرى محادثاته التي لم تكن بعيدة عن المواضيع السياسية حاول أن يعكس إنطباعاً بأنه وطني غيور ، بينما كان يتحاشى أن يدخل في تفاصيل بين الأحزاب القائمة . وكان يثني على الانفصال عن مصر ويتبع ذلك معرباً عن رأيه بضرورة تحقيق الوحدة العربية بقيادة سورية والآراء التي كان يدلي بها لم تكن متنافرة مع آراء زملائه ، فقد كان له دائماً موقف يعتني في اختياره بحيث يصبح منسجماً مع كونه مهاجراً يعتمد عليه .

وأوصى به الأصدقاء الجدد إلى الموظفين في وزارات المالية والداخلية حيث تقدم بطلبات إقامة دائمة وإجازة للقيام بأعمال الإستيراد والتصدير . وفي بلد لا ينعم باستقرار يعتبر توظيف الأموال الأجنبية في الاتجار بمنتجات محلية علامة ثقة في الحكومة الجديدة ، ولذلك كانت الاستجابة لطلباته بعيدة عن الحيطة أو التحفظ ، وبدأت شركة أمين ثابت للإستيراد والتصدير عملياتها التجارية منذ استكملت أسباب وجودها من النواحي القانونية . واستأجر ايلي مستودعاً وضع فيه مخزوناً صغيراً من البضائع المحلية كان يرسل منها شحنات نظامية إلى سويسرا وألمانيا الغربية والأرجنتين ، وكان المستوردون الذين يتعاملون معه بصورة شرعية يصرون على أصناف من نوعية عالية ، ولم يكن من السهل تأمين هذه النوعية ، فالصناعة الدقيقة التي لا تبارى والتي كانت في يوم ما فخر مدينة دمشق قد تحدرت إلى درجة التفاهة : فالمجوهرات وصناعة الجلود والزجاج كان ينقصها النعومة والمتانة كما أن مهنة الحفر الفنية فقدت أناقتها ومعناها الفني . وأحسن ما يمكن قوله هو أن صناعة المعلمين القدماء كانت تحاكى بطريقة متسمة بالتقليد الفاشل . ومع ذلك فقد حاول ايلي أن يحصل على بعض البضائع المصنوعة وفق الخصائص الماضية .

أما الشركة التي كان يصدر اليها في بونوس أيرس فقد أقامها

إبراهام ، بينما أقدم سالينكر على تأسيس شركتين أخريين في ميونيخ وزوريخ لسبب وحيد هو إقامة عمل تجاري مع ثابت . أما المراسلة مع فروع الموساد فقد كانت تخدم في نقل الرسائل المبطنة . فالبضاعة التي يطلبها الإسرائيليون كانت تشتمل على مخابىء سرية كان ايلي يدرج فيها أفلام وثائق ونسخ عن تقارير مطولة ، وأثبتت الصفقات المقصورة مع هذا المحل التجاري أنها من النوع الذي يعتمد عليه ، وكان في وسع الموساد أن يرسلوا كل أنواع العملات الصعبة ـ الدولار ، الإسترليني ، الفرنكات السويسرية ـ التي كان يحتاج اليها ايلي في عمليته السرية دون أن يثير أية ريبة أو شكوك .

وسمح ايلي لبعض أصدقائه وشركائه أن ينقلوا إعتمادات خاصة إلى لبنان وسويسرا عن طريق محله . وكان يلجأ إلى الأسلوب ذاته عندما يريد أن يكسب لقضيته أحد موظفي الحكومة إذ يعرض عليه صفقة تجارية عوضاً من أن يعرض عليه رشوة مباشرة ، وكان المستفيد الأول من هذه العمليات هو ماجد شيخ الأرض غير إن كثيرين آخرين استفادوا أيضاً من ثروة ثابت . وعلى الرغم من يده المفتوحة وكرمه فقد سجلت الشركة أرباحاً جيدة . وكان ايلي يمسك حسابات دقيقة ويقدم لرؤسائه ميزانيات سنوية . أما المال الذي لم ينفقه فقد أُعيد إلى المصارف الأوروبية حيث دخل مرة أُخرى خزانة المخابرات الإسرائيلية .

وفي شهر شباط وبعد أن انتظمت أعماله التجارية إتصل ايلي هاتفياً بكمال الحسن في مكتبه ، وهو المحامي الشاب الذي أُحيط علماً من قبل والده بوصوله ، وكان على أحر من الجمر ليسمع منه أخبار عائلته ، فوافق بسرور على الإجتماع به في اليوم التالي . والتقى كامل وكمال في مقهى على طريق جانبي من المدينة القديمة في شارع إسمه الإستقامة ، وبعد استذكار الحياة في الأرجنتين إنتقل الحديث إلى العمل التجاري فعرض الحسن أن يقدم إلى ثابت نصيحته بكل ما يتعلق بالمشاكل الخاصة بمحله التجاري، ثم دعاه إلى منزله لتناول طعام العشاء بالكلمة التقليدية:

«بيتي هو بيتك» ، وهنا تعرف ايلي على أصدقاء المحامي وهو الملازم أول في الجيش السوري ذو وجه حزين يدعى معزى زهر الدين وهو ابن أخي قائد الجيش الجديد عبد الكريم زهر الدين ، والتزم ايلي جانب السكوت عندما راح الملازم الأول والحسن يتناقشان حول مواضيع شخصية ، ولكن ما كاد معزى ينتقل إلى انتقاد الأسلوب الذي كانت تدار فيه البلاد على عهد الجمهورية العربية المتحدة حتى انضم ايلي إلى الحديث ، وهز رأسه معلناً موافقته عندما اتهم الملازمين المصريين بأنهم لا يحبون القتال ولو انهم يستمتعون بالحديث عنه ، وابتسم عن معرفة عندما إنتقل البحث إلى إسرائيل حيث كانت الملاعق تتحرك مع الذراع بطريقة دراماتيكية إشارة للإستنكار ، فقد حلت عواطف معزى محل عقله بعد أن تحولت مناجاته الفردية إلى برنامج منوعات مسرحية . وإذا كان مثل هذه المناقشات الخطابية هي من الصفات المميزة التي لا يمكن منعها أو تثبيطها فإن تعرف ايلي على الملازم الأول كان يبدو مجزياً .

وقام شيخ الأرض بزيارة ايلي في أبو رمانة بعد ليال عديدة فقص عليه لقاءه بمعزى . وكان شيخ الأرض يعرف الملازم فأعرب عن سروره لهذا اللقاء قائلاً : «قد يكون معزى هذا هو أكثر الأشخاص الذين تحتاج اليهم فهو يعمل في القيادة العامة وهو قريب جداً من عمه» . وأضاف شيخ الأرض أنه عرف من الضابط الشاب أنه يعرف كيف يعيش ولن يصادف صعوبة في أن يعيش في مستوى سمعته ، فحض ايلي فوراً على أن يجتمع الثلاثة ، وسجل شيخ الأرض في ملاحظاته أن يهتف إلى معزى وأن يعد معه هذا اللقاء .

وفي يوم العطلة بعد الظهر نزل ايلي من سيارة التاكسي في زاوية من أحد شوارع المدينة القديمة حيث يلتقي الحي المسيحي بالأحياء الإسلامية . فاجتاز شارع الإستقامة تحت قنطرة من صفائح التنك الصدئة والمتجعدة ، ثم انعطف فجأة إلى اليمين حيث القنطرة الرومانية الثانية ودخل قهوة الشام وجلس على طاولة في زاوية المكان ، بعد أن أوصى على إبريق من

الشاي ونرجيلة وطاولة زهر أعدها ليلعب مع شيخ الأرض . كانت القهوة مقفرة تقريباً ولم يكن فيها سوى بعض المعلمين الذين كانوا يدخنون النراجيل بينما يتحدثون عن آخر التطورات السياسية ، ومن وقت إلى آخر كان بعضهم يتوقف عن الحديث ليصغي إلى ألحان أم كلثوم الحزينة وإلى أصوات فيروز يدوي من راديو ترانزيستور وضع وراء الآلة الحاسبة .

ووصل شيخ الأرض في الوقت المحدد فأمر بفنجان قهوة تركي وانتظر نرجيلته ثم انطلق في لعبة الشيش بيش . وقال شيخ الأرض لإيلي إنه يتوقع أن ينضم اليهما معزى في وقت قصير لكنه قبل أن يفوه بكلمة أخرى إذ بالملازم يقول لهما مع السلامة ، وعانق الملازم شيخ الأرض وأمسك بيد ثابت بين يديه وبعد الانتهاء من مرحلة التحيات إستجاب ثابت لانتقادات معزى واستنكاره بانفتاح ظاهر . وكان الضابط الشاب بكامل وعيه القبلي عندما راح يتحدث عن القضايا الداخلية والعلاقات بين الدول العربية ، وانتقد المدنيين لأنهم لا يحسنون تعاطي الأمور السياسية ووصفهم كأنهم « الدب في محاولته نسج الصوف » وأكد أن السلطة يجب أن تعود إلى الكولونيلات والجنرالات ، غير أن ثابت لم يوافق أكثر مما وافق عليه وكان المعنى الذي اشتملت عليه كلمات معزى الأخيرة يعرب عن ملاحظاته الخاصة ، وقبل أن ينصرف الملازم دعاه ايلي إلى منزله قائلاً : « إنني سأُقيم حفلة ساهرة لأصدقائي الجدد وأتطلع بشوق إلى أن تكون واحداً منهم » .

وبعد أيام قليلة من التقائه بمعزى إنتهى ايلي من تحضير فيلم في غرفته المظلمة المرتجلة، وبعد أن دقق في الميكروفيلم على ضوء المصباح الكهربائي طواه في ملف ربطه بخيط من الكوتشوك ثم تناول طاولة نرد صغيرة مزدانة بقطع الصدف، وكان قد فتح فيها حجيرة صغيرة وبعد أن زلق منها قطعة خشبية مستطيلة الشكل نزع رجلاً واحدة ثم وضع في الحجيرة أو الفتحة المشار اليها الميكروفيلم ثم سدّ الفتحة بإحكام ، ولف الجميع

في قطعة كبيرة من الكرتون وكتب تحت عنوانه عنوان المحل السويسري ثم وضع الإرسالية جانباً .

وكان ايلي يزيل آثار الغرفة السوداء عندما قرع جرس الهاتف في غرفة نومه فإذا بصوت لا يعرفه يسأل عن كامل فأعطى ايلي إسمه ولكن بتردد وأجاب الرجل على الطرف الآخر: «هنا جورج»، ثم كانت فترة صمت قصيرة قبل أن يستعلم ايلي عن مكان وزمان إجتماعه بالمتكلم ، فاقترح جورج أن يكون المكان داراً للسينما تقع في الجوار حيث كان يعرض فيلم مصري قديم، وكان من المقرر أن لا يكون عدد الرواد كثيراً في عرض الساعة التاسعة والربع. عندما سأله ايلي كيف سيتعرفون على بعضهم، أجابه جورج : أجلس عند الممر على اليسار واحتفظ بمكان شاغر لي .

ودخل ايلي سينما الحمراء وهي صالة حديثة ولكنها قاتمة ، وبعد أن انتهى عرض الأخبار دخل إلى الصالة رجل طويل ضامر الجسم يضع على عينيه نظارات سوداء ويرتدي طقماً بنياً كاشفاً، فأخذ مكانه إلى جانبه عندما بدأ العرض. ودون أن يرفع عينيه عن الشاشة . قال له: « أنا جورج». ولم تكن هناك كلمات شيفرة ولا إشارات رمزية . وتابع سيف كلامه في صوت منخفض قائلاً إن استمرار علاقتهما يقتضي أن يتعارفا على الصعيد الإجتماعي في القريب العاجل . وما دام شيخ الأرض صديقاً فسيسعى لمقابلته بسرعة وسيسوق البحث معه إلى أن يأتي على ذكر ثابت دون أن يشعر شيخ الأرض أن اللقاء قد أُعدّ من قبل، وقال سيف مؤكداً: « سأحاول أن أكون هناك وبعد ذلك لن تقوم صعوبة في طريق صداقتنا » .

وخلال عرض الفيلم كان سيف يتحدث بدقة عن دوره قائلاً إنه باعتباره موظفاً في وزارة الإعلام ففي استطاعته أن يزوده بمعلومات سياسية وعسكرية، وقال : «إن من بين ما يقع في إطار مسؤوليته هو بث برامج إذاعة دمشق إلى السوريين في الخارج ، وهو مركز يسمح له بأن يعين ايلي على أساس التطوع كمدير للبرنامج الموجه إلى أمريكا الجنوبية ،

وستتاح له بذلك الفرصة بالدخول في الدوائر الرسمية » وأضاف قائلاً :
« قد أكون قادراً على تقديمك للأمين العام لوزارة الإعلام »، قال له ذلك
وهو يودعه، وعندما التفت إلى يمينه كان جورج سيف قد ذهب إلى شأنه.

وفي الأيام الأولى من شهر شباط بين الساعة الثامنة صباحاً والسادسة
مساء كان ايلي يراقب بعين ساهرة مقر قيادة الأركان العامة وقصر
الضيافة . واستطاع تعيين مكان غرفة المواصلات ومكاتب المكتب الثاني
بدون صعوبة ، واختار مكاناً يستطيع منه مشاهدة العمارة بدون عائق ،
والتقط صوراً لوسائل الوقاية ضد التجسس والتخريب وللشخصيات التي
تحضر إلى المبنى وتخرج منه ، كل ذلك بكاميرا تلسكوبية من خلال نافذة
تقع في الممر المؤدي إلى غرفة نومه . أما مبنى القيادة الذي يشبه القلعة في
تعقيداته فقد كان محاطاً بالأسلاك الشائكة ومخفوراً بالوحدات الخاصة ،
وكان رجال الشرطة العسكرية يحرسون الأبواب والزوايا عند المبنى الرئيسي
كما كانوا متمركزين في المراكز الإضافية . وهبط الظلام ، وتصاعدت
الأضواء على أسطحة المنازل وأبراج المراقبة مجللة المنطقة كلها . واكتشف
ايلي أن الأنوار في المكتب الثاني كانت بمثابة ميزان دقيق للموقف السياسي
في سوريا . فإذا أُطفئت عند نهاية النهار فإن الأمسية ربما مرت بدون
أحداث جديدة ، أما إذا ظلت مضيئة حتى ساعة متأخرة من الليل فإن
الأحوال في العاصمة تنذر بالخطر .

وكان النشاط المسعور الذي لاحظه ايلي في القيادة العامة أثناء الأسبوع
الثاني من شهر شباط يشير إلى أن الجيش قد اضطرب مرة أُخرى . وعندما
لمّح معزى زهر الدين إلى حالة القلق عند العسكريين أصحاب الإنقلاب
كان رأي ايلي أن الخبر كان حيوياً بما يكفي لإرساله بدون تأخير . وفي
صباح الثاني من شهر شباط ، نقل المصباح النحاسي من غرفة نومه وانتزع
جهاز الإرسال من تجويفة السقف التي أُعدت في الأصل لوضع أسلاك
المصباح الكبير المعلق ، ثم وصل الأنتين بجهاز الراديو وربطه بجهاز
الاستقبال إلى جهاز الاستقبال فيليبس الذي اشتراه من بيروت . وبعد أن

بعث برسالة قصيرة بالشيفرة انتظر حتى قرعت السابعة وهي الساعة التي تشتغل فيها كل أجهزة الإرسال في منطقة السفارات ثم أرسل الإشارة المتفق عليها إلى تل أبيب ناقلاً اليها طريقته في فك الرموز مكرراً الرقم ٨٨ عدة مرات ومنتظراً تلقي الجواب ، وبعد ثوان استمع ايلي إلى عدد بالشيفرة كان يشير إلى أن مركز الموساد على استعداد للاستماع اليه وكانت رسالته قصيرة ومختصرة : فقد نقل اليهم حالة القلق الظاهرة في الجيش وأتبع ذلك بقوله: « وجدت المنزل. بدأت العمل » ثم أضاف إلى ذلك كلمة : **Mal — Hamate** (في الشارع المقابل لمقر القيادة العامة) ثم وضع توقيعه .

مفاوض ايخمان

لاحظ ايلي في الأسابيع التي أنجز فيها استعداداته لمباشرة عمله التجاري أن الموضوع الرئيسي الذي يتداوله الدمشقيون بعد انفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة هو محاكمة أدولف إيخمان . وإيخمان شخصية ذات علاقة أساسية بإبادة اليهود في أوروبا . وقد شن رواد المقاهي عاصفة من الاشمئزاز ضد المخابرات الإسرائيلية التي اعتقلت زعيم الجستابو الألماني في الأرجنتين قبل سنة من ذلك التاريخ . وزادت الصحافة السورية النار اشتعالاً بتمجيدها إيخمان ووصفها دافيد بن غوريون بأنه النموذج الأصلي لرجل الجستابو . وعندما افتتحت المحاكمة في القدس بتاريخ ١١ نيسان ١٩٦١ كتبت جريدة النصر مقالاً افتتاحياً جاء فيه : لقد أعدت السلطات الإسرائيلية بمهارة مسرحاً في الأرض المحتلة تلعب عليه دور المنتقم للضحايا اليهود الذين سقطوا في ألمانيا في الحرب العالمية الثانية ... وأكدت الجريدة أن إسرائيل لا تستطيع أن تحاكم إيخمان لأنها هي ذاتها سلطة غير قانونية وهي تدعي حق تمثيل يهود العالم في الوقت الذي ارتكبت فيه الجرائم التي تتهم الآن إيخمان بها ، فكيف تحاكمه بينما يجب أن تحاكم نفسها ؟

وكانت الصحف التي يحملها ايلي كل يوم تنشر كل شيء على شكل حملات لاذعة ضد اليهود . فمن القاهرة إلى عمان ، ومن بيروت إلى بغداد كانت وسائل الإعلام تسخر من المحاكمة وتصفها بالمسرحية الهزلية ، محتجة بأن أعمال المتهم تستدعي عكس المعاملة التي عومل بها : « فقد كان إيخمان على صعيد يستحق منه الإطراء والمديح . وكيف يجوز لمن اشترك في تطهير ألمانيا من اليهود أن يقدم إلى المحاكمة ؟ »، وهذا السؤال الذي وجهته الجريدة الأردنية جيروسالم تايمس **Jerausalem Times** ، أما النهار

وهي جريدة لبنانية يومية فقد ظهر فيها كاريكاتور يبدو فيه إيخمان وهو جالس على تلال من الجماجم، وكتب تحت الصورة: «قدم إلى المحاكمة لأنه لم يقتلهم جميعاً» .

وكان المعلقون العرب في المنطقة يقولون إن الإسرائيليين إذا كانوا قادرين على اختطاف إيخمان ومحاكمته فإن من حق العرب أن يحاكموا بن غوريون وعصابته . ووصل آخرون إلى حد الإدعاء بأن الألمان لم يقتلوا عدداً كبيراً من اليهود . وقال راديو عمان : الحقيقة هي أن النازيين لم يتسببوا سوى في موت بضع مئات ، وأقدم دعاة آخرون على تصوير إيخمان وكأن الإسرائيليين مدينون له بوجودهم . وقالت محطة صوت فلسطين في تعليقها بأن إيخمان يستحق أن ينصب له تمثال في كل قرية ، وفي كل مدينة ، وفي كل شارع من شوارع إسرائيل . وأضافت المحطة إلى ذلك تقول : « سواء أراد إيخمان أو لم يرد ، فهو نبي الدولة اليهودية ومؤسسها الحقيقي ... فباسم إيخمان ، وباسم غرف الغاز ، وباسم معسكرات الموت ، وباسم هتلر ، وباسم الملايين الذين تدعي الصهيونية أنهم أبيدوا من قبل إيخمان ، باسم هؤلاء جميعاً قامت الأمبريالية بتنفيذ جريمتها في فلسطين » .

وإلى جانب هذا الكلام فقد كانت التغطية الواقعية للمحاكمة من قبل صحافة دمشق ضئيلة، وعندما دخلت المحاكمة أسبوعها الثاني بدأ السوريون يهتمون بما تكشفت عنه . وكان كثيرون من العرب أصحاب النفوذ يخشون أن تخلق الشهادات التي أدلى بها امام المحكمة جواً من العطف على إسرائيل ، وأن تكشف عن مساندة قادة العرب للنازيين بصورة مكشوفة ، وهكذا يعرضون للخطر اتهاماتهم الخاصة بمذابح إسرائيل في فلسطين . ولكن كان فوق كل هذا الخوف من أن يكشف إيخمان عن نشاطات الألمان في الشرق الأوسط وهم يقومون بالعمل إلى جانب العرب، وقد لوحت الدعاية التي أحاطت بالقضية بخطر إضافي : إذا كان الإسرائيليون قد أقدموا على خطف ألماني وطني في أحد بلدان أمريكا اللاتينية فما الذي

يوقفهم عن القيام بمحاولة مماثلة في أحد البلدان العربية المجاورة . وكان بعضهم في دمشق يخشى أن تكون مثل هذه العملية محتملة (... !) .

* * *

وكان بين الأعمال التي عهد بها إلى ايلي خلال استيعابه لمهمته خارج إسرائيل التحري عن الموظفين النازيين الألمان الذين يعيشون في سوريا وكان مصدر معلوماته الأكبر هو شيخ الأرض ، فقد عاش في برلين أثناء الحرب وكان قريباً من الألمان الذين كانوا يراقبون نشاطات العرب المتعاونين مع الرايخ. ولم يكن ايلي يعرف إلى أي مدى يمتد ولاء شيخ الأرض، ولكنه كان يفترض أنه قادر على الاتصال بمهاجرين ألمان هربوا إلى سوريا ليفروا من التهم التي وجهت إليهم حول جرائم الحرب .

وفي مساء ذات يوم وبينما كان الحديث يدور حول محاكمة إيخمان سأل شيخ الأرض عما إذا كان قد تعرف على أحد من الألمان الذين يقيمون في دمشق أو في أي مكان آخر من منطقة الشرق الأوسط . وكان الجواب على هذا السؤال مشجعاً، فلقد كان لشيخ الأرض صديق اسمه روزيلو كان يتولى شؤون اليهود أثناء الحرب والآن يعمل مستشاراً في المكتب الثاني. وأعرب ايلي عن رغبته في لقاء روزيلو ولكن عندما أظهر شيخ الأرض بعض التردد مقترحاً انتظار الفرصة المناسبة للتعرف عليه لم يصر ايلي على طلبه، واكتفى بوعد شيخ الأرض بأن يثير هذا الموضوع مع الألماني روزيلو .

وفي الصباح التالي بعث ايلي برسالة لاسلكية إلى مقر قيادة الموساد قال فيها إنه: « اكتشف ألمانياً له ضلع في الحل الأخير الذي ابتكره الرايخ للمشكلة اليهودية » ، ثم أطلعهم على اسم روزيلو وطالب بتعليمات جديدة . وقد أبلغت هذه الرسالة فوراً إلى الشعبة التي تشتمل مسؤولياتها على التحري عن مجرمي الحرب النازيين . وقام أحد ضباط الارتباط في الموساد بالاتصال بـ « أتام Atam » وهي شعبة التحريات الخاصة في الشرطة الإسرائيلية طالباً

الاستعلام من إيخمان عن ألماني أطلق على نفسه اسم روزيلو وهو يعيش الآن في دمشق . وأرسلت أتام هذا السؤال إلى المكتب رقم ٦ الذي كان يحضر قضية إيخمان لمحاكمته ، وأصدر مدير المكتب بدوره أمراً إلى باكاد آفنرلس الذي كان يستجوب إيخمان منذ اعتقاله في إسرائيل، ليطرح عليه هذا السؤال . وخلال أيام أحيطت الموساد علماً بأن السجين قد تعرف على روزيلو وأنه موظف سابق في الرايخ الثالث ويدعى فرانس راد ماشر .

وأرسل المكتب المذكور فوراً كتاباً إلى المكتب المركزي لمحاكمة مجرمي الحرب الألمان في لود ويكسبرغ – المانيا الغربية يستوضح فيه عن مكان وجود راد ماشر، وكان مدير هذا المركز مطلعاً على هذه القضية، فأبرق إلى تل أبيب قائلاً إن راد ماشر فرّ من ألمانيا في عام ٩٥٢ بينما كان مطلق السراح بكفالة بانتظار ملاحقته بتهم جرائم الحرب، وقد عرفت السلطات الاتحادية في ألمانيا الغربية أنه فر إلى سوريا غير أن إقامته الحالية كانت غير معروفة .

غير أن الملفات الموجودة لدى السلطة المكلفة بالتحري عن الأبطال والشهداء اليهود ، والتي مقرها في مدينة القدس تضمنت معلومات واسعة عن راد ماشر . كما أن المراكز التي تجمع الوثائق في باريس ، ولندن ، وبرلين ، وميونيخ ، ونيويورك تقدمت أيضاً بمعلومات إضافية . ولخص المكتب رقم ٦ الجرائم المنسوبة إلى راد ماشر وبعث بها إلى ضابط الارتباط في الموساد . وهكذا تكونت عن طريق هذه المصادر صورة تقشعر لها الأبدان عن بيروقراطي من الرايخ الثالث متصف بالجشع أدت مذكراته إلى ذبح الآلاف من اليهود ... ولد فرانس كاله راد ماشر في ٢٠ شباط ١٩٠٦ في نوستر وليس ماندنبرغ من عائلة متوسطة مع تاريخ طويل في خدمة الحكومة . وهو ابن لكاتب فقير كان يعمل في سكة الحديد كما كان عليه أن يدفع تكاليف دراسته ، لذلك بدأ العمل في سن السادسة عشرة . وبعد دراسته الثانوية حصل على الدرجة التي تمكنه من دخول الكلية في عام ١٩٢٤ فتسجل في مدرسة الحقوق في جامعة ميونيخ . وبعد

أن اجتاز بنجاح الفحوص عام ١٩٢٩ منح الإجازة التي تمكنه من ممارسة المحاماة .

وقبل التخرج انضم رادماشر إلى لواء الايرهارت ذي التنظيمات شبه العسكرية التي أسسها الجنود المنشقون أو الذين لم يجندوا بعد انحلال الرايخشويهر . وكان أعضاء اللواء المذكور معارضاً لجمهورية ويمار وكانوا يبحثون عن منطلق لفعالياتهم العنيفة . غير أن التحاق راد ماشر بهذه الفئة كان متأخراً بحيث لم يتح له فرصة المساهمة في حملاتها العسكرية . وقد لعبت هذه الحركة دوراً في تعزيز آرائه العنصرية وتغذية مشاعره اللاأخلاقية مما كان له أثر كبير في مجرى حياته .

وقبل أسابيع فقط من تخرجه صدرت الأوامر بحل اللواء المشار اليه ، ووجه رادماشر اهتمامه للنازيين من ذوي القمصان السمراء . وبعد ذلك ساعده رئيسه في هذه المنظمة على الانفكاك مكرهاً عن هذا العمل في أوائل عام ١٩٣٤ . غير أن خدمات المحامي وجهوده لم تنس ، فبعد شهرين من استيلاء أدولف هتلر على مستشارية الرايخ الثالث في آذار ٩٣٥ كوفىء بقبوله عضواً في الحزب الوطني الاشتراكي للعمال الألمان .

وفي السنين الثلاث التالية اشتغل رادماشر براتب زهيد كسكرتير مساعد في وزارة العدل في مكلنبورغ بينما كان يكرس كل فراغه للحزب . غير أن طموح المحامي الشاب جعله غير مرتاح لمركزه فاجتاز اختبارات أخرى إلى أن رفع إلى وظيفة مساعد قانوني . وبعد أربع سنوات من العمل في الهيئة التشريعية قرر ترك العمل . وعندما أصبح مستشاراً للدولة في حزيران ١٩٣٧ راح يبحث عن وظيفة أكثر انطلاقاً . فحصل على مركز سكرتير مفوض في القسم الثقافي لوزارة خارجية الرايخ وذلك بالاستناد إلى الشهرة التي حصل عليها كعضو في حزب النازي .

وبحث رادماشر عندما كان في برلين عن منزل تتاح له فيه إقامة دائمة . وكان موضوع السكن في العاصمة آنئذٍ صعباً ودقيقاً ، كما كانت

الدور الكبيرة نادرة ، والأجور مرتفعة . وباعتباره من رجال الحكم كان من حقه أن يحصل على منزل مصادر غير أن المتزاحمين على دور السكن كانوا كثيرين . وكان التسابق على المنازل التي تخلى عنها اليهود المرحلون مثاراً لجشع لا حدود له ، حتى أن جميع الوزارات كانت تحث الجستابو على حجز بعض المنازل لكبار موظفيها . وهكذا استفاد رادماشر من علاقاته الشخصية واستطاع في أسابيع قليلة أن يبلغ رؤساءه : « لقد حصلت على وعد خاص بإخلاء أحد منازل اليهود وفقاً لإجراءات خاصة بشرط أن أقوم بترميم البيت بكلفة قدرها ٧٠٠ مارك ، وبسبب الأزمة القائمة فإنني لا أجد سبيلاً آخر للحصول على دار سكن مناسب بسعر معقول . ولما كنت لا أملك السبعمائة مارك لذلك أطلب منحي قرضاً خاصاً بهذا المبلغ » . وعلى الرغم من صدور الموافقة على هذا القرض فقد نقل رادماشر إلى أمريكا الجنوبية قبل أن تتاح له فرصة الاستفادة منه .

وكان الرايخ يتصور في بادىء الأمر إقامة وطن قومي لليهود في الأمازون ، ولذلك أوفد رادماشر إلى ريو دي جانيرو ليحث حكومة البرازيل على أن توافق على الخطط الألمانية الرامية لتهجير اليهود إلى البرازيل . وهذا المشروع وإن كان قد انهار في مراحله الأولية إلا أن التقارير المغرية عن الجهود التي بذلها رادماشر في هذا السبيل لفتت أنظار كبار المسؤولين في برلين ، وبعد أن زحفت ألمانيا على براغ في عام ١٩٣٨ نقل رادماشر إلى مونتيفيديو حيث كانت له اليد الطولى في المساعي المثمرة التي أدت إلى تدخل ألمانيا المباشر في شؤون أورغواي الداخلية ، غير أنه بعد نزاع جرى مع الضابط الألماني المعتقل في بارجة الجيب الألمانية غراف شبي عاد إلى ألمانيا في نيسان عام ١٩٤٠ بناء على طلبه .

وفي أوائل الحرب العالمية الثانية كان رادماشر قد استقر في السلك الدبلوماسي غير أنه فضل الخدمة العسكرية وحاول التطوع في البحرية . ولكن محاولته هذه أثارت سخط وزير الخارجية فون روبنتروب فأعاده – جزاء عناده – إلى وظيفة غير جذابة في المكتب السياسي الذي يرأسه

سكرتير مساعد يدعى مارتن لوثر . وكان لوثر حليفاً سياسياً حميماً لفون روبنتروب ، وقد أفاد من هذه الصداقة لتعزيز مركزه داخل الوزارة . وبذلك ساعد مرؤوسه رادماشر على صعود سلم الترفيع بسرعة فائقة حيث استطاع هذا أن يضمن نجاحاً وتفوقاً كبيرين عن طريق براعته في العمل ، وحرصه على عدم الإساءة إلى الذين يتوقف عليهم نجاحه أو ترفيعه . وفي حزيران عين مديراً لشعبة شؤون اليهود في دول المحور والبلدان المحتلة .

وفي بداية الحرب كانت ألمانيا لا تزال تتعثر في المرحلة الأولى من مراحل المشكلة اليهودية وهي مرحلة التهجير من الرايخ، وقد أسند تنفيذ هذه المرحلة إلى دائرة تدعى « دائرة الأمن الرئيسية » . أما المكتب المختص بشؤون اليهود في هذه الدائرة فقد كان يرأسه أدولف إيخمان . وكان هذا المكتب يتعاون مع مكتب مارتن لوثر الآنف الذكر في إعداد القرارات الخاصة بالتدابير التي يجب اتخاذها ضد اليهود في خارج ألمانيا . وقد عهد لرادماشر بإدارة الشؤون اليهودية الخاصة بوزارة الخارجية . وانصرف السياسي الشاب في عمله هذا بحماس غير عادي حتى أصبح ذا قدرة فائقة على التصرف بالقضايا اليهودية .

وكان من بين المهمات التي انصرف إليها ، وهي من النوادر التي اشتهر بها النظام النازي : «مشروع مداغسكر لإعادة إسكان اليهود الأوروبيين على الشاطىء الأفريقي » . ولما كان هتلر لا يزال حتى تلك الفترة يتأثر بالرأي العام العالمي لذلك رفض مشاريع القتل الجماعي كحل للقضية اليهودية . وكان يرجو أن يحصل على ثروات اليهود كعوض عن حياتهم . كما كان يتصور الحصول على دفعات بالعملة النادرة كفدية عن اليهود المهاجرين إلى خارج البلاد . واهتم شخصياً بهذا الاقتراح بعد سقوط فرنسا فدفع به إلى الحركة بسرعة . وقد أعدت للمشروع خطة عمل من قبل رجال الجستابو ثم رفع إلى وزير الخارجية ليعالج ما قد يعتريه من مضاعفات سياسية . فأوعز وزير الخارجية لمارتن لوثر ليعهد بهذا المشروع

إلى شعبة اليهود . وهكذا قام رادماشر بإنجاز المهمة في ٣ تموز ٩٤٠ إذ رفع مذكرة عنوانها : « المسألة اليهودية في معاهدة الصلح » . وقد وضعت هذه المذكرة مخططاً بالتحركات الدبلوماسية الضرورية كخطوة مبدئية لتنفيذ المشروع . وكتب رادماشر في مذكراته يقول :

« إن نصرنا القريب يضع ألمانيا – في رأيي – أمام واجب حل المشكلة اليهودية .. والحل المرغوب هو ترحيل جميع اليهود من أوروبا » .

* * *

« ومعاهدة الصلح مع فرنسا يجب أن تشتمل على بند يلزم الحكومة الفرنسية بوضع جزيرة مداغسكر تحت تصرفنا لحل المسألة اليهودية . فيجري إخلاء الخمسة وعشرين ألف فرنسي المقيمين في الجزيرة بعد التعويض عليهم . ثم تتحول الجزيرة إلى ألمانيا كدولة منتدبة ... أما أقسام الجزيرة التي لا تشملها الحاجات العسكرية فيجب أن توضع تحت إمرة الحاكم الألماني الذي يكون بدوره ملحقاً بإدارة الجستابو . وفيما عدا ذلك يحصل اليهود على استقلالهم في المنطقة فيكون لهم محافظوهم وشرطتهم وبريدهم كما يكون لهم حق إدارة السكك الحديدية .

* * *

« ويبقى اليهود تحت السيطرة الألمانية كرهائن لضمان حسن السلوك لدى أبناء جنسهم في أمريكا » .

* * *

هذا الكرم الذي أظهره الألمان في منح اليهود حرية التصرف في شؤون الثقافة والاقتصاد والإدارة والقضاء. كان يستثمر في شؤون الإعلام.

ومضى رادماشر بمساندة من مارتن لوثر في تعزيز هذه الفكرة التي بدت كأنها تشق طريقها إلى النجاح – وانضم رجال الحزب النازي إلى هذه المعزوفة ، وازدادت مساندة مشروع البيروقراطي الشاب بمعدل

ازدياد مكانته . ولم يؤخذ رادماشر على حين غرة عندما أشرف مشروعه على الزوال نتيجة للانتصارات التي أحرزتها الجيوش الألمانية في الجبهة الشرقية . فقد كتب يقول في العاشر من شباط ٩٤١ إن الحرب في الاتحاد السوفياتي قد شقت الطريق لفرص جديدة يمكن بها إنهاء المشكلة اليهودية. وأضاف يقول إن الفوهرر قرر أن يجعل من الأراضي التي افتتحها في أوروبا الشرقية وطن المستقبل لليهود . وفي صيف ذلك العام ردد مارتن لوثر هذا الرأي في مذكرة قال فيها : « إن التطورات السياسية الأخيرة جعلت من مشروع مداغسكر مشروعاً قديماً تخطاه الزمن » .

واستفاد مارتن لوثر من مواهب رادماشر في النضال على الصعيد البيروقراطي لتعزيز مركزه في الرايخ ، وكانت حياة اليهود مجرد مخالب في لعبته المميتة . وفي ٨ أيلول ١٩٤١ وردت إلى وزارة الخارجية الألمانية من بلغراد برقية من ادموند فيسن ماير السفير الألماني المتجول في البلقان ، وفيليكس بنزلر الوزير المطلق الصلاحية في حكومة صربيا العميلة ، وفيها اتهم اليهود بالثورة وأعمال التخريب وحض على ترحيلهم إلى رومانيا . ولم يكن لوثر راضياً عن مبادرة الدبلوماسيين هذه ، وأجاب أن الوزارة ترى أن الاقتراح غير صالح . غير أن هذا الرفض لم يردع بنزلرولا فيسن ماير ، ففي خلال ثمان وأربعين ساعة أبرقا بتوصية أخرى مصرين على أن « حلاً سريعاً وشديد القسوة في صربيا يتصف بطابع الضرورة والاستعجال » . وهكذا أصبح الترحيل إلى المناطق المحتلة في روسيا وبولونيا بديلاً عن مشاريع التهجير الأصلية .

وعندما أحس لوثر بالضغط ، أحال القضية إلى رادماشر ليحركها بسرعة في بلغراد قبل أن يتلقى تشجيعاً من مراجع أعلى في الجستابو . فاقترح رادماشر استمزاج رأي إيخمان في الموضوع. وبعد موافقة لوثر اتصل في مكتبه بما كان يدعى المكتب الرابع ب ٤ آ . وكان إيخمان يصغي بهدوء عندما تليت عليه الرسالة . وسجل رادماشر ملاحظاته ثم سلم الورقة إلى رئيسه . وقد جاء في الملاحظة ما يلي : « إيخمان يرى أن ليس هناك

سبيل لاستقبال اليهود في روسيا ولا في بولونيا ، ولا مكان هناك حتى لليهود الألمان » . ثم كتب في ذيل البرقية الواردة من بلغراد : « إيخمان يقترح الرمي بالرصاص » .

وقال راد ماشر في مذكرة بعث بها إلى لوثر في وقت متأخر من ذلك اليوم أن الترحيل غير ضروري ، وإن قتل عدد كبير من اليهود رمياً بالرصاص يعتبر من الحلول المقبولة . وفي ١٠ تشرين الأول أوفد رادماشر مع اثنين من معاونيه الرئيسيين إلى بلغراد وهو يحمل شخصياً تعليمات خاصة بالإشراف على هذا الموضوع . فقضى أربعة أيام في العاصمة الصربية . وقبل أن يعود إلى برلين أوضح الخطوات التي يجب اتخاذها : « الرجال سيقتلون رمياً بالرصاص في نهاية هذا الأسبوع . أما النساء والأطفال والمسنون وكذلك العجزة – باستثناء رجالهم – فسيحشدون في حي خاص بهم في المنطقة الغجرية من بلغراد»، ويجب أن لا يقدم اليهم في فصل الشتاء سوى القليل من الطعام ، ومتى أمكن الوصول إلى الحل النهائي وأصبحت الوسائل الفنية جاهزة جرى ترحيلهم إلى الشرق . وفي أيار ١٩٤٢ كان كل شيء قد أنجز بحيث استطاع المكتب في بلغراد أن يعلن بأن صربيا لم يعد فيها مشكلة يهودية .

بعد هذا تصاعدت انجازات رادماشر على هذا الصعيد . وعندما سئل عما إذا كان بالإمكان من الناحية العملية ترحيل اليهود من الرومانيين، والسلوفاك، والكرواتيين الذين يعيشون في ألمانيا، تطوع لبحث الموضوع مع الحكومات المختصة ، وكخطوة مجاملة يتقرب عن طريقها من مكتب ب ٤ آ الرابع أنجز بسرعة اتصالاته الدبلوماسية ، وأحاط إيخمان علماً بأن الحكومات الثلاث قد وافقت على طرد رعاياها من اليهود الذين يعيشون في ألمانيا إلى مناطق خاصة في الشرق . وفي إطار هذا التعاون الدقيق مع الجستابو استطاع رادماشر أن يكسب لقب « مفاوض إيخمان » .

وفي بداية عام ١٩٤٢ كان رادماشر يحضر لمؤتمر للبحث في حل المشكلة اليهودية حلاً جذرياً . وكانت التعليمات التي لديه-تفرض عليه

تنفيذ أوامر الفوهرر الأخيرة وهي التصفية الجسدية لجميع اليهود الذين يعيشون في ظل الرايخ الثالث.

وفي ٢٠ كانون الثاني بعد الغداء افتتحت الجلسة السرية في إحدى ضواحي برلين «وانسي»، وضمت ممثلين عن مختلف الهيئات التي تعنى بشؤون اليهود. وكان بين من حضروا ١٥ ضابطاً من كبار رجال الشرطة، و ١٥ مديراً عاماً من مختلف الوزارات، وذلك لكي يستمعوا إلى رينهارد هايدريتش رئيس مكتب الـ **Rsha** وهو يؤكد سلطة الجستابو في كل ما يتعلق بالشؤون اليهودية. وكان هايدريتش قد عين مفوضاً في « هيئة التحضير لحل أوروبي للمشكلة اليهودية ». وأشار إلى أن التجارب المتعلقة بالهجرة في الغرب قد كشفت عن الحاجة إلى أسلوب أكثر ملاءمة. وإن الأسلوب القديم قد أدرك نهايته بناء على أمر صادر من هاينريش هملر. وهكذا أصبح ترحيل اليهود إلى الشرق أمراً محتماً وذلك تمهيداً لإبادتهم نهائياً. وصدرت التعليمات بتنفيذ الخطة الجديدة في جميع البلدان الخاضعة للاحتلال النازي وكذلك في البلدان المحايدة: إيرلندا، اسبانيا، السويد سويسرا، تركيا (اشتملت قائمة هايدريتش على رقم اليهود الذين يشملهم الحل النهائي وهو أحد عشر مليوناً). وعندما انتقل النقاش إلى المضاعفات السياسية للخطة قدم لوثر تقرير رادماشر: «آراء واقتراحات وزارة الخارجية لحل المشكلة اليهودية في أوروبا». وقد وافق مؤتمر وانسي على جميع ما ورد في هذا التقرير من توصيات.

وفي السادس من آذار دعا أدولف إيخمان إلى مؤتمر لبحث الحل النهائي، ودعا رادماشر لحضور هذا المؤتمر. وفي هذه المرة بحث المؤتمرون في شؤون الـ **Mischlinge** وهي الشؤون المتعلقة بالجيل الناشىء عن الزواج المختلط أو القرابة المختلطة. وبعد مداولات قصيرة انتهوا إلى أن هذا المزيج يجب أن يخضع في مراحل التوليد لعمليات التعقيم مما يجب اعتباره عملا كريماً. وقد شمل هذا القرار ما لا يقل عن ٧٠ ألفاً من المولودين. وقد أوصى المؤتمرون كذلك بالطلاق الإجباري، وبمنع

الزواج من شبان أو شابات من أصل مختلط . وقد تحولت هذه المقترحات إلى سياسة نافذة بعد الاجتماع الثالث الذي عقده « مؤتمر الحل الأخير » في برلين بتاريخ ٢٧ تشرين الأول ، وذلك وفقاً لتقرير لاحق بعث به رادماشر إلى مارتن لوثر .

وفي ربيع ١٩٤٣ لاحظ رادماشر أن نفوذه قد تأثر بصراع ضروس على السلطة أدى في النهاية إلى سقوط لوثر . وانتهى إلى تعريض عدد من الشبان الذين كانوا موالين لرئيس المكتب لسلسلة من أعمال التحقيق . وهنا طلب رادماشر مجدداً الانضمام إلى البحرية . ولم يكن هذه المرة في حاجة إلى وساطات لتحقيق طلبه هذا إذ أن فون روبنتروب أصدر أمره بنقله دون تأخير حيث بقي رادماشر حتى آخر الحرب يقوم بأعمال كنس الألغام منذ كان عريفاً وإلى أن رقي أخيراً إلى رتبة ملازم أول .

وفي يوم النصر كانت سفينة رادماشر راسية في زقاق جرفي من ميناء دانماركي . وكانت قوات الاحتلال البريطانية قد أصدرت أوامرها بتطهير شواطىء الدانيمارك من الألغام . وفي إحدى الدورات التفتيشية أصيبت السفينة بعطب وكان عليها أن تخضع للتصليح . وعندما كان بحارة السفينة موقوفين في مركز (ستومول) رقم ٥ ، قام رادماشر بتنظيم مصلحة إعلام سرية خدمة لزملائه من أسرى الحرب . غير أن سلطات المعسكر لم تستطع الكشف عن هويته الحقيقية فأفرجت عنه مع البحريين الآخرين .

واستقر رادماشر في هامبورغ متنكراً باسم مستعار حيث اشتغل في أعمال غير نظامية . وفي ٢ أيلول ٩٤٧ اكتشفت مخابرات الجيش السابع الأميركي أنه موظف سابق في وزارة الخارجية الألمانية ، وأرسلت فريقاً من عملائها لتوقيفه في منزله . غير أن تردد وزير القوات المسلحة كنيث رويال بالسماح لقوات الاحتلال بملاحقة الضالعين في موضوع « الحل النهائي » أنقذ رادماشر من محاكمة عاجلة . وقد لاحظ أحد المراقبين أنه نجا من المحاكمة لأنهم كانوا في حاجة إليه كشاهد في محاكمات نورمبرغ ، غير أنه امتنع عن تقديم الشواهد والأدلة لأنه كان هو نفسه في انتظار أن

يحاكم . وبعد سنة من توقيفه أعادت شعبة الجيش ملف رادماشر إلى سلطات ألمانيا الغربية . فقررت بون محاكمته ونقلته من معسكر للتوقيف التابع للحلفاء إلى سجن نورمبرغ . وفي فترة إعداد وثائق الإتهام أفرج عن رادماشر بكفالة بتاريخ ٢٠ أيار ٩٤٩ حيث عاد إلى هامبورغ باحثاً عن عمل . وفي خلال أيام قليلة استخدم من قبل فيليب ريميسي في هامبروغ كسكرتير خاص . وهنا أيضاً استأنف رادماشر نشاطه السياسي وراح يكتب للنشرة المعادية للسامية داي انكلاج . وفي هذه الأثناء كان الألمان قد أنهوا تحرياتهم دون أن يقرروا تقديمه إلى المحاكمة . غير أن المنظمات اليهودية في الولايات المتحدة تابعت ضغوطها ، كما أن مكتب المفوض السامي تابع ملاحقته إلى أن صدرت مذكرة بتوقيف رادماشر مرة أخرى في ١٧ آذار ٩٥١ . وهنا تعرض الموضوع لتأجيلات أخرى وبعد مضي خمسة أشهر كان رادماشر وراء القضبان الحديدية . ومع ذلك فقد أمضى سنتين قبل أن يقدم إلى المحكمة .

وفي يوم الإثنين ٢ شباط ٩٥٢ مثل رادماشر أخيراً أمام محكمة نورمبرغ . وكانت المحكمة مؤلفة من ثلاثة حكام ، وهيئة محلفين من ستة يرأسهم ويلهلم شرام . وفي بيان الاتهام قال المدعي العام هينان إن المتهم كان مسؤولاً عن قتل أكثر من ١٥ ألفاً من يهود الصرب وعن ترحيل ٨٠ ألف يهودي من رومانيا و ١٠٨ آلاف من فرنسا وبلجيكا وهولندا . وإن أكثر من ٨٠ بالمئة من هؤلاء قد أبيدوا في حمامات الغاز أو قتلوا رمياً بالرصاص . فأنكر المتهم كل ما نسب إليه بالنسبة لجميع الفقرات الإتهامية ملقياً مسؤولية الجرائم المرتكبة على عاتق رؤسائه . وعندما قدمت الوثائق التجريمية إلى المحكمة ، أكد رادماشر بلهجة هادئة : « كانت كتابة هذه التقارير تقع ضمن واجباتي اليومية » .

ولم تثر محاكمة الأسابيع الستة ضجة كبيرة في ألمانيا . وكان بين شهود الإثبات وعددهم ثلاثون شاهداً قبضة من موظفي وزارة الخارجية الألمانية أدلوا بشهاداتهم في غرفة كانت خالية تقريباً من المشاهدين . وفي

بعض الأيام كان المشاهدون ينتمون إلى الصحافة . وقد استمعوا إلى رادماشر وهو يدعي أنه لا يعرف أن معسكر أوشويتز كان معسكراً للموت ، وكان في علمه أن اليهود المرحلين يعملون في المعامل ويشتغلون في بناء الطرق . ولم تبدر أية حركة من رادماشر عندما قال أحد شهود الدفاع للمحكمة إن جميع الدبلوماسيين الألمان أحيطوا علماً بخطط الجستابو الرامية لإبادة اليهود جماعياً في أوروبا قبل فترة طويلة من تنفيذ هذه الخطط ، وأن نشرة باسم «بروتوكول وانسي» قد وزعت في حينه على موظفي وزارة الخارجية الألمانية .

وأصغى النائب العام هانس غوتلر إلى تشبث رادماشر بإنكاره . ثم قدم أخيراً قطعة صغيرة من أدلة الإثبات وهي دراسة عنوانها « تصفية اليهود » وكان رادماشر قد أعدها لدى عودته من بلغراد ، وهنا انهار المتهم واعترف باطلاعه على خطط الإبادة ، ووافق على أنه تقدم بشهادة كاذبة . غير أن الدكتور هانس تيبفورت من هيئة الدفاع — وهو خبير بجرائم الحرب — حاول تغيير وجهة المحاكمة . فأكد أن موكله كان ينفذ الأوامر ، وكان ماضياً في أداء واجباته . وكان القضاة أيضاً متمسكين بعدم توسيع القضية . وقال غوتلر بدوره إن رادماشر بنى دفاعه على « سلسلة من الأكاذيب » وطلب الحكم عليه بالسجن مدى الحياة . وفي ١٧ آذار جاء المحلفون بحكم التجريم : « إن من الصعب الاعتقاد بأن رادماشر لم يعرف من المركز الذي كان فيه ماذا كان يحدث بالفعل » وهذا ما قاله الحاكم شرام عندما أصدر حكمه . وأضاف « إن نشاطاته كلها أظهرت معرفته بمصير الضحايا اليهود . كما كان يعرف جيداً أن اليهود الذين قام بترحيلهم شخصياً كانوا ينقلون إلى معسكرات الإبادة » . وحكم على رادماشر بالسجن ثلاث سنوات وخمسة أشهر — ثلاث سنوات بسبب قتل اليهود الصربيين ، وخمسة أشهر لترحيل اليهود البلجيكيين . أما الاتهامات الخاصة برومانيا فقد صرف النظر عنها بحجة فقدان الأدلة . ولما كانت المحكمة قد أخذت بعين الاعتبار مدة التسعة والعشرين شهراً التي قضاها رادماشر في السجن، لذلك كان من حقه أن يطلق سراحه بعد ستة أشهر فقط.

وقد أثارت هذه المحاكمة سخط اليهود والألمان معاً . واعتبرت في بعض الأوساط كنذير بما سيقع بعد ذلك . وسارع المؤتمر اليهودي العالمي إلى القول : « إن هذا الحكم هو نذير شؤم بالنسبة لما ستكون عليه أحكام مجرمي الحرب بعد انتقال موضوعهم إلى أيدي الألمان » . وانتقدت الصحافة الألمانية تبرير المحكمة للمدة القصيرة التي حكم خلالها على رادماشر ودعت إلى البحث عن وسيلة لإصدار حكم أشد قسوة . وقرر الإدعاء استئناف الدعوى بينما شعر تيب فورت محامي المتهم الذي شجعه الاتجاه الذي ذهب إليه الحكم أنه قادر على أن يفعل أفضل مما فعل في المرة السابقة . فأبرق مستأنفاً بأمل أن يحصل على إفراج فوري عن موكله . وفي تموز أصدرت المحكمة العليا أمرها بتجديد المحاكمة منددة بتساهل الحاكم ومحيلة القضية إلى محكمة أخرى . وهكذا أفرج عن رادماشر بكفالة للمرة الثانية .

وخشي رادماشر أن يصيبه الإخفاق في المحاكمة الثانية لا سيما وأن الصيحات قد تعالت استنكاراً لتجدد النشاط النازي في ألمانيا . وهكذا قرر مغادرة البلاد. ولم يكن رادماشر يرتبط بمسؤولية تجاه أولاده ، ذلك أن زوجته وولداه اللذين بقيا من خمسة أولاد — قتل ثلاثة منهم أثناء الحرب — يعيشون في ألمانيا الشرقية . وقد تولى صديقه روبرت كرامر صاحب نشرة داي انكلاج **Die Anclage** تدبير فراره . وكانت هناك المنظمة السرية أودسا التي شجعت النازيين السابقين على مواجهة اتهامات الحكومة الفيدرالية . وهذه المنظمة ساعدت رادماشر على الهرب من موناكو في أول أسبوع من شهر آب . وبعد توقف قصير في مونت كارلو تابع سفره إلى مرسيليا حيث تولى عميل فرنسي مرافقته إلى القنصلية الأسبانية التي منحته جوازاً باسم توم روزيلو . وبعد ذلك حصل على تأشيرة لبنانية باسمه المزور ، وأبحر إلى القاهرة عن طريق بيروت .

وأرخى رادماشر عند سفره شاربين كثيفين جعلاه يبدو أصغر سناً بما لا يقل عن عشر سنوات وما كاد يصل إلى العاصمة المصرية حتى سمع

أن محاكمته أثارت ضجة عنيفة في الأوساط الألمانية (قالت النشرة الدورية **Deuth Earia** تمجد فراره وتصفه بأنه عمل بطولي أنقذه من براثن اليهود . وسارع كثير من النازيين الذين وجدوا ملجأ لهم في مصر لتحيته عارضين عليه مأوى وأنواعاً مختلفة من المراكز في الدولة ، غير أنه لم يجد في جميع هذه الوظائف ما يلفت اهتمامه لأنه لم يكن جندياً ، ولا خبيراً في شؤون الإعلام لذلك أكد أنه لن يشعر بالارتياح في أي من هذين الحقلين. وسرعان ما تبين له أن مصر ليست المكان الصالح الذي يستطيع فيه إقامة جذوره فغادرها إلى سوريا .

وفي سوريا استطاع التستر بأمان ، وحاول أن يشق طريقه إلى المجتمع السوري وفي هذه المحاولة اعترضته المتاعب لأنه بعد أن أسس مكتبـــاً للاستيراد والتصدير في العاصمة لاحظ أن الأحوال لم تكن حسنة ، وأن مغامرته منيت بالفشل . وفي حزيران ١٩٥٥ بلغت الخيبة في نفسه حداً حمله على أن يكتب لحكومة ألمانيا الغربية عن رغبته في الاستسلام شريطة أن يلقى معاملة حسنة . وقد عمل على توجيه الرسالة من القاهرة وعن طريق السفير الألماني فيها غير أن الرسالة لم تشتمل على عنوان يسمح بإرسال الجواب وهنا راجت التخمينات حول مخاوف رادماشر على حياته في سوريا . غير أن نظرية أخرى تقول إنه أراد فقط أن يصرف أنظار المحققين الألمان عن مكان وجوده فعكس عليهم انطباعاً بأنه لا يزال يعيش في مصر .

ومهما كانت لدى رادماشر من خطط العودة إلى ألمانيا فقد قطعت حملة سيناء الطريق على هذه الخطط غير أنها عملت لمصلحته . ذلك أن الدبلوماسيين من مدرسة فون روبنتروب كانوا في هذه الفترة يشقون طريق مستشاري الويرماخت إلى الخدمة في سوريا وبما أن رادماشر مختص في الشؤون اليهودية لذلك شعر أن نجمه آخذ في التألق، فعرض عليه المكتب الثاني في سوريا أن يستخدم كمستشار في شعبة فلسطين .

وعلى الرغم من أن تحسن أوضاعه أزال المخاوف والشكوك التي كان يشعر بها إلا أنه أزاح ستار الكتمان عن شخصيته ، وبدأت الأنباء

عن دوره الجديد تتسرب إلى بون ، وفي أواخر عام ٩٥٧ كان الطلاب العرب الذين يدرسون في المانيا الغربية يعلنون أن رادماشر قد حصل على مركز عال في الإدارة السورية . عند ذلك أصدرت محكمة بامبرغ مذكرة بتوقيفه بينما جدد رجال الشرطة في الحكومة الفيدرالية تحرياتهم ، وطلبوا من الانتربول أن يحدد مكان إقامة الهارب . ودرست وزارة العدل البافارية احتمال المطالبة باسترداده، وفي عام ٩٥٨ قررت الحكومة الفيدرالية تحريك القضية غير أن تقييماً واقعياً للموقف السياسي في سوريا أظهر أن أي مسعى في هذا السبيل لن يلقى سوى الفشل لأن رادماشر كان شخصية مجهولة لدى حكومة الجمهورية العربية المتحدة . ولما كان قد تنكر في شخصية مواطن اسباني لذلك كان في استطاعة السوريين أن يستخدموا غطاءه هنا في رفض تسليمه، وعلى هذا قررت بون أن تترك الأمور على سجيتها واكتفت بأن تبلغ مفوضيتها في دمشق بأن تقوم على مراقبة رادماشر.

وفي أوائل عام ٩٦٠ اختفى رادماشر مجدداً عن الأنظار ، إذ انتقل إلى مكان جديد من العاصمة . وقطع كل صلاته بالجالية الألمانية وعاش في مكان منعزل مع صديقة له، غير أنه ظل يتقاضى راتبه من المكتب الثاني السوري، ولم يستطع العملاء الألمان كما يبدو أن يحددوا مكان إقامته بحجة أنه كان يستعمل اسم روزيلو . وقد دل ذلك على احتمالين يؤدي كلاهما إلى الاعتقاد بأن الألمان غير جادين في تقديمه إلى العدالة . وقد قال مصدر دبلوماسي في بون لمؤلفي هذا الكتاب : « كانت لدينا أشياء أهم بكثير من العثور على رادماشر ، وهناك نظرية أخرى لم ينكرها الموظفون الألمان بصورة ظاهرة وهي أن رادماشر كان يعمل لحساب منظمة كيهلن وهي وكالة المخابرات الألمانية الغربية، ويقال إنه جند للخدمة بعد أن قطع له عهد بأن مساعي استرداده ستتوقف وأن السلطات البافارية ستتخلى عن خطط ملاحقته أمام القضاء .

وفي خلال هذه المرحلة من العزلة ورد اسم روزيلو لأول مرة أمام ايلي في حديث أدلى به شيخ الأرض .

وبعد أن تلقى المركز تقرير ايلي عن رادماشر ، أصدر إليه تعليماته بالبحث عن روزيلو على أوسع نطاق ولكنه حذره من شيخ الأرض ، كما حذره من أن تؤثر مساعيه في هذا السبيل على مهمته الأصلية في دمشق . وعندما تلقى ايلي الأمر زار شيخ الأرض ليسأله رأيه في موضوع ذي علاقة بأعماله التجارية، وفي نهاية حديثهما قال له إنه يتطلع للقاء صديقه الألماني الذي حارب اليهود أثناء الحرب العالمية الثانية . فقال شيخ الأرض إنه سيحاول الاتصال بروزيلو بأسرع ما يمكن. وفي صباح اليوم التالي هتف له شيخ الأرض قائلاً إن الترتيبات قد أعدت للقاء يوم الجمعة بعد الظهر .

ووصل شيخ الأرض إلى أبو رمانة في الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر ، واستمر الحديث طبيعياً بين الرجلين عندما اجتازا المسافة القصيرة فوق جسر نابق حتى وصلا إلى منطقة الجسر الأنيقة ووقفت سيارة البيجو أمام بناية حديثة من ثلاث طبقات رقمها ١٨ في شارع عبد الرحمن الشهبندر بين المصرف السوري ومدرسة دار المعلمات في دمشق . وكان يحيط بالبناء بستان جميل المنظر وفي الردهة وضع شيخ الأرض اصبعه على الجرس الذي كتب فوقه ت . روزيلو وبعد أن فتح الباب بدأ بالصعود إلى الطابق الثالث .

استقبلهما عند الباب رجل أصلع الرأس يرتدي لباساً أنيقاً ومن ورائه امرأة جذابة تقاربه في السن وهي غير عربية ، وألقى الرجل نظرة خاطفة ولكنها دقيقة إلى ايلي ثم وجه إليه التحية العربية التقليدية «مرحبا تفضلوا»، غير أنه قالها بلهجة ألمانية لا تخفى على أحد . وقدم شيخ الأرض كامل أمين ثابت وأجاب المضيف بعد أن صافح اليد الممدودة قائلاً : « روزيلو » . وهنا لف شيخ الأرض ذراعه حول كتف ايلي بسذاجة قائلاً : « إن ثابت صديق حميم يمكن الوثوق به وإن : « في إمكانك أن تحدثه عن اسمك الحقيقي دون أن تخشى شيئاً . واستجاب روزيلو لهذا الطلب وانحنى انحناءة روسية قائلا : « رادماشر ، فرانس رادماشر » .

وهكذا انهارت الحواجز الأولية ، وقدم رادماشر لضيوفه القهوة التركية ثم انتقل الحديث بسهولة إلى الأمور الشخصية، فوصف رادماشر الحياة التي قضاها كمهاجر بين أعضاء الجالية النازية في دمشق وكانت قائمة أصدقائه الألمان مثيرة فهناك الدبلوماسي الألماني أوتوفون هيتيك والكولونيل وينر كريبل من الوير ماخت وآلويس برنير مساعد إيخمان وهو الآن مستشار في الجيش السوري والحاج أمين الحسيني المفتي الكبير لمدينة القدس. وشعر ايلي بأن رادماشر وجد فرصة يتحدث فيها إلى أناس يثق بهم . وكانت تطمينات شيخ الأرض عذراً كافياً ليكشف كل آلامه أمام غريب لم يقابله من قبل . وقال في مجرى حديثه « إن اليهود والألمان الغربيين يبحثون عني في كل مكان ويتهمونني بأني قتلت اليهود أثناء الحرب . ولكنني هنا في دمشق أشعر بطمأنينة نسبية وأتولى عملاً مشرفاً . غير أن رادماشر تجنب ذكر شيء عن طبيعة عمله وامتنع ايلي عن توجيه السؤال اليه خشية أن يلفت نظره إلى أسباب اهتمامه . وقبل انتهاء الزيارة أعرب رادماشر عن أمله في لقاء قريب وأبدى ايلي سروره بالموافقة ، وكان شيخ الأرض مبتهجاً لنجاحه في التقريب بين صديقيه بهذه السرعة ، لأن ذلك رفع من مكانته عند كليهما .

وفي صباح اليوم التالي نقل ايلي إلى رؤسائه تفاصيل بالشيفرة عن لقائه برادماشر وأجابت تل أبيب بأن « رادماشر كان واحداً من أعوان إيخمان . تابع مراقبتك له أرسل معلومات إضافية » . وفي تقرير آخر من ايلي يتعلق برادماشر جاء في الجملة الأخيرة ما يلي : « إنني أتطوع لتصفية رادماشر » وكان جواب الموساد الغامض « تجنب كل عمل ضد رادماشر فقد يسيء ذلك إلى مهمتك الرئيسية » .

وفي رسالة لاحقة اقترح ايلي أن يتخلص من رادماشر بواسطة رسالة متفجرة (وهي عبارة عن مركب محرق ومميت أعدت تركيبه المخابرات الإسرائيلية) . وفي مساء ذات يوم وبعد أن تلقى ايلي جواب الموساد بالموافقة جلس في غرفة الطعام من منزله ليقوم بمزج المواد الكيماوية

اللازمة، وبعد أن ميع أحد المساحيق بالحرارة ، دهن بالمسحوق القسم الداخلي من الغلاف ثم أدخل صاعقاً صغيراً وختم الرسالة بطريقة خاصة ، وفي الليلة ذاتها وضع الرسالة – القنبلة – في بريد البلدة معنوناً إلى توم روزيلو . وفي مساء اليوم التالي استيقظ ايلي على جرس الهاتف فإذا بشيخ الأرض يقول له بصوت مضطرب : « لقد نال اليهود أخيراً من رادماشر ؟ فأظهر ثابت أنه قد تأثر للنبأ وطالبه بتفاصيل أوفى، فقال شيخ الأرض إن الألماني تلقى رسالة انفجرت في وجهه فنقلوه فوراً إلى مستشفى المدينة وإنه لا يعرف شيئاً عن حالته في الوقت الحاضر. وما أن ترك ايلي الهاتف حتى استشار الدليل ثم هتف إلى المستشفى سائلاً عن صحة المصاب صديقه روزيلو، فأجيب بأن إصابته كانت طفيفة وأن حياته ليست في خطر (١).

(١) سرعان ما شفي رادماشر من جراحه غير ان محاكمة كوهين فيما بعد وضعت قضيته من جديد تحت المجهر . ففي ١٩ اذار اوقفه المكتب الثاني واتهمه بالتجسس لحساب اسرائيل وذلك من قبل شعبة مكافحة التجسس . اذ اعتبر من قبل هذه الشعبة خطراً يهدد الأمن القومي . وعندما اوقف رادماشر في المزة طلب مساعدة قنصل المانيا الغربية فاجيب ان بون تساعده فقط اذا وعد بالعودة الى المانيا ، والمثول امام المحكمة كمجرم حرب . عند ذلك فضل ان يجرب حظه مع العدالة السورية ولم يندم رادماشر على قراره هذا لأن براءته كانت اقوى من كل الاتهامات التي وجهت اليه من قبل الحكومة ، فأفرج عنه ولكن لم يعيدوه الى مركزه . وفي ٣٠ ايلول غادر راد ماشر دمشق الى ميونيخ فتحولت طائرته لا سباب غامضة الى نورنبرغ وعندما نزلت هناك كانت الشرطة الفيدرالية الالمانية بانتظاره ، ومعها مذكرة بتوقيفه . وعندما مثل امام المحكمة في ٢١ آذار ١٩٦٨ قال انه غير مذنب فانكر كل الاتهامات الموجهة اليه مؤكداً انه حاول مساعدة اليهود بقدر استطاعته والى درجة الخصام مع ايخمان . وبعد مرافعات استمرت ثلاثة اشهر اصدرت محكمة باتنبرغ حكمها بسجنه خمس سنوات مؤكدة انه لعب دوراً كبيراً في ابادة اليهود الأوروبيين . وقد اخذت بعين الاعتبار المدة التي جرى توقيفه فيها منذ بداية الحرب العالمية الثانية وهكذا اخلي سبيل رادماشر ليلتحق بصديقته في باردكوتسبرغ .

العريف

في الساعة السابعة من مساء يوم الأحد ٨ آذار ١٩٦٢ وبعد فترة قصيرة من إذاعة نشرة الأخبار إذا بنشرة خاصة تقول : « اليوم أنزل جنودنا الأبطال ضربة ساحقة وهزيمة نكراء بقوات العدو الصهيونية ، فقد ضربت وحداتنا قوارب الصهيونيين الحربية في بحيرة طبريا ، وتكبد العدو خسائر فادحة متراجعاً أمام الجيش السوري » . وكان ايلي قد اعتاد على هذه اللغة المنمقة لمعلقي الأخبار العرب غير أن هذا الإعلان أثار اهتمامه لأنه إستمع إلى رواية مخالفة تماماً في برنامج الصباح من محطة إسرائيل . إذ قالت محطة القدس إن السوريين أطلقوا النار بدون سبب على الصيادين الذين مدوا شباكهم في القسم الشمالي الشرقي من بحيرة طبريا .

ومنذ وقعت اتفاقية الهدنة السورية الإسرائيلية في ٩ تموز ١٩٤٩ كان تبادل إطلاق النار بين المراكز الحربية السورية وقوارب الدوريات الإسرائيلية أمراً عادياً في منطقة الصيد هذه ، حيث يمتد خط الحدود موازياً ، وعلى بعد عشرة أمتار فقط من حافة المياه . وكان الحرس الوطني السوري متمركزاً في تحصينات تمتد مسافة خمسة كيلومترات على تلال تشرف على البحيرة . أي إن الصيادين الإسرائيليين هم تحت رقابة دائمة من جانب السوريين كما كانوا يتعرضون لمضايقات مستمرة بإطلاق النار على حراسهم المسلحين . وكان الصيادون السوريون يتقدمون من البحيرة بغطاء عسكري بغية الحصول على حق الصيد في مياهها . وكانت حجة دمشق دائماً أن القرويين الذين يعيشون على طول الضفة الشرقية لهم حق الانتفاع من المياه والصيد بالاستناد إلى اتفاقية فرنسية بريطانية موقعة عام ١٩٢٣ . غير إن إسرائيل رفضت هذه الاتفاقية وعرضت أن تمنح الأفراد السوريين أذوناً عن طريق لجنة الهدنة السورية الإسرائيلية المختلطة.

غير أن السوريين ، خوفاً من أن يكون لذلك معنى الإعتراف بالسلطة الإسرائيلية على المنطقة ، رفضوا هذا العرض بشكل قاطع واستمر السوريون في مد شباكهم في بحيرة طبريا ، بحثاً عن سمك (الحدوق) المعروف منذ أيام الإنجيل بأنه سمك القديس بطرس .

وفي بداية موسم الصيد (الذي يستمر من تشرين الثاني وحتى نيسان) شاهدت دورية إسرائيلية ١٥ قارباً سورياً يستعد للنزول إلى البحيرة ، فأرسلت المودين وحدات إستطلاعية تابعة للقيادة الشمالية للبحث والتحري . وعادت وهي تحمل أنباء بأن الجيش السوري قد تعهد للصيادين العرب بحمايتهم فأرسلت الشرطة الإسرائيلية عدداً من قوارب الدورية إلى المنطقة مرغمة القيادة السورية الجنوبية على إعادة النظر في موقفها ، وإصدار أمرها إلى الصيادين بالبقاء خارج مياه البحيرة . وعندئذ خفف الإسرائيليون من احترازهم واستؤنف الصيد بحراسة قارب واحد تابع للشرطة . ولكن في ليلة الأربعاء ٤ آذار عثرت الأنوار الكاشفة على قارب فأطلقت عليه نيران الرشاشات وانتهى الحادث بعاصفة مفاجئة هبت على المنطقة .

وفي يوم الأحد الساعة الخامسة صباحاً ، وعندما بدأ الضباب بالانقشاع أخذ أسطول صغير من قوارب الصيد الإسرائيلية تابع للكيبوتس في عين غيف في نشر شباكه على طول الشاطىء الشمالي الشرقي ، وكان زورقاً بخارياً مسلحاً ينطلق مسرعاً جيئة وذهاباً لحماية قوارب الصيد . ووقف القائد شريف نداف على الجسر كالعادة وهو يفحص التلال بمنظاره . وقد قال فيما بعد إن المنطقة كانت تبدو هادئة بل وآمنة غير إنني كنت أشعر بأن شيئاً ما كان يبدو غريباً . وكان الجنود السوريون في استحكاماتهم في النقيب يراقبونهم وهم يذهبون إلى أعمالهم . وفجأة دوى صوت أزيز تبعه إنفجار وسقط نداف على الأرض فاقداً وعيه . وعندما استعاد مشاعره بعد ثوان لاحظ أن القارب كان خارج سيطرته وكان يجري بسرعة نحو الشاطىء، وفي لحظة قاتمة راح يدرس مختلف الإحتمالات ثم دار بالقارب دورة كاملة وارتفعت مقدمته إلى الأعلى داخل المياه متجنباً

بذلك الإصطدام المدمر .

وقد شاهد نداف تساقط القنابل التي كانت أقوى من قذائف الهاون المعتادة . وكان إثنان من رجاله المصابين يكافحون للوقوف على أقدامهم بينما انطلقت من القارب إشارة الخطر التي تصم الآذان . وهنا بدأ السوريون يطلقون نيران رشاشاتهم على ظهر القارب . وأسرع أحد البحارة بنيامين زيرد إلى حجرة المحرك ولكنه قبل أن يصل إلى موقع الأمان في مؤخرة القارب أُطلقت أمامه دفعة أُخرى من النيران فقطعت إحدى رجليـه . ومرت لحظة خانقة قبل أن يجيب نداف بهدوء على صرخة زيرد المؤلمة وهو يطلب المساعدة . فقال له سنعني بك فور تخلصنا من مرمى أهدافهم . وبعد لحظة جرح القائد في ركبتيه فاستخدم ساعديه ليجر نفسه إلى محرك القارب وساقه إلى خارج الخليج ، أما البحارة الذين تدافعوا لنجدته فقد أُمروا بمساعدة زيرد أولاً . وأخيراً تخلى نداف عن قيادة القارب إلى هانان نول وزرق نفسه بإبرة من المورفين .

وعندما خف الألم أصدر آمر القارب تعليماته إلى عامل الراديـو الليلي هليل مينستر يطلب النجدة . كما إن القارب عند فراره من مرمى المدافع السورية سار بسرعة تتجاوز طاقته مما أدى إلى حرق أحد محركيه ، ثم راح يسير ببطء إلى أن توقف تماماً . وكان يعوم كيفما اتفق في الوقت الذي كان البحارة يحاولون إخماد النار على ظهره ، أما الصيادون الذين كانوا يبحثون عن ملجأ في أعماق البحر فقد بدوا في حالة شديدة مـن الذعر . وفي الطرف المقابل كان إثنان من مراقبي الأمم المتحدة متمركزين عند محطة فوكس ، وكانا يحاولان عبثاً تعيين المكان الذي وقع فيـه الحادث بالضبط ومنهم من لم يشاهد النقيب أبداً ولكنهم سمعوا ستـة انفجارات ، وتبينوا أصوات الرشاشات الثقيلة ، ولما كانوا غير قادرين على القيام بتحريات أوسع لأن التعليمات تمنعهم من أن يتحركوا أكثر من خمسين متراً من برج المراقبة الخشبي إلا بمرافقة ضابط إرتبـاط سوري . لذلك أخبروا مقر قيادة المراقبة في القدس أن تبادل إطلاق النار

يجري في جوار منطقة الكرسي . وعندما وصل قائد محلي لحراستهم حتى الوصول إلى النقيب توقف إطلاق النار ، وكان نداف ورجاله لا يزالون في انتظار المساعدة . وبعد نصف ساعة لاحظوا أن هناك قارباً آخر يشق طريقه في اتجاههم ، فجرّت السفينة القارب المحطم بعيداً عن منطقة الخطر كما ساقت قوارب الصيد نحو مكان أمين .

وعلم ايلي أن هذا الصدام أثار مناقشات حادة في الإجتماع الأسبوعي لمجلس الوزراء الإسرائيلي غير أن البيان الذي صدر بعد ظهر الأحد في القدس عن هذا الإجتماع كان غامضاً إذ إن الوزارة اكتفت بالتأكيد على أنها ستتخذ التدابير الضرورية لضمان عدم تكرار حوادث من هذا النوع . غير إن ايلي قرر مع ذلك أن يبحث في العوامل السياسية والعسكرية لهذه الأزمة ، وأن يرسل بنتائج تحرياته عبر جهاز الإرسال إذا نجح في الحصول على معلومات هامة . وفي صباح يوم الإثنين إتصل بكمال الحسن واتفق معه على لقاء بعد الظهر . وخلال محادثاتهم أشار ايلي إلى الحادث الذي أعلنه الراديو ، وعرض تحليلاً مبدئياً للموقف العسكري على الحدود . وسأل الحسن عن رأيه بالحوادث التي وقعت في اليوم السابق، وعندما بدا المحامي وكأنه يريد تجنب الحديث عن هذا الموضوع تخلى ايلي فوراً عن متابعة البحث .

وفي خلال الأسبوع كان ايلي يصغي إلى أحاديث المقاهي ، ويقضي بقية الأوقات في شباك شقته وهو يراقب التحركات في مقر رئاسة الأركان ، واستمر واقفاً بدون انقطاع ثلاثة أيام ولياليها . وفي يوم الخميس ظهر تبدل فجائي في الحركة العادية للقادمين والذاهبين وبدأت سيارات الليموزين العسكرية والمدنية تصل في أعداد متزايدة ، كما أن ضباط الأركان وكبار الموظفين في الحكومة كانوا يبقون في مكاتبهم حتى ساعة متأخرة من الليل . وكانت الشائعات كعادتها تزداد في العاصمة . وقد سمع ايلي تأكيدات من أصدقائه بأن حركة إنقلاب عسكري على وشك الوقوع . وقال الذي نقل له الخبر إن الضباط الضالعين في الحركة

خططوا للاستفادة من التوتر القائم على الحدود كي يحصلوا على تأييد الرأي العام للجيش ، ويستخدموا تحركات القوات العسكرية لتنفيذ خطتهم الإنقلابية . وعلم ايلي من مصدر آخر أن العقيد عبد الكريم النحلاوي الذي ساند الحكومة المدنية منذ ساعد على حركة الإنفصال، قد ضاق صدره بأسلوب الحكم البرلماني الذي يمارسه ناظم القدسي ، ومن كان يصفهم بالوزراء غير الأكفاء في وزارة الرئيس معروف الدواليبي . وكان النحلاوي وهو من اليمينيين المعتدلين يرأس صراعاً على السلطة ضد الضباط الاشتراكيين في القيادة الجنوبية ، والضباط الناصريين في حمص وحلب ، وكان حليفه الأقوى العقيد عبد الغني دهمان قائداً لحامية دمشق ، ومشرفاً على الفرقة المدرعة الرئيسية ، واستطاع ايلي أن يكشف عن طريق معزى أن عمه القائد العام اللواء عبد الكريم زهر الدين لا يزال متردداً ، وزادت الصحف السورية في غموض الموقف إذ كانت المقالات الافتتاحية تغلي بالنقمة مشيرة إلى الخطر الصهيوني . وبدت وكأنها تعد الرأي العام إلى تجديد القتال ضد إسرائيل . وكان هذا أول نداء للقتال وُجه إلى الرأي العام منذ وصول ايلي إلى دمشق . غير أن ايلي كان يرى أن زهر الدين طالما استمر في دعم ومساندة أخصام النحلاوي فإن أي إنقلاب جديد كان بعيد الاحتمال .

واستطاع ايلي ان يستنتج من النشاط الذي كان يراقبه، والمعلومات التي كان يجمعها أن السوريين لم يكونوا على استعداد للدخول في حرب واسعة النطاق . وتأكدت له الحقيقة الواقعة وهي أن حامية دمشق وضعت في حالة استنفار ، وأن القيادة الجنوبية أمرت باتخاذ الاحتياطات ضد أي عملية إسرائيلية انتقامية . أما في المناطق الأخرى فلم تتخذ سوى تدابير تعبئة جزئية . وفي صباح ١٣ آذار بعث ايلي برسالة إلى رؤسائه ثم أخرج جهاز الإرسال الصغير من مخبئه في السقف ووصله بجهاز فيليبس ثم بالآنتين وأرسل رقمه بالشيفرة . وفي خلال ثوان صدرت الإشارة المتفق عليها سابقاً من تل أبيب . فأرسل ايلي تقريراً عن الموقف مشيراً إلى تحركات غير عادية لقوات الجيش في العاصمة وأحاط تل أبيب علماً بحالة الاستنفار

التي أعلنت في حامية دمشق ، كما أشار إلى الحملات القاسية على إسرائيل في الصحف السورية ، ولخص الموقف بهذه الكلمات : « الهجمات على الحدود محتملة » فأخذت تل أبيب علماً وطلبت معلومات أوفى بشأن الحالة العامة في البلاد .

وكانت الأنباء التي تلقاها دافيد بن غوريون رئيس الوزراء ووزير الدفاع من مصادر المخابرات الإسرائيلية كافية لإثارة القلق ، لحمل رئيس الوزراء على الدعوة إلى جلسة خاصة للمجلس الوزاري كي يتناقش في الخطة التي يجب اتخاذها إذا وجب أن تكون هناك خطة ، وذلك في حالة اشتداد الهجمات السورية. واتصل بن غوريون بوزرائه وحدد مساء ١٧ آذار موعداً للاجتماع ، وكانت الحالة على الحدود السورية هي المادة الوحيدة في جدول الأعمال . درس الوزراء عند اجتماعهم مسألتين رئيسيتين : هل كانت حادثة بحيرة طبريا ظاهرة أخرى من مظاهر التوتر التي سادت المنطقة خلال الثلاث عشرة سنة الأخيرة أم أنها كانت تطوراً ذا مغزى أبعد ؟ أم هل خطط للهجوم في دمشق كجزء من حملة إعلامية ترمي لإفهام العالم العربي بأن سورية وليست مصر هي أكثر نشاطاً في الكفاح ضد إسرائيل، وأنها لذلك هي البلد الذي يجب أن يكون محط الأنظار في القيادة العربية ؟ وجرى تقييم مختلف التقارير الواردة من المصادر السياسية ، ومصادر المخابرات . وبعد نقاش حاد أحالت الوزارة الموضوع إلى لجنة الدفاع الوطني في الكنيست، الذي كانت لديه الصلاحيات الكاملة ليقرر الخطوة التي يجب اتخاذها . وكان البيان الرسمي الذي صدر بنتيجة الاجتماع مختصراً إذ اقتصر على القول : « ترى الحكومة الإسرائيلية أن الموقف على الحدود الشمالية هو في منتهى الخطورة » واجتمعت اللجنة البرلمانية وهي مؤلفة من أربعة أشخاص يرأسهم بن غوريون في الليلة ذاتها لدرس المشكلة . وكان رأي رئيس الوزراء أن يرد الجيش الإسرائيلي على الحادث فوراً ، غير أن معاونيه الثلاثة نصحوه بالتزام الصبر . وحاول بن غوريون عبثاً أن يقنع الآخرين بوجهة نظره وهي أن السوريين يخططون لسلسلة من المناوشات التي قد تؤدي إلى مواجهة حاسمة . وتقرر بثلاثة

أصوات ضد صوت واحد أن يترك لدمشق اتخاذ الخطوة التالية أي أن حادث بحيرة طبريا إذا تبعه حادث آخر مشابه فسترد إسرائيل بقوة وعنف .

وفي هذه المرحلة شددت المخابرات من رقابتها على الحدود السورية، وفي اليوم التالي حل مركز المخابرات القائم قرب تل أبيب شيفرة الرسالة التي بعث بها ايلي . وأحاطت المودين فرقة العمليات في القيادة العامة علماً بأن تحشيدات ثقيلة من القوات المسلحة والمدرعة يقوم بها السوريون وراء خطوطهم ، وأن حركة دائمة للمعدات تجري على طريق دمشق القنيطرة في اتجاه مرتفعات الجولان . وصدرت الأوامر إلى القيادة الشمالية بإرسال فريق من الكشاف للتغلغل في الخطوط السورية ، والتأكد من المعلومات التي وردت عن طريق المخابرات . وقد عاد قائد الدورية بمعلومات تفيد أن عدداً كبيراً من الدبابات والعربات المصفحة قد وصلت إلى التحصينات المشرفة على بحيرة طبريا، بينما انتشرت عناصر من الفرقة الثالثة التابعة للواء الثاني على طول الخط لتعزيز الحرس الوطني .

وكانت قيادة الأركان تنظر إلى هذا الحشد بشعور من القلق . وفي ١٤ آذار عززت كل الوحدات على طول الحدود السورية من تل أبيب حتى التوافيق . وانتهت المخابرات الإسرائيلية إلى الحكم بأن السوريين كانوا يستعدون إلى مواجهة مع الجيش الإسرائيلي في تلك المنطقة . وكان يتصور أن دمشق ستشن هجمات أكثر على الصيادين وذلك ليتسنى لها إثارة مسألة السيادة الإسرائيلية على البحيرة في هيئة الأمم المتحدة .وأصبحت الحكومة الإسرائيلية مقتنعة بأن سورية تبحث عن صدام واسع النطاق مع إسرائيل كي تحمل هيئة الأمم المتحدة على الدخول في وساطة جديدة لتسوية خلافات الحدود .

وبعد الظهر وصلت إلى مكتب طبريا العائد إلى لجنة الهدنة المختلطة السورية—الإسرائيلية شكاوى متضاربة . وعندما أبلغ الهجوم لرئيس أركان قوات الأمم المتحدة الميجر جنرال كارل كارلسن فون هورن اتصل فوراً بالرئيس السويدي الكوماندر **Mellin** وطلب من المراقبين أن يزوروا

منطقة القتال على الحدود، غير أن التحريات التي قام بها المراقبون من ذوي القبعات الزرقاء كانت غير منتجة . وكتب فون هورن فيما بعد يقول : « كانت هناك دلائل تشير إلى احتمال وقوع حادث ما ومهما كان من أمر الحاسة الخامسة فأنا لم أر في هذا الحادث أكثر من هزيم رعد مفاجىء في بحيرة طبريا » .

غير أن الإسرائيليين كانوا يرون أن الموقف يتدهور بسرعة . وفي صباح اليوم التاسع من الشهر استدعت وزيرة الخارجية غولدا مايير فون هورن إلى مكتبها في القدس، ونصحته وهي تدخن في كرسيها الضخم بأن إسرائيل تنظر هذا الهجوم بأنه خطر جداً . وقالت بصوتها الهادر : « قل لهم إنهم يلعبون بالنار ». وهنا استشاط فون هورن غضباً من أوامرها غير الدبلوماسية التي أفقدته اتزانه السويدي، وقال لها إنها لا تستطيع أن تتوقع من قائد عام أن يتصرف كساعي بريد لرسائل قد تحمل تهديدات مفتوحة أو مبطنة ، وأضاف قائلاً إنه عين لهذه المهمة الكثيرة المشاق ليحافظ على السلام لا ليثير الأعمال العدائية . وهنا لاحظت غولدا مايير أن إنذارها قد يولد رد فعل عنيف ، فأكدت للجنرال أن غايتها الوحيدة هي أن تجعل وجهات نظرها واضحة ، وبما أنه ليس للإسرائيليين خط مواصلات مشترك مع السوريين فقد وافق فون هورن على نقل الرسالة واعداً بإطلاع دمشق عليها .

ومنذ استقر مالين في مقر القيادة في العاصمة السورية كان الوفد الإسرائيلي لا يلتقي به في غير زياراته العارضة لطبريا ، ولذلك أبلغت رسالة مايير وزيرة الخارجية بالراديو إلى مالين، الذي اجتمع بدوره بقائد الجيش اللواء نامق كمال في ١٠ آذار ، وجاء جواب السوريين في الصباح أن قاربين تابعين للشرطة كانا يحرسان الصيادين الإسرائيليين أطلقت عليهم المدافع الرشاشة من خنادق في السعدية بين الكرسي وفم نهر الأردن ، وهنا أيضاً كانت قبعات رجال فون هورن الزرقاء غير قادرة على البت في أي الفريقين كان البادىء بإطلاق النار، وخلال ٢٥ دقيقة من تبادل

الطلقات سمعوا أصوات المدافع ، فأخبر السوريون لجنة رقابة الهدنة بأن الإسرائيليين أطلقوا النار على مراكزهم بمدافع برن ومدافع من عيار ٢٠ مليمتراً ، أما الإسرائيليون فقد قالوا إن النيران أطلقت عليهم من أسلحة أوتوماتيكية ومضادة للدبابات . ولم يكن هناك دليل على وقوع المناوشات سوى إصابة فتاة سورية ماتت فيما بعد متأثرة بجراحها .

وبينما كانت دمشق تتقدم بشكواها قررت القدس أن تسير خطوة أبعد عندما لجأت إلى الأمانة العامة لهيئة الأمم المتحدة ، فطلبت غولدا مايير من يوثانت التدخل مؤكدة بأنه إذا لم يفعل فستصبح القضية أكثر خطورة . وطلب الأمين العام أولاً من فون هورن أن يوافيه بمعلومات أكثر عن القتال ، غير أن برازاً آخر نشب في بحيرة طبريا قبل أن يتمكن يوثانت من التحرك . ففي الساعات الأولى من صباح يوم ١٦ آذار أطلقت النار على زورق بخاري إسرائيلي من كفر عاقب بالقرب من الكرسي ، وفي القدس بعثت وزيرة الخارجية غولدا مايير برسالة نارية أخرى إلى يوثانت متسائلة عما إذا كان الهجوم الأخير هو رد سورية على سلطة هيئة الأمم المتحدة . أما النداء المباشر فقد جاء من جانب موشى ايريل مدير شؤون الهدنة ونظيره في القيادة العامة الكولونيل ياكوف مونباز المندوب الأعلى ورئيس ضباط الارتباط بهيئة الأمم المتحدة، غير أنه لم يستطع أن يتصل بالجنرال فون هورن وكانت لجنة الهدنة لا تحيط الجنرال علماً بشيء عن التطورات الجديدة التي تزداد تصاعداً ، وكان فون هورن الذي فقد زوجته قبل يوم واحد يشهد مراسيم دفنها في بيت لحم في الأردن . وهكذا لم يكن أمام الضباط الإسرائيليين خيار سوى البحث في حوادث الصباح مع الملحقين من موظفي هيئة الأمم المتحدة . وعلى هذا المستوى كانت المشاورات غير مجدية ، كما أن الوضع غير الثابت عجل باتصالات غولدا مايير بنيويورك .

وانتشرت الأنباء والتقارير عن حشود الفريقين من الجانبين . ومن الجانب الإسرائيلي منع المراقبون الدوليون من الاقتراب من المراكز

الاسرائيلية الاستراتيجية، كما أن الكوماندور مالين نقل أنباء عن تصلب الموقف . وعلى الرغم من طلبات ضباط الارتباط فقد رفض القادة المحليون السماح لقوات الأمم المتحدة بالوصول إلى مناطق الخطر . وكتب فون هورن فيما بعد يقول : « كان واضحاً بالنسبة لجميع المراقبين في طبريا والقنيطرة ودمشق والقدس أن الجانبين يتحركان نحو صدام كبير » .

وفي الصباح ما كاد بن غوريون ينهي تمارين اليوكا اليومية حتى سمعت طلقات المدفعية السورية عبر بحيرة طبريا، فارتدى رئيس الوزراء ثوبه ببطء واتجه نحو النافذة متطلعاً إلى البحيرة وهو يدمدم قائلاً : «يجب أن نضع حداً لهذا» . ولامته زوجته يولا لأنه يفكر في شؤون الحكم بينما هو في عطلة واقتضى كثير من الأخذ والرد لإقناعه بانتجاع الراحة . ولم يكن من السهل العناية بهذا الرجل لأن الشيء الوحيد الذي يحافظ على توقيته في نشاطه اليومي هو طعام الفطور ، أما الوجبات الأخرى فمشكوك في توقيتها شأن الشك في أوقات نومه . ولم يكن بين معاونيه من يستطيع حماية صحة الرجل العجوز بمثل ما كانت تفعل يولا ذات الشعر الأسود، فقد كانت تفرض عليه إرادتها في بعض الأحيان وعندما تدخل معه في جدل تضطره لإطاعتها . وعندما أخلى شهر شباط الطريق لشهر آذار لاحظت يولا أن زوجها على حافة الانهيار . وفي هذه المرة اضطرته أن يقضي عطلته الأسبوعية بعيداً . غير أن الموقف على الحدود لم يكن يسمح لرئيس الوزراء أن يتخلف عن مكتبه في القدس فاحتج ، غير أن يولا استطاعت أن تبتعد به إلى منتجعهم المفضل في فندق غاليه كينيريت في طبريا ، وهو المكان الوحيد الذي يستطيع الخلود فيه للراحة التامة .

وفي ١٦ آذار تناول بن غوريون طعام الإفطار في غرفته . وكان يطلب من يولا باستمرار أن تهتف لمرافقه العسكري، غير أنها لم تذعن لطلبه إلا بعد أن أنهى طعامه . وفي الساعة الثامنة سمح أخيراً للكولونيل حاييم بن دافيد بمقابلة رئيس الوزراء الذي أوعز إليه بأن يتصل بالقيادة

الشمالية ، وأن يحصل على تفاصيل المناوشة . وسرعان ما عاد البريكادير جنرال مايير زوريه بتقرير كامل . واضطرته رسالة صباحية أخرى عن مناوشة ثانية للنهوض من فراشه، وبعد تحريات سريعة أعادته مسرعاً إلى مقر قيادته حيث راح يصغي بعناية إلى أقوال زوريه وبعد أن طرح بعض الأسئلة أعاد سماعة الهاتف إلى مكانها مع الشكر .

وفي هذه الأثناء كان الكولونيل بن دافيد يحاول أن يتصل برئيس الأركان وهو الليوتنانت جنرال زفي زور . كما اتصل بن غوريون شخصياً بغولدا مايير ليسألها عن نشاطات هيئة الأمم المتحدة في المنطقة . وفي الساعة العاشرة قبل الظهر صدر الأمر إلى رئيس المودين مايير أميت والمسؤول الأول فيها ايسر هاريل للقدوم إلى طبريا لعقد اجتماع مستعجل. وفي الساعة الثانية بعد الظهر كان وزير الدفاع والرئيسان الكبيران في المخابرات الإسرائيلية يجرون محادثات مع رئيس الأركان الجنرال زورى . وكما هي عادة بن غوريون عندما يخطط لحركة هامة فقد ظل واقفاً على قدميه يذرع الغرفة جيئة وذهاباً بينما يتكلم ، وفي بعض الأحيان كان يستريح على المقعد والعصبية بادية على وجهه ، برغم أنه كان في صحة جيدة بالنسبة للخامسة والسبعين من عمره ، وكانت مشيته الشابة ، وعيناه المتقدتان تتعارض بشدة مع وجهه المتغضن ، ورأسه الذي تعلوه جزة من الشعر الأبيض . وكان بن غوريون يصغي بعناية إلى تقارير المخابرات ثم يتكلم محللاً الموقف السياسي . وفقاً للقرار الذي اتخذته اللجنة الخارجية في الكنيست فقد قرر أن يرد بقوة على السوريين وأن يضرب مواقعهم على الضفة الشرقية من البحيرة ، وعندما سأل زور عما إذا كان في استطاعة الجيش الإسرائيلي القيام بهذه المهمة أجاب رئيس الأركان بلهجة الواثق : « طبعاً يا سيدي الرئيس » . والتفت زور إلى زورى سائلاً عما إذا كانت قواته مستعدة لتنفيذ العملية فأجاب الجنرال بعد أن ضرب رجليه في تحية عسكرية « مستعدون ». عندئذ اقترح زور أن تكون النقيب هي الهدف، فوافق بن غوريون على ذلك ، وتردد أحد قادة الجيش كما أن آخرين أبدوا اعتراضهم . غير أن الرجل العجوز قال وقد فرغ صبره : « إذاً ستكون

النقيب » وأغلق الجلسة .

وبعد ساعة من مغادرة الميجور جنرال زوري فندق غاليه كينيريت دعى أركان قواته لوضع مخطط للعملية ثم راح يدير الحديث خلال متاهة من الآراء المتناقضة إلى أن تم الاتفاق تدريجياً على خطة معينة . واعترف زوري فيما بعد أن النقيب كانت هدفاً صعباً ذلك أنها تقع على قمة تل مرتفع ، وهي قاعدة أمامية تستطيع أن تمتنع على المهاجمين وأن تصدهم . وبالإضافة إلى ذلك فإن القيادة الجنوبية في سورية قامت بتنظيم دفاعها وفقاً للأسلوب الروسي القائم على أساس الحلقات المتحدة المركز ، والمنتشرة في منطقة مساحتها ٣٠٠ م٢ . وتتألف الدائرة الخارجية من ست ملاجىء محصنة مع قواعد لمدافع أوتوماتيكية ومدفع قليل الارتداد وهي متصلة بخنادق محفورة في الصخور ، ومحمية بحلقة دائرية من ألغام الميدان ، ومفتوحة من الخلف ، لذلك فإن تدمير هذه القواعد يتطلب تكتيكاً غير نظامي وضربة سريعة وشجاعة .

وقد تجلت في خطة الجنرال زوري للاستيلاء على النقيب الجرأة التي امتازت بها حملاته السابقة . ذلك أن الفرقة المهاجمة انقسمت إلى أربع مجموعات : المجموعة (آ) كلفت بتدمير الاستحكامات الواقعة إلى الجنوب من قرية النقيب ، والمجموعة (ب) كلفت بالاستيلاء على القرية ذاتها ، والمجموعة (س) انقسمت إلى قسمين كان عليها قطع الطريق إلى بير أشكوم شمالي النقيب ، وكذلك الطريق الشرقي المؤدي إلى القنيطرة . أما المجموعة (د) فقد احتفظ بها كاحتياطي لمساندة المجموعات الأخرى . وبعد أن أعاد الجنرال النظر في الخطة مرة أخرى أصدر الأوامر إلى ضباطه ببدء الهجوم .

وانطلق زوري ومعاونوه لاستكشاف الهدف فنقلهم قارب إلى نقطة تبعد ثلاثمائة متر عن الشاطىء حيث أجالوا النظر في النقيب ، ودرسوا الطرق المؤدية للقرية ، ودرسوا طبيعة الأرض على ضوء الخرائط والرسوم التخطيطية ، والصور الجوية التي هي تحت تصرفهم . وفي الساعة الخامسة بعد الظهر أرسلت وحدة المخابرات للقيادة الشمالية دورية لتقوم بمهمة

استكشاف، وانتهت التحريات الدقيقة الأخيرة عندما أحيط زوري علماً بأن الأحوال في الجبهة الشمالية الشرقية لم تتغير . وهنا فقط سمح للكولونيل المكلف بقيادة قوة الردع باستنفار ضباط السايريت **Sayeret** وهي كتيبة الكومندو التابعة للواء الجولان . وكان قائد الكتيبة الميجر زفي أوفر، الذي قال فيما بعد : « لقد استنفرت رجالي قبل أن أتلقى التفاصيل الكاملة لأنها كانت مسألة سباق ضد الوقت . وكانوا جاهزين في الشاحنات التي ستنقلهم إلى الكيبوتس عين غيف عندما أصدر إليهم ضباطهم الأوامر النهائية . وكانت الساعة التاسعة ليــلا عندما دخلت قافلة سيارات الجيب التي أطفأت أنوارها ، وكذلك سيارات المستشفى والسيارات نصف المجنزرة المثبتة إلى شاحنات مكشوفة ، ويتقدم الجميع سيارة قيادة مضاءة ، دخلت إلى ساحة الكيبوتس .

وفي الساعة العاشرة والدقيقة ١٥ أصدر الكولونيل أمره إلى السايريت للوقوف في زاوية من مدرج عين غيف الفسيح، وكانت التعليمات قصيرة إذ عليهم أن يهاجموا قرية النقيب الجنوبية وأن يدمروا المراكز العسكرية المحيطة بها، كما أن صمتاً سيفرض على (اللاسلكي) حتى ساعة الانطلاق الذي حدد له الساعة ١١ ليلاً . وأنهى الكولونيل حديثه محذراً من إطلاق النار على النساء والأطفال . وبعد ربع ساعة أطفئت الأنوار في جميع المستعمرات الإسرائيلية على الساحل الشرقي من البحيرة، وكان التعتيم قد فرض منذ باشر السوريون بإطلاق قنابل مدفعياتهم، ولذلك كان ينتظر أن لا يلفت الظلام الدامس أنظارهم .

وكانت المجموعة (آ) في حالة الاستعداد للانطلاق عندما وصل بريد الكولونيل وفيه رسالة تقضي بالتحرك ، وهنا أصدر الميجر أوفر أوامره وتولى القيادة بعد أن بعث إلى المقدمة بدليلين من الكيبوتس . وكانت المسافة فقط ثلاثة أرباع كيلومتر في خط مستقيم يبدأ من عين غيف ويمتد إلى الباب الشرقي من الهدف ، ولكن عوضاً عن أن يقطع أوفر الطريق الساحلي القصير سلك طريقاً منحرفاً يمتد عبر التلال . وتسللت

المجموعة بسرعة على طول الطريق غير النظيف الذي يجتاز مزرعة للموز . ثم اجتاز بعد ذلك إشارة الحدود الدولية وعندما وصل إلى المرتفعات قرر أن يختار طريقاً شاقاً للصعود وقد شرح عذره في وقت لاحق عندما قال : «شعرت بأن هذا الطريق أكثر أمناً لأسباب تكتيكية» . وعندما وصل إلى القمة حوّل إحدى الفصائل إلى الطريق الأصلي . وبعد وقت قصير سمع انفجار ناري من الجهة التي سارت إليها الوحدة . وهكذا نجت قوة الميجر من كمين نصب لها .

أما المجموعة (ب) التي يقودها شاب في الثانية والثلاثين من عمره يدعى الميجر بنيامين آندار فقد غادر عين غيف قبل دقائق من مغادرة أوفر لها، وسارت تتقدم على طول طريق الاسفلت. وعندما كانت لا تزال في إسرائيل وعلى بعد عشرة دقائق من جنوب النقيب أوقفها أحد الكشافين مخبراً أنه عندما تقدم لاستكشاف الحقل وقع انفجار فوق رؤوسهم تبعته طلقات نارية ، فانطلق الرجال باحثين عن غطاء لهم . أما انبار فقد لاحظ أن ثلاث رشاشات خفيفة ، وسبع أو ثماني بنادق أطلقت نيرانها عليهم من مرمى لا يزيد على ١٥٠ متراً . ولما كان عنصر المفاجأة هنا قد زال لذلك قرر أن ينهي صمت اللاسلكي وطلب الإذن بتصفية الكمين فوافق الكولونيل على ذلك ، وقدم ساعة الهجوم عشرين دقيقة فأطلقت عليه مدافع الهاون من جانبين مما اضطره إلى التراجع .

وقاد انبار جنوده إلى النقيب من الشمال بدلاً من الشرق خلافاً لما خطط في الأصل . ولاحظ أن السكان وعددهم ثمانون عائلة تقريباً قد بدأوا الهرب بسرعة بعد أن تساقطت طلقات عفوية على عدد من المنازل . وقد أدى فرارهم إلى تحويل الاستيلاء على القرية إلى عملية سهلة ، غير أنها جعلت مهمة الميجر أوفر ورجاله أكثر تعقيداً .

أما المجموعة (س) فقد تحركت إلى المركز الذي خصص لها لتقطع طريق التراجع إلى الشمال عندما تقدمت دورية من سبعة رجال من الحرس القومي نحو متاريسها لكي تهزم بنيران متفوقة عليها. أما المجموعة (د) وهي

الوحدة الاحتياطية المدرعة التي كانت آخر من غادر الكيبوتس فقد سمعت تبادل إطلاق النار بينما كانت تزحف وأنوارها مطفأة على طول طريق البحيرة، وبعد أن اجتازت حقول الألغام في عين غيف اتجهت إلى المركز الذي ستنتقل منه إلى الهجوم عندما تصدر الأوامر إليها . وعندما اتجهت السيارات نصف المجنزرة إلى الحقول ترددت أصداء الانفجارات تحت ست عربات . فقد دخلت حقلاً زرع مؤخراً بالألغام دون أن تعرف عنه المخابرات الإسرائية شيئاً . وبينما استمر سكوت الإرسال أرسلت سيارة القيادة إلى عين غيف لاستعارة جرار وبلدوزر من الكيبوتس بقصد تطهير الممر من خلال المنحدر ، وسحب العربات نصف المجنزرة غير أن العربتين توقفتا عن الحركة بسبب انفجار لغم آخر . وفي مسعى يائس لإنقاذ الرتل بدأ المهندسون يستخرجون الألغام باليد ولكنهم سرعان ما تبينوا أنهم وقعوا في شرك ، ذلك أن الألغام قد زرعت بطريقة معقدة لا تسمح باستخراج سهل . ولم يستطع المهندسون سوى إنقاذ مجنزرتين وإعادتهما إلى عين غيف أما الجرار وأربع جرارات أخرى فقد نسفت وتركت في المؤخرة ، وكان الأمل الوحيد الذي بقي للكولونيل هو أن لا تكون هناك حاجة للاحتياطيين لمساعدة القوات المهاجمة .

وهنا سمع أوفر أصوات المعركة وقد نشبت قبل أوانها على جانبيه فقرر الهجوم وكان على وشك أن يصدر أوامره بإطلاق النار عندما رأى القرويين وهم يهربون أمام قوات أنبار . فدخل الممر الضيق الذي يفصل رجاله عن التحصينات السورية وخلال لحظة فقط راح أوفر يفكر في احتمال إطلاق النار . ولكنه لم يستطع أن يصدر أوامره بالهجوم وقال في وقت لاحق إنه لا يريد أن يقتلهم جميعاً ، وأصدر أمره بالانتظار . أما السوريون فقد أدركوا الآن تماماً وضع أوفر الحقيقي ، وراحوا يطلقون النار بقسوة وعلى الرغم من أنه كان خارج مرمى النار فقد أصابت إحدى الطلقات واحداً من الملازمين ، غير أن أوفر انتظر بعناد حتى غاب آخر قروي عن جناحه الأيسر ، ثم أصدر أمره بالهجوم بكلمة **Kadima Aharai** كاديما أهاري : إلى الأمام اتبعوني .

أما قائد المنطقة السورية فقد أصدر أمره بإطلاق ستار مدمر من نيران مدافع الهاون مما أوقف تقدم أوفر مؤقتاً . ومع ذلك فإن طلقات من الرشاشات مكنت السرية من بلوغ حاجز الأسلاك الشائكة وحاول الرجال أن يحدثوا فجوة في الحاجز فلم يوفقوا . وأخيراً لجأوا إلى الوسيلة القديمة المعروفة وهي أن يقذف رجلان بأنفسهما من خلال الأسلاك لكي يمكنوا الآخرين من المرور .

وخرج السوريون بسرعة نسبية من موقفهم الصعب فقد قص العميل السري أحمد يحيى حسين فيما بعد قائلاً : إن العريف في أحد المخابىء المحصنة سارع إلى الهاتف وهو يصيح : « اليهود قادمون اليهود قادمون » عندئذ أُطلقت النيران من كل جانب ، وانطلقت العملية كلها ، وفجأة مرّ بي أحدهم وهو يصيح : « لقد باغتونا » . وكان القائم على القيادة وهو برتبة عريف وكذلك حسين يطوفون داخل الملجأ ، وكان قد مضى على القتال فترة من الوقت عندما رن جرس الهاتف ، وسمع حسين الضابط وهو يدخل في جدل مع المفرزة على الجانب الآخر قبل أن يقطع الاتصال . ثم كان هاتف آخر فحاول الملازم الأول الإجابة ولكنه قتل بينما كان يتقدم من سماعة الهاتف . وعندما سقط الملازم الأول هرب العريف فالتقط حسين الهاتف فإذا بالعقيد يقول له : « قلت له إنهم تغلبوا علينا ولكنه أصر على أن نستمر في القتال » ، ثم تابع العقيد قائلاً : « لا تغادر مكانك حتى الموت » .

وكان رجال الحرس الوطني يتخذون مواقف صامدة في الدائرة الخارجية ، كما كانت شرذمة تقاتل بضراوة للحفاظ على طريق فرارها مفتوحاً ، غير أن أوفر دمر جناحهم الجنوبي بسهولة وشق طريقه وهو يقاتل يداً بيد ومن متراس إلى متراس آخر . وعندما قُتل جندي آخر من العرفاء تولى أوفر أمر فصيلته واستطاع أن يشق طريقه نحو الحلقة الثانية وهنا استقبلته تحيات من القنابل اليدوية . وكان هناك عدد من السوريين يدافعون عن مخابىء الثعالب بالحراب والخناجر . وقال أوفر فيما بعد :

« استولينا على كل إنش من الأرض وحافظنا عليها بأسناننا » .

أما الفصيلة التي تقاتل من الجنوب فقد تقدمت ببطء ، بينما أوقفت الفصيلة القادمة من الشمال بالنيران الثقيلة . وأرسل أنبار نداء بطلب النجدة عندما عجز عن إنجاز حركة التطويق. وهنا أصدر قائد المجموعة (ب) أمره بنسف المباني التي يستخدمها الجيش السوري بالديناميت . ولم يصادف أوفر مقاومة حقيقية في القرية . إذ عندما انطلقت النيران من إحدى المنازل أمكن إسكاتها بسرعة ، كما أن التحصينات على الجانب الغربي دمرت تماماً ودخلها الرجال حتى نهايتها . ووصل أنبار خلال دقائق مهاجماً المركز الأمامي من الشرق . وفي إحدى النقاط تقاربت الفصيلتان بحيث تبادلتا الإشارات الصوتية وذلك لمنع رجالهم من إطلاق النار على بعضهم بعضاً .

وهكذا أطبق الإسرائيليون من كل جانب .، وعندما كان المخدع الأخير من المخادع المحصنة قد طهر . كانت ذخائرهم في تناقص مستمر وقد انتزعوا الأسلحة الروسية من القتلى ليستخدموها لاجتياز المئة يارد الأخيرة ، أما الملجأ الأبيض المشرف على الوادي والذي كان يستخدم كمركز للقيادة فقد ظل ثابتاً ، وكان المدافعون عنه يرمون القنابل اليدوية فوق التلال ، إلى أن استطاعت ضربتان مباشرتان من البازوكا أن توقف نيرانهم ، كما أن أوفر تمكن بتغطية من رجاله أن يقذف بقنبلة يدوية أسكتت آخر عدو في الملجأ المذكور .

وكانت الساعة الواحدة صباحاً عندما توقف إطلاق النار . وفي اللحظة التي سقطت بها « النقيب » في أيدي الإسرائيليين ، بدأت المدفعية السورية ومدفعية الهاون ذات المدى البعيد بإطلاق نيرانها حتى الذروة ، مضطرة السايريت للقيام بعمليات إبادة تحت وطأة النيران الثقيلة ، وأنجز فريق أنبار وضع الألغام في منازل القرية وفي المخادع المحصنة على التلال ، بينما قام رجال أوفر بجرد الأسلحة المصادرة . أما الأسلحة والذخائر الروسية فقد نقلت إلى عين غيف ، والذين أصيبوا بجراح طفيفة أعيدوا إلى منازلهم أما المصابون بجراح خطيرة فقد نقلوا إلى إحدى المستشفيات

المؤقتة ، وراحت أنوار المظلات السورية تنير المنطقة حتى جعلتها وكأنها في منتصف النهار . كما أن القناصة قد تدفقوا على التلال ليزيدوا في صعوبة الانسحاب . وأخذ السوريون يطلقون مدافعهم على كيبوتس هاؤول وعين غيف مضطرين السكان للاختباء في الملاجىء . وحاولت المدفعية الإسرائيلية عبر البحيرة أن تحمي الانسحاب غير أنها عجزت عن إسكات المدفعية السورية ، وعندئذ صدرت الأوامر بتوجيه ضربة جوية .

وتربع أوفر على كومة من الذخائر الروسية ثم اتصل بمركز القيادة في عين غيف وكان بيانه على الهاتف موجزاً : « إنها في يدي ». ثم قدم إلى الكولونيل أرقام خسائره فكانت خمسة قتلى وعشرة أصيبوا بجراح مميتة (٨٠ بالمئة منهم ضباط) واثنان مفقودان . وأحصى رجاله ٣٧ من الجنود القتلى السوريين ولم يكن أي منهم يحمل رتبة عسكرية ، ولم يترك في الميدان أي جريح سوري سوى أحد التائهين . أما العميل السري أحمد يحيى حسين فقد أخذ سجيناً .

ثم أعد أوفر التفاصيل لتمشيط المنطقة المحتلة بحثاً عن الإثنين المفقودين أحدهما برتبة رقيب أول وكذلك العريف يوسف دفير . وقاد بنفسه شرذمة أخذت تبحث في الحقول القريبة ، وراح كل جندي ينادي باسمي الرجلين أو يتوقف محملقاً في وجوه الجثث المنتشرة والتي تضيئها أنوار المدفعية السورية . وكان قلق الرائد الإسرائيلي على المفقودين يفوق قلق القائد العسكري على رجاله ، فقد طلب من رقيب أول أن يبقى في الخلف ليشرف على التموينات الخاصة بنقل الوحدة من ساحة المعركة ، وقال أوفر فيما بعد : « لقد انتابه شعور بالمهانة وراح يرجوني أن يذهب في معيتي حتى استسلمت أخيراً لطلبه واستخدمته كضابط ارتباط » .

واستمر البحث برغم استمرار قصف المدفعية ، وقال الجنرال زوري فيما بعد : « لقد بقينا هناك ساعتين وهي مدة تزيد على ما كنا في حاجة إليه لتدمير المخابىء المحصنة . وكان في وسعنا أن ننتهي في وقت أبكر غير أننا أردنا أن لا نعود قبل أن نعثر على رجالنا المفقودين » . وعلق على

موضوع الرقيب الأول قائلاً : « أعتقد أنه أُصيب بجراح ، وأنه ذهب في اتجاه خاطىء وكثيراً ما يحدث ذلك عندما يصاب الإنسان بجراح . فلو أنه بقي في المنطقة لعثرنا عليه، أما فيما يتعلق بديفير فقد لاحظ زوري أن اختفاءه كان لغزاً لأن أصدقاءه قالوا إنهم شاهدوه حتى آخر مرحلة من مراحل العملية وهو لم يذهب إلا بعد أن بدأ إطلاق المدفعية » .

وعند الساعة الثالثة صباحاً استمرت فرقة الاستكشاف في متابعة مهمتها لوحدها . وبعد ساعة مرت أول موجة من طائرات الميراج فوق عين غيف لتقصف مواقع السوريين بعمليات انقضاضية أدت إلى إقناع السوريين بوقف أعمال القصف بالمدفعية . فعندما امتلأت الأجواء في مرتفعات الجولان بألوان الحرائق الحمراء توقفت المدفعية مجللة المنطقة بجو من الهدوء والسكينة . وقال الجنرال زوري : « وعند طلوع الفجر كان علينا أن نوقف أعمال البحث وأن ننجز انسحابنا . وفي يوم السبت الذي أعقب المعركة قيل لمراقبي الهدنة في دمشق إنهم وجدوا جثة إسرائيلي برتبة رقيب أول بالقرب من النقيب . وطلب ممثل الجيش الإسرائيلي في لجنة الهدنة المشتركة التحقيق حول مكان الجندي الإسرائيلي المفقود ، فأجاب السوريون أن ديفير ليس في أيديهم ميتاً و لا حياً . وعلى الرغم من أنهم قبلوا ما قيل عن الرقيب الأول ، فإنهم لم يصدقوا التأكيدات الخاصة بديفير لأنه كان من المعروف أن المواطنين الإسرائيليين الذين يهربون من خلال الحدود أو يخطفون من قبل دوريات الحرس الوطني ، يجري توقيفهم في سجون سورية . ولذلك افترضت القدس أن ديفير عهد به إما إلى السجن العسكري في المزة قرب دمشق أو إلى سجن التوقيف البعيد في تدمر في الصحراء البعيدة . وعندما أنكر السوريون للمرة الثانية اعتقال ديفير ، أوفد زوري شرذمة أخرى للبحث في أرض العدو فلم تعثر على أي أثر لجثة العريف واستبعدت لجنة تحقيق خاصة احتمال تمزيق الجثة بطلقات مدفعية ، مؤكدة النظرية القائلة بأنه لا يزال حياً . ولما كانت القيادة الشمالية قد فشلت في حل اللغز وكانت كل الاتصالات بالسوريين عن طرق لجنة الهدنة قد انتهت إلى لا شيء ، لذلك طلب الجنرال مايير

آميت رئيس المودين ، طلب من إيسر هاريل متابعة التحقيق بوسائله الخاصة .

وفي آخر أسبوع من أيار تلقى إيلي رسالة بالشيفرة تطالبه بتعيين المكان الذي يوجد فيه ديفير ، ولم تكن هناك حاجة للتفصيل فقد كان ايلي يتابع البيانات اليومية لمعركة النقيب في البرنامج العربي من محطة إسرائيل . ومن المضحك أن النقيب كانت أيضاً الموضوع الرئيسي في دمشق حيث راح الإعلام يردد أصداء انتصار رنان في المعركة . كما أن المصفحات نصف المجنزرة التي تركها الجيش الإسرائيلي في حقول الألغام عرضت في شوارع دمشق كدليل على النصر ، بينما كانت الجماهير وكذلك طلاب المدارس يهتفون في ساحة المرجة في دمشق . وذكر ايلي الحادث لأول مرة لمعزى في مجرى حديثهما مستعلماً عما إذا كان هناك أسير إسرائيلي قد قبض عليه في المعركة . فأجاب الملازم الأول السوري قائلاً : « أنا لم أكن هناك غير أنني أعرف أننا لم نأسر جندياً واحداً » .

وبعد قليل من حديثه مع معزى تعرف ايلي على ضابط في الشرطة في منطقة معزى ، وحاول أن يستعلم منه ما إذا كان ديفير قد وضع في غياهب السجن العسكري في دمشق ، فأكد له آمر الموقع أن ليس في السجن يهودي أسير في النقيب . وفي أواخر العام حاول ايلي أن يتبين ما إذا كان ديفير بين الإسرائيليين الاثني عشر الذين أودعوا سجن تدمر العسكري . فتظاهر كسائح أنه مهتم بالاستكشافات الأثرية التي أمكن العثور عليها في المركز التجاري اليوناني القديم في تدمر . وقام باجتياز مسافة ٥٠٠ كلم في الشمال من صحراء سورية وحتى قرية تدمر المتداعية ، حيث كانت القلعة الفرنسية ومعسكر الاعتقال على مسافة قصيرة من القرية . وذهب ايلي لمقابلة قائد المعسكر النقيب عمر وحارس السجن الرقيب عواد ، حاملاً إليه توصية من معزى . غير أن الضابطين ترددا في إطلاعه على قائمة المساجين ولم يستطع ايلي أن يمر من خلال مكتب قائد السجن كما لم تتوفر له أية شواهد تتعلق بوجود ديفير هناك . وعندما عاد ايلي إلى دمشق تابع

بحثه للعثور على أثر للجندي الإسرائيلي المفقود ولم يتوقف البحث إلا عندما أوقفت الموادين رسمياً ملاحقتها لهذا الموضوع (١) .

(١) لم يحل لغز ديفير هذا إلا في عام ١٩٦٤ ، عندما جرى التبادل بين ثمانية من المساجين اليهود في تدمر بعد ١٢ سنة من السجن لقاء عدد من المساجين السوريين . ويقولون ان ديفير الذي جرح في المعركة قبض عليه الحرس الوطني بعد الانسحاب الاسرائيلي وتعرض في القنيطرة ودمشق الى استجوابات لا تنقطع خضع فيها لأعمال التعذيب . غير انه رفض ان يقدم للمستجوبين تفاصيل عن الجيش الاسرائيلي ، فنقل أخيراً الى تدمر حيث نجح في الانتحار قبل نهاية عام ١٩٦٣ ، ودفن السوريون جثته في قبر صحراوي مجهول .

الانقلاب

قبل أن يطلع الفجر في آخر أربعاء من شهر آذار استيقظ ايلي على صوت رنات الهاتف المتعاقبة ، فأشعل النور وعيناه مثقلتان ، ثم نظر إلى الساعة فكان العقرب على الخامسة والأربعين بعد الخامسة . وبينما كان يمد يده إلى السماعة كانت خواطره تستعرض الاحتمالات المختلفة التي أدّت للإتصال به في مثل هذه الساعة ، إلى أن استمع إلى صوت معزى زهر الدين العميق وهو يقول بلهجة تعروها الدهشة : « لقد حدثت أخيراً يا أخي ، واستلم الجيش السلطة » . وراح ايلي يصغي باهتمام إلى حديث الملازم الأول الذي قص عليه كيف ان القيادة العليا ساقت كالقطيع أثناء الليل رجال البرلمان وكبار الموظفين في الدولة إلى مقر القيادة قبل إرسالهم إلى سجن المزة . أما رئيس الجمهورية ورئيس وأعضاء الوزارة فقد وضعوا رهن التوقيف الإجباري في منازلهم . وقال معزى مفاخراً أن عمه خرج ظافراً من الصراع الداخلي على السلطة . وهو يرأس الآن الشرذمة الحاكمة ، ويتوقع أن يتولى القيادتين السياسية والعسكرية ويصبح الرجل القوي في سورية .

وكان معزى يشعر أن فرص ترفيعه أصبحت رائعة ، وأن مكتب شؤون الضباط سيكافئه برتبة نقيب التي أصبحت من حقه منذ زمن بعيد . ولم يكن معزى يهتم بتغيير وضعه وبالمكافأة المالية التي يمكن أن يحصل عليها بقدر اهتمامه بما سيصيب من نفوذ وهو في مركز النقيب ، حيث يصبح من طبقة الضباط الذين يتآمرون على السلطة، وسيحسب حسابه من كبار الضباط الطامعين بالمراكز السياسية عند تقويم الحسابات الخاصة بالانقلابات . وقطع الملازم الأول روايته مشيراً إلى أن نشرة مستعجلة أعدت للإذاعة عندما ستفتتح في الصباح . وقال : « أعتقد إنه يهمك تتبع

الأحداث منذ بدايتها » ، فشكره ايلي على ثقته ودعاه إلى لعبة « طاولة ».

وما كاد معزى ينهي مخابرته ، حتى اسرع ايلي الى النافذة ليراقب الوضع من خلال الستائر ، فشاهد الدبابات والسيارات المصفحة وهي تحرس مدخل القيادة العامة ، كما ان شراذم مسلحة تقوم بأعمال الدورية حول الساحة المضاءة بالأنوار . وكان النشاط حول مباني القيادة يشبه الضجيج الذي سبق عملية الردع في النقيب . فقد كانت سيارة الليموزين وسيارات القيادة واللاندروفر تدخل المكان وتغادره بسرعة . و لم يسمع إيلي أي اطلاق نار . فاستنتج من ذلك أن السياسيين الذين كان أكثرهم يعيش في أبو رمانة استسلموا بدون مقاومة . وبعد مرور دقائق على الساعة السادسة فتح جهاز الاذاعة فإذا بالمارشات العسكرية تليها آيات من القرآن الكريم ، واستطاع أن يلتقط صوراً للجيش وهو يستعرض قواته في مناورات الانقلاب التقليدية التي سبق له أن مارسها قبل ستة اشهر فقط : فنقدمت وحدات من السيارات الروسية المدرعة ت ٥٤ خلال الشوارع ، وتحرك الجنود الى مواقع استراتيجية حول المباني الحكومية ، كما أن وحدات من الفدائيين احتلت محطتي الاذاعة والتلفزيون ، وأغلقت قوات الشرطة المطار الدولي ومنعت الطائرات من النزول . وهكذا فقد اختلف القادة غير أن النموذج لم يتغير .

وأشع الفجر ككرة من نار فوق جبل قاسيون ، وراحت المدينة تشع بآلاف الألوان . وفي الساعة السادسة والنصف تماماً ، كما توقع معزى راح أحد المذيعين المذهولين يتلو بيان القيادة العامة ، وكان عنوان البيان البلاغ رقم ١٩ وقد أعلن بأن الجيش تولى زمام السلطة منذ الصباح للحفاظ على أمن البلاد واستقرارها وحريتها ، وعلى مكاسب ثورة ٢٨ ايلول ١٩٦١ . وقد كان اهتمام الضباط بالرأي العام واضحاً عندما أطلقوا أول بلاغ أصدروه الرقم ١٩ رغبة في الحفاظ على التعاقب في بلاغات مجلس الثورة أثناء الانقلاب الانفصالي ، فقد كانوا يريدون الإشارة إلى أنهم يحملون الصفة ذاتها وأن كل ما يحاولونه هو إعادة الحياة الى اتجاهات

حركة ايلول ١٩٦١ وأنهم لم يكونوا أبداً أعداء للوحدة .

واتخذت تدابير أمن وقائية بتعاقب سريع . ففي الساعة السابعة قبل الظهر أقفلت الحدود وبعد عشرة دقائق أعلنت شرذمة الضباط حل مجلس النواب . وفي السابعة وعشرين دقيقة جاءت استقالة الرئيس القدسي المتوقعة «لأسباب تتعلق بحالته الصحية»، وبعد أقل من نصف ساعة استقالت حكومة الدواليبي .

وبينما كانت الإذاعة مستمرة أرسل ايلي رسالتين أعدهما في اليوم السابق ، وكان في سرده للوقائع يربط بين ما وصل إلى علمه من صراع على السلطة داخل الجيش، وعن التعاون العسكري بين سورية والعراق، مضيفاً إلى ذلك معلومات معزى الأخيرة عن الانقلاب . وأنهى الإرسال بتعليقاته الخاصة ، واعداً بجمع حقائق أخرى والحصول على معلومات جديدة . وهكذا أحاطت تل ابيب علماً بكل شيء ، وحددت موعداً للقاء آخر مع إيلي في وقت لاحق من تلك الليلة ، وذلك وفقاً لمنهاج مستعجل أعد من قبل . وكان من المتوقع أن يحصل إيلي على عناصر جديدة تتعلق بأحداث النهار ، كما أن مركز «المخابرات الاسرائيلية» يكون قد أعد تعليماته الخاصة بالموقف الجديد .

وبعد مرور ساعة على إعلان الاستيلاء أصبحت القيادة جاهزة لتقديم مبررات جديدة . وحاول الضباط في بيان مفصل ومدروس ، تلي من الاذاعة تبرير الحركة التي قاموا بها ضد الحكومة الشرعية ، ملقين اللوم على النواب الخونة لأنهم حملوا السلطتين التشريعية والتنفيذية على إلغاء القوانين التي تحمي حقوق العمال والفلاحين . وقال ناطق بلسان الجيش : « كان علينا أن نتدخل لكي نضع حداً لهذه المداخلات غير القانونية» ، ووعد بأن يكون تدخل الجيش مؤقتاً وقال : « إن القوات المسلحة مصممة على الابتعاد عن السياسة ، والعودة الى الثكنات متى سمح الموقف الداخلي بذلك » . وكشفت قيادة الجيش عن بعض الملامح الخاصة بنواياها المقبلة عندما تعهدت بصيانة الحريات المدنية ، وحماية الفلاحين ، وتشجيع

المشاريع الخاصة ، وتنمية الاشتراكية البناءة ، وبناء مجتمع قائم على الأخوة والمحبة . أما فيما يتعلق بالسياسة الخارجية فستلتزم القيادة بموقف الحياد الإيجابي ، وبمبادرة أقوى في القضايا العربية ، وبخطوات إيجابية على طريق الوحدة مع البلدان العربية المتحررة ، وخاصة مصر المحبوبة ، والعراق الشقيقة ، وستساند النضال في سبيل حرية العرب واستقلالهم في كل مكان ، وستستخدم كل وسيلة تقع في إطار طاقتها لإنقاذ فلسطين .

ولكن ... على الرغم من هذه الإيضاحات الأولية ساد الارتباك القطعات العسكرية في الشمال البعيد ، وفي الجنوب الشرقي ، ولا سيما القطعات المعسكرة على طول الحدود اللبنانية والتركية والأردنية والعراقية . ذلك أنه لم يكن يدور في خلد أحد أن عصبة مؤلفة من ثلاثين من الضباط الصغار التابعين للقيادة المركزية والأركان العامة ستحيك مثل هذه المؤامرة . لذلك كانوا عاجزين عن القيام بأية حركة معاكسة كغيرهم من قواد الميدان الذين كانوا من الأحداث كلها في ظلام دامس . وسيطر الشك على عدد كبير من الضباط في الساعات الأولى من الصباح ، إلى درجة أن أحد المخافر بالقرب من إعزاز على الحدود الشمالية شوهد من قبل الجنود الأتراك في كلس ، وهو يرفع ثم ينكس علم الجمهورية العربية المتحدة ، والعلم السوري خمس مرات متوالية بين الساعة الثامنة صباحاً والساعة الثانية بعد الظهر . وذلك قبل أن يستقر الرأي على العلم المثلث الألوان الأخضر والأبيض والأسود مع النجوم الثلاث الحمراء . غير أن قادة الحدود ما لبثوا أن تغلبوا على ترددهم فأرسلوا إلى القائد الأعلى للجيش يؤكدون ولاءهم ويعلنون موافقتهم على حركة الزمرة العسكرية .

وبعد الظهر تقاطر الدمشقيون على الشوارع كما افتتح كثير من المحلات التجارية . وذهب ايلي ليقابل الحسن في مكتبه ، ثم التقى فيما بعد بشيخ الأرض على فنجان قهوة ، وكان بينه وبين جورج سيف حديث مفيد عن مضاعفات الانقلاب السياسية ، ثم عاد إلى بيته . وقبل أن يعلن منع التجول بقليل ، وبينما كان إيلي يسير في شارع أبو رمانة لاحظ أموراً

غير طبيعية تحدث بالقرب من القصر الذي يقيم فيه ناظم القدسي . وكان قصر الرئاسة والسفارة التركية القريبة محاطين بالشرطة العسكرية من ذوي القبعات الحمراء ، وفدائيين متسترين بمعاطف وبلباس الميدان ، وشاهد إيلي الجنود وهم يقذفون بالقدسي في سيارة عسكرية ليموزين ويذهبون به بعيداً . وعلم بعد ذلك أن الرئيس نقل إلى مكان مريح بعض الشيء في مستشفى المزة خارج جدران السجن حيث التحق به الرئيس الدواليبي وخمسة عشر من وزرائه . وفي وقت سابق أوقف تسعون نائباً ، وعدد من كبار الموظفين بتهم الفساد والتخريب . وعندما لف الظلام العاصمة بدا الموقف وكأنه هادىء ، وألغت إذاعة دمشق برنامج المارشات العسكرية ، ولكنها استمرت في إذاعة التحذيرات ضد الشائعات المضللة ، وكان منع التجول ما يزال قائماً. وفي يوم الأحد وبعد ليلة مرت بدون أحداث أعيد فتح الحدود وعادت الحياة إلى طبيعتها .

وفي مساء الخميس عند الظهر علم إيلي من معزى كل التفاصيل عن الأحداث التي جرت من وراء الستار والتي عجلت بالإنقلاب . وكان الملازم الأول يعرف عن طريق اتصاله بالقائد العام الكثير من التفاصيل الدقيقة عن الثورة . فاستطاع بهذا أن يكوّن بسهولة صورة عن موزاييك الأحداث ، وأن يحلل تحركات الزمرة العسكرية ، وأن يستبق نواياها بالنسبة للمستقبل . فقد استدعى زهر الدين قبل أسبوعين جميع قادة الألوية إلى دمشق ليبحث معهم موضوع حلف ودي يقوم بين سورية والعراق ، فراح قادة الألوية يوازنون بين الأرباح الاقتصادية والتكتيكية التي يمكن أن تنشأ عن هذا الحلف وبين معارضة الناصريين القوية الذين يرون في الحلف ميزاناً مضاداً للوحدة مع مصر . فتقرر أخيراً موالاة السياسة العراقية .

وبعد أن أمكن الوصول إلى هذا الاتفاق جرت مناقشات حادة حول السياسة الداخلية . وهنا كان تباين الآراء واختلافها من الشدة حتى بدا كأن المؤتمر لم يحالفه التوفيق ، ذلك أن اليساريين الناصريين بقيادة اللواء

عبد الغني دهمان قائد موقع دمشق ، والعقيد عبد الكريم النحلاوي مدير شؤون الضباط في القيادة العامة طلبوا المناقشة في موضوع العودة فوراً إلى الجمهورية العربية المتحدة ، غير أن فئة مبعثرة من اليمينيين ، سمح لها الجيش في البقاء بالخدمة الفعلية بعد التطهير الذي أعقب الانقلاب الانفصالي ، أرادوا المحافظة على الوضع الراهن بقيام حكم مستقل محافظ . أما المعتدلون الذين يرأسهم زهر الدين فكانوا يحضون على استمرار الحكم الدستوري مع منح امتيازات أكبر للعمال ، والاستجابة لطلبات الفلاحين . وانتهت المناقشة بدون نتيجة ولم يكن أمام زهر الدين سوى تأجيل الاجتماع .

على أن القائد العام كان يعتبر نفسه مسؤولاً عن إيجاد طريق للخروج من هذا المأزق ، فتولى زمام المبادرة عندما ذهب لمقابلة القدسي فاجتمع معه على انفراد في قصر المهاجرين . وقال معزى فيما بعد ان عمه انتقد بقسوة سياسة الحكومة وأعرب عن رأيه في أن مقاومة النفاق للناصرية تقتضي اتخاذ إجراءات اشتراكية ، وذلك لإرضاء العناصر اليسارية . وقد وافق الرئيس على هذا الرأي ولكنه طلب أن لا يضم صوته إلى أصوات الناقمين وقال إنه عاجز ، ولا يملك أن يفعل شيئاً ، وأن الدواليبي هو الذي يملك سلطة غير محدودة على الأكثرية المحافظة ، وإن على زهر الدين أن يتحدث إليه .

وذهب القائد العام في اليوم التالي لمقابلة الدواليبي وعندما استمع رئيس الوزراء إلى شكواه ، واطلع على النيات السيئة الكامنة وراء مؤتمر الألوية ، أظهر سخطه الشديد واحتج بعنف على التدخل العسكري . وذكّر زهر الدين بالعهد الذي قطعه على نفسه بأن يلتزم الثكنات . غير أن القائد العام حذر الدواليبي من غضب الضباط الناصريين ، إذ أصبح عاجزاً عن السيطرة عليهم لفترة أطول ، وهدد بالالتحاق بهم إذا لم يجر إصلاح للموقف الحالي . وفي اليوم التالي وعندما استنكر الدواليبي علناً تدخل الجيش في الشؤون السياسية كان جواب زهر الدين الرسمي مطالبته بالاستقالة . وكان دهمان والنحلاوي الناصريان يتابعان تدخلات زهر الدين

باهتمام متزايد ، ويساعدانه طالما اقتضت أغراضهما ذلك ، ولكن عندما اتسع شق الخلاف بين الضباط المعتدلين ، والساسة المحافظين تأكد لهم أن زهر الدين وأتباعه لن يتسامحوا بدوام انشقاقهم . وقرروا أن يتولوا زمام المبادرة بأنفسهم . غير أن المكتب الثاني نقل أخبارهم إلى زهر الدين قبل أن يستطيعوا القيام بعمل ما . وقام زهر الدين بجمع المحيطين به من أنصار الوسط وأفهمهم أنهم لا يستطيعون البقاء في معزل عن السياسة إذا كانوا راغبين في المحافظة على مراكزهم . وهكذا أعلن بحركة سياسية بارعة مساندته للانقلاب الذي تواطأ عليه الناصريون . وقال معزى لإيلي إن عمه اشترك في وقت لاحق في اجتماع مع دهمان وعقداء آخرين مقربين في القيادة المركزية للأركان . وبعد أن أوضح وجهات نظره قال إن الوقت أصبح مناسباً للاضطلاع بأعباء السلطة : فقد وقع القدسي والدواليبي في حمأة الكراهية بينما حلقت مكانة الجيش بما قام به قبل أسبوعين في النقيب ، وعرض زهر الدين على الوحدويين المساندة الرسمية ، كما ضمن لهم تعاون المخابرات ، والشرطة العسكرية ، والقوات الجوية والبحرية . أما فيما يتعلق بالوحدة مع مصر فإنها وإن كانت قضية أساسية إلا أن من الممكن مناقشتها في وقت لاحق . وهنا أمكن الوصول إلى صيغة مؤقتة يقبلها الطرفان ، وكان مما جاء فيها استئناف المحادثات مع عبد الناصر . واقترح زهر الدين في حالة الموافقة على هذه الصيغة أن يتولى قيادة الزمرة العسكرية أعلى الضباط رتبة من الذين اشتركوا في المعركة — ويعني بذلك هو نفسه — وعلى الرغم من أن الوحدويين كانت تساورهم الشكوك في نواياه فقد اختاروا التعاون معه .

وفي نهاية الأسبوع أكد اثنان من الضباط برتبة ملازم يعملان في وزارة الدفاع أكثر المعلومات والحقائق التي كشف عنها معزى . وهكذا أرسل إيلي من جهازه السري الأخبار والتفاصيل إلى تل أبيب في صورتها الصحيحة .

ففي صباح يوم الجمعة قام شيخ الأرض بزيارة لإيلي ليخبره عن

توقيف ١٢ من رجال الأعمال من قبل الشرطة العسكرية ، وأن بين هؤلاء رؤساء الشركة الخماسية (وهي شركة تروست عمرها ١٤ عاماً وقد اكتسبت اسمها من خمس عائلات كانت تمارس نفوذاً كبيراً على الاقتصاد السوري . وسبق أن أممتها الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٦٠ ثم أُعيدت إلى أصحابها مكافأة على ما قدموه للانفصاليين من تشجيع ودعم مالي) . كما زج في سجن المزة كذلك أعضاء آخرون من لجنتي الاقتصاد والمال في البرلمان السوري . أما الأخبار عن فشل زهر الدين في تكوين جبهة مدنية تأتمر بأمر زمرته العسكرية فقد تسربت إلى إيلي عن طريق جورج سيف .

وعلم جورج سيف كذلك أن زهر الدين في سعيه لجمع وزارة من الفنيين حاول التفاوض على تشكيل حكومة مؤقتة مع ثلاثة نواب ممن لا مأخذ عليهم . غير أن هؤلاء أحجموا خوفاً من أن ينتهي بهم المطاف إلى مصير الدواليبي وجماعته ، فرفضوا التعاون ، وكان جزاؤهم أن أرسلوا إلى سجن المزة . ونام زهر الدين على كبريائه ، ومنح الأمناء العامين صلاحيات الوزراء ليمكن الجهاز الإداري من متابعة العمل .

وقد أدى فشل زهر الدين في الحصول على تأييد المدنيين إلى احتكاك بين معاونيه من الناصريين ، الذين راحوا يشكون في تجنبه لحل ديموقراطي ، ويخشون أن يخطط ليعلن نفسه زعيماً لسورية . وزاد من مخاوفهم هذه أنه أصدر تعليماته بمنع الكشف عن أسماء الضباط الذين صنعوا الانقلاب مدّعياً أن غايته من ذلك هي أن يعكس صورة عن الوحدة الكاملة في صفوف القوات المسلحة ، غير أن المصريين الذين كانوا مطلعين على كل ما يجري لم يسمحوا له بكتمان الخلافات القائمة وراء زمرته العسكرية . فقد نشرت صحف القاهرة تحقيقاً دقيقاً وصفت فيه الانقسام وعددت أسماء الضباط الذين قاموا بحركة آذار ، ذاكرة أسماء السبعة الناصريين من عصبة دهمان — النحلاوي وبعض أسماء أخصامهم الاثنا عشر من جماعة زهر الدين .

ودعا زهر الدين إلى مؤتمر صحفي ليرد على مزاعم الانقسام داخل القيادة العليا للجيش . واستطاع إيلي مستعيناً بنفوذ كل من جورج سيف ومعزى زهر الدين الحصول على دعوة لحضور المؤتمر . وظهر القائد العام في نادي الضباط برفقة حليفه اللواء دهمان ، واستمع الصحفيون إلى أن الذين صنعوا حركة الانقلاب من الضباط كانوا يهدفون فقط إلى القضاء على السياسيين الذين عرفوا بالفساد والرجعية . وهاجم الرأسماليين والانفصاليين . وقال : إن القوات المسلحة لن تتغاضى عن الفساد ولن تقف في عزلة من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية في البلاد . فالضباط مصرون على تعزيز التغييرات الاجتماعية وإعادة « الاشتراكية العادلة البناءة » ، وكذلك تعزيز الوحدة ، وتحسين العلاقات مع مصر .

ولم تنعكس هذه الأقوال على الصحافة ، حتى أن بعض البرقيات أعربت عن الرأي الذي تداولته أكثرية الشعب السوري وهي أن غاية الضباط الحقيقية هي العودة بالبلاد إلى عهد الوحدة . وخوفاً من ردود الفعل لدى أوساط الرأي العام أصدر زهر الدين أوامره إلى الإذاعة والتلفزيون بتجنب الإشارة إلى « الأخت العراق » أو « المحبوبة مصر » وتطمين المستمعين إلى أن سورية لن تقع مرة أخرى بين ذراعي أي من البلدان العربية .

وقد أثارت هذه البيانات الغامضة موجة من القلق بين المحافظين والناصريين في الشمال وهو مركز القوة التقليدي لليمينيين والوحدويين . وبعد ثلاثة أيام فقط من الحكم العسكري دب القلق في صفوف الوحدات العسكرية في مناطق حمص ، وحماه ، وحلب . وكان اليمينيون أول المتحركين . وقد قدّم خلف التلاوي أحد زبائن إيلي من التجار وصفاً شاملاً عن الاضطرابات التي حدثت كما شاهدها بعينه فقال : « وفي صباح يوم السبت ٣١ آذار قامت جماعات من اليمينيين والأخوان المسلمين بالزحف على مقر الحكومة وعلى قيادة الجيش معلنة مساندتها لرئيس الوزراء المعتقل . وطلبت الشرطة النجدة من قوات الجيش . وأرسل قائد

حامية حمص – تنفيذاً لأوامر تلقاها من دمشق – أرسل قواته لقمع المظاهرة . ولكن ما كادت قوات الجيش تعود إلى الثكنات حتى سار الناصريون في مظاهرة أخرى في الشوارع . وقبل أن يتمكن رجال الشرطة من تفرقة المتظاهرين تحولت المظاهرة إلى مهرجان ناصري ضخم استمر حتى المساء .

وفي حماه انضم المحافظون إلى الاشتراكيين في مظاهرة ضد إلغاء الحكم الشرعي في البلاد بينما نظم الناصريون الذين لا يؤيدون اليمين ولا اليسار مهرجاناً لمصلحة الوحدة مع مصر . وبعد اصطدامات عنيفة برجال الشرطة وسقوط ضحايا من الجانبين تفرقت الجماعات الثلاثة . وقبل أن ينتهي النهار ران على المدينة جو يشبه الهدنة .

وبينما كانت قوات الشرطة والجيش تسوق المتظاهرين من شوارع حمص وحماه ، انطلقت الجماعات المحافظة في حلب في إظهار مشاعرها ضد الزمرة العسكرية . وسار اليمينيون الغاضبون يدعمهم جيش من الغوغاء والعاطلين عن العمل ، والعمال الموسميين الذين يعملون في قطف القطن وغيرهم ، في مظاهرة ضد شرذمة من الجيش التي هاجمتهم بخوذها الفولاذية فردوا على أعقابهم . أما الذين وقعوا في أيدي الجند فقد حشروا في السيارات ، واقتيدوا إلى السجن . حتى أن شيخ الأرض الذي ذهب في بعض أعماله إلى حلب ، بعد أن تحسن الموقف في العاصمة ، اعتقل في وسط المظاهرة الصاخبة . وأرغم على البقاء في المدينة حتى نهاية الأسبوع . فشاهد الأحداث عند وقوعها ، وكان التحقيق الذي قدمه لإيلي كافياً لإبلاغ تل أبيب بكل التفاصيل عن الأحداث التي أدت إلى حركة حلب .

وعند الظهر أغار مئات من الأخوان المسلمين على المدينة ، فحطموا تمثال الرئيس عبد الناصر ، وقلبوا سيارات الباص ، وأشعلوا النار في السيارات الصغيرة . وعندما تلقت الشرطة الأمر بوقف حركة الغوغاء ، أطلقت النار على المتظاهرين ، وكانت النتيجة جحيماً مستعراً ، إذ أن الصيحات الغاضبة كانت تخترقها صرخات الألم عندما كان الرصاص

يحصد الجماهير ، فقتل عشرون شخصاً وجرح أكثر من مئة ، أما الباقون فهربوا وهم في أشد حالات الذعر .

ولم تنته مظاهرات الاحتجاج بتفريق الأخوان المسلمين ، ذلك أن الناصريين الذين ضاق صدرهم بموقف الزمرة العسكرية من الوحدة ، وأغضبتهم مظاهرة القوة التي قام بها المحافظون ، وجماعة اليمين ، قرروا الإعلان عن مطالبهم في اجتماع عام . وهكذا زحف الطلاب والعمال والفلاحون واللاجئون الفلسطينيون من مخيم قريب إلى وسط مدينة حلب ، وهم يحملون شعارات كتبت عليها فداك دمنا يا ناصر ، ولا قائد إلا جمال . وقد أفسح رجال الجيش والشرطة الطريق للمتظاهرين عند مرورهم فاستبدت بهم نشوة الظفر ناسين ما حدث للمتظاهرين في يوم السبت ، فهاجموا الدكاكين ودمروا ، وأحرقوا ، ونهبوا دون أن يعارضهم أحد . واتخذ الجيش ورجال الشرطة منهم موقف الحياد في بادىء الأمر ، ولكن عندما هددت المظاهرات بالتهام المدينة بأسرها تدخلت قوات الشرطة والجيش وفرقت المتظاهرين ، وفرض في الليل نظام منع التجول . ومع ذلك فقد استمرت مدينة حلب في حالة غليان وظل التهديد بأعمال عنف جديدة قائماً .

وفي ساعة متأخرة من ليلة السبت تم الاتفاق بين قادة الضباط الناصريين في حامية حمص على القيام بحركة ضد الزمرة العسكرية في دمشق . وفي فجر يوم الأحد تمركز لواء المشاة داخل المدينة وحولها ، يعززه أفراد الكلية العسكرية في مدينة حمص ، فوضعوا المتاريس حول دار البلدية ، ومحطة الإذاعة ، وأودعوا السجون أخصامهم المؤيدين لدمشق وراحوا يذيعون بيانات بتأييد الوحدة ، ويحثون الدمشقيين على المباشرة بمفاوضات فورية للوحدة مع مصر .

وعندما سمع اللواء جاسم علوان ، قائد الحامية الشمالية في حلب بحركة الضباط الناصريين في حمص وتحدي هذه الحركة لدمشق ، لم يرسل فرقة مدرعة لإنزال العقاب بهم بل أعرب عن عطفه على قضيتهم .

وبعد سلسلة من المشاورات مع أركان قيادته ، اتصل بالضباط الثائرين وبمؤيديهم — المحافظ ، مدير الشرطة ، وكبار الموظفين — وعرض عليهم أن يلتحق بهم في شن حملة إعلامية ضد زمرة دمشق .

وفي أحد الاجتماعات طلب علوان من رفاقه أن يتعاهدوا على الوحدة . وعلى الفور أقسم معاونه المقدم حمد عبيد وهو درزي ومعه ١٧ ضابطاً يمين الولاء له . وعندئذ أمر علوان بإبقاء البعثيين والضباط المحايدين داخل الثكنات ، كما أوقف أتباع زمرة دمشق ، والمحافظين المناوئين لمصر ، وأرسلت قوة صغيرة للحفاظ على المنشآت العسكرية ، واحتلال المباني العامة ، والسيطرة على محطة الإذاعة ، ورفع علم الجمهورية العربية المتحدة على قلعة حلب .

وعلم إيلي أخبار قيام قيادة ثائرة في حلب عندما تقاطع إرساله مع برقية أرسلها علوان إلى السفير المصري في بيروت ، طالباً منه المساعدة بالسلاح وبقوات المظليين ، وقام زهر الدين بمحاولة لكسب الرأي العام وعزل الثوار ، فرد مستثيراً وطنيتهم ، وأشار إلى حادث النقيب فزعم أن الإسرائيليين يستعدون لهجوم جديد فدعا الشعب إلى رص الصفوف ، وإلى التطوع للحرب ضد اليهود . وكان إيلي يراقب زهر الدين وهو يتابع حركة التهدئة بقلق بالغ ، وأحاط تل أبيب علماً بإنشاء مراكز تجنيد مستعجلة ، ومراكز تدريب ، وفتح مخيمات لتدريب المدنيين على الخدمة العسكرية ، ووصف ذلك بأنه خطوة لإنشاء جيش شعبي الهدف منه توجيه الكراهية والعداء ضد الإسرائيليين .

ونجحت استراتيجية زهر الدين هذه ، ففي ليلة الأحد نشب صراع بين أنصاره وأنصار علوان في حلب ، وجرى تبادل النار بين الفئتين حيث قتل ضابطان وخمسة جنود ، وسرعان ما عززت القوات التي تناصر دمشق عن طريق تدمر ، مما أدى إلى انهيار الثورة بسرعة . ولكي يصبح بالإمكان إزالة الخلافات ، اقترح الضباط في المنطقة الشمالية أن يقوم زهر الدين بدعوة قواد المناطق الخمسة إلى مؤتمر حول مائدة واحدة ،

وكان زهر الدين قادراً على قمع ثورة حلب بالقوات الموالية له ، والتي هي تحت تصرفه في قطنا والقابون ، ولكنه كان يعرف بأن عملاً من هذا النوع إذا جرى بدون مساندة فريق الضباط فقد يحطم التوازن الدقيق الذي أمكن قيامه بين الجماعات الثلاث المتخاصمة في نهاية الأسبوع ، وكان يخشى أن لا تستمر حالة السلم التي سادت الصراع على السلطة وقتاً طويلاً إذا لم يمنح الضباط فرصة للإعراب عن آرائهم والبحث في خلافاتهم . وهكذا تأكد زهر الدين الذي كان يرجو أن يحقق الوحدة داخل الجيش أن المؤتمر المقترح هو طريق مثالي لكسر الجليد القائم في الجيش ، فأعرب عن موافقته . وعقد في صباح اليوم التالي اجتماع في نادي الضباط في حمص .

وعندما وصل القائد العام ومعاونوه كان هناك أسطول من السيارات الصغيرة ، وسيارات الليموزين ، محتشدة عند المدخل . وعلم إيلي فيما بعد أن جميع القادة الذين يمثلون مختلف الاتجاهات ومعاونيهم الآمرين فيما عدا ثوار حلب كانوا حاضرين . وتكلم زهر الدين بمرارة عن التفرقة في صفوف الجيش ، وعن العصيان في حامية حلب ، ولخص المشاكل العربية ، وحذر من أخطار وحدة مستعجلة مع مصر أو العراق . وكان خطابه الوطني المثير ضد الوحدة بين المتطرفين محل ترحيب حار . فقد شاركته الأكثرية آراءه المعتدلة . ولو أن الآراء كانت مختلفة إلى حد بعيد حول المواضيع الافرادية كموضوع الوحدة مع مصر . وبعد ليلة طويلة من المناقشات العصبية تعاقدت كل القيادات على مساندة القائد العام ، معلنة خذلانها لدهمان والنحلاوي وعلوان ، لأنهم ينشدون السلطة لأنفسهم . كما وافقوا على أن الضباط المتطرفين سواء أكانوا وحدويين أو مناوئين لمصر يجب أن يعزلوا من مناصبهم .

وقرر ميثاق حمص كذلك دعم إعادة الحكم المدني من اليساريين المعتدلين ، ولكنه رفض عودة المجلس النيابي . وكان اقتراح زهر الدين أن يعاد تعيين ناظم القدسي رئيساً للجمهورية . وحاز هذا الاقتراح على

موافقة الضباط ، ومنح القائد العام الصلاحيات المطلقة في اختيار رئيس الوزراء ، وفي تأليف وزارة من الفنيين يكون مرجعها العسكريون فقط ، واتفق الضباط مبدئياً على إجراء استفتاء شعبي لتحديد ميعاد وكيفية تحقيق الوحدة مع مصر . وتألف مجلس عسكري من أربعين ضابطاً للإشراف على الشؤون العسكرية والمدنية والإعداد للاستفتاء على الوحدة بعد عودة البلاد إلى أوضاعها الطبيعية . ووصف إيلي الاجراءات الجديدة بأنها مجرد واجهة لحكم الجيش ، وقد خططت القيادة للاحتفاظ بمركز الإشراف على شؤون البلاد لفترة طويلة .

وفي صباح يوم الاثنين أصدر زهر الدين أمره بنقل الرئيس القدسي من المزة إلى مكان توقيفه في منزله ، ثم دعا إلى مؤتمر للصحف الأجنبية وأعلن أن مجلس القيادة الجديد للقوات المسلحة سيضمن قيام الإصلاحات الاشتراكية المعتدلة ، وعودة قريبة إلى « ديموقراطية نظيفة » ، وكذلك استفتاء على الوحدة مع مصر . ولكن بينما كان يلقي خطابه قامت مظاهرات في العاصمة من قبل أنصار الجمهورية العربية المتحدة ، فتحرك زهر الدين بسرعة ، وأرسل قوات الجيش التي أطلقت النار على المتظاهرين ، وأغلقت الحدود والمطارات ، وفرض حكم عسكري على العاصمة والمناطق المحيطة بها . وأوقف المنشقون ، وفرض منع التجول . ومع ذلك فقد عجلت هذه الاضطرابات في توضيح موقف زمرة دمشق من الوحدة العربية ، وأصر زهر الدين على أن القيادة العليا تشجع الوحدة مع البلدان العربية المتحررة برئاسة مصر ، بشرط أن تقوم هذه الوحدة على أسس سليمة ، وبشرط أن يصان شرف البلاد ووجودها عن طريق تجنب الأخطاء السابقة ، وأن تكون هذه القواعد كلها موضع استفتاء حر » .
أما الوحدويون السبعة الذين قرر مؤتمر حمص إعفاءهم من مناصبهم فلم ينتظروا صدور الأمر بإخراجهم من قياداتهم ، ولكنهم قرروا حماية للثورة الالتحاق بعلوان الذي كان جاثماً وراء استحكاماته في حلب ، والذي شكل زمرة عسكرية تؤمن بالوحدة وتريد أن تعلن المناطق الشمالية كجزء من الجمهورية العربية المتحدة . وعندما وصل هؤلاء القادة السبعة

إلى حلب ، شددت محطة الإذاعة هناك من حملتها على دمشق . وصرخ المذيع من حلب قائلاً : « نحن قلباً وقالباً لعبد الناصر . نحن قرابينه الأسود ، فلتحيا الوحدة العربية » . وهكذا استعدت الزمرة الوحدوية لمواجهة الأسوأ فهي في حالة تعرضها للتهديد ستدافع عن المدينة . أما إذا تلقت مساعدات من الخارج فستتحرك باتجاه دمشق .

وأثناء الليل أعدت القيادة العامة للقيام بعملية عسكرية ضد الثوار . فزحفت كتيبة من الدبابات وعدد من بطاريات المدفعية في اتجاه مدينة حلب ، بينما صدرت الأوامر للقوات الجوية بإعداد رحلات للتحليق فوق الأراضي التي يسيطر عليها الثوار . وعند الفجر استمع إيلي إلى راديو دمشق وهو يصدر إنذاراً إلى الثوار وتعليمات إلى الضباط والجنودالمحجوزين وراء الاستحكامات ، ولكنه بعد وقت قصير وصفهم « بالخونة الذين يتلقون الأوامر من أسيادهم في القاهرة » ، وبعد الإنذار امتلأت شوارع مدينة حلب بالوحدويين الغاضبين وقد راحوا يعززون معنوياتهم بالأناشيد وبهتافات « الله مع عبد الناصر » ، وراح علوان يخطط للدفاع عن المدينة ، ووزع الأسلحة على أنصاره من المدنيين ، واستعرض الوحدات في خط دفاعي دائري على الطرق المؤدية إلى دمشق ، وحمص ، ودير الزور ، وانطاكية ، واللاذقية .

وبينما كانت قوات الزمرة في حلب تتحرك إلى مراكزها ، بعث زهر الدين بطائرتي ميغ من حرستا لإسكات محطة إذاعة الثوار ، وبعد دقائق ، أي عند الساعة التاسعة والربع دوت صفارات الإنذار منذرة السكان الحلبيين بغارة جوية ، فقد قصفت الطائرتان النفاثتان جهاز الإرسال في المحطة التي تقع على بعد ٢٠ كيلومتر إلى الجنوب من حلب بقنبلتين ولكنهما أخطأتا الهدف . فقامتا بعد ذلك بعرض للقوة فوق المدينة ثم عادتا إلى قاعدتهما . وأعلن المذيع من محطة حلب عن الهجوم ، وحمل بمرارة على إلقاء القنابل ، ثم وصف الموقف بأنه يائس ، ورجا عبد الناصر بأن يرسل قوات من المظليين لإنقاذ المدينة ، وليساعد على الاحتفاظ

بمدينة حلب كرأس جسر للجمهورية العربية المتحدة . وردت دمشق على ذلك بإنذار آخر مطالبة العصاة بالاستسلام قبل الظهر .

وبدأ أفراد الزمرة في حلب يشكّون في قدرة علوان على إقامة رأس جسر للجمهورية العربية المتحدة في سوريا . واعترفوا بعدم جدوى أية مواجهة عسكرية مع زمرة دمشق التي تقف إلى جانبها قوات برية كبيرة ، وكذلك قوة جوية ، وقوة بحرية ، وألوية مدرعات ، وأحاطت مراكز الثوار الأمامية على طريق دمشق علوان علماً بأن وحدة من الدبابات ت ٥٤ عددها ٥٦ دبابة تزحف في اتجاه الشمال . وهنا أعرب عدد من معاوني علوان عن اعتقادهم بأن النصر غير ممكن ، غير أن اللواء أصدر أمره إلى وحداته بالاستعداد للقتال خارج المدينة ، وكان بعض قواد الميدان غير مستعدين للمضي مع علوان إلى هذا الحد ، ولما كانوا يخشون من نتائج الاستسلام بدون قيد أو شرط لذلك حثوا علوان على الدخول بالمفاوضات .

وأصبح علوان في وضع يائس عندما عرضت القاهرة وساطتها بدلاً من إرسال الإمدادات .. وبينما كانت القوات من دير الزور تقترب ، وعندما شعر الدهمان والنحلاوي أنهما عند أبواب المدينة بدون مساعدات ولا دبابات ، انحازا إلى جانب المفاوضات ، وقرر علوان الخضوع . فأمسكت إذاعة حلب ، وبعث برسالة استعطاف إلى زهر الدين معلناً أن القوات في حلب تمتثل لأوامر القيادة وقد التزمت ثكناتها ريثما تجرى المحادثات . فوافقت دمشق على ذلك وعرضت الهدنة .

وأمكن الوصول إلى اتفاق في أصيل اليوم التالي ، عندما وعدت القيادة العامة بالمحافظة على ميثاق حمص . غير أنه كان على زمرة الضباط الثمانية أن تذهب إلى المنفى وقد خصص لكل منهم ثلاثة آلاف دولار سحبت من الخزينة العامة بعد أن أسندت إليهم وظائف دبلوماسية . أما الضباط الصغار فقد فصلوا من مناصبهم ، وقدموا إلى المحاكمة العسكرية . ولم يكن علوان يملك غير الموافقة . وبينما كان المتآمرون السبعة يحثون

الخطى إلى بيروت ، كان اللواء علوان يستعد للتخلي عن قيادته ، كما فعل واحد من أجداده الذي سلم قلعة حلب قبل ٥٠٠ عام إلى جندي أعرج من الجيش العثماني مسلح بسوط فقط . ثم سلم قيادة المنطقة الشمالية إلى لؤي الأتاسي قائد المنطقة الشرقية الذي وصل منفرداً من دير الزور ، وكان علوان يكره أن يذهب إلى المنفى ، فعاد إلى ثيابه المدنية وغادر مقر القيادة من الباب الخلفي ليتابع نشاطه السري .

وتفرق الحلبيون وقلوبهم مثقلة ، وتركوا وراءهم شوارع مليئة بالأوساخ ، وباصات تكدست فيها صور عبد الناصر ، وأخطر إيلي بأن إعلاناً هاماً سيصدر عن محطة دمشق . وعند الساعة السادسة قالت الإذاعة إن العصيان قد انتهى ، وإن الأحوال عادت إلى طبيعتها . وهكذا بعد ست وثلاثين ساعة من بدء العصيان انتهى انقلاب حلب وهو ثاني انقلاب في سوريا خلال أسبوع ، وثامن انقلاب خلال ١٣ عاماً .. وقد انتهى إلى الفشل الذريع .

وبينما كان الجيش يماحك في خلفيات الأمور سمى زهر الدين نفسه وزيراً للدفاع ، بالإضافة إلى احتفاظه بمنصب القائد الأعلى للقوات المسلحة . وهنا أصبحت المعلومات السياسية التي لا تقدر بثمن في متناول معزى زهر الدين . وبالاستناد إلى الأخبار السياسية التي كان ينقلها استطاع إيلي أن يرضي تطلعات مركز المخابرات الإسرائيلية إلى المعلومات الحساسة حول عودة سوريا إلى الحكم المدني .

وقام زهر الدين بحركة ترمي لإعادة أعنة الحكم الى السياسيين ، فأفرج عن رئيس الجمهورية ، ولكنه وضع أكثر أعضاء المجلس النيابي في الاقامة الجبرية ، وحرمهم من الحقوق السياسية. وفي الثالث عشر من من الشهر أعيد القدسي إلى قصر المهاجرين حيث قبل استقالة المجلس النيابي ، والرئيس الدواليبي وجميع أعضاء وزارته . وفي إذاعة للشعب وصف رئيس الجمهورية الحركة الانقلابية بأنها مجرد « خلافات في في الرأي حول الطرق التي يمكن أن تتحقق بها آمال كل مواطن سوري

عربي في الوحدة والحرية والاشتراكية » ، ووعد بإعداد وإصدار تشريع يضع أسس الحكم الديمقراطي لحياتنا المقبلة . وبمباركة من زهر الدين عهد القدسي للدكتور بشير العظمة بتأليف الحكومة الانتقالية ، ورفض الرئيس الجديد أن يؤلف الوزارة من السياسيين القدامى ، وراح يبحث عن وزرائه بين الأساتذة من المعروفين بميولهم اليسارية من كلية الطب بجامعة دمشق ، وفي السابع عشر من الشهر أقسم اليمين القانونية مقدماً بيانه الوزاري من ١٤ نقطة واعداً بالاستفتاء على الوحدة مع مصر ، وبإعادة تأميم الشركة الخماسية وإلغاء التعديلات التي أدخلت على قانون الاصلاح الزراعي الصادر عام ١٩٥٨ ، ثم أعلن اعترافه بالحياة السياسية وإطلاق الحريات العامة ، ورفع الحظر عن الأحزاب السياسية .

وقبل أن يستفيد إيلي من المعلومات التي أخذ معزى يزوده بها هذه المرة ، تلقى رسالة من المركز يطالبه بالعودة إلى وطنه للمداولة . وقد جاء في البرقية : « أخبرنا إذا كنت تستطيع المغادرة ، وقدم لنا خطة السفر» ورد إيلي بخطة تمكنه من السفر في حزيران فأحاط تل ابيب علماً بها ، فزودته هذه بدورها بإرشادات إضافية . وأخيراً سمح الضابط المختص في الموساد بسفره ، وطلب إليه أن يباشر إجراءات السفر ، وفي منتصف أيار أحاط إيلي أصدقاءه وزبائنه علماً بأنه ينوي السفر إلى الخارج لعقد صفقات بالاستيراد والتصدير . وفي أقل من شهر بينما كان لا يزال يغطي أخباراً عن استقالات وزارية ، وتعديلات داخل الوزارة ، سافر إلى بيروت . وبعد إقامة قصيرة في أوروبا عاد أدراجه إلى تل أبيب .

كاتم السر

كان إيلي في غمرة من البهجة والارتياح عندما حياه شرطي إسرائيلي في مطار اللد ببزته الرمادية ، وألقى نظرة على أوراقه ثم أعادها إليه شاكراً . والشعور الفجائي بالثقة هو من التجارب النادرة بالنسبة لرجل يقضي حياته في ظلال الفناء . وبعد أن اجتاز الإجراءات الجمركية أعطى حقيبته لأحد الحمالين ثم دخل إلى الردهة الرئيسية في المطار . وسار مسرعاً بينما كانت يداه ملأى بالهدايا . وكانت عيناه تبحثان عن ناديا . وكان يعرف أنها أخبرت بوصوله وأنها في انتظاره . وأخيراً وقع بصره عليها حيث كانت تنتظره وراء الحاجز ، وإلى جانبها جدعون الذي كان كان يمسك بيده صوفيا الصغيرة التي أشرق وجهها بابتسامة السعادة . وتلقاهما ايلي بذراعيه بينما كانتا تمطرانه بالقبلات .

وقد سر جدعون كثيراً بلقائه وقال له : جميل أن نراك عائداً . ولاحظ عليه إيلي أنه كان متأثراً فعلاً . وبينما كانا يسيران في اتجاه السيارة التي كانت في انتظارهم راح إيلي يمطر ناديا بالأسئلة . ولكن ما كادت السيارة تسير بهما حتى التزم إيلي جانب الصمت . ووضعت ناديا رأسها على كتفه وراحت تراقبه بينما كانت عيناه تجول في الريف الاسرائيلي . وكان قد مضى على زيارته السابقة ستة اشهر ، وكانت هناك أشياء كثيرة تغيرت كما أن البلاد كانت منهمكة في بناء نفسها .

أما شارع هاتشيا فقد احتفظ بالطابع الذي يبدو فيه بعد ظهر الجمعة ، فالمسنون يسارعون إلى الكنيس ، والأمهات يندفعن إلى منازلهن عائدات من الشاطيء ، والأطفال على دراجاتهم ، والبنات يتجاذبن أطراف الحديث أمام المنازل ، والرجال يحتسون المشروبات على الشرفات . لقد

عاد إيلي إلى منزله ، والمنزل بالنسبة إليه هو الأمن والسعادة . كانت الدار مليئة بالزهور وبهدايا الشوكولا والفواكه التي أرسلها والداه وأقرباؤه وجيرانه الذين حضروا للسلام عليه . أما جدعون الذي أصبح فرداً من أفراد العائلة فقد بقي إلى أن انصرف جميع المرحبين ، وعندما اراد إيلي أن ينتحي به جانباً ليقدم إليه بياناً مختصراً عن تجاربه في دمشق ، قطع عليه الضابط المسؤول محاولته وقال له : لا استجواب اليوم، فالغاية الوحيدة من الزيارة هي أن يرحب بإيلي وأن يشعره بالأمن والطمأنينة .

وما كادت تنتهي عطلة الاسبوع حتى بدأت الاستجوابات المضنية . فقد التقى إيلي برؤسائه في قاعة الاجتماعات في مقر قيادة الموساد ، حيث أعدت مسجلة للصوت وفانوس سحري وجهاز للسينما . وعندما بدأ بالادلاء ببيانه الأول عن مشروعه في دمشق كان يعرف مقدماً باهتمام رؤسائه الشديد ، فأطلعهم على موقع سكنه الاستراتيجي ، ورسم لهم تصميم الشقة ، ثم لاحظ بهدوء : « إذا عرفوا حقيقتي أستطيع أن أقفز من الطابق الرابع وأنهي كل شيء» . ثم تحدث عن المخابىء التي أعدها داخل المنزل ، وعن نشاطه اليومي ، وكذلك عن العمل اليومي الذي يقوم به للتغطية ، والصلات التي تسنى له تحقيقها . **كما شهد بكفاية الرجال الذين كلف بالاعتماد عليهم** . وقدم جدعون بعض الاقتراحات لرفع مستوى إمكاناته ولكنه صادق على كل الترتيبات المتخذة . ثم طلب من إيلي أن يكتب تقريراً مفصلاً عن إنجازاته ، وأن يقدم بياناً بنفقاته المالية ، واقتراحات بتوسيع نطاق مهمته .

وفي الأيام التالية شرح إيلي وأسهب في إيضاح الرسائل والوثائق التي أرسلها في الأشهر الستة الأخيرة ، **والتي أحضرها معه من سورية** . وكانت ذاكرته عظيمة ودقيقة كما كان في درجة عالية من حسن التنظيم ، وهذا ما شهد له به أحد رؤسائه الذي أضاف قائلاً : « كانت لديه آلاف القصص يرويها عن الأوضاع في سورية، **كما حصل على معطيات هي في أعلى درجة من الأهمية ، وكان لا يزال هناك الشيء الكثير مما سيأتي فيما بعد . لقد**

كان ما قام به إنجازاً ضخماً . وكل ما كان عليه من ملاحظـــات ، سجلت من قبل الضابط المسؤول عن أعماله وإنجازاته ، أصبحت الآن في حكم المهملات .

وعقد موظفو الموساد عدداً من الاجتماعات الاضافية للبحث في علاقاته مع الرجلين اللذين كلف بالاعتماد عليهما وهما شيخ الأرض وجورج سيف . وطلب إيلي أن يظل موظف وزارة الأعلام المصدر الرئيسي للمعلومات السياسية وكذلك المعلومات عن القضايا العربية ، بينما يستمر شيخ الأرض في تغطية الحقل الاقتصادي . . وقد أخذ جدعون ملاحظة بذلك . وكان يحني رأسه علامة الموافقة بين حين وآخر ويتوجه فقط ببعض الأسئلة .

ثم راح إيلي يتحدث عن مصادره المأمولة ، فوصف علاقاته مع معزى زهرالدين مركزاً على إمكاناته كمصدر غزير للمعلومات . . **وكان رؤساؤه يرون أن علاقاته بمعزى هي من الإنجازات الهامة التي أوصوه برعايتها والعمل على تنميتها لكي تتيح الفرصة لسيل من المعلومات السياسية والعسكرية .**

ووافق جدعون ورؤساؤه على كثير من مقترحات إيلي ، غير أنهم عندما لاحظوا اندفاعه للتدخل في حقول متنوعة من المهام والأعمال لجأوا إلى التخفيف من تطلعاته واضعين أمام عينيه أهدافاً آنية ومحدودة تاركين البت في الأمور الأخرى للمستقبل . **وطلبوا إليه أن يركز في الدرجة الأولى على التقارير السياسية والإقتصادية ، وأن يترك لموعـــد لاحق مهمة الحصول على المعلومات الفنية العسكرية والمعلومات الأخرى عن القوات المسلحة وخاصة القيادة الجنوبية** (١) . ومع ذلك فالمعلومات العامة المتعلقة بالميدان هي من الأمور التي هو قادر على تأمينها . وكان « الموساد » مهتم باستعدادات التعبئة وبطبيعة شحنات السلاح واتجاهاتها ،

---

(١) المفهوم من ذلك أن لاسرائيل عملاء آخرين للمهمات الفنية والعسكرية .

وتحركات الجنود والقطعات الميكانيكية. . **وأخيراً طلب إلى إيلي أن يعلم عن أية حركة عسكرية غير عادية مهما بدت بالنسبة إليه تافهة وغير هامة .**

هذه هي الأهداف التي وصفوها بأنها ذات مدى بعيد ، اما الهدف المباشر فهو أن يعزز تغطيته ، فقد تقرر أن يضم لمحله الخاص بالاستيراد والتصدير المزيد من الأموال للاسهام في رفع مكانته في المجتمع الدمشقي ، وأن عليه مقابل ذلك أن يتصرف بهدوء وبحذر . وقال له جدعون : تذكر دائماً ذلك المثل العربي : « مكتوب على حافر الحمار : العجلة من الشيطان » .

وأعيد النظر كذلك في وسائل اتصالات إيلي . وتم الاتفاق على أن حاجات الموساد من المعلومات يجب أن تستمر من خلال الرسائل المكشوفة ، بينما ترسل الأفلام والوثائق إلى القواعد الاسرائيلية في أوروبا وأمريكا الجنوبية ، حيث ترسلها بدورها إلى مقر القيادة في إسرائيل عن طريق البريد الدبلوماسي . وأخيراً اطلع إيلي على وسائل إرسال أكثر تعقيداً ، كما أعطي قواعد جديدة في الرموز والشيفرة ، ثم طلب إليه أن يكرر التعليمات وأن يستظهرها بدون خطأ .

وكرس الإجتماع الأخير لاحتمالات دخوله الحياة السياسية ، وانتهت دراسات الموساد إلى أن الأحزاب القديمة التي يساهم قادتها في حكومة العظم أصبحت عتيقة الزي وغير منتجة . أما الأحزاب المتوسطة واليمينية فقد أصبح وجودها مخالفاً للقانون منذ زمن بعيد ، كما انها تفككت وأصبحت عاجزة عن العمل . أما الناصريون فهم أقوياء ولكنهم منقسمون . وليس للشيوعيين رصيد كبير داخل المعسكر الاشتراكي ، لذلك ليس في الأفق ما يدل على أن أياً من هذه الجماعات سيتقدم الصفوف ، **لذلك طلب إلى إيلي أن يحرص على تأمين أتباع أقوياء من أفراد الجيش ، لأن انقلابات عسكرية جديدة تلوح في الأفق القريب .**

على أن الحزب الوحيد الذي أثبت فعاليته على الرغم من مصاعبه

الداخلية هو حزب البعث العربي . وقد تعرض هذا الحزب بعد حركة الانفصال في عام ١٩٦١ لانشقاقين كبيرين ، كما تعرض لضربات متلاحقة من جانب الأجنحة المنشقة ، وكذلك من جانب الناصريين والحكومة القائمة حالياً ، التي أغلقت جريدتهم وحكمت على رئيس تحريرها بالسجن.. وعلى الرغم من هذا كله فقد أحرز اعلام البعث ومساعيه التنظيمية نجاحاً منقطع النظير ، وقد أثبتت معارضة الحزب للحكومة جدوى وفعالية أعضائه . وقد تشكلت من أعضاء الحزب ومن المتعاطفين معهم ، ومن الضباط والمنتسبين إليهم قوة كان لا بد للناصريين من الاعتراف بوجودها . **ولذلك اقترح ضباط الموساد على إيلي أن يوسع علاقاته مع عدد من البعثيين في دمشق ، وإن مما لا يقدر بثمن قيامه بمحاولة للإنتساب إلى الحزب .** وعليه في مثل هذه الحالة أن ينتظر تطورات أخرى ، وأن يتصل بالمركز قبل الاقدام على هذه الخطوة .

وبعد الاستجوابات خضع إيلي لمرحلة جديدة من التدريب ، وكانت لا تزال هناك أمور كثيرة على إيلي أن يتعلمها وهي ذات علاقة بالتكنيك الخاص بالارسال وصيغ الشيفرة واستعمال الأجهزة الفتوغرافية الصغيرة . وقد صرح أحد مدربيه فيما بعد: «كان تلميذاً متصفاً بالجدارة » . والحقيقة أن النجاح الذي حققه إيلي حتى هذه المرحلة هو الذي نمى فيه عقدة العمل لتحقيق إنجازات اكبر ، وعزز من ديناميكيته في امتصاص العمليات الجديدة .

وفي البيت كانت ناديا تسأل أيلي عن رحلاته إلى خارج البلاد ، فكان يصف البلدان التي زارها ، ويروي لها قصصاً صغيرة ، و لكنه كان حريصاً على عدم الادلاء بشيء عن طبيعة عمله . والحقيقة أنه كان متفوقاً جداً في مجهوده لإبقاء ناديا بعيدة عن حقيقة المهمة التي يقوم بها . ولكنه كان يسأل نفسه أحياناً عما إذا كانت ناديا تصدق أقواله . ولم يكن قادراً على تكوين فكرة واضحة عن حقيقة شكوكها على الرغم من أنه كان يبدو واضحاً في بعض الأحيان أنها لم تكن بعيدة كل البعد عن

الشعور بالسرية التي كانت تكتنف أعماله وتحركاته، غير أن إيلي كان يعرف أنه مهما كان من أمر التصورات التي تتراءى لزوجته فإن عليه أن يحتفظ بسرية أعماله خلال السنين الطويلة المنعزلة القادمة . وقد أخذ هذا الجو من عدم الثقة يبعث الغيوم في حياته الزوجية ، ذلك ان تنكره بشخصيتين أخريين إلى جانب الشخصية التي يظهر بها لزوجته جعل الحياة الزوجية تبدو وكأنها مستحيلة .

وفي المناسبات القليلة التي كانا يجتمعان فيها أثارت ناديا موضوع سفره . وكانت تريد أن تعرف لماذا كان إيلي غير قادر على أن يصطحبها وصوفي إلى اوروبا ولو في بعض المناسبات . وكان على إيلي أن يلجأ إلى كل الأعذار الممكنة لاقناعها باستحالة القيام برحلة من هذا النوع . وكان يقول لها أن عليه أن يتحرك بسرعة من مكان الى آخر بمجرد تلقيه إشارة عابرة ، ولذلك فهو غير قادر على أن يخضعها هي وابنتها إلى حياة قاسية من هذا النوع . وكان ينتقل من ذلك إلى الحديث عن المستقبل فيعدها بتحول كل شيء إلى الأفضل خلال سنوات قليلة ، وأن كل ما عليها في الوقت الحاضر هو أن تضع ثقتها به وأن ترضى بالحاضر الكئيب .

وبعد ثمانية أيام استعد إيلي للرحيل . وعندما طار أخيراً من اللد في أواخر شهر أيلول كان يحمل بين أمتعته جهاز إرسال أقوى وكذلك جهازاً فوتوغرافياً صغيراً جداً مع آلاف الأفلام ذات الحساسية العالية ، وصيغ جديدة من الشيفرة .

وهبط إيلي في مطار دمشق بعد أيام قليلة من لقائه بسالينغر في زوريخ ، فإذا به مرة أخرى في المدينة التي لم يتغير فيها شيء، تعلوها الكآبة وينتشر فيها رجال متجهمو الوجوه، وشرطة كثيرة الضجيج، وسواقون يمتازون بالطيش والاهمال ، والشوارع مزدحمة كعادتها . ومع ذلك فقد كان الجو يبدو وكأنه شديد الوطأة . فالطلاب يتابعون مشاغباتهم ، والشرطة جادة في البحث عن متآمرين جدد . أما الأحاديث في المقاهي فهي سياسية كعادتها ، ولو أن الحديث عن الضرائب وعن النساء كان من المواضيع المستحبة .

وكان كل فرد منهم مهتم بمعرفة القائد العسكري الجديد الذي سيستولي على السلطة . وكذلك في الطريقة التي سيتم بها إنجاز الوحدة مع مصر . والحقيقة أن أكثر الدمشقيين فقدوا ثقتهم بالسياسيين الذي كانوا يتملقون للوحدة ولكنهم لم يحافظوا على عهدهم بإجراء الاستفتاء ، كما أنهم أعادوا العمل بقانون الاصلاح الزراعي ولكن بعد تعديلات يستفيد منها ملاكو الأراضي ، ثم راحوا بعد ذلك يكتفون بالوعود فيما يتعلق بتأميم الاحتكارات الباقية .

وفي غياب إيلي كانت العلاقات مع الاتحاد السوفياتي قد ازدادت وثوقاً ، كما أن الانشقاق عن مصر ازداد عمقاً . وأصبحت إضرابات العمال ، ومظاهرات الناصريين والشيوعيين والاخوان المسلمين ، وكذلك استقالة الوزراء وفصلهم ، وتوقيف السياسيين وإخلاء سبيلهم — أصبحت هذه كلها من الأمور العادية . ومما زاد في عدم الاستقرار وساهم في تعقيد الأمور عصيان أعضاء البرلمان الذين جردوا من مناصبهم السياسية ووضعوا قيد الاقامة الجبرية منذ وقع الانقلاب .

واستطاع إيلي أن يحصل على تفاصيل هذه الأحداث من مكتب جورج سيف . فقد اراد عدد من النواب أن يصيغوا الأزمة القائمة في قالب مسرحي ، وذلك لوضع حد للأحكام العرفية القائمة وإنهاء المرحلة الانتقالية التي تعمل فيها الحكومة بوصاية من الجيش . فاجتمع هؤلاء النواب في منزل خالد العظم ، حيث وضعوا مسودة لعريضة يطالبون فيها بعودة الحياة الدستورية إلى البلاد . وبعد أسبوع أقدم العظم بنظارتيه اللتين لا تفارقانه وطوله الذي يبلغ ستة اقدام ، على تحدي القيادة العليا للجيش عندما دعا البرلمان للاجتماع في جلسة كاملة . غير ان قوات الجيش منعت النواب من دخول المجلس . وهكذا اجتمع المئة وسبعة وخمسون نائباً في قصر العظم . وفي جلسة كاملة النصاب جرى تأكيد شرعية الدستور الذي كان قائماً قبل الوحدة . وعندما سمع القدسي بحركة العصيان هذه كلف خالد العظم بتأليف وزارة جديدة . وجرى التصويت على الثقة في

جلسة سادها ابتهاج النواب الأمر الذي أدى الى عودة العظم الى السلطة .

وقد استبد الغضب بزهر الدين غير أنه لم يستطع أن يفعل شيئاً سوى سحب معارضته لعودة الحياة البرلمانية ، ووافق على التغيير . وفي ١٣ أيلول بعد استقالة بشير العظمة ، أقدم الملاك الصناعي الغني الذي لقب بالمليونير الأحمر لأنه تعاقد على صفقة سلاح تشيكية ـ سوفيتية عام ٩٥٧، أقدم على تأليف حكومة اتحاد وطني من ٢١ وزيراً ليس بينهم ناصريون ولا شيوعيون . ووعد بإجراء انتخابات عامة خلال سنة واحدة .

ولاحظ ايلي أن الأوضاع في الجيش ليست أقل اضطراباً منها في الحكومة . وراح معزى زهر الدين يتحدث مغتماً عن مساندي عمه الذين لا تجمعهم رابطة من أهداف حقيقية ، كما كانوا يتحدثون بعبارات غامضة عن إنقاذ البلاد ، وإعادة النظام ، وقمع الرجعية ، والقيام بالإصلاحات اللازمة . أما حديثهم عن المشكلة الأساسية المتعلقة بالوحدة ، وخاصة الوحدة مع مصر ، فقد كان يعروه في آن واحد التناقض والفصاحة . وكانوا يقولون إن الوحدة ضرورية وإن لم تكن لديهم فكرة واضحة عن طريقة إنجازها .

وقد أثار موقف القيادة العليا المتناقض غضب كتلة الضباط مما أدى إلى حدوث انشقاق حتى بين أتباع زهر الدين ، وكان الضباط الصغار في وحدات الميدان يعقدون المناقشات ويرددون أصداء سخطهم واستنكارهم . وخوفاً من حركة إنقلابية جديدة قام القائد العام والرئيس القدسي بجولة على القواعد العسكرية مؤكدين للضباط إخلاصهما ، وداعيان إلى « الوحدة الوطنية في وجه المخططات الاستعمارية » . ولكي تقطع القيادة العليا الطريق على العصيان أصدرت أوامرها التي شملت موجة جديدة من التسريحات والتعيينات في مراكز رئيسية في الشرطة وقوات الأمن .

وبعد أن أعاد زهر الدين الجيش إلى الثكنات ، جرى توقيف عدد

كبير من أنصار عبد الناصر كما قدم إلى المحاكمة ١٧ ضابطاً ممن إشتركوا في ثورة حلب ، وعندئذ رفع القائد العام نفسه إلى رتبة فريق ، فأعاد تشكيل القيادة العامة كي « تضم ضباطاً يتمتعون بثقة جميع الوحدات » ، ثم ابتدع تعيينات عديدة لمسانديه وكان من بينهم اللواء نامق كمال وهو أحد محاسبيه ، الذي استدعاه من دورته التدريبية في الإتحاد السوفياتي ليعينه رئيساً للأركان .

وعلى الرغم من أن ملاحظات ايلي كانت تشير آنئذ إلى أن للجيش الكلمة الأخيرة في السياسة الداخلية ، فقد شعرت الحكومة المدنية أنها من القوة بحيث أصبحت قادرة على الحد من سلطاته . وهكذا ألغى السياسيون مرسوماً وضع موضع التنفيذ منذ حركة الإنقلاب الأخيرة وهو يقضي بمنح قادة المناطق حق الإشراف الكامل على مناطقهم . وفي ٢٣ كانون الأول ألغيت الأحكام العرفية وعين العظم حاكماً عسكرياً . وهنا اشتدت النقمة داخل الجيش . وقرر بعض الضباط تسديد ضربة جريئة ضد القيادة العليا، غير أن هذه الضربة لم يقدر لها أن تعيد المدنيين إلى رشدهم.

وعندما اتصل بزهر الدين أن الناصريين باشروا تحركاتهم من جديد لجأ إلى أسلوبه المستحب وهو الترفيع والفصل لإيقافهم عند حدهم . وكان بين الضباط المسرحين عبد الكريم النحلاوي وأصدقاؤه ، الذين كانوا ينتظرون في منفاهم في سويسرا منذ شهر نيسان ، أن تسند إليهم المناصب الدبلوماسية التي وعدوا بها . وعندما علم النحلاوي بخيانة زهر الدين ، إتصل بأربعة وعشرين من الضباط الصغار الذين يخدمون في الفرق المدرعة المتمركزة في قطنا بالقرب من دمشق ، وحثهم على الثورة ، واعداً إياهم بأن يعود وثلاثة من أصدقائه لتولي قيادة الحركة. ووضعت الخطة لتنفذ في ٩ كانون الثاني ، وكانت تقضي بدعوة ضباط الدبابات لاستنفار قواتهم والتحرك إلى دمشق ، حيث يتقدمون من القيادة العليا بطلب إعادة الضباط الناصريين إلى الخدمة الفعلية ، وإقالة زهر الدين ، على أن يكون النحلاوي قد وصل عندما تكون الدبابات على استعداد للزحف على

دمشق . ولكن قبل أن ينتقل المتآمرون إلى مرحلة التنفيذ قام مخبرو المكتب الثاني بإطلاع القائد العام الذي استعرض القوات الموالية له من حامية دمشق في الشوارع ، ووصل النحلاوي في الوقت المحدد، غير أن شركاءه الصغار كانوا قد تلقوا الأوامر بتجميدهم .

وعندما سمع الوحدويون من طلاب الجامعات والمدارس بالحركة الانقلابية تقاطروا على شوارع دمشق ودرعا وقاموا بعمليات نهب في السنانية ، وأصيب العشرات بجراح بعد وقوع الاشتباكات ، فأصدر زهر الدين أوامره بإغلاق الحدود خوفاً من تدخل خارجي ، غير أنه لم يجرؤ على توقيف العصاة الذين استفادوا من تردده ، فقاموا بزيارة للرئيس القدسي ليقوم بمهمة الوساطة . وتألفت لجنة ثلاثية برئاسة رئيس الجمهورية فجلست مع ممثلين من الجانبين ، وبعد محادثات استمرت طوال الليل حكمت بأن يعود النحلاوي ورفاقه إلى أوروبا لاستلامهم وظائفهم الدبلوماسية في بون وبراغ ولندن وبرن . وفي صباح اليوم التالي عندما غادروا العاصمة أُوقف أربعة وعشرون من مؤيديهم . وعند الظهر كان التوتر قد خف كثيراً عن ذي قبل .

وهذه المرة كان إيلي ضالعاً في المحاولة الإنقلابية منذ بدايتها . فاستطاع أن يعرف عن طريق الملازم الأول سليمان الرجولة ، وهو صديق جديد يعمل لحساب المكتب الثاني ، على نوايا ضباط الدبابات ، كما أن معزى زهر الدين أحاطه علماً بما تبقى من الأمور . وقبل الفجر بقليل إتصل به الملازم هاتفياً وراح يروي له بانفعال تفاصيل ما حدث في القصر الجمهوري ، وكان إيلي قادراً على أن يبلغ في الصباح أن المعتدلين ربحوا معركة أخرى على الناصريين . **وعندما ذهل المركز في تل أبيب من سرعة تلقي إيلي لأدق المعلومات ، قرر أن يسجل نصراً إعلامياً على العرب ، فسمح بإذاعة الأنباء بكل تفاصيلها . وتضمنت نشرة الصباح من محطة إسرائيل أنباء كاملة عن المحاولة الإنقلابية واجتماع القصر الجمهوري الذي استمر طوال الليل . وهو إجراء كان يلجأ إليه المختصون**

بالحرب النفسية في الموساد ويستعينون فيه بالمعلومات التي يتلقونها من إيلي .

وفي يوم الجمعة ٨ شباط أثناء شهر رمضان ، وهو يوم ميمون بالنسبة للحركات الثورية في الشرق الأوسط ، قامت حزمة من الضباط البعثيين والمستقلين في العراق بالإحاطة بدكتاتورها عبد الكريم قاسم ، وسارعت إلى إعلان وحدة الهدف مع القاهرة . ومنذ قيام نظام بعثي في بغداد تنبأ خبراء الموساد بانهيار الحكم البرلماني السريع العطب في سورية . **وكان إيلي قد أشار في تقريره الأخير إلى عجز السياسيين عن إثبات وجودهم ، وتحدث عن تفككهم وخضوعهم للعسكريين وموقفهم الغامض من الوحدة مع مصر ، ثم توقع سقوط العظم وسطوع نجم حزب البعث .** وهكذا فإن فشل سياسة الإعتدال والحياة البرلمانية أدى إلى ارتفاع مكانة حزب البعث كحل مقبول . وعلى الرغم من أن الحزب كان لا يزال أصغر وأضعف القوى الإشتراكية في السياسة السورية فإن نجاحه في العراق أثبت أن أيامه في سورية باتت قريبة . وقد رحب البعثيون السوريون بالنظام العراقي الجديد ، وحثوا على وحدة تقوم مع مصر والعراق ، ولكن قبل أن يتقدم العظم بالخطوة الأولى راح الحزب يقوض مساعيه . وبناء على طلب القيادة الإقليمية للحزب في سورية دعا العراقيون ممثلين عن القيادة القطرية للبحث في الوحدة المقترحة في بغداد . وكانت الخطوة اللائقة لبحث الوحدة مع المعارضة صفعة سياسية على وجه خالد العظم . وهكذا فإن الأزمة الوزارية التي أعقبت زيارة وفد حزب البعث في ١٧ شباط أدت إلى انهيار حكومة الوسط .

وفي هذه المرحلة الانتقالية استمر معزى زهر الدين في تزويد إيلي بنتف الأخبار عن الدسائس داخل القيادة العليا ، بينما كان شيخ الأرض يركز على الشؤون الإقتصادية . ومع ذلك فقد ظل جورج سيف هو الذي يغطي أكثر الأخبار السياسية . وعند غياب إيلي من دمشق أضاف جورج سيف إلى واجباته كرئيس لقسم الصحافة والإذاعة في وزارة الإعلام

عملاً آخر هو الإشراف على برامج الإذاعة الخارجية من محطة دمشق . وبصفتيه الاثنتين راح يشترك في الحفلات الرسمية والإجتماعات العامة والمآدب ، والمؤتمرات الصحافية الوزارية . واتصاله بكل هذه المصادر جعل منه منجماً ذهبياً من المعلومات يغترف إيلي منه كثيراً من الرسائل التي أرسلها الى المركز .

وأصبح إيلي بعد أسابيع من عودته زائراً يتردد باستمرار على وزارة الإعلام ، وتعرف على جميع زملاء جورج سيف . وقد تعرف عليه الحراس جيداً حتى أنهم توقفوا عن مطالبته بالإذن الخاص المطلوب من الزوار الآخرين . وقد استفاد إيلي من هذا التساهل للدخول إلى مكتب جورج سيف أثناء الليل لتصوير الوثائق التي لم يستطع إخراجها من الوزارة . وقد بدت عادته في البحث بين ملفات سيف وكأنها تحمل بذور الكارثة . فبينما كان يبحث مرة بين المصنفات ، دخل غرفة سيف رئيسه المباشر بدون إستئذان فذهل لما شاهد ، ولامه على إهماله وهدده بالقيام بأعمال التحقيق . غير أن سيف حاول إقناعه بأن ليس لثابت اهتمام خاص بالشؤون السياسية وأنه كان يأتي على قراءة الوثائق بمجرد الفضول .

وعندما ازداد التعاون بين الرجلين توثقت الصداقة أيضاً بينهما . وبدأ سيف يكثر من زيارة إيلي في منزله وكان يبقى عنده ساعات طويلة يناقشه في آخر التطورات السياسية أو يجاذبه الحديث حول رؤسائه . ولم يتخلف عن سهرة واحدة من السهرات التي أقامها إيلي ، بل وكان يصطحب أصدقاءه . وفي إحدى المناسبات وصل سيف مع ضيف لم توجه إليه دعوة سابقة . وكان المدعو ضابط برتبة رائد وهو شاب ضخم الجثة، ويدعى سليم حاطوم، وكان رئيساً للحرس في الأركان العامة حيث المبنى القائم على الطرف الآخر من الشارع ، وبالقرب من محطة الإذاعة والتلفزيون . وقد بدا أن حاطوم يعاقر الخمرة بدرجة غير عادية ، وأنه يتذوق الطعام اللذيذ ، وأن صلاته النسائية أصبحت مدار حديث منذ تلك الليلة . وعلى الرغم من أنه بدا متحفظاً فيما يتعلق بعمله ، فقد انجذب

بسرعة إلى إيلي وأصبح مساهماً دائماً في أمسيات العزوبة في منزله .

وكان حاطوم مواطناً من جبل الدروز وهو من عائلة ذات تقاليد عسكرية . وعندما كان في سن مبكرة قررت العائلة أن توفد سليماً وأخاه فارس إلى بيروت لمتابعة بعض الفصول في الحقل العسكري في إحدى كليات بيروت الخاصة تمهيداً لإدخالهما في كلية حمص العسكرية . وبينما كان سليم يتابع طريقه لنفسه أقام علاقة ود مع أحد اللبنانيين الذي عرّفه أولاً على الثقافة اليهودية . وبعد أن هاجرت عائلة صديقه إلى فلسطين عاد فارس إلى مسقط رأسه ولكنه كان متأثراً بعزم صديقه الشاب على المساهمة في كفاح منظمة ايزهوف Yishuv ضد البريطانيين . **وفي وقت لاحق اجتاز فارس بحيرة طبرية واتصل بالهاغانا وتطوع بالخدمة الفعلية في الجيش الاسرائيلي . وفي حرب ١٩٤٨ كان في عداد الفرقة الدرزية ورفع إلى رتبة نقيب . وأخيراً اعتنق الديانة اليهودية وحمل اسماً يهودياً وتزوج اسرائيلية وأصبح مستشاراً لشؤون الأقليات في بلدية حيفا .** وكان إيلي يعرف الكثير عن حساسية سليم بالنسبة لخيانة أخيه فلم يأتِ أبداً على ذكر اسمه في أحاديثهما . ولو أن هذا الموضوع كان مدار همسات كثيرة بين أخصام العقيد السياسيين .

وعندما أعرب إيلي عن رغبته في أن يصبح عضواً في حزب البعث ، وعد حاطوم بتزكيته بكل سرور **(عندما أصبح حزب البعث في المقدمة استأذن إيلي المركز في تل أبيب فأذن له بالانتساب إلى الحزب)** . وكان ثابت قد حقق كل المتطلبات الأساسية ليصبح بعثياً : فهو عربي من المهجر ، تجاوز سن الثامنة عشرة ، قوي متحمس ، ولم يسبق له أن انتسب إلى أي حزب آخر . وهكذا بعد أيام قليلة من تقديمه طلب الإنتساب دعي إلى لقاء مع أصدقاء الحلقة ، وهي قاعدة التدريب للأعضاء الجدد . **وعلى الرغم من أن المتعاطفين مع حزب البعث يطلب إليهم أن ينشطوا سنة كاملة في خدمة الحزب قبل أن يقبلوا في عداد أعضائه ، فلم تمض أسابيع قليلة حتى قبل إيلي عن طريق مستويات عليا في الحزب.** ففي مساء

قارس من أيام شهر شباط دعي إلى منزل أحد قادة المناطق، الذي راح يستمع إلى قسمه في وضع مهيب . فأقسم إيلي بحضور حاطوم « بشرفه ومعتقده » أن يكون « أميناً على مبادىء حزب البعث العربي الإشتراكي ، وأن يكتم أسراره ، وأن يمتثل لأوامره ، وينفذ مخططاته ! » . وبعد أن وعد بأن يصبح « مثالاً صادقاً للمناضل العربي ، فيقوم بواجباته نحو البعث ، ويدفع المبالغ الشهرية المترتبة عليه ، ويحافظ على مبادىء الحزب » ، **عين في مركز القيادة لإحدى المناطق** . وكان يجتمع مع أفراد خليته الثلاثة مرة كل أسبوع للمناقشة في منزله أو في منزل أحد الرفاق الآخرين . وكانوا يتلقون في بعض الأحيان أوامر للقيام بدعايات ومهام سرية مختلفة . وخلال فترة قصيرة تعلم إيلي أساليب حزب البعث ، وأصبح مطلعاً على بنيته الهرمية وتنظيماته . (١)

ولما لم يكن للبعث أتباع بين صفوف التجار لذلك كان انتساب تاجر يقوم بأعمال التصدير والاستيراد بمثابة عملية اكتساح هامة ، **وسرعان ما أصبح طريق إيلي إلى القمة في الحزب موضع مناقشة . فقد فاتح حاطوم ميشيل عفلق في صفات ثابت القيادية وتقرر أن يستثنى من الاجراءات التي تحول دون تقدمه السريع داخل الحزب . وفي اجتماع للخلايا التي تضم الفرق المسؤولة عن محلة أبو رمانة انتخب لمرتبة القيادة بصفته سكرتيراً لخليته** . ولم تمض فترة طويلة حتى اقترحت الشعبة التي تضم عدة فرق

---

(١) العضوية في حزب البعث تنظم على أساس مناطق سرية، ولكل منطقة خلايا يضم كل منها ثلاث إلى سبع . أما الدرجة الأرفع في السلم التنظيمي فهي الفرقة التي تشتمل على ثلاث وحتى السبع خلايا ، والفرقتان او الأكثر تؤلفان شعبة . وعدة شعب تؤلف فرعاً . أما الادارة السياسية والعقائدية للحزب فتشرف عليها قيادة اقليمية (للبعث الذي يعمل في العراق وسورية والأردن ولبنان – وبلدان عربية أخرى من المحيط الأطلسي إلى الخليج الفارسي – قيادة قطرية في كل من هذه البلدان) . اما الذي يصنع السياسة ويضع التوجيهات التنظيمية فهي القيادة القومية التي تتمثل فيها كل القيادات القطرية . وتجرى انتخابات بين الأعضاء لبعض المراكز القيادية غير أن أكثر القادة يجري تعيينهم من الأعلى . أما اقتراحات الاتباع فتحترم عادة من قبل القادة المحليين . والانتسابات تقبل حين ترد من صفوف المثقفين والضباط والطلاب ، وفي أعداد أقل من صفوف العمال والموظفين ورجال الأعمال .

والتي ينتسب إليها أعضاء ربح صداقتهم عندما كان في المراتب الدنيا للحزب ، اقترحت أن يكون أميناً للسر ، وهنا اتصل إيلي بسكرتيرية الفرقة التي تأثرت بإخلاص ثابت وولائه ، وقررت مساندته في الانتخابات التي ستجرى لاختيار أعضاء فرع دمشق . وعندما أعد سكرتير الفرع تقريراً إيجابياً على مستوى القيادة القطرية قدم اسم إيلي أخيراً إلى الأمانة العامة التي أعربت عن رغبتها في اللقاء به .

وفي الوقت المحدد دعي إيلي للاجتماع بميشيل عفلق ، مؤسس الحزب وصانع إيديولوجيته البعثية الاشتراكية، في مكان بعيد عن مركز المدينة . وكان عفلق رجلاً صغير الجسم ، شاحب الوجه ، شديد الخجل ، وقد كسب بأسلوبه الرقيق لقب الأستاذ ، ويبدو عليه الإخلاص والصدق ، وهو يميل إلى التقشف ويبدو أشبه بغاندي القومية العربية كما يدعوه بعض أتباعه أكثر مما يبدو كرجل تحدى أقوى شخصية سياسية في العالم العربي هي شخصية عبد الناصر . وفي مرحلة التحيات كان ولداه يلعبان بين الأقدام بينما كانت زوجته أنيد بشير وهي طبيبة شابة وناجحة تقوم على خدمتنا في تقديم القهوة والحلوى . وما أن غادرت الزوجة المكان حتى قال عفلق : « **في الحزب كثير من المثقفين ولكن ليس فيه عدد كاف من المنفذين ولا من التكنولوجيين » . إنه يحتاج إلى جهاز من الشباب كثابت** « **نحن في حاجة إلى أموال أكثر** ، ورجال أكثر ، ووقت أكثر .. نحن في حاجة إلى الأكثر من كل شيء » وكرر قوله : « الحزب يريد شباباً أكفاء حازمين وثوريين يستطيعون تولي مراكز القيادة ولو جاء ذلك من صفوف المعارضة . قليلون جداً بل والنخبة فقط هي التي تعرف أمراض الشعب وتستطيع أن تناضل في سبيل شفائها » . ثم راح يتحدث عن الحاجة إلى مثل هذه النخبة بينما كان يمزج عربيته المزدهرة ببعض الكلمات الفرنسية .

ولما كان إيلي قد تولى مهمة دعم الحزب بين صفوف التجار ورجال الأعمال لذلك فقد فهم جيداً أسباب قلقه بصدد القيادة الفعالة . وفي

اتصالاته بالمستويات الدنيا من الحزب وجد أنهم يتمتعون بروح عقائدية عالية ، وأنهم تشربوا بيانات عفلق وكلماته المنمقة ولكن بقلوبهم لا بعقولهم . إذ لم يكن لديهم فهم واسع للشؤون التنظيمية كما كانت تنقصهم روح المبادهة . وعندما كان عفلق يتحدث عن سياسة الحزب سلط الأنوار على اتجاهاته الوسط . ثم قال بهدوء : « أنا غير قادر على ممارسة الحكم » **ثم شكا من الضعف المحيط به ، وأعرب عن اشمئزازه من القادة السياسيين الذين يسعون وراء الشهوة** والسلطة . ولكنه كان واثقاً مع ذلك من تحقيق أهدافه الخيالية في قيادة الحزب إلى السلطة وسورية إلى « الوحدة والحرية والإشتراكية » .

والتقى إيلي بصلاح البيطار رجل الحزب رقم ٢ في منزل ميشيل عفلق بعد وقت قصير . والبيطار هو شريك عفلق في تأسيس حزب البعث ، وصديق لم ينفصل عنه منذ كانا على مقاعد الدراسة في باريس . وقد سجن البيطار أربع مرات عندما كان نائباً في المجلس النيابي (١) وحامل حقائب وزارية في العهد الماضي . وعندما كان الأمين العام يتحدث عن الاشتراكية كان البيطار رئيس تحرير جريدة الحزب « البعث » منصرفاً الى معالجة الملامح الوطنية في العقيدة البعثية . وكان يعتبر رجل المناورات في الحزب وأنه هو الذي يصنع صعود الحزب إلى دفة السلطة . **وقد تأثر البيطار كثيراً بغيرة إيلي القائمة على القناعة ، وقد شق لقاؤهما الطريق إلى صداقة سريعة ، ظهر فيما بعد أنها كانت بالنسبة « للموساد » لا تقدر بثمن .**

وقد أدى الاستقطاب الكامل للقوى السياسية بعد فشل محاولة النحلاوي إلى موجة من أعمال العنف عمت المدن الكبيرة . وفي منتصف شهر شباط امتلأت الشوارع بهدير المتظاهرين ، وبعصابات راحت تمارس أعمال النهب والاعدام بدوم محاكمة في حمص والقامشلي ، مما ادى الى

---

(١) صلاح البيطار لم يسجن ولا مرة واحدة في الفترة القصيرة التي كان فيها نائباً . كما انه لم يتول من الوزارات سوى وزارة الخارجية . (المعرب)

إزهاق أرواح كثيرة ، وإصابة كثيرين بجراح . وانتاب الفزع ضباط الجيش عند ارتفاع موجة العنف فراحوا يدرسون موضوع العودة إلى استخدام القوة . غير أن أكثرية الضباط لم تستطع الوصول إلى قرار ، ولم تتجاوب إلا بصورة تدريجية مع ازدياد حالة الفوضى المدنية . وقد قص معزى زهر الدين على إيلي كثيراً من أنباء المؤامرات التي حيكت غير أن تحريات إيلي الخاصة كشفت عن أن التآمر كان مقتصراً على حاميات محلية ، ولا تتمتع بدعم واسع النطاق .

وعلم إيلي أن النواة الأقوى في المؤامرة قد نمت وتطورت في معسكر القنيطرة، عندما اتصل بقائد المنطقة الجنوبية محمد زياد الحريري — وهو ضابط برتبة لواء ذو شاربين بدين وقصير القامة وذو قناعات وحدوية — اتصل به أن زهر الدين وعصبته من أعداء الناصرية في القيادة العليا يخططون لإزالة العناصر الوحدوية في الجيش عن طريق العزل أو النقل أو الاحالة إلى التقاعد . وتناقش الحريري في هذا الموضوع مع أتباعه الذين وضعوا أنفسهم تحت إمرته بدون قيد ولا شرط . كما تلقى عهوداً بالمساندة من العقيد قطيني ، وهو ملحق عسكري سابق في الأردن وكان زهر الدين قد عينه مؤخراً رئيساً للمكتب الثاني . وكذلك من اللواء محمد الصوفي قائد حامية حمص . أما العقيد لؤى الأتاسي الذي كان في السجن والذي اتصل به الحريري عن طريق مبعوث من الموالين فقد اعترف أيضاً بزعامة اللواء وأصبح لذلك قائد الشرف للمؤامرة كلها .

ولما كان الحريري غير قادر على تأمين مساندة صلبة ، وعلى الرغم من تحفظاته حول السياسيين المتآمرين ، فقد راح يبحث عن مساندة مدنية . ولم يكن الحريري عضواً في حزب البعث ولكنه كان يتعاطف مع أهدافه الاشتراكية والقومية . وكان يشعر أنه قريب بدرجة كافية من جناح عفلق المعتدل الذي كان يدعو الى الوحدة مع مصر والعراق ، فحاول أن يجر الأمين العام إلى صفه ، وأن يدعوه للانضمام الى المؤامرة .

وعلم إيلي الذي كان يجمع المعلومات عن محاولة الانقلاب من المصادر

البعثية أن الأمين العام لم يكن مقتنعاً بكفاءة الحريري السياسية ، **غير أنه مع ذلك كان يرى أن أمل الحزب الوحيد في الوصول إلى السلطة هو التعاون مع العسكريين ، ثم تجاوزهم عن طريق الحيلة والدهاء** . وكان يرجو أن يقدم اللواء بعد حركته الانقلابية على إفساح الطريق – عن غباء – أمام الفئة المختارة من الثوريين ، ولم يكن يأمل أن يحقق حكم البعث في أسابيع ولا حتى في أشهر ، **ولكنه كان مقتنعاً بأن انقلاباً سريعاً وناجحاً سيرفع من شأن البعث . وعلى هذا الأساس أصدر تعليماته إلى المراجع التنفيذية بمساندة العصاة .**

وعندما صوتت القيادة في جانب التعاون ، صدرت أوامر مبدئية تتعلق بالطريقة التي سيساهم بها البعث في الحركة وأرسلت هذه الأوامر إلى خلايا الحزب عن طريق الفرع في دمشق . ووضع السلاح في أيدي الطلاب والعمال ، وتشكلت وحدات شبه عسكرية ومليشيا سرية لمساندة الجيش . ونمت روح عنيفة من الفداء بين الصغار أثناء المرحلة التآمرية . وقال إيلي بعد ذلك في تقريره : **« كان لديهم شعور أكبر بالولاء للحزب مما كان لدى الجنود من شعور الولاء لوطنهم»** . ولم يشترك إيلي في المهام التي وزعت على الشوارع في ليلة الانقلاب . لأن الأوامر التي صدرت إليه هي أن ينتظر في منزله حتى يتلقى كلمة من حاطوم تؤكد أن محطة الأذاعة سقطت في أيدي العصاة ، كي يتجه إلى هناك حيث يساهم في الإشراف على أخبار الثورة والجهود الاعلامية الأخرى .

وفي صباح ٧ آذار جاء رسول إلى ميشيل عفلق وهو يحمل الأخبار الأخيرة ، فقد أحاط مجلس الأركان الحريري علماً بأنه أعفي من منصبه ، وعين ملحقاً عسكرياً في بغداد . فلم يعترف اللواء بهذا الأمر وبعد ساعات تلقى رسالة بالراديو تطلب إليه أن يعتبر نفسه موقوفاً . وفوراً استدعى الحريري المتآمرين معه ، وأمر بإعداد العدة لمأدبة تقام في نادي الضباط في القنيطرة احتفالاً بمغادرته . وفي المساء كان الحريريون يتفوقون على كل الضباط الموالين لزهر الدين ، وعندما حضروا للاشتراك في حفلة الوداع

جردوا من اسلحتهم وأودعوا السجن في معتقل في القيادة . ولما كانت القيادة الجنوبية هي في أيدي العصاة اتجهت قوة صغيرة من المظليين وعشر سيارات مصفحة وعشرين سيارة جيب إلى دمشق . أما كتلة قوات الحريري المؤلفة من ١٨٠٠ رجل فقد تبعتها بحذر .

وفي الساعة الرابعة صباحاً أي بعد ١١ ساعة من مغادرة القنيطرة ، دخلت قوة الحريري الرئيسية إلى مدينة دمشق من ثلاث جهات . وفي مقر القيادة العامة كان الرائد سليم حاطوم ينتظر العصاة بأبواب مفتوحة . ولكن بينما كان هو وحرسه على وشك الاتصال بهم إذا بهم يهاجمون من الداخل . ودار قتال وحشي للسيطرة على المراكز الحيوية بينما كان زهر الدين ومعاونوه يحاولون صد الهجوم . ودخلت طلائع قوات حاطوم إلى الأركان بدون جهد يذكر بعد أن أنزلت خسائر فادحة بضباط الأركان الذين رموا أخيراً سلاحهم .

وبينما كان الاستيلاء يجري بصورة تدريجية وضع قائد حامية دمشق ، وكذلك قائد الشرطة العسكرية ، نفسيهما تحت تصرف العصاة . وصدرت الأوامر إلى كتيبة من الشرطة العسكرية بإخلاء سبيل العقيد لؤى الأتاسي على الفور ، وكذلك الإفراج عن عدد من الضباط البعثيين والوحدويين في سجن المزة ، بينما أرسلت وحدات أخرى لتوقيف الضباط المعزولين والوزراء وكبار موظفي الدولة .

وعند الساعة الخامسة صباحاً كانت جميع مراكز الحكومة والمؤسسات العسكرية حول دمشق وداخلها قد استسلمت . . **وبعد دقائق تلقى إيلي الرسالة الهاتفية المنتظرة حيث أخبره حاطوم بكلمات موجزة أن محطتي الاذاعة والتلفزيون قد حررتا ، فاتجه إيلي فوراً إلى المحطة بعد أن اجتاز شريطاً من الجنود وعدداً من مراكز التفتيش التي كان يقوم عليها مدنيون مسلحون وذلك قبل أن يصل مسرعاً إلى حيث قام بالواجب الذي أوكل إليه من قبل الحزب .** وبينما كان يشرف إيلي على إعداد إذاعة الصباح كان الاتصال مستمراً بمبنى القيادة العامة. وكان على إذاعة دمشق أن لا تباشر

اذاعتها حتى تصدر الزمرة العسكرية بلاغها الرسمي الأول عن الأنقلاب .

اما العراقيون الذين لم يكونوا على علم بالانقلاب فقد نفذ صبرهم عندما لم تفتح إذاعة دمشق في الموعد العادي وحاولوا الاتصال بالقيادة في سورية . ولكن بما أن جميع وسائل المواصلات كانت مغلقة لذلك أذاعت رسالة مباشرة طالبة من العاملين في إذاعة دمشق أن يحولوا الهاتف اللاسلكي على موجة بغداد . **وبينما كان الفنيون السوريون في محطة الإذاعة ينفذون هذه المهمة استدعى إيلي ميشيل عفلق للحضور إلى الإذاعة** ، حيث تحدث إلى العراقيين ونقل إليهم صورة ملخصة عن الموقف .

وعند الساعة السادسة والنصف صباحاً أصدر الحريري وضباطه بيانهم الأول ، ثم انصرفوا الى إنشاء جهاز حكومي قادر على إخضاع الشعب . ولكي يستطيعوا حل المشاكل المستعجلة أنشأوا مجلساً وطنياً لقيادة الثورة من ٢١ عضواً ، وأسندت القيادة الاسمية للؤي الأتاسي ثم ألف المجلس وزارة من ٢١ وزيراً برئاسة صلاح البيطار . كان بينهم ١١ وزيراً من حزب البعث وتسعة من مؤيدي عبد الناصر. وقد شغل المدنيون جميع المناصب الوزارية فيما عدا وزارتي الداخلية (**اختار صلاح البيطار أمين الحافظ وزيراً للداخلية** ، وهو ضابط برتبة عقيد لم يكن معروفاً من قبل ، غير أنه من كبار رواد حزب البعث ، وقد استدعي من دورة دراسية كان يقوم بها في الاتحادالسوفياتي ليشغل هذا المنصب برتبة لواء . **وفي أقل من أربعة أشهر برز أمين الحافظ ، الذي التقى به إيلي عندما كان ملحقاً عسكرياً في السفارة السورية في بونوس أيرس ، برز كشخصية قائدة داخل حزب البعث**) (١) .

وفي الساعة السابعة صباحاً صدر من الإذاعة إعلان قصير بفرض منع

---

(١) تألف المجلس الوطني لقيادة الثورة من ١١ عسكرياً مع ملحقين من المساعدين المدنيين . وكانت الأكثرية من الضباط الناصريين والوحدويين المستقلين ، أما الاحتياطي البعثي المؤلف من ثمانية برئاسة الأمين العام ميشيل عفلق فقد التحق به فيما بعد ممثلون عن حركة القوميين العرب ذات الاتجاه الناصري وجبهة الوحدويين الاشتراكيين وجبهة الوحدة العربية .

التجول . وبعد ١٣ دقيقة فقط أذن إيلي بنشر بيان المجلس الوطني لقيادة الثورة رقم واحد ، الذي أعرب بعد كلمة باسم الله الرحمن الرحيم ، عن الرغبة في الوحدة مع مصر . وفي الساعة التاسعة صدر البلاغ رقم ٢ وهو يقضي بإعادة ثلاثة وثلاثين ضابطاً إلى الخدمة الفعلية . كما أعلن مكافأة قادة الانقلاب بترفيعهم الفوري . وأصبح الأتاسي قائداً عاماً للجيش ، والحريري رئيساً للأركان ، والقطيني نائبه . وفي الساعة الثالثة بعد الظهر خيم الهدوء على مدينة دمشق ، واتضح أن الثوار قد سيطروا على الموقف سيطرة كاملة .

وفي غرفة الاستماع ، كان إيلي يتابع بدقة إذاعات القاهرة التي لم تعلق بكلمة واحدة على الانقلاب . ولم يرسل عبد الناصر تهانيه الاذاعية للنظام الجديد حتى الساعة الثامنة من صباح يوم السبت ، وكانت تحياته الحذرة موجهة الى الضباط الناصريين في مجلس قيادة الثورة أكثر مما كانت موجهة إلى الحكومة التي يسيطر عليها البعثيون . وقد قال ناصر بتحفظ : « لقد كانت محاولة الوحدة السورية المصرية تجربة رائدة وعملية أفدنا منها كثيراً ، وستكون هذه التجربة ذخيرة للمستقبل العربي وللوحدة العربية . « أما عن الخطوات التي يمكن أن تتخذ على طريق الوحدة الجديدة فقد تركت بدون مناقشة » وجاءت برقية مجلس قيادة الثورة لتجيب على هذه الكلمات بقولها : « لقد انتقمت سورية من الانفصاليين ، وغسلت عار الانفصال » وها هي الآن « تعيد الأمور إلى مجراها الصحيح مجرى الوحدة والاشتراكية » . وكانت القيادة راغبة في التقدم من عبد الناصر بحلف جديد ، بل وكانت مستعدة لأن تخول عبد الناصر حق القيام بدور مقدم على جميع الأدوار الأخرى .

وكان انقلاب ٨ آذار نقطة تحول في مهمة إيلي كبعثي وكعميل . فبعد أن استقرت علاقاته مع قيادة الحزب ، أصبح غطاؤه ، وهو الأساس في مهمته السرية، قوياً جداً. وفي الوقت نفسه فإن تحليله للعصيان ، وسلسلة التقارير السرية التي أرسلها إلى المركز كانت إشارة إلى بداية مهمته الحقيقية.

وبعد أسابيع من الانقلاب ، جمع إيلي عناصر كثيرة لاعداد دراسة واضحة طالب بها الموساد . فتناقش مع عفلق في المضمون الاشتراكي والايديولوجي للثورة ، واستعجل حاطوم ليوضح له العلاقات القائمة بين الفئات العسكرية داخل المجلس الوطني لقيادة الثورة . وطالب جورج سيف أن يقوم بتحرياته لمعرفة النتائج الحقيقية للثورة . وكانت النتيجة تقريراً بعد ابحاث وتحريات كلفت جهوداً كثيرة . وقد تضمن التقرير بالاضافة إلى ملاحظاته الخاصة ما سمعه من أصدقائه وممن تعرف عليهم على سبيل الصدفة ، وما تخيره من « النضال » وهي النشرة السرية التي توزع على رؤساء الفروع وكذلك الآراء وردود الفعل عند كبار البعثيين ،

ومزيد من الوثائق المصورة ومجموعة من التوجيهات الحزبية البعثية التي حصل عليها جورج سيف من وزارة الإعلام ، وكان هذا لا يمل في السعي وراء معلومات عن الثورة مما عوض إيلي عن خسارة عون معزى الذي لا يقدر بثمن . (أضاع إيلي بسقوط زهر الدين كل فائدة من معزى كمصدر للمعلومات . فبعد أن أوقف عمه ترك مركزه لمنطقة أدلب بالقرب من حلب، ثم أعفي من الجيش ، ثم شغل في وقت لاحق وظيفة ثانوية في وزارة البلديات) .

وكان ما رفعه إيلي من تقارير دقيقة وتقييم صحيح عن الثورة هو الذي لعب الدور الرئيسي في رفع مكانته . وقد أصبحت دراسته هذه ذات قيمة تفوق في أهميتها التسجيلات الخاصة بعدد القوات المسلحة والوثائق السرية ، وكان لها وزنها الكبير في تل ابيب . وعندما استدعى بن غوريون اعضاء الوزارة وقادة الجيش ليبحث معهم في مضمون الانقلاب البعثي ومضاعفاته ، كان مستشاروه من « الموساد » حول الشؤون العربية قادرين على أن يقدموا معلومات لا تقدر بثمن . وكانوا مقتنعين بأن الانقلاب سيرفع من مكانة البعث ، الذي يستطيع أن يعمل كقوة توازن النفوذ الناصري في العالم العربي .

وقضى إيلي ما بقي من الأسبوع المحموم الذي تلا الانقلاب وهو

يتنقل بين مكتب جورج سيف ، ومقر قيادة حاطوم . فكانت المعلومات التي حصل عليها عن أعمال المجلس الوطني لقيادة الثورة ثمينة جداً . وفي تلك الفترة بالذات بدأ إيلي يتردد على مكتب رئيس الوزراء حيث أقام عفلق والقيادة القطرية لحزب البعث مقرهما المؤقت .

وبعد أن زار وفد عراقي دمشق أخذ عبد الناصر يشعر بالقلق من احتمال تكوين جبهة بعثية مشتركة بين سورية والعراق قبل الاتجاه الى القاهرة للدخول في مباحثات الوحدة ، وأوعز الى وسائل الأعلام بأن تهاجم بعنف تردد القادة السوريين ، غير أن رد المجلس الوطني لقيادة الثورة كان سريعاً . ففي صباح يوم الخميس اتصل جورج سيف بإيلي ليحيطه علماً بأن المجلس الذي اقلقه ضغط القاهرة قرر أن ينتزع زمام المبادأة بإعلان تشكيل اتحاد من ثلاث دول عربية . وكمحاولة لتهدئة عبد الناصر تألف وفد من سبعة اشخاص برئاسة نائب رئيس الوزراء نهاد القاسم للتعجيل في محادثات الوحدة ، وأمر بالسفر فوراً الى القاهرة . ولم يتوقع إيلي أن يكون رد الفعل سريعاً إلى هذا الحد ضد حملة من الكراهية والتخريب كانت هي طابع المجهود المصري لإرغام سورية على العودة إلى حظيرة الجمهورية العربية المتحدة . وكان تردد البعث في المفاوضة على وحدة فورية مع مصر مأخذاً يمكن التشهير به ، غير أن سيطرة الحزب على الفئات الناصرية كان ضمانة ضد أية خطوة في هذا السبيل .

وأسرع إيلي للاجتماع بحاطوم الذي ساعده على الدخول إلى مقر القيادة العامة ... في مسعى للحصول على معلومات أوفى بشأن هذه التحركات ، ولكن ليعلم ان اجتماع مجلس قيادة الثورة قد تأجل ، ولما كان الأعضاء قد غادروا المكان قيل لإيلي إن الوفد الذي كلف بإجراء مفاوضات الوحدة في القاهرة هو الآن في طريقه إلى المطار . وكان حريصاً على أن يعلم ما إذا كان نهاد القاسم قد زود بتعليمات معينة فطمأنه حاطوم على عدم وجود مثل هذه التعليمات ، بل إن كل ما زود به هو الاتفاق على بدء المحادثات ، وهذا ما قرره مجلس قيادة الثورة . وشرح كيف

أن الناصريين يتوقعون أن يعود نهاد القاسم وهو يحمل معه ميثاقاً ، غير أن البعث حث رئيس الوفد بصورة مكتومة وهو عبد الكريم زهور وزير الاقتصاد أن يكسب الوقت بطريق الحيلة ليعرف ردود الفعل عند عبد الناصر بصدد اتحاد فيدرالي على الأسس المتفق عليها مع القيادة في العراق . غير أن نتائج المحادثات أثبتت مع ذلك أن المجلس أخطأ الحساب في تقدير رغبة الرئيس في العودة إلى وحدة تخضع للنفوذ البعثي .

وما كاد الوفد يغادر دمشق حتى استقر إيلي في مقر قيادة الحزب المؤقتة في انتظار التفاصيل عن مؤتمر القاهرة . ومنذ تلك اللحظة وحتى المحادثات السرية التي انتهت بعد ١٥ يوماً كان إيلي لا يغادر المقر سوى بضع ساعات قبيل الفجر . وكان يذهب باسم الاخلاد إلى الراحة ولكنه في الحقيقة يذهب لإرسال المعلومات عن أهم الأخبار التي استطاع أن يجمعها في الأربع والعشرين ساعة الأخيرة .

وفي ساعة متأخرة من ليلة الخميس هتف نهاد القاسم وزملاؤه الى دمشق بالمعلومات الأساسية عن محادثاتهم الأولى مع عبد الناصر . وكانوا قد وصلوا إلى القاهرة في الساعة الرابعة بعد الظهر . وانضم اليهم بعد ساعات قليلة وفد عراقي يرأسه السعدي . وقبل الساعة السابعة مساء بقليل كانوا في اجتماع مغلق مع عبد الناصر في داره بمنشية البكري حيث استمرت المناقشة حتى منتصف الليل . وقال زهور إن مضيفهم أظهر تحفظاً كبيراً منذ البداية ، وقال إنه لا يريد أن ينظر في المواضيع الأساسية قبل أن يتلقى جواباً مرضياً على السؤال : « من الذي يحكم الآن في دمشق ؟» ولكن لم يكن بين أعضاء الوفد السوري من يعرف على الضبط من الذي كان يجلس في مقر المجلس الوطني لقيادة الثورة . ثم سأل عبد الناصر متضايقاً : « اذاً فمع من سنتكلم ؟ هل علي أن أتعامل مع أشباح ؟ » . وبعد ان أصر على الأسماء قال الحريري: «إنهم يحاولون الاحتفاظ بسرية أسماء أعضاء المجلس للتأكد من صفته الجماعية». ولم يرض عبد الناصر عن هذا الجواب وقال: «إن من الخطأ ان نباشر اعمالنا ولدينا أسرار يخفيها بعضنا على البعض الآخر».

وقبل الفجر بقليل بعث إيلي إلى تل أبيب ملخصاً عن هذا المؤتمر الأول مشيراً إلى تقرير سيرسله في وقت لاحق معززاً بالأفلام عن طريق أوروبا .

وعند الساعة الثامنة من بعد ظهر السبت استؤنفت المحادثات في قصر القبة في القاهرة . **وكان إيلي وجورج سيف يجلسان إلى الهاتف بمعية وزير الإعلام سامي الجندي وهم في انتظار التقارير** التي سيبعث بها عبد الكريم زهور . وكانت الساعة قد بلغت العاشرة ليلاً قبل أن يهتف وزير الاقتصاد . بعد ست ساعات من الاتهامات المتبادلة اقترح عبد الناصر أن يجتمع كل وفد على حدة لجلاء الموقف . وكان عليه أن ينتظر ساعتين قبل أن ينتهي السوريون من التشاور مع دمشق. **وقد حضر إيلي الاجتماع السري الذي عقده حزب البعث لتقرير الموقف** الذي يجب أن يتخذه الوفد السوري في القاهرة. ولم يبد على عفلق أي مظهر من مظاهر الاضطراب عندما سمع قول عبد الناصر بأنه لن يتعامل مع حزب البعث ، فقد كان يتوقع ان تنهار المحادثات قبل ذلك . ومع ذلك فقد كانت القيادة القطرية قلقة من ردود الفعل عند الشركاء في المجلس الوطني لقيادة الثورة . ولذلك طلبت إلى زهور بأن يماطل في المحادثات إلى ان يصبح في الامكان الوصول إلى موقف موحد يتفق عليه المستقلون والعسكريون والناصريون .

ومن المعلومات التي نقلها البيطار للجندي وسيف وموظفين آخرين في وزارة الأعلام ، علم إيلي أن المحادثات كانت تجري بدون جدول أعمال . وهكذا كانوا ينتقلون من موضوع إلى موضوع آخر ثم يعودون إلى الموضوع الرئيسي ذاته : انشاء اتحاد فيدرالي . ويبدو أن ناصر لم تكن لديه أية فكرة عن شركائه في المحادثات . لقد كان مستعداً للوحدة مع سورية والعراق « أما إذا كانت الوحدة مع حزب البعث فأنا غير مستعد للدخول في أية محادثات » (سحب بعد ذلك اعتراضه على العراقيين وتمسك بموقفه من السوريين) . وكانت حجته أن إشراف البعث على الحكم في سورية سيقف عائقاً خطيراً دون أي شكل من أشكال الوحدة . وأنهى

قائلا : « أنا مقتنع بأننا سنختلف قبل أن يمضي أربعة أشهر على اتفاقنا » . وهنا تردد ناصر عن المضي في المحادثات وقال : « والله ، أنا أكثر الذين يخشون الوحدة مع الحاضرين » .

ورفض زهور الاقتراح قائلاً : « لا وحدة بدون مصر » . فقد أوضح الناصريون في وفده أن مسألة الوحدة مع مصر هي مسألة حياة أو موت بالنسبة لسورية . وقال أحد أعضاء الوفد : « إذا عدنا بأيد فارغة فلن تكون تلك صدمة لشعبنا فقط بل للعالم العربي بأسره » . وكان جواب عبد الناصر على الطلب الصاخب قاطعاً : « إن وحدة الحكومات غير كافية ، فوحدة القيادة السياسية هي الهامة » . وأعلن تمسكه بحزب اشتراكي وبحكومة مركزية قوية تحت زعامته ، وقيادة عسكرية موحدة : تنظيم يشبه ما كان قائماً مع سورية في الجمهورية العربية المتحدة . واختلف معه السوريون في موضوع الرئاسة والأحزاب السياسية ، وأصروا على القيادة الجماعية ، وعلى الحفاظ على الاستقلال المحلي ، وحرية تأليف الأحزاب السياسية . اتحاد طليق يكون فيه الدفاع والسياسة الخارجية مشتركتين. غير أن البعثيين تمسكوا بتصورهم للوحدة . ولم تفلح الكلمات المعسولة في إقناعهم بالعودة إلى ترتيبات عام ١٩٦١ التي كمت الأفواه أولاً ثم ألغت الحزب .

وبعد خمس عشرة ساعة من محادثات سرية تبددت الأوهام عندما تأكد للرئيس عبد الناصر أن البعث لا يرضى بوحدة تحت إدارة مصر المركزية . والاجتماع الأخير الذي عقد بتاريخ ١٧ آذار لم ينته إلى أي حل . وأحاط إيلي إسرائيل علماً بأن السوريين تركوا الجولة الأولى من المحادثات وهم يشعرون بالمرارة ، لأنهم لم يستطيعوا إيضاح المواضيع التي كانت موضع المناقشة . ولم تكن لديهم خطة لاستئناف المحادثات ، ولا صورة عن نياتهم القادمة .

وبعد أن أدلى الوفد السوري بمعلوماته لدى عودته إلى دمشق ، أشارت تقارير إيلي إلى أن العراقيين كانوا أقرب إلى تصور ناصر للوحدة

من حزبهم ذاته . وكانت الجبهة المشتركة التي أقاموها مع أخوتهم السوريين عرضة لخطر الانهيار . وتحرك المجلس الوطني لقيادة الثورة بسرعة فائقة خوفاً من العزلة . وفي ١٩ آذار طار إلى القاهرة سراً أربعة من قادة البعث السوري — عفلق والبيطار والأتاسي وفهد الشاعر — ومن المطار حددا موعداً للقيام بزيارة مجاملة لعبد الناصر ثم أسرعوا إلى القصر الجمهوري . وقد فوجىء المصريون وكانوا غير مستعدين . وكانت الشكليات قصيرة ومختصرة . وقبل مرور عشر دقائق كان الوفدان قد دخلا في مناقشة طويلة كانت تزداد مع الوقت حدة ومرارة .

ولكن سرعان ما تحولت المحادثات إلى تكرار لما وقع من قبل ، **وراح ناصر يتهم البعث بالخيانة**، وكان الأتاسي يكرر للرئيس رجاءه في أن يتحدث عن المستقبل وأن ينسى الماضي ، غير أن الرئيس أبى التسامح . ومع ذلك وعلى الرغم من الكسر الذي لا يجبر في العلاقات بين ناصر والبعثيين ، فقد توصل إلى اتفاق من ست نقاط لإقامة اتحاد ثلاثي غير مقيد قبل أن يعود السوريون من القاهرة . وكان الاتفاق في الدرجة الأولى من صنع الأتاسي ، وهو يدعو إلى إجراء استفتاء في البلدان الثلاثة على موضوع الرئاسة ، ويسمح بفترة انتقال طولها ٢٥ شهراً قبل الاندماج النهائي .

واستقبلت دمشق الأتاسي استقبال الظافرين ، وبعد أن استمع المجلس الوطني لقيادة الثورة إلى تقريره أجاب عليه بالهتاف والتصفيق وانتخبه رئيساً للدولة . **وهذا قرار اشترك إيلي في الموافقة عليه بصوت جهوري .** وجرت جولة ثالثة من المحادثات اشترك فيها وفد يتألف من ١٧ عضواً من السوريين ، وانتهت هذه الجولة باتفاق السابع عشر من شهر نيسان . ودمجت مصر وسورية والعراق الثمانية والثلاثين مليوناً من مواطنيها في اتحاد من ثلاثة أعضاء تبلغ مساحته مساحة الهند تقريباً ، برئاسة واحدة هي رئاسة ناصر ، وبعاصمة واحدة هي (القاهرة) وعلم واحد هو علم الجمهورية العربية المتحدة بثلاث نجوم .

وعندما صدّق المجلس الوطني لقيادة الثورة على الوثيقة ، لم يحرك الاسرائيليون ساكناً ... لأن إيلي أرسل من جهاز إرساله يقول : « ورقة الاتحاد صدّقت غير أن البعث ليس في نيته تنفيذ الاتفاق ». وقد كانوا بذلك كغيرهم ممن ينزعون إلى الشك فلا يصدّقون بالوحدة العربية إلاّ عندما تقع فعلاً . وعندما اجتمعت الوزارة الاسرائيلية لتستمع إلى بيان عن المحادثات ، رفضت الاهتمام بتبجح الأتاسي عندما قال : « لن يبقى لليهود أية قيمة عندما يمتد العالم العربي من المحيط إلى الخليج . سيكونون مجرد نقطة في بحر وسيختفون إلى الأبد بإذن الله » . ولم يجد بن غوريون في هذا كله ما يستدعي قطع إجازته التي يقضيها على بحيرة طبرية .

وسرعان ما تعرضُ الاتفاق الثلاثي للشبهات إذ لم تمضِ أيام ثلاثة على توقيع بيان الوحدة حتى اكتشفت المخابرات المصرية رسالة من الملحق العسكري في دمشق إلى نائب رئيس الوزارة العراقية صالح السعدي يعلمه فيه بأن المجلس الوطني لقيادة الثورة لا ينوي تشريف الميثاق ، وأنه قرر بالفعل القضاء على بقايا الناصريين في الجيش . وعندما علمت القاهرة بنيات البعث الحقيقية شددت من حملة الكراهية إعلامياً ، وانتقلت إلى النشاط التخريبي في مجهود يرمي لاستعادة ما يكفي من النفوذ لإرغام البعث على البقاء ضمن الاتحاد . وصدرت الأوامر إلى الناصريين السوريين بأن يضربوا ويتظاهروا في المدن الكبرى ، وأبدى الطلاب استجابة وتعاوناً فتدفقوا إلى الشوارع وهم يهتفون باسم بطلهم . وعندما عمت أعمال العنف عين الأتاسي أمين الحافظ وزيراً للداخلية نائباً للحاكم العسكري . أما عفلق والبيطار اللذان كانا يقومان بعمليات التنسيق بين مجلس قيادة الثورة والوزارة فقد كانوا يعلمون أن عدد مؤيديهم في الجيش ليس كافياً لمواجهة اتحاد القوى الناصرية . ومع ذلك فقد قرروا ركوب العاصفة أملاً في أن يتوصلوا بمساعدة الحافظ والفرقتين المدرعتين اللتين يسيطر عليهما ضباط بعثيون إلى تحقيق انتصار على أخصامهم . واستطاعت الدبابات التي أرسلها الحافظ إلى الشوارع أن تفرق بسرعة المتظاهرين من الطلاب . وسرعان ما رفعت قسوته في قمع الاضطرابات منزلته في نظر قيادة الحزب .

وعندئذ بدا أن الخرق بين الناصريين والبعثيين لا يمكن رتقه ، وبعث إيلي بتقرير يقول فيه إن الحركتين لن يكتب لهما عمل مشترك بعد اليوم . غير أن البعث وإن كان قد ضمن بأنه في مركز لا يمكن النيل منه ، إلاّ أن القوى الناصرية لم تهزم نهائياً ، بل إنها على العكس كانت في منتهى القوة . ولكي يصبح بالإمكان الحيلولة دون تدهور أسوأ في العلاقات استقال البيطار من رئاسة الوزارة في ١١ أيار . وكان الاختيار الطبيعي لخلفه هو وزير الإعلام سامي الجندي المعروف بولائه لعبد الناصر ، والذي لم يلتزم أي جانب في الصراع بين الناصريين والبعثيين ، وكان البيطار يرجو أن يكون الجندي مقبولاً من جانب القاهرة وأخصامها معاً .

وكان إيلي قد التقى برئيس جورج سيف بعد قليل من تعيينه وزيراً للإعلام . وفي أشهر الاضطرابات الأخيرة كان الجندي يعتبر ثابت صديقاً حميماً ، كما كان يستشيره حول الموضوع الخاص بالعودة إلى الوحدة مع مصر . بل وبلغت ثقته به درجة راح يفاتحه معها بحرية في جميع مشاكل الحزب ، وكان ثابت يقف إلى جانبه في كثير من القضايا الداخلية والمشاكل الحزبية . والجندي مواطن من سكان السلمية ، وكان في السابق طبيباً للأسنان ذا أطماع سياسية ، يبلغ من العمر ثلاثة وأربعين عاماً ، أشقر اللون أزرق العينين ، كان عضواً في جبهة الاشتراكيين الناصريين الوحدويين ، إنتهازي ولكنه ماكر ، يعرف جيداً مدى الحاجة إلى الحذر ، وقد استطاع التحكم في طبيعة الانقسام في السياسة العربية . فرفض أن يعتبر نفسه قريباً جداً من حزبه ، كما لم يشترك في المؤامرات الصغيرة التي حيكت ضد الحزب غير أن موقفه الغامض هذا دفع به أخيراً إلى موقف غير متحفظ . إذ بينما كان لا يزال يكن الولاء للناصريين راح يبدي عواطفه نحو السياسيين المعتدلين من حزب البعث ، وأصبح من الزوار الدائمين لمنزل ميشيل عفلق في دمشق حيث كان يلتقي أحياناً بإيلي .

وكان الجندي يرجو أن ينجح في تهدئة الناصريين ، وأن يكسب فترة من الهدوء يعزز خلالها مركزه . فحاول تشكيل وزارة من ستة من

البعثيين ، وستة من الناصريين ، وستة من الوحدويين الاشتراكيين (وكان ينتمي إليهم) غير أن مساعيه منيت بالفشل ، إذ أوضحت محطة القاهرة أن ناصر يعتبره واجهة من واجهات حزب البعث ، وهكذا تلقى الناصريون الإيعاز من القاهرة فرفضوا الاشتراك في وزارته . واستمر الجندي يومين وهو يتابع مفاوضاته بدون نجاح قبل أن يستسلم للهزيمة . وعندما انتابه اليأس ونال منه التعب ، ظهر في تلفزيون دمشق ليقول للشعب السوري إن جميع الناصريين منغمسون في السياسة بعقلية بورجوازية ، تجري فقط وراء المناصب والحقائب الوزارية .

واضطر البيطار لأن يتولى رئاسة الوزارة مرة أخرى فشكل وزارة من ١٦ وزيراً يسيطر عليها حزب البعث بأكثرية ساحقة . وقد استفاد الجندي من رصيده كموال لحزب البعث ، وعرض عليه اعترافاً بخدماته في الفترة الانتقالية كحلال للعقد حقيبة مضاعفة هي الإعلام والإرشاد القومي . وظل إيلي حليفاً للجندي إلى أن تبين له أن الحزب بات يخشى نمو سلطته . وكان ثابت يهتم بتحالفات الحزب أكثر مما يهتم بصداقة الجندي . فقد اشترك في الصراع اللاحق على السلطة ، في الدسائس التي حيكت ضد الجندي ومارس نفوذه إلى جانب أعدائه ، إلى أن أُخرج من الوزارة وأُبعد إلى منصب سفير في فرنسا .

وفي حزيران قرر حزب البعث الذي أثار مخاوفه تصاعد أعمال التخريب الناصرية أن يحد من صلاحيات وزير الدفاع ورئيس الأركان زياد الحريري ، الذي راح يبدي تعاطفاً غير عادي مع اتباعه الناصريين ، والذي كثيراً ما اتخذ مواقف ضد سياسة الحزب . ولما كان الحريري واثقاً من قوته فقد غادر دمشق في ٢٨ حزيران على رأس وفد مكلف بالقيام بزيارة ودية للجزائر .

وما كاد الحريري يغادر دمشق حتى حاول البعث أن ينتزع منه السلطة عن طريق المكيدة ، واعتمد على أمين الحافظ في تدبير العملية . وكان الحافظ هو القوة الحقيقية وراء عصبة الحزب العسكرية . وقد استجاب

وزير الداخلية عن طيب خاطر ، لأنه يقضي بذلك على العقبة الرئيسية التي تقف في طريق سلطته الشخصية . فقام بعملية تطهير للحريريين في الجيش ، وأعاد تعيين الحريري نفسه لوظيفة ملحق عسكري في الولايات المتحدة ، وأرسل إليه التعليمات بأن يتابع سفره إلى واشنطن عن طريق باريس . فرفض اللواء الامتثال للأمر وعاد إلى دمشق في السادس والعشرين من الشهر ، ودعا المجلس الوطني لقيادة الثورة إلى الاجتماع ، فاجتمع في رئاسة الأركان في جو قاتم ، فألغى المجلس التسريحات ليومين وليلتين فقط .

وعندما اشتدت حالة التوتر هدد العراقيون بالتدخل إلى جانب أمين الحافظ . وعندما شاهد الحريري الألوية المدرعة التي يشرف عليهـا البعثيون داخل دمشق وخارجها عرف أن أية محاولة للقيام بحركة انقلابية ليست سوى عملية انتحارية . وفي السابع من تموز أذعن للأمر ووضع بالإقامة الجبرية في منزله قبل أن يطرد إلى فينا حيث أسند إليه فيما بعد مركز دبلوماسي في باريس .

وبعد إخراج الحريري ، تولى أمين الحافظ جميع صلاحياته . ولم يكن أمام الأتاسي أي خيار عندما رفعه إلى رتبة فريق وعينه رئيساً للأركان . كما أن ولاءه للحزب وأعصابه الهادئة مكنته من الحصول على مركز آخر في الحكم هو وزارة الدفاع .

وكان أفضل ما فعله إيلي في الأرجنتين أنه أقام علاقات صداقة مع أمين الحافظ وهو ضابط طويـل القامـة ذو أكتاف عريضة ، وشعر أبيض كثيف ، وأنف بارز ، وذقن منونة . وقد ولد أمين الحافظ في عام ١٩١٤ لعائلة فقيرة في حلب ، وهو مسلم سني ، وانتقل إلى دمشق عندما أصبح والده ممثلاً لشركة وستنكهاوس كوربوريشن في سورية . وعندما كان يعلم في إحدى المدارس الابتدائية في دمشق التقى بعفلق والبيطار . وانضم الحافظ إلى حزب البعث فور تأسيسه على اعتبار أنه شاب يحمل مبادىء اشتراكية . ولكنه بعد أربع سنوات انضم إلى الجيش وتسجل

في كلية حمص العسكرية . وعندما نشبت الحرب الأولى بين العرب وإسرائيل عام ١٩٤٨ كان لا يزال صغير السن ، ومع ذلك فقد أرسل إلى الجبهة حيث حصل على رتبة ملازم أول . وكان أمين الحافظ من الضباط القلائل الذين خرجوا من الحرب وهم يتمتعون بسمعة حسنة . وسرعان ما رقي إلى رتبة رائد . وعندما قامت الجمهورية العربية المتحدة أرسله مكتب شؤون الضباط إلى القاهرة لمتابعة دراسته في كلية المساعدين . وما كاد حزب البعث يتخلى عن مساعدته لناصر حتى رفع إلى رتبة عقيد ، ثم نقل إلى سلك الملحقين العسكريين أولاً في مدريد ، وبعد ذلك في بونوس أيرس . وفي فترة الانفصال عينه زهر الدين بسبب علاقاته البعثية رئيساً لفرع التدريب في الجيش ، وقد كافأه حافظ على معروفه هذا عندما التزم جانبه ضد عصيان حلب ، ولكن ما لبثت الخلافات أن قامت بين الرجلين . فأرسلت القيادة العليا أمين الحافظ مرة أخرى في جولة دراسية ، وهذه المرة للاتحاد السوفياتي إلى أن استدعاه حزبه لتولي منصب وزارة الداخلية .

وما كاد الحافظ يقوم بأعماله الوزارية حتى بعث إليه إيلي بمذكرة تهنئة . ثم راح ، بناء على تعليمات من الموساد ، يتابع أعماله بدقة . وسرعان ما كشف الجنرال عن يده الحديدية في تعامله مع أعداء الثورة . فأقام حكم الحزب بعد تنقلات أجراها بين قوات الأمن ، وسحق حركة الشيوعيين السرية ، وأوقف الطلاب عند حدهم ، ونجح في احتواء الناصريين . وقامت قواته النظامية بتفريق المتظاهرين ، وفرض منع التجول مرات عديدة ، وتابع أعمال التوقيف دون هوادة ، وشغل كل أوقات محاكم الأمن . وقد ربح عن طريق ولائه للحزب منصب رئيس مجلس الوزراء .

وقد شجع تقدم حافظ السريع إيلي على أن يطالب جورج سيف بإعداد لقاء بينهما . وبعد أيام قليلة استقبل أمين الحافظ الرجلين بروح من الود في منزله في أبو رمانة . وتحدث إيلي للجنرال عن أعماله التجارية ،

ثم تناقشوا في شؤون الحزب ، وأعلن ثابت أنه يضع نفسه تحت تصرفه . وقد تأثر أمين الحافظ كثيراً بوطنية ثابت الصادقة وطبعه الهادىء ، وأعرب عن رغبته في تكرار هذا اللقاء سواء لأسباب شخصية أو أسباب أخرى تتعلق بحزب البعث . ولما كان نجم إيلي قد تألق في الحزب لذلك أصبح ضيفاً دائماً في منزل أمين الحافظ . ولم تمض فترة طويلة حتى أحرز ثقة السيدة أمين الحافظ وصداقة الحافظ نفسه . وسمح ثابت لنفسه بأن يناديه باسمه المدلل « أبو عبدو » . وبعد أن تعرف إيلي على أمين الحافظ دهش من نجاحه على الصعيد السياسي ، لأن الحافظ كانت تنقصه الجاذبية ، ولم يكن يحرك النفوس في بياناته . وعلى الرغم من أنه كان يوحي بالثقة بنفسه فلم يكن يتصف بالمزاج المتحول الذي كان صفة مميزة لمواطنيه . وهو لم يفقد صوابه في أية مرة ، وحتى عندما يثار . وكان يطلق الكلمات القاسية بطريقة هادئة وباردة . وقد لاحظ إيلي أنه حتى في حياته الخاصة كان يعيش في مستوى سمعته ، وكان شديد الاحتراس ، غير ودي ، وعديم التأثر ، صلباً بعض الشيء ، وكان يتردد في إعطاء الجواب ، ويصعب جره إلى مواضيع محددة . وقال أحد أصدقائه مرة لإيلي : « تستطيع أن تتحدث إليه ساعة كاملة ثم تكتشف فجأة أنه لم يدل بعشر كلمات » .

وفي شهر تموز اقترح فرع الحزب في دمشق أن يعين إيلي عضواً في القيادة القطرية . قدم ميشيل عفلق الاقتراح ، وأيد حافظ وحاطوم والبيطار هذا التعيين . وخلال أيام قليلة كان إيلي يجلس في القيادة القطرية لحزب البعث كمراقب ليس له حق التصويت. ولم تمض فترة قصيرة على وضعه هذا حتى قبل كعضو كامل في مجلس القيادة . وبعد فترة قصيرة من تعيينه حدث انشقاق بين المعتدلين المدنيين من جماعة البيطار ، والتقدميين العسكريين من جماعة الحافظ ، وقد أصبح إيلي بسبب هذا الصدام في مركز حرج . أما عفلق فقد التزم جانب أمين الحافظ بأمل تهدئة الجيش . ولما كان لإيلي علاقات صداقة متينة مع الحافظ وحاطوم الذي يؤيد الحافظ لذلك كان مرغماً على التزام جانب الحافظ . وفي تصويت سري لانتخاب

مجلس تنفيذي هزمت جماعة الرعيل الأول بما فيها البيطار ، وجميع اليمينيين في الحزب أبعدوا عن مراكزهم .

وهنا ضاعف الذين أبقت عليهم أعمال التطهير ، التي أعقبت استقالة الحريري ، من جهودهم لاغتصاب السلطة من البعث ، والإشراف على توجيه الحكم ، وإعادة سورية إلى الجمهورية العربية المتحدة . **وكان إيلي مطلع على مخططهم منذ البداية . ففي أوائل شهر تموز سمع من أحد أصدقائه في المكتب الثاني أن جاسم علوان الذي فر من البلاد بعد ثورة حلب الفاشلة عاد إلى دمشق ليتآمر على العصيان.** وقد وافقت القاهرة على خطته ووعدت بمساعدة جوية وقوات من المظليين . ولما كان عبد الناصر قد خطط لإلغاء صك الاتحاد بمناسبة الذكرى السنوية للثورة المصرية ، لذلك تقرر أن تكون ساعة الحركة قبل يومين أي في صباح ١٨ تموز .

وفي الساعة العاشرة والربع قبل الظهر أي بعد نصف ساعة فقط من سفر الأتاسي والجندي بالطائرة إلى القاهرة أطبقت على دمشق قوات جاسم علوان ، المؤلفة من المشاة وحرس الاشارة ، ووحدات الشرطة العسكرية ، يدعمها عدد من الطيارين ومدنيون مشتركون في المؤامرة . وقامت أربع طائرات من الميغ التابعة للثوار بالتحليق فوق أبو رمانة فضربت محطة الإذاعة ولكنها أخطأت جهاز الإرسال الذي دمر بالديناميت من قبل فرقة تخريبية . ونشب قتال عنيف في قلب المدينة بينما كان الثائرون يحاولون الاستيلاء على وزارة الدفاع ومباني القيادة العامة . وسرعان ما سحق العصاة واضطروا للانسحاب من جميع المراكز الاستراتيجية عن طريق القوات الموالية لأمين الحافظ . غير أنه هو نفسه أخذ على حين غرة عندما أقدم الضابط المكلف بحراسة الأركان العامة وهو برتبة رائد على إصدار أمره لقواته بالانسحاب أمام العصاة . ولما كان حافظ ورفاقه من ضباط القيادة ، يحملون رشاشاتهم فقد كان عليهم أن يقوموا هم أنفسهم بصد الهجوم .

أما المظليون والمساندة الجوية التي وعدت بها الجمهورية العربية

المتحدة فقد تخلفت عن الحضور . وبعد قتال ضار استمر أربع ساعات في العاصمة استطاعت قوات الحكومة أن تسيطر على المدينة ، وراح الطيارون الموالون يحلقون فوق أسطحة المنازل كظاهرة للقوة ، وفي الساعة الثانية والنصف بعد الظهر عادت محطة دمشق إلى البث فإذا هي مرة أخرى بين يدي البعث . وأسرع أمين الحافظ ليحيط السوريين علماً بأن « المحاولة التي جرت للإساءة إلى أمن البلاد من قبل جماعة من المدنيين يدعمها عدد قليل من الجنود قد سحقت » . أما قائمة الضحايا فقد كانت ضخمة ، وأوردت التقارير عدد القتلى فقط بين ١٧٠ و٩٠٠ .

وخضعت مدينة دمشق لمنع التجول ، وأغلقت على البلد كله حدوده ومطاراته وسواحله . وعاد الأتاسي وهو لا يحس بالانزعاج من مؤتمر غير موفق عقده مع عبد الناصر . وسارع فور وصوله إلى المستشفى العسكري ليقبل الجنود المصابين الذين سقطوا جرحى دفاعاً عن النظام . وفي ساعة متأخرة من المساء أصدرت محكمة عسكرية ألفت على عجل أحكام الإعدام ضد ثلاثة من قادة العصيان . وعقدت القيادة القطرية اجتماعاً مستعجلاً للنظر في الحكم . غير أن الأتاسي أبدى عطفه نحو الوحدويين واعترض على الأحكام . إلاّ أن الجناح المدني — على ما رواه إيلي — الذي يئس من المصالحة مع ناصر وراودته الشكوك في علاقة المصريين بالحركة الأخيرة ، التزم جانب أمين الحافظ في التصويت لتنفيذ أحكام الإعدام . وفي ظهر اليوم التالي نفذ حكم الإعدام رمياً بالرصاص في ساحة سجن المزة العسكري بقائد سلاح الاشارة وخمسة من معاونيه . وبعد ساعتين أحضر اثنان من ضباط الصف و ١٢ مدنياً إلى سجن المزة حيث نفذت فيهم أيضاً أحكام الإعدام . وفي ٢٢ تموز طوق المئات من الناصريين المشبوهين وارتفع عدد أحكام الاعدام إلى السبعة والعشرين . وأنذر أمين الحافظ قائلاً : « فليفكروا مرتين قبل أن يحاولوا ثانية ، وعندما يحاولون عليهم أن يكونوا مستعدين للموت » .

وعلى الرغم من أن الاعدامات لم تكن غريبة على التقاليد السورية ،

فإن إعدام الأخصام السياسيين كان غير معروف في الخمسة عشر عاماً الماضية . وهكذا فإن الوحشية التي مارسها أمين الحافظ في قمع العصيان عكست آثارها على الأعداء والأصدقاء ومكنته من تعزيز سلطته إلى درجة بدت وكأنها منيعة . فاختاره الحزب لمنصب رئيس للقيادة القطرية وساند تعيينه كقائد عام خلفاً للأتاسي ، الذي جرد من الوظيفتين بدون أي تعليق . وبهذه الترفيعات الجديدة أصبح لحافظ ستة مناصب : ثلاثة في الوزارة (نائب الرئيس ووزير للدفاع ووزير للداخلية) . وواحد في الحزب (رئيس للقيادة القطرية) . واثنان في الجيش (قائد عام وحاكم عسكري) . وفي وقت لاحق ومع استقالة صلاح البيطار تولى منصب رئاسة الوزراء . لهذا لم يكن هناك كبير مبالغة عندما قدم حافظ في شهر آب إلى أحد الاجتماعات العامة بصفته « الرجل الفولاذي » .

ولما كانت شخصية القائد الحلبي الذي يبلغ طوله خمسة أقدام ونصف قد أخذت في اللمعان منطلقة من خلفيات متواضعة وغير واضحة ، فإن إيلي تلقى تعليمات بتمتين علاقاته بالرجل القوي الجديد . وسرعان ما ضاعف من زياراته للحافظ ، كما راح يستخدم كل الفرص الممكنة للاجتماع بالحافظ في قصر المهاجرين حيث كان نموذج طوله يارد من الدبابات الروسية ت ٥٤ تشرف على مكتبه المرمري . ولما كان الجنرال في حاجة أكثر من أي يوم مضى إلى مساندة مدنية تصدر عن عضو في القيادة القطرية لذلك لم يرفض ولا مرة الإذن له بالدخول ، وكان يستقبله بطريقة ودية في جميع الساعات . ولما كان إيلي قد وضع نفسه تحت تصرف أمين الحافظ فإنه سرعان ما تمتع بصلاحيات الحاكم من وراء ستار eminence Grise . أما تعاونهما داخل القيادة القطرية فقد استمر حتى النهاية .

صـالحة

قبل أن يرتقي إيلي إلى مركز الشهرة في حزب البعث لم يغامر تصريحاً ولا تلميحاً بطلب السماح له بزيارة منطقة الحدود الجنوبية ، ذلك أن السوريين قد يظهرون بعض التراخي في الشؤون المتعلقة بالأمن ، غير أن المراكز الأمامية على طول الحدود الإسرائيلية كانت محرمة على كل المدنيين فيما عدا أولئك الذين يحصلون على إذن من القيادة العامة على شكل تراخيص مرور تمنحها القيادة الجنوبية . ومع ذلك فقد كان من الأمور العصيبة أن يتمكن إيلي من بلوغ المرتفعات . فخط الهدنة يمتد على طول ٢٧ ميلاً ، وهو يتجه موازياً للحدود الدولية القديمة التي كانت قائمة بين سورية وفلسطين ، مع بعض التجاوزات التي سببتها المناطق المجردة في الشمال ، والوسط ، والجنوب . وهذا الخط هو أقصر حدود إسرائيل مع أي بلد عربي آخر ، ولكنه أيضاً الأكثر زعاجاً . فالمطالبة بالأراضي من كلا الجانبين بسبب الغموض الذي اكتنف هدنة عام ٩٤٩ أدى إلى اشتباكات عديدة بين القوى المتصارعة . وللسوريين في كل نقطة تقريباً ، على طول المرتفعات الواقعة على حافة سهول الجولان ، ميزة تكتيكية أو طوبوغرافية ، فمن التلال والجبال التي تعلو ١٨٠٠ قدم، فوق النتوء الذي يمتد إلى الشمال الشرقي من الجليل الأعلى، تشرف مواقع المشاة والمدفعية على المناطق المجردة من السلاح ، مهددة سلسلة من المستعمرات « الكيبوتزيم » المنتشرة على طول الحدود ، ومرغمة القاطنين فيها على ضياع أكثر أيامهم ولياليهم داخل ملاجيء من الإسمنت . وهذه المراكز الأمامية ليست بالنسبة للسوريين خطاً دفاعياً فقط ، ولكنها قاعدة محتملة لهجوم بري يشن على إسرائيل . وهي بهذا تشبه جسراً متحركاً فوق خندق مائي ، وإذا تعرض الإسرائيليون هنا للهزيمة فإن الطريق إلى كارثة

ماحقة تصبح مفتوحة .

والمراكز السورية هي تحت رقابة دائمة من جانب محطات المراقبة الإسرائيلية التي ترصد حركات القوات المسلحة في المنطقة ، وتقوم الوحدات الإستطلاعية للقيادة الشمالية بالتغلغل في عمق أراضي الجولان ، كما أن الطائرات الإسرائيلية تقوم باستكشاف وتصوير التحركات الأرضية من الجو . وبالإضافة إلى ذلك فإن للمودين جيشاً صغيراً من المخبرين العرب جمع من القرويين في البقاع . غير أن السوريين بعد أن أنشأوا متاهة من الاستحكامات والخلايا التي تتقاطع مع التحصينات استطاعوا أن يحجبوا بنجاح قواتهم المدرعة ، ومدفعيتهم عن أجهزة التصوير ، ولذلك أصبح من غير الممكن تحديد أنواع ومواقع الأسلحة سوى من قبل مراقبين يشاهدونها على مسافة قريبة. ولذلك أصدر الموساد تعليماته إلى إيلي بأن يضع في المقام الأول المعلومات الخاصة بالتحصينات السورية على طول حدود اسرائيل الشمالية .

واستطاع إيلي بما حصل عليه من نفوذ بمساعدة حاطوم ، وقبل انقلاب ٨ آذار بمساعدة معزى زهر الدين أن يفتح الأبواب إلى منطقة الحدود . وكان أصدقاؤه الذين أُعجبوا بسرعة ارتقائه في مدارج الحزب يحترمون ما أحرزه من نفوذ ، كما كانوا تواقين إلى أن يزيلوا من نفسه كل الشكوك التي أعرب عنها حول استعداد القوات المسلحة لإثبات فعاليتها ، وقدرتها على الإنتشار على طول الحدود مع إسرائيل . واستطاع إيلي أن يرافق أحد الاثنين ثلاث مرات في عام ٩٦٣ ، عندما كان يقوم برحلات تفقدية إلى خطوط القتال . وفي الزيارة الأولى أخذه معزى إلى بعال زابدي وبلودانية ، وفي الربيع ذهب مع حاطوم إلى تل العزيزات ، وهي التحصينات الواقعة في القطاع الشمالي من المنطقة المجردة ، وهي تبعد ٤٥ كيلومتراً عن العاصمة . وبعد أن انحرفوا في سيرهم إلى طريق دمشق ــ القنيطرة من خلال تلال حوران الموحشة . أصبحوا أمام مشهد من الكآبة أو بانوراما أرض « الياشان » التي أشار اليها الإنجيل والتي لم

تتغير منذ العهد القديم ، قفر صخري أقرع تتلوه سلسلة من التــلال الصخرية الصفراء والبنية اللون ، ثم الصخور المدورة وشجيرات الأشواك المنخفضة. وإلى الشرق تبدو التربة سوداء وغنية مبطنة بصخور البازالت، وقد جوفتها الأمطار والرياح القادمة من البحر ، والبقاع وهو الإسم الدارج لتلك المنطقة ، كانت مخزناً هائلاً للحبوب في البحر الأبيض المتوســط أيام الامبراطورية الرومانية ، غير أن قروناً من الإهمال أحالتها إلى منطقة قاتمة متناثرة الزرع كثيفة السكان ، حيث يقطنها أفقر السوريــين من الفلاحين . وأغلب القرويين الذين يفلحون التربة ويربون الغنم والماعز للملاكين الغائبين لايكادون يحصلون على ما يكفيهم من الغذاء يحصلون عليه من فدان أو فدانين من الأرض المستأجرة يزرعون فيها كميات قليلة من القمح أو الشعــير أو الشوفان .

وعوضاً عن المحاصيل الغنية التي كانت تنتجها هذه التربة قبل أن تفقد خصائص الخصب أقام السوريون منطقة حرام مساحتها ١٥ ميلاً من الأراضي الجرداء المزروعة بالألغام حيث نصبت المنشآت العسكرية واحتشد قسم كبير لقواتهم المسلحة . هذه المنطقة اسمها بالشيفرة الإسرائيلية « منطقة العال العسكرية » وهي تدخل إدارياً في منطقة القيادة الجنوبيــة في القنيطرة وتشتمل – مع الأخذ بعين الإعتبار بعض التغييرات الطفيفة – على لواءين للمشاة والمدرعات وعدة كتائب للميدان ، ومدفعية بعيدة المدى ، وعدد من أفراد الحرس الوطني ، ووحدات من دوريات الحدود . وعلى الحدود ذاتها خط من التحصينات أقيم على طريقة خط ماجينو فيه مخابيء للمراقبة مصنوعة من الإسمنت ، وقواعد للمدافع الرشاشة ومغاور ضد الدبابات ، واستحكامات لإطلاق النار . وقد بنيت هذه التحصينات على قمة التلال التي هي حدود إسرائيل وتعززها الدبابات المدفونة في الأرض لحماية المدفعية المثبتة إلى الأرض، وتساندها كذلك المدفعية السريعة من ١٣٠ ملمتراً ، ومدافع هاون ١٢٢ ملمتراً مخبوءة وراء التلال على خط طوله عشرين ميلاً بين تل كونيلا في الشمال والتوافيق في الجنوب .

وبعد ساعة من العذاب ، واختناق بالغبار وصل إيلي وحاطوم إلى

حدود القنيطرة وهي آخر مدينة في الجنوب ذات شهـرة بالتجـارة والتهريب ، حيث يتحول الطريق العام إلى طريق رئيسي كثير التعرجات وتختلط الممرات الملتوية وتكثر البيوت القائمة على أحجار مربعة الشكل وكذلك الجوامع والمآذن ، والأسواق ذات الرائحة الكريهة ، والنساء المحجبات والرجال الذين يرتدون التنانير. وتعتبر القنيطرة نموذجاً لأكثر المدن السورية . والحي الفقير من المدينة تتخلله الطرق الضيقة الرثة التي تبدو وكأنها مستودع للأوساخ والأقذار ، وسيدات المنازل يقذفن فيها النفايات وأوعية المياه وفضلات الطعام ، وتشاهد أرتال من الأطفـال دون الوزن الطبيعي تكسو وجوههم القشرة وتعلو رؤوسهم شعور غير مصففة ، عيونهم مريضة وأنوفهم جارية ، يلبسون فقط الملابس الداخلية وثياب النوم، ويلعبون بين الفضلات ، وأسراب الذباب الأسود والأزرق تتجمع فوق خنافس الروث . والكلاب والقطط والدجاج والجمال والخيول تتجول طليقة ، والرجال الحفاة يغطسون حتى الركب في الوحل ليغسلوا حميرهم . وعندما كان أحد الحمير يرسل نهيق الألم سارعت إليه الأنثى تمسح عنقه بجبينها إلى أن استعاد هدوءه ، وكان هذا هو المشهد الوحيد للتعاطف بين الجنسين الذي شاهده إيلي في هذه الرحلة .

واقترح حاطوم أن يتوقفا لتناول طعام الغداء في أحد المطاعم ، حيث العرق المعطر باليانسون يقدم مع وفرة من المقبلات ، ثم يليها أطباق من اللحم المشوي الكثير الدهن والمدفون بتلال من الرز ، وكان السوق القريب الذي تعج منه روائح الزيوت والمتبلات مليئاً بالمتجولين وبائعي القهوة والشحاذين الذي يصطادون البخشيش . وعلى الطرف الآخر من الشارع دكاكين اللحامين وقد تدلت قطع اللحم من خطاطيفهم الحديدية ، وعربات الباعة المتجولين وفوقها أكداس من الفواكه والخضار ، ومن حولها الزبائن الدروز الذين جاؤوا من القرى المجاورة . وهناك التجار الذين يبيعون الملابس القديمة ، والاسكافيون الذين يصلحون الأحذية المصنوعة من إطارات السيارات ، والسمكريون الذين يصنعون الأدوات المنزلية من التنك المستعمل . وعلى مرمى حجر فقط مركز الانطلاق حيث

تصل السيارات والباصات وتغادر على وتيرة دائمة ، وحيث سائقو سيارات التاكسي يتصيدون الزبائن بالصيحات التقليدية: «شام يالله على الشام » ويخفضون الأسعار باستمرار لمضاربة سيارات الباص .

وبعد الغداء بقليل ، اتجه حاطوم بسيارته إلى القسم الغربي من المدينة فمرا بحي سكني فيه أبنية حديثة من الإسمنت وقد أعدها الجيش لسكن الضباط . وعند مفترق الطريق العام إنحرف حاطوم إلى اليمين ثم إلـى الشمال ، وعلى بعد بضعة أميال ارتفع بناء مقر الأركان للقيادة الجنوبية ، وهي مؤلفة من طابقين على شكل منشار يشرف عليه جبل الشيخ الذي تجللت قمته بالثلوج . وقمة حرمون هذه ورد ذكرها في العهد القديم حيث أقام النمرود منزله ، وسكنت حولها قبيلة دان بعد أن فرت مـن فلسطين . وازدان المدخل بالألوان المزخرفة ، وفي أعلاه ترس باللون الأخضر والبرتقالي والأحمر مجلى بالشعار الوطني وبالخارطة التي هي حلم حزب البعث « أمبراطورية عربية من المحيط الأطلسي إلى الخليج الفارسي ». وهنا سأل حارس يحمل البندقية وزناراً من الخرطوش وخوذة فولاذية عن الأوراق الثبوتية ، وعندما قدمها إليه حاطوم ألقى عليها نظـرة قصيرة ثم أدى التحية العسكرية برشاقة ثم سمح لهما بالمرور .

وبينما كان إيلي يمر من خلال نقاط المراقبة في الطريق إلى المدخل الرئيسي نالته حصة من الاحترام الذي ينعم به الضباط الكبار ، عندمـا تجرأ ملازم على أن يسأل حاطوم عن الغرض من زيارته ، فانتهره بعنف إذ كان الرائد على علاقات طيبة بالقائد العام عبد الغني دهمان ، وجاء ليقدم إليه احتراماته ، فتمتم الملازم معتذراً وأفسح له الطريق وتقـدم حاطوم إيلي إلى سلم لولبي مفروش بالسجاد حتى الطابق الثاني ، وبعد الانتظار فترة قصيرة في الغرفة المجاورة سمح لهما أحد المعاونين بالدخول إلى مكتب صغير حيث كان اللواء دهمان الذي استقبلهما بعناق ودي . وكان في أرض المكتب سجادة عجمية كثيفة ومكتب أنيق وكرسي ذو مسند صلب ، وعدد كبير من الأجهزة الهاتفية . وكان دهمان يبلـغ

الأربعين من عمره ، أكتافه عريضة ، عضلاته بارزة ، متغضن الوجه ، أنفه بارز ، وشارباه مصقولان ، وعيناه المشتعلتان تعلوهما حواجب كثيفة مما يتناقض مع مزاجه الهادىء . وبعد عدد من فناجين القهوة ، وحديث عن سياسة الحزب ، انتقل البحث إلى صفات الرجولة عند الجندي العربي ، وشجاعته في القتال . وكان اللواء يتحدث ببطء وبصوت عميق وغني اعتاد على إصدار الأوامر ، فكان يرسل كلماته بلغة عربية متفجرة ، وكان دهمان يعتقد أن الله إذا كان في جانب السوريين فهم قادرون على أن يقاتلوا حتى تحرير فلسطين من الصهيونيين . ووعد في مجرى حديثه بأن إطلاق نيران المدفعية من الجانب السوري سيحطم اليهود حتى يستسلموا . هذه كانت ملاحظاته عن مشاكل الحدود ، ولو أن إيلي كان لديه أي تصور عن احتمال الحصول على خارطة للجبهة ومعلومات عنها من دهمان لفقد هذا التصور في تلك اللحظة ... فاللواء على الرغم من جاذبيته ولهجته الناعمة فقد تجنب الإشارة إلى شؤون الجبهة ورفض الذهاب إلى أكثر من شرح مبسط لمهمته في المنطقة ، ولم يكن أمام إيلي سوى أن ينسى خيبته . ولم يتردد في أن يكون سخياً في إطرائه له . وعانق اللواء دهمان الرائد حاطوم ثم عانق إيلي الذي تعهد بزيارته في منزله . وبعد دقائق كان الرجلان يعيدان رسم طريق العودة غير المباشر من خلال الأروقة ونقاط التفتيش ، إلى أن وصلوا أخيراً إلى ظاهر الأرض .

وبعد العشاء دعي حاطوم من قبل جماعة من أصدقائه وهم أعضاء في هيئة الأركان لمشاهدة فيلم مصري يعرض في مسرح بالقرب من نادي الضباط ، وكانت هذه متعة ليلية لا يتخلى عنها سكان القنيطرة . وكان جميع المشاهدين تقريباً من الرجال وكثيرون منهم كانوا يمسكون بأيدي بعضهم بعضاً . وبعد ساعتين من الدراما ، انتصرت العدالة على الجوع ، ثم انتقل الجميع إلى النادي المجاور إلى حفلة شراب استمرت حتى الصباح. وكان النادي هو المكان الوحيد في القنيطرة حيث يستطيع الضباط قضاء أمسياتهم . ولم يكن في المدينة نواد ليلية ولا مواخير ، كما أن عدم وجود أي مظهر

من مظاهر الحياة الثقافية كان يضطر العسكريين لقضاء أمسياتهم في مقاهي الأرصفة يلعبون الطاولة ، ويتناقشون في السياسة ويستمعون إلى الإذاعة ، بينما يحركون أصابعهم على مسابحهم . وكثيراً ما يذهبون إلى النوم باكراً ويستيقظون قبل الفجر .

واستضاف إيلي الفريق كله ، حيث تدفقت كمية كبيرة من المشروبات التي هي فوق طاقة كثير من الضباط المادية وكانت الأحاديث غير مقيدة ، وأثار إيلي اهتمام ضيوفه عندما عرفوا باطلاعه على قضايا عسكرية ليس من العادة أن يعرفها المدنيون . وفي المساء استأجر إيلي أحد المصورين الدروز فراح يلتقط صوراً للضباط من رتبة نقيب ورائد وعقيد .. الذين سرهم أن يحرص ثابت على تذكار فوتوغرافي لهذه المناسبة . وقبيل الفجر بقليل كان إيلي وحاطوم يدخلان إلى إحدى الغرف المريحة في نـادي الضباط .

وقد استطاع إيلي أن ينال بما أظهره من لطف وكرم إعجاب الضباط الصغار ، وذاعت شهرته بحيث سمح له في الصباح التالي باستخدام جهاز التصوير والتحدث إلى أي شخص في القيادة الجنوبية ، وهذا امتياز يخصون به عادة الزوار من الرتب العالية . واستطاع أيضاً أن يحصل على معلومات أمام خارطة جوية حيث رافقه أحد المرشدين إلى محطة الرادار التي بناها الجيش على تل في الطرف المقابل للقيادة . ثم قام برحلات إلى القواعد العسكرية المجاورة ، وحصل على إذن بتفقد التحصينات في القطاع الشمالي .

وفي اليوم التالي كلف أحد الضباط بمرافقة حاطوم وإيلي في جولتهم على الخطوط الأمامية ، وفي طريقهم اجتازوا مسعده وألقوا لمحة قصيرة على مغر الشعار Shaar ، وبعيداً إلى اليسار اجتازوا عين فيت . وبعد منعطف قوي ، ثم نزول كثير الإنحدار ، بدأت السيارة تتسلق الطريق باتجاه بانياس ، القرية الخضراء التي تكثر فيها الأحواض ومساقط المياه وهي تجري من النهر الذي سمي باسمها . ومن هناك يتجه الطريق غرباً

على خط مستقيم إلى جانب تل العزيزات ، هنا تعقبوا أحد الوديان مئات الياردات ، ثم راحوا يزحفون على طول سلسلة من الصخور مجاورة لمجرى المياه ، ثم يتجهون نحو الأعلى بطريقة لولبية فوق أرض خشنة كثيرة التعاريج . وسرعان ما وجد إيلي نفسه على مستوى الأرض في سهل مرتفع محاط بثلاث طبقات من الألغام والأسلاك الشائكة . وفي مخبأ رئيسي من الإسمنت المسلح تحت الأرض حياهما نقيب ثقيل الوزن أسود الشعر ، وهو من البعثيين المناضلين عاد مؤخراً من دورة تدريبية في كوبا ، وكان عليه أن يسافر بسرعة ليجتاز فصلاً خاصاً بالمدفعية في تشيكوسلوفاكيا . **وقدم إيلي إلى الضابط آخر المعلومات عن شؤون الحزب كما تلقى بدوره آخر المعلومات عن الخطة الدفاعية الخاصة بهذا الموقع .**

وتل العزيزيات هي من الحصون المركزية في المرتفعات السورية ، معلقة على رأس صخرة بركانية ذات ثلاث شعب ، ووراء حاجزه القنفذي حصون صغيرة من الإسمنت المسلح ، وخنادق إطلاق النار ، ومخابيء من الإسمنت ضد الدبابات والمدفعية ، ومخادع تحت الأرض للنوم والاستراحة ، وكل ذلك بني ليكون قادراً على الصمود ضد الغارات الجوية . وتتولى حماية التل قوة تتألف من مئتي رجل يضمون كتيبتين من المشاة المسلحة بقاذفات الصواريخ والبازوكا والرشاشات الخفيفة والثقيلة ، تدعمهم مجموعة من قادة الدبابات في مواقع ثابتة ، ووحدة صغيرة من مدفعية الميدان تشرف على مدافع تشيكوسلوفاكية عديمة الإرتداد ، وكذلك مدافع هاون ثقيلة . ويواجه الإسرائيليين إلى الغرب حزام الألغام والأسلاك الشائكة، تمتد في محيط ٦٠٠ قدم حول المجموعة الرئيسية . وهناك مراكز مماثلة في كل منها مئة رجل فوق سهل بانياس القريب ، وتل كونيلا على الجناح الشمالي وتل ياهير Tal Iaher وهو يرتفع سبعمائة متر إلى الأعلى في اتجاه الجنوب ، ويحمي مؤخرة القيادة في بانياس وماسادا . وكان تل العزيزيات يشكل حاجزاً دفاعياً في شمالي المنطقة المجردة من السلاح . ويدعم تحصيناتها خط ثان من رجال الحرس القومي الذين جاؤوا من القرى المجاورة ، وبطاريات للمدفعية الثقيلة بعد مرماها ١٥

ميلاً ، ومثبتة في تلال مغر الشعار وتل الحمرا وعين فيت التي كانت تطلق نيرانها بصورة منتظمة على المستعمرات الإسرائيلية في الجليل الأعلى ، ووادي الحولة الذي يمتد إلى الأسفل . ويواجه السوريين على الأرض الممتدة بين بحيرة طبريا وتلال كنعان ٣٨ مستعمرة زراعية، تم إنشاؤها من قبل مجلس الجليل الأعلى ، وهي تشكل حزاماً دفاعياً على الحدود يخضع إدارياً للقيادة الشمالية للجيش الإسرائيلي . وأمام هذه المستعمرات وعلى جانبها ومن خلفها مراكز دفاعية تقوم عليها وحدات مدربة من الفدائيين المشاة تابعين للواء الجولان ، ولد أكثرهم وشب في ظلال المدفعية السورية .

ومن القمة تبدو إسرائيل وقد امتدت كلها في الأسفل . فالمنازل المكعبة في دان وشرياشوف كانت تبدو وكأنها تحت قدمي إيلي . وأبعد إلى الغرب ، ووراء قطعان من غنم ترعى وتراكتورات تزحف على طول حقول محروثة ، كان إيلي يرى سطوح المنازل في دافنا وبرج مياهها . وإلى الجنوب على مرمى طلقة رصاص تقف مستعمرات وادي الحولة مكشوفة ومعرضة للسقوط بيد الأعداء .

ووراء حقول القمح في دان يوجد الوادي ، وهو مجرى لجدول ضيق تم تجفيفه . أما البستان الذي كان يجري خلال نهر دان، وهو المنتجع المفضل لرواد النزهة على الأقدام، فقد أصبح خالياً الآن. ويشاهد كذلك الخط ذو الثلاثة فروع من أشجار الصفصاف والبلوط والحور الذي يقود إلى متاهة من الخنادق الطولانية التي حفرت إلى عمق الخصر ثم جرى تمويهها من غير عناية بأغصان الأوكاليبتوس . أما الكيبوتز ذاته فقد كان يبدو على حالته ، غرفة الطعام ، بيوت الدجاج ، المدرسة ، وحتّى متحف التاريخ الطبيعي حيث كان يتفحص بإعجاب مع ناديا النماذج النادرة للحياة الحيوانية في إسرائيل . وكان الرجال والنساء في أحذية من المطاط يعملون في الحقول ، ويحصدون القمح ، ويقطعون قصب السكر ، ويقطفون القطن . وكان يرى بوضوح الفتيات الصغيرات في حدائق

التفاح وهن على السلالم الطويلة ، والصيادين المعرضين لضربات الجو ، وقد غاصت أقدامهم حتى الركب في برك تربية الأسماك وبنادقهم معلقة على أكتافهم .

أما منظر الحرج الذي يعرفه إيلي فقد خيم عليه هدوء خادع ، فالسوريون مشرفون على رؤوسهم من الشرق ، واللبنانيون من الشمال ، وأعضاء الكيبوتز هنا يعيشون في حالة حصار دائمة ، وكان كل ما يحميهم هو التأكيد بأن أي هجوم سوري سيجر وراءه رداً شاملاً من قبل القوات الإسرائيلية المرابطة على مقربة من المكان ، وأن التعزيزات لا تبعد سوى ساعات وكانوا يقضون أكثر الليالي في وضع دفاعي ، وينامون وبنادقهم إلى جانب فراشهم ، كما يؤمنون حرساً عسكرياً لرعاتهم وتراكتوراتهم ، وحصاداتهم .

وكان السوريون يمضون في مراقبة السكان ويرصدون كل تحركاتهم أربعاً وعشرين ساعة . وكانوا يعرفون متى يذهب عمال الكيبوتز إلى أعمالهم ، ومتى يأكلون ، ومتى يستأنفون العمل بعد الطعام ، وكانوا يتابعونهم بالمنظارات الثنائية إلى الحدائق ، ويراقبون الرعاة وهم يذهبون مع قطعانهم ، كما يفتحون عيونهم على التراكتورات التي تحرث الحقول المجاورة للحدود . ومن وقت لآخر يقصفون المستعمرات بالرشاشات الثقيلة ، أو يقذفونها بالبازوكا أو مدافع الهاون ، أو مدافع الميدان . وكان القصف يجري أحياناً بانتظام إلى درجة حملت سكان المستعمرة على تسمية القصف بـ « هطول الأمطار السورية » . وقد أصبح سكان الكيبوتز خبراء في التنبؤ بالقصف السوري ، ففي اللحظة التي يرى فيها مراقبوهم أن الرعاة العرب قد اختفوا يجمعون الأطفال ويذهبون إلى الملاجيء . (وقد تذكر إيلي جيداً الأطفال في دان فقد كانوا نسلاً موفور الصحة برغم ما يبدو عليه من إمارات الغم ، وذلك لأنهم فقدوا أفراح الطفولة إذ كانوا يقضون أكثر أوقاتهم في الملاجيء) . أما في الليل فإن إطفاء الأنوار كان ينذر بوقوع حادث ، ومتى امتنعت الأنوار عن الإضاءة أو أُطفئت في

الحواجز السورية عرف السكان أن القصف بات قريباً واستعدوا لقضاء الليل في الملاجيء المبنية من الأسمنت المسلح . وكثيراً ما تحققت مخاوفهم حيث استمر القصف السوري طوال الليل فدمر البيوت ، وحطم حظائر تربية الدجاج . غير أن سكان المستعمرة كانوا بعد كل هجوم يظهرون من جديد ، ويقومون بروح من الإيمان يوازي رسالتهم على إزالة الأنقاض من البيوت المخربة والعودة إلى بنائها من جديد .

ومن تل العزيزيات تابع إيلي وحاطوم السير على طريق بانياس — مسعدة المزفت . **وبالقرب من عين فيت كان جماعة من المستشارين الروس يقومون بتفتيش مواقع المدفعية البعيدة المدى التي صورها إيلي دون تدخل أحد** ، ويبدو أن هذا النشاط يمارسه الزوار من السياسيين . وقبيل المساء كان كلاهما في القنيطرة . ولكن قبل العودة إلى العاصمة توقف حاطوم عند حواجز القاعدة . وكان هناك مركز للشرطة العسكرية على طريق دمشق حيث شاهدا ضابطاً معروفاً من كليهما جرى توقيفه بسبب انحرافه السياسي قبل نقله إلى العاصمة . فوعد حاطوم بأن يبذل جهوده لإطلاق سراح الضابط ثم تابعا عائدين إلى دمشق .

وقام إيلي برحلة أخرى إلى الجبهة برفقة حاطوم ، وفي المرة الأخيرة ذهب أبعد إلى الجنوب حيث قام بتصوير المنشآت القريبة من قرى بير عشقوت والنقيب والكرسي. وشاهد في أسفل مواقع النقيب أسطولاً صغيراً من قوارب الصيد تنشر شباكها . وأبعد إلى الجنوب كان سهل جزريل الذي تمتد أرضه المسطحة الخضراء على عرض إسرائيل ، وكتب بعد ذلك يقول : « لقد هزتني تلك المأساة الجنوبية لهذه الحرب التي لا تهدأ بين سورية وإسرائيل » . فقد كان المزارعون في قرية الكرسي ، والصيادون في قرية عين غيف يبدون وكأنهم متماثلون . إنهم الآن أعداء لسبب واحد هو أن دمشق استمرت ١٥ عاماً في نشر الدعاية السامة التي خنقت أفضل غرائزهم . وقد سيطر على إيلي آنئذ شعور من اليأس ، وتمنى لوأن في استطاعته أن « يستولي على قارب يجتاز به المياه إلى منزله » .

لقد أصبحت بحيرة طبريا فجأة ، أحد المحيطات الواسعة الرهيبة الذي يفصله عن عائلته وعن أصدقائه . ومجرد شعوره بأن طريقه غير سالك حتى ولو كان مواطناً عادياً جعله يعود إلى نفسه فيتحقق أن عزلته شر لا بد منه « كنت أشعر أنني هناك كمنارة ترسل إشارات الإنذارات خلال الليل ، لأنقذ السفينة المسماة إسرائيل من الأخطار التي كانت تهددها » .

ومن خلال هذه الزيارات لم يزود إيلي تل أبيب ببيان عن سيرة ومؤهلات الضباط في القيادة الجنوبية فقط ، ولكنه أرفقها بصور فوتوغرافية ومخططات عن المخابىء المحصنة ، وحجيرات الاسمنت المسلح ، ومواقع المدفعية بالقرب من مغر الشعار وتل الحمراء ، وتل العزيزيات . كما استطاع من مشاهداته الخاصة والمعلومات التي أسر بها إليه أن يرفع تقريراً عن قوة وهوية الوحدات التي تشرف على الخطوط ، وقد كانت هذه المعلومات ذات ثمن لا يقدر بعد سنوات قليلة ، أي خلال حرب الأيام الستة .

وقد أصبح حاطوم ، كمعزى من قبله ، حليفاً غير مقصود ذا قيمة ضخمة. إذ لولا صداقة الرائد لاستحال على إيلي أن يحصل على كثير من المعلومات التي جمعها عن تحصينات الحدود . وكان يثق ببراءة أن حاطوم على الرغم من شكوكه الفطرية ، وميله إلى رؤية الجوانب المظلمة من تصرفات الآخرين فقد ظل ساذجاً تماماً بالنسبة لنيات إيلي الحقيقية . وعندما تأصلت صداقتهما سمح له إيلي أخيراً أن يستخدم منزله ـ على الرغم من أنه متزوج ـ كمكان للقاءات الغرامية سواء لفترات قصيرة أو لأشهر كثيرة عندما كان يسافر إيلي إلى خارج البلاد . ومما يدل على ثقته الكاملة بأن الرائد لن تراوده أية شكوك في هويته أنه عندما كان يخفي جهاز الإرسال والأشياء الأخرى الخاصة بالغرفة المظلمة قبل السفر إلى أوروبا كان يعرف أن تفتيشاً دقيقاً للمنزل سيكون مهلكاً ، غير أنه كان مطمئناً إلى استحالة حدوث ذلك .

وكثيراً ما كان يقضي حاطوم فترة بعد الظهر مع إحدى عشيقاته

في شقة إيلي التي كانت على بعد مرمى حجر من مكتبه . وكان يناوب بين موظفة جذابة تعمل في السفارة التركية وبين مغنية شعبية ممتلئة القامة اسمها لودي شامية . واجتمع الرائد بلودي لأول مرة عندما كان لا يزال يتولى قيادة الوحدة التي تحرس مباني الأركان العامة ومحطتي الإذاعة والتلفزيون القريبين . ولما كان يتولى حراسة أكثر المؤسسات السورية حساسية ، لذلك كان زملاؤه الضباط يخشونه ، كما عظم نفوذه في الحزب . وهكذا لم يجد أية صعوبة في إقناع مديري البرامج في التلفزيون بالاستفادة من مواهب لودي .

وساهم إيلي بتشجيع من حاطوم في ازدهار شعبية لودي ، فقد اتصل بمدير الاذاعة في دمشق يطلب الإكثار من برامجها في الاذاعة والتلفزيون، وراح يثني على جمالها ومواهبها الفنية أمام صديقه الجديد يوسف الخطيب المدير العام للاذاعة والتلفزيون . كما تحدث عنها لوزير الإعلام سامي الجندي وبذلك حصل على تقدير صديقه وعرفانه الدائم . ولم يكن إيلي في حاجة للإلحاح في الطلب بعد أن ارتفعت مكانته وازداد نفوذه في الحزب . وهكذا فإن الحكومة التي تملك محطة الإذاعة ضربت عرض الحائط بانتقادات الجماهير ، وأفسحت للودي من برامجها أكثر فأكثر إلى أن أصبحت وجهاً مألوفاً في برامج المنوعات .

وقد حظيت هذه الترتيبات بالنجاح من كل جانب فيما عدا المشاهدين الدمشقيين الذين كان بعضهم يرى أن صوت لودي لا يحتمل إلى درجة حملتهم على تأمين أشرطة هوائية أعلى لكي تلتقط أجهزتهم محطة القاهرة . وقد أثارت القصة الشعرية عن العلاقات بين لودي وحاطوم كثيراً من اللغط في أوساط العاصمة الرفيعة ، كما أن سلوكها أثار كثيراً من النقد في الحزب وفي الأوساط الدينية . وكان أمين الحافظ وزملاؤه الضباط يرون أن حاطوم قد أساء استعمال وظيفته فوجهوا إليه توبيخاً . ولم ينقذ الرائد من الطرد سوى أنه كان في مركز القوة .

واستفادت لودي من نفوذ حاطوم حتى أصبحت النجمة التي لا

تنازع في تلفزيون دمشق ، كما أن علاقتها بالرائد أدت إلى منحها لقب « بارومتر حاطوم » . وكان الدمشقيون من أصحاب النفوذ يعرفون أن الإذاعة ما دامت تدوي بأغاني لودي شامية ، وأن التلفزيون ما دام يعرض على شاشته وجهها الملائكي لساعات طويلة ، فإن معنى ذلك أن منزلة حاطوم في الحزب لا نزاع عليها . أما عندما تقتطع برامجها فإن لذلك أحد معنيين فإما أن الحزب قد تعرض في داخله مجدداً لنزاع شديد على السلطة ، أو أن الرائد قد ناله الخزي والهزيمة .

وبالإضافة إلى حاطوم وجورج سيف ومعزى الذين كانوا يستخدمون منزل إيلي لشؤونهم الخاصة فقد انضم أخيراً ضابط جديد إلى هذه الحلقة وهو العقيد صلاح الضللي، وهو من المحسوبين على أمين الحافظ ، وعضو في اللجنة المركزية للحزب . وقد أصبح هذا من الضيوف الذين يترددون على منزل إيلي . وفي فصل الشتاء الثاني الذي قضاه إيلي في دمشق كان جرس الهاتف يرن في الصباح الباكر من قبل واحد من هؤلاء الأصدقاء وهو يستعلم عما إذا كان في إمكانه أن يصطحب رفيقته إما في فترة الظهر أو بين الخامسة والسابعة مساء . وكان إيلي كعادته يضحك متسامحاً وواعداً بتقديم الخدمة . وكان يترك مفتاح الشقة تحت ممسحة الأرجل عند الباب . ويذهب قبل قليل من وصول الزائر مع صديقته المعتادة أو الصديقة التي تسوقها الصدف . وكان جورج سيف وسكرتيرته ريتا الخولي ، وهي سمراء ممتلئة من أصل قروي من الزوار النظاميين ، أما صلاح الضللي فكان يستضيف مضيفة إيطالية من الخطوط الجوية السورية التقى بها في حفلة ساهرة أقامها إيلي بعد عودته من أوروبا .

وقد كان سلوك إيلي غير المتحفظ موضع تقدير لأن البعثيين ، وحتى ذوي الاتجاه الماركسي ، كانوا يرون من الضروري أن يبتعدوا في أعين الرأي العام عما حرمه الإسلام وخاصة حرية الجنس التي كان الجيل السابق صارماً في مكافحتها . لقد سبق لتعدد الزوجات واقتناء الخليلات أن ازدهر في دمشق — ولو أن هذا قد زال في الخمسين سنة الأخيرة —

غير أن قواعد التهذيب لم تتهاون مطلقاً تجاه السلوك العام غير اللائق . فليس في الإمكان استخدام الفندق للقاء غير شرعي ، وليس في المدينة أية مواخير . وقبل أجيال عديدة كانت المرأة التي تسير في الشارع بدون حجاب تعتبر عاهرة ويمكن أن تذبح دون أي خوف من العقوبة . ومنذ ذلك الحين لم يتغير وضع المرأة كثيراً . فأكثرهن لا يستطيع الحديث مع الرجل ولو في لقاء عرضي ، كما أن كثيرات لا يرين الرجل على صعيد اجتماعي لأن ذلك قد يؤثر على سمعتهن . والمرأة التي سبق أن مسها رجل آخر تعتبر غير أهل لأن تصبح عروساً ، ولا يستطيع رجل أن يظهر مع فتاة في المجتمعات إلاّ بعد الخطوبة ، والذين يفعلون ذلك هم الجيل الجديد والأكثر استقلالاً ، وعادة يكونون من خريجي الجامعات ومن الفتيات اللواتي نبذن الحجاب والأفكار العتيقة واخترن الحياة في الضواحي الحديثة في المزة على الطريق إلى المطار الدولي .

والحب الرومانتيكي ليس سائداً في المجتمع السوري ، فعمليات الزواج يجري ترتيبها بين والد الفتاة وطالب اليد . وقيمة المهر تزداد بنسبة جمال الفتاة ، وكثيراً ما يشكو الشبان بمرارة من أن الآباء يطلبون ثمناً لبناتهم يعادل ما أنفقوا عليهن منذ ولادتهن . وبعد الزواج تحال الزوجات إلى وضع أدنى إذ لا يستطعن مغادرة بيوتهن عندما يشأن ، ولا يتكلمن إلا نادراً مع أصدقاء أزواجهن بل ولا يتحدثن مع أزواجهن بالذات على مرأى من الآخرين . والرجال لا يتحدثون مطلقاً عن زوجاتهم ويعتبر السؤال عنهن من قبل أحد الأصدقاء بمثابة إهانة .

وهذا الوضع الأدنى أو هذا التمييز ضد الزوجات في سوريا ــ الذي كان يعتبره حاطوم وجورج سيف وغيرهما حالة تبرر لهما الانغماس في الشهوات ــ لا يمكن أن يبرر لقاءهما مع التلميذات والموظفات اللواتي كانا يعاشرانهن . وسوريا هي من البلدان التي لا يزال المخبرون السريون فيها ينقلون أخبار لقاءات الجنسين المتحررة إلى آبائهم . كما أن القبلات البريئة علانية قد تسوق أصحابها إلى السجن . وعلى قادة حزب البعث

خاصة أن يحافظوا على مظهر خارجي من الزهد والتقشف يليق بالحزب الثوري . والشائعات عن العبث الجنسي المفضوح ليس هو الدعاية المفضلة لنظام أعلن إيمانه بالتقشف وهاجم انغماس الطبقة الممتازة بالانحرافات والرذائل .

وكان لدى إيلي ، عدا ما أودعه من دين في رقاب هؤلاء الأصدقاء ، سبب آخر للسماح لهم باستعمال شقته . فقد استخدم حاطوم الشقة لاجتماعات كان يعقدها مع الضباط الدروز واليمنيين من حزب البعث الذين ينتمون إلى جناحه ، وجميع هؤلاء كانت تجمعهم الكراهية والاحتقار للمستشارين الروس المتغطرسين أساتذة وفنيين من أفراد البعثة العسكرية السوفياتية .. وكان الضباط يجتمعون في غرفة إيلي الخضراء ، وهي عبارة عن ردهة واسعة آحادية اللون ، ومجهزة تجهيزاً غنياً ، فيتحدثون فيها دون عائق . وكانوا لا يعرفون طبعاً أن إيلي قد أقام وراء الجدران جهاز تسجيل ، وكاميرا للتصوير الأوتوماتيكي ذات أداة للتوقيت . وفوق كل هذا فقد تبين لإيلي أن هذه الوثائق يمكن أن تستخدم لأغراض الابتزاز في أية مؤامرة محتملة ، وفي المواقف الحرجة .

في بلد تعتبر فيه الموارد المالية عاملاً حاسماً في أهلية الزوج ، كان إيلي يعتبر أكثر العزاب كفاءة للزواج . وقد حاول كثيرون من أصدقائه أن يزوجوه ، وخاصة من شابات جميلات هاجرن من الارجنتين . وقد حباه سحره وجماله ومركزه السياسي بجاذبية لا تقاوم . وقد تاجر بكل هذه المزايا في سبيل أغراضه الخاصة . وقد أبدى عدد من السكرتيرات في وزارة الدفاع ، وكذلك امرأة شابة تعمل في مديرية الإذاعة والتلفزيون اهتمامهن به . وهو وإن لم يشجعهن بصورة مكشوفة ولكنه كان يعاملهن بحرارة كافية لنيل محبتهن ، والحصول على نتف من المعلومات التي كانت في متناولهن . وكان بعض الفتيات يرغبن في المساعدة على تقدمه في الحقل السياسي ويرون أن من واجبهن أن يأتينه بنسخ إضافية عن الرسائل التي يكتبها رؤساؤهن .

وقد تورط إيلي ، ولكن بصورة أعمق مع فتاة شابة اسمها صالحة ، وهي علاقة كانت ستسبب له أخيراً كثيراً من المخاوف لتعارضها الواضح مع حياته الأخرى . وكان والدها أبو محمود من كبار ملاكي الأراضي قبل أن يتولى البعث زمام الحكم في البلاد ، أما الآن فهو لا يزال يملك عدداً من الدكاكين بالقرب من سوق البزورية. وأبو محمود هو صديق حميم لشيخ الأرض تعرف عن طريقه بإيلي وتأثر به كثيراً حتى قامت بين الرجلين صداقة حقيقية بحيث كانا يقضيان أكثر أمسياتهما معاً . وكان أبو محمود يرافق شيخ الأرض وإيلي إلى حمام الجوزة ، وهو من أقدم الحمامات في دمشق ، وكثيراً ما كان يساعد ثابت على شراء أحسن الصفقات التي يبيعها تجار التحف الدمشقية . وكان في بعض الأحيان يستاء من تردد إيلي في اللحاق به عندما يؤدي فريضة الصلاة في جامع سنان باشا **Sinan Pasha** غير أن كليهما كانا يجتمعان يومياً تقريباً في قهوة حيث يمضغ أبو محمود الفستق المملح أو يدخن النرجيلة ، بينما يلعب بالطاولة ويتناقش بدون توقف في المواضيع السياسية . وكان يقف عادة في الصف المناهض لحزب البعث الذي جرده من أكثر ممتلكاته ، كما يعلن بطريقة غير مقنعة أنه سيهاجر من سورية في وقت قريب. وفي إحدى المرات حاول أبو محمود أن يستفيد من نفوذ إيلي في الحزب وعرض عليه عشرة آلاف دولار إذا تدخل لمصلحته في وزارة الإصلاح الزراعي . غير أن إيلي « كعضو مخلص لحزب البعث وللثورة » رفض هذا العرض بلباقة .

وبرغم ذلك فقد وجد أبو محمود في إيلي الزوج المرجو لابنته فعرفه عليها ، وهي فتاة في منتصف عشريناتها تبدو عليها البساطة ولكنها جميلة ، شعرها خرنوبي قاتم ، وعيناها بنيتان . كيف كانت مشاعر إيلي نحو صالحة ؟ لقد ظل هذا أمراً مجهولاً ، ولكن بينما كان من غير الضروري لعمله أن يبدو مهتماً بامرأة اهتماماً كبيراً فإن هذه العلاقة أعطته قدراً إضافياً من الاستقرار ربما عادل في أهميته العمل التجاري الذي يقوم به . وكان يزور صالحة وعائلتها في منزلهم الوثير الذي بني

على الطراز العثماني في القسم الجديد من مدينة دمشق شمالي شارع الشهداء ، وكان دائماً موضع ترحيب وكانوا يدخلونه إلى الإيوان ويقدمون إليه القهوة تارة صالحة ، وتارة أمها ، وهي امرأة ثقيلة الوزن ، وقليلاً ما تتكلم . ثم تعمر المرأة النرجيلة ويبدأ التدخين والحوار السياسي التقليدي . وبعد إعلان خطوبتهما كانا يشاهدان معاً في كثير من الأحيان . وكانا يقومان برحلة على ضفاف بردى ، ويشاهدان من وقت لآخر فيلماً مصرياً أو هندياً ، أو يسهران في نادي الأوريان بالاس في شارع الحجاز . وفي عطلة نهاية الأسبوع يسافران إلى منتجع صيفي في بلودان أو في جبل لبنان . ويذهبان أحياناً إلى بيروت أو إلى الغوطة شرقي دمشق ، غير أنه كان يصحبهما دائماً والد صالحة أو أخوها .

وقد تعلقت الفتاة بإيلي إلى حد كبير ، وعندما بدأت تشك فيما يجمعه من معلومات لغرض ما ، حملت نفسها على الاعتقاد أنه يريد أن يرفع من منزلته السياسية ، وكانت تزوده ببعض المعلومات التي تحصل عليها من صديقاتها الموظفات . وما كان لعلاقاتهما أن تظل عارضة لوقت طويل ، لذلك أصبح شيخ الأرض ووالد صالحة أقل لباقة في مطالبته بالزواج من الفتاة . غير أن إيلي بعد أن اتصل بتل أبيب قرر أن يماطل بقدر الإمكان قبل أن يخطو الخطوة النهائية .

المعمل ٣٣٣ لصنع الصواريخ

وفي ربيع عام ٩٦٣ روع إيلي عندما اطلع في الصحف الفرنسية على أن ايسر هاريل Iser harel استقال من رئاسة الموساد « المخابرات الإسرائيلية » والمسؤول عن مصالح الأمن بعد نزاع مر مع رئيس الوزراء بن غوريون حول نشاط الموساد الخاص بالفنيين الألمان الذين يعملون في مصر . وكان إيلي يعرف عن مساعي الموساد للبحث عن العلماء والفنيين الألمان الذين يعملون على تطوير شؤون الطيران وصناعة الصواريخ منذ أيام الملك فاروق . وقد مدد محمد نجيب وعبد الناصر عقود هؤلاء ، غير أن الوضع الاقتصادي المهتز في البلاد ، وقلة الاختصاصيين من العرب ، وتردد الروس في تقديم المساعدة ، كل ذلك قطع الطريق على أية إنجازات أساسية في هذا السبيل . ومع ذلك فإن عبد الناصر بعد إطلاق الروس لأول صاروخ إلى الفضاء الخارجي قرر بذل مجهودات شاملة لبناء صواريخ بعيدة المدى ، ووضع هذا المشروع بين يدي ضابط حميم يثق به ثقة مطلقة هو العقيد محي الدين خليل رئيس مخابرات القوات الجوية بعد أن وعد بأن هذا العمل لن تنقصه الأموال بعد اليوم .

وقد قام في حساب خليل أن مصر بدون مساعدة الروس ليس لها خيار سوى البحث عن الفنيين الألمان ، وصدرت الأوامر إلى الملحقين العسكريين في أوروبا بتمشيط القارة بحثاً عن الخبراء الراغبين في التعاون . وفي ربيع عام ١٩٦٠ وصل إلى القاهرة مجاهرة على ظهر اللوفتهانزا كوميت رقم ٤ عدد من الخبراء الألمان البارزين في صناعة الصواريخ بعد أن ضمنت لهم رواتب مجزية . وكان بين القادمين الدكتور بول غورك ، وهو مهندس سابق في الطيران الألماني عرف بإنجازاته في الرادار وفي الأشعة تحت الحمراء . والدكتور وولف غانغ بيتلز وهو مخطط للصواريخ

الموجهة ، والبروفسور أوجين سانغر مدير مؤسسة النفاثات في شتوتغارت ، ومديره المهيب الدكتور هاينز كروغ . وبعد فترة قصيرة جرى اختيار مكان يبعد عشرة أميال شرقي العاصمة حيث طورت الأسلحة الجديدة . ولم يضيع خليل أوقاته ، **فقد كان ينقل كل يوم بالشاحنات خمسة آلاف فلاح إلى المنطقة وفي خلال شهر واحد ، وبثلاث ورديات عمل في الأربع والعشرين ساعة ، استطاع أن ينشيء من المباني التي تشبه المستودعات أطلق عليها بالشيفرة اسم (المعمل ٣٣٣)** ، كما بنى شارع اتصال مع الطريق العام بين المركز والمطار الدولي . وبينما كانت مجموعة معمل الصواريخ ترتفع على رمال الصحراء أعدت منطقة الإطلاق بكامل طرقها ومعاقلها وجسورها على بعد أربعين ميلاً غربي القاهرة . وعندما أعدت جميع التسهيلات ، وصلت حمولة طائرة من الخبراء الألمان ، بعضهم مع عائلاتهم ، واستقروا في قرية جديدة تقع قرب المعمل ٣٣٣ .

وفي أقل من سنة واحدة، خرج من الصحراء نوعان من صواريخ أرض– أرض تحمل الرؤوس التقليدية : « الظافر » وقد صنع على غرار النموذج الفرنسي (فيرونيك) وهو يحمل ٤٠٠ باوند من المتفجرات ومدى إطلاقه ٢٣٠ ميلاً ويمكن إطلاقه من قواعد متحركة . و « القاهر » الذي صنع على غرار الصاروخ الألماني ف ٢ حمولته طناً من المتفجرات وبعد مداه ٣٧٠ ميلاً ولكن لا يمكن إطلاقه سوى من قواعد ثابتة (١) .

---

(١) انشاء معمل الصواريخ الضخم هذا كان من الانجازات الرائعة ، وقد فاخرت به الثورة المصرية ، وقامت حوله دعاية عريضة رنانة ولكن سرعان ما انطفأ ذكر هذا المعمل ، ولم يعد يجري شيء من اخباره او انجازاته على ألسنة القادة المصريين على شدة رغبتهم في التحدث العلني حتى عن أدق الأسرار العسكرية . فما السر في ذلك ؟ هل اقفل المعمل أبوابه بعد الحملة الارهابية التي شنتها الصهيونية على الخبراء الألمان ؟ واذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يحل خبراء روس محل الخبراء الألمان ؟ أم ان هذه الصواريخ هي من الأسلحة الهجومية التي لا يسلم الروس للمصريين بحيازتها وتطويرها شأنهم في ذلك شأن الاميركان بلا تفاوت ولا تفاصيل ؟ والواقع أن المعمل رقم ٣٣٣ كلف ملايين ضخمة في إنشائه وتغذيته بما يحتاج من فنيين ومواد أولية ، ولو أنه ظل يعمل ويتطور لسد حاجات إساسية من حاجات العرب في معركتهم مع الصهيونية . ولكن انطفاء ذكر هذا المعمل ليس سوى دليل واحد من أدلة كثيرة على التعاون السري القائم =

أما ما كان يقلق الإسرائيليين فهو أن النفقات الباهظة والجهود التي تبذل على المشروع لا يمكن أن تكون لمجرد تطوير الأسلحة للحرب التقليدية . وهم يعلمون أن التنظيمات الإرشادية للصواريخ لم تدخل عليها التحسينات الكافية لتستخدم ضد الأهداف العسكرية . ويمكن لهذه الأسلحة أن تطلق فقط ضد المراكز المدنية . ومع ذلك فإذا كان هذا هو هدف المصريين فقد كان في وسعهم أن يستخدموا بسهولة أكثر قاذفات الأليوشن التي يتلقونها من الإتحاد السوفياتي فهي تحمل كميات أكبر من الصواريخ ، وهكذا بدا واضحاً أن ناصر كان ينوي في آخر الشوط أن يسلح الصواريخ برؤوس نووية .

وكان ما علمه الموساد في وقت لاحق عن طراز الرؤوس الحربية التي أراد المصريون استعمالها مثيراً للقشعريرة . فقد اتصل الدكتور اوتو فرانز جوكليك وهو نقيب سابق في الوير ماخت ثم سكرتيراً في المنظمة النازية السرية في التيرول عاد مؤخراً من القاهرة ، اتصل بعملاء الموساد في أوروبا على غير توقع . وكان ما قاله ان اختصاصياً نمسوياً بارزاً بالراديو وأشعة إكس ، وعميلاً لمديرية المشاريع الخاصة في مصر التي يتولاها محمود خليل الذي يدعي تمثيل مختبر جديد لأبحاث السرطان في مستشفى القاهرة المركزي اتصل به لشراء كميات كبيرة من النشاط الإشعاعي « كوبالت ٦٠ » للقيام بالتجارب الطبية . وأكد له المصريون أنهم سيدفعون له مبلغاً محترماً مكافأة لخدماته . وبعد اجتماعين آخرين اتفق الفريقان على أسلوب للتسليم ، وفي أشهر قليلة بدأت ترد إلى القاهرة أسطوانات رصاصية تشتمل على مادة الكوبالت ٦٠ . وهنا دعي جوكليك إلى القاهرة حيث قدمت اليه إيضاحات عن المشروع الحقيقي وطلب اليه أن يزود المؤسسة بشحنات إضافية . والخطة الرئيسية التي كان اسمها بالشيفرة مشروع ايبس « **Ibis** » تستدعي تزويد الطيران المصري بتسعمائة

= بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة على خط سيرهم في معاونة إسرائيل كل فريق بطريقته التي اختارها . (المعرب)

صاروخ من النوعين لكي يأتي بعدها صاروخ بعيد المدى طول مرماه ٥٩٠ كيلومتراً اسمه الرائد ، كل ذلك مع رؤوس حربية ذات نشاط إشعاعي . فرفض جوكليك التعاون أو الاستجابة ، ولدى عودته إلى أوروبا اتصل بالموساد وعرض عليهم كدليل على صحة أقواله الخطط والفواتير ووثائق الشحن التي تغطي تصدير كميات من الكوبالت ٦٠ أضخم بكثير مما يلزم للإستعمال في الأغراض الطبية .

أما عمال إسرائيل في مصر الذين أخطروا بالتحركات الرامية لتطوير رؤوس حربية مدمرة فقد أكدوا رواية جوكليك . وأصبحت القدس الآن أمام قرار صعب يقتضي اتخاذه . فالموقف يقتضي نداء ذعر يوجه إلى الرأي العام العالمي ، وحتى طلباً لتدخل هيئة الأمم المتحدة كي توقف هذا البناء المصري في السلاح الجوي : أبحاث الذرة ، برامج الصواريخ ، مشاريع الحرب الكيماوية والميكروبية . غير أن الإتهامات الخاصة بالحرب الذرية لا يمكن اعلانها بدون الاستناد إلى براهين معقولة ، والحصول على أدلة تكشف عن المصادر التي أمكن الحصول منها عن هذه المعلومات الأمر الذي يعرض لخطر كبير نشاط شبكة الموساد في مصر . وكان الثمن ، بكل بساطة ، عالياً جداً . فلم يكن جوكليك شاهداً يعتمد عليه لكي يستخدم في هجوم إعلامي . وإلى جانب ذلك فقد كان هناك خطر بأن لا يصدق أحد قصة ضخمة من هذا النوع . وعند ذلك استبعدت فكرة الدعاية المفتوحة ونداءات النجدة كحل لهذه المشكلة .

وهنا قرر عملاء الموساد وضع خطة للعمل . ولما كان أكثر الخبراء الألمان في المعمل رقم ٣٣٣ لا يعرفون شيئاً عن طبيعة المشروع المصري الذي يدعى ايبس « Ibis » لذلك قرروا القيام بعمليتين متوازيتين : توجيه نداء إلى الخبراء غير النازيين للامتناع عن الاشتراك في مذبحة جديدة ضد اليهود ، وشن حملة إرهاب ضد النازيين المتصلبين من الجيل الجديد، وتهديدهم بأعمال العنف، وتقرر أن يبعث بالرسائل في الحالتين من أقارب للخبراء الألمان في أوروبا الغربية . وسرعان ما قام عملاء

إسرائيل بزيارة عائلات الموظفين الألمان الذين يعملون في المعمل رقم ٣٣٣ وأحاطوهم علماً بالخطط المصرية الرامية لإبادة الدولة اليهودية ، ثم طالبوهم أن ينقلوا تهديدات الموساد المبطنة وبعض الأحيان المباشرة إلى القاهرة وذلك لتجنب أية أحداث غير مستحبة .

غير أنه لم يكن للتهديدات ولا لنداء الضمير أي رد فعل مباشر ، ولم يغادر أي ألماني المعمل رقم ٣٣٣ . وأطلق المصريون بنجاح صواريخهم واستعرضوها بمظاهرات الابتهاج في استعراض الذكرى العاشرة للثورة . وقال عبد الناصر مفاخراً بلهجة تنقصها الدبلوماسية : « إن صواريخنا قادرة على الوصول إلى أية نقطة تقع جنوبي بيروت » ، وقد فهم العالم كله من هذه الكلمات أن الهدف هو إسرائيل .

وأصدرت الموساد أوامرها بشن حملة من الإرهاب . وفي صباح ذات اليوم أعلن أن الطائرة الخاصة التي تحمل زوجة حسن كامل عميل الشراء لعبد الناصر في أوروبا قد تحطمت في وستنغاليا فقتلت مع الطيار . أما الدكتور كروغ فقد ترك مكتبه ذات صباح في مؤسسة « التوجيه النفاث الجوية » Jet Propulsion Institute ولم يشاهد بعد ذلك ، وقد عثر على سيارته المهجورة على بعد عدة كيلومترات من منزله في ميونيخ . وهانس كلينغوا تشر رئيس مختبر في لوراش كان يزود المعمل ٣٣٣ بالقطع التبديلية ، قطعت عليه طريقه سيارة ذات بابين وخرج منها رجل أدخل مسدسه في السيارة وأرسل طلقة مباشرة . ولم تعثر الشرطة على السيارة ذات البابين إلا في فينا . وأرسلت رسالة قنبلة إلى الدكتور بليتز ففتحتها سكرتيرته وأصيبت بجراح بالغة . وقتل عدد من الخبراء الألمان برزم بريدية تلقوها من ألمانيا . وعندها انتشر الذعر بين الألمان في القاهرة . وعندما راحوا يتلقون رسائل تهديد مصدرها القاهرة سارع كثيرون منهم إلى مغادرة مصر .

وكجزء من حملة الترويع هذه التقى جوكليك ، يرافقه عميل من الموساد كان يدعو نفسه جوزيف بن غال بابنة الدكتور غورك في بال

وحاول إقناعها بأن تقنع والدها بمغادرة مصر . وأمرت الشرطة السويسرية بتوقيف الرجلين بعد شكوى قدمتها الفتاة ، واتهمتهما بالأعمال القسرية وبالتجسس لصالح دولة أجنبية. وقد أدت محاكمتهما الى الكشف عن بعض عمليات المخابرات الإسرائيلية التي كان يقوم بها هاريل ضد الفنيين الألمان . وعلى كل حال فإن شهادة هاريل أثارت الرأي العام العالمي ، وعادت بنتائج تتجاوز كل تصور . فقد حاول أن يشتري من الكوبالت ٦٠ ما تفوق قيمته الأربعة ملايين دولار ، وهذه الكمية هي ثلاثة أضعاف الكمية اللازمة من النشاط الإشعاعي للقضاء على سكان إسرائيل ، وجعل البلاد غير قابلة للسكن لمدة خمس سنوات على الأقل ..

وقد أدت الأمور التي كشفت عنها هذه المحاكمة إلى قيام الضغينة بين بن غوريون وهاريل حول طريقة المعالجة لموضوع الصواريخ . وحتى أوائل الستينات كان رئيس الوزراء يكن لهاريل الصغير شعور الاحترام ، وكان يعتبره من أخلص مستشاريه . وقد سبق لهاريل أن نفذ لبن غوريون مهمات خاصة في أوروبا وفي البلدان العربية ، كما قاد شخصياً عملاء الموساد في عملية اختطاف إيخمان . وقد ساءت العلاقات بينهما عندما كشف التحقيق الذي قام به الشن بيت **Shin Beth** – وهي مصلحة مكافحة التجسس في إسرائيل – أن إسرائيل باير وهو المؤرخ الرسمي في الجيش الاسرائيلي ، وأحد مستشاري بن غوريون العسكريين وصديقه الحميم ، كان يتجسس لحساب روسيا خلال العشرين سنة الأخيرة . واتسعت شقة الخلاف أكثر من هذا عندما انضم المسؤول عن الموساد إلى جماعة من حزب الماباي كانت تحاول إزاحة بن غوريون . غير أن رئيس الوزراء الذي يعرف أن إنجازات هاريل كانت فوق أي لوم احتفظ به في مركزه واستمر في الاعتماد على نصائحه في شؤون المخابرات ، حتى ذلك اليوم الذي وضع فيه هاريل ملف الخبراء الألمان على مكتب بن غوريون معلناً أن لديه أدلة لا ترد على أن مصير إسرائيل كله هو في الميزان .

وفي بداية الأمر تمشى بن غوريون مع مخططات هاريل لتخويف

أو إذا اقتضى الأمر لتصفية الخبراء الألمان الذين كانوا يعملون على تدمير إسرائيل . غير أنه بعد حادث بال ، لاحظ رئيس الوزراء أن عمليات الموساد وبيانات هاريل عن الموضوع تثير الغضب في بون ، راح يخشى من تقويض العلاقات مع ألمانيا الغربية . وعندما اقترح رئيس الموساد أن يتصل بكونراد أديناور ليطالب حكومته إما باستدعاء الخبراء الألمان أو اتخاذ تدابير أُخرى ضدهم ، رفض بن غوريون هذا الطلب بصورة قاطعة .

وكان رئيس الوزراء موقناً أنه غير قادر على أن يدخل مع أديناور في عملية كشف أوراق حول هذا الموضوع بالذات . فقد كانت ألمانيا الغربية ممولة إسرائيل الأولى بالأسلحة الحربية ، وكان بن غوريون يتبنى سياسة تهدئة مع بون ، وعدا عن هذا فهو لم يكن يشارك هاريل رأيه في أن إسرائيل تواجه أي خطر أساسي . ولكن حتى لو أن العلماء الألمان كانوا يشكلون خطراً محتملاً على إسرائيل فقد كان عليه أن يطالب بوقف هذه العمليات . غير أن هاريل استمر في التأكيد بأن الألمان في القاهرة يمثلون خطراً حقيقياً على إسرائيل . وعندما استدعي من رحلة إلى أوروبا وطولب بأن يفرغ ادعاءاته بشكل أدلة حسية أجاب غاضباً : « إن خلفي هو الذي سيؤمن لكم الأدلة الحسية » ، وفي صباح اليوم التالي وجد بن غوريون على مكتبه كتاب استقالة قاطعة من ايسر هاريل .

ولم يتأخر هاريل عن دخول الحياة السياسية ليطرح على الرأي العام مآخذه على رئيس الوزراء ، فاتهم بن غوريون بمسايرة الألمان ، وهي سياسة لا تغتفر بل وتعتبر إهانة في نظر اليهود الذين عاشوا جيل اوشويتز . وكان هاريل يشعر أن رفض الرجل العجوز لتقديراته أثبتت أن الحكومة لا تقابل بالجميل أولئك الذين يخاطرون بحياتهم لإيقاف مشروع الصواريخ المصرية . ولكن مهما كانت استنتاجات رئيس الوزراء من المعطيات الأساسية ، فقد كان يبدو أنه سلك في أقل الاحتمالات سبيل المجازفة . وأخيراً غادر العلماء الألمان المعمل رقم ٣٣٣ لأسباب أدبية أو بدافع من

الخوف ، والصواريخ المصرية لم تسلح أبداً بالنشاط الإشعاعي « الكوبالت ٦٠ » الذي حاولت التعاقد على شرائه .

غير أن الأثر القصير المدى لهذه القضية ، وهي آخر قضية في سلسلة ما عرف بالقضايا المشهورة **Causes celebres** ، كان مدمراً بالنسبة لرئيس الوزراء . ولما كان الرأي العام الإسرائيلي في جانب هاريل لذلك تقوضت مكانة بن غوريون إلى درجة تدعو إلى اليأس : فبعد استقالة هاريل بأشهر عديدة ، تخلى بن غوريون عن منصب رئاسة الوزارة ووزير الدفاع إلى ليفي أشكول ، وانسحب إلى منزله في مستعمرة صحراوية اسمها سيدي بوكر **Sde, Boker** أما إيسر الصغير فقد أنهى بقضية الصواريخ سبعة عشر عاماً من أعمال المخابرات ، وهي أعمال وإن امتازت بالميكيافيلية ، إلاّ أنها زادت في رصيد التجسس للمخابرات الإسرائيلية : الموساد .

وكان فضول إيلي يدفع به إلى التساؤل : من الذي سيخلف هاريل ؟ ومع ذلك لم يستطع قبل عودته إلى إسرائيل أن يعرف من الذي يقوم على إدارة المهمة المكلف بها . وفي الاجتماع الأسبوعي لمجلس الوزراء ، بعد استقالة هاريل ، أخبر بن غوريون الوزراء أن الشخص الذي اختاره ليحل محل هاريل هو الميجر مايير آميت . ولم يفاجيء تعيين آميت جماعة المخابرات لأنه رئيس المودين ، ولأنه الضابط الثاني من حيث الرتبة في مصالح المخابرات .

وآميت رجل طويل القامة عمره ٤٩ عاماً ، قضى أكثر أيام حياته في خدمة الجيش . وهو فلسطيني أصيل « سابرا » . ولد في طبريا من والدين روسيين هاجرا إلى إسرائيل . ودرس الزراعة في غيفات هاشلوشا ، وتخرج من كلية « بلفور غيمتازيوم » في تل أبيب ، حيث انضم إلى حركة الهاغانا السرية . وعندما حصل على الشهادة انضم إلى الكوبيتز الونيم حيث التقى بزوجته يونا ، وأمضى معها الإحدى عشرة سنة التالية . وقد خدم كسلفه في شعبة الشرطة لليهود المساعدين قبل أن يكرس كل أوقاته

للعمليات السرية .

وفي حرب ١٩٤٨ قاد آميت كتيبة وحصل على شهرة مبكرة بشجاعته . ثم قاد في وقت لاحق سلاح الكوماندو الميكانيكي ضد السوريين ، كما قاتل العراقيين ، وبعد أن شفي من جراح أصابته على جبهة الأردن تعقب المصريين حتى إيلات . وفي هذه الحرب قاد لواء الجولان المشهور ، إلى أن قررت القيادة العامة أنه أقدر على القتال من وراء مكتبه . وعندما تأثر القائد العام موشي ديان بطاقاته التاكتيكية عرض عليه فرقة العمليات .

وبينما كان يتولى آميت القيادات الاقليمية ، تعرض بحياته العملية كلها إلى خطر نهاية مفاجئة ، عندما أصيب بجراح خطرة أثناء مناورات للمظليين في النقب . وقد سببت الفترة الطويلة التي انقضت قبل نقاهته إعفاءه من واجباته فقرر البحث عن عمل آخر . فتسجل في جامعة كولومبيا في نيويورك ، وبعد عامين حصل على درجة أستاذ في شؤون الإدارة . ولكن عندما اتصل بالقائد العام الجديد إسحق رابين أنه يبحث عن عمل صناعي ، عرض عليه قيادة المخابرات العسكرية . ومن هنا طوى طريقه إلى الموساد بسرعة فائقة .

وقد اعترف آميت أن الانتقال من قيادة الميدان إلى أعمال المخابرات لا يحدث بدون صعوبات . وكان آميت أقل اشتعالاً وأوتوقراطية من سلفه .. كان حيياً ذا مزاج هادىء ، تصعب إثارته ، غير أنه كان برغم ذلك ساخراً كثير الشكوك بالدوافع عند الآخرين . وكان يخالف هاريل في تجنب الاحتفاظ بسجلات عن قرارات ونشاطات مصلحة المخابرات ، ولذلك أمر بإحضار موظف اختزال ليحضر كل الاجتماعات ويصنف بعناية كل وثائق الموساد . وكان يؤمن إيماناً ثابتاً بالوسائل العلمية . ولم يكن يقاسم هاريل ذوقه في قصص الجاسوسية . وآميت هو الذي وضع قاعدة التعيين في المخابرات للطلاب الجامعيين ، ورفض استخدام الاسرائيليين ممن لهم سوابق إجرامية ، وتلك قاعدة كانت متبعة في الماضي . وكان يفضل تدريب الرجال من ذوي الأخلاق المتينة على أن

يروض اللاأخلاقيين ممن يضعون مصالحهم الخاصة في المقدمة . وكـــان النموذج الذي يريده لموظف المخابرات هو أن يحسن عدة لغات ، وأن يكون مخبراً ماهراً ، منفتحاً اجتماعياً ، ومصقولاً بسيكولوجياً . ولهذا كان آميت ينهي تمرين المدربين عندما يلاحظ إهمالاً أو عدم جدارة . وكان يقول : « مهما كانت درجة الموظف فهو إذا لم يحافظ على النظام عليه أن يستقيل » .

وقد ورث إيلي عن إيسر الصغير منوعات كثيرة من العمليات كانت كلها في دور التنفيذ ، وكانت أكثر العمليات ثمرات وإنتاجاً هي العمليـــة التي تولاها العميل رقم ٨٨ .

الهلال والصليب المعقوف

التهديد الكبير للوجود الاسرائيلي الذي صنعه العلماء الألمان في مصر ، أقنع الموساد أنه ليس من الحكمة التقليل من شأن تعاون النازيين السابقين مع الحكومات العربية . وفي الوقت الذي أنجز فيه إيلي تقريره عن فرانز راد ماشر ، كان يعيش في دمشق مئة من موظفي الرايخ السابقين . وكان يعتقد أن نفوذهم هنا يقل عن نفوذهم في مصر ، غير أن أصداء قضية الصواريخ قد سببت للموساد من المتاعب ما يكفي لحملها على عدم مطالبة إيلي باستئناف تحرياته .

ومهما كان من أمر المساعدات التي كان يقدمها هؤلاء النازيون السابقون للحكومة في أوائل الستينات ، فقد كانت لدى إيلي الشواهد الكافية ليشير إلى أن دمشق كانت في السابق أكثر اندفاعاً من المصريين في الحصول على مساعدتهم . وحتى قبل الحرب العربية الإسرائيلية باشرت سورية في تجنيد المدربين العسكريين من بين الضباط الألمان ، والذين خدموا في جيش الفيلد مارشال روميل ، وذلك لإضعاف النفوذ الفرنسي في الجيش السوري (كان الجيش السوري تحت الوصاية الفرنسية منذ إنشائه في أيام الانتداب كقوة مساعدة لجيوش الشرق التابعة للمتروبول . وكان يشرف على التجنيد والتدريب والتجهيز بعثة عسكرية خاصة مسؤولة مباشرة أمام المفوض السامي . ولكن لا الجمهورية الثالثة ولا إدارة فيشي الموالية للنازيين ولا الفرنسيون الأحرار التابعون للجنرال ديغول حاولوا تأسيس هذا الجيش المساعد على الأصول الحديثة) .

وبعد الانسحاب الفرنسي ، قامت أخوة غير رسمية بين أصدقاء المحور في سورية عندما قام أنصار الفيشيين ، وأقطاب الانقلاب الموالي

للنازيين في العراق ، والمستوطنون من الرايخ المهزوم الذين كانوا يشغلون وظائف هامة في الحكومة ، قام هؤلاء بإقناع قادة الجيش بأن المستشارين الألمان قد يُدخلون على الجيش تحسينات لم يكن الفرنسيون قادرين أو راغبين في مثلها . وعلى الفور درست القيادة العامة هذا الاحتمال ، وطلبت من العقيد أكرم طبارة موظف المخابرات أن ينظم إعادة توطين رجال حركة التحرير العربي ، من أتباع المفتي الكبير الذين حاربوا مع الفرقة الألمانية العربية أثناء الحرب العالمية الثانية . وهكذا تألفت أول حامية من رجال القمصان السوداء العرب ، الذين التحق بهم فيما بعد عشرات من الألمان من ذوي الرتب الصغيرة ، الذين فرّوا من المعتقلات البريطانية في قبرص ومصر . كما استؤجر مئات من ضباط الوير ماخت ، عندما تخلصت بقايا الجيش الألماني الافريقي من الأسر .

وكانت عواطف القيادة العامة في سورية نحو الألمان وليدة صلات إيديولوجية سابقة ، وانتساب قديم للرايخ . غير أن السبب الرئيسي كان ينبع من حاجة بسيطة ، فسورية كدولة فتية ليست لديها الخبرة العسكرية كانت مستعدة لأن تدفع مبالغ طيبة للخبرة العسكرية التي يتمتع بها الضباط الألمان . وبعد أن أصبحت المنطقة جاهزة لاستقبال الخبراء العسكريين الأجانب ، شنت دمشق مخططاً للتجنيد من خارج البلاد . فأرسل عدد من النازيين الألمان السابقين وهم يحملون جوازات سفر سورية إلى ألمانيا والنمسا للبحث عن رفاقهم في السلاح . وكان الاقبال منقطع النظير لأن الرواتب الممنوحة كانت تعادل ٥٣٥ دولاراً في الشهر ما عدا تعويض الاغتراب . وكان الألمان يجتازون فصلاً مستعجلاً باللغة العربية ، ثم يُرسلون إلى روما وجنيف حيث افتتحت في المفوضيات السورية مراكز للتسجيل على طريقة الفرقة الأجنبية الفرنسية .

وكان استئجار المستشارين العسكريين يجري أيضاً عن طريق الوسطاء ، فالضباط من الفرقة الأجنبية الفرنسية أو الاسبانية يتعاقدون مع الألمان الفارين للقتال في الهند الصينية ، ثم يبيعونهم للسوريين بمبالغ تتراوح بين

٣٥٠ ـ ٥٠٠ دولار للفرد الواحد . وكان الألمان يهربون من خلال المنطقة الفرنسية في ألمانيا والنمسا على أساس أنهم جنود في فرقة أجنبية ، ثم يسلمون للإبحار إلى ميناء إيطالي أو تركي . ولم يستطع المفوضان الساميان الأميركي والفرنسي أن يفعلا شيئاً ضد هذه التجارة المحرمة . وكنتيجة لذلك أمكن تهريب عدد كبير من الضباط الألمان إلى دمشق .

وكان من بين أخطر الواجبات التي تعهدها النازيون : تدريب جيش الرعاع من المتطوعين اليوغوسلاف والألبانيين المسلمين الذين حاربوا في سبيل الرايخ ، وكذلك الانكليز الهاربين من الجيش الثامن ، ومجموعة متنوعة من المتعاونين مع دول المحور . ومسؤولية تشكيل هذه القوة غير النظامية تقع معظمها على عاتق حامية الثلاثين رجلاً ، بقيادة الميجر جنرال غراف فون شتراشويتز ، الذي كان يقود فرقة من المشاة في أوروبا . غير أن كفاية هؤلاء المتطوعين لم تكن أفضل من السوريين أنفسهم .

وعهد إلى فريق آخر يتألف من الضباط ذوي القمصان السوداء وطياري اللوفتهانزا واختصاصي البانزر بإعادة تنظيم الجيش السوري على الأصول الألمانية . ولكن مهما كان نوع الفطنة العسكرية التي يستطيع الألمان تقديمها ، فهي لم تكن كافية لتغطية القصور عند السوريين ومتطوعيهم من المطرودين . وقد أدى هذا الفشل إلى وصول دفعة أخرى من كبار ضباط الويرماخت والقمصان السوداء ، الذين دخلوا دمشق بأعداد متزايدة لتزويد القوات السورية المسلحة بدم جديد . وهنا راح يدير هذا المجهود أحد قادة الويرماخت المعروفين ، وهو الجنرال هرمان فون ستاترهايم ومعاوناه الكولونيل رينر غريبل أستاذ سابق في التاكتيك الحربي في الأكاديمية العسكرية في برلين ، والخبير في سلاح الفرسان الكولونيل هاينز هيغل . أما إعادة تنظيم اللواء المدرع والوحدات الخاصة فقد أوكل أمرها إلى الكولونيل هانز فون زمبلهوف ، والميجر هربرت فون فورست (واسمه المستعار عبد الله حرب) ، والكابتن كيل (واسمه المستعار محمود زانوبيتش) الذي حارب تحت إمرة الجنرال هانس غورديان

في الجبهة الشرقية ، وأخيراً فإن الذي كلف بإصلاح المكتب الثاني هو أحد موظفي الجستابو سابقاً الكولونيل راب .

وفي أوائل عام ١٩٥٠ راح وجود خمسين مستشاراً ألمانياً في قيادة عليا كهذه يسبب بعض المتاعب لسورية . وكان الرئيس أديب الشيشكلي حريصاً على إزالة الشكوك التي تحيط بوجود هؤلاء الضباط الألمان . فركز على أنهم مجرد فنيين عسكريين يسدون حاجة سورية إلى الإختصاصيين . وقال الشيشكلي إلى أحد رجال الصحف من الألمان الغربيين : « لو أن أحداً من المهاجرين أظهر مجرد ميل للتدخل في شؤون البلاد السياسية ما كنت لأسمح له بالبقاء في وظيفته أكثر من ساعة واحدة » .

وبعد أن دخل السوفيات منطقة الشرق الأوسط كمتعهد لتقديم السلاح . كان على المستشارين الروس والفنيين الألمان أن يتعاونوا لمدة سنتين تقريباً . وفي شباط ٩٥٧ أنهى القوتلي مرحلة زمنية بفصل جميع المستشارين العسكريين الألمان ليفتح المجال للبعثات العسكرية الروسية والتشيكية . وكان كريبل وهيغل آخر من غادر دمشق بعد أن قلدا بالأوسمة « اعترافاً بخدماتهما البارزة للشعب السوري » . وعند حلول الوحدة وصل عدد أكبر من السوفيات إلى سورية . ولكن عندما تمصر الجيش ومصالح الأمن (ألف ومئة ضابط فصلوا و٥٠٠ نقلوا إلى مصر ، واستعيض عنهم بألفين وثلاثمائة ضابط مصري) ، وصلت موجة أخرى من النازيين السابقين لتقديم المشورة إلى المكتب الثاني والمكتب الخاص : الشرطة السياسية السورية) .

وبقي الفنيون والاختصاصيون الألمان في مراكزهم . ولوقت من الأوقات نسق الألمان والروس نشاطاتهم تنسيقاً جيداً ، ولكن سرعان ما قامت بينهم الخلافات ، وحاول الروس الاستيلاء على الوضع كله وطرد النازيين ، غير أن العقيد عبد الحميد السراج رئيس المكتب الثاني في أيام الوحدة جمد هذا الخلاف الداخلي ، متذرعاً بأن الفنيين الألمان يحتلون مراكز أساسية في الجيش والمواصلات ، وأنهم أداة لا بد منها لمنع

الانهيار ، وأصر على استمرار التعاون معهم . وبعد أيام من المناقشات المسعورة في القيادة العامة أنذر السراج الروس أن عليهم أن يعملوا بالتعاون مع الألمان لمصلحة سوريا ، وعاد الألمان والروس يستأنفون أعمالهم المشتركة في تدريب القوات المسلحة وشؤون نقل الجنود وإيوائهم وتموينهم ، وتثقيف قوات الأمن .

وعلم إيلي أن السوريين كانوا كأقربائهم المصريين يبحثون عن المستشارين الألمان كلما اشتد الصراع بينهم وبين إسرائيل ، وكانوا يختارون هؤلاء المستشارين من الاختصاصيين في « الحل النهائي للمشكلة اليهودية » لاستخدامهم في « الحل النهائي للمشكلة اليهودية » كضباط للإعلام أو للمعلومات . أما أن يكون هؤلاء الاختصاصيون من مجرمي الحرب فقد كان ذلك من الأمور الطارئة . وقد أعرب المفتي آنئذ عن رأيه في أن وجود إيخمان في سورية سيثير الذعر في إسرائيل ، وأرسل مبعوثه حسين كوراني للبحث عنه في ألمانيا .

وفي ذلك الحين ، نجح ألوف من مجرمي الحرب الألمان بالفرار من السجن ، وتنكروا بأسماء مستعارة ، وراحوا يعيشون في الخفاء . وعندما خفت وطأة تدابير الأمن ، ألفوا أول جماعة سرية لمساعدة الرفاق الذين كانوا لا يزالون في مراكز الاعتقال في انتظار المحاكمة . وقبل وقت طويل كانت منظمة أوديسا (وهي منظمة مؤلفة من أعضاء الجستابو السابقين) تستخدم طريق الهرب الذي أُطلق عليه بالشيفرة إسم طريق ب . ب ؛ ويتم منه تهريب الألمان الهاربين من برمن إلى باري ثم إلى روما وفينيسيا وجنوة حيث يبحرون إلى أميركا الجنوبية أو إلى الشرق الأوسط . وكان سعيد حداد وهو نقيب سابق في الجستابو (اسمه الأصلي روستال) مسؤولاً عن فرع أوديسا الأوروبي ، وكانت رحلته الواحدة تصل إلى الأربعين رجلاً من فرانكفورت وميونيخ لكي يجري توزيعهم في توكسبرغ ، حيث كانوا يعطون جوازات سفر وأوراقاً مزورة . أما الذين هم في قائمة القاهرة ودمشق فيرسلون إلى ميمينغن ، وهي مدينة قروسطية تقع

في منطقة غابات منعزلة في جنوب بافاريا . ثم يجري سوقهم إلى الحدود النمسوية في شاحنات تنقل الصحف إلى لنداو الواقعة على بحيرة كونستانس حيث يعمل مركز أوديسا بغطاء من محل تجاري للإستيراد والتصدير ، له فروع في العواصم العربية . أما الذين ينقلون إلى برغينز فكان يلتحق بهم نساء وأطفال نمسويون يتظاهرون بالقرابة لهم ، لكي يتمكنوا من المرور إلى سانت كال في سويسرا . وكان المرور يجري بمعاونة حرس الحدود السويسري ، والحرس المتساهلون التابعون لقوة الاحتلال الفرنسية . وأخيراً يرسل مبعوثو أوديسا الهاربين بالقطارات إلى جنيف ، حيث ينقلون بالطائرات إلى بيروت ... وقد استطاعت لجنة استقبال يرأسها الميجر جنرال كاونت غونتر المارفون هاردنبرغ أن تحصل على صور لهم في العاصمة اللبنانية ، حيث كانت توجد جمعية للاجئين المسيحيين الألمان – وهذه تغطية للجنة المساعدة السرية الألمانية في الشرق الأوسط – وقد عينتهم في وحداتهم في الجيش السوري وساعدتهم في آخر رحلة لهم إلى دمشق .

وقيل لإيلي أن السفارتين السوريتين في برن وروما هما محطتان للحركات السرية النازية الجديدة ، وكانت المفوضية السورية في روما في وقت ما مقراً لمنظمة أوديسا . وبفضل الجهود التي بذلتها هذه المفوضية : تمكن موظف الجستابو الكولونيل ولتر روف المسؤول عن العمليات الأولية لإبادة اليهود بالغاز من الوصول إلى سورية . وكان روف قد وقع في قبضة الجيش الأميركي وقضى أكثر من عشرين شهراً في معسكر ريمني شمال إيطاليا إلى أن استطاع الفرار في شهر كانون الأول ١٩٤٦ . واستطاع بمعونة أحد رجال الكهنة أن يشق طريقه إلى نابولي ثم إلى روما حيث منح خلال ١٨ شهراً ملاجيء في مختلف الأديرة . وعندما عرضت عليه السفارة السورية عقداً كخبير فني للعمل في المكتب الخاص ، كان يعلم اللغة الفرنسية والرياضيات في ميتم في « فيابيا » . ثم أعدت السفارة الترتيبات اللازمة كي تغادر عائلته المنطقة الروسية المحتلة من ألمانيا وتلتحق به في دمشق . وفي وقت لاحق وقع الاختيار على روف ليكون

قائداً لحرس رئيس الجمهورية أديب الشيشكلي .

ومد السوريون يد المعونة كذلك إلى نازي آخر رديء السمعة هو فرانس ستانغل ، وهو قائد سابق في معسكر الإبادة في تربلينكا ، الذي لم يبق فيه على قيد الحياة من مجموع ٧٠٠ ألف موقوف سوى أربعين شخصاً . وفي نهاية الحرب بعد أن عاد ستانغل إلى زوجته وأولاده في النمسا جرى توقيفه من قبل الـ CIC ، وخضع لاستجواب شكلي في معسكر (ماكس ي اور) في غلاسنباخ بالقرب من سالزبورغ . وبعد عامين نقل إلى السجن في لينز لأنه ساهم في تدريب الضباط الذين يعملون في مدرسة التدريب على الإبادة في قلعة هارتايم . واستطاع ستانغل أن يفر في أيار ١٩٤٨ بينما كان في طريقه إلى معمل الفولاذ في فوست ، حيث انتشلته منظمة أوديسا ونقلته إلى دمشق فعمل فيها ميكانيكياً قبل أن يستخدمه المكتب الثاني كاختصاصي في شؤون اليهود . ثم استأجرته إحدى الثريات في المجتمع الهندي وكانت تعيش في دمشق ليشرف على تربية أولادها : ومنحته القنصلية السورية في برن التأشيرة اللازمة . ولكن بعد أن وقع إيخمان في قبضة إسرائيل علم إيلي أن ستانغل قد اختفى مع زوجته وأولاده من العاصمة السورية .

وكانت الموساد بالإضافة إلى اهتمامها في هويات النازيين ومواقع إقامتهم في سوريا منشغلة في البحث عن موضوع آخر . فقد طلبت من إيلي أن يحقق في التقارير التي تقول أن الألمان نشطوا مؤخراً في موضوع تأمين الأسلحة — و هذا حقل ذو أهمية حيوية بالنسبة للسوريين الذين تنقصهم المقدرة على تأمين سلاحهم بأنفسهم — . وسرعان ما اتصل بتل أبيب أن أنواعاً مختلفة من المواد الجربية التي لم تستطع دمشق أن تحصل عليها من البلدان الشيوعية أُخذت عن طريق الألمان الذين يعملون في تجارة تهريب الأسلحة .

وعلم إيلي من راد ماشر وشيخ الأرض أن النازيين السابقين كانوا يتعاطون التجارة السوداء بالسلاح ، غير أنه لم يطلع على أكثر من معلومات

غامضة تتصل بنشاطاتهم السابقة والحالية . وذكر راد ماشر إسم أحد تجار السلاح جورج فيشرو وهو اسم مستعار لضابط سابق من فرقة العاصفة في الجستابو واسمه الأصلي (الويس برونر) . غير أن إيلي لم يسمع بذلك إلا بعد أن غادر برونر دمشق إلى القاغرة . ولكنه علم كذلك من شيخ الأرض أنه لا يزال يمارس عمله من مكتبه بدمشق بمعاونة شريكين ، أحدهما ألماني والآخر سوري موال للنازيين . أما ماضي برونر فقد كان غزيراً من حيث الوقائع .. كان عضواً في مكتب قيادة إيخمان (٤ب ٤أ) ، كما كان مسؤولاً عن ترحيل اليهود من اليونان وفرنسا وتشيكوسلوفاكيا والنمسا إلى معسكرات الإبادة في بولونيا . وفي كانون الأول ١٩٤٤ بناء على أوامر خاصة صدرت عن قائد الجستابو هنريش موللر استدعي جميع معاوني إيخمان ووزعت عليهم أوراق ثبوتية مزورة ، وطلب إليهم أن يقوموا بزيارة منشئات عسكرية مختلفة بأسمائهم المستعارة قبل أن يذهبوا للعمل في مهمات سرية في ألمانيا والنمسا . ووصل برونر إلى النمسا العليا قبل يوم النصر ، ومر بودويس وروامسدورن في منطقة لامباك ، حيث ترك زوجته وعاد إلى فينا . وقد ألقي عليه القبض متلبساً ببزة الوير ماخت العسكرية ، واقتيد إلى معسكر ويغشايد بالقرب من لينـز . وقبـل أن يستجوب من قبل منظمة الـ CIC الأميركية ، استطاع أن يلوذ بالفرار مختبئاً في ألمانيا الشمالية . وعندما حوكم أخوه أنطون برونر ونفذ فيـه حكم الإعدام في العاصمة ، قامت السلطات الفيدرالية الألمانية بحملـة جديدة للبحث عنه . وصدرت بحقه مذكرات توقيف في النمسا والمجر وتشيكوسلوفاكيا . غير أن برونر قد اتصل بمنظمة أوديسا السرية التي زودته بالهوية الجديدة .

وبعد وقفة قصيرة في القاهرة تحرك برونر إلى دمشق حيث عمل في خدمة شركة محلية تقوم بتعبئة الكوكاكولا . ثم أسس شركة لتوزيـع الأفلام التي كانت تتعاطى الأفلام المناهضة للسامية ، كفيلم **Jud Suss** المعروف . ثم عمل برونر في خدمة المفتي الأكبر والإخوان المسلمين ، ثم انهمك بعد ذلك في عمل يدر عليه أرباحاً طائلة . إذ بينما كان يعمل

لحساب الحاج أمين الحسيني اكتسب صداقة مظلي سابق في الرايخ برتبة نقيب اسمه كارل هاينريش سبيث ، الذي كان يعمل وسيطاً في شراء الأسلحة للثوار الجزائريين . فاستخدم سبيث برونر في شركة الأدوية العربية تيمكو ، وهي مؤسسة للأدوية مقرها الرئيسي في ليختنشتاين واستخدمها كغطاء للتجارة السوداء في السلاح . وأسس برونر أخيراً محلاً مماثلاً في دمشق – محل للإستيراد والتصدير اسمه « مكتب Catar» – وكان شريكاه في هذا المحل : كارل هاينز برينكمان والدكتور فؤاد نظيف وهو زعيم فاشستي فر إلى ألمانيا أثناء الحرب بعد أن ألغت فرنسا منظمة الشباب التي كان يرأسها .

وفي أيام الوحدة مع مصر استخدم برونر من قبل المكتب الخاص . وقبل انقلاب ١٩٦١ بقليل ، أي في ١٣ أيلول أخبر بأن رزمة بريدية قد وصلت باسمه إلى البريد المركزي من ألمانيا . واستلم برونر الرزمة من شباك الودائع البريدية وعاد بها إلى المنزل ، وما كاد يحل وثاقها حتى وقع الإنفجار . وفقد برونر عينيه الاثنتين كما لحق بذراعه الأيسر عطب كبير ، ونزلت بصدره بعض الإصابات . وعلى الرغم من أن مصادر خاصة نسبت هذا الحادث إلى جماعة « اليد الحمراء » ، فقد كان من الواضح أنه من عمل المخابرات الإسرائيلية (١) . وشفي برونر ، وبعد فترة من وصول إيلي إلى دمشق سافر إلى القاهرة حيث وعدته وزارة الداخلية براتب تقاعدي .

---

(١) « اليد الحمراء » منظمة يمينية ألفها ضباط الجيش الفرنسي والفرنسيون المقيمون في تونس لمقاومة حركة بورقيبة « الحزب الحر الدستوري » . وقد امتد نشاط هذه المنظمة إلى بلدان أخرى تنطق بالفرنسية في إفريقيا الشمالية وكانت تناهضها الحركات الوطنية في البلاد . وكان عملاء هذه المنظمة في أوروبا وفي افريقيا الشمالية يعملون في شؤون المخابرات ويتاجرون بالأسلحة المهربة ويعملون على تصفية أخصامهم . وقد ظهرت دلائل كثيرة فيما بعد تشير إلى أن الـ **Sdec** كان يمد هذه المنظمة بمساندة غير رسمية . ثم اندمجت منظمة « اليد الحمراء » بعد ذلك بمنظمة الجيش السرية وهي منظمة يمينية إرهابية أسست بعد ثورة الجيش الفرنسي في الجزائر في نيسان ١٩٦١ .

أما مكتب برونر ... Catar فقد كان على علاقات مستمرة بويلهلم أرنست سبرينغر ، وهو من الشخصيات الغربية التي دخلت على عالم تهريب السلاح . وقد أثار اهتمام إيلي الشديد ما سمعه عن أخبار الصفقات التي عقدها مع قسم المشتريات في وزارة الدفاع . وكان إيلي يعلم أن سبرينغر ، الذي كان يدعى في دمشق شترنغر ، كان صديقاً وشريكاً لرادماشر . وكان شيخ الأرض قد تعرف عليه قبل عشر سنوات أي في أواخر الخمسينات عندما قدمه إليه رادماشر في أمسية أحد الأيام : عندما كان يتناول طعامه في نادي الشرق . واتصل بعلم إيلي أن سبرنغر كضابط سابق من الجستابو كان يشرف على تدريب الفرقة العربية الألمانية أثناء الحرب العالمية الثانية . وعندما لا تكون لديه مهام سياحية يعيش مع عائلته في بلدة شلوزويغ – هولشتاين الصغيرة القريبة من باد سيفبرغ . وفي السنين التي سبقت الحرب التحق بقوات الجنرال أوتو ريمر ، وهو أحد مؤسسي حزب الرايخ الاشتراكي ، كما كان يعتبر من أبرع الخطباء في أقصى اليمين ، وانتخب كذلك ممثلاً للحزب في مجلس بلدية شولزويغ هولشتاين . وانتهت مهمة سبرينغر بعد أن أعلن عن عدم شرعية الحزب ، وهنا انخرط في السوق السوداء لتجارة الأسلحة ، وحصل في شركة Omnipol على شهرة كتاجر من تجار البيع الرئيسيين في منطقة الشرق الأوسط (١) .

وكان سبرينغر لا يأتي إلى دمشق إلا في فترات قصيرة ، غير أن شيخ الأرض استطاع أن يعد اجتماعاً قصيراً بينه وبين إيلي في صالة فندق أمية الجديد في دمشق . وهو رجل طويل ذو أكتاف عريضة في أوائل أربعيناته . وكان سبرينغر يبدو ودياً ولكنه لا يكشف عن نفسه كشخص

---

(١) Omnipol شركة يملكها التشيكيون ، وهي تهتم في صناعة الأسلحة الصغيرة وتبيعها كبقايا إضافية من أسلحة الرايخ الثالث . وكانت الأسلحة تجرب وتوضع عليها إشارة الرايخ الثالث ومن بقاياالحرب العالمية الثانية. وفي هذه الحالة تباع للبلدان غير الشيوعية أو القوات اليمينية دون أن يضايق ذلك الكتلة السوفياتية .

ذي أهمية . ولم تكن حياته كرادماشر محفوفة بالسرية وبشعور الكبت ، وهذا ما كان يحمله على الاندفاع في حديثه مع الغرباء . واستطاع إيلي بذلك أن يكشف عدداً من الحقائق المهمة عن الرجل . فقد باع سبرينغر كميات مهمة من الأسلحة إلى الثوار الجزائريين كما تعامل بنفس الرغبة مع أعدائهم الألداء الجناح الأيمن من الإرهابيين في الـ **O.A.S.** . وقد كان يمتاز بالقدرة على الاختراع ، واستطاع أن يهرب دفعة واحدة مسدسات أوتوماتيكية إلى الجزائر بعد أن عبأها في علب للحلوى محكمة الإغلاق . وإلى جانب العدد الكبير من زبائنه السوريين كان له زبائن من منظمة « المقاتلون التونسيون من أجل الحرية » و « انفصاليو كاتانغا » و « الثوار المغربيون » ، وأمراء الخليج . غير أن استعداده لبيع السلاح إلى كل من يدفع الثمن كان مجازفة لا بد منها ، فقد جرت محاولة واحدة على الأقل لاغتياله من قبل أحد القتلة الذي وضع قنبلة تحت مقعد سيارته . غير أن ما كان يعزي سبرينغر عن الأخطار التي يتعرض لها أنه ببيعه الأسلحة للعرب يسير أشواطاً جديدة بقضيته القديمة وهي « استمرار معركة العالم العربي ضد العدو المشترك : اليهودية » .

وكان الموساد يعنى عناية خاصة بالأحوال الشخصية للألمان الذين يعيشون في البلدان العربية ، والذين ساهموا في الهجرة غير الشرعية في أول المطاف ، ثم راحوا يساعدون على جمع وتدقيق المعلومات الخاصة بالجاليات اليهودية في البلدان العربية . وعلى الرغم من أن أوضاع اليهود في سورية لم تكن تكتنفها السرية فإن الحكومة لم تسمح لأي يهودي بمغادرة البلاد في السنين الثمان الأخيرة . والقلائل الذين استطاعوا الوصول إلى إسرائيل كانوا يقدمون بيانات عن أوضاع اليهود وإن كانت متناقضة إلاّ أنها دائماً مؤثرة . وكان المحققون في المخابرات بحاجة إلى معلومات تفصيلية لا يستطيع تأمينها سوى مراقب موضوعي متحرر من القيود التي تفرضها الجالية المحلية . وكانت تحريات إيلي سرية . إذ لم يكن هناك أي سبب واضح يبرر اهتمامه في أقلية تكاد تكون غير مرئية . وقد تجنب الأسئلة التي تبدو محددة ، ولم يجازف بالاتصال بأي يهودي يعيش في

حارة اليهود .

وكان ما اطلع عليه إيلي من خلال محادثات مباشرة ، وجولات غير متعمدة في حارة اليهود كافية لشعوره بصدمة من خلال استعراضه لماضي حياته ذاتها . فالجالية اليهودية التي كانت تعيش هنا منذ أيام التوراة بأوضاع مزدهرة تعيش الآن منبوذة ومجهولة من الجميع فيما عدا رجال الشرطة ، وهذا الوضع المحزن كان مروعاً بسبب تناقضه الصارخ مع ما كان قائماً فيما مضى . فقبل عشرين عاماً فقط كان في سوريا ٣٠ ألف يهودي . وكان كثيرون منهم تجاراً بارزين وحرفيين يعيشون في دمشق وحلب . وفي أيام الانتداب شغلوا مراكز هامة في الحكومة . وعندما ذهب الفرنسيون لم يبعدوا عن مراكزهم في الإدارة الجديدة .

غير أن ظهور دولة إسرائيلية غير الوضع الراهن بسرعة غير عادية . فبين ليلة وضحاها انقلب اليهود من مواطنين محترمين إلى غرباء محتقرين ، كان يعتبر مجرد وجودهم تهديداً للأمن السوري . وبعد أن صوتت هيئة الأمم المتحدة على مشروع التقسيم أحرق في مدينة حلب وحدها ١٨ كنيساً يهودياً (١) . وعندما ساءت ردود الفعل في الأشهر الشديدة التوتر التي سبقت الحرب ، تحول تقاطر اليهود ، الذين كانت تقدم إليهم المساعدة للعبور إلى فلسطين عام ٩٣٠ ، تحول إلى موجة إنسانية عارمة . وعندما أعلنت إسرائيل كدولة ، غادر سورية نصف جاليتها من اليهود تقريباً (٢) . فاستولت الحكومة على منازل المهاجرين وممتلكاتهم (٣) . وفي بعض الحالات كانت تحال هذه المنازل المهجورة إلى اللاجئين

---

(١) ليس صحيحاً فإن مجموع الكنس اليهودية في حلب لا يبلغ هذا العدد ، ومعظمها لا يزال قائماً على حالته التي كان عليها (المعرب) .

(٢) الهجرة لم تكن دوافعها وبواعثها الاصلية سوى الدعوة الصهيونية والتحريض على التجمع اليهودي في أرض فلسطين بشتى أنواع المرغبات والمغريات . (المعرب) .

(٣) لم تصادر الحكومة منازل المهاجرين وإنما وضعتها تحت الحراسة ضمن نظام خاص ، لأن أصحابها أصبحت جنسيتهم اسرائيلية (المعرب).

الفلسطينيين . أما الذين تخلفوا عن الهجرة فكانوا لا يجرأون على الإبتعاد عن حارة اليهود (١) ، لأنهم يعرضون أنفسهم لخطر إغلاق بيوتهم والاستيلاء على ممتلكاتهم من قبل مصالح الأمن العام .

وفي منتصف عام ٩٥٠ أنزلت وطأة الضغط والإرهاب عدد اليهود إلى الستة آلاف . وعلم إيلي أن حارة صغيرة لليهود أصلهم من الجنسية التركية لا تزال قائمة في القامشلي ، بينما بقي عدد من القرويين اليهود في الجزيرة بالقرب من الحدود العراقية . وفي العاصمة تجمعت البقية الباقية من اليهود في حارة اليهود جنوب شرقي الشارع المعروف بشارع الاستقامة . ولم يكن يسمح لهم بمغادرة حدود الحارة إلاّ للصلاة ثم يعودون بحراسة حامية من رجال الشرطة . أما الفقر فقد تأصل بينهم إذ حرموا من العمل في وظائف الحكومة أو في المشاريع الخاصة . كما أن المدارس الحكومية حرمت على الأطفال اليهود (٢) . أما المؤسسات الوحيدة التي بقيت مفتوحة لتعليم اليهود فهي مدرسة تلمود تورا والأليانس . وفي المدرستين أُلغيت العبرية وكذلك التوراة من مناهج التدريس .

وكانت الحكومة تسعى مع ذلك لإغراق الحي اليهودي بسيل من الدعاية المناوئة للصهيونية . وفي كل أُسبوع كانت تلقى محاضرة أُسبوعية إجبارية على أعضاء الجالية من قبل صديق إيلي ، المدير السابق للبرامج الأجنبية في وزارة الإعلام لويس الحاج ، وهو الذي ترجم كتاب « كفاحي » إلى العربية وكان يتحدث عن شرور الصهيونية ، وعن

---

(١) ليس صحيحاً ذلك فإن اليهود منذ ذلك الحين حتى الآن لهم الحرية المطلقة في التجول والعمل ضمن المدينة التي يسكنونها ، ولكن الرقابة فقط محصورة على تجولهم خارج المدن التي يقطنون فيها ، فهم ليسوا ممنوعين من التنقل ولكن سفرهم الى المدن الأخرى يحتاج الى إخبار الأمن العام . ولم يغلق أو يصادر بيت ليهودي مقيم في البلاد اطلاقاً . (المعرب)

(٢) لم يمنع أي يهودي في أي وقت من الأوقات وفي أي بلد من البلاد من التعلم في المدارس الحكومية (المعرب) .

أعمال إسرائيل العدوانية التي « كانت تحول دون حصولهم على حريتهم » . وتحت هذه الضغوط كانت تطفو علامات من الخنوع واليأس . فالمجلس الملي اليهودي ، وعدد من أعضاء الجالية اليهودية قدّموا إلى الحكومة مساهمات أساسية في « أسبوع التسلح » . وفي إحدى المرات فر يهودي من سجن المزة والتجأ إلى أحد الكنس اليهودية ولكن خانه أحد المخبرين وأعيد اعتقاله من قبل الشرطة المحلية .

وكانت الجالية تناضل تحت وابل من القيود والقرارات الرسمية التي وضعت لتعزل اليهود عن المجتمع عزلاً تاماً ، ولتقضي على آمالهم ، وكان كل من يعثر عليه وهو يصغي إلى إذاعة إسرائيل يدخل السجن . والزوار الأجانب حرّم عليهم التحدث إلى اليهود ، فيما عدا الحاخام شاليل الذي تجاوز السبعين من عمره ، وكذلك خلفه نسيم أندبو الذي تعتبره الحكومة ناطقاً بلسان الجالية اليهودية . وقد استطاعت الجماعات السرية الصهيونية بقيادة عملاء الموساد أن تساعد اليهود في الماضي على الهرب باستخدام بطاقات مزورة بعد أن يشطب منها بكل دقة كلمة يهودي التي كتبت بالأحمر . غير أن العقوبات التي يجازف بالتعرض لها أولئك الذين يشك في لجوئهم إلى هذه الأساليب كانت كافية لإقناع أكثر اليهود بالبقاء في « الحارة » . وفي إحدى القضايا المشهورة ، طالب النائب العسكري بإصدار حكم الموت على ثمانية من اليهود حاولوا الفرار من البلاد ، على الرغم من الحقيقة الواقعة وهي أنه لم تكن هناك أية دلائل تشير إلى أن أياً من المتهمين وضع خطة لمثل هذه المحاولة .

وقد كشف تقرير من إيلي عن أن الأحوال في « الحارة » أصبحت أسوأ بكثير مما كان في تصور « الموساد » . فالحقوق المدنية ضاعت منذ زمن طويل ، ولم يسمح لليهود سوى بأحط أنواع الأخذ والعطاء . ولما كان الحرفيون العرب لا يقومون بأعمال التصليح لليهود ، ولم تكن هناك أموال للحصول على المواد الضرورية ، فإن ما تبقى من الأبنية مما لم يخضع لاستيلاء المسلمين أو المسيحيين انهار إلى حالة لا يمكن إصلاحها . ولم يكن

يسمح لأي يهودي أن يبتعد عن منزله في أي وقت مسافة تزيد على الميلين ونصف الميل . والذين يغادرون منازلهم يغامرون بسقوطها في أيدي اللاجئين الفلسطينيين الذين كانت الشرطة تتغاضى عن أعمالهم الإرهابية بحجـة أنها أعمال انتقامية لها ما يبررها . وكان العجزة أو المتقدمون بالسن هم الذين كانت لديهم الشجاعة الكافية للابتعاد عن منازلهم (١) .

واهتمت الشرطة كذلك بإزالة كل تجسيد للمعتقدات اليهوديـة . فاستولى الفلسطينيون العرب على مركز ديني في جوبر التي تبعد ميلين عن مدينة دمشق . والكنيس الذي قيل في التاريخ القديم أن إيليجا جلد فيـه إيليشا تحول إلى مدرسة للعرب المرحلين . وكتب إيلي يقول إن كل أثر لليهود الذين عاشوا على مدى ألفي عام في سورية قد تلاشى .

وبعد أسابيع من انقلاب تموز الذي أدى إلى ارتقاء حافظ سدة السلطة طلب المركز من إيلي أن يعود إلى إسرائيل . فمجموعة الوزارة الجديدة وخط سياستها تجاه إسرائيل ليس من الأمور التي يمكن فهمها بدون شرح ولا تحليل بالتقارير المقتضبة أو رسائل الشيفرة . أو بالمعلومات العسكرية بعيداً عن الدوافع السياسية الكامنة وراء الخطط الاستراتيجية . والمعلومات عن قادة سورية الزئبقيين وسياساتهم كثيراً ما كانت عديمة القيمة بدون الإطلاع على الجوانب الدقيقة من شخصياتهم والدوافع الحقيقية وراء أعمالهم وتصرفاتهم . والمشاورات وجهاً لوجه بين العميل ورؤسائه الذين يراقبون الأحداث من بعيد ، كثيراً ما تتفتح عن رؤية جديدة أو تثير مسائل ذات قيمة لا يمكن إثارتها أو الانتباه إليها بطريقة أخرى .

وهناك عامل آخر كان له أثره بالنسبة للموساد عندما طالبوا بعودة إيلي . فقد مضت سنة كاملة على زيارته الأخيرة لإسرائيل وكلما مضى وقت أطول على ابتعاده عن الشؤون التي لها في نظره قدرها وقيمتها ،

---

(١) كل هذه الصور التي يرسمها المؤلفان اليهوديان عن حالة اليهود في سورية فيها من التهويل والمبالغة ما لا يخفى على القارىء ، كما لا تخفى الأهداف والمقاصد التي يرميان إليها .

كلما زادت احتمالات ارتكابه أخطاء يسببها شعوره المتزايد بالعزلة . والعملاء السريون هم في حاجة للخروج من الجو الذي لا يتجاوب فيه أي شيء مع عواطفهم ، ومن المحتمل أن إيلي كان أكثر جدارة من أكثر العملاء الآخرين على احتمال التوترات التي يشتمل عليها عمله . وقد حاولت الموساد أن تطلعه بأسرع وقت ممكن على شؤونه العائلية الهامة مما كان يساعد على سد الثغرة بين حياته في دمشق وبين هويته الحقيقية . وفي ذلك الصيف تلقى رسالة تحيطه علماً بأنه سيرزق طفلاً ، وكان على رحلته الجديدة أن تجيء موافقة في توقيتها لولادة طفله الثاني .

ولم يكن البيت بعيداً عن أفكار إيلي . وكانت الرسائل الموجهة إلى أوروبا تذكر الذين على صلة بأن لا ينسوا هدية ذكرى ميلاد ناديا أو هدية الطفلة صوفي . وفي أحد أيام السبت من شهر تموز بعد أن أملى تقريراً يتعلق بالقيادة في حزب البعث ، أضاف حاشية من وحي الأخبار التي سمعها من محطة إسرائيل ، فقد سمع أن الفريق الوطني الإسرائيلي قد هزم في مباراة دولية في تل أبيب ، فقال معلقاً على ذلك : « لقد جاء الوقت لنتعلم كيف نربح في ساحة كرة القدم أيضاً . أنقلوا إلى الفريق الخاسر أسوأ مشاعري الوطنية بالخزي والعار » .

وليست مغادرة دمشق لفترة قصيرة مهمة شاقة بالنسبة لإيلي . فكل ما كان عليه أن يقوله كما فعل في العام السابق أن مقتضيات أعماله في الاستيراد والتصدير اقتضته أن يطير مرة أخرى إلى أوروبا . وفي هذه المرة قدم سبباً إضافياً لرحلته وهو القيام بمهمة خاصة بحزب البعث في أمريكا الجنوبية . ولما كان قد أصبح من أعضاء الحزب العاملين ، فقد بحث مع سكرتير شعبته ومع فرع دمشق احتمال تأسيس فرع لحزب البعث في الأرجنتين ، مماثل للفروع القائمة في أوروبا الغربية وفي الولايات المتحدة . وقال إيلي إن الحزب ما دام عل دست الحكم فليس من الصعب أن يربح منتسبين جداً .

وقد اعترف كبار القادة في حزب البعث أن العمل على انتساب

مهاجرين ازدهرت أحوالهم في الأرجنتين يعتبر فرصة مثالية وسيشجعهم على استيراد كميات أكبر من المنتجات السورية وزيادة أعمالهم التوظيفية في القطاع الخاص من الاقتصاد السوري . والتجار وملاكو الأراضي السوريون الذين يعيشون في بونوس أيرس لا يشعرون بالحماس نحو الثورة ، ولكن بما أن حزب البعث هو الذي يتولى القيادة فمن الممكن إقناعهم بأن أية علاقات من الثقة يمكن أن يعكسها النظام الجديد ستكون لمصلحتهم . ولهذا السبب تم الاتفاق على أن إيلي هو خير من يقوم بهذه المهمة ، فهو لم يكن فقط بعثياً متحمساً وصديقاً للجالية السورية في الأرجنتين ، بل كان مقاولاً ناجحاً يرغب رجال الأعمال في التعرف عليه . وقد استقبلت قيادة فرع الحزب في دمشق بالترحيب اقتراحاً خاصاً بهذه الرحلة التطوعية ، كما وافقت على جمع الأموال . وبعد الموافقة أُحيل القرار إلى القيادة القطرية حيث لقيت الفكرة التأييد ذاته . وعلى أساس هذه الموافقة الجماعية سارع عفلق إلى إعطاء موافقته .

وقد ساعد نظام البعث الجديد ، الذي قضى بأن يكون للحزب طابع وطني ، ساعد إيلي وأمده بسبب آخر للقيام بالرحلة . واقترح جورج سيف الذي أصبح الآن مديراً لبرامج إذاعة دمشق الموجهة للشعوب الأجنبية ، اقترح أن يذيع إيلي برنامجاً نظامياً من خمس دقائق باللغتين الفرنسية والعربية يوجه إلى السوريين الذين يعيشون في أمريكا الجنوبية . وكان يرجى أن يساهم البرنامج الذي تقرر أن يذاع باسم : « مهاجر سوري سابق يتكلم » في تعزيز مركز حزب البعث في الخارج . وسيخدم البرنامج في الوقت نفسه في رفع مكانة ثابت بحيث تفتح أمامه الأبواب على مصراعيها إلى وزارة الأنباء السورية . وقد وافق إيلي بعد تردد على هذه الفكرة ، ورفع جورج سيف الاقتراح إلى رئيسه المباشر مدير محطة دمشق اسماعيل حبش ، ثم إلى صديق إيلي المدير العام للإذاعة والتلفزيون يوسف الخطيب . ومن هناك وضعت الخطة أمام مكتب سامي الجندي . وقد وجد الوزير الذي كان يكن لإيلي احتراماً كبيراً أن الفكرة رائعة ، وأنها طريقة مدهشة للمساعدة على سد الثغرة بين البعث والمهاجرين من

أصحاب الفعالية والنفوذ . وبعد اجتماع لدرس التفاصيل مع الوزير في مكتبه ، منح الجندي جورج سيف كامل الصلاحيات للمضي في العملية . وكان إيلي في حاجة إلى فرصة من الوقت قبل أن يبدأ البرنامج فقال لجورج سيف إنه لا يعتقد أن من الحكمة أن يباشر الاذاعة قبل أن يتحدث إلى السوريين في بونوس أيرس ، وأن يستوضح آراءهم حول البرامج التي تثير اهتمامهم باستمرار . أما السبب الحقيقي الذي لم يستطع أن يسرّ به إلى سيف فهو أنه قبل أن يوافق على المباشرة في البث .. عليه أن يستشير رؤساءه في تل أبيب .

وقبل أيام من سفر إيلي أقام حفلة ساهرة ليحتفل بعودته إلى أمريكا الجنوبية موفداً من قبل حزب البعث . وقد خطط لحفلة سخية وكان ينتظر المساء بشيء من الابتهاج ، إنه الآن في مركز الذروة بالنسبة لأعماله في دمشق ، وهذه فرصة لأن يحتفل بنجاحه بطريقة خاصة قبل العودة إلى إسرائيل . ولعل من المضحك نوعاً ما أنه سيواجه في المساء ، ولأول مرة منذ وصوله إلى سوريا احتمال انكشاف أمره كعميل أجنبي بسبب خطيئة يحتمل أن لا يرتكبها طالب صغير في مدرسة ابتدائية .

وإلى جانب الضيوف الاعتياديين : صالحة وسيف وحاطوم ومعزى ، كانت قائمة المدعوين تشتمل على نماذج مثيرة من أفراد المجتمع الراقي في دمشق : عدد كبير من كبار ضباط الجيش ، قادة البعث الذين تألق نجمهم في السلطة ، ورجال الأعمال الذين هم على صلات طيبة مع النظام الجديد . وفي هذا الجو المتحرر من القيود كان من الطبيعي أن يصل حاطوم مع المغنية الشعبية التي اختلفت فيها الآراء — لودي شامية — أما جورج سيف وصل مع سكرتيرته الممتلئة . كما حضر بعض رجال الأعمال غير المتزمتين برفقة زوجاتهم وبالاضافة إلى ذلك دعا إيلي عدداً كبيراً من السكرتيرات الصغيرات اللواتي تعملن في وزارة الأعلام والدفاع والاصلاح الزراعي ، مع عدد من المضيفات في الخطوط الجوية السورية ، وذلك كله ليضمن نجاح الحفلة الساهرة ضماناً مطلقاً .

والحقيقة أن الجمع الذي حققه إيلي في منزله كان ناجحاً بكل تأكيد لا لأنه أزال كل أسباب الكلفة ، واستبعد الجو الذي يلزم الحاضرين باللباقة والاحتشام ، بل لأنه أراد أن يتأكد من أن ضيوفه يحضرون مناسبة فريدة من نوعها : مآكل متنوعة ترضي أكثر الشهيات إلحاحاً مع أفضل أنواع السكوتش ويسكي والمشروبات الفرنسية . كما أن الحشيش رفع من نفسية المدعوين وامزجتهم . ولم تمض فترة طويلة حتى راح الدخان الحاد يلف الغرف كلها ، حيث كان الضيوف يختارون نماذج من المآكل الشهية ثم يتكئون على المقاعد الوثيرة ، أو يستسلمون للاسترخاء على الطريقة الشرقية فوق الوسائد أو على السجاجيد .

وكان الجمع قد تجاوز كل مراحل التهذيب عندما غادر إيلي مكانه إلى جانب صالحة ، كي يتحدث إلى معزى الذي كان يقف منفرداً إلى جانب المكتبة في غرفة الجلوس . وبينما كانا يتحدثان إذا بورقة تسقط على الأرض من أحد الكتب وكان إيلي قد نسيها . فالتقط معزى الورقة وسأل إيلي عما يعنيه هذا الترتيب الغريب من الحروف اللاتينية التي تزين هذا التصميم الفني . ولم يكن لدى إيلي الوقت الكافي للتفكير في جواب فأجاب بهدوء أنها كانت لغزاً بالكلمات المتقاطعة . ولم يجد معزى في هذا الجواب ما يدعو للاستغراب واستمرا في الحديث عن موضوع آخر . أما الورقة فكانت صفحة من الشيفرة مغطاة بتصميم يشبه جهاز الشواء . وعاد إلى صالحة وهو مستاء من إهماله واستهتاره ، غير أنه متأكد من أن معزى لم يفطن إلى شيء . وكان سلوك الملازم فيما تبقى من السهرة لا يعكس أي دليل على أنه كان منشغلا بشيء فيما عدا البهجة والاستمتاع . والحقيقة أن الضابط الشاب لن يتذكر هذه اللحظة مرة أخرى إلا بعد مروز وقت طويل .

النجم الاحمر يرفرف على سورية

تبادل إيلي أثناء توقفه مع سالينغر في سويسرا الوثائق الثبوتية ، والتقى بالضابط الذي يتولى شؤونه التجارية ، ثم اتصل بالمستوردين السويسريين الشرعيين الذين كانوا يزودون محله التجاري بالطلبات ويشترون منه المفروشات الدمشقية والتحف الفنية . وبعد أيام قليلة طار إلى اللد عن طريق باريس حيث كان جدعون في انتظاره كعادته لينقله في سيارته إلى بيت يام . وكان له أن يقضي الأسبوع المقبل طليقاً من كل تفكير يتعلق بمهمته .

وكانت ناديا لا تتوقع وصوله قبل مرور أيام أخرى وكانت منذهلة وشاكرة في آن واحد . فقد تلقت بطاقات من أوروبا قال فيها إيلي إنه ليس متأكداً ما إذا كان سيعود في الوقت المحدد ليحضر ولادة الطفل . ولذلك كانت مضطربة لغموضه غير أن إيلي استطاع أن يصل في الوقت المحدد ليأخذها إلى المستشفى ، وقد راح كما يفعل الآباء يزرع الأرض جيئة وذهاباً أو يجيل نظره السريع في المجلات إلى أن أخبره الطبيب أن ناديا والطفل — بنت ثانية سماها إيريس — هما في صحة جيدة .

وبينما كانت زوجته تلتزم الراحة في منزلها فرّ إيلي من حر الصيف الشديد مصطحباً أولاد أخيه إلى الشاطىء . وكان يقضي الأمسيات مع ناديا والأطفال ولا يخرج إلا لزيارة أقرباء أو أصدقاء . وكان الاجتماع مفرحاً شأنه في المرة الماضية ، غير أن أفراد العائلة لاحظوا لأول مرة أن مزاج إيلي يشوبه شيء من الانفعال . كما أن إخوته عجبوا ، ولو لفترة قصيرة ، من سلوكه . وكان يتابع الأخبار دائماً من محطة دمشق ، كما كان يتحدث في بعض الأحيان باللغة العربية بلهجة سورية يمكن تمييزها بسهولة .

وعندما قالت له أمه مرة إنها تريد أن تحضر له « الطبق الحلبي الذي كان يحبه دائماً ، أجابها أنه يأكل دائماً نفس الطبق في الخارج . ولاحظ موريس أن العلبة التي فيها دمية جلبها إيلي هدية لصوفي تحمل اسم « غالري لافايت » فسأل إيلي بلهفة عما إذا كان قد زار باريس مؤخراً . فأجاب إيلي ، دون أن يرفق كلمته بدليل مقنع ، أنه لم يفعل . وانتابت إيلي موجة من الانفعال عند إشارة موريس إلى الرزمة فقال بعصبية : لا تنتظر مني أن أتذكر جميع البلدان التي مررت بها . ومع ذلك فما معنى هذا كله ؟ هل أنت تختبرني ؟ ودون أن ينتظر جواباً من شقيقه ساق خطواته ببطء وغضب إلى خارج الغرفة .

وفي مقر الموساد قدم إيلي أولاً تقريراً إلى مايير آميت ، الذي تحدث إليه عن مهمته وعن مجمل الموقف في سورية . ثم استجوب إيلي بعد ذلك من رؤسائه خلال عدد من المحادثات حيث **قدم تقريراً كاملاً عن دوره في الانقلاب وعن علاقاته بزعماء حزب البعث**. وقد جرى تحليل كامل لاتصالاته بجورج سيف ، وشيخ الأرض ، ومعزى ، وحاطوم ، وتلقى إيلي الارشادات حول الأسلوب الذي يتيح الفرصة للمزيد من استثمارهم . **كما خصصت جلسة خاصة للقضية الملحة وهي ما إذا كان يقتضي الاستجابة لطلب جورج سيف الملح حول إذاعة برنامج يومي لأمريكا الجنوبية . وقد وافق موظفو الموساد على أن مجازفة من هذا النوع سترفع من مكانته بكل تأكيد** . غير أن قبوله لهذا المركز الحساس في وزارة الإعلام وانتقاله إلى صفة الموظف في الدولة سيعرضه لتحريات دقيقة تتخطى دمشق إلى أمريكا الجنوبية وربما إلى مواقع أعمق في ماضيه . ومهما كان في غطائه من الكفاية والاحكام فإن تحريات جديدة من هذا النوع تكتنفها الأخطار .

ورد إيلي بقوة أن هذه الفرصة ستتيح له توسيع اتصالاته داخل الحكومة وخارجها وأنه لذلك يرى أن يتخلى عنها . وفي وضع سورية الحاضر تبدو خيوط السلطة من الغموض بحيث أن مثل هذه التحريات قد لا يسمح بها مطلقاً . وحتى لو سمح بهذه التحريات فإن الأمن الداخلي هو من الفوضى

بحيث أن تحريات من هذا النوع ستكون بالتأكيد سطحية . ووافق رؤساؤه على أن يتولى الإذاعة المطلوبة التي سيجري استقبالها في تل أبيب . وكان عليه أن يستعمل شيفرة خاصة، قام قسم المواصلات بإعدادها، ليتمكن من إرسال الرسائل التي يرى أنها مستعجلة ولا يمكن تأخيرها إلى موعد الإرسال المحدد . وكان على إيلي في الأشهر التالية أن يبث معلوماته عن طريق مقاطع من قصة روبنسون كروزو التي راح يتلوها يومياً من برنامجه الإذاعي .

وعاد إيلي إلى باريس في أوائل شهر أيلول ، ثم طار بدون تأخير إلى الأرجنتين عن طريق لشبونة ودكار . وفي بونوس أيرس رحب به أصدقاؤه في الجمعية الاسلامية وخاصة الأخ حسن الذي تلقى من ابنه كلمة قال فيها : «سيعود ثابت إليكم بمهمة خطيرة» . وانطلق إيلي فوراً للبحث عن منتسبين إلى حزب البعث أو عن مؤمنين بقضيته . واستطاع بمساعدة موظفي السفارة السورية ، وأصدقائه ، والأسماء التي زودته بها القيادة القطرية ، أن يؤلف نواة من الموظفين المتطوعين للعمل . وانطلق في حملة لتأسيس فرع لحزب البعث في الأرجنتين .

وقبل أن يغادر إيلي أمريكا الجنوبية ، أودعت الموساد مبلغاً كبيراً من المال في المصرف السوري اللبناني ، لكي يستطيع أن يسحب من هذا المبلغ ما يراه ضرورياً إذا عجز عن أن يجمع لحزب البعث المبلغ الذي تراه دمشق كافياً . وقد ثبت فيما بعد أن إيلي لم يكن في حاجة لأن يمس هذا المبلغ الاحتياطي . فقد استطاع أن يجمع من فئة صغيرة من رجال الأعمال مبلغ تسعة آلاف دولار وهو مبلغ يؤمن التأثير الكافي على جماعة دمشق . وأعلن بكل تواضع أنه سيضيف إلى هذا المبلغ ألف دولار من ماله الخاص . وطمأن المهاجرين السوريين إلى أنه سيقدم هذا الشيك شخصياً إلى الرئيس الحافظ عندما يعود إلى دمشق . وبعد ذلك حث رجال الأعمال السوريين على أن يستوردوا المنتجات السورية وأن يزيدوا من توظيف أموالهم في البلد الأم ، واقترح عليهم أن يستخدموا اسمه لتأمين التعاون

مع وزارة الاقتصاد السورية .

وعاد إيلي من بونوس أيرس في الوقت المحدد لمداولات القيادة القطرية التي تسبق المؤتمر السادس لحزب البعث الذي يفتتح في ٥ تشرين الأول . وكان مقر الحزب محاطاً بالجنود ومحروساً بالدبابات التي رفعت لافتات كتب عليها : « أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة » و « وحدة ، حرية ، اشتراكية » . وعلى الرغم من أن إيلي لم يكن مندوباً فقد كان قادراً على متابعة أعمال المؤتمر بكل دقة . وعلى اعتبار أنه عضو في القيادة القطرية لحزب البعث ، وعامل متطوع في إذاعة دمشق ، فقد كان له حق الدخول إلى أكثر اللجان . كما استطاع بمساعدة سيف وأصدقائه في قسم الدعاية والإعلام الخاص بالحزب أن يتابع المناقشات التي جرت في جلسات سرية . وقد التقى بكثيرين من ١٢٠ مندوباً قدموا من البلدان العربية المجاورة ، ومن المنظمات الطلابية في الخارج التي استضافها في فندق أمية الجديد ، حيث ملتقى الصحافة العالمية ، أو في مقهى البرازيل القريبة منه .

وكان إيلي يهتم بالتطور الإيديولوجي في الحزب ما دام يؤدي إلى زيادة في قوة ونفوذ الاتجاه اليساري . وكان المؤتمر يحاول توضيح الغموض في سياسة الحزب بالنسبة للتحويل الاشتراكي ، والتقشف والمزارع الجماعية . وكان يعنى بصورة أكبر في التقارير السرية للمندوبين من بلدان عربية أخرى وخاصة تلك التي لها علاقة ببذل الجهود لتوحيد منظمات الحزب في سوريا والعراق ، وخلق قوة فلسطينية لمقاومة تحويل نهر الأردن .

وتضمنت الرسائل التي بثها إيلي معلومات عن تحول واضح لحزب البعث في اتجاه اليسار ، وهو تطور كان الموساد يهتم به إلى درجة كبيرة . وعلى الرغم من أن الحزب قبل بمبدأ « الحياد الايجابي » في الشؤون الخارجية فقد كان يهدف إلى تقوية علاقاته بالمعسكر الاشتراكي . ولم يكن من الصعب معرفة الأسباب ، فالقيادة القومية الجديدة كانت أصغر سناً

وأكثر عقائدية . وكان أكثر من نصف أعضاء اللجنة القومية وعددهم ١٣ عضواً تابعين لأحزاب يسارية في بلدانهم ، كما كانوا معروفين بتصلبهم ضد إسرائيل .

وكان بين الأحداث التي شهدها إيلي وقدم عنها بيانات مفصلة ... سقوط صديقه صلاح البيطار . وبينما كان المؤتمر يبحث في إعادة انتخاب الأمين العام ميشيل عفلق الذي تعرض لحملات عنيفة بسبب ميوله اليمينية ، إذا به يوافق على التضحية بعدد من أعضائه المعتدلين وبينهم صلاح البيطار ليشدد المؤتمر من قبضته على الحزب . ولكن ما كادت تل أبيب تسمع بالنبأ حتى وقع انقسام في قيادة البعث أعقبه انقلاب في بغداد أدى إلى صعود عبد السلام عارف إلى دست الحكم . وكانت باكورة أعماله طرد البعثيين العراقيين ، ووضع نهاية لمشروع الوحدة السورية العراقية ، وسلوك موقف المصالحة مع عبد الناصر .

وكان صلاح البيطار ينظر بكراهية إلى الصراع السري القائم داخل حزب البعث العراقي . ولما كان خارج أي منصب رسمي فقد أتاح لنفسه حرية شجب البعثيين ، الذين أدى الصراع الضروس فيما بينهم إلى انهيار الحزب . وكان الصراع بين علي صالح السعدي نائب رئيس الوزراء السابق وبين طالب حسين شبيب وزير خارجيته . فبعد خلافات عميقة ، وخصومات شخصية مرة نشبت بين قادة الحزب في العراق قبل الانقلاب ، تبلورت داخل الحزب فئتان : المتطرفون ويقودهم علي صالح السعدي ، الذي يطالب بتحول اشتراكي سريع ويعارض المصالحة مع ناصر ، والمعتدلون من أتباع شبيب الذين وقفوا إلى جانب مصر في مسعاهم لإنشاء الاتحاد . وعندما تم الوصول إلى الاتفاق الثلاثي تقوض مركز علي صالح السعدي غير أن أتباعه الذين يؤلفون أكثرية في المؤتمر السادس لحزب البعث أعادوا له مكانته ، ولدى عودتهم إلى بغداد طردوا أخصامه . ودعا أتباع شبيب إلى اجتماع عقدته القيادة القطرية في العاصمة العراقية بتاريخ ١٠ تشرين الثاني . فكان أن تغلب على التقدميين وأوقف السعدي ، وفي

اليوم التالي أرسله إلى المنفى في اسبانيا ، وعندما اتصلت الأخبار بأنصار السعدي تدفقوا على شوارع بغداد ، وهاجموا القصر الجمهوري ، ووزارة الدفاع . وفقد أقطاب الحزب في العراق صوابهم فاتصلوا بدمشق مستنجدين بالقيادة القومية لتسرع إلى مساعدتهم فتحاول حل الأزمة . ووصل حافظ وعفلق خلال ساعات واستمرت وساطتهم بين الفئتين ثلاثة أيام إلى أن قرروا أخيراً نفي شبيب وأعوانه إلى لبنان . أما السوريون فقد أعلنوا أن الانتخابات القطرية لم تكن شرعية ، وتولوا قيادة الأمور في العراق إلى أن جرى هناك تعيين قيادة جديدة .

وقد أثار إبعاد قادة الحزب في سورية وفي العراق ، وهم الأمناء على رسالته الفكرية ، نقمة شديدة بين البعثيين العراقيين . غير أن تولي الحزب لشؤون البلاد في سورية قد أغضب بدوره الجيش الذي سبق أن أثاره إنشاء حرس قومي من الفئة المختارة « لحماية الثورة من الداخل والخارج » . **واستطاع عارف أن يتولى السلطة بمساعدة أعداء البعث وأعداء الناصريين ، وأرسل حافظ وعفلق إلى السجن ، ومن سخرية القدر أنهم لم يخرجوا منه إلا بعد أن توسط عدوهم الرئيسي جمال عبد الناصر لإخلاء سبيلهم .**

وقد أدت أزمة السعدي إلى إضعاف حزب البعث في سورية الذي ابتلي بطاعون الدسائس ، غير أن إيلي استطاع أن يستغل الانقسامات في الحزب لتوطيد مركزه . فاستمر في مساندة الفئة اليمينية ، وكان يلعب على الصعيد الدبلوماسي بين عفلق والبيطار ، ولكنه كان يقف دائماً إلى جانب أتباع الحافظ وخاصة حاطوم . ومع ذلك فإن البيطار عندما اتهم السعدي علناً بأنه سبب الانهيار ، فقد كان إيلي بين القلائل الذين لم ينقلبوا عليـــه .

وفي أول أسبوع من شهر كانون الثاني ١٩٦٤ ، وبدون استئذان الحزب ، عقد البيطار مؤتمراً صحفياً انتقد فيه بعنف علي صالح السعدي لأنه يسعى وراء السلطة وطالب بالحكم عليه . وسرعان ما كالت له القيادة القطرية الصاع صاعين ، فعقدت اجتماعاً فوق العادة في الرابع

والعشرين من الشهر قررت فيه طرد البيطار من الحزب . وهنا أكره المعتدلون من جماعة عفلق على التحرك . فوجه الأمين العام معتمداً على نفوذه دعوة إلى جلسة مستعجلة لمجلس قيادة الثورة الذي صوت لعودة البيطار إلى الحزب . وكان إيلي بين الذين صوتوا لمصلحته . وقد أدت بادرة إيلي هذه إلى اعتراف البيطار بجميله إلى الأبد .

وقد أدى تعزيز مركز الفريق أمين الحافظ في الحزب ، والجيش ، والحكم إلى تطور ذي أهمية أساسية بالنسبة للاسرائيليين : فقد خفف السوفيات ، كدليل على ثقتهم بحزب البعث ، من القيود المفروضة على صفقات السلاح ، ورفعوا الحظر الجزئي الذي فرضوه قبل أن يتولى الحزب زمام السلطة . واعتبرت البرافدا تعيين الفريق أمين الحافظ ظفراً « للعناصر الشريفة والفعالية والوطنية » على « الخونة وجماعة السياسيين القدامى » . وقبل ذلك بوقت طويل قدم السفير أناتولي باركوفسكي أوراق اعتماده إلى الفريق . وعندئذ تأكد أن سيلاً لا ينقطع من المدرعات والأسلحة الثقيلة والطائرات سيتدفق على البلاد . وكان الموساد ينظر إلى هذا الانفتاح بكثير من القلق لأن قدرة الجيش السوري على شن الحرب تتصل بكميات وأنواع المواد التي يريد الروسيون تسليمها .

وعلاقات التضامن التي قامت بين سورية والاتحاد السوفياتي لم تكن بنت يومها . وكانت موسكو تتوقع منذ زمن بعيد أن تصبح سورية ، بسبب مواقفها المعادية للغرب ، وبسبب أجوائها السياسية التي لا تعرف للهدوء ، هدفاً سهلاً للتغلغل السوفياتي . والاتحاد السوفياتي لم يكن راضياً – على كل حال – عن الحكومات التي تعاقبت على حكم سورية في فترة ما بعد الحرب . وقد وجه اللوم إلى الحكومات الأولى لأنها اضطهدت الشيوعيين ، فالزعيم كان يغذي الامبريالية الغربية ، والحناوي وصم بالعمالة البريطانية ، والشيشكلي بالديكتاتورية الفاشستية .

وتحسن موقف الاتحاد السوفياتي من سورية إلى حد كبير في أواسط الخمسينيات ، ولأول مرة استعملت روسيا حق الفيتو لمصلحة سورية

في مجلس الأمن في نزاعها مع إسرائيل على استخدام مياه نهر الأردن . وسرعان ما قامت علاقات ثقافية ، وأقدم السوفيات الذين يعرفون أثر الاسلام العميق في الحضارة العربية على عرض مشاهد على الزوار السوريين عن « الحرية المطلقة التي يتمتع بها المسلمون السوفيات » . وبدأ الطلاب السوفيات ، وكذلك الأطباء ، والخبراء الزراعيون يصلون إلى دمشق في زيارة طويلة ، وهكذا أصبح النفوذ السوفياتي في الشرق الأوسط يمتاز أكثر فأكثر بطابع الثقة والثبات . وفي أيلول ١٩٥٥ أعلن عبد الناصر عن توقيع معاهدة مع الاتحاد السوفياتي بشراء كميات أساسية من الأسلحة السوفياتية ، وأصبح عبد الناصر في نظر السوريين المحرر العظيم الذي استطاع أن يزيل كل أثر لاعتماد العرب على الدول الغربية ، وهكذا برز الاتحاد السوفياتي راعياً مقدساً للمصالح العربية .

ولم تمض فترة طويلة حتى أصبحت سورية مصدراً من مصادر التصريف للسلاح السوفياتي . فبعد أن زار الرئيس القوتلي موسكو قبيل حرب السويس ، بدأت الأسلحة السوفياتية تصل إلى اللاذقية ، وإلى القاعدة العسكرية في الهامة . وقد أثارت السرية التي خيمت على شحنات السلاح الشكوك في العواصم العربية والغربية ، من أن سورية قد تحولت إلى معقل سوفياتي في الشرق الأوسط .

غير أن الحقيقة كانت ، مع ذلك ، أكثر تعقيداً . فالسوريون من جانبهم قاموا بتحرك طوعي لم يسبق له مثيل في اتجاه التعاون مع الاتحاد السوفياتي . ولكن الاتفاق كان يقضي آنئذ بعدم إخضاع الجيش للنظام السوفياتي ، وعدم محاكاة الأسلوب السوفياتي على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي . غير أن الترحيب الذي أظهرته دمشق جاء مستوفياً للحاجات الروسية ، لأن السياسة السوفياتية أرسيت على قواعد تقضي بمساعدة بلدان العالم الثالث ، وتحويل هذه البلدان إلى دول حليفة لا إلى دول تابعة . **ولم تكن المساعدة السوفياتية تهدف بأي حال إلى تمكين سورية من الإعتماد على نفسها ، ولكنها كانت تعمل على شد سورية بدون رحمة إلى الكتلة**

الشرقية . وبينما كان الهدف من اتفاقيات السلاح جعل سورية مرتبطة بمؤسسات السلاح السوفياتية ، وبمعلومات السوفيات العسكرية ، كانت الغاية من المساعدات الاقتصادية دعم قطاع الدولة الاقتصادي ، وإنشاء فئة مختارة من المدربين السوفيات ليلعبوا دوراً هاماً في إعداد مستقبل البلاد . وهناك ميزة أخرى للتدخل السوفياتي المتزايد في شؤون سورية لم تكن محل تجاهل أو إغفال : فقد وافقت دمشق على أن تسمح للاتحاد السوفياتي باستخدام موانئها ومطاراتها كقاعدة أمامية للتسهيلات ، حيث تستطيع السفن والطائرات أن ترسو أو أن تحط لأعمال التصليح أو للتزود بالوقود .

وفي الأشهر التي أعقبت حرب السويس ازدادت الشحنات التشيكية ، وشحنات الأسلحة السوفياتية الصغيرة والدبابات والنفاثات المقاتلة التي تفوق سرعتها سرعة الصوت إلى سورية . وبين ليلة وضحاها تقريباً أصبحت الكتلة السوفياتية المصدر الرئيسي للمستوردات السورية . كما أن البعثات التجارية من الكتلة الشرقية ضاعفت من حجمها حتى كان للاتحاد السوفياتي فقط ست بعثات اقتصادية في دمشق تتألف من ٢٥٠ خبيراً ، كانوا يدرسون حاجات البلاد ويضعون لها مخططات التنمية الاقتصادية .

وكان للوجود السوفياتي والبلدان الشيوعية أثر مباشر على السياسة السورية ، فقد طُرد القادة المحافظون والموالون للغرب من مقاعد الحكم ، ومنعت الصحافة عن توجيه النقد إلى الاتحاد السوفياتي ، كما أن قائد الجيش المتصف بالاعتدال استبدل بقائد شيوعي . وفي آب ١٩٥٧ توجهت إلى موسكو بعثات اقتصادية وعسكرية حيث حصلت على تأكيدات باستمرار المساعدات على كل الجبهات وأن الجيش السوري لن يعاني أي نقص في الأسلحة الحديثة ، وكان بين السلاح المعروض طائرات الميغ ١٧ . وقاذفات الأليوشن ، ودبابات ٣٤ ، وغواصات .

غير أن موسكو لم تكن تعطف على الوحدة غير المنتظرة بين مصر وسورية ، وكان في جملة الأسباب أن القادة السوفيات يعرفون أن الحزب الشيوعي السوري سينتابه الضعف نتيجة لسيطرة ناصر . ومع ذلك فإن

الحزب الشيوعي عندما صدر الأمر بتحريم نشاطه مع الأحزاب الأخرى امتنعت موسكو عن توجيه اللوم ، فالاتحاد السوفياتي لم يكن راغباً في القيام بأي تحرك يهدد نفوذه المتزايد في المنطقة . وبعد حل الجمهورية العربية المتحدة تجددت شحنات السلاح إلى سورية ، وازداد معدل المساعدات الاقتصادية ، بينما كان قد تناقص كثيراً أثناء الوحدة . ولكن عندما استولى حزب البعث على السلطة وضع الروس قيوداً ثقيلة على بيع الأسلحة ، واعتبرت تلك لطمة لقيادة الحزب التي كانت متهمة من قبل السوفيات بالتصرف على أسس فاشستية أكثر منها اشتراكية .

وجاء التدهور المؤقت في العلاقات بين حزب البعث وروسيا السوفياتية ، في الوقت الذي أخذت فيه الصين الشيوعية تتودد إلى سورية . وسرعان ما أصبحت الصين بالنسبة لروسيا الخصم القادر على المنافسة في منطقة الشرق الأوسط ، فقد دعا الحزب الشيوعي الصيني الشيوعيين العرب والماركسيين لحضور مؤتمر السلام الأسيوي الافريقي في أوائل الخمسينات . وقام المسلمون الصينيون بالحج إلى مكة بموافقة من الحزب . وكانت مصر بطبيعة الحال نقطة الارتكاز للتقرب الصيني . وبعد محادثات خاصة جرت بين ناصر وشو أن لاي في مؤتمر باندونغ عام ١٩٥٤ ، قامت علاقات دبلوماسية بين البلدين . ولم يجر تبادل البعثات الدبلوماسية بين سورية والصين إلاّ بعد عامين ، لأن بيكين كانت تهدف بادىء ذي بدء إلى ممارسة نفوذها على مصر واليمن .

وبعد وصول أول وفد من الدبلوماسيين الصينيين إلى دمشق في تموز ١٩٥٦ أغرقت محطة بيكين سورية بحملات من الدعاية لم يسبقها إليها سوى موسكو والقاهرة . وكانت الدعاية الصينية كالروسية تشجب كل ما ترى أنه من مخططات الامبريالية الغربية ضد سورية . وقد فقدت الرسالة الصينية بعض مكانتها في أيام الوحدة مع مصر . ولكن عندما طالبت دمشق باعتراف الصين بالعهد الانفصالي لم يستجب الصينيون لهذا الطلب وانتظروا إلى أن أعلنت الولايات المتحدة وروسيا السوفياتية عزمهما على الاعتراف.

وعندما نجحت ثورة البعث كان الصينيون أسرع في الحركة . فبعد عشرة أيام فقط من انقلاب عام ١٩٦٣ وجهت مذكرة اعتراف دبلوماسية من بكين . وسرعان ما ازداد حجم السفارة في دمشق حتى أصبحت قاعدة خطيرة للإعلام ، وقناة من أقنية المخابرات الصينية في بكين . وكذلك أصبحت هدفاً أولياً من أهداف التحريات التي كان يقوم بها إيلي في دمشق ، وكان الصينيون يتصورون سورية ألبانيا ثانية ، أي قاعدة يستطيعون الانطلاق منها للسيطرة على البلدان المتخلفة في إفريقيا والشرق الأوسط . ولذلك منحوا سورية، قروضاً بلا فائدة لإنفاقها على مشتريات السلاح . غير أن عروض الصين من السلاح كانت أدنى من حيث النوعية، هذا إذا لم تكن من الأنواع التي بطل استعمالها . أما الروس الذين استطاعوا في أقل من عقد واحد أن يزودوا سورية بأسلحة تجاوزت قيمتها الثلث مليار من الدولارات راحوا يعرضون الآن طائرات للنقل ، وصواريخ أرض — جو ، وغواصات ، ومدمرات ، وطائرات هليكوبتر وهي تجهيزات أفضل في حداثتها مما تنتجه بلدان الكتلة الشيوعية الأخرى في أوروبا .

وباستئناف شحنات السلاح ، أخذت الموساد تهتم بالتقارير التي تقول إن موسكو ستسلم سرباً من طائرات ميغ ٢١ المقاتلة لدعم سلاح الطيران السوري ، وأن طيارين كانوا يتلقون تدريبهم في الاتحاد السوفياتي ، هم الآن في طريقهم إلى دمشق أو أنهم وصلوها فعلاً . وكان لا يزال لغزاً قدرة هؤلاء أو عدم قدرتهم على القيام بمهمتهم . فقبل عام فقط ، عندما عجز سرب من أربع طائرات ميغ ١٩ عن القيام بمهمة استكشافية على طول الحدود الشمالية ، طلب الموساد من إيلي أن يحدد أسباب إلغاء المهمة المشار إليها . ولما كان انطلاق الطائرات المذكورة هو من مطار المزة ، فقد كان لدى إيلي مصدر للمعلومات لا غبار عليه ، ذلك أن قائد القاعدة الجوية واسمه إيليا المعاز كان صديقاً لجورج سيف . وعلم إيلي بسهولة ويسر أن أحد طياري السرب الأربعة قد اضطر للهبوط بسبب مرضه . وأن الثاني يشكو من جراح أصابته بسبب حادث سيارة ، وأن الثالث أقيل بسبب انحرافه السياسي . وإذا لم يكن بالامكان الاستعاضة عن هؤلاء

بآخرين فوراً فإن ذلك يعني أن الطيارين السوريين متخلفين عن جدول المواعيد .

ولكن على الرغم من هذا التخلف ، فقد كان حيوياً بالنسبة للموساد أن يعرفوا ما إذا كان الطيران السوري سيتسلم فعلاً طائرات أكثر سرعة وأشد خطراً وهي طائرات الميغ ٢١ ، التي قد تجعلهم على صعيد واحد مع الطيران الاسرائيلي . ولم يكن هناك سوى قبضة من الضباط السوريين يعرفون عن شحنة الطائرات هذه ، وعلى الرغم من أن إيلي كان عضواً في لجنة الدفاع الخاصة بالحزب ، وعلى الرغم من أنه أقام شهرته على أساس أنه معنى بالقضايا العسكرية ، فإن هؤلاء الضباط لم يألفوا أن توجه إليهم أسئلة مباشرة من قبل المدنيين . لذلك رأى أن محاولة حذرة كتلك التي أتاحت له الوصول إلى قواعد الجبهة الأمامية هي أعقل السبل إلى تحقيق غايته . وخلال فترة استمرت عدة أسابيع استطاع إيلي أن يوضح لحاطوم أنه معنى بزيارة مركز تموين السلاح في الهامة ، حيث تخزن جميع أنواع الأسلحة التي تصل إلى سورية ثم تصنف قبل أن تنقل إلى المؤسسات الأخرى . ومن المحتمل أن الرائد لم يلاحظ أي شيء غير عادي في طلب إيلي ، ولم يدع في نفس صديقه أي شك في أنه كان راضياً عن مجرد تلاوة التقارير التي كانت تعدها الأركان العامة ، ولم يمض وقت طويل على طلب تل أبيب حتى أنجز حاطوم الترتيبات اللازمة لزيارة القاعدة .

ونقلت سيارة يقودها سائق الرجلين إلى الهامة حيث أرشدهما الضابط المساعد إلى مكتب قائد القاعدة العقيد محمد الطويل ، وهو ضابط قصير وسمين متقدم في السن ، أرخى شاربيه على طريقة شارلي شابلن . وبينما كان يجري إعداد القهوة ، أمر الطويل أحد المساعدين بإعداد سيارة للقيام بجولة في المجموعة ، وتولى أثناء ذلك الحديث عن العدوان الاسرائيلي ، وعن المناوشات الأخيرة على الحدود ، وعن استعداد الجيش للتصدي للعدو . وخلال الجولة الاجبارية بعيداً عن القضايا العملية ، راح يتساءل إيلي عما إذا كانت الفرصة ستسنح له باستخدام جهاز التصوير الدقيق

الذي احتفظ به في جيبه . فجميع جدران مكتب الطويل كانت مغطاة بمعلومات من النوع الذي لا يقدر بثمن : خريطة مطبوعة بأحرف بارزة تشتمل على قائمة بجميع الأسلحة الجديدة التي حصل عليها الجيش ، موزعة بالنسبة لبلدان المنشأ ، وكذلك أنواع الأسلحة ، وتواريخ استلامها . كما تضمنت جداول أخرى مقارنات سنوية بين شحنات الأسلحة وبين حاجات مختلف الوحدات في الجيش السوري . وبينما كان الطويل يسهب في ذكر التفاصيل كان إيلي يسأل نفسه عما إذا كان من الممكن الحصول على هذه المعلومات من مكان آخر ، إذ بدا له من غير المحتمل أن يستطيع الوصول منفرداً إلى مكتب العقيد .

وقبيل نهاية المقابلة بقليل استأذن ضابط صغير كان يعرف حاطوم بالدخول إلى الغرفة . وقد فوجىء حاطوم بمشاهدة صديق قديم سبق له أن خدم تحت قيادته ، فاعتذر مغادراً مع معاونه السابق . وبعد لحظات استدعي العقيد ليجيب على مخابرة هاتفية من غرفة أخرى . ولما كان من المحتمل أن يعود أحد الضابطين في أية لحظة ليفاجئه وهو يلتقط صوراً للمواد المصنفة ، لذلك لم يخاطر إيلي بإضاعة الثواني القليلة اللازمة لتوجيه العدسات ، ولكنه اختطف بسرعة سلسلة من اللقطات في تعاقب سريع . وعندما عاد الضابطان بعد دقائق قليلة كان جالساً على أحد المقاعد الجلدية يحدق وكأنه شارد الذهن من خلال النافذة .

وقد أسفرت زيارة الهامة عن نتائج أخرى هامة . فبعد أن أطلع العقيد الطويل إيلي وحاطوم على مجموعة من الأسلحة الصغيرة التي جرى التعاقد عليها مؤخراً مع الاتحاد السوفياتي والصين « وحلفاء شرقيين آخرين » ، انتقل بهم خلال الرقعة الواسعة من القاعدة حيث شاهدوا أكداساً من بنادق الهجوم ٤٧ — AK ، ورشاشات خفيفة الوزن ، وبازوكا موزعة في كل مكان . ولاحظ إيلي في إحدى المناطق من المعسكر أن أقفاصاً مكتوب عليها باللغة الروسية يبدو أنها تشتمل على قطع تبديل للطائرات النفاثة لا تزال مفتوحة . وعندما سأل عن أسباب التأخير في جمع أجزاء

الطائرات الجديدة ، تجنب العقيد الطويل الادلاء بجواب مباشر ، مشيراً إلى الأوقات التقريبية اللازمة لوضع قطع التبديل العائدة لطائرات الميغ ١٩ موضع العمل . **ثم قال بلهجة يعروها الارتباك : إن الطائرات النفاثة حتى ولو أصبحت في حالة الاستعداد للتحرك فوراً فلا يمكن إرسالها إلى الجو لأن ثلاثين من الضباط السوريين لا يزالون يتابعون برامج تدريبهم في موسكو .**

واطمأن العقيد لا إلى المنزلة التي يتمتع بها إيلي فحسب بل إلى ثقة حاطوم به أيضاً فراح يجيب بصراحة على كل الأسئلة الخاصة بالأسلحة سواء من حيث منشئها أو من حيث انتشارها . وعند نقطة واحدة ، وعندما راح إيلي يطرح أسئلة تتعلق بمعلومات فنية، أصبح العقيد أكثر انكماشاً ، **ولم يدل بمعلوماته إلاّ بعد أن أكد له حاطوم أن «مركز كامل في الحزب يقتضيه الاطلاع على شبكة التسلح»** .

وقد كان العقيد الطويل ، بصرف النظر عن شكوكه الوقتية ، مرتاحاً إلى نتائج هذه الجولة . وبينما كان إيلي يستعد للعودة إلى العاصمة ، صرح للعقيد أنه بعد أن قام بهذه الجولة التفتيشية على القاعدة ازدادت ثقته عن ذي قبل بالاستعداد الكلي للقوات المسلحة . وشكر الطويل على حسن استقباله ، ووعده بأن يرفع تقريراً مفصلاً يطري فيه إنجازاته إلى « لوائنا العظيم أمين الحافظ » .

وكان السوريون يستعدون — تنفيذاً لمقرارات اتخذت في مؤتمر القمة في الاسكندرية — للمضي قدماً في تحويل مياه نهر الأردن التي تنبع من سورية ولبنان بقصد قطعها عن إسرائيل . وعلى الرغم من أن إسرائيل كانت قادرة على توقيف مشاريع المياه العربية في أي وقت تريد ، فقد طلب الموساد إلى إيلي أن يكتشف ما إذا كان العمل قد بدأ فعلاً .

وقبل أن يذهب إلى الحدود ، اصطحب إيلي معه حاطوم وأحد أصدقائه ميشيل صعب إلى الغداء . وقدم صعب وهو مهندس لبناني مكلف

بحفريات القناة كل التفاصيل عن خصائص المنطقة الطوبوغرافية ، كما زوده برسم بياني عن القناة وعن محطة الضخ الكبرى التي تخطط سورية لإقامتها . وفي اليوم التالي اتجه إيلي وحاطوم نحو الجنوب حيث يخيم المتعاقد السعودي بالقرب من مساقط المياه في اليرموك . فوصلوا إلى المعسكر عند نهاية طريق قذرة بينما كانت طلقات المدفعية الأخيرة تتساقط على المكان المكشوف . ووقفت سيارة جيب بيضاء بالقرب من الثكنات التي كانت تؤدي إلى مكتب مشروع التحويل ، وكان اثنان من مراقبي هيئة الأمم المتحدة ونقيب سوري يتحدثان إلى « الفرح » ، بينما كانت جماعة من المهندسين اليوغوسلافيين تناقش في الموضوع باهتمام وحرارة . وانقطع إطلاق النار من الجانب الاسرائيلي كما كانت المراكز السورية بالأعلى في حالة هدوء . وصعد حاطوم بسيارته إلى حيث المتعهد السعودي وتقدم إيلي لتحيته . غير أن الفرح كان منهمكاً في الحديث مع المراقبين حتى أنه لم ينتبه إلى وجوده ، وعندما شاهد المتعهد أخيراً كامل ثابت علت محياه ابتسامة عريضة . وقيل لإيلي إن ضباط المراقبة الدولية الذين كانوا على بعد سبعة كيلومترات لم يشهدوا المناوشة ولكنهم سمعوا انفجارات وأصوات مدافع رشاشة ثقيلة . ولذلك لم يستطيعوا القيام بتحريات أوسع لأن التعليمات النافذة تمنعهم من التحرك أكثر من خمسين متراً بعيداً عن أبراج المراقبة ودون أن يكون إلى جانبهم ضابط ارتباط سوري . وفي الوقت الذي وصل فيه أحد القادة المحليين لمرافقتهم كان إطلاق النار قد توقف .

وبعد أن غادر المراقبون المكان قدم الفرح إيلي إلى رئيس المهندسين ، غير أن اليوغوسلافي لم يكن متشوقاً للدخول في المناقشة . وبعد أن أشار إلى الأضرار التي أنزلها الاسرائيليون ، اعتذر بانشغاله في مراقبة رفع الأنقاض ، وذهب مودعاً بالكلمة التقليدية « مع السلامة » . وراح العرق يتصبب بغزارة من المتعهد السعودي بينما كان يحاول أن يشرح لزواره حقيقة ما حدث ، وهو يدعوهم إلى مكتبه . فقال : « لم يكن هناك من يقف في وجههم ، ولم تخرج طائرة ميغ واحدة لقتالهم . انقضت طائراتهم

على المراكز العسكرية في الجبال » . وقصفت المدفعية الاسرائيلية كذلك أقساماً واسعة من القناة المحفورة بالقرب من الحدود . ودمرت مساقط المياه جزئياً . وعندما دخل الفرح إلى مكتبه دعا إيلي إلى الخارطة وراء مكتبه ، وأوجز له مخططات التحويل . وعندما أنهى المتعهد السعودي حديثه ، لاحظ ثابت أنه كان يفكر بشراء أرض في هذه المنطقة ، وقال : سأحصل على خارطة بمجرد عودتي إلى المنزل حتى أتمكن من اختيار أفضل المواقع . **وهنا اقترح حاطوم على الفرح بكل سذاجة أن يعيره إحدى خرائطه فوافق المتعهد على ذلك بدون تردد . وتطوع قائلاً : « دعني أعطك الخارطة التي توجد عليها الإشارات الخاصة بمشروع المياه ، وبذلك تعرف الأرض الجاهزة والأرض غير الجاهزة .** وعندما سأله إيلي كيف يستطيع أن يرد له هذا الجميل ، أجاب المتعهد قائلاً : « لا تتعب نفسك ، فسنجد شيئاً ما ، وأنا كفيل بأنك تستطيع مساعدتي في تعاملي مع السلطات السورية » .

وبناء على اقتراح من حاطوم ساعدهم المتعهد على القيام بجولة يشاهدون فيها الدمار الذي أحدثه الهجوم . **والتقط إيلي صوراً سرية للمشهد . وقال إنه يريد أن يرى الناس في بلده ماذا يصنع اليهود .** وشجعه الفرح على ذلك بينما كان حاطوم يسير صامتاً خلفهما . وأسرع أحد ضباط الأمن الذي كان يراقب الثلاثة واتجه إلى إيلي غاضباً حيث انتزع منه جهاز الكاميرا . وقال له الضابط : إن هذه المنطقة هي من المناطق العسكرية ولذلك جرى تصنيفها ضمن المناطق التي يحرم تصويرها . وتدخل حاطوم ، ولكنهم دعوا إلى أحد المواقع التي كانت تستخدم كنقطة للحراسة . وحاول المتعهد أن يوضح لضباط الأمن شيئاً عن هوية الضيوف ، غير أن حاطوم أظهر انصياعاً وبدا وكأنه يرحب بما فعله ضابط الأمن لأنه يقيم الدليل على يقظة الجيش السوري على طول خط الجبهة مع إسرائيل .

واتصل الضابط برئيسه ولكنه عجز عن أن يعرف مكانه . وفي هذه الفترة بدأ يعتذر عما سببه من إزعاج . وبدأ ضباط آخرون بالوصول إلى المنطقة ، ولكن لم يكن بينهم من هو في مستوى الموقف . وتصاعد عدد

النجوم والشارات إلى أن دخل أحد الضباط الكبار مختالاً . فأعرب عن أسفه الشديد وقال : إن الفيلم يجب أن يرسل إلى مختبر التصوير العسكري . وأضاف إن هذا قد يؤخرهم ولن يستغرق طويلاً . وإلى هنا كان حاطوم يحتج بهدوء ، أما الآن فقد انفجر غاضباً وقال : إن أمين ثابت هو عضو في القيادة القطرية وصديق شخصي لرئيس الجمهورية ، وهو بالتأكيد فوق كل الشبهات. وفي وسع العقيد أن يتصل باللواء الشاعر في القيادة الجنوبية فهو الذي وافق على القيام بهذه الرحلة .

وأخيراً خضع الضابط وأعاد الكاميرا إلى إيلي دون أن يمسها ، وبعد جولة من المصافحات الحارة والربت على الأكتاف تابع إيلي وحاطوم السير في اتجاه القنيطرة .

عصيان التجار

من الواجبات التي لم يغفل عنها إيلي برغم رحلاته المتكررة إلى الحدود هي اتصالاته المستمرة بالوسط التجاري . وإذا كان نشاطه السياسي قد اضطره في بعض الأحيان لأن يهمل مكتبه التجاري الخاص بالاستيراد والتصدير ، فقد كان يجد دائماً الوقت الكافي للاجتماع بمعارفه القدامى ، كما استمر في تعزيز الروابط الجديدة التي عمل على تنميتها بكل عناية ودقة بالتعاون مع شيخ الأرض . وبعد انقلاب آذار بدأ يحضر اجتماعات التجار والصناعيين الذين يعطفون على حزب البعث، **وكان لا يني عن التأكيد في كل مناسبة بأن التصويت للحزب في المجتمع البعثي الجديد هو تصويت لخيرهم وسعادتهم** . وإذا كانت جهوده بين التجار لإدخالهم في حزب البعث قد أخطأها النجاح، فإن البيروقراطيين في الحزب يكنون احتراماً شديداً لما بذله في هذا السبيل . و الحقيقة أن سياسة البعث لم تلق سوى مساندة قليلة في المجتمع التجاري ، وخاصة بين أولئك الذين يملكون المشاريع المستقلة ويدينون بالولاء للناصرية أو للاحزاب المحافظة التي أصبحت ممنوعة ، وقد كان هؤلاء أول ضحايا التحويل الاشتراكي كما تكبدوا مصاعب مالية كبيرة .

ولاحظ إيلي أن مزيداً من التدهور في الوضع الاقتصادي قد أدى إلى مزيد من القلق والنقمة بين التجار . وعندما تولى حزب البعث زمام السلطة كانت البلاد في حالة قريبة من الافلاس (١) ، فحاول الحزب إصلاح الوضع الاقتصادي ببرامج تبدأ من تأميم الصناعات وتمتد حتى

---

(١) الذين يعرفون وضع البلاد الاقتصادي قبل ولاية حزب البعث يدركون جيداً المغزى الواضح لقلب الحقيقة دفاعاً عن حزب البعث . (المعرب)

تحويل أراضي الدولة إلى مزارع جماعية . ولكن على الرغم من هذا التخطيط فقد كان الموقف يزداد سوءاً بصورة مستمرة ، حتى أصبح في أواخر عام ١٩٦٣ في غاية الخطورة .

وكان التاجر الدمشقي يشك دائماً بمبادىء الحزب وآرائه الغامضة في العدالة الاجتماعية . فهو بينما يدعو إلى تقييد الملكية الخاصة فإنه يعتبر هذه الملكية من ناحية ثانية حقاً يحميه القانون « في حدود المصلحة الوطنية ». كما يعد بحماية هذا الحق ولو عن طريق « تحديد وظيفته الاجتماعية وفقاً للقانون » .

وعندما سحب رجال الأعمال تأييدهم ، حاول رجال الحزب تهدئتهم عن طريق إدخال تعديلات جزئية على المبادىء الاشتراكية ، ووافقوا على قيام تعاون بين القطاعين العام والخاص . وقطع البيطار عهداً بأن لا تكون الحكومة أكثر من شريك في القطاع الخاص . وردد عفلق هذا التعهد قائلاً : « إن الاشتراكية العربية تعترف بالحافز الفردي للملكية الخاصة ، فهي لذلك تسمح به ولكنها تضع عليه بعض القيود . »

ولما كان إيلي من المؤمنين بحزب البعث ، وكان إلى ذلك تاجراً ناجحاً استطاع بأعماله المزدهرة أن يؤمن للبلاد كميات كبيرة من القطع النادر التي هي في اشد الحاجة إليها ، لذلك كان ينظر اليه في الدوائر الحكومية نظرة اعتبار وإعجاب وتقدير . وفي الوقت الذي اصبحت فيه أعمال التوظيف الأجنبية معدومة تقريباً ، والعملة المحلية مهربة إلى المصارف الأجنبية خوفاً من التأميم ، كانت الحكومة تتفانى في البحث عن أسواق للمنتجات المحلية ، ولذلك كان من الطبيعي ان يلقى مكتب للتصدير الاهتمام والترحيب الذي لقيه إيلي . ولذلك أفسح له الموظفون في وزارتي المالية والاقتصاد الطريق لتشجيعه . وكانت عملياته التجارية البعيدة عن الانانية التي تظهر كيف يقدم مصالح البلاد على مصلحته الذاتية تصل إلى آذان الحكومة والمسؤولين في الحزب فترفع من مكانته وشهرته .

وعندما ازدادت الأزمة الاقتصادية سوءاً، ازداد الاحتكاك بين البعث

والتجار السوريين . كما أن الانقسام في الحزب أدى في آخر الشوط إلى قطع العلاقات بين الفئة اليمينية والفئة اليسارية في الحزب . وكان لكل فئة حل خاص للمشكلة : فالمتطرفون يطالبون بالمزيد من التأميم بينما يطالب المعتدلون بتشجيع القطاع الخاص . وفي أواخر آذار ١٩٦٤ تعرض الحزب لصدمة كبيرة عندما وقعت غارات مسلحة على مخافر الشرطة في دمشق وحلب من قبل فدائيين من الاخوان المسلمين ، وكانت هذه العلامات الأولى على أن اليمين الأقصى يتآمر للعصيان . فعزز الجيش حامياته في المدن الكبرى ، واستعد للعاصفة القريبة .

وفي التاسع من شهر نيسان انضم إلى التجار في حمص أخصام البعثيين من جميع الاتجاهات للاحتجاج على موت أحد الشيوعيين تحت التعذيب في سجن محلي . وفي الوقت الذي أعلن فيه وزير الداخلية أسفه لوقوع الحادث ، قام الجيش بتحركاته ضد « العناصر المخربة » محاولاً إخماد الاضطرابات بتوقيف خمسمائة شخص تقريباً من المتظاهرين . ولما كانت الحكومة تعرف أسباب الاضراب الحقيقية ، لذلك دعي وفد من رجال الأعمال في حمص للبحث في الشؤون الاقتصادية .

واستبد القلق بالتجار من نوايا حزب البعث ومن برامجه في التحويل الاشتراكي عندما جردت الحكومة ملاكي الاراضي من كل ما يزيد على الخمسة والعشرين فداناً ، وأممت ستاً من أكبر الشركات في البلاد . ولم يكن في نية الحكومة أن تتراجع عن سياستها غير أنها رغبة في تهدئة المجتمع التجاري أصدرت أمرها بإقالة محافظ حمص .

وعلى الرغم من هذه المساعي فقد واجه البعث عصياناً مدنياً عندما امتد إضراب التجار إلى وسط مدينة حماه . وفي يوم الخميس التاسع من الشهر قام السكان بمظاهرات حاشدة ضد حكم بالسجن سنة مع الاشغال الشاقة الذي صدر ضد طالب عمر ١٥ عاماً من مدرسة عثمان الحوراني الثانوية ، لأنه محا شعاراً بعثياً وكتب بدلاً منه «البعث الكافر عدو الله». وعلى الرغم من أن الجنود ورجال الشرطة فرقوا الجماهير الغاضبة بإطلاق النار

عليها، فقد استمر زملاء الطالب في الاضراب. وفي مساجد حماه الخمسة والستين شن المشايخ ورجال الدين حملة في صلاة الجمعة على البعثيين ، وفي خلال ساعات وبتحريض من المشاغبين المسلمين امتلأت الشوارع بالغوغاء وهُزم رجال الشرطة . ففتحت قوات الجيش النار على المتظاهرين محولة مدينة حماه إلى مقبرة ضخمة . وتعاقبت التعزيزات من دمشق حيث أرسلت إلى قلب المعركة ، وارتفع عدد الضحايا من الجانبين .

وانتاب الذعر أمين الحافظ فطار إلى حماه وأصدر أمره إلى حاطوم بأن يتولى العملية . **وكان إيلي قد اجتمع بحاطوم قبل أيام من إيفاده من قبل الحزب إلى حمص وحلب ليساعد على تهدئة التجار . أما الآن فقد التقى بالرائد – حاطوم – في مدينة حماه . وفيما تبقى من الاسبوع كان إيلي دائماً إلى جانبه كما كان شاهداً على الضراوة التي سحق بها أمين الحافظ الثورة في المدينة.** وكانت القسوة التي أظهرها اللواء هناك هي التي أكسبته لقب « سفاح دمشق » .

وعندما وصل أمين الحافظ يوم الأحد إلى حماه لتهدئة خواطر سكانها ، أصدر أمره بإخلاء سبيل الطفل السجين ، كما دفعت تعويضات لأهل الطالب الذي قتل قبل يوم . غير أن خطوته هذه حملت على محمل الضعف. إذ استجاب التجار مرة أخرى إلى دعوة للإضراب وأغلقوا متاجرهم. ولم ينفذ وقف إطلاق النار في المدينة سوى يوم الأحد . وفي يوم الثلاثاء الرابع عشر من الشهر انتقل الأخوان المسلمون إلى موقف الهجوم ووقعت اصطدامات دامية ، وكما في الماضي لم يلجأ أمين الحافظ إلي المراوغة، **فعندما هوجمت مفرزة من الجنود من وراء الاستحكامات ومن أسطحة المنازل والمآذن ، تفتحت أبواب جهنم ، واندفع حاطوم إلى الساحة في سيارة مصفحة . وعندما لاحظ أن نيران الرشاشات صادرة من قمة جامع السلطان ، تولى شخصياً قيادة المدفع وصوبه بإحكام إلى المأذنة فأتى عليها وهي بارتفاع ستين قدمـاً . وقد اقتنع الثوار بهذا القصف أن أمين الحافظ عازم على إخماد الثورة بجميع الوسائل .** فأرسلوا إليه أنهم على

استعداد للتفاوض، غير أن اللواء لم يكن على استعداد للدخول في المناقشة، فقال لهم إنهم ما لم يسلموا أسلحتهم، وما لم يستسلم قادتهم التسعة عشر، فإن الجيش سيهاجم المدينة عند الفجر بقوات كبيرة.

وأثناء الليل تحركت إلى ظاهر المدينة قوات إضافية، ودبابات من طرازا ت ـ ٥٤ فاخترقت الاستحكامات. واستمرت المدفعية والمدرعات في اطلاق النار ساعات عديدة على المواقع المحصنة إلى أن دمرتها عن بكرة أبيها. وكان حصاد هذه المعركة التي استمرت اسبوعاً طويلاً: ستين من المدنيين وعشرين عن رجال الجيش بين قتلى ومصابين.

وعلى الرغم من إخضاع مدينة حماه فقد امتد الاضراب إلى جميع أنحاء سورية إعراباً عن شعور الولاء للمدينة. وفي حمص ضرب في أحد المساجد طالب حتى الموت من قبل المؤمنين لأنه كان يدافع عن حزب البعث. غير أن أحداث حماه أثارت المشاعر ثم صعدتها الى مستوى التحدي.

وقبل أن يعود إيلي إلى العاصمة وقف على مشهد آخر من مشاهد العصيان المدني. فقد ساد الشوارع صمت مطبق عندما أنزل «بورجوازيو الأسواق» درف حوانيتهم الحديدية في حلب وحمص. غير أن الوسط التجاري اخفق في تقدير عزم أمين الحافظ على قمع كل حركة، فقد أصدر أمره بتوقيف عشرة من التجار الكبار في مدينة حلب وتوزيع أموالهم على الفقراء، وأعاد الكرة في حمص. فأقدم الحرس الوطني يساعده فدائيون يعملون تحت إمرة حاطوم على كسر أبواب الدكاكين ومصادرة موجوداتها. وسرعان ما أدت هذه الحركة إلى فتح المدينة وعودة الأمور إلى مجراها الطبيعي.

وعندما عاد الحافظ طروباً إلى دمشق أصدر أمره بترفيع حاطوم إلى رتبة عقيد، ووافق على دستور مؤقت يلغي الأحكام العرفية، غير أنه وقع في الوقت نفسه على مرسوم يعتبر إغلاق أي حانوت جريمة يتعرض صاحبها

لعقوبة سجن مدتها عشرون عاماً . وفي اجتماع كبير لحزب البعث قطع عهداً بأن لا يقدم على عمليات تهدئة . وقال للجماهير : « لا يزال يوجد في بلدنا الطيب إقطاعيون ورأسماليون ومستغلون . ونحن نعتبرهم أخوة مرضى . وسنحاول شفاءهم بالعلاج العادي . أما إذا اقتضى الأمر عملية جراحية فلن نتردد في البتر » . وأضاف مبتسماً : « إن أعداءنا يلعبون أما نحن فلا » ... وقد استمرت سياسة القسوة هذه ضد الوسط « الأعمالي » أشهراً عديدة بعد ذلك التاريخ.

وبعد أن عادت الأوضاع في دمشق إلى حالتها الطبيعية ، علم إيلي من خلال اتصالاته بوزارة الدفاع أن المكتب الثاني كان يخطط لمساندة جماعة « فتح » وهي منظمة من المناضلين الفسطينيين تسعى « لاستعادة الارض التي سلبها اليهود » عن طريق حرب العصابات . وهنا اعتبر البعث نفسه النصير المجلي للفلسطينيين . وأعلن برنامج فلسطيني من الإذاعة أن جميع القيود على تحركات اللاجئين قد ألغيت ، وأن الجيش يدرس أفضل الوسائل لمساعدتهم في نضالهم . وكان إيلي يعرف أن في الجيش منذ زمن طويل نخبة من الوحدات الفدائية المكلفة بالتغلغل في الأراضي الاسرائيلية والقيام بالأعمال الإرهابية والتخريبية ، كما اتصلت به قبل سنتين شائعات عن أن الفلسطينيين الذين عملوا برتبة ضابط في الجيش السوري قد فصلوا عن الجيش أثناء الوحدة بسبب ميولهم الشيوعية ، وأن هؤلاء يقومون على تنظيم فريق اللاجئين المقيم في دمشق ضمن خلايا ، كانت تعقد اجتماعات في بيوت خاصة حيث تجري مناقشات نظرية ، كما يجري التدريب على مختلف أنواع السلاح . ولكن بعد أن قام بتحريات واسعة في هذا الصدد تبين له أن هذه العملية كلها لا تشمل أكثر من ١٥٠ شخصاً ، وأن علاقات هؤلاء بالجيش غامضة في أحسن الحالات ... وقد أرسل هذه المعلومات إلى المركز في تل أبيب .

و « الفتح » هو الاسم المختصر لحركة التحرير الفلسطينية ، تأسست في مصر قبل عشر سنوات ولم تحصل قبل ذلك على أية شهرة حتى في

البلدان العربية . وقد تبنت الجماعة الكلمة القرآنية « فتح » . وهي كلمة تستعمل من قبل الوحدة الرئيسية في جيوش الخلفاء الأوائل ، التي قامت بفتوحاتها الأسطورية باسم الإسلام . أما في العصر الحديث فقد انطلق الفتح من منظمة شبه عسكرية تضم شباناً من الفلسطينيين الذين يعيشون في قطاع غزة . وقد تدربوا على فنون التخريب من قبل الضباط المصريين ، غير أنهم كانوا يحصلون على المتفجرات بأموال يجمعونها من بين اللاجئين . وفي أواسط الخمسينات قام الفدائيون العاملون في غزة بسلسلة من الغارات غير الناجحة في الأراضي الاسرائيلية . وأعادوا تنظيم صفوفهم بعد حملة سيناء على أساس العمل الفدائي ، وأطلقوا على أنفسهم اسم « الجبهة » ...

وخلال الفترة ذاتها لاحظ الفلسطينيون الذين يدرسون في جامعات دمشق ومدارسها العالية أنهم بدأوا يلتقون على هوية مشتركة ، فتجمعوا في عدد من الجمعيات التي لم تقتصر في نشاطها على المناقشات العقائدية فقط ، ولكنها أخضعت أعضاءها للتدريب العسكري . وكان المفتي الأكبر يساند أكثرها ، كما كانت تتلقى بعض المساعدات من الحكومة السورية . وهكذا استغلت مصر وسوريا الغيرة المعنوية لهؤلاء الشبان ضد الطبيعة الهادئة للأخوة العرب الآخرين .

وسرعان ما برزت فئات مماثلة في جامعات القاهرة وبغداد وبيروت ، وكان كل من هذه الفئات يتقدم حركة طلابية محلية . غير أن السلطات السورية لم تكن تنظر بعين واحدة إلى جميع المنظمات الفلسطينية ، كما أن بعضها أرغم على العمل سراً . وقد قامت الأردن والعربية السعودية بسجن عدد كبير من العاملين ، مما جعل المنظمات في البلدان العربية الأخرى تغط في سبات عميق . ومما له مغزاه أن الحركة استعادت مع ذلك نشاطها خارج منطقة الشرق الأوسط . وكانت هذه المرة بقيادة رجل سيلعب دوراً هاماً في القضايا العربية .

فقد التف الطلاب الفلسطينيون في جامعة شتوتغارت بألمانيا الغربية حول عبد الرحمن (ياسر عرفات) ، وهو شاب جذاب في

عشريناته الأخيرة ، وكان رئيساً لمنظمات الطلاب الفلسطينيين في جامعة القاهرة . ولد عرفات في القدس عام ١٩٢٩ ، حيث اشترك بناء على إفادته الشخصية في حرب ١٩٤٨ ، حيث كان سكرتيراً لعبد القادر الحسيني قائد جبهة القدس . ثم هاجر إلى مصر ، وأقام مؤقتاً في غزة حيث نظم حركة الاحتجاج ضد مشروع هيئة الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين قبل أن يدخل كلية الهندسة في جامعة القاهرة . ثم خدم عرفات كنائب ثان في اللواء الفلسطيني التابع للجيش المصري الذي قاتل في سيناء أثناء حرب السويس ، ولكنه أرغم على الفرار من مصر بسبب انتمائه إلى جماعة الإخوان المسلمين ، واستطاع بمساعدة أحد أصدقائه أن يعمل في مؤسسة للبناء في الكويت ، وهناك أصبح قائداً للفئة المحلية من جماعة فتح .

واستطاعت وحدة « الفتح » في جامعة شتوتغارت أن تسيطر أخيراً بقيادة عرفات على منظمة الطلاب الفلسطينيين التي كانت تتجه اتجاهاً مصرياً ، وأرسلت المجندين إلى الجامعات في أوروبا لجمع الأموال ونشر الدعاية بين المهاجرين العرب ، وبينما كان مندوبو الفتح يقيمون خلايا في النمسا وإيطاليا وإسبانيا ويوغوسلافيا ، كان عرفات ونائبه خليل القصير يستعدون لتحقيق هدفهم الأخير : إعداد وحدات عسكرية للعمل الفدائي . وفي أوائل الستينات دُعي الرجلان لزيارة بكين حيث قدمت إليهما بعض الأموال ، واجتازا فصلاً مختصراً عن أساليب العمل الفدائي . وعندما عادا إلى الشرق الأوسط ، تلقى خليل القصير الذي هو صديق للزعيم محمد خيضر وعداً بالدعم والمساندة من حكومة الرئيس أحمد بن بيللا ، وبالتالي سمح لوحدات فتح باستخدام المعسكرات الجزائرية لأغراض التدريب. وحصل عرفات، الذي عاد إلى الكويت مع عدد كبير من الأتباع على مساندة الجالية الفلسطينية الغنية ، وعلى تعاون أمير الكويت الذي سمح لجماعة فتح بإقامة مراكز للتدريب حول العاصمة . على أن هذه البرامج كان مصيرها الفشل ، فبعد أسابيع من أعمال التدريب القاسية تبخرت الغيرة عند أكثرية الطلاب السابقين ،

واختاروا العودة إلى مدارسهم .

وقد أقنعت هذه الصدمة ياسر عرفات بأنه إذا كان لحركته أن يكتب لها النجاح فيجب أن تلقى الدعم القوي من قاعدة تقع في بلد يقف في مواجهة إسرائيل . ولما كان المصريون هم الذين يشرفون من السابق على حركة التحرير الفلسطينية ، لذلك كانت سورية الخيار الذي لا يمكن تجنبه . وقدم عرفات إلى سورية من الجزائر في مطلع ذلك العام وهو يحمل رسالة من بومدين إلى اللواء حمد عبيد . وكان الجزائريون قد وعدوه بالمال والسلاح . فهو يريد من السوريين التسهيلات الخاصة بأعمال التدريب . وعقد سلسلة من المحادثات مع قائد العمليات ورئيس المكتب الثاني الذي سرعان ما لاحظ فوائد هذه العملية . ففي وسع « الفتح » أن تزود سورية بقوات الفدائيين القادرة على منافسة حركة التحرير الفلسطينية التي ترعاها مصر ، كما يمكن أن تنطبق حركتها ولو بشيء من الغموض مع عواطف البعثيين وتعلقهم « بحرب التحرير الشعبية » . والفتح خلافاً لحركات الفدائيين التقليدية لم يكن يتوقع كسب عواطف السكان المحليين غير أنه كان قادراً على أن يخلق نوعاً من التوتر على طول الحدود قد يؤدي إلى إشعال نار حرب شاملة بين إسرائيل والبلدان العربية ، وهو ما يتوق إليه حزب البعث . وقد وافق الحزب في باديء الأمر على أن ينظر في الطلب ، ولكن لم يكن بالإمكان الوصول إلى اتفاق سري إلاّ بعد أن تدخل السويداني مقنعاً أمين الحافظ بمساندة فتح خلال فترة تجريبية .

وعلم إيلي من جورج سيف وسليم حاطوم أن المكتب الثاني وافق على تزويد عرفات بالسلاح والمال والوسائل الإعلامية ، وأن قيادة الجيش ستساعد في وضع خطط العمليات ، وستعد الترتيبات اللازمة لقيام تعاون بين وحدات الفدائيين في الجيش والفدائيين الفلسطينيين . وأكد إيلي كذلك أن « العاصفة » وهي الجناح العسكري لجماعة فتح تستعد لإصدار أول عدد من جريدتها الرسمية « صوت العاصفة » .

غير أن عرفات الذي حاول أن يجند الفلسطينيين المقيمين في سورية

لم يكن قادراً على تسجيل عدد من الطلاب يكفي لملء الرتب في الوحدات المقترحة . وهكذا كان عليه أن يعتمد على الجيش السوري الذي قام أخيراً بإنشاء مكاتبه الخاصة لتسجيل المتطوعين في مخيمات اللاجئين في سورية الشمالية والأردن ، وجنوبي لبنان . ولكن ثبت حتى عن طريق الجيش أن الخطة الرامية لتجنيد الفلسطينيين فقط لا بد من استبعادها . وعرض الانتساب – كما اتصل بإيلي – على كل عربي بمن فيهم أولئك الذين لهم سوابق في أعمال الإجرام ، كما منحوا ١٥ ليرة سورية مكافأة شهرية وإكراميات خاصة بالعمليات الخطرة . كما اكتشف إيلي أن التدريب كان يجري في المعسكرين الكبيرين في القابون والقنيطرة ، بالإضافة إلى تسهيلات ثانوية بالقرب من دمشق .

وفي أواخر العام كتبت جريدة « البعث » وهي جريدة الحزب الرسمية تقول إن الفتح قد استقر رأيه على أن « الممر الثوري الوحيد إلى تحرير فلسطين هو نقل المعركة إلى داخل فلسطين ». وقالت الجريدة: « إن على الفلسطينيين أن يضعوا حداً للتأجيلات الروتينية وللأقوال والمقررات » . ونشرت « الفتح » بالمقابل إعلانات ضخمة في الصحف السورية ، قطعت فيها عهداً ببدء العمليات ضد إسرائيل في شهر كانون الأول القادم (١) . وقام إيلي بإطلاع المركز على هذه التفاصيل واعداً بإرسال تقرير مفصل عن معلوماته الجديدة .

وكان فصل الخريف مرحلة محمومة بالنسبة لنشاطات إيلي . **فقد دعي بوصفه عضواً في لجنة الدفاع ليشهد تمارين المدرعات في إطار المناورات العسكرية السنوية التي جرت في ٢٤ تشرين الأول بالقرب من الحدود الاسرائيلية . وبعد أيام قليلة رافق الفريق علي علي عامر رئيس القيادة العربية الموحدة في دورة تفتيشية بالجبهة الجنوبية** . ولم يكد ينتهي من نقل المعلومات التي جمعها عن هذه الرحلة إلى تل أبيب، حتى أحيط

---

(١) جريدة البعث اعداد شهر تشرين الأول ١٩٦٣

علماً من قيادة حزب البعث بأن رئيس الجمهورية الذي سيطير إلى باريس لمعالجة آلام أصابته في كليتيه قد أصر على أن يكون حاضراً في حفلة الوداع الرسمية التي ستجرى له في مطار دمشق الدولي . وعلى الرغم من أن إيلي كان حتى ذلك التاريخ يتجنب الصور الفوتوغرافية فقد فشل في تجنب بطاريات المصورين الصحفيين الذين هاجموا الوفود المودعة وهي تضم الوزراء والقادة العسكريين الذين جاءوا يشاركون في وداع الرئيس .

وعندما عاد أمين الحافظ في ١٢ تشرين الثاني بعد عملية جراحية اجراها له جراح يهودي في مستشفى أمريكي في نويبي **Neuilly** كان إيلي حاضراً لتحيته في المطار . . **وفي وقت لاحق من ذلك المساء زاره أحد مساعدي القصر ليبلغه أن أمين الحافظ أعرب عن رغبته في الاجتماع به في اليوم التالي . ولدى وصول إيلي إلى قصر المهاجرين أدخل إلى غرفة رئيس الجمهورية . فاستقبله أمين الحافظ ببشاشة وأجابه على الأسئلة الخاصة بحالته الصحية . ثم قال له رئيس الجمهورية إنه دعاه لهذه الزيارة لسبب هام يتعلق بالحزب ، وإنه كان يتابع عن كثب نشاط ثابت وإنه لذلك يعرف ما بينه وبين صلاح البيطار من صلات الصداقة المتينة . لذلك فهو يريد أن يوكل إليه مهمة دقيقة : وهي أن يحمل رسالة مصالحة بينه وبين رئيس الوزراء السابق الذي يقيم الآن في الأردن للمعالجة من « مرض سياسي »** . وانطلق امين الحافظ في تفاصيل طويلة أتت على كل الاحداث التي أعقبت « عصيان نيسان المخجل » .

غير أن الأعمال التي كان يقوم بها الوحدويون والمحافظون والأخوان المسلمون، أثبتت أن العناصر الرجعية الانفصالية لم يقض عليها قضاء مبرماً ، فأمين الحافظ الذي كان يعارض في السابق التقارب مع مصر ، اقتنع الآن بأن المدنيين المعتدلين من افراد الحزب كانوا على حق في تقييمهم للموقف ، وراح الحافظ يذكر آنئذ أن صلاح البيطار لم يقلل في أي يوم من شأن قدرة الناصريين على اعمال التخريب وأنه لذلك يسعى للأئتلاف معهم .

وكان إيلي يعرف أن استقالة البيطار في ٣ تشرين الأول قد اوقعت الحافظ في حرج ، وكان انسحابه من رئاسة الوزراء خطوة اقتضتها مجريـــات الامور . ومع ذلك فإن عصيان أيلول ، وقمة الاسكندرية انتهيا إلى إقناعه بالحاجة إلى المصالحة معه . فحكم البلاد بمجلس للرئاسة يسيطر عليه العسكريون ، وبوزارة من الفنيين لم يعد كافياً للوفاء بالغرض ، فهناك حاجة إلى التغيير لا يستطيع أن يحققها سوى البيطار . لذلك كانت إعادته إلى رئاسة الوزراء من الأمور الالزامية .

وكان إيلي يعرف كذلك أن يد أمين الحافظ الحديدية قد جمدت الحزب ، وأثارت الدسائس والمؤامرات التي اعترضت سبيل الجهاز كله أثناء فصل الصيف ، وفي قسم كبير من فصل الخريف . أما الزمرة اليمينية التي تولت السلطة داخل حزب البعث منذ الانقلاب قد وضعت جانباً من قبل اللجنة العسكرية ، فاستقال البيطار وغادر البلاد مع عفلق في عملية نفي اختياري ، وبعد تصاعد النقمة في الوسط التجاري التي كان رمزها عصيان نيسان لجأ الحافظ إلى فكرة المصالحة مع التجار والرأسماليين، الذين وإن كانوا غير راضين عن الحزب إلا أنهم لا يمانعون في التخفيف من شروره . وهذه كانت حقيقة موقف اليمينيين من التحويل الاشتراكي . وهكذا قرر امين الحافظ ان يجعل حكمه اكثر نعومة عن طريق ائتلاف يضم إليه المعتدلين من حزب البعث برئاسة صلاح البيطار .

غير أن مشاكل الرئيس لم تقتصر فقط على شؤون الحزب . ذلك أن الانقسام داخل مجلس الرئاسة قد تصاعد إلى درجة خطرة . فقد تعب لؤي الأتاسي ومحمد عمران من تنفيذ رغبات أمين الحافظ ، ومساعدته على فرض حكمه الدكتاتوري . وقد طلبا حل لجنة الحزب العسكرية وإعادة المدنيين إلى الحكم . وعندما كان الحافظ في باريس راحوا يتحدونه عن طريق إلغاء محاكم الأمن الوطنية . وكان الحافظ يعرف بأن ضعف الاتاسي وتردده لا يتيح له الاقدام على مثل هذه الخطوة ، وأن عمران وحده هو الذي فعل ذلك . وقد انتابه شعور بالخيبة من تصرفات عمران

لأنه ساعد على ارتقائه العاجل في مختلف المراتب وعينه نائباً له كلما غاب عن العاصمة .

والشخص الوحيد الذي حافظ على ولائه له في مجلس الثورة هو صلاح جديد ، وهو علوي كعمران . وجديد الذي ارتقى من رائد الى لواء خلال تسعة أشهر فقط كان عدواً عنيداً للناصرية ، كما كان من أعضاء الحزب المخلصين لمبادئه . وقد انسحب من الجيش بسبب نشاطه السياسي قبل الانقلاب ، غير أنه أعيد الى الخدمة الفعلية من قبل حزب البعث . وأدى نشاطه في الحزب إلى جعله الرئيس الاسمي للزمرة اليسارية . ومع ذلك فإن مساندة جديد لم توفر العزاء الكافي لحافظ الذي تصاعدت خلافاته مع الثنائي أتاسي – عمران . وهكذا فإن عزلته في مجلس الرئاسة زادت في قناعته بالحاجة إلى موقف أكثر اعتدالاً .

وغادر إيلي دمشق إلى الأردن ولديه صورة كاملة عن كل هـذه الأسرار . فالتقى بالبيطار في مدينة الخليل . وكان رئيس الوزراء السابق شديد التردد في العودة لإنقاذ أمين الحافظ مما يتلظى فيه . غير أن إيلي استنجد بأوضاع الحزب وحاجاته الملحة إلى عودة أقطابه من رجال الحكم إلى دمشق . وقال إن الجناح اليميني هو الذي ساند أمين الحافظ منذ انقلاب تموز في السنة الماضية وأن الرئيس كان يرى دائماً في الزمرة اليمينية من الحزب الإطار الوحيد لكل نشاطاته ، وقد شعر الآن بالحاجة إلى قيادة البيطار السياسية ، وأنه على هذا الأساس سيتعاون معه بصدق وإخلاص. **ونزل البيطار أخيراً عند رأي إيلي ، وطار الرجلان إلى دمشق . وبعد أن عاد البيطار إلى السلطة عاد ميشيل عفلق من منفاه الاختياري في أوروبا .**

وكانت المعلومات التفصيلية التي جمعها إيلي أثناء فصل الخريف هي السبب في حمله على الاستعداد لمغادرة البلاد في رحلته الثالثة إلى إسرائيل .

ولم تكن رحلة إيلي هذه المرة مستعجلة كما كانت في السنة السابقة عندما استولى البعث لأول مرة على زمام السلطة . ولكن بالاضافة إلى

الحاجة لاستعراض سنوي للموقف ، فقد أراد الموساد أن يكون إيلي مع ناديا في شهر تشرين الثاني عندما كانا ينتظران الولد الثالث . ووصل إيلي إلى بيت يام قبل عدة أيام من ولادة الصبي الذي كان إيلي يتمناه دائماً . وقد أثار هذا الحادث ابتهاجه إلى درجة حملته على أن يفاتح جدعون في دعوة زملائه من موظفي الموساد إلى مأدبة ساهرة للاحتفال بالمناسبة ، وعلى الرغم من تقدير جدعون لدوافع إيلي فقد رفض الفكرة قائلاً إن زملاءه وإن اتخذوا كل الاحتياطات للتستر على صلاتهم المهنية مع إيلي ، فلا يزال هناك احتمال آخر هو أن يكون بين المدعويين من خارج الملاك من يقع أخيراً على حقيقة الأمر .

وفي هذه الزيارة ، بدأ أعضاء العائلة يشكون بأنه مهما كان من أمر العمل الذي يقوم به إيلي فهو يشتمل على مهام أكبر من الحصول على طلبات السلاح . وقال موريس فيما بعد إنه بينما كان يقيس حذاء قدّمه إليه إيلي كهدية لاحظ أن حجم الحذاء قد كتب بحروف غائبة بعض الشيء إلا أنها عربية . وعندما أراد إيلي أن يحل هذا اللغز بقوله إنه اشترى الحذاء من تركيا ذكره أخوه ساخراً بأن الأتراك لم يستعملوا الحروف العربية منذ نصف قرن تقريباً . وهنا فقد إيلي أعصابه واتهم أخاه بأنه يكثر من تدخلاته في شؤونه الخاصة دون مبرر . وفي مناسبة أخرى ، لاحظ موريس أن إيلي أحضر معه بعض القطع الصينية الصغيرة وهي محشوة بنشرات إعلامية تمجد في مزايا الرئيس ماوتسيتونغ فسأل عن مصدر هذه النشرات ، فأجاب إيلي ببرود أنه كان في بعثة للمشتريات في بيكين ، ولكي يبرهن على صحة أقواله أبرز صورة ظهر فيها إلى جانب رئيس الوزراء شو آن لاي. وقد ذهل موريس ملاحظاً أن من الغرابة بمكان أن يقف أخوه إلى جانب رجال الدولة الصينيين غير أن الصورة كانت تبدو وكأنها صورة حقيقية .

واحتفظ موريس بشكوكه لنفسه ، وعرف بقية أفراد العائلة مع ذلك أن هناك أشياء يجهلونها ، وبعد ولادة شاؤول ارتفعت معنويات إيلي غير أن مزاجه ما لبث أن أعتم بمرور الأسابيع . وخلافاً لما عرف عن طبعه ،

أصبح قليل المزاح ، كما أصبح قليل الرغبة في الاجتماع بأصدقائه القدامى . وبدا لبعض أقربائه « عصبياً رديء المزاج » . أما أسباب الخلل في مزاجه فقد تعود إلى أسباب تعنيه وحده ، وربما أن هذه الأسباب كانت تزيد في آلامه عند اجتماعه بعائلته : فالقرار المتعلق بزواجه من صالحة لا يمكن تأخيره مدة أطول . وهو وإن كان قد تجنب منذ الخطوبة أن يحدد ميعاداً للزواج متذرعاً بحجة أو بأخرى . فقد أفهمه أبو محمود قبل سفره أنه ينتظر منه جواباً حاسماً عند عودته .

ولم تستطع الموساد أن تقدم إليه حلاً لهذا الموضوع ، واقترح عليه رؤساؤه أن يخترع عذراً آخر . أما إذا كان عذره سيعكس انطباعاً بالشك في صدق نواياه فعليه أن يمضي في الزواج . ولم يرض إيلي كثيراً عن نصيحة الموساد . فقد أصبح أكثر انقباضاً ولاحظت ناديا تردده في السفر . وفي إحدى الأمسيات بينما كان يقضي معها عطلة نهاية الأسبوع في فندق « قيصرية » الفخم ، أسرّ لها بما يشكو من فرقة الأولاد . ولكنه عاد فأكد لها أنه لن تكون هنا سوى رحلة واحدة إلى خارج البلاد يعود بعدها للعيش في إسرائيل بقية حياته . وقال : « سأكون قادراً على بناء فيلا جميلة وسأنقطع عن السفر إلى خارج البلاد » . وعندئذ سينتهي كل شيء ، وسأكون دائماً معك ومع الأولاد تماماً كما يعيش الآخرون في جوارنا » .

وفي مساء ١٣ تشرين الثاني كان إيلي في منزله عندما استمع إلى إذاعة إسرائيل وهي تصف في نشرتها المسائية الأولى معركة بالمدفعية وصراعاً جوياً استمر أربع ساعات فوق الجبهة السورية ، وأن القتال انفجر بالقرب من الكيبوتزدان ، وأنه كان أخطر اشتباك وقع منذ معركة النقيب ، وقد قتل عشرينات من الجنود والمدنيين في هذه المعركة من الجانبين . وعندما **ظهرت كل التفاصيل في اليوم التالي ، تحقق إيلي أن المعلومات التي قدمها قبل عام عن مدافع المدفعية السورية كانت عاملاً حاسماً في نتائج المعركة الضارية .**

واستمر التوتر في تصاعد خلال فصل الصيف ، ثم امتد إلى الخريف .

وسّجل مراقبو الأمم المتحدة ٢٩ حادثاً منفصلاً خلال أربعة أسابيع فقط . ولكن في أوائل تشرين الثاني أصبح الموقف أكثر توتراً عندما بدأ فريق من البنائين في إصلاح جزء من طريق الدوريات الذي يمر خلال خط الهدنة بالقرب من مركز المراقبة الدولية . وكان الطريق يستخدم من قبل دوريات الحدود **Mishmar Hagvul** فيراقبون منه نهر دان ، وهو الفرع الوحيد لنهر الأردن الذي ينطلق من داخل الأراضي الاسرائيلية ، وكانت سدود هذا النهر ومضخاته الهدف الرئيسي للتخريب من قبل المتسللين العرب . وقد تقدم السوريون بشكوى إلى لجنة الهدنة يقولون فيها أن الطريق يمر داخل الأراضي السورية ، ولكي يدعموا ادعاءهم زرعوا ألغاماً في الممر ، وأطلقوا النار على دوريات الجيش الاسرائيلي من مواقع في المرتفعات لا تبعد أكثر من ميلين ، وكان الاسرائيليون على استعداد لمواجهة التحدي .

وعند الساعة ١٢،٣٠ بعد ظهر الثالث عشر من الشهر ، كانت حاملة تابعة لسلاح المدرعات تتحرك بتثاقل وتحد على طول الطريق المشار إليه ، فإذا بوابل من رصاص البنادق والرشاشات ينهال عليها من جنوب شرقي تل النخيلة. وتفرقت الدورية تحت غطاء من النيران التي أطلقت من مراكزها ، ولكن بعد عدة دقائق أطلق ستار كثيف من النيران من مدفعية السوريين ورشاشاتهم ومدافعهم التي لا ترتد إلى الخلف من أربعة مواقع مختلفة على مستعمرات دان ودافنا وشرياشوف . وبينما كان أعضاء الكيبوتز يتجمعون في مخابئهم كانت المدافع السورية تحطم المبنى العام للكيبوتز ، وكذلك المرآب ، والسيلويات ، وقاعة الطعام ، وحديقتين للأطفال .

وسرعان ما وافق المندوب السوري في لجنة الهدنة على وقف إطلاق النار الذي اقترحه رئيس اللجنة الذي سارع إلى مكان الحادث . ولكن لما كانت المدفعية الثقيلة لم تسكت بعد الموعد المحدد لوقف إطلاق النار ، قرر القائد الإسرائيلي للجبهة الجنوبية العميد دافيد اليعازار القيام بعمل

حاسم . ولما كانت المواقع السورية لا تطالها المدفعية القصيرة المدى التي هي تحت تصرفه ، لاحظ أنه لا بد من إصدار الأوامر لتسديد ضربة جوية . ولم يكن من السهل الاتصال بأقرب قيادة جوية والمطالبة بإرسال الطائرات . كما أن شن هجوم جوي على الأراضي السورية ، مهما كانت الأسباب الدافعة ، يتطلب موافقة من أرفع المستويات . واتصل اليعازار فوراً برئيس الأركان الفريق اسحق رابين ، وأوضح له الحالة المستعجلة ، وسرعان ما اتصل رابين برئيس الوزراء ليفي أشكول ، الذي كان يقوم بجولة في راحوبوت ، وحصل على موافقته بشأن الضربة الجوية . وهنا اتصل اليعازار بمقر القيادة الجوية في تل أبيب فقيل له إن الجنرال عازار وايزمان هو الآن في طريقه إلى منزله ولكن يمكن الاتصال به على الهاتف في سيارته .

وبعد ثلاث ساعات مرت على تبادل إطلاق النار ، أغارت الطائرات النفاثة الاسرائيلية على الحدود . وكانت طائرتا مستير تحلقان على ارتفاع منخفض تقذف بقنابل النابالم المراكز السورية في تل العزيزيات ، وتل الحمراء ، وزوارا بوكوتا ، وتاباتا ، وغريت . وهاجمت موجة أخرى من طائرات السوبر ميستير والفوتور والميراج مراكز المدفعية السورية بالقنابل والمدافع الرشاشة فأشعلت فيها النيران . وبعد ساعة وخمس عشرة دقيقة توقف القصف . **فقد أذهلت السوريين هذه الغارات الناجحة لأن الإصابات في مواقعهم كانت دقيقة للغاية** .. ووافقوا على توقف عام عن إطلاق النار .

وبعد مطالعة التقارير الواردة من مراقبي هيئة الأمم المتحدة صوّت مجلس الأمن على قرار استعملت فيه موسكو حق الفيتو ، يدين السوريين بإثارة حادث تل دان . **أما في مقر الموساد ، فإن نجاح عملية الردع الجوية لسلاح الطيران الاسرائيلي ، اعتبرت انجازاً شخصياً من جانب العميل رقم ٨٨ .**

ولم يكد إيلي يعود من زيارته الأخيرة إلى وطنه ، حتى تلقى دعوة

لزيارة منشآت المزة التي أخليت مؤخراً من جميع السجناء . وعندما كان يقف إلى جانب الصحفيين مصغياً إلى وزير الإعلام وهو يعلن أن « فجر عهد جديد خلو من الانقلابات » قد أشرق على سورية ، لم يكن يدور في خلده أنه سيكون بين الأوائل الذين سيعودون إلى المزة كسجين سياسي . وبينما كانت الدسائس الحزبية توصف بأنها من الماضي ، كان اللواء صلاح جديد وميشيل عفلق ، الذي عاد مؤخراً من منفاه الطويل في ألمانيا ، يبحثان سراً في الوسائل المؤدية لاستمرار الوضع الراهن . ولما كانت المكائد داخل الحزب لا تزال مستمرة ، لذلك جدد إيلي تحرياته لمعرفة مراجعها ومصادر تغذيتها .

وفيما عدا التطورات الجديدة في حزب البعث ، **أحاط إيلي المركز علماً بتحركات قريبة على طريق التأميم** . ولم تكد تل أبيب تتلقى هذه المعلومات حتى صدرت المراسيم المرهوبة . فبعد مرور فترة قصيرة على البرنامج الإخباري بعد الساعة ١١,٣٠ من مساء ٨ كانون الثاني ، بدأت إذاعة دمشق في بث المارشات العسكرية تتخللها الشعارات الناصرية . ووعد المعلق قائلاً : « إن عام ٩٦٥ سيشهد تطورات أساسية في تقوية أسس النظام ». وعلى الرغم من أن حادثاً من هذا النوع يشير إلى بداية حركة انقلابية جديدة، أو إلى انهيار عهد سابق، **فإن إيلي لم يندهش عند سماع النبأ ، فقد كان يتوقع صدور إعلان بتغييرات اقتصادية كاسحة .** وأعلنت التفاصيل عند الساعة الواحدة والنصف صباحاً عند نهاية عيد الفطر الذي أعقب شهر الصيام الطويل : شهر رمضان . وتلا المذيع أربعة مراسيم ألغت الملكية الخاصة في الصناعات الرئيسية . **وحصل إيلي على معلومات تفصيلية عن هذه الإصلاحات قبل أيام من الكشف عنها ، وعندما كانت لا تزال قيد الدرس في اللجنة الاقتصادية لمجلس قيادة الثورة . وتسلمت إسرائيل المسودات الأولى لهذه المراسيم مرفقة بتقرير طويل ناقش فيه إيلي ردوده المحتملة على الاقتصاد السوري . وخاصة على الوسط « الأعمالي » .**

وقد أطلق النظريون في حزب البعث على هذا البرنامج اسم الإدارة

الذاتية « Autogestion » وهي تقضي بالاستيلاء على جميع الصناعات تقريباً ، ولكن على أساس سلم متحرك يمنح الحكومة درجات مختلفة من الملكية في مختلف المؤسسات . ويقضي المشروع بالتعويض عن المشاريع بأسهم حكومية ، بينما تظل المشاريع الصغيرة ملك أصحابها . ومن ١١٥ مؤسسة تبلغ قيمتها ٧٠ مليوناً من الدولارات وتنتج مصنوعات تبدأ من البيرة وتنتهي بالغزل والنسيج ، لم تؤمم الدولة كلها سوى ٢٢ مؤسسة ، أما البقية فقد شملها التأميم الجزئي . وبعض الشركات غيرت إداراتها ، بينما بقي الجهاز التنفيذي لمعامل أخرى على حاله بدون تغيير ، وذلك بالاستناد إلى نسبة ملكية الحكومة في كل من هذه الشركات . وبموجب أحكام المرسومين الأولين فإن المشاريع التي تدار بأعلى درجة من الكفاءة كانت أقل تعرضاً للتأميم . أما التوجيهات الأخرى فقد ضمنت تعويضات للمالكين تدفع في مدى ١٥ عاماً بفائدة ٣ بالمئة ، والتعويض على هذا الشكل يعكس صورة كئيبة في نظام يعوزه الاستقرار ، وتقضي التوجيهات كذلك بإصدار حكم الموت أو السجن مدى الحياة على كل من يحاول اعتراض هذه التغييرات .

وفجأة وضعت البلاد في حالة استنفار . وعندما ذهب الصناعيون إلى مكاتبهم في اليوم التالي وجدوا الجنود والدبابات عند أبواب المعامل التي كانت مقفلة ومختومة بالشمع الأحمر . وفي المصارف التي تمتلكها الدولة ، وجد رجال الأعمال صناديق ودائعهم مفتوحة ، وعملتهم الأجنبية وقد بدلت بالعملة السورية . وفي نهاية الأسبوع ، اشتدت النقمة في البلاد ، وأعلن أمين الحافظ الأحكام العرفية زاعماً أن « الرجعيين السوريين وحلفاءهم الأمبرياليين في الخارج يحاولون اعتراض حركتنا». وأرسل قوات لإغلاق الحدود ، وأصدر الأوامر إلى الجيش للقيام بأعمال الدوريات في الشوارع والمدن الكبرى . ومع ذلك فإن الوسط « الأعمالي » في سورية لم يؤخذ على حين غرة .

كثيرون ممن كانوا يتوقعون الأسوأ نقلوا القسم الأكبر من ممتلكاتهم

إلى لبنان وسويسرا. وفي أقل من عامين جرى تهريب مليار من الدولارات تقريباً. واستعد كثيرون من رجال الأعمال للفرار لحاقاً بأموالهم . أما النتائج الأخيرة للشائعات والمراسيم فقد أثبتت أنها أكثر تدميراً لحزب البعث . ذلك أن فرار رجال الأعمال الأكفاء لم يدع سوى القليل من الأشخاص القادرين على إدارة المشاريع المؤممة . ولم يكن بين السبعين مديراً الذين عينوا للمعامل سوى مدير واحد سبقت له خبرة وتجربة . أما الآخرون فقد جاءوا بالدليل القاطع على أن النظام غير قادر على مجاراة المكاسب الرأسمالية .. وسرعان ما تبين لأمين الحافظ شبح الأخطار الكامنة وراء التحويل الاشتراكي المستمر ، وسمح لصناعات رئيسية بالاستمرار في العمل بموجب النظام الحر . ولكن في الوقت الذي كان فيه رئيس الدولة يبحث عن حل ، كان لا ينفك عن التوضيح بأنه لا يسمح بأن ينظر إلى إجراءاته بروح من عدم المبالاة . وعلى هذا الأساس أقيمت محاكم ثورية خاصة لقمع المعارضة ، وقدمت إلى المحاكمة القافلة الأولى وهي تتألف من ثمانية من رجال الأعمال الذين صدر عليهم حكم الاعدام بإجماع الآراء .

وإيلي الذي لم يشهد محاكمة هؤلاء ، سيكون شاهداً على سوقهم إلى حبل المشنقة عندما مروا أمام زنزانته حيث كان ينتظر مصيره .

الكتاب الرابع

المحاكمة والتعذيب



الجهاز القرصان

مسألة صاحب الفضل في القبض على كامل أمين ثابت هي من المسائل التي لم تمر بدون نزاع. فالمصريون المولعون دائماً بالتقليل من اعتبار السوريين يزعمون أن مخابراتهم وليس المكتب الثاني السوري هو الذي كان الأداة في الكشف عن العميل الاسرائيلي . ويقول الموظفون في وزارة الداخلية في القاهرة أن آثار أمين ثابت التقطت عام ١٩٦٤ أثناء زيارة كان يقوم بها اللواء علي علي عامر للجبهة السورية الاسرائيلية. فقد تعرف أحد ضباط الأمن على وجه مألوف لديهم كان بين الممثلين المدنيين لحزب البعث الذين رافقوا القائد المصري .

وبعد المزيد من التحريات ، اكتشفوا أن العضو الرسمي في الحزب ، والمعروف باسم كامل أمين ثابت ، كان من سكان الاسكندرية ،وأوقف في الخمسينات ثلاث مرات بتهمة القيام بأعمال تخريبية. وبعثت القاهرة بمعلوماتها إلى المكتب الثاني السوري الذي باشر آنئذ بأعمال التحقيق .

أما السويداني ومعروف فيدعيان أن مخابرات الخصم لم تتفوق على المكتب الثاني السوري ، وأصر الفريقان أن محطة إسرائيل عندما كانت تذيع في الصيف الذي سبق توقيف كامل امين ثابت عدداً من قرارات الوزارة السورية ، التي سبق مناقشتها في المجلس الوطني لقيادة الثورة ، لفت نظرهما احتمال تسلل عميل إلى أرفع الدرجات الحكومية . كما أن الشيفرة الاذاعية التي لم يكن بالامكان التقاطها قد زادت في أسباب الاعتقاد بأن الكوارث التي نزلت بسورية في الستينيات يمكن أن تنسب إلى عميل من درجة رفيعة . وازدادت المخاوف والشكوك في تشرين الثاني ١٩٦٤ ، عندما سددت المدافع الإسرائيلية ضرباتها بدقة مذهلة على مواقع المدفعية

ذات المدى البعيد في الجبهة الجنوبية . وهو عمل لا يمكن تحقيقه بدون الوصول إلى معلومات ثابتة ومصنفة .

ومهما كانت الحقيقة الكامنة وراء الادعاءات السورية ، فإن المكتب الثاني السوري لم يشتهر في أي يوم لا بالفعالية ولا بالثقة . ويعود السبب الرئيسي لفشله إلى تلك الموجة من أعمال التطهير الناشئة عن الحرب الداخلية القائمة بين مختلف الفئات البعثية ، وبين الضباط يمينيين ويساريين . أما شعبة مكافحة التجسس فقد كانت تتعاطى دائماً شؤون السياسة الداخلية أكثر مما تحاول استكشاف العملاء الأجانب . وهذا الفشل بالوقوف في وجه التهديدات الخارجية يعود إلى طبيعة تشكيل المكتب الثاني بعد فترة قصيرة من انتهاء الانتداب الفرنسي على البلاد .

وعندما كانت سورية تمر بدور تطورها إلى جمهورية حديثة ، قامت الإدارة الجديدة بإنشاء هيكل لمنظمة المخابرات العسكرية اسمه «المكتب الثاني» التابع للقيادة العامة ، والمؤسس وفقاً للنموذج الفرنسي . والمكتب الثاني الفرنسي هو كسلفه المكتب الثاني المعروف منذ القرن الخامس عشر باسم « التجسس المدني للكاردينال الأحمر ، الدوق دي ريشيليو » الذي مزقه الحرق والفضائح . وفي الحرب العالمية الثانية كان المكتب الثاني مأوى للمتعاونين، وإذا فإن العناصر الفيشية هي التي اقتبس منها الموظفون السوريون خبرتهم في أساليب الشرطة السياسية .

بإرشاد من الفرنسيين وبعدهم من الالمان ، قامت بالمحاولة قبضة من الضباط السوريين في القوات الاحتياطية ، لم يكن سوى لدى القليلين منهم معلومات أولية عن شؤون المخابرات ، فحاولوا أن ينشئوا أداة نافعة وقادرة على جمع المعلومات السياسية والعسكرية عن الجيش الاسرائيلي، وحتى عن حلفائهم العرب ، وكذلك الدخول في نشاطات لمكافحة التجسس ، وصيانة أمن القوات المسلحة ، غير ان الضباط من الرتب العالية ، الذي جاءوا في أعقاب المعلمين الفرنسيين ، راحوا يطوّرون المخابرات وجهاز الأمن على أسس من عقلية المكتب الثاني ، أي تطهير

الخدمات من المنطلق بغية تحقيق انتصارات شخصية على صعيد السلطة . **وكنتيجة لذلك فإن جميع المفتشين العامين في الشرطة ، والأمن العام ، ورؤساء المكتب الثاني ، ورؤساء مصالح الأمن الداخلي ؛ جميعهم تقريباً أصبحوا فيما بعد رؤساء أركان أو وزراء للدفاع أو للداخلية أو حتى رؤساء جمهورية . ولعل أبشع الصور كآبة مما يعكس هذه المكائد هي التي طافت على السطح بعد قيام الجمهورية العربية المتحدة ، وفي أيام الوحدة مع مصر .**

فعبد الحميد السراج رئيس المكتب الثاني منذ عام ١٩٥٤ جمع بين يديه سلطات جعلت منه الحاكم الحقيقي للاقليم الشمالي ، وكان عمره ٣٦ عاماً ، ناعم اللسان ، ابن لتاجر غني من مدينة حماه ، تخرج من مدرسة الدرك ، ثم من الكلية الحربية في حمص ، وكلية المساعدين الفرنسية ، ولم يكن يقتصر اشرافه على ١٥ ألفاً من قوات الشرطة فقط ، وإنما امتد إلى قوات الأمن الداخلي ، والمخابرات العسكرية ، والمكاتب الخاصة . وهي الشرطة السياسية التي كانت تنفق أكثر من مليون ليرة سورية في العام على ٦٥٠٠ مخبر بقصد الحفاظ على الوحدة . وكان حسنين هيكل صديق عبد الناصر وأمينه يقول عن السراج: «يريد أن يعرف كل شيء وعن أي إنسان ، وكان لا يرضى ان تفوته حركة ولا همسة » . كما كان أحد معاونيه يقول عنه : « كان قادراً على أن يسمع النملة وهي تمشي في أي مكان من سورية ، كما أن عيونه كانوا من الكفاية بحيث تعلم السوريون الذين يكثرون الكلام أن يتحدثوا همساً ، كما طور السراج لدى السوريين علة اسمها (الرعشة السورية) ، وهي مرض عصبي تضطر المريض إلى أن ينظر دائماً إلى ما وراء كتفيه » .

وخلال أكثر من ثلاث سنوات استطاع السراج أن يتخلص بلباقة من الضباط المدنيين الذين كانوا غير راضين عن النظام . وكان يبتكر قضايا التجسس ، ويلاحق المنشقين أمام القضاء موجهاً إليهم أشنع الاتهامات غير المسؤولة ، وسياسته الاستبدادية التعسفية جرّت الإقليم الشمالي أخيراً

إلى حافة الفوضى . وفي آخر أيام الوحدة حاول عبد الناصر أن يكسر من شوكة السراج ، عندما قسم مصالحه إلى « مخابرات عسكرية » و « أمن داخلي » ، ودمج المخابرات المصرية بالمكاتب السورية وذلك لتوسيع أفقهم ، ورفع مستوى كفاءتهم . غير أن القلق الذي استحوز على المنظمتين ، والذي نشأ عن تاريخ طويل من أعمال التطهير وعدم الاستقرار السياسي ، يضاف إليه الخصومة التقليدية بين المصالح ، كل ذلك لعب دوره في تأخير انصهار عملياتهم .

وعندما أعيدت الجمهورية العربية السورية عام ١٩٦١ حلت أجهزة السراج ، وبعد تطهير الجيش من الضباط الناصريين أعيد تنظيم هذه المصالح ، ووضعت تحت قيادة ضباط من الجناح اليميني ، الذين حاولوا بدورهم استخدام سلطتهم لتصفية العناصر الشيوعية والناصرية والاشتراكية في الجيش . وعندما انتقل الحكم إلى حزب البعث تحول المكتب الثاني بجميع فروعه إلى مجرد أداة حزبية . وفي سلسلة من الانقلابات الداخلية على هذه المصالح تولى الضباط الموالون لهذه أو تلك من الزمر العسكرية بتعاقب سريع . وأهمل موضوع التجسس الأجنبي إهمالاً مطلقاً على وجه التقريب ، والمخابرات العسكرية كانت تستخدم فقط لصيانة الأمن داخل الجيش ، كما تحولت مكافحة التجسس إلى سلاح سياسي يستخدم ضد الأخصام العقائديين .

وعندما التحق أحمد سويداني بالمكتب الثاني كان نشاطه لا يزال متركزاً على الأعداء المدنيين والعسكريين، وكذلك على الدسائس بين العرب. وسرعان انسجم العقيد مع المنظمة التي كانت تنقصها الكفاءات اللازمة ، وركز جهوده في البحث عن مواقع الحسد والكراهية ، لكي ينعم برضى رؤسائه ذوي الأمزجة الواقعية والسياسة الماكرة . وخلافاً لأكثر الضباط السنيين كان السويداني من أصل ريفي ، ولد في عائلة قروية تعيش في أواسط سورية ، ودخل الجيش قبل أن يبلغ السن القانونية ، وتخرج من كلية حمص العسكرية عندما كان لا يزال في العشرينات . ولما كانت المراتب

في مصالح المخابرات قد تناقصت بسبب تدابير الفصل الجماعية ، نقل في أوائل الستينيات إلى المكتب الثاني ، حيث مكنته خلفياته وعصاميته ومعرفته باللغتين الفرنسية والانكليزية من التفوق على كثيرين من رفاقه الضباط . وبعد ثلاث سنوات من أعمال الشرطة رفع السويداني الصامت الذي كان يلقب بالسفانكس من قبل زملائه إلى رتبة مقدم في الجيش السوري .

وبعد الانقلاب البعثي في عام ١٩٦٣ تعاون إلى حد بعيد مع العقيد محمد الشنيوي ، وساعد على توجيه المنظمة وجهة سوفياتية من جميع النواحي . ولما كان السويداني ماركسياً متحمساً ، ويشعر بالعطف على الفيتكونغ وعلى الثورة الكوبية ، فقد أوفد في بعثة تحري الحقائق إلى الصين ، ولدى عودته أصبح قائداً للضباط العقائديين في حزب البعث ، وراح يتمتع بنفوذ واسع وراء الكواليس في الجيش وفي الحزب .

غير أن ما كان يهم السويداني في الدرجة الأولى هو مستقبله في الجيش ، فبعد أن أصبح عقيداً في سن الواحدة والثلاثين ، راح يسعى ليصبح أصغر جنرال في الجيش السوري . ومنذ تولى شؤون المخابرات في عام ١٩٦٤ كان يصر على استنفاد أوقات موظفيه كلها ، وكان لا يتسامح تجاه التقصير ولا التخلف . وكان عنده نصف دزينة من الضباط يكتبون التقارير التي تتناول الدسائس السياسية ، فينقلها إلى رئيس الأركان وصلاح جديد ووزير الدفاع ممدوح جابر ، وقبل هؤلاء جميعاً اللواء الحافظ . وكان السويداني يعمل بصورة مكشوفة ، وإلى حد المغامرة لينال الحظوة عند رئيس الدولة . وهذه الظاهرة من الولاء الشخصي كان يعتبرها الكثيرون عملاً طائشاً في الجو المقلقل الذي كان طابع السياسة السورية آنئذ . وكان الحافظ يؤمن من جانبه بكفاءة السويداني وولائه ، غير أن أطماع العقداء الشبان الآخرين جعله منه في موضوع الارتباك .

وسمعة السويداني سبقته إلى موسكو حين طار في زيارة رسمية مع وفد عسكري سوري ، فاستقبل بأجلى مظاهر الحفاوة والتكريم ، واستقبله

رئيس المخابرات السوفياتية الـ KGB فلاديمير سيميكاستني ، ونائبه الميجر جنرال ن. س. زاخاروف ، وكانا على استعداد لأن يوليا أذناً صاغية لكل حاجات المكتب الثاني السوري . ويقال ان سيميكاستني الرجل الطويل القامة ، ذا الشعر الرمادي والذي انحدر أيضاً من الطبقة العاملة ، قد أطلع السويداني وحزبه على بعض أساليب مكافحة التجسس ، وعلى أقسام المساندة التكنيكية في البناء الحجري الضخم في رقم ٢ من شارع زرزينسكوفو ، الذي كان مقراً للمخابرات السوفياتية ، غير أن أكثر مديريات المخابرات الاثنتي عشرة ، وخاصة الاقسام التي تمارس شؤون التجسس الأجنبي ، لم يكن في الامكان الوصول إليها .

وعرض زخاروف أن يزود مصالح الأمن الداخلي والمكتب الثاني ببعض الأدوات الاكثر أهمية ، التي خططتها وأنتجتها الفروع الفنية والتكنيكية في المخابرات السوفياتية بالاضافة إلى أجهزة رفيعة خاصة بالاستماع والارسال ، وكذلك حيل استراق السمع ، والحبر السري ، والأسلحة ، والأدوات الاخرى التي يستعملها العملاء السريون . ووافق السوفيات كذلك على منح دراسية لضباط المخابرات السورية في كلية فرونز ، كما قبلوا عدداً منهم في المؤسسة القضائية التابعة للمخابرات السوفياتية ، إما لدراسة كاملة تستمر أربع سنوات أو لاجتياز برنامج خاص ملخص ومعين في شؤون الأمن الداخلي ، أو جمع المعلومات ، أو مكافحة التجسس .

ولم يسمح للسوريين ، لأسباب واضحة ، سوى بإلقاء لمحة فقط على الجهاز السري الرئيسي الآخر وهو « المكتب الرابع لمجلس إدارة المخابرات للقيادة العامة للجيش الأحمر GRU ، وهـذا المكتب هو منافس لجهاز المخابرات الآخر الـ KGB وقـد التقى السويداني برئيس المؤسسة العسكرية GRU ، وهو رجل نحيل الجسم اسمـه الجنرال إيفان سيروف ، التقى به في دمشق عندما قيل أنه لم يظهر ميلاً للتعاون مع السوريين . وكان للمكتب الرابع (مخابرات الجيش السوفياتي) شبكة واسعة في سورية تحت غطاء من دبلوماسيين ومستشارين عسكريين ،

وفنيين ، وأعضاء من الحزب الشيوعي ، وصحفيين من مخبري وكالتي تاس ونوفوتني ، وعدد من « غير الشرعيين » الذين قد تتضرر أوضاعهم في حالة التعاون مع المصالح المحلية المماثلة ، اما الآن فقد غير سيروف من وضعه السابق ، وعرض على دمشق تعاون المكتب التام .

وعاد السويداني إلى دمشق وهو يحمل ميثاقاً من أجل تعاون أفضل بين المصالح السورية والسوفياتية ، وإقامة ارتباط دائم على هذا الصعيد بين موسكو ودمشق . ووعد الروس كذلك بأن يتبادلوا مع السوريين كل المعلومات التي يجمعها عملاؤهم عن إسرائيل . كما وعدوا بالمساعدة على إعادة تنظيم مصالح الأمن والمخابرات ، وإنشاء مدارس للتجسس ، وإرسال المزيد من المستشارين ، والمزيد من الأجهزة الحديثة الخاصة بالنشاط السري . وكان الروس بدعمهم للمكتب الثاني السوري يرجون إنجاز هدف هام آخر هو التغلغل في جهاز المخابرات السوري ، وبصورة غير مباشرة في أجهزة البلدان العربية الأخرى ذات العلاقة بسورية . وكان المكتب الرابع الـ GRU يتابع حث عملائه في سورية في البحث عن الطرق التي تمكنهم من السيطرة على الجيش السوري وعلى حزب البعث . لأن دمشق تستطيع ضمان عمليات أكثر فعالية مهما كانت نوعية السير في الاتجاه السوفياتي ، وعلى الرغم من كل ما تشتمل عليه المحاولة من مجازفات .

ولسورية ، شأن البلدان الأخرى ، حقلها الخاص من أجهزة استراق السمع الاليكترونية . وجهاز الاستماع التابع للمكتب الثاني السوري هو من النوع الذي جرى تطويره في الحرب العالمية الثانية من قبل الفرنسيين ، ثم استعمل ببراعة فيما بعد من قبل الانكليز ، ثم أتمه الروس . وهو الآن يعمل منذ عام ١٩٥٨ حين أقام السوفيات شبكة الرادار في جميع أنحاء البلاد . وقد أُقيمت محطات الاستقبال التي تسير الأمواج الهوائية بأنتيناتها على طول الساحل السوري ، وحول مدينة دمشق . وعلى الرغم من أن الفنيين السوريين الذين قاموا بالتحريات عن مصادر ما يتدفق من

الطنين والأزيز عبر موجات الأثير السورية ، بالتعاون مع المستشارين السوفيات ، فإن جهودهم لاستقصاء الآثار ، واكتشاف العملاء الأجانب كانت حتى ذلك الحين فاشلة . وفي أوائل عام ١٩٦٢ استطاعت محطة اقتفاء الآثار الصوتية بالقرب من دمشق أن تلتقط إشارات غير مرخص بها مسموعة ولكنها ضعيفة . وفي الأشهر التالية استطاع المتعقبون أن يعزلوا الذبذبات الغريبة عن الإشارات الأخرى ، وكانت هذه الذبذبات تصدر عن الموجة ذاتها كل يوم ، وعلى العموم بين الفجر والساعة الثامنة صباحاً . غير أن الاذاعة كانت قصيرة بحيث لا تتيح للجهاز القديم الوقت الكافي لتحديد موقع جهاز الإرسال . وقد أُرسلت تسجيلات لهذه الإشارات إلى الجهة المختصة لفك الشيفرة غير أنها فشلت في محاولاتها مرات عديدة . ومع ذلك فقد استنتجت شعبة مكافحة التجسس من قصر الرسائل أن جهاز الإرسال السري كان لا يرسل الكثير من المعلومات . ولم يثبت لدى الشعبة وجود جاسوس في دمشق إلا بعد أن طالت الرسائل . ثم قر القرار بعد ذلك على أن جهاز الارسال يعمل في مكان ما في القسم الشمالي الشرقي من مدينة دمشق . كما استطاع المتعقبون أن يحددوا مفتاح الشيفرة التي يستعملها الجهاز القرصان ، وهنا رفعوا معلوماتهم إلى القيادة العامة . وأصدر معروف ، الذي كان يطلع باستمرار على جميع مراحل القضية ، أصدر أمره بتعطيل جميع الإذاعات الأخرى . ولكن قبل أن يوضع أمره موضع التنفيذ ، بدأت المحطة السرية تغير موجاتها وبرامجها فتدفع بالاشارات بين الإذاعات الأخرى وكثيراً ما تتداخل معها .

وفي عام ١٩٦٥ لم تكن محطات اقتفاء الآثار قد حددت موقع المكان الذي تصدر إليه الاشارات ، ولا مكان الجهاز الذي يقوم بإرسالها . وكان أمل معروف الوحيد هو أن تستطيع أجهزة سوفياتية حديثة تأمين الوسائل اللازمة لحل هذا السر الخطر .

* * *

وفي بداية الأسبوع الثاني من شهر كانون الثاني عام ١٩٦٥ ، بعد

أيام قليلة من عودة إيلي إلى دمشق ، عقد اجتماع حضره رئيس المخابرات العسكرية ، ورئيس قوى الأمن الداخلي ، للبحث في استخدام الجهاز السوفياتي الجديد الذي وصل مؤخراً إلى دمشق . ووصل العقيد سويداني إلى القيادة العامة متأخراً قليلاً عن الموعد المعتاد . وعند دخوله إلى المبنى ، صعد السلم وهو يختصر درجاته بسرعة ، ثم اجتاز الردهة المؤدية إلى مكتبه في الجناح المخصص للمكتب الثاني .

وبدا السويداني شديد التوتر ومنجذباً إلى شيء آخر ، عندما كان يصغي بدون اهتمام إلى تقارير الضباط عن ليلة لم يقع خلالها أي حادث . وكانت عينا العقيد تحملق بقلق في أثاث المكتب . وكانت غرفته التي تشرف نوافذها على الساحة الخلفية مجهزة تجهيزاً مناسباً ، كما كانت صورة رئيس الدولة الشاب تنظر إلى الأدنى حيث تدلت خارطة ضخمة للعالم العربي . وما كاد الرائد ينتهي من الادلاء بتقريره الشفهي ويغادر المكان ، حتى راح السويداني يبحث بين أكداس الأوراق المطوية أمامه طياً متقناً . وعثر على المذكرة المنشودة بين الوثائق التي كتب عليها « سري للغاية »، وقبل أن يتمكن من الادلاء بتعليقات أولية رن جرس الأنترفوم، وأخبره أحد معاونيه بوصول المقدم عزيز معروف ، وبعد لحظات أُدخل رئيس مصالح الأمن الداخلي إلى مكتبه ، وتصافح الرجلان ثم طلب السويداني من معاونه الجلوس .

وفي النصف الساعة التالية كان العقيد سويداني يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، وهو يشكو من تقصير دوائره . وقال إنه باستثناء ما أظهرته هذه الدوائر من كفاءة في سلسلة من الانقلابات فإن مساهمتها في عمليات مكافحة التجسس كانت في مستوى الصفر . وعندما توقف السويداني طويلاً عن الكلام إشارة إلى نهاية حديثه ، احتج عزيز معروف ، وأصبح وجهه بلون الشمع حين حاول أن يوضح بكل بساطة أنه ليس بالامكان أن تكون هذه الدوائر أكثر كفاية مما هي عليه ، فالموظفون غير أكفاء ، والأجهزة قديمة ، وكان معروف ملتزماً جانب الاحترام ، ولكن لم

تظهر عليه علائم الخوف ولا العبودية .

وصمت السويداني قبل أن يجيب على هذه الكلمات . فقد كان معروف يساند جميع مهماته السياسية . وكرئيس لشعبة مكافحة التجسس كان نفوذه حاسماً في كثير من المواقع . ولذلك كان السويداني ازدواجي الدوافع عندما التزم جانب الحذر فيما وجهه إليه من لوم ، غير أنه أوضح له أنه لا يكترث بالأمور التقنية . ثم أشار إلى تقرير أتى على تلاوته وكان يكشف عن تحركات جديدة في الجيش من قبل البعثيين اليمينيين ، وهم فئة يرأسها قائد القوات الخاصة العقيد سليم حاطوم . وأسرّ السويداني لمعروف أن هذه المكائد داخل الجيش هي أكثر ما يشغل باله . كما كان يخشى من وجود عناصر مخربة تحاول أن تشق طريقها إلى داخل مصالح الأمن . ثم قال له إنه بدأ يشك في ولاء بعض رؤساء الدوائر ، وأنه ليس في حاجة لأي من هؤلاء داخل المخابرات — ابتداء من الرقيب فما فوق — ما داموا غير موالين له . وأصر على وجوب فرض تدابير أمن أكثر فعالية على الموظفين ، وأن يزيد معروف من نشاطه لرفع مستوى الكفاءة والرقابة في دائرته . ووعد المقدم بأن يحقق مكتبه نتائج طيبة وطمأن رئيسه على ولائه له .

وعندما كان السويداني يصغي لحديث المقدم كانت عيناه البنيتان العميقتان سريعتين في التقلب بين وميض الغضب والرضى ، غير أنه أصبح بعد ذلك أقل قسوة ، وأكثر قدرة على تقييم الأمور . فدار حول مكتبه ثم وضع يده على كتف معروف قائلاً : « لقد عرفت بالتجربة أنني أستطيع الاعتماد على ولائك » . ثم تابع بصوت منخفض ولكنه رنان محاولاً تهدئة مشاعر الضابط المساعد ، أن أجهزة مخابرات حديثة تستخدم الآن في قسم الاستماع قد حلت محل الأجهزة التي بطل استعمالها ، وأنها وصلت من الاتحاد السوفياتي في السابع من كانون الثاني الجاري ، وأنها نقلت من ميناء اللاذقية إلى الهامة حيث نصبت في جناح المخابرات ، وأن السويداني يريد أن يجربها في دمشق بدون تأخير .

وأحال المقدم معروف طلب السويداني في إجراء التجربة إلى الرائد علي مقداد رئيس قسم الاستماع فور وصوله إلى مكتبه . وأحاط معروف كبير موظفي وزارة الداخلية علماً بأن الجهاز الجديد الذي وصل من الاتحاد السوفياتي سيوضع في قيد الاستعمال ، وأن عليه أن يصدر مذكرة إلى جميع السفارات الأجنبية ، وإلى موظفي هيئة الأمم المتحدة ، والمنظمات المحلية ، والأفراد الذين يستخدمون أجهزة الإرسال بموافقة الحكومة ، يحيطهم فيها علماً بوجوب إسكات أجهزة إرسالهم بين منتصف الليل وظهر اليوم التالي الأربعاء . وأرسل توجيهاً بهذا المعنى إلى القيادة العامة ، وإلى مراكز الإرسال في حامية دمشق ، وإلى جميع فرق الإشارة في قواعد الجيش المحيطة بالعاصمة . ولم يسمح ببقاء أجهزة الإرسال مفتوحة إلا للقوى الجوية ، والطيران المدني ، وموجات قوات الدفاع الجوي . وأشار معروف إلى أن الحاجة تقضي كذلك بسكوت محطة الإذاعة . وجاء في التوجيهات أن هذا الأمر غير قابل للإلغاء إلا في حالات مستعجلة تقتضيها ثورة في العاصمة أو حرب على الحدود الجنوبية . وأضاف معروف قائلاً : « إن مرحلة التجربة هذه ستزودنا بفرصة رائعة لالتقاط الأجهزة المهربة التي شعرنا بوجودها ولكننا لم ننجح في تحديد مواقعها » .

وفي يوم التجربة قام معروف شخصياً بالاشراف على العمليات في المحطة المركزية . وفي الساعة السابعة تماماً كانت جميع أجهزة الإرسال المأذونة والأجهزة العسكرية قد التزمت الصمت . وبعد ساعة من الوقت تحطم الصمت بذبذبات غريبة ومنعزلة . ولاحظ الذين يتعقبون هذه الذبذبات أنها من النوع ذاته الذي اكتشف في المنطقة الشمالية من المدينة قبل عامين . ولما كان عنصر الوقت هاماً في مثل هذه الحالات ، فقد أصدر معروف أمره إلى فرقة الفنيين بالنزول إلى الشارع . وخلال دقائق كانت وحدتان من وحدات تحري الإشارات تتجهان بسرعة إلى حي أبو رمانة . واجتازت الشاحنة التي تحمل الجهاز ، والتي تشبه سيارات غسيل الشوارع ، الساحات المجاورة لجبل قاسيون وكانت أنتيناتها

تلوح فوق أجهزة التقاط شديدة الحساسية ، بينما كان الفنيون يحصرون الجهة المحتملة التي تصدر عنها الإشارات بالطريقة التكعيبية . وكان الجهاز كلما تقدم إلى الأمام ، كلما أصبحت الإشارات « بيب ، بيب » أكثر وضوحاً . ودخل المتعقبون الشارع الذي يتجاوز ساحة أبو رمانة ، ووقفوا في جوار السفارة الهندية حيث أصبح الصوت ثابتاً مستمراً ، وسرعان ما نقل خبر تركيز المكان إلى عزيز معروف ، الذي تذكر على الفور شكاوى السفارة الهندية من أن إرسالها في الصباح الباكر كان يتقاطع مع أصوات أخرى . فأصدر أمره بسرعة إلى المقداد ليقطع كل الخطوط الرئيسية عن المنازل الواقعة في الجوار الذي تصدر عنه الاشارات . وهكذا نجح المقداد في محاولته الثالثة . فجهاز الارسال المهرب كان يذيع من الطابق الرابع من بناء يقع في الجانب المقابل للأركان العامة . وسرعان ما أحاط معروف السويداني علماً بما توصل إليه . ولم يملك العقيد أن أبدى إعجابه بالغطاء الواقي الذي أحاط به الجاسوس جهاز إرساله . ذلك أن هذا الجهاز كان محاطاً بعشرة أجهزة قوية تابعة لعشر بعثات أجنبية ، بينها مقر قيادة لجنة الهدنة المختلطة السورية الاسرائيلية ، ومركز مواصلات القيادة العامة . وهكذا لم يكن في دمشق منطقة أفضل للتستر على جهاز الإرسال المهرب من المنطقة التي وجد فيها . ولولا تدخل الجهاز الجديد الذي حصلت عليه المخابرات من موسكو لما أمكن الكشف عنه .

طلب العدالة

بعد مضي أربع وعشرين ساعة على الغارة التي شنت على منزل إيلي في دمشق . وصل نظيره إلى مركز المواصلات في الموساد ، فاجتاز الردهة الرئيسية بسرعة ودخل إحدى الغرف المكعبة التي لا يخترقها الصوت ، مغلقاً خلفه الباب . وبعد أن جلس على الكرسي الدوار ، فتح الجهاز المرسل – المستقبل ذا الطاقة العالية ، وأداره على موجة أعدت من قبل ثم راح يفحص مفتاح المورس . ولما بدا كل شيء طبيعياً ، فتح خزانة فولاذية صغيرة ، وأخرج منها عدداً من أوراق الشيفرة ، وكتباً بحلول الشيفرة ، وكان عقرب الساعة يؤشر على الخامسة والدقيقة ٥٧ صباحاً (أي ٧,٥٧ بتوقيت دمشق) فأسرع إلى وضع سماعتي الرأس وراح يبحث عن إشارة الشيفرة الخاصة بدمشق . وكان الاتصال رائعاً ، ووصلت إشارة إيلي بدون أي تدخل . فدوّن ميكانيكياً مجموعة الأرقام بشكل خاص ، وكان على وشك أن يجيب فإذا به وقد تصلب فجأة ، وحاول ضبط ساعة الاستماع بينما راح يثبت بطريقة أفضل على أذنه اليسار . وانتابته موجة من الارتباك ثم انطلق في تدقيق ما سجله مرة ثانية . لم يكن هناك أي شك لديه في أن الرجل على الطرف الآخر كان إيلي ، فقد أحس بضرباته وبأسلوبه الذي اعتاد عليه طوال ثلاث سنوات . وفي هذا الصباح ولأول مرة خلت الرسالة من الجملة المشوشة التي كانت تختتم بها دائماً . وهي إشارة الخطر المتفق عليها سابقاً . ففهم أن إيلي في محنة ، ولكنه لم يستطع أن يوجه إليه أي سؤال فالتعليمات لمثل هذه الحالة كانت قاطعة : توقف وانتظر تفاصيل أخرى . واستجابة لهذه التعليمات امتنع عن متابعة الاتصال وهتف إلى رئيسه. وعندما تكررت الرسالة مرة أخرى بدون خطأ استنتج أن إيلي كان على الأغلب مرغماً على أن يغذي المركز بمعلومات كاذبة.

وعندما انتهى الاتصال الثاني ، وصل الضابط المناوب فتلقى تعليمات موجزة غير أنه صعق عندما تلا الرسالة من خلف الضابط المختص . وعندما ظلت رسالة إيلي في تلك الليلة بدون تشويش فهم الضابط أن أمره قد اكتشف فأصدر أمراً بإعلان توقف البث وبانتهاء العملية كلها .

ودفع بالأنباء الأولى عن دلائل توقيف كوهين عند الساعة السادسة والنصف بتوقيت تل أبيب من مساء يوم الاثنين في ٢٥ كانون الثاني ، أي بعد ٣٨ ساعة فقط من الإغارة على منزله .

وأسرع الضابط المناوب لإعلام رئيس القسم السوري في الموساد ، الذي اتصل بدوره بالميجر جنرال آميت في منزله بالقرب من تل أبيب . وبعد عشر دقائق رن جرس الهاتف في الطابق الأرضي من الفيلا التي يقيم فيها رئيس الوزراء ليفي أشكول في ساحة ابن ميمون في القدس . وعلى الرغم من أن زوجة رئيس الوزراء مريام لا تسمح عادة بإزعاجه في مثل هذا الوقت إلا أن صوت آميت كان كافياً لحملها على إيقاظ زوجها . وتلا رئيس المخابرات الرسالة على أشكول ، ثم أطلعه على الوقائع التي يعرفها ، وعلق على ذلك بقوله إنه لا يشك في أن إيلي قد أرغم على إرسال معلومات كاذبة ووعد بمتابعة الاتصال به أولا بأول .

وفي خمسة وأربعين دقيقة كان آميت قد اتجه بسيارته نحو مقر قيادة الموساد . وكان موظفوه الرئيسيون قد باشروا العمل . وبعد وصوله بأقل من ساعة ، وضع أحد مساعديه أمامه ملخصاً لأقوال الصحف العربية والعالمية . فعثر آميت على خبر صغير أكد جميع مخاوفه . فقد رددت جريدة «المحرر» اليومية تقريراً مشوهاً مصدره سورية ، عن الخوف من وجود « شبكة تجسس يهودية خطرة » . وقد عرضت السفارات الصديقة معلومات إضافية غير أن التقارير الواردة من عملاء المخابرات الاسرائيليين في دمشق وبيروت لم تلق أي ضوء على حقيقة رسالة السويداني . وفي وقت متأخر من الصباح قدمت فرقة الاستماع إلى رئيس المخابرات نسخة طبق الأصل عن بلاغ صدر عن دمشق وهو يؤكد التوقيف ، وأذاعت

محطة إسرائيل النبأ أخيراً في أخبار الساعة الواحدة بعد الظهر ، بعد أن استنتجت الموساد أن ادعاءات البلاغ السوري تستند إلى الحقيقة .

ولم تنشر وكالات الأنباء العالمية النبأ إلا مع قليل من التفاصيل . أما جريدة الهامشمار التي تصدر في تل أبيب ، فقد دفنته في صفحة داخلية . وفي اليوم التالي نشر في صحيفتين من الصحف الغربية ، فقد أوردت جريدة لوموند ملخصاً لحادث الاعتقال ، بينما علقت جريدة نيويورك تايمس بأن « المتهم سيحاكم من قبل محكمة عسكرية وقد يواجه حكم الموت » .

وكان المسؤول عن الموساد يرى أن على الحكومة أن تجند كل طاقاتها لمساعدة إيلي لمنع المحاكمة الشكلية . ولكي يصبح بالإمكان نجاح المحاولة ، تقرر أن يسدل ستار من الصمت على أعمال إيلي المجيدة . إذ تبين لآميت أن عرض القضية سيؤخر المساعي المبذولة لإجراء محاكمة عادلة . وكان يعرف أن السلطات الاسرائيلية لا تستطيع فرض قيود على النشر ، لأن القانون الاسرائيلي يسمح بمنع الخبر عندما يعرض أمن البلاد للخطر . غير أن توقيف إيلي ألغى كل حجة تتعلق بالسرية أو بضرورة كتمان مهمته الحقيقية . وعلى هذا لم يكن في وسع آميت أن يمنع الصحف من نشر القصة ، غير أنه قرر مع ذلك أن يقنع محرري الصحف بالتجاوب معـــه .

وبموافقة من وزارة الدفاع أصدر الأمر إلى سكرتيره بدعوة محرري الصحف ، وقدم لرؤساء التحرير تقريراً كاملاً عن أعمال إيلي ومهمته في دمشق . ثم حدثهم عن ضرورة إبقاء الرأي العام بعيداً عن هذه التفاصيل ، وذلك لتجنب الضجة التي ستعكس بكل تأكيد شعور الارتباك على السوريين وتسيء إلى سير المحاكمة . ووافق المحررون بالاجماع على إسدال ستار الكتمان على القضية طوال المدة التي ترى الحكومة أنهـا ضرورية .

وفي أول اجتماع وزاري للوزارة في أول أحد أعقب الكشف عن

اعتقال إيلي ، أطلع ليفي أشكول وزراءه على تطورات القضية . وعلى الرغم من أن الموضوع كان يتعلق بحياة عميل إسرائيلي ، فإن الاعتبارات السياسية وإن لم تعلن فإنها لم تكن بعيدة عن السطح . وكان رئيس الوزراء يعرف جيداً الأثر الفاضح الذي قد تعكسه على وزارته أزمة داخلية من نوع الأزمة التي أثارتها قضية لافون . وكانت شعبية أشكول في حالة انحسار عندما كان الشعب الاسرائيلي يستعد لانتخاب المجلس السادس للكنيست . وحتّى حزبه الماباي كان قد ملّ من كفاءته ذات الوتيرة الواحدة ، وراح يعتبره كزعيم يصلح لتمشية الأعمال ، وكرمز للتحول إلى شيء جديد غير واضح من حياة البلاد السياسية . وكان رئيس الوزراء قد واجه مؤتمراً للماباي في شهر شباط ، وكان يتوقع التعرض لعملية كشف أوراق تتعلق ببرامجه في الحكم . وكان الرئيس السابق دافيد بن غوريون أكثر الذين حاولوا إثارته وإغضابه ، فقد انحاز إلى ما يشبه جماعة تركيا الفتاة من أفراد الحزب ، كما راح ينتقد رفض الماباي للالتزام بموقفه من قضية لافون التي كانت لا تزال حتّى ذلك الحين تعتبر من « قضايا إسرائيل الكبرى » .

وبعد أن استعرض أشكول ملف كوهين على ضوء تقرير من الموساد عن « مهمة كوهين ذات الأربع سنوات في سورية » استحث أعضاء مجلس الوزراء للامتناع عن مناقشة هذا الموضوع مع مستشاريهم ، وحتّى أولئك الذين يولونهم كامل ثقتهم . أما الآخرون الذين كانوا يعرفون شيئاً عن هذه القضية بالاضافة إلى رجال المخابرات فهم : رئيس مكتبه ، ومعاونوه الأقربون في لجنتي الخارجية والأمن القومي في الكنيست . وقال أشكول : إن ستار الكتمان سيظل مسدلاً من قبل صحافة البلاد أيضاً .

وتابع رئيس الوزراء يقول : إن أول المشاكل التي في متناول يدنا هي إرغام دمشق على أن تمعن النظر في النتائج الدولية التي قد تسفر عن إجراء متسرع قد تتخذه ضد إيلي ، وبالنسبة لما هو شائع عن نظرة السوريين إلى العدالة وإلى القانون ، فإن الاعدام بدون محاكمة كان في حدود

الاحتمالات الحقيقية ، وإذا فرض أن جرت محاكمة ما فستكون صورية عن طريق الكاميرا وستنتهي بحكم الموت . وحتى لو فرض وجرت المحاكمة علناً ، فهناك مبررات ضعيفة جداً للاعتقاد بأن إيلي سيسمح له بالدفاع عن نفسه دفاعاً لائقاً . واقترح أشكول شن حملة عالمية تحت إشراف وزارة الخارجية ، هدفها تأمين تدخل قادة العالم لإقناع السوريين بأن تكون محاكمة إيلي عادلة ، أو — في حالة صدور حكم الموت على إيلي — جعل الرأي العام العالمي ينتظم في صف المطالبة بإنقاذ حياته . ولما كان لم يسبق لإسرائيل أن شنقت جاسوساً ، كما أن إعدام أجنبي في وقت السلم يعتبر منافياً لأعراف التمدن ، فسيصبح من الصعب على السوريين تبرير عملهم . وقال أشكول مؤكداً ان مجرد توجيه النداءات لتحقيق العدالة قد لا يكون كافياً ، وإنه لا بد من الدخول في مساومات مع سورية حول موضوع تبادل الأسرى .

وعلى الرغم من مخاوف بعض الوزراء الذين كانوا يصرون على أن دمشق غير منفتحة للتوسط الخارجي ، سرعان ما ركبت غولدا ماير موجة المساعي اللازمة للإقدام على هذه الخطوة ، غير أنها لم تقتصر على موضوع المحاكمة العادلة ، فقد كان الغرض الأخير من الحملة واضحاً في برقيات الشيفرة التي أرسلتها إلى البعثات الاسرائيلية في خارج البلاد ، فقد كانت تشتمل على ثلاث كلمات قاطعة : أنقذوا إيلي كوهين .

وفي إسرائيل جرى الاتصال بجميع البعثات الأجنبية لمطالبة حكوماتها بالتدخل في القضية . وقامت وزيرة الخارجية بزيارة صديقها الشخصي « والي باربور » ، وهو من بوستون وكان يشغل منصب عميد السلك الأجنبي في إسرائيل ، وبرغم من أنه لم يكن واثقاً من قدرته على القيام بأي شيء فقد وعد بالابراق إلى واشنطن . وقد تابع رجال السياسة الاسرائيليون حثه على العمل في داره التي يفتحها للقاصدين والزوار كل يوم أحد ، وكذلك في المناسبات الرسمية التالية . وعندما جرى الاتصال بالسفير الفرنسي أشار على وزارة الخارجية « الكي دورسيه » أن تلجأ

إلى كل ما يقع تحت يدها من وسائل للتأثير على السوريين . أما المبعوث الخاص لألمانيا الغربية الدكتور كورت بيرينباخ ، الذي كان في القدس ليضع التفاصيل حول إنشاء علاقات دبلوماسية بين إسرائيل وألمانيا الغربية ، فقد لفت نظر وزيرة الخارجية إلى أن إعلان البلدين رغبتهما في تبادل الاعتراف والتمثيل الدبلوماسي ، أدى إلى تدهور العلاقات بين بلده وسورية حتى أن أية مفاتحة في هذا الموضوع ستكون عديمة الفائدة . وجرى الاتصال عدا عن الدبلوماسيين بالزوار من كبار الشخصيات العالمية (اللورد هربرت باودن ورئيس المحكمة العليا أرثر غولدبرغ) . كما طلب من رجال الأعمال والمحاضرين الجامعيين أن يتصلوا بحكوماتهم فور العودة إلى بلادهم ، وكانت الاستجابة قلبية ومؤثرة .

وقد لاحظت وزارة الخارجية منذ البداية أن دمشق تتأثر بتوجيهات الاتحاد السوفياتي وضغوطه . وعندما لمست غولدا مايير من السفير السوفياتي ديمتري جوفاخين الغموض والبرود ، وكذلك الممثلين الآخرين لدول أوروبا الشرقية ، لجأت إلى زعيم شيوعي بارز في إسرائيل، هو موشي سنيه ذو الشعر الرمادي والجسم الممتلىء . ولما كان سنيه ، إلى جانب شيوعيته ، صهيونياً متحمساً فقد طالب الأقطاب الشيوعيين في موسكو وبخارست وبودابست وصوفيا وبراغ بإقناع حكوماتهم بضرورة التدخل لصالح إيلي .

وقام مندوبون عن السكرتيرية العامة في الهستدروت ، وهو إتحاد العمال الضخم في إسرائيل ، بتوجيه نداءات إلى السياسيين الاشتراكيين وإلى رؤساء نقابات العمال في أوروبا ، وقد أدت مساعيهم إلى سيل دافق من البرقيات التي انهالت على دمشق ، وهي تحث على التزام جانب الرحمة من إيلي . كما أن نائب رئيس المجلس الدولي للأحزاب الاشتراكية الدكتور برونو بيترمان تقدم بعريضة إلى السفير السوري في فينا . كما أن رئيس الجمهورية الاشتراكي المعتدل جيسوب ساراغات ، وكذلك الرئيس السابق للأرجنتين أرتورو فرنديزي ، قد تقدما من أمين الحافظ يطلبان

محاكمة رحيمة وحكماً عادلاً . كما أن رئيس بلدية فلورنسا جيورجيو لابيرا الذي كان وسيطاً للسلام في الشرق الأوسط ، وامتاز بالتوفيق بين العرب والاسرائيليين وجمعهم حول مائدة واحدة ، أضاف اسمه إلى قائمة الأشخاص الذين كانوا يعملون على مساعدة إيلي . وتقدم أربعون من رجال السياسة السويسريين ، وزعيم الحزب العمالي الهولندي بيتر دانكرت بمعروض إلى دمشق ، وفي السويد أرسل رئيس اتحاد النقابات ارن جيفر برقية إلى قصر المهاجرين ، وكذلك وقع القادة من رجال العلم في استكهولم على عريضة موجهة إلى أمين الحافظ تطلب الرأفة بكوهين .

وفي بلجيكا اتصل السفير كميل هيوسمان ، الرئيس السابق لمجلس الوزراء والمعروف باعتباره ورفعة مقامه ، الذي تولى الموضوع وكأنه قضيته الشخصية. فكتب ، وأبرق ، واتصل هاتفياً بدمشق ، وعندما تبين له عقم محاولاته عرض أن يسافر إلى دمشق ليتحدث مع أمين الحافظ . أما الملكة الأم اليزابيت التي عرفت باهتمامها بالقضايا الإنسانية ، فقد منحت إذناً بالمقابلة للفريق موشى ديان الذي كان في زيارة لبروكسل كوزير للزراعة ، وبعد فترة قصيرة أبرق القصر إلى دمشق .

وفي الجولة الأوروبية التي قام بها ليفي أشكول في منتصف آذار بحث سراً في موضوع كوهين مع رئيس الوزارة البريطانية هارولد ويلسون ، ومع وزير الخارجية جورج براون ، وذلك على حفلة عشاء رسمية في رقم ١٠ داونينغ ستريت . ثم دعم حزب العمال السفير الإسرائيلي في الاسترحام الذي رفعه إلى بلاط سانت جيمس . وأصبح في وسع حكومة القدس أن تعتمد على مساندة الملكة اليزابيت في الضغط على دمشق . واللورد برتراند رسل ، الذي يقترن اسمه بجميع القضايا الدولية من جميع الأنواع ، كان واحداً من رجال الحملة . وتبعه في ذلك ميكائيل فوت واثنان وعشرون من أتباعه في البرلمان البريطاني ، وكذلك جورج دودكوك رئيس مؤتمر اتحاد النقابات .

وامتدت الجهود الرامية للتأثير على دمشق إلى ما وراء القصور

والوزارات في مختلف بلدان العالم ، فقد أوفد ايهود أفرييل السفير الإسرائيلي في إيطاليا إلى الفاتيكان ، حيث استقبله نيافة الكاردينال سيكونيا ، وهو رئيس حكومة الفاتيكان الذي أصغى إليه باهتمام بالغ . وبعد المقابلة طلب البابا بولس الرابع إلى اثنين من العرب رفعا مؤخراً إلى رتبة كاردينال بالتدخل . كما أن الكرسي الرسولي انتدب رسولاً خاصاً إلى رئيس أساقفة دمشق يطالبه بالإتصال فوراً بأمين الحافظ .

وعندما تزيد الاعتبارات السياسية في وزنها على الاعتبارات الأدبية فإن المساعدة لا تقدم في مثل هذه الحالة بسهولة . فقد لقي السفير الإسرائيلي إبراهام هارمان كما لقي الملحق بالسفارة الإسرائيلية في واشنطن استقبالاً غير حار من قبل فيليب تالبوت مساعد وزير الخارجية الأميركية لشؤون الشرق الأوسط . وقد ردد هذا ما قاله الرئيس جونسون وسفيره المتجول أفريل هاريمان للرئيس الاسرائيلي زالمان شازار ولوزيرة الخارجية غولدا مايير ، عندما كانوا يبحثون في أمور سياسية بعد فترة قصيرة من توقيف إيلي ، أن رأي الولايات المتحدة لا يؤثر كثيراً على السوريين . والحقيقة أن وزارة الخارجية الأميركية كانت في وضع ضعيف بعد الكشف عن قضية تجسس اتهمت فيها الـ C.I.A. ، الأمر الذي أدى إلى انكماش العلاقات بين أمين الحافظ والسفير ريجوي ب . ثايت .

أما في البيت الأبيض تل الكابيتول فقد كانت الاستجابة أكثر تشجيعاً ، فقد أعرب والت هوايتمان روستو ، مساعد الرئيس جونسون في شؤون الأمن القومي ، عن شكه في أن يكون الرئيس قادراً على تقديم أية مساعدة حتى على صعيد غير رسمي . وأظهر أصدقاء إسرائيل القدامى من أعضاء الكونغرس ، الذين كانوا كرماء فيما قدموه لإسرائيل من معونات في الماضي ، أظهروا تفهماً عميقاً ولكنهم لم يعربوا سوى عن أمانيهم بنتائج طيبة .

وعلى الرغم مما كان يمتاز به الموقف من ظلمة وترد ، فقد استمر المجلس الصهيوني الأميركي الذي عرف بنفوذه البعيد في البلاد بالدعوة

للقضية في واشنطن ، بينما راح الاسرائيليون يجندون مراجع خاصة ، وسرعان ما استجاب لينوس بولينغ الذي فاز بجائزة نوبل لطلب المساندة . وكان من الأمور غير المتوقعة أن تستجيب أيضاً الجاليات العربية في التاون وتوليدو وديترويت ، فوافقوا على أن يبعثوا برسائل إلى دمشق . وحذت حذوهم الكنيسة السورية والأبرشية اللبنانية في نيويورك التي ناشدت الحافظ «ومشاعره العربية النبيلة» .

وفي مقر هيئة الأمم المتحدة في مانهاتن ، قام الوفد الاسرائيلي بقيادة ميكائيل سان كومي ، خريج جامعة أكسفورد ، بملاحقة كل شخص كان يعتقد بجدوى تدخله . وعندما كان إدلي ستيفنسون غائباً تحدث أعوان كومي مع جارلس يوست ، الذي كان يشغل المرتبة الثالثة في عضوية البعثة الأمريكية إلى هيئة الأمم المتحدة ، كما كان من قبل سفيراً سابقاً لسورية ؛ وقد قال بفظاظة إنه يتردد بالتدخل في قضية من قضايا التجسس. أما ممثلو الشعوب الافريقية التي تتلقى مساعدات اقتصادية من إسرائيل ، فقد كان موقفهم أكثر وداً إلا أنهم وصفوا مقدماً الجهود التي يبذلونها لتحريك مشاعر السوريين بأنها مضيعة للوقت .

ونيكولاي فيدرينكو السفير السوفياتي الرفيع التهذيب ، والذي لا يفارق البايب شفتيه ، لم يكن أقل من الافريقيين . ووجد الإسرائيليون من البعثات الغربية آذاناً صاغية ، فقد تطوع البريطانيون والفرنسيون لتقديم خدماتهم كوسطاء وحثوا زملاءهم العرب على التعاون معهم ، غير أنهم عادوا يقولون أن محمد عوض القوني هز كتفيه عندما فوتح في الموضوع ، وأن السفير السوري جورج طعمة كان مهذباً إلا أنه كان متصلباً كعادته ضد إسرائيل .

وكان الإسرائيليون يبحثون في هذه الفترة عن وسيلة لإحاطة يوثانت الأمين العام لهيئة الأمم المتحدة علماً بتفاصيل القضية للحصول على مساعدته . وعندما فشلت الاتصالات غير الرسمية جرى الاعداد لعقد اجتماع . فاستقبل يوثانت مندوب كومي يوسف تيكواه في مكتبه في

الطابق الثامن والثلاثين ، وأصغى إليه بينما كان ينفث الدخان من سيجاره الأسود من صنع بورما . وبعد أن أنهى تيكواه حديثه ، راح يوثانت يشرح بتؤدة أنه في الوقت الذي يشاركه عواطفه فهو يرى أن هناك حدوداً لما يستطيع القيام به ، وأن الموضوع حين يتعلق بالتجسس فليس هناك ما يستطيع القيام به إطلاقاً .

ومع هذا كله فقد تابع الدبلوماسيون الإسرائيليون جهودهم بثبات وتصميم . ولما كانوا يعرفون أن يوثانت يعتمد كثيراً على مشورة سكرتيره رالف بانش في شؤون الشرق الأوسط ، فقد اجتمع أحد أعضاء الوفد الإسرائيلي بالوسيط الدولي سراً في منزله في فورست هيل . وكان الحديث ودياً ، وبعد أن أطلع بانش على أغراض الزيارة أصبح صوته أكثر صلابة فقال : ليست هناك أية وسيلة ، فالأمانة العامة غير قادرة على التدخل .

وبعد أن جرت عملية سبر كاملة للمجتمع الدبلوماسي الدولي ، اتبعت وسائل غير مستقيمة للاتصال بالسوريين . ففي بونوس أيرس رفع تاجر يهودي يبيع المنسوجات اسمه هارون بغدادي ، عمره ٥٧ عاماً ، رفع إلى وزارة خارجية الأرجنتين كتاباً يطلب فيه أن تلاحق موضوع ابن أخته كامل أمين ثابت من مواطني الأرجنتين ، الذي اعتقل بتهمة التجسس في دمشق ، فاستدعي البغدادي إلى مكتب الوزارة في شارع أرينالس واستجوب مطولاً . وقبل شهر واحد نشرت جريدة لابرنسا اليومية خبراً لوكالة الأنباء الفرنسية يتعلق بتوقيف عميل إسرائيلي في سورية ، ولكن لم يعرف إلا بعد مرور عدة أيام أن ثابت تقدم بطلبات للحصول على الجنسية الأرجنتينية . ونشر هذا الخبر في الصفحات الأولى من الصحف في جميع بلدان أمريكا الجنوبية . وقد وجدت وزارة الخارجية الأرجنتينية فيما نشرته الصحف ، وفي طلب البغدادي حافزاً لإصدار أمرها إلى قنصلها في دمشق كي يسعى لمقابلة إيلي . ويعمل على تأمين حاجاته الفورية . وفي وقت لاحق طلب إنجيل زابالا وزير الخارجية الأرجنتينية من الحكومة السورية أن تبقي على إيلي كوهين «لأسباب إنسانية».

واستفاد الاسرائيليون من هوية كوهين كأرجنتيني ، فأقدموا على توكيل محام باسم عائلة كوهين للحصول على دعم ما من أية جهة كانت . وكان من نتائج ذلك أن أبرق نائب رئيس الجمهورية كارلوس بيرتييه إلى أمين الحافظ ، كما أن الكردينال ألفريد بالاشيوس ، أبرق من فراش موته راجياً أمين الحافظ أن يشمل إيلي برحمته .

* * *

وخلال هذه الحملة ، لم يبق وسط في فرنسا ، وهي البلد الغربي الأكثر التصاقاً بسورية ، إلاّ وطلب إليه أن يقدم يد المعونة . وقد تلقى ولتر إيتان السفير الإسرائيلي الأصلع ، والبافاري المولد ، تلقى تطمينات من الرئيسين الفرنسيين السابقين إدغارفور ، وأنطوان بيني بأنهما سيتقدمان برجاء إلى دمشق . وبناء على طلب إيتان اتصل وزير الخارجية الفرنسية موريس كوف دو مورفيل بالمبعوث التونسي الموالي للديغوليين محمد المصمودي ، وطلب إليه أن يلاحق حكومته للاتصال بالسوريين . وانتهز ليفي أشكول فرصة زيارة رئيس الجمهورية اللبنانية شارل حلو لفرنسا ، فكتب إلى الجنرال ديغول حول سياسة مياه الأردن ، وأضاف إن إثارة موضوع القلق الذي انتاب إسرائيل حول مصير كوهين من جانب الرئيس الفرنسي قد تكون له نتائجه الإيجابية البعيدة . غير أن ديغول أثار الموضوع مع رئيس الجمهورية اللبنانية ، الذي قيل أن صدمة قد انتابته عندما أُثير معه الموضوع مرة أُخرى من قبل الكاردينال سيفونياني في الفاتيكان .

وفيما عدا الأوساط الحكومية ، حصل الاسرائيليون على مساندة رجال الأعمال الفرنسيين ، والأساتذة ، والقادة الكاثوليك (جاك ميدول) والمحامين (بما فيهم نقيب المحامين ر. ي. تورب) . أما حركة السلام الفرنسية ، وكذلك اتحادات العمال ، والقوى الاشتراكية العاملة والكاثوليكية فقد تعهدت بالتعاون . ولم تترك إمكانية مهما كانت بعيدة إلا وجرى الإقدام عليها في الحملة اليائسة لإنقاذ العميل الموقوف . **واتصل الدبلوماسيون الإسرائيليون كذلك بالدكتور موريس كوس ،**

وهو الجراح اليهودي الذي عالج الرئيس الحافظ من أوجاع كليتيــه . وكتب كوس إلى مريضه القديم طالباً إليه « باسم الحياة » أن يبقي على إيلي .

وقد ظل كتابه ، شأن سائر الكتب الأخرى ، بدون جواب . فقد التزم قصر المهاجرين جانب الصمت تجاه كل الالتماسات التي تلقاها من مختلف أنحاء العالم .

الاستجواب

لم يكن يعرف إيلي من زنزانته في سجن القلعة بدمشق الجهود التي بذلت لإنقاذ حياته ، كما كان لا يملك سوى التخمين عما إذا كان الموساد قد أحاط ناديا علماً بحادث اعتقاله أم أنه لم يفعل .

وبعد استجواب مبدئي في قاعدة « الحمادية » نقل إيلي إلى ركن مظلم في سجن القلعة ، وهو السجن القديم الذي يقع في قلب دمشق ، حيث كان ينقل للاستجواب بصورة دورية إلى غرفة كبيرة في الطابق الأول من مبنى القيادة العامة . وقد اشترك في جلسات الاستجواب هذه العقيد سويداني والرائد دواره (Tawara) ، وفي بعض الأحيان الرئيس الحافظ شخصياً . وقال أمين الحافظ فيما بعد : « شاهدت إيلي مرات عديدة بعد ذلك ، وقدمت إليه السجاير ولكنه رفضها . كما رفض أن يشرب ، كان مسيطراً كل السيطرة على أعصابه ، كما تصرف في تلك الساعات الصعبة تصرف الرجل الشجاع الذي يعرف كيف يحترم نفسه » .

وعلى الرغم من أن إيلي أمسك بعض الشيء عن مناقشة حياته الشخصية ، فقد حذف بعض المعلومات التجريمية الخاصة بتجنيده ، وتدريبه ، وغطائه في الأرجنتين ، وإنجازاته في دمشق . كان مستعداً استعداداً كاملاً لحادث إلقاء القبض عليه ، وقد تمرن على الإذعان للاستجوابات الحادة ببطء وبالتدريج كي يعكس في نفوس مستجوبيه الانطباع بأنه يبدي لهم روح التعاون ، وأن حقائق كثيرة مما لم تكن لديه الرغبة في إفشائها قد انتزعت منه بنجاح . وكان يعرف أن المعلومات التي وصلت إلى المستجوبين تستند إلى مادة تافهة تسربت إليهم عن طريق الشرطة . وكان إيلي يلجأ إلى زخرفة الهام منها وتهويله ليوحي إليهم بأنه

كشف الكثير مما هو حيوي . ولم يشعر مستجوبوه في باديء الأمر بهذه المناورة ، وتجنب إيلي الكشف عن كثير من الحقائق المجرّمة . ولكن على الرغم من تاكتيكه الماكر فقد استطاع السويداني أن يكشف عن شركائه السوريين ، وأن يعيد تكوين بعض المعلومات التي حصل عليها عن طريق أجهزته . **ولكن مع ذلك ظل المكتب الثاني بعيداً عن كثير من جوانب نشاطه .**

وفي الوقت الذي كان يخضع فيه إيلي للاستجواب ، اعتقل عدد كبير من أصدقائه وشركائه في الأعمال التجارية ، ووصل عددهم إلى الخمسمائة شخص بينهم ١٧ امرأة ، بينهم موظفون في مديرية الإذاعة والتلفزيون ، وسكرتيرات في وزارتي الدفاع والإعلام ، وعدد من سيدات المجتمع والمضيفات ، وصالحة . وكان شيخ الأرض معتمد إيلي بين الكثيرين من الموقوفين ، كما كان بينهم معاونه جورج سيف ، وصديقه معزى زهر الدين . **أما الذين اتصلوا بإيلي من الجيش وحزب البعث فلم يمس منهم أحد ، لأن مكانتهم وضعتهم فوق متناول التحقيق .** ويشتمل هؤلاء بالإضافة إلى أمين الحافظ على رئيس الوزراء السابق صلاح البيطار ، ووزير الدفاع ممدوح جابر ، والأمين العام لحزب البعث ميشيل عفلق ، ثم المحسوبين على أمين الحافظ: العقيد صلاح الضللي ، والعقيد سليم حاطوم . بل إن المكتب الثاني – كعادته – كان سريعاً في الاستفادة من قضية كامل ثابت ليتخلص من بعض الأخصام السياسيين ، فقد أحاط السويداني بعدد من أخصام البعث السياسيين بتهمة مساعدة كامل ثابت على أعمال التجسس .

وعندما بدأ استجواب إيلي وكأنه اصطدم بمأزق ، طلب السويداني من رجاله أن يباشروا معه تحقيقاً أشد قسوة . فنقل من مركز التوقيف في سجن القلعة إلى سجن المزة العسكري ، وهو في الأصل إصلاحية للعسكريين ، ولكنه أصبح فيما بعد سجناً لجميع المعارضين السياسيين . وقد أودع إيلي هذا السجن إلى أن تقرر مصيره الأخير . وعند الفجر

وبعد أن قضى أياماً قليلة في غياهب سجن القلعة ، قام حراس السجن بنقله مغلول اليدين بالأصفاد من زنزانته في سجن القلعة إلى شاحنة مغلقة من صنع روسي تتقدمها وتسير خلفها سيارتا لاندروفر مليئتان بالجنود المسلحين تسليحاً قوياً . وسارت القافلة جنوباً في اتجاه الضواحي . وبعد الابتعاد بضعة أميال عن مركز المدينة ، انحرفت القافلة الصغيرة عن طريق دمشق – القنيطرة الرئيسي إلى شارع قذر يؤدي إلى السجن العسكري . ومرت بعد دقائق من أبواب فولاذية ضخمة متصلة بجدران عالية ثم توقفت في الساحة الداخلية ، وهي ساحة مبلطة محاطة بأبنية جميع نوافذها مغلقة بالقضبان الحديدية . وعندما نزل إيلي من السيارة لم يفته أن يلاحظ في وسط الساحة وإلى جانب عين الماء حزمة من أسواط التأديب وقد حزمت حزماً أنيقاً .

وقد بنى الفرنسيون هذه الإصلاحية أثناء الانتداب على شكل قلعة جبلية ، وهي تبدو وكأنها انبثقت من صخرة شديدة الانحدار تحيط بها وديان عميقة جرداء . والبقعة كانت موشاة بالمنشئات العسكرية التي تؤلف منطقة المزة . وعلى الرغم من أن السجن كان قريباً من العاصمة بحيث أن المحتجزين وراء جدرانه يستطيعون أن يسمعوا أصوات الطائرات النفاثة وهي تحط وترحل من مطار دمشق الدولي ، فقد كان السجن في الواقع منعزلاً ، ولا يمكن اختراقه من الداخل . والنزلاء الذين يجرأون على شق ثغرة في جدرانه المرتفعة التي تحيط بها أبراج المراقبة ، يواجههم حاجز من الأسلاك الشائكة وحقل للألغام يمتد على مسافة نصف دائرية ، ولم يحاول الهرب من هذا السجن سوى أولئك الذين لا يخشون أن يضيع عليهم أي شيء .

وقاد الحراس إيلي إلى ردهة كهفية في الطابق الأول ، حيث أُدخل إلى مكتب مضطرب تسوده الفوضى . وكان في انتظاره اثنان من رجال الشرطة العسكرية فراحا يحدجانه بنظرات جامدة ، فطلب إليه أن يخلع ملابسه . وعندما أصبح عارياً تقدم منه أحد الحراس ففحص كل الفجوات

في جسمه بينما كان الجندي الآخر يضع كل شيء أخرجه من جيوبه في كومة صغيرة مضيفاً إليها حزامه ، وشريط حذائه . ثم أعيدت إليه ألبسته الداخلية ، أما حاجاته الخاصة فلم تعد إليه . ثم راح يعالجه أحد الكتاب فقدم إليه كسوة السجن ثم حصل على بصمات أصابعه ، والتقط صورة لوجهه وأخرى جانبية ، **ولكنه حفظ له كرامته فلم يحلق شعره .** وبعد هذه العمليات الأولية أخرجه حارس من المكتب وسار به من خلال رواق رئيسي ذي جدران رمادية ، ثم اجتاز باباً حديدياً ونزل به إلى بناء من الزنزانات يضم ٢٨ مهجعاً ، وهو بناء منعزل محروس حراسة جيدة . وجناح الزنزانات هذا يجتازه ممران ضيقان على كل جانب منهما سبع زنزانات . وأبعد إلى اليمين يوجد ما يسمونه بصف العدم ، ووراءه « المؤبد » وهو المكان الخاص بنزلاء العمر كله . وعلم إيلي فيما بعد أن الحزام الآخر يشتمل على زنزانات أوسع وعلى غرفة استجواب ، كان السجناء يطلقون عليها بدون تحفظ اسم غرفة التعذيب .

أما المهجع المنعزل الذي خصص لإيلي فقد كان ذا رائحة كريهة مسافته ٣ × ٤ أقدام ، أما ارتفاعه فيبلغ ١٨ قدماً ، وهو يبدو كمغارة سجن من القرون الوسطى لا كزنزانة سجن حديث . وكان في الباب الخشبي فتحة صغيرة تسمح برؤية ما في الداخل وكذلك بمرور الطعام . والغرفة محكمة الإغلاق بحيث تدع السجين فيما يشبه الظلام الدامس . وعلى عرض الغرفة يرتفع الإسمنت قليلاً عن الأرض ليستعمل كفراش (ولكي يغطي سطح الأرض الحجري أعطي إيلي فيما بعد فراشاً رقيقاً ممزقاً ، وثلاثة حرامات قذرة) . وفي إحدى زوايا الغرفة صفيحة فارغة من الماء تتسع لغالون واحد وهي تخدم كحوض استحمام ، وفي الزاوية الأخرى مرحاض مفتوح . ولم يكن للزنزانة نوافذ ، بل كان الهواء يشق طريقه من خلال فتحة أفقية ضيقة فوق الباب . أما الجدران التي طرشت مؤخراً بالبياض فقد كتبت عليها عبارات خطها النزلاء المنسيون . واستطاع أن يميز إيلي بين ما هو مكتوب أو محفور رسوماً رديئة للمنجل والمطرقة وكذلك للصليب المعكوف ، ونجمة داوود .

والتواتر اليومي لهذه العزلة الكئيبة كان يجرف النزلاء إلى نوع من الحياة أُريد لهم فيها أن لا يكون الزمن دعامة من دعائم العقل البشري . فقبل فترة طويلة من إشراقة الفجر يستيقظ السجناء على صوت الصراخ والشتائم ، وبعد أن يغسلوا وجوههم بالماء الجليدي الذي أُفرغ في أحواضهم يستعد المؤمنون للصلاة . وبعد الاستجابة لنداء المؤذن يوضع لهم من خلال فتحة الباب كوب من شاي الياسمين الممزوج بالتوابل . ثم يعقب ذلك فترة طويلة من الانتظار لا يعكر هدوءها شيء ، ولا تنتهي هذه الفترة إلا عند وجبة الغداء : رغيف مدور من الخبز الأسود ، وبرغل وشوربا تقدم كلها على لوح من صفائح التنك . ولم تمض أيام قليلة حتى عرف إيلي معنى الجوع ، وقد كان على السجين أن يختزن بعض الخبز ليأكله مع الماء الزفرة التي تقدم في المساء كحساء ، إلا إذا أراد أن يستيقظ في منتصف الليل وقد عضه الجوع .

وبينما كان السجانون يحاولون السيطرة على سلوكه عن طريق الطعام القليل ، كان إيلي يناضل للحفاظ على كرامته . فقد منع عن الكلام ، وعن القراءة ، وعن الكتابة ، وعن التمارين الرياضية . فقد كان عليه أن يقف في انتظار الحارس وهو يتلصص بين حين وآخر من خلال ثقب الباب ، أو يقوم بدوراته التفتيشية اليومية الثلاث ، أو يحصي عدد المساجين . وكانت تسليته الوحيدة أن ينظر بين حين وآخر من خلال الثقب ، الذي ينظر منه الحارس المناوب ، ليرى هذا الحارس وقد نام على سرير نصب في منتصف الغرفة ، ثم يمضي بعد ذلك في تحركاته الروتينية المفروضة . ولاحظ إيلي أن هناك تفاصيل كثيرة يستطيع أن يراها الإنسان عندما لا يفعل شيئاً سوى النظر أو المشاهدة . وبعد أن تحرر من ضغط الوقت راح يواجه فرصته الأولى ليستعرض ويفكر ويستوعب كل ما شاهد أو تعلم أو فعل في حياته الماضية . وقد أعاد النظر في ماضيه كله فتذكر كتباً قرأها ، وأفلاماً شاهدها ، وقصائد استظهرها ولم يكد يشعر بالتعب أو الملل من هذا الروتين المستمر حتى بدأت المحاكمة عن طريق التعذيب .

وقد نسي إيلي عنصر الوقت فلم يعد يعرف شيئاً عن الأيام ولا عن الساعات منذ أن أودع في « المنفردة » ، وكان تقويمه الوحيد هو دوراته الاستجوابية . وفي آخر يوم من كانون الثاني بعد الظهر وبينما كان جالساً في زاوية من زنزانته استمع إلى وقع أقدام في الخارج ، ثم إلى صوت بوق متقطع ثم إلى ضربات متوالية على طبل منفرد . فالثمانية من رجال الأعمال ، الذين ثبتت عليهم جريمة المعارضة للتدابير الاشتراكية الجديدة قبل أربعة أسابيع فقط ، كانوا في طريقهم إلى المشنقة .

وبعد أيام قليلة ، وفي فترة ما بعد الظهر ، استمع إيلي إلى الحراس وهم يجتازون ردهة السجن متجهين إلى زنزانته . وخلال ثوان فقط وقف الحارس المناوب في الانتظار ، ثم حلت أقفال الزنزانة وطلب إلى إيلي أن يخرج منها ، ثم دفع به إلى غرفة قريبة ، هي غرفة الاستجواب حيث طلب إليه بحضور السويداني والنائب العام العسكري أن يصحح بعض التفاصيل التي وردت في استجوابات سابقة . وكلما مرت الأسابيع ، طالت الاستجوابات . وفي البدء كانت تجري مرتين في اليوم ، لكل مرة ساعتين ، ولكن ما لبث أن ارتفع الرقم إلى ثلاث استجوابات يومية ، وبعض الأحيان أربعة . وكان بعضها يستمر حتى السبع ساعات بدون طعام ولا ماء . وفي بداية كل مرحلة كان المستجوبون الذين يتحررون من رتابة العمل كل ساعتين يضعون أمامه النصوص الاختزالية للاستجوابات السابقة طالبين إليه توقيعها ، ثم يلي ذلك دافق جديد من الأسئلة . وعندما ينهار من التعب يوقظونه بالصراخ الذي ترافقه الشتائم والفحشاء . وفي بعض الجلسات كانت تتخذ تدابير مختلفة لتساعده على التذكر : فقد كانوا يدخلون أصابع في فتحتي أنفه ، وقبضة في فمه ، كما كانت تجر شفتاه من الجانبين أو تفرك عيونه بالتبغ ، وكذلك نزعت أسنانه وانتزعت أظافره ، وركل بالأقدام ، وجلد بالسياط إلى أن كانت تسيل منه الدماء . أما قدماه فقد جلدتا إلى أن أصبحتا كتلتين قطعتهما الجراح والكدمات . وكانوا يدخلون الدبابيس بين أظافره ، ويحرقون السجاير على ظهره . وكانوا يضطرونه للجثو على ركبتيه أو الوقوف

ويداه مشدودتان إلى ظهره إلى أن يفقد وعيه . وفي بعض الأحيان كانوا يدخلون أكتافه في إطار سيارة ثم يدحرجونها في أرض الغرفة ، أو يرمون بها من السلم بينما كان الحرس يضربونه . وعندما فشلت كل هـذه العمليات راحوا يعالجونه بالتيارات الكهربائية يصلونها بلسانه وبأعضائه التناسلية ، في وسط حملة من التهديدات التي أكدت له أنه سيموت ميتة الكلب . غير أن إيلي رفض أن يظهر الخوف أو الهلع . وقـد اعترف السويداني بأن « إيلي لم يدل بغير ما يناسبه الإدلاء به » وذلك بعـد أن استخدمت ضده كل وسائل التعذيب النفسي . ولم يكن هدف معذبيه تحطيم جسمه ، بل تحطيم إرادته . فلجأوا أولاً إلى حمله على فقدان الأمل عندما أبلغوه أن إسرائيل حالت دون إخلاء سبيله عندما رفضت عرضاً من سورية بتبادل العملاء . كما كان التهديد بشنقه دائماً من الوسـائل المفضلة حتى أنهم أخضعوه مرة لعملية شنق وهمية ، وللعبـة روليت روسية (... !)

وهذه المعاملة لم تكن خاصة بجلسات الإستجواب فقط . فعند ذهابه أو خروجه من غرفة التعذيب كان إيلي يقع تحت ضربات (الكرباج) ، وهو السوط القصير المصنوع من ذنب الثور ، ويحمل مثله جميع حراس السجن . وعندما يحاول النوم في زنزانته يقذف بالماء على الأرض فيضطر للوقوف فترات طويلة . وبعد أسابيع من تعذيب لا يكل ولا يرحـم ، انهارت إرادة الحياة في نفسه فحاول الإنتحار بعد أن قطع رسغيه بمسمار . ولكنه قبل أن يفقد من دمه الكمية اللازمة لموته ، أدركه حارس السجن فتولى أمره أحد الأطباء ثم أعيد إلى سجنه المنفرد .

وفي إحدى ليالي الأسبوع ، وبعد يوم طويل من الإستجواب ، أيقظته ضجة وفوضى سادت الردهة القريبة ، فإذا بالمقدم عبد المعـين حكيمي الذي كان يشغل إحدى الزنزانات في « جناح الموت » ينقـل حيث وقفت زمرة من الجند المعدة لإطلاق النار عليه ، وكان يجر وسط وابل من اللعنات والشتائم . وبعد دقائق استمع إيلي إلى وابل من الرصاص

الذي أتى على روح الضابط . وفي أقل من ساعة سحب ابن خالة حكيمي الثاني من زنزانته إلى ساحة المرجة حيث شنق على مرأى من الجماهير . والمذكور هو فرحان الأتاسي الذي يبلغ من العمر ٣٨ عاماً ، وقد تطبع بالعادات الأمريكية ، وحكم عليه بالموت لأنه تجسس لحساب الولايات المتحدة الأمريكية .

وكلا عمليتي الإعدام كانتا ذروة الخطة التي رسمتها الولايات المتحدة الأمريكية للحصول على معلومات من المصادر السورية ، عن صواريخ ومدافع مضادة للطائرات زودت بها البحرية السورية ، وقد عرف إيلي بهذه القضية من المكتب الثاني السوري عندما كان طليقاً . وفي شتاء عام ١٩٦٤ استدعي فرحان الأتاسي ، وكان يتولى توزيع أفلام التلفزيون الأمريكية في سورية ، وهو في الأصل من سكان بروكلين في الولايات المتحدة الأمريكية ، استدعي من قبل وولتر سنودن السكرتير الثاني في السفارة الأمريكية في دمشق ، وطلب إليه أن يحاول الحصول على تفاصيل عن هذه الأسلحة من حكيمي . وقد قبض الأتاسي مبلغ ٧٥٠٠ دولار ثمناً لجهوده ، فدفع من هذا المبلغ حصة لابن خالته . وأسرّ الحكيمي بالمهمة لأحد أتباعه الذين يتمتعون بثقته والذي وعد بجمع المعلومات ، غير أنه بدلاً من أن يفعل ذلك نقل الخبر إلى رؤسائه . وعندما أُحيط المكتب الثاني بالحادث زود الضابط بمعلومات مزورة وبأحد عشر طلقة سلمها الحكيمي للأتاسي فسلمها هذا بدوره لسنودن . فأوقفت شعبة مكافحة التجسس ابني الخالة وأعلنوا سنودن شخصاً غير مرغوب فيه **Persona non Grata** ، وأصدروا الأمر إليه وإلى سكرتيرته مارتا شيرر بمغادرة البلاد .

وكانت محاكمة عميلي الـ **C.I.A** مختصرة . ولم يتردد الأتاسي في شجب وحشية مستجوبيه متهماً إياهم « بتعذيبه بالكهرباء فور توقيفه » . وقال إنه ضرب بوحشية ، وتعرض للجوع ولعملية غسل الدماغ ، هذا ولم يسمح لموظفي السفارة الأمريكية بمقابلته في السجن ، كما منعت عنه

الاستشارة القانونية .. ولكن جرى انتقاء أقسام من إفاداته التي أدلى بها في محاكمة سرية لتذاع من الإذاعة والتلفزيون لأسباب إعلامية . وسرعان ما شنت وزارة الإعلام حملة من الكراهية ضد ما أطلق عليه وزير الإعلام مشهور زيتون : « السياسة الأمريكية للتجسس والتخريب في سورية » . والصلات الوثيقة التي كانت للأتاسي والحكيمي مع الرئيس السابق وهو عضو كبير من أعضاء حزب البعث لم تشفع لهما ولم تنقذهما من الإعدام . وقد أدى موتهما إلى ارتفاع عدد « عملاء الامبريالية والرأسمالية والصهيونية » في سورية الذين نفذ فيهم حكم الإعدام إلى الثلاثة عشر ، وكانت هذه سابقة شؤم بالنسبة لما كان ينتظر إيلي .

وعلى الرغم من كراهية الحراس للإسرائيليين فإن كثيرين منهم كانوا يكنون له الإحترام بسبب أعماله البطولية وسلوكه الذي يتسم بالتحدي . وقد ربح بشجاعته لقب « الشاطر » . وما أن انتهى من استجوابه ، حتى نقل من « المنفردة » . وكانت زنزانته الجديدة في الطابق الأرضي ، وكانت أيضاً منعزلة إلاّ أن فيها بعض أسباب الراحة فالسرير حديدي وعليه فراش من القش ، يضاف إلى ذلك أن الظلام لا يخيم على المكان طول الوقت . وإذا كانت الأمور نسبية فإن سجنه الجديد كان فردوساً ، كما أن تعلقه الطبيعي بالحياة عاوده تدريجياً . وكانت التعليمات تسمح له بخمس عشرة ليرة سورية شهرياً ، التي كان حارس السجن الرقيب الأول ، الشركسي ذو الشعر الأبيض ، حسين عزة يتأكد شخصياً من وصولها إليه . وقد أصبح الآن قادراً على أن يدفع من هذا المبلغ ثلاثين قرشاً لقص شعره وحلاقة ذقنه من قبل حلاق السجن . أما السجاير الستة المخصصة له يومياً فقد كان يستخدمها في رشوة الحراس الذين كانوا يبادلون عليها عادة بمجلة الجندي ، وكان يسمح له بالإصغاء إلى البرنامج العبري من محطة دمشق ، أو باستعارة أحد الكتب العبرية من المكتبة ، وكان يجد عليها علامات تركها سجناء إسرائيليون آخرون . وكان يسمح له عادة بغسل ملابسه ، ولو تحت حراسة دقيقة . ثم راح يمنح فيما بعد الحق في فترة التنفس بعد الظهر أيضاً ، خلافاً للنزلاء الآخرين

الذين كان لا يسمح لهم بالتنفس إلا في فترة الصباح فقط .

وقد حدد الوضع القانوني لإيلي أخيراً بعبارة « استثنائي فوق العادة » . وهو لم يتمتع بامتيازات المساجين السياسيين الذين كانوا يستطيعون استقدام المآكل من السوق القريبة، كما كان يسمح للبغايا بدخول زنزاناتهم ... غير أنه في الوقت نفسه لم يرغم على العمل في الأشغال الشاقة ولا على الطرق القريبة من القاعدة الجوية في المزة . وقد أظهر إيلي من التآلف والإنسجام مع روتينيات السجن ما كان يظهر من الثبات ورباطة الجأش في جميع مراحل مهمته . وكان دمثاً مع حراس السجن ، وكان يتكلم قليلاً ، أو يتجنب الحديث عن السياسة أو إسرائيل أو التجسس أو العملاء . فقد كان كجميع الأجانب ، الذين مروا بسجن المزة خلال العشرين عاماً الأخيرة ، تحت رحمة سجانيه . وكان رئيس الحرس يؤكد له بين حين وآخر أن « جميع العرب طيبين ، ولو لم يكونوا كذلك لكنت اليوم في عداد الأموات » .

وخلافاً للتعليمات المعمول بها في المزة ، فقد سمحت السلطات لإيلي بالإدلاء بتصريحات للصحافة . وسمح لسمعت معروف مراسل مجلة الأسبوع العربي في دمشق بزيارته في السجن للرد على الاتهامات التي وجهت للحزب في الصحف اللبنانية . فرفض إيلي أن يتحدث عن أعماله البطولية ، وقال بهدوء : « لقد قلت للمحققين كل ما أعرف ، وليس عندي ما أضيفه . وعندما سئل عما إذا كان قد عمل لحساب الإسرائيليين تحت الضغط والتهديد أجاب : « لا ... ليس هناك ضغط فأنا عملت في المخابرات الإسرائيلية لأضمن مستقبل زوجتي وأولادي الثلاثة وأمي . من أجل هؤلاء فقط عقدت العزم على تولي هذه المهمة الخطرة » . ويبدو أنه لم يكتف بهذه الكلمات لتطمين رؤسائه ، وإنما أضاف إليها قائلاً : « إنني لم أخنهم ... لم أخن إسرائيل » .

المحامون الفرنسيون

على الرغم من نظرة الإسرائيليين السوداء إلى الحكام في سورية ، فهم لم يوفروا أي جهد لضمان ظهور إيلي بمظهر لائق في المحاكمة . وخلافاً لكل التوقعات فقد عكست حملة الإنقاذ آثارها على هذا الصعيد فقط . وبعد خمسة أيام من البرقية التي تلقاها ليفي أشكول من السويداني ، أصدر الأمين العام في وزارة الخارجية الإسرائيلية تعليماته إلى السفير الإسرائيلي إيتان بأن يقترح اسم مكتب من مكاتب المحامين الفرنسيين يوافق على الدفاع عن إيلي أمام المحاكم السورية . وقال له إن الحكومة تريد مرافعاً مجرباً قادراً على تمثيل مصالح عائلة كوهين في هذه الدعوى. ولكن كان من الشروط الحيوية أن يكون المحامي أو المحامون الفرنسيون قادرين على أن يفرضوا شيئاً من الإحترام على السوريين . وقام السكرتير الأول في السفارة الإسرائيلية في باريس يوسف حدس بتحريات شاقة بين معارفه في العاصمة الفرنسية ، ثم اقترح خمسة من المحامين البارزين. ووقع اختيار إيتان ومستشاره على نقيب المحامين بول أريغي **Paul Arrigui** ، وهو الرئيس السابق لجمعية المحامين الفرنسيين ويتمتع بمكانة عالية ، وهو يتميز بروحه النضالية في المحاكم ، كما حصل على معونة الأستاذ جاك ميرسيه ، وهو وجه من وجوه المقاومة الفرنسية ، ومن المظليين الفرنسيين ، وكان قد تولى الدفاع عن عدد كبير من المقاتلين في جبهة التحرير الوطنية الجزائرية ، وكلا الرجلين مقبولان بالنسبة للعرب . ولذلك وافقت القدس فوراً على اختيار سفارتها في باريس .

وفي اجتماعات طويلة عقدت في مكتب أريغي قدم إيتان للأساتذة بيانات عن تفاصيل القضية ، وكانت حركة المحامي التالية هي السعي للحصول على مقابلة مع السفير السوري لدى الكي دورسيه الدكتور

سامي الجندي ، ولعب مركز الرجلين دوراً في استجابة فورية . وكان السفير السوري مجاملاً غير أنه أكد أن ليس لديه عن الموضوع أكثر مما تردده الشائعات . ووعد بأنه سينقل رغبتهما في الدفاع عن كوهين إلى دمشق ، وأنه سيطلعهم على قرار حكومته فور تلقيه الجواب من وزير الخارجية إبراهيم ماخوس .

ولم يكن الدكتور الجندي حيادياً بالنسبة لموضوع كوهين ، ذلك أن مركز السفير قد تأثر كثيراً بسبب هذا المهاجر من الأرجنتين ، الذي ساعدت مكائده على نفيه من سورية إلى مركز سفير في باريس ، الأمر الذي أثار في نفسه ضده حقداً لا ينطفىء . وقد وجد الجندي نفسه في وضع مثالي يتيح له فرصة الإنتقام من خصمه الذي أصبح معرضاً لتهمة التجسس لحساب إسرائيل . وبينما كان يقطع الوعود الفارغة للمحامين الفرنسيين اعترض بكل وسيلة ممكنة على جهودهم الرامية لمقابلة إيلي . غير أن دمشق تصرفت على وجه آخر . فقد أصدر الأمين العام لوزارة الخارجية الدكتور أسعد الخانجي تعليماته إلى السفير بمنح المحامين الفرنسيين إشارة الدخول إلى سورية . وخلال أربع وعشرين ساعة اتصلت السفارة السورية بمكتب المحاماة لتحمل إليه الخبر المشجع : « يسعد الحكومة السورية أن تفعل كل ما في طاقتها لمساعدة السيدين ميرسيه وأريغي للدفاع عن إيلي كوهين » . وعلى أساس هذه الرسالة المشجعة ظاهراً استعد ميرسيه للسفر إلى دمشق .

وفي ٣١ كانون الثاني بعد الظهر كان الأستاذ ميرسيه في فندق الأوريان بالاس في دمشق حيث أبلغ أن جميع المقابلات قد رتبت ليوم الغد .

وبدا أمين قصر الرئاسة مأمون الأتاسي متفهماً عندما رحب بالأستاذ ميرسيه في غرفته بالفندق . وعند الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي كان يبدو على غاية من الود ، وأنه على استعداد للقيام بكل محاولة للتعاون معه ، وقال إن من واجباته أن يطلع على كل ما يقترحه الأستاذ

وأن يحيل هذه المقترحات إلى الوزير « لكي يستطيع معاليه أن يكون في وضع أفضل لتقديم المساعدة عند لقائه بكم » .

وفي مجرى الحديث قال الأتاسي للأستاذ ميرسيه : إن الوزارة حوصرت في الأسبوع الماضي بمئات الرسائل والبرقيات من جميع أنحاء العالم وهي تطالب بمحاكمة عادلة . ولم يحاول الأمين العام أن يكتم إعجابه بقدرة إسرائيل على تجنيد هذا التأييد العالمي خلال هذه الفرصة القصيرة . وكخريج من المدرسة العليا لشؤون الإدارة في باريس فهو يقدر جيداً قوة الرأي العام العالمي . واستأذن الأستاذ بالانصراف فوعده الأتاسي وهو يودعه أن يعد له لقاء مع وزيره في ساعة مبكرة من بعد الظهر .

وعاد الأستاذ ميرسيه إلى قصر المهاجرين بعد غداء قصير في الأوريان بالاس وأذن له بالدخول إلى غرفة وزير شؤون الرئاسة الوليد طالب ، وهي غرفة مزدانة بالسجاجيد ذات الوبر الطويل . وعند الساعة الواحدة بعد الظهر كان الأتاسي إلى جانبه . فأعاد الأستاذ ميرسيه مطالبته بمقابلة إيلي للدفاع عنه أمام محكمة سورية . فأكد له الوليد طالب أنه يريد أن يفعل كل ما في استطاعته للتعاون معه ، ولكن بما أن الشرطة لا تزال تقوم بأعمال التحقيق فيجب أن يفهم الأستاذ ميرسيه أنه يستحيل مقابلة كوهين في الوقت الحاضر . ومع ذلك فمتى أُنجزت التحريات وأُرسل الملف إلى المستنطق العسكري فسيكون في وسع الأستاذ زيارة موكله . وأوضح الوليد طالب أن القانون يفرض الحصول على إذن خاص لمقابلة السجين . ولكنه أضاف : « أؤكد لك يا عزيزي الأستاذ أنها مجرد شكليات » . فالأستاذ ميرسيه سيتمكن من المرافعة في القضية متى سمحت له نقابة المحامين بالمرافعة أمام المحكمة العسكرية السورية . ولا شك أن كوهين سيحاط علماً بهذه الزيارة وبرغبة الأستاذ في الدفاع عنه . والحقيقة أن على الأستاذ أن يكتب فوراً مذكرة إلى السجين وستسلم إليه على الفور . ثم قال الوليد طالب أنه لا يرى مبرراً لبقاء الأستاذ في دمشق وأن في وسعه السفر إلى باريس ، وأن الأتاسي سيبرق لإحاطته علماً بالوقت الذي تصبح

فيه السلطات جاهزة لبدء المحاكمة . وكانت كلمات الوليد طالب مقنعة . وغادر الأستاذ ميرسيه دمشق وهو مطمئن إلى نجاح مهمته ، وأن في وسعه الإعتماد على نصيحة الوليد طالب .

وقبل أن يغادر الأستاذ ميرسيه دمشق اتصل بعدد من مكاتب المحامين باحثاً عمن يستطيع المساهمة معه في ملاحقة هذه الدعوى ، ولكنه اصطدم باعتذار مهذب في كل مكان . ولم يستغرب الأستاذ ذلك لأن الشائعات عن هذا الموضوع كانت كثيرة جداً .. كثيرة إلى درجة لا يمكن معها التمييز بين الواقع والخيال . والانطباع العام الذي كنت تلمسه في كل مكان وفي كل حديث هو احترام يشوبه الحسد احتلته أعمال إيلي في نفوس السوريين . وعندما حاول الأستاذ أن يتصل بكبار الموظفين ، ممن يستطيعون تقديم المساعدة في هذا الموضوع ، كان الجميع يترددون في متابعة البحث بل وكانوا يقطعون سبيل المناقشة لمجرد ذكر اسم إيلي كوهين .

وفي ٢ شباط طار ميرسيه إلى باريس وفي رأيه أن الموضوع أصبح طوع يديه ، وبعد يومين كتب إلى الوليد طالب يذكره بمقابلتهما ، واتصل بالأتاسي ليسأل عن موعد انتهاء التحقيقات ، غير أنه لم يتلق أي جواب لا من الوزير ولا من الأمين العام . وفي الأيام الأخيرة من الشهر تلقى مكتب المحاماة الفرنسي إشعاراً من الحكومة اللبنانية بأن المحاكمة توشك أن تبدأ . فسأل المكتب السفارة السورية في باريس دون أن يحصل على جواب . فالاتصال بالجندي لم يكن ممكناً ، والناطق بلسان السفارة لم يكن لديه ما يقوله ، فانتهى الأستاذ ميرسيه إلى أنه غير قادر على الانتظار فترة أطول وعاد إلى دمشق لمراقبة الموقف .

كان مقر الرئاسة في المهاجرين مقفراً عند الساعة الخامسة والنصف من مساء يوم السبت ٢٧ شباط . فرحب الأتاسي بالأستاذ ميرسيه في مكتبه مستعيناً بالتحيات الودية ذاتها ، واستمر الرجلان بالأحاديث الشكلية القصيرة إلى أن شعر الأستاذ ميرسيه بأن موجبات اللياقة الاجتماعية قد

استكملت فطرح موضوع إيلي . فأعرب الأتاسي عن دهشته من قلــق الأستاذ مصراً على أن الاستجواب لا يزال مستمراً ، ووعد ميرسيه من جديد بأنه سيتصل به عندما ينتهي . وأضاف قائلاً : « لم يتغير شيء في التأكيدات التي قطعناها لك فستلتقي بموكلك ، وستدافع عنه » .

كان الخيار الوحيد أمام ميرسيه هو أن يصدق أقوال الأمين العام . وكان على استعداد للعودة إلى باريس يوم الأحد عندما كشفت أول مراجعة روتينية أجراها مع أحد المحامين السوريين الذين زارهم في المرة السابقة « أن محاكمة إيلي قد بدأت فعلاً » .

صعق الأستاذ ميرسيه للنبأ ، وحاول التأكد منه ، وبعد اتصالات أخرى تحقق أن القضية تنظر الآن أمام محكمة عسكرية – كان ميرسيه يرجو أن يحاكم إيلي أمام محكمة مدنية – وأن المحكمة تنعقد وراء أبواب مغلقة وفي مكان مجهول . استشاط ميرسيه غضباً . وعلى الرغم من الساعة المتأخرة اتصل بالأتاسي فأعرب هذا عن فزعه من النبأ وقال إنه سيتحرى عنه ، وأضاف إن المحاكمة إذا كانت قد بدأت فعلاً فإنه لم يحط بها علماً . ولكن على المحامي أن لا ينشغل باله ، وإذا كان هناك سوء تفاهم فسيحل حتماً . وعندما استأنف ميرسيه اتصاله بعد ساعة وفقاً لما جرى عليــه الاتفاق كان الأتاسي في الاجتماع . فحاول ميرسيه الاتصال به بعــد الظهر غير أن أمين الرئاسة كان أيضاً في الاجتماع . أما الوليد طالب فقد غادر العاصمة منذ لحظات .. والموظفون السوريون الآخرون لا يعرفون شيئاً عن الموضوع . حاول ميرسيه الاتصال بمكتبه في باريس فقيل لــه أن الخطوط لم تكن في حالة جيدة ، ولم يستطع حتى أن يتصل ببيروت .

وكان الأستاذ مصراً على عدم التخلي عن موكله قبل أن يبذل مجهوداً أخيراً إما مع طالب أو الأتاسي . فقضى فترة المساء إلى جانب الهاتــف محاولاً الاتصال بأحدهما . وفي ساعة متأخرة من تلك الليلة أجاب الأتاسي أخيراً . ولم تكن لهجته تشتمل على أية إشارة للتطورات الجديدة . ولكنه قال إنه كان يحاول الاتصال به ليحيطه علماً بأن معالي الوزير سيتشرف

باستقباله في اليوم التالي . وقد حملت التجارب السابقة شعور القلق إلى نفس الأستاذ ميرسيه إن لم يكن شعور التشاؤم . ومع ذلك فقد بقيت أمامه فرصة واحدة للإعراب عن احتجاجه .

وفي صباح يوم الإثنين الأول من آذار دعي الأستاذ ميرسيه إلى قصر الضيافة . وعند الساعة العاشرة والنصف أُشير عليه بالدخول محروساً إلى مكتب القصر حيث حياه الوليد طالب ، وكان الأتاسي إلى جانبه ، وقد سيطر على أعصابه لفترة طويلة جرى فيها تبادل التحيات الروتينية ، ثم اعترض ميرسيه بعنف على المعاملة التي عومل بها . وفي عبارات يسودها الحذر أشار إلى كل الخداع والأكاذيب التي تعرض لها . ثم تساءل : لماذا يتجنب الوزير وسكرتيره الإتصال به ؟ ولماذا لم يستطع الاتصال بمكتبه في باريس ؟ وصبر الوليد طالب على قائمة الشكاوى غير أنه صرح أن الأستاذ ميرسيه كان ضحية سلسلة من سوء التفاهم ، وراوغ الوزير في موضوع الأسئلة كلها . وبدلاً من الإجابة عليها قدم تطمينات جديدة . فقد كان يسعده أن يخبر الأستاذ بأن طلبه قد استجيب للقاء بموكله : « سيكون في استطاعتك أن تزور موكلك هذا اليوم » . ثم ابتسم الوزير بعذوبة ورقة ، وكأنه أراد أن يقول : « هل رأيت ؟ لقد تسرعت في حكمك علينا » .

وأعقب ذلك فترة من الصمت ، سمحت للأستاذ ميرسيه بأن يحس بمشاعر الفرج والانتعاش بتطور الأحداث غير المتوقع . وعندما لاحظ الوليد طالب على ضيفه التجاوب المطلوب تابع قائلاً : « إن الحكومة تنظر الآن في احتمال السماح لك بحضور المحاكمة كمراقب ، وسيكون الأتاسي جاهزاً لترجمة وقائع الجلسة بسرور » ، ولكنه سارع إلى القول : « أما أن يتولى الأستاذ الدفاع فهذا غير ذي موضوع » . سيسمح للأستاذ ميرسيه بأن يجلس في المحكمة إذا رغب في ذلك ، ولكن في الجلسات التي يتم الموافقة عليها مقدماً من قبل المحكمة العسكرية . وأن له ملء الحرية في قبول دعوة الحكومة أو مغادرة البلاد . هذه هي الشروط ، وأية

مناقشات أخرى لن تكون مجدية لأي من الجانبين .

ثم تبين للأستاذ في وقت لاحق أن الخيار الذي ترك له هو أقل حتى مما أشار إليه الوليد طالب ، وقال ميرسيه للوزير إنه لا يستطيع الموافقة على هذه الشروط بدون استشارة موكله . وأن عليه أن يشرح لكوهين تفاصيل هذا الوضع الذي « أصبحت فيه حقوق الدفاع غير مسموحة » . وفي هذه الحالة فقط يستطيع أن يتخذ قراره . وأحنى الوزير رأسه معرباً عن نفاذ صبره وأشار إلى انتهاء المقابلة عندما أصدر تعليماته للأتاسي عن الإجتماع بالموكل مضيفاً أن على الأستاذ أن ينتظر في الفندق إلى أن يتصل به الأتاسي هاتفياً .

واتصل الأتاسي هاتفياً عند الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر ، ليقول له إن المحكمة العسكرية قررت بالإجماع رفض كل طلب يتعلق بمقابلة المتهم . ولن يسمح لأحد بمقابلته في الظروف الراهنة .. القرار كان نهائياً ، ولا مجال للإستئناف . والتزم ميرسيه جانب الصمت فهو لن يربح شيئاً من الإعتراض . وانتهى الحديث بكلمة وداع باردة . وخيم الصمت على الأستاذ بضعة دقائق كانت السماعة خلالها لا تزال في يده . وقرر العودة إلى باريس على الفور .

وفي ٣ آذار كتب ميرسيه إلى الوليد طالب من بيروت محتجاً على المعاملة التي لقيها من الموظفين السوريين . وعندما عاد إلى باريس أطلع السفير الإسرائيلي إيتان على تفصيل ما حدث ، وكتب بالتعاون مع أريغي مسودة احتجاج إلى دمشق « ضد إجراءات المحاكمة التي تعتبر تحدياً لكل القوانين الأخلاقية » .

وفي يوم ٦ آذار عام ٩٦٥ بعد الظهر . بعد أسبوع من بدء محاكمة إيلي في دمشق ، أسرع وولتر إيتان وسكرتيره الأول يوسف حدس إلى مبنى السفارة في شارع وغرام ، ودخلا رأساً إلى غرفة الإجتماعات ، حيث كان الملحق العسكري وضابط الأمن بالسفارة في انتظارهما .

وابتسم إيتان برقة لناديا ولشقيق إيلي الأكبر رفائيل ، اللذين كانا يتحدثان بصوت منخفض إلى جانب إحدى النوافذ .

وصلت ناديا إلى باريس قبل يوم واحد مع شقيق زوجها ، وابنتيها صوفي وإيريس (بقي شاؤول في المنزل للعناية بوالدة إيلي) ولم يتقرر السفر إلى العاصمة الفرنسية إلا بعد كثير من التحفظات . فقد اصطدمت ناديا في باديء الأمر بمعارضة ضابط الإرتباط في الموساد ، ولكن عندما أوضحت في المركز أنها لا تستطيع البقاء بعيداً دون محاولة التدخل شخصياً في الموضوع ، وافق رئيس المخابرات الإسرائيلية على سفرها إلى باريس . وصدرت التعليمات إلى السفارة الإسرائيلية بوجوب اتخاذ كل التدابير للترحيب بها .

وصافح إيتان ناديا بحرارة ثم دعاها إلى الجلوس . وقبل أن يبدأ الحديث اعتذرت إحدى السكرتيرات عن المقاطعة داعية فرنسيين للدخول إلى الغرفة . وعندئذ التقت ناديا وروفائيل لأول مرة بالأستاذ ميرسيه وبنقيب المحامين أريغي .

وبدأ السفير إيتان بأسلوبه الودي الذي يبعث على الثقة في رواية التفاصيل عن المساعي التي بذلت لإنقاذ إيلي . وقال لناديا أن العملية كلها كانت تدار من قبل وزيرة الخارجية غولدا مايير . وأن قصر المهاجرين قد أغرق بالنداءات والبرقيات من جميع أنحاء العالم ، وهي تحث على أن يحاكم إيلي محاكمة عادلة . غير أن إدارة أمين الحافظ لم تُعر كل هذه الطلبات أذناً صاغية حتى الآن . غير أن مساعدات أخرى لا تزال تُنتظر من أوروبا وأمريكا الجنوبية . ولخص إيتان الموقف قائلاً : « إننا لم نفقد الأمل بعد . وتستطيعين أن تتأكدي أننا سنحصل على مساعدة كل صديق نعرفه لإنقاذ إيلي » .

وراحت ناديا تصغي إلى الحديث بصمت . وعندما تكلمت أخيراً كان صوتها موزوناً إلا أنه متوتراً . وبينما كانت تنتظر تطور الأحداث

في سورية قامت بتنفيذ تعليمات الموساد حرفاً بحرف ، غير أنه لم يعد في وسعها التزام الهدوء . وقد فهم السفير جيداً ماذا يعنيه بالنسبة إليها سماع دعاية الكراهية والحقد ، التي تصدر عن دمشق بالإذاعة وبالتلفزيون في النهار وفي الليل . وقد اصطحبت معها صوفي وإيريس لتقنع السفير السوري بالسماح بمقابلة إيلي . وأضافت تقول : « إذا كان عند هؤلاء الناس قلب فسيسمحون لنا بلقاء حبيبنا » .

وقد حاول حدس أن يغير رأيها لأنه يعرف مقدماً أن مساعيها ستمنى بالخيبة ، وراح يعيد على مسامعها من جديد المساعي التي بذلت للتأثير على دمشق . غير أن ناديا كانت مصممة . وحجتها في ذلك أنها ما دامت زوجته فإن من حقها أن تدافع عن حياته لدى السوريين . وهنا قال إيتان وقد نفذ صبره : « دعوها تذهب » ثم التفت إلى حدس قائلاً : «يجب أن نبذل كل شيء لإنقاذه » . ثم وجه كلامه إلى ناديا قائلاً أنها تتحمل وحدها مسؤولية التعامل مع السوريين ، وأن الوسطاء لا يشجعونها على ذلك ، وأن كل ما يستطيع عرضه عليها في هذا الصدد هو تمنياته القلبية لها بالحظ السعيد .

وفي صباح اليوم التالي قالت ناديا لروفائيل أنها عقدت العزم على مقابلة السفير السوري بعد ظهر ذلك اليوم . واقترحت أن تتصل أولاً طالبة فيزا الدخول إلى سورية . ولكن راودتها الشكوك فقد كانت تخشى أن تنبه السفارة لنواياها . ثم درست الموضوع ثانية وطلبت إلى عامل الهاتف أن يصلها بالسفارة السورية . فأجابها صوت نسائي ، ثم سألت ناديا بلغتها العربية ذات اللهجة العراقية عن ترتيبات التأشيرة . فأحيلت على الفور إلى موظف في القنصلية . وعندما سمع هذا الموظف اسم كوهين كان هناك صمت قصير ثم أغلق الخط . واتصلت ناديا للمرة الثانية طالبة هذه المرة أن تتكلم مع السفير الجندي ، فأحيلت إلى أحد موظفي مكتبه . وكان الجواب الثاني غير مهذب . وما كاد الموظف يعرف المتكلمة حتى أغلق الخط . وعلى الرغم من هذا الصدود حاولت ناديا الإتصال بالسفارة

مرة أخرى . وفي هذه المرة أغلق الخط لمجرد سماع صوت امرأة .

وجلست ناديا مذهولة وهي تحدق في جهاز الهاتف . ولم ينبث رفائيل ببنت شفة . ثم سألته إذا كان عليها أن تزور الجندي في منزله حيث حصلت السفارة الإسرائيلية على رقمه غير المدرج في الدليل . فهز رفائيل رأسه مفضلاً أن لا يثبط عزيمتها . ولكن هنا أيضاً لم تسجل ناديا أي نجاح . وبينما كانت صوفي تراقب ألم أمها المبرح راحت تعانقها وقالت لها : « لماذا لا تدعيني أتحدث إلى هذا الرجل الذي يبعد أبانا عنا ؟ أنا واثقة من أنه سيصغي إلي » . ولم تستطع ناديا أن تحبس دموعها عندما طلبت إلى صوفي أن تعود فتلعب مع شقيقتها إيريس .

ولم يتقدم رفائيل بأي اعتراض عندما أعلنت ناديا أنها لا تزال تصر على القيام بمحاولة لمواجهة السفير السوري مع الأولاد . فرافق زوجة أخيه مع ابنتيها الصغار واستأجرا سيارة تاكسي بعد أن قدما للسائق العنوان في المنطقة رقم ١٦ . وبعد فترة قصيرة توقفت السيارة عند الرقم ٢٢ بولفار سوشيه أمام السفارة السورية . وقادت ناديا طفليها نحو البناء الحجري وضغطت على جرس الباب بقوة ، فنظر حارس من ثقب النافذة . وفتح بتردد باباً صغيراً في الباب الخشبي الكبير ، وحدج ناديا بنظرة كئيبة بينما كانت تبدي رغبتها في مقابلة « صاحب السعادة السفير الجندي » . فتركها الرجل مكانها ثم ذهب لينادي من يستطيع الرد على سؤالها .

وبعد مضي ما يبدو وكأنه الأبدية ظهر موظف يرتدي لباساً أنيقاً وهو قصير ممتلىء الجسم ، فسأل ناديا عن اسمها وعملها . فبدأت حديثها بالقول أنها تريد تأشيرة لزيارة زوجها في سورية . ثم أفشت أخيراً ما تضمر فقالت : « أنا ناديا كوهين وقد جئت أطلب بكل احترام مقابلة السفير بشأن زوجي المسجون في دمشق » . فقاطعها الموظف السوري ، وقال وهو يصرخ بمزيج من الفرنسية والعربية : « امشي من هنا ، اخرجي » ثم تلا ذلك سيل من الشتائم . وتراجعت ناديا ، ولكن لم تخنها مشاعرها

وقبل أن تتمكن من الدخول معه في جدل أطول أغلق الباب في وجهها . فقرعت الجرس ثانية غير أن الحارس كان قد اختفى . وبينما كانت واقفة هناك تبكي وتتنهد أحاط بها جماعة من الفضوليين . ونظرت ناديا إلى الأعلى فرأت الموظفين السوريين وهم يحدقون فيها ببرود من وراء ستائر مغلقة .

ودعا السفير الإسرائيلي في باريس إلى مؤتمر صحفي في فندق استور حيث كانت ناديا ورفائيل والصغيرتان في الانتظار . وكان حديث ناديا قصيراً فقد حاولت أن تلتقي بالدبلوماسيين السوريين في باريس فرفضوا مجرد التحدث إليها . كما أنها اتصلت بدون نتيجة بالمنظمات العالمية . وقالت ناديا : « إنني لا أعرف ما إذا كان إيلي جاسوساً أم لا ، فهذا لا يهمني . وإن ما أسعى إليه هو إنقاذ حياته » ثم رجتهم وهي ترتعش أن يستصرخوا الرأي العام العالمي لمنع السوريين من قتل زوجها .

وكان أكثر الأسئلة متسماً بروح العطف ، غير أن سؤالاً واحداً أخذها على حين غرة . فقد قال أحد الصحفيين : « من الواضح أن زوجة عميل إسرائيلي من هذا المستوى عندما تحضر إلى باريس لمواجهة الصحافة فمعنى ذلك أن الحكومة فقدت الأمل في إنقاذه . فهل هي تلوم الإسرائيليين على عجزهم هذا » ؟ . وهنا لمعت عينا ناديا ببريق التحدي وقالت : « لقد عملت حكومتي أكثر مما يستطيع عمله أي مرجع آخر لواحد من العملاء السريين » .

وعندما انتهى المؤتمر الصحفي ، وعد بعض الصحفيين بأن يبذلوا جهدهم لنشر قصتها . ووقفت ناديا في الخلف إلى أن غادر الفندق آخر صحفي فرنسي . وهنا قالت لرفائيل : « لم يعد هناك ما نستطيع أن نفعله ، فلنعد إلى وطننا » .

وبعد أسبوعين احتج المحامون على الرئيس الحافظ . وذهب أحد الأعضاء من فريق ميرسيه وهو الأستاذ جان ثالانديه إلى دمشق ليجرب

حظه مع السوريين . واستقبل الوليد طالب الأستاذ ثالانديه في ٢٠ آذار . فأصغى الوزير إلى أقوال المحامي دون مقاطعة . فقال ثالانديه أنه بناء على المرسوم الخاص الصادر بتاريخ ٧ كانون الثاني فإن حكم المحكمة العسكرية يجب أن يصدق قبل تنفيذه من رئيس الجمهورية . وهو لذلك يطالب أمين الحافظ بأن يأذن بمقابلته هو أو الأستاذ أريغي . وحاول الوليد طالب التهرب من الموضوع ، مصراً على أن المحاكمة لم تنته بعد . بل ولم يبد أنها ستنتهي ، وكان على ثالانديه أن ينتظر حتى صدور الحكم .

وفي ذلك المساء اجتاز ثالانديه تجربته الأولى في حقل السياسة السورية ، فأحس بصدمة عندما استمع بالراديو إلى خبر يتناقض مع بيانات الوليد طالب ، فقد أعلنت محطة دمشق في برنامجها الإخباري أن آخر جلسة في محاكمة كوهين قد جرت قبل يوم واحد ، وأن تسجيلات من المحاكمة ستذاع بالتلفزيون . ولم يشر الخبر إلى أن المحاكمة ذاتها قد انتهت ، كما أن ثالانديه حصل على تأكيدات بأنه لن يتخذ قرار من قبل الرئيس الحافظ قبل التشاور مع أحد أو مع جميع المحامين الفرنسيين .

وانتابت ثالانديه موجة من الارتباك فقفل عائداً إلى باريس . وعلى ضوء تقريره ، أكد أريغي وميرسيه برقياً طلبهما الإجتماع بالرئيس أمين الحافظ . وراحا ينتظران الجواب بفارغ الصبر ... ولكن لم يصل أي جواب .

وعندما لاحظ فريق من الأساتذة أن مساعيهم قد تجمدت ، قرروا البحث عن المساعدة لدى الجمعية الدولية لحقوق الإنسان . فأرسل ميرسيه إلى جنيف للإحتجاج على تعسف دمشق والمطالبة بتدخل المنظمة لمصلحة إيلي . وعينت اللجنة الأستاذ أدريان وولترز وهو محام بلجيكي يرأس العصبة البلجيكية لتولي هذه القضية . وحصل وولترز على المعلومات اللازمة من الأساتذة الفرنسيين ، ثم استعد للسفر إلى العاصمة السورية .

ووصل الأستاذ إلى دمشق الخميس مساء ١٤ آذار . وفور وصوله

اتصل بنقيب المحامين في دمشق الأستاذ صباح الركابي . ولما كان وولترز يحمل كتب اعتماد قوية بالإضافة إلى أنه الأمين العام للعصبة البلجيكية ، وأنه يتحدث باسم الجانب الفرنسي ، ويمثل المنظمة الدولية ، فقد وافق الركابي على أن يلقاه في الحال . وأصغى نقيب المحامين إلى أقواله بتهذيب وعرض عليه أن يقابلا وزير العدل في الحال . وقد حاول الوزير التملص غير أنه وافق أخيراً على مقابلة في اليوم التالي الساعة الحادية عشرة .

وفي يوم الإثنين صباحاً رافق الركابي وولترز إلى الوزارة حيث استقبلهما المهنا . وقال الوزير الذي لا يتكلم اللغة الفرنسية عن طريق أحد المترجمين أن ليست له أية سلطة في هذه القضية ولا يستطيع التدخل في دعاوى محكمة عسكرية . وأوضح أن المحاكم العسكرية الخاصة تقع ضمن اختصاص وزارة الدفاع ، وأعرب وولترز عن رغبته في مقابلة وزير الدفاع ممدوح جابر ، ووعد بأن مهنا سيوصي بتأمين هذا الإجتماع وانتهت المقابلة بالسرعة التي بدأت بها .

وألغيت في آخر لحظة مقابلة كانت ستجرى مع ممدوح جابر يوم الخميس . وكان على وولترز أن ينتظر يوماً آخر قبل أن يستقبله وزير الدفاع . وقال جابر للأستاذ بصراحة أنه لا يريد التدخل في شؤون محكمة خاصة هيأها رئيس الجمهورية . واقترح أن يتوجه وولترز بطلباته مباشرة إلى رئيس المحكمة المقدم صلاح الضللي ، ولكن عندما طلب وولترز إعداد مقابلة مع الضللي رفض جابر طلبه .

ومع ذلك لم ينثن وولترز عن متابعة جهوده ، فطلب إلى الركابي أن ينتقل به إلى رئاسة الأركان حيث كانت المحكمة منعقدة ، وطلب بمساعدة النقيب مقابلة ، غير أن طلبه رفض بدون بيان الأسباب . ومع ذلك فقد وافق صلاح الضللي أن يتحدث إلى الركابي . وبعد نصف ساعة عاد النقيب وهو يحمل أجوبة سلبية على جميع مطالب وولترز .

وبدا الإجتماع بأمين الحافظ عديم الفائدة ، ولذلك غادر الأستاذ

وولترز دمشق بعد أن توصل إلى أقل مما توصل إليه زميلاه . ونتيجة لفشل وساطاته طير المحامون الفرنسيون برقية إلى أمين الحافظ بتاريخ ٢٣ آذار . ولكن كان حظ ندائهم لا يختلف عن حظ النداءات الأخرى التي بقيت كلها بدون جواب .

المحاكمة على المسرح

كان الموساد كالأساتذة الفرنسيين غير قادر على اختراق حجاب السرية الذي أحاط بمحاكمة إيلي . ففي الشهر الماضي ، ومنذ أُحيط رؤساء المكتب علماً بموضوع التوقيف كانوا يخشون دائماً الأسوأ ، وكان هناك نوع من الشعور بالفرج في مقر الموساد عندما أعلنت محطة دمشق في ٢٨ شباط أن « الجاسوس الإسرائيلي إلياهو كوهين سيمثل اليوم أمام محكمة عسكرية خاصة ، فعرفت تل أبيب ساعتئذ أن إيلي لا يزال حياً .

أما الصحف السورية الصباحية فلم تعد تكشف شيئاً عن الموضوع . فصحف دمشق لم تكتب عن أخبار المحاكمة إلا قليلاً ، بينما أوردت صحف المحافظات نتفاً صغيرة من الأخبار . أما الصحف اللبنانية وخاصة الصحيفة المستقلة «الحياة»، والصحيفة الناصرية «المحرر» والصحيفة البعثية «الأحرار» فقد نشرت معلومات أكثر تفصيلاً . وعلم من هذه المصادر أن السلطات السورية قد قدمت إلى المحاكمة بالإضافة إلى إيلي ستة من المتهمين : ماجد شيخ الأرض ، جورج سيف ، معزى زهر الدين ، إبن سالم المصري ناصر الدين معان ، أحمد حاتم الخطيب ، وثلاثين آخرين شركاء في الجريمة بينهم ٩ نساء ، جرى اختيارهم من بين ٥٠٠ شخص تناولهم تحقيق الشرطة والمكتب الثاني . وكانت وقائع المحكمة العسكرية تجري تحت عيون الكاميرا ، غير أن الصحفيين المحليين والأجانب منعوا من حضور هذه الوقائع . ولم يكن هناك أية إشارة بعد إلى مكان المحاكمة . وكان الممتازون فقط هم الذين يعرفون شيئاً عن المكان . وفي نشرة لاحقة وعدت وزارة الإعلام أنها ستدفع إلى النشر بصورة دورية وصفاً لجلسات المحاكمة بالإذاعة والتلفزيون . واستنتج المعقبون في المخابرات الإسرائيلية أن السوريين يخططون لمحاكمة مسرحية لا بقصد إثبات جريمة إيلي فقط

بل بقصد تبرئة رجال الحكم . وكانت حكومة أمين الحافظ تعتبر غير قادرة على الصمود في وجه التناقض المكشوف ، الذي قد ينشأ عن طرح اتصالات إيلي مع رجال الحكم والجيش على صعيد الرأي العام .

وفي ساعة متأخرة من آخر أيام شهر شباط ، نقل إيلي تحت حراسة دقيقة من سجن القلعة — حيث أودع في الأيام القليلة الأخيرة — إلى ملحق في مقر رئاسة الأركان . وقد اتخذت تدابير أمن واسعة النطاق في الموقعين وعلى طول الطريق المؤدي إلى شارع أبو رمانة ، وذلك لضمان السرية التامة . وكان الوقت ما بعد الظهر عندما توقفت القافلة أمام المبنى ، حيث تجمع الضباط ليلقوا نظرة على الجاسوس الإسرائيلي . وسرعان ما طوقت مفرزة من الجند إحدى الشاحنات . وعندما أنزل الباب الخلفي أمر السجين الذي كان جالساً في أرض الشاحنة مغلول اليدين والرجلين بالنزول على الفور .

وقاد الحرس وهو مشهر حرابه إيلي إلى الداخل ، وكان الجنود مصطفون في الأروقة المؤدية إلى غرفة المحاكمة وعند رأس كل سلم وكل باب . (جرى إعداد مكتب كبير لهذه المناسبة وفرشت بمقاعد خاصة للمساجين ، ومقاعد طويلة ومنضدة ضخمة من الخشب الثقيل الوزن ، وستة كراسي وضعت على منصة) . وكان الجو الكئيب الذي يسود المكان مألوفاً . فقد قضى إيلي ساعات طويلة وهو يراقب المبنى ، وكثيراً ما تجول في ساحاته وأروقته مع لفيف من الضباط من ذوي الرتب العالية كانوا يتسابقون إلى إرضائه .

وتحرك كل من في الغرفة عندما دخل إيلي وقد حشر بين اثنين من رجال الشرطة العسكرية ، وكان أعضاء المحكمة يراقبون المتهم عندما أوقف في مكانه . وبعد دقائق دخل المتفرجون من ذوي الملابس العسكرية كما دخل أعضاء المحكمة . وكان الضباط الستة الذين يؤلفون هذه المحكمة يلبسون الكاكي الأسود وهو يبهر الأنظار بصفوف المداليات ، وأخذوا مكانهم بالترتيب من النقيب حتى العقيد . وكان رئيس المحكمة العقيد

صلاح الضللي رجل متورد اللون ، معقوف الأنف ملتهب العينين ، تبدو عليه ملامح الصرامة . قص شاربيه على الطريقة العربية ، جلس على كرسي يشبه العرش وشريكاه إلى جانبيه . ولم يكن هناك نائب عام ولا محامي الدفاع . وكان اثنان من الحكام الضللي وحاطوم يدعون إيلي بالصديق على سبيل السخرية . وكلا الضابطين صديقان حميمان للرئيس أمين الحافظ ، وقد عينا في المحكمة كممثلين شخصيين له . وقد أراد الرئيس أن يهيمن من خلالهما على سير المحاكمة ، وأن يحول بواسطتهما دون نشر المعلومات التي قد تجرم العهد ، وكان على الضللي أن يقود سير المحاكمة بطريقة تقلل من أهمية ما أنجزه إيلي ، وتقطع الطريق على الدعاية المناوئة للبعث . وكان عليه فوق كل شيء أن يحول دون ذكر الأسماء الكبيرة ، وأن يتأكد من أن صلاته هو وصلات زوجته وكذلك صلات حاطوم لن يكشف عنها .

وجلس إيلي على المقعد بانتظار بدء المحاكمة ، وكان ظهره متصلباً ، وذقنه متجهة نحو الأعلى . ووقف وراءه اثنان من الجنود السوريون غلاظ الجسم ، تبدو عليهما ملامح القسوة . أما قفص الاتهام فقد كان عبارة عن منصة مستطيلة الشكل طولها عشرة اقدام وعرضها ستة يحيط به قضبان خشبية ترتفع بالنسبة إلى مستوى الصدر . وكان المتهم يرتدي طقماً صوفياً مزدوج الصدر ، وقميصاً أبيض ، وربطة عنق مقلمة . وكانت حلاقة ذقنه ناعمة ، وقصة شعره جيدة . وكان يبدو للمشاهدين في التلفزيون طبيعياً فيما عدا تقلصاً كان يضطرب به وجهه . كما أن أجهزة التصوير استطاعت أن تستر الأسنان المقلوعة والأظافر المنزوعة ، وذلك بإظهاره في مواجهة الكاميرا تماماً في بعض الأحيان أو جانبياً في أحيان أخرى . (كانت ناديا وولداها يتابعان سير المحاكمة على جهاز تلفزيون قامت الموساد بتأمينه . كما أن أربعة أجهزة للراديو استعيرت من الجوار مكنت العائلة من سماع المحطات العربية الرئيسية . وفي الطرف الغربي من بيت يام في شيشونات اميدار كانت أم إيلي وشقيقتاه والأخوة الخمسة مع الزوجات والأزواج ، يتابعون باهتمام دائم أنباء دمشق)

وضرب رئيس المحكمة المطرقة ، وافتتحت المحكمة بينما تقدم أحد المساعدين لتلاوة وثيقة الاتهام . ولم يطلب من إيلي أن يعترف بجرائمه . وإنما سأله الضللي (١) بكل بساطة : ما اسمك ؟

فأجاب إيلي بنعومة مورداً اسمه العبري بالكامل . وقد تلعثم في بادىء الأمر ولكنه قال في صوت واضح : « سيدي الرئيس أريد محامياً ».

وفي الصمت الذي أعقب هذه الكلمات ، بدا على الحكام الستة وكأن هذا الطلب كان بمثابة طعنة موجهة إليهم . وألقى الضللي على معاونه نظرة يشوبها الذهول. ثم انتفض غاضباً بشكل فجائي فقال : « ماذا ؟ محامي ؟»

وتجاهل إيلي غضب رئيس المحكمة وأجاب : « نعم إذا كان ذلك ممكناً » .

واستعاد الضللي رباطة جأشه ، وقال بلهجة جافة وكأنه يتلو من بيان أعد من قبل : « بما أن التهمة الموجهة إلى المتهم هي التجسس ، فإن المحكمة ترفض هذا الطلب . ومع ذلك فإن لك يا كوهين محامياً يدافع عنك ، محامياً ملأ الدنيا ضجيجاً ، إنها الصحافة اللبنانية المباعة ، كلها في خدمتك ».

وجلس إيلي من الإعياء ، وقد بدا من إذعانه أنه لم يكن يتوقع أن يمنح حق الدفاع . وفي جلسة لاحقة كرر طلبه متيحاً للرئيس فرصة تعنيفه مرة أخرى ، إذ قال : « هل نمنح هذا الجاسوس حق توكيل أحد المحامين ؟ هذا الرجل الذي تولى إبلاغ الاسرائيليين بكل دقة عن مواقع مدافعنا ودباباتنا على طول الحدود ؟ ومن المسؤول إن لم يكن هو عن القصف الدقيق الذي تعرضت له مواقعنا ؟ »

وفي بقية ذلك اليوم طلب إلى إيلي أن يقدم إلى المحكمة بياناً كاملاً

---

(١) تتبع المحاكم السورية والمدنية والعسكرية الأسلوب الفرنسي ، حيث ينكمش دور النائب العام بينما يتولى رئيس المحكمة معظم الاستجوابات . وفي محاكمة كوهين تولى العقيد الضللي رسمياً دور النائب العام .

عن حياته الماضية . فتكلم بهدوء ودقة وكأنه كان لا يريد أن يغفل نقطة أو أن يبالغ في نقطة . وعلى الرغم من أن بعض التفاصيل حذفت أو عدلت لتجنب إفشاء نشاطات غير معروفة للسوريين ، فقد كانت إفادته كاملة . قص قصة فتوته في مصر ولكنه لم يذكر شيئاً عن اشتراكه في قضية مرزوق ـ عازار . وكشف عن حقائق أساسية تتعلق باستخدامه في الموساد وتدريبه ولكنه لم يدخل في التفاصيل ، كما لم يقدم معلومات كثيرة تتعلق بتغيير هويته في بونوس أيرس أو اتصالاته في أوروبا . **أما الأشخاص الذين جرمهم فهم الذين سبق توقيفهم . وقد أحجم عن تقديم أي من التفاصيل حول مهمته في سورية ، كما فعل أثناء استجوابه . وقدم إلى المحكمة في نظر المخابرات معلومات « محروقة » (وهي المعلومات المعروفة أو التي يمكن الحصول عليها فوراً عن طريق الإستجواب) .**

وحاول الإدعاء أن يصور إيلي بأنه كان يحيا حياة العهر والفسق في سورية . وجاء الشهود الذين كانوا وكأنهم يقرأون بيانات أعدت من قبل ليقولوا أنه كان يعمل في كباريهات مشبوهة ، ومقاه قذرة . وبهدوء يشوبه الغضب رفض إيلي كل هذه الاتهامات . وكانت ملاحظاته واضحة ومباشرة . وقد بدت في كلماته البسيطة قوة كامنة . فانحنى إلى الأمام ، وتحرك قليلاً وتكلم بينما هو يمعن في التفكير ـ أو كأنه يفكر بصوت عال ـ كالأستاذ يلقي دروسه على تلامذته . فعل ذلك بطريقة دراماتيكية وفعالة وبعض الأحيان كان يجلس في هدوء السفانكس ولا ينفعل إلا عندما يجيء دوره للكلام دفاعاً عن آخرين في المحكمة . وعندما كان يعطي بيانات وثائقية لتدقيقها كان يقرأها وكأن الصفحات كانت تتناول أموراً عادية لا تعنيه . ولم يكن على وجهه ما يشير إلى أية علامة من علامات الزيغ أو تحريك الحواجب .

وعندما سنحت الفرصة راح العقيد الضللي يلقي درساً على إيلي والمتهمين الآخرين . ولم يقم بأية محاولة ذات مساس بالعقل أو بالعدل . وإنما كشف عن ورع متكلف ، ووطنية متطرفة ، وقال إنه يرفض أن

يسوق الإستجواب بالاسلوب العادي الخاص بالمحكمة والقانون . وبينما كانت طريقة الرئيس في معالجة الدعوى تعتبر من غير العرب تعسفية فقد استقبل سلوكه داخل سورية بالرضى المحفوف بالعطف والتشجيع ، وكان جمهور المستمعين بالنسبة إليه ذا أهمية أساسية . واستفاد الضللي من مواهبه الخطابية بينما كان يخيف المتهمين ، وكان لمعرفته باللغة العربية (وهو أستاذ ذو ثقافة كان يشار إليها بالبنان . وكان له تأثير سحري على أولئك الذين تعتبر العربية لغتهم الأساسية) ، وهكذا فقد نجح العقيد عندما عكس على الجماهير سحر فصاحته . وكانت أوساط البعث تثني على طريقته في « مقاومة الجواسيس الأشرار والخونة الأنذال الذين عرضوا سلامة بلادنا للخطر » .

وعندما كان إيلي يجيب على أسئلته بصوت منخفض كان العقيد يقفز من كرسيه ليقول له مزمجراً : «إرفع صوتك يا كوهين حتى يستطيع أن يسمعك الجميع » ثم يضيف ساخراً : « أين تظن نفسك في المدرسة ؟ »

وكان إيلي يستجيب لطلبه بهدوء غير أنه ثار بعد ثلاث ساعات من الاستجواب وقال بحدة : « أريد قدحاً من الماء وكرسياً » وامتنع عن المتابعة إلى أن أمنوا له طلبه . ومرة واحدة تضمنت شهادته ملاحظة استخفاف . فعندما سئل عما إذا كان رؤساؤه راضين عن عمله ، أجاب على الفور : « نعم سيدي الرئيس كانوا راضين لأنني قمت بعمل رائع » . وكان صوته يهتز بالسخرية حتى أن بعض المشاهدين ضحكوا ضحكة خافتة . أما الرئيس فقد تخلى عن كآبته لحظة وارتسمت على وجهه ابتسامة صفراء .

وكانت أسئلة العقيد الضللي تبدو أحياناً وكأنها غير متلائمة مع عزم المحكمة على إنهاء الموضوع بالتجريم أو بالبراءة ، ومع ذلك فقد كان إيلي يجيب على الأسئلة كما لو أنها تستحق الاهتمام . وعندما وصف التدريب الذي خضع له في تل أبيب كشف عن أنه تلقى دروساً في القرآن ، فاحمر وجه الرئيس :

الضللي — لماذا درست ديانتنا ؟
كوهين — أعطوني هوية صنفتني مع المسلمين .
الضللي — وكل هذا لتكون يهودياً صالحاً ، وجاسوساً صالحاً .
ورنت موجات من الضحك في المحكمة . وتابع كوهين شرحه للموضوع بهدوء :

كوهين — قيل لي أن الدين الإسلامي هو أكثر انسجاماً مع شخصيتي من الدين المسيحي .. الذي هو أكثر تعقيداً .

الضللي — إذاً فقد استغليت الإسلام كي تصبح جاسوساً . استعملت ديننا لتمر كمسلم ولتدخل إلى سورية وطننا بسهولة أكبر . لعنة الله عليك .

وهنا فقد الرئيس رباطة جأشه فقال :
الضللي — لقد نسي رؤساؤك في إسرائيل أن اليهود عندما حاولوا استغلال الدين الإسلامي شنقوا . هل نسيت التاريخ ؟ (ثم سأله بنعومة نوعاً ما) هل تعرف التلمود ؟

كوهين — لا يا سيدي الرئيس
الضللي — ألم يعلموك التلمود ؟
كوهين — لا أبداً
الضللي — والتوراة ... أنت على الأقل تعرف التوراة .
كوهين — نعم سيدي الرئيس
الضللي — كلنا نعرف التوراة . ولكنني لا أفهم لماذا تجهل التلمود ؟ هل هذه هي تعليمات الصهيونية الجديدة ؟

كوهين — لا أعرف سيدي الرئيس .
الضللي — يخرب بيتكم ... لا يكفي أن تقول الله أكبر لتصبح مسلماً .
كوهين — أعرف ذلك سيدي الرئيس .
الضللي — أنتم اليهود عندكم التلمود ... ولكنكم تجهلون الإيمان . أنتم شعب ضائع . لقد انحرفتم عن الطريق القويم لأنكم تجاهلتم حقيقة

الدين . وسيأتي اليوم الذي نتخلص فيه منكم أيها الكفار ، مرة واحدة . ولن يبقى في بلاد آبائنا العرب جاسوس واحد ، ولا عميل أجنبي واحد .. وجميع الذين قبلوا التلمود مثلك وليس القرآن سيكون نصيبهم المصير ذاته . وسوف يبادون . سوف نتخلص منكم جميعاً بضربة واحدة . وليس أمامكم غير ذلك إن شاء الله .

وأبى العقيد الضللي إلاّ أن يجرب حظه حيث فشل السويداني ومستنطقوه الآخرون ، فحاول أن يضغط عليه ليكشف عن اسم عميل إسرائيلي كانت تل أبيب طلبت إليه الكشف عن مكانه عندما عجزت عن الاتصال به عن طريق أجهزة الارسال . وادعى إيلي كما فعل دائماً أنه يجهل كل شيء عن هذا الموضوع . ولجأ الضللي إلى مضايقته غير أنه لم يستطع أن ينتزع منه في المحكمة ما عجز السويداني عن انتزاعه منه في مغارات المكتب الثاني .

وفي أوائل آذار ، وقبل قليل من تأجيل المحاكمة بمناسبة العيد السنوي للثورة ، عينت المحكمة العسكرية خبيراً لدراسة رموز الشيفرة التي وجدت في شقة إيلي . وطرحت شواهد الإثبات على منضدة وضعت إلى جانب كرسي الرئيس ، وأشار الضللي إلى أحد الحراس الذين قادوا المتهم من قفص الإتهام ليعترف بأنها كانت في حوزته . وتناول إيلي كل مادة على حدة وبعد أن دقق فيها اعترف بأنها له .

وخلال هذه المحاكمة المتعبة بدا إيلي نعساً قليل الإصغاء . وكانت المحكمة تراقبه من غير إشفاق . وعندما بدرت حركة مفاجئة من يد السجين ، أسرع الضللي فقبض على رسغه قبل أن تصل أصابعه إلى فمه ، ولوى يده إلى أن وقعت على المنصة حبتان من السيانيد . واستشاط الضللي غضباً وصاح : « هذا يكفي ، هذا يكفي » لا تضيع أوقاتنا يا كوهين . إن كل هذه الأشياء لك أليس كذلك ؟ وأجاب إيلي وكأن هذا الحادث لم يقع : « نعم سيدي الرئيس » .

وكلما تقدمت المحاكمة كلما كان العقيد الضللي ينحرف عن خط سيرها

بإلقاء خطب لاذعة « ضد العملاء والخونة الذين باعوا أرواحهم إلى الشيطان والصهيونية والأمبريالية » غير أن أكثر تعليقاته اللاذعة كانت موجهة للمتهمين السوريين .

أما ادعاء معزى زهر الدين بأنه لم يعرف أن كامل أمين ثابت جاسوساً فقد ساق المحكمة إلى مشهد من أروع المشاهد الدراماتيكية التي عرضت بالتلفزيون . ولما كان قد تبين للمحكمة أن الملازم الأول « معزى » قد وجد ورقة شيفرة في شقة إيلي انفجر الضللي ساخراً :

الضللي — لم تراودك الشكوك فيه أبداً ؟ والله هذا لا يصدق . لم يتسرب إلى نفسك الشك مطلقاً . لم يلفت نظرك أن المتهم كان يعيش في ترف ، وأنه كان ينفق المال جزافاً ، ويقيم حفلات استقبال ، وسهرات فجور لك ولأصدقائك ؟ كل هذا لم يثر اهتمامك ؟ الله ينجينا ... ألم يدهشك أنه كان ينفق ثروة على شقة كان يشغل منها غرفة واحدة . قل لي دخيل الله ... ما هذه البلاهة ؟

معزى — إنني لم أشك في شيء سيدي الرئيس .
الضللي — أكيد
معزى — نعم — وهنا قال متلعثماً — سيدي الرئيس أريد أن أدلي باعتراف .

الضللي — نعم . نعم . معزى قل لنا فأنت هنا لهذا الغرض . تكلم .
معزى — أعتقد أنني لم أوهب القدرة على الملاحظة سيدي الرئيس .
وهنا رمى العقيد الضللي يديه مستسلماً وختم الجلسة .

وعندما انتقلت المحكمة إلى اشتراك جورج سيف وماجد شيخ الأرض في الجريمة . بذل الرجلان كل مسعى ممكن للتقليل من أهمية تعاملهما مع إيلي . واحتج كلاهما أن كامل أمين ثابت قد خدعهما حين ورطهما في مؤامرة إسرائيلية ، ومن الغريب أن الضللي قبل كثيراً من الحجج التي أورداها . وفي بعض الحالات ، ودون أن يكون هناك أي

سبب ، أصرّ على أنهما يكذبان .

وقد أثارت العقيد صداقة شيخ الأرض مع رادماشر ومع كوهين بصورة خاصة . وعندما سئل كيف جمع بين الإثنين ، حاول شيخ الأرض أن يقلل من أهمية دوره في اللقاء . وقد استعاض رئيس المحكمة عن خيبته بالانفجار ضد شيخ الأرض قائلاً :

– لماذا كان اتصالك دائماً بالجواسيس يا ماجد ؟
شيخ الأرض – ولكن سيدي الرئيس ، كيف أعرف أنهم جواسيس .
الضللي – إهدأ أيها المجرم . فأنا الذي يوجه الأسئلة هنا .

ولم يساعد إيلي شيخ الأرض على إنكار حقائق سبق أن تثبت منها رجال الشرطة . غير أن الشيخ على الرغم من كل الشواهد التي كانت ضده أصرّ على التمسك بروايته . فقد زعم شيخ الأرض أنه كان ضحية اتهامات ظالمة . وهنا انفجر الضللي وأحضر ردود المدعى عليه قائلاً : « إنتظر يا سافل سوف تنال جزاءك » .

وعندما عاد الرئيس ليتحقق من إيلي عن تورط شيخ الأرض في هذا الموضوع ، اعترض شيخ الأرض متهماً الإسرائيلي بالكذب وطلب منه أن يتراجع . وفي إحدى المراحل عندما تناولت المحكمة موضوع رادماشر عاد إيلي إلى شرح لقائه بالموظف النازي السابق . وهنا قال شيخ الأرض : إنك تكذب يا كوهين . أنت تحلم .

ووقف العقيد الضللي على قدميه وأشار بإصبعه إلى شيخ الأرض وهو يصرخ : « إذاً فهو يحلم ، أليس كذلك يا ماجد ؟ »

شيخ الأرض – ولكن سيدي الرئيس ... لا . لا . لا
الضللي – كان الأفضل لك أن تعترف أنك رافقت كوهين عند لقائه بروزيلو .
شيخ الأرض – لا كل هذا كذب سيدي الرئيس .

الضللي – إنتبه الآن يا كذاب ، فعليك أن تحترم المحكمة التي أنت ماثل أمامها

وقد تنبه شيخ الأرض بعد لوم الرئيس أن دعوى براءته كانت سخيفة حتى بالنسبة لهذه المحكمة .

شيخ الأرض (بوداعة) – إنني لا أعرف شيئاً سيدي الرئيس . أعتقد أنك مخطيء . إنني حقاً لا أعرف شيئاً سيدي الرئيس .

الضللي – ساخراً – إذاً لم تعرف أن روزيلو كان جاسوساً ..
شيخ الأرض – لم أعرف سيدي الرئيس ، حقاً إنني لم أعرف ، أقسم أنني لم أعرف .

وهذه الأقوال المتبادلة لم يكن فيها ما يسيء إلى شيخ الأرض من الناحية القانونية . ولم يقم الضللي بأية محاولة ليستنتج أن شيخ الأرض كان جاسوساً عاملاً ، كما لم يحاول أن يظهر أن أعماله كانت مدمرة كأعمال إيلي .

وأكثر الشهود الذين أُحضروا إلى المحكمة كانت معرفتهم بإيلي بريئة ، وكذلك المتهمون الآخرون : المضيفات في شركات الطيران ، السكرتيرات ، سيدات المجتمع ، والبغايا ، وأصحاب المحلات التجارية والمقاهي والموظفون الصغار ، والضباط الصغار ... كل هؤلاء جرى استجوابهم . ووصلت الوقائع إلى ذروتها عندما ظهر أمام المحكمة أحمد سويداني .

ولم يلق الرئيس خطابات أمام العقيد غير أنه سأله بلطف عن تحقيقاته السابقة . فراح السويداني يتحدث عن إنجازاته في شعبة مكافحة التجسس مبيناً نشاطات المتهم ، ومع ذلك فقد وقع المقدم في حيرة عندما سئل كيف استطاع كوهين أن يعمل في سورية كجاسوس كل هذه المدة الطويلة ، فأجاب السويداني : كانت التحريات الخاصة باتصالات كامل

أمين ثابت صعبة جداً ... فقد كان دقيقا جدا ... وكانت تحت تصرفه مبالغ كبيرة من المال ، كما كان تحت تصرفه عدد كبير من الناس يمدونه بكل مساعدة ممكنة » .

وغضب رئيس المحكمة من تهربه من الموضوع ، وأصرّ على السويداني أن ينتقل إلى كلام محدد . فلجأ السويداني إلى علم البيان الذي ترانقه الإشارات بالأيدي واللغة المنمقة فقال : « إسرائيل سيدي الرئيس هي الشيطان ، وإيلي كوهين هو مبعوث الشيطان . أما أنا فمن أنا ؟ إنسان عادي يحارب الشيطان » .

وأُذيع النبأ الأخير عند انتهاء محاكمة كوهين من محطة دمشق في ١٩ آذار الساعة السابعة بعد الظهر . أما الحقيقة عن انعقاد جلسات أخرى فقد كتمت عن الجماهير . وبعد ٤٣ يوماً اجتمعت المحكمة لاتخاذ قرارها . ومع ذلك فإن هذا القرار لم يعلن على الرأي العام إلا في اليوم الثامن من شهر أيار .

البعث في هرج ومرج

ومرت أسابيع بعد المحاكمة بدون كلمة ولا قرار . وكثرت التخمينات في سورية حول الأسباب التي تكتنف التأخير . وفي داخل البعث كان البحث يدور عن أعمال الخيانة والتآمر . كما راجت شائعات بأنه قد جرى التبادل على كوهين . وراح بعضهم يهمس أنه أعدم سراً لمنع الكشف عن أسرار جديدة . والتوتر الذي كانت تغذيه الشكوك وفقدان الثقة ازدادت حدته بالاحتمالات التي بدت في الأفق بمناسبة قرب انعقاد المؤتمر القومي الثامن لحزب البعث . وكانت القيادة ترى بوضوح أن الحد من الأضرار الناشئة عن الانتقادات الخاصة بقضية كوهين يجب أن يجعل تولي الحكومة لهذه القضية مقنعاً للأحزاب الأخرى في المنطقة .

وقد قامت معركة مدمرة داخل الحزب حول موضوع الجاسوسية ولا تزال منذ عرف أن كامل ثابت ، الذي كان ينشط من أرفع مواقع الحزب ، قد جرى توقيفه كعميل لإسرائيل . وعندما ظهرت ردود الفعل الأولى لهذه الكارثة استطاع المعتدلون الذين كان بيدهم الأمر أن يحققوا تفاهماً بين جميع الأجنحة تحت شعار أن بقاء الحزب بات متوقفاً على إيجاد مخرج من الأزمة . وبأكثرية نادررة تأجل اتخاذ قرار بشأن سياسة الحزب ، بينما كان الأعضاء يطالبون بتقييم للأضرار السياسية والعسكرية التي انزلها الجاسوس الاسرائيلي بالبلاد . وكانتٌ التقارير تنهال يومياً إلى أمين الحافظ من مكتب السويداني ، ومن الوزراء ومن النخبة الممتازة في حزب البعث . وعندما كانت نتائج التحقيق ترد أولاً بأول بدا من الواضح ان أن الموقف كان أكثر خطورة مما كان يتوقع أي أنسان . ففي كل يوم كانت تظهر أسماء بارزة سياسية وعسكرية ذات علاقة بالموضوع ، وبدا وكأن القضية سترغم الحكومة على الجثو على ركبتيها .

وانتهت الهدنة المؤقتة في حزب البعث عندما وقع الانقسام بين المدنيين والعسكريين حول التدابير التي يقتضي اتخاذها ضد كوهين ، أما المدنيون الذين كانوا يخشون ردود الفعل على صعيد الرأي العام العربي فقد كانوا منقسمين إلى معسكرين ، فالأمين العام ميشيل عفلق ومساندوه الذين كانوا أشد حذراً اقترحوا تجنب المحاكمة كلها . وكانت حجتهم أن المحاكمة وإن جرت بصورة سرية ، فإن بعض الأمور قد يزاح الستار عنها مما يسيء الى سمعة الحكم . وكانوا يصرون على أن الحل العملي الأمثل هو أن يبقى كوهين في السجن إلى أن تنسى القضية فيتقرر بعد ذلك مصيره .

أما البيطار وأتباعه فقد كانوا يصرون على محاكمة مسرحية في محكمة مدنية ، بشرط أن يكتفي النائب العام بتوجيه الأسئلة الضرورية التي تثبت أن المتهم قد أخل بقوانين الأمن السورية . وعلى الحكومة أن تضمن تسرب ما يكفي من معلومات لضمان سجنه مؤبداً . كما أن شهادة كوهين يجب أن تصنف في حقل « سرّي للغاية » ، وأن يطلع عليها فقط أعضاء القيادة القطرية الموالون للعهد الحاضر . أما بقية التفاصيل فيجب أن يسدل عليها الستار لا بالنسبة للرأي العام فحسب بل بالنسبة لجميع الدرجات في الحزب بما فيها القيادة القومية ، وذلك كيلا تتسرب المعلومات إلى أعداء الحزب .

أما العسكريون كانوا يرفضون كل الاقتراحات الرامية لتمييع الموضوع ، ولكنهم كانو مع ذلك منقسمين حول أسلوب العمل . فالمعتدلون وعلى رأسهم أمين الحافظ كانوا يصرون على أن تجري المحاكمة تحت أشعة الكاميرا بشرط أن ينحصر الاستجواب في موضوع التجسس العسكري ، كما يصرون على أن يصدر حكم الاعدام على كوهين وينفذ . أما المتطرفون بقيادة صلاح جديد فكانوا يدعون إلى محاكمة علنية تخضع للتعليمات والقواعد العسكرية على أن يكون المرسوم الصادر في ٧ كانون الثاني قاعدة في إجراءات المحاكمة . واقترحوا كذلك أن يجري التحقيق مع كوهين بكل دقة . **وقال صلاح جديد: « يجب أن يكشف كوهين عن كل**

ما يعلم «ولتسقط الرؤوس التي ستسقط». وكان يأمل رئيس الاركان أن يؤدي سير المحكمة على هذا الشكل إلى إذلال إدارة أمين الحافظ، وشق الطريق إلى انقلاب جديد. غير أن أنصار فكرة صلاح جديد هذه كانوا قلة. وبما أن القانون السوري يجيز السجن المسبق كتدبير وقائي لمجرد الشك في المعارضة لذلك لم يكن أنصار اللواء جديد جادين في عرض وجهة نظرهم.

وقبيل منتصف شهر شباط، وافقت زمرة عفلق المدنية على حل وسط مع أمين الحافظ وضباطه. ولكي يصبح بالامكان استبعاد كل اتهام يتعلق بتهاون الحكومة مع الأعداء، صدرت الأوامر بتنفيذ حكم الاعدام شنقاً بعميلي الـ C.I.A في ٢١ آذار من الشهر ذاته. وبعد أيام قليلة عين أعضاء المحكمة الخمسة الموالون لأمين الحافظ وبينهم الضللي وحاطوم أعضاء في المحكمة العسكرية الخاصة.

وعلى الرغم من أن رئيس المحكمة العسكرية قد أشرف على المحاكمة، وقام على ضبط الجلسات التلفزيونية، لم يكن بالإمكان كتمان كل الاتصالات التي كشف عنها كوهين. وقد فوجىء المعسكر المعارض لأمين الحافظ بأن اتهامات وجهت إلى بعض أقطاب هذا المعسكر دون أن توجه أية اتهامات إلى جماعة الحافظ. كما أن الأقسام غير المراقبة من المحاكمة التي نشرت في الصحف اللبنانية أثارت الغبطة في نفوس أخصام البعث، وزودتهم بذخيرة كافية لشن الحملات على الحزب بعد أن قدم لهم السوريون مادة أولية لا تنضب لتشغيل أجهزتهم الإعلامية

أما الرئيس عبد الناصر فكان يبحث دائماً عن صعيد لتشويه سمعة البعثيين، المنافسين الثوريين، فقد أصدر أمره بشن هجوم سياسي شامل لاستغلال القضية. فمنذ انفصال سورية عن الجمهورية العربية المتحدة كان الشغل الشاغل لعبد الناصر هو أن يثبت أن أخصامه في دمشق كانوا غير قادرين على قيادة العالم العربي، وكان يتهم الحزب دائماً بالدونكيشوتية في معالجته للاشتراكية الثورية، أما الآن فقد استطاع أن يعلن أخيراً أن

الحزب غير قادر على التصرف بمشاكله الخاصة ، فضلاً عن أن يصبح نموذجاً للشعوب العربية الأخرى . وشنت القاهرة حملة من اتهامات الفساد وعدم الكفاءة ضد إدارة أمين الحافظ داعية جماهير الشعب السوري إلى الثورة . وكان الذي يقود الحملة محمد حسنين هيكل رئيس تحرير جريدة الأهرام . وكانت الأعمدة التي ينشرها في أيام الجمعة تعتبر شبه رسمية ، فراح يسلق الفئة الحاكمة من الحزب بألسنة حداد . وعندما ردت دمشق زاعمة أن صحف القاهرة قد كشفت عن أسرار حيوية ذات علاقة بالطيران السوري ، استعمل الدعاة المصريون قضية كوهين كرد طبيعي . وانفجر المعلق السياسي في صوت العرب متسائلاً : « **وماذا بقي في سورية من أسرار لم تنكشف بعد إن قيل كل شيء عن طريق كوهين.**» (١)

وانضمت الأردن والكويت والعربية السعودية إلى محاولة الاذلال هذه ، فوصفت مصادرها الإعلامية إيلي بأنه « استاذ الجواسيس الصهيونيين» وأنه « الجاسوس الساحر » . أما العراق الذي هو تارة صديق سورية ، وتارة أخرى عدو لها فقد التزم هذه المرة جانب عبد الناصر . وكالمصريين استفاد العراقيون من انجازات إيلي للتقليل من قدرة سورية على مجاراة مقتضيات الأمن العربي . ورد أخصام البعث في العراق على تفاخر السويداني بأن أجهزته هي التي اكتشفت الجاسوس كوهين ، ردوا بسخرية قائلين إن المكتب الثاني السوري غير قادر على حماية البلاد من التسلل الصهيوني ، وأكدت محطة بغداد قائلة : « إذا كانت أجهزة مكافحة التجسس سليمة كما يزعم النظام البعثي فكيف استطاع كوهين أن يصل إلى هذا القدر من المكانة والنفوذ ؟ .. لقد كان صديقاً حميماً لأكثر أعضاء مجلس الوزراء، وقد ارتقى إلى أرفع المراتب في الحزب ، مما يدل على التفسخ داخل الحزب ، كما أن أعضاء الحزب اشتركوا في أعمال وحشية داخل شقة كوهين ، كما أن حفلات العهر كان يحضرها رجال في مستوى القمة من الحكومة والحزب ... فأين كانت آنئذ أجهزة مكافحة التجسس التي

---

(١) الاهرام ١٧ آذار ١٩٦٥ .

يدعون انتصارها ؟ هل كانت هي أيضاً منشغلة في حفلات العهر والرذيلة المشار إليها ؟

واستخدم البعث كل ما لديه من وسائل إعلامية للرد على هذه الدعايات المسمومة . فأطلقت محطة دمشق كل بطارياتها ضد أعداء الحزب ، وفي كل مناسبة متاحة ، بينما راح أعضاء الحزب يردون بعنف على منتقديهم . وكان السلاح الرئيسي المحاكمات ذاتها . فقد صدرت الأوامر لصلاح الضللي بأن ينتزع من إيلي شهادة تتناقض مع الدعاية المناوئة للبعث ، وتتضمن الإشارة ضمناً إلى أنه لم يستطع أن يلحق ضرراً كبيراً بأمن البلاد. وفي أحد المراحل ، في الجلسة المسجلة الثانية سئل المتهم عن علاقاته غير الشرعية بالقيادة العسكرية .

الضللي — زعم راديو بغداد أن سليم حاطوم كان في عداد أصدقائك ، فهل هذا صحيح يا كوهين ؟

كوهين — هذه هي المرة الأولى التي أشاهد فيها العقيد حاطوم سيدي الرئيس .

الضللي — إذاً لا بد أنهم مجانين في بغداد ؟
كوهين — لا شك عندي في ذلك ، يجب أن يكونوا محرضين **Provocateurs**
الضللي — و « الحياة » أيضاً تزعم أن كل ضباطنا هم أصدقاؤك . إنه انتهاك لحرمة القوانين كلها .

كوهين — (مبدياً اشمئزازه) ولكن سيدي الرئيس إنني لم أكن أعرف سوى أربعة ضباط .

وهنا حول العقيد الضللي مقر المحكمة العسكرية إلى ساحة لتشويه سمعة الصحافة عن طريق السخرية بمحرريها . غير أن الأمل الذي كان يراود حزب البعث بإسكات أخصامه لم يعش طويلاً . فقد استمر الأخوة العرب بقيادة عبد الناصر في شن الهجوم على نظام أمين الحافظ كما ضاعفوا

من حملاتهم بعد انتهاء المحاكمة ، مشيرين إلى أن تاخير صدور الحكم كان مجرد حيلة لتغطية إتفاق سري عقد مع اسرائيل حول تبادل الأسرى ، وفي هذا الجو المكفهر كان أعضاء الحزب يعدون للمؤتمر القومي الذي كان ينتظر أن يتحول إلى هيئة محلفين عفوية تقرر مصير إيلي كوهين .

وفي أوائل شباط وزع حزب البعث دعوات لحضور جلسة مؤتمر الحزب في نيسان . وقال ممثلو الدعوة من لبنان والعراق والأردن وسورية إن المؤتمر سيجتمع لحل بعض القضايا العقائدية والتنظيمية ، غير أن الاستعلامات التي وردت من فروع الحزب في البلدان الشقيقة بعد اعتقال كوهين ، أقنعت لجنة التخطيط أن المؤتمر سيناقش موضوع كوهين بالتفصيل ، وسيدرس آثاره على حكم البعث في سورية . أما المواضيع الأخرى فستكون نتائجها معلقة على الطريقة التي ستعالج بها هذه القضية .

واجتمع المؤتمر في جو شديد الغموض صبيحة السابع من نيسان في مقر حزب البعث في دمشق ، غير أن تسلل العميل الاسرائيلي إلى أرفع المراتب في حزب البعث لم يكن القضية العميقة الوحيدة . فقد انهارت قيادة البعث في حمأة من الفوضى الكاملة ، كما أن نزاعها على قيادة العالم العربي مع عبد الناصر أثبت أنه معركة فاشلة . وفي كل مرة كانت قوة عبد الناصر وشخصيته الديناميكية ، ومكائده السياسية التي فطر عليها تعوق كل مخططات سورية للقيادة والسيطرة . وكانت قيادة عفلق النظرية والمدرسية ، التي استطاعت أن تعالج الناصريين في سورية بنجاح ، عاجزة عن الدخول في سباق مع انفتاح ناصر على القومية العربية في المنطقة . وعلى الرغم من حذر عفلق وبعده عن العواطف فإن تردده وضعف كفاءته أديا إلى خلق جو مثالي لأعضاء الحزب الصغار العاملين في الاستيلاء على زمام السلطة ، وقد قدر لهذا التطور أن يلعب دوراً هاماً في مصير قضية كوهين .

وعقدت الجلسات السرية في غرف قامت قوى الأمن على حراستها . وبعد تشكيل وحدات عمل ، راح قادة الحزب يترددون بين زمرة

وأخرى باحثين عن تحالفات محتملة حول مختلف المواضيع ، ولكن لم يكن هناك من يشك في أن موقف الحزب من إسرائيل كان هو المشكلة الرئيسية ووجهت أسئلة واضحة ومحددة عن المعاني الحقيقية لقضية كوهين مما اضطر الناطق الرسمي السوري إلى أن يعرض أكثر من تفسير رسمي واحد . وبينما كان المؤتمر يتابع أعماله ردد المجتمعون طلباً جماعياً يقضي بأن تعالج قضية كوهين بطريقة تخرس أخصام الحزب إلى الأبد .

ووضعت أهداف البعث الثورية تحت دراسة دقيقة من قبل لجان المؤتمر . وكان السخط على أعضاء الحزب القدامى – عفلق والضباط المعتدلين من جماعة الحافظ – متأصلاً بين أعضاء الجناح اليساري المدني والعسكري داخل الحزب . وأظهر الضباط اليساريون استياءهم واستعدوا للعمل على أساس إعادة تنظيم شاملة . ولكي يستطيعوا الوقوف في وجه الخطر المتزايد الذي تباشره جماعة من اليمينيين والمتآمرين الفاشيست للاستيلاء على الحزب ووضعه من جديد في قالب محافظ ، التفوا حول رجل بعيد النفوذ هو المناضل منيف الرزاز . ولم يكن إيلي يعرف هذا الرجل إلا بصورة غامضة . وهو طبيب له من العمر ٤٦ عاماً ، سوري المولد ، قضى أكثر أيامه العملية في الأردن ، حيث جرى توقيفه بسبب نشاطه البعثي . ثم منح عفواً من قبل الملك حسين وأخلي سبيله من أحد سجون الأردن قبل ستة أسابيع من افتتاح المؤتمر . وقد أكسبه السجن وسام الشهادة .

وانتقد الرزاز بتحفظ ولكن بفعالية إخفاق النظريين والمعتدلين في الحزب الذين كان يعتبرهم قصيري النظر إلى درجة كانوا عاجزين فيها عن إدراك ما انحدر إليه الحزب من حالة الفوضى ، وقال الرزاز إن في الإمكان تذليل المصاعب الرئيسية إذا جرى تغيير في القيادة . وقدم إلى المؤتمر تدابير مدروسة لإصلاح الحزب ، وآخر هذه التدابير كان شؤماً على إيلي . وكان أكثر الأقسام إثارة في مخططه هو أن يرمي القفاز في وجه عبد الناصر ، وأنه سيرغم الرئيس المصري على الخروج من خلف « ستار

بياناته المتناقضة ليتخذ موقفاً حاسماً من إسرائيل فإما أن يسعى وراء الصلح ، أو ينضم إلى البعث وحلفائه التقدميين في « مواجهة مباشرة مع اليهود » .

وأدرك عفلق أخيراً الموقف الدقيق الذي يواجه الحزب ، معترفاً بعجزه عن أن يكون في مستوى الموقف . وبما أنه يعتبر البعث فوق مصالحه الخاصة ، لذلك تراجع طالباً من رفاقه أن ينتخبوا منيف الرزاز خلفاً له . وفي نهاية شهر نيسان ، وبينما كان مؤتمر الحزب على وشك الإنفضاض ، أعد الرزاز ميثاقاً مع الحافظ . ولم يكن هذا الميثاق حلاً وسطاً . فقد وافق الحافظ بصفته رئيساً للجمهورية وقائداً عاماً للجيش على أن يساند الرزاز في منصب الأمانة العامة ، وأن يتخذ اتجاهاً أكثر تقدمية في سياسة البلاد .

ولم تكن أهداف الرزاز الاشتراكية منافية للأساليب الثورية ، فقد أيد سياسة التعاون مع الشيوعيين ، وخطط لتأميم أوسع للاقتصاد السوري . وكان طريقه إلى مشاكل الحزب ومشاكل سورية ذا شعب ثلاث : معارضة اشتراكية مصر الدكتاتورية ، العمل على نشر عقائدية البعث في المنطقة كلها ، واتخاذ موقف نضالي فوق العادة نحو إسرائيل . وكان الرزاز رجلاً براغماتياً ولكنه لم يكن يخلو من المؤثرات العاطفية ، وكان كإخوانه المسلمين يؤمن بالجنة وبالشهادة التي تضمنها . كما كان يدرك الظلال التي تعكسها المشاعر العربية ، ويرغب في الاستفادة من عواطف الشعب . وهذه الخصائص جعلت منه شخصية سياسية خطرة . وعندما يصل مثل هذا الرجل إلى السلطة فإن مصير إيلي كوهين يصبح أمراً مفروغاً منه .

وفي ٨ أيار دعا العقيد الضللي إلى مؤتمر صحفي لإعلان الحكم . وقبل الإعلان تلا رئيس المحكمة بياناً أوجزت كلماته :

« إخوتي العرب ، مواطني السوريين . استمعت هذه المحكمة خلال
« شهرين متواليين إلى الأعمال الشيطانية التي قام بها الجاسوس
« الاسرائيلي إلياهو كوهين ، الذي انتحل شخصية مسلم ثري اسمه

« كامل أمين ثابت . والحقائق التي اكتشفت أثناء المحاكمة كانت
« كلها تشهد ضده حتى أن المتهم لم يستطع دحضها ، ولذلك سأتلو
« عليكم الحكم الصادر عن المحكمة الخاصة من النسخة الأصليـــة
« المختزلة المحفوظة في المحكمة العسكرية » .

ثم راح الضللي يعيد ترتيب أوراقه معتمداً التوقف قليلاً ليزيد في دراماتيكية القرار الذي حضر الصحفيون العرب لسماعه :

« بعد سماع أدلة الإثبات التي قدمت إلى هذه المحكمة .
« وبعد أن عززت الشهادات المقدمة قناعتنا
« لذلك رأت المحكمة أن المتهم إلياهو بن شاؤول كوهين ، الذي
« يعرف باسمه المستعار كامل أمين ثابت ، تغلغل في منطقة الأمن
« التي تدعى (العال) ، وهي منطقة عسكرية محرمة على المدنيين ،
« للحصول على معلومات يفيد منها العدو ، ولما كان التسلل إلـــى
« المناطق العسكرية دون إذن يعاقب عليه بالموت وفقاً للمادتين ١٥٨
« و ١٥٩ من القانون العسكري ، ولما كان الحصول على معلومات
« عسكرية يفيد منها العدو ، وتبقى سرية للحفاظ على أمن البلاد
« يعاقب عليه بالموت وفقاً للمواد ٢٧١ و ٢٧٢ و ٢٧٤ من القانون
« العسكري، وبالنظر للمواد السالفة الذكر من القانون العسكري
« وبالنظر للأمر الدستوري رقم ٦ الصادر في ٧ كانون الثاني ٩٤٥
« المعدل بالأمر الدستوري رقم ٣٣ الصادر في ٩ شباط ١٩٦٥
« تعلن هذه المحكمة أن المتهم إلياهو بن شاؤول كوهين وعمـــره
« أربعون عاماً من تل أبيب شارع بات يام ، في فلسطين المحتلة ،
« مدان بارتكاب جميع هذه الجرائم :
« لذلك حكمت المحكمة عليه بالموت شنقاً .

« صدر الحكم بحضوره ، وهو خاضع لتصديق رئيس مجلس الرئاسة .
« وقع على هذا الحكم بتاريخ اليوم ، الأول من أيار ١٩٦٥ في
« دمشق ، وتلي علناً »

التوقيع
العقيد صلاح الضللي
رئيس المحكمة العسكرية الخاصة

وأحيط إيلي ومعاونوه الستة في زنزاناتهم بالأحكام التي صدرت ضدهم . غير أن هذه الأحكام كانت لا تزال في حاجة لتصديق الرئيس أمين الحافظ ، ولكن لم يكن هناك مجال للاستئناف . وقد شمل حكم الموت معزى زهر الدين ، وماجد شيخ الأرض غير أن الحكم عليهما ما لبث أن خفف إلى السجن مع الأشغال الشاقة خمس سنوات للأول ، وعشر سنوات للأخير . أما جورج سيف فقد حكم بالسجن خمس سنوات بينما أصاب الثلاثة الآخرين من شبكة التجسس أحكاماً بالسجن تتراوح بين ثلاثة وستة أشهر . أما الثمانية والعشرون الآخرون فقد برئت ساحتهم باعتبار أنهم غير مذنبين .

المساعي

سمعت ناديا إعلان حكم الموت من محطة دمشق عند الساعة السادسة من مساء يوم السبت . وقد هزتها صدمة الذعر فراحت تحدق في جهاز الإذاعة بعينين خاليتين من أي تعبير قبل أن تنهار فتسقط على الأرض . وفي الأسابيع التي أعقبت نهاية المحاكمة كانت تنتظر بأعصاب مشدودة الكلمة الأخيرة . وقد احتفظت لنفسها بشيء من التفاؤل حتى بعد أن رفض السوريون في باريس مقابلتها ، فقد كان هناك احتمال بأن يحكم عليه بالسجن لمدة طويلة ثم يجري عليه التبادل فيما بعد ، وقالت في وقت لاحق : « كان أملي دائماً أنه سينجو وسيعود إلينا » .

أما الآن ، وبعد صدور الحكم الذي كانت تخشاه في سرها ، فقد احتفظت بشيء من الثقة كان يشجعها عليها أقرباؤها وأصدقاؤها الخلص : فقد كانت هناك احتمالات التأجيل ، كما أن الرئيس الحافظ قد لا يصدق الحكم . وتذكر موريس قائلاً : « كنا لا نملك غير أن نصدق . كنا نأمل أن معجزة ما قد تحدث .. »

وجرى الإستماع من محطة لندن إلى النشرة التي كشفت عن الحكم الذي صدر على كوهين ، ثم أعيد نشر الخبر من هذه المحطة في الساعة العاشرة والنصف مساء أي بعد مضي نصف ساعة على إذاعتها من دمشق . ثم أعيدت إذاعة القصة من محطة باريس أوروبا رقم ١ ، فسمعها وولتر إيتان السفير الإسرائيلي بينما كان في زيارة أصدقاء له في مونتبارناس . فاستدعى معاونيه إلى السفارة بالهاتف ، وغادر مسرعاً إلى أفينو دوغرام ، وهو يفكر فيما يستطيع عمله في هذه الساعة المتأخرة من المساء .

وحاول إيتان ولكن بدون نتيجة أن يتصل برئيس الوزارة الفرنسية

بومبيدو أو بوزير الخارجية كوف دو مورفيل ، اللذين كانا يقضيان عطلة نهاية الأسبوع في الريف . كما حاول حدس أن يتصل بدوره بفور وبمنديس فرانس ولكنه لم يستطع الإتصال بأي منهما . وعندما لم يجب آخرون من رجال الدولة الفرنسية على الهاتف ، أصبح من الواضح أن أية محاولات إضافية لوقف تنفيذ الإعدام يجب أن تنتظر حتى صباح اليوم التالي . وفي اليوم التالي اتصل الكي دورسيه بناء على طلب إيتان بالسفير اللبناني ، وطلب إليه أن ينقل إلى السوريين أمل وزارة الخارجية الفرنسية بأن تجد حلاً متحضراً لهذه المشكلة ، فاستجاب المبعوث اللبناني لهذا الطلب ولكن مع شيء من التردد .

وفي القدس كان شأن وزارة الخارجية الإسرائيلية كشأن ممثليها في باريس ، تحاول أن تحمل السوريين على تعديل رأيهم بالوسائل الدبلوماسية . فقد طيرت البرقيات إلى واشنطن وبونس أيرس ولندن وبون ، مشيرة للحاجة إلى المزيد من التدخل ، وإلى الصفة المستعجلة للقضية . واستحث السفير إبراهام هارمان مرة فيليب تالبوت ، غير أن مساعد وزير الخارجية الأمريكية قدم له النصيحة التالية : الفرنسيون وحدهم هم الذين يستطيعون معالجة موقف دقيق كهذا ، أما بالنسبة لألمانيا الغربية فإن انقطاع علاقاتها مؤخراً مع عدد من الحكومات العربية جعل تدخلها مستحيلاً .

أما القائم بالأعمال الإسرائيلي في لندن فقد اتصل بقادة حزب العمال . فهتف فيكتور فيذر الأمين العام لمؤتمر إتحاد نقابات العمال في لندن طالباً الرحمة ، ومؤكداً أن « موقفاً من هذا النوع سيزيد من احترام الشعوب التقدمية للجمهورية السورية في كل مكان من العالم » . وقد دل الجواب الغاضب الذي أدلى به المبعوث السوري على أن حكومته لن تتخذ موقف الرحمة « من الرجل الذي أساء إلى أمن سورية ، وسبب موت وعذاب كثير من المواطنين » . وطلب السفير غريشن أفنير من رئيس الوزارة الكندية جان ديفنباكر أن يتدخل شخصياً فكتب إلى دمشق يقول : « لقد شعرت بصدمة نتيجة للحكم فأيقنت أن هذا الموضوع يستحق العناية » .

كما اتصل إيهود أفريل بالكرسي الرسولي للمرة الثانية ، وكـذلـك الدبلوماسيون الإسرائيليون في إفريقيا وأمريكا الجنوبية اتصلوا بكـل صديق طالبين توجيه احتجاجات شديدة اللهجة . وهكذا اجتاحت قصر المهاجرين موجة جديدة من البرقيات والإتصالات الهاتفية .

وعندما تلقى الأستاذان أريغي وميرسيه نص الحكم إنتهيا إلى أن الطريق السالك الوحيد هو الاستئناف مباشرة بغرض إبدال العقوبة . وكان الوقت يمر بسرعة . واقترح أريغي أن يقوم ميرسيه برحلة أُخرى إلى دمشق . وفي نيسان زار الأستاذ العاصمة السورية مرتين ، أخبر في أولاهما الأتاسي والوليد طالب أنه مزود من الإسرائيليين بجميـع صلاحيـات المساومة . وكان يحمل قائمة بعشرة من الجواسيس السوريين كـانت إسرائيل مستعدة لإعادتهم عوضاً عن إيلي . كما كانت القدس مستعـدة كذلك لأن تدفع أموالاً ومواد طبية ، وتجهيزات زراعية تبلغ قيمتها نصف مليون من الدولارات . فرفض الوليد طالب هذا العرض . وأجاب ببرود : « نحن لا نعترف بدولة إسرائيل ، ولذلك لا نستطيع عقد صفقة من هذا النوع » .

ولم يؤثر رفض الوزير على ميرسيه الذي أعد الترتيبات لمقابلة العقيد أحمد سويداني . فاستقبله رئيس المخابرات العسكرية في مكتبه بمبنى الأركان العامة .

ولم تكن هناك مجاملات شخصية هذه المرة . فالسويداني الذي كان في الملابس العادية أثناء المحاكمة ، كان لا يزال ينضح بالمظهر العدواني الذي أسدلته عليه قضية كوهين . فقال للأستاذ بحدة ونزق : « من أنت في كل الأحوال .. ؟ ألم ترسلك المخابرات الإسرائيلية للتجسس علينا ؟ » أخذ ميرسيه بهذه الكلمات على حين غرة ، ولكنه أجاب بهدوء : « أنه لم يألف التجسس عندما يقوم بواجبات مهنته » . وذكر السويداني أنه دافع عن كثيرين من المعزولين في ظروف هي أكثر غرابة من الظرف الحالي . وأن من بعض زبائنه عرب هم أخوة للعقيد . ولما كان السوريون

يجعلون قوانينهم أضحوكة وسخرية عندما لا يراعون أبسط مبادىء العدالة ، فليس أمام المحامي سوى أن يساوم على تبادل السجناء .

وألقى السويداني نظرة على القائمة التي قدمها إليه ميرسيه ثم لاحظ بسخرية : « ولماذا نجري هذا التبادل ؟ إن إسرائيل على كل حال لا تنفذ أحكام الإعدام في جواسيسها » . وذكر المحامي الفرنسي أن العقيد اضطرب في جانب من الحديث ، وأصبح صوته أكثر نعومة عندما أبلغه بالمدى الذي يمكن أن تصل إليه إسرائيل في الضغط لإنقاذ كوهين . وأنذره قائلاً : « إذا تصرفتم على وجه غير عادل فإن الإسرائيليين سيتعقبونكم بدون نهاية . إنهم لن يتسامحوا مع أي منكم . وهم لا ينسون أبداً التصرف المجرد من العدالة » فضحك السويداني غير أن ميرسيه لاحظ على وجهه مسحة من القلق . (...)

وعندما حيا الأتاسي ميرسيه في ١١ أيار ، أي بعد ثلاثة أيام من صدور الحكم ، قال الأمين العام أنه لا يعرف شيئاً يمكن عمله لإنقاذ حياة السجين . وكل ما يستطيع عمله هو أنه يعد الأستاذ بزيارته خلال أيام قليلة ، ليقول له ما إذا كان في وسعه أن يتقدم بطلب ما ، وانتظر ميرسيه ١٢ ساعة بالقرب من الهاتف . وفي الساعة الرابعة من ١٤ أيار أحيط الأستاذ علماً أن في وسعه أن يتقدم بطلب إبدال العقوبة ، وأن مقابلة مع الرئيس الحافظ قد أعدت ليوم ٢٢ أو ٢٣ أيار . ونصح الأتاسي أن ليست هناك حاجة للإنتظار في دمشق حتى ذلك التاريخ .

ولما كان ميرسيه غير قادر على أن يفعل أكثر مما فعل ، لذلك عاد إلى باريس عن طريق بيروت حيث علم أن الصحف اللبنانية قد ركبت موجة الحملة على السوريين لأنهم أقدموا على عملية مقايضة من أجل كوهين . ورددت محطة صوت العرب ومحطة بغداد الإتهامات ذاتها ، وهي اتهامات ساعدت على جمع صفوف حزب البعث وراء أمين الحافظ والرزاز . وهنا حلت الكآبة على ميرسيه ، وقال فيما بعد : « أخذ يحدثني قلبي أن الموقف يزداد سوءاً » .

وعلى الرغم من أن اقتراح ميرسيه على السويداني والوليد طالب قد رفض ، فقد ظل الموساد يبحث في الإحتمالات المؤدية لتبادل السجناء والبضائع . وفي تل أبيب قام عضو الكنيسيت سنيه بمحاولة يائسة لإجراء التبادل . وكانت الأجوبة التي تلقاها من الممثلين الدبلوماسيين لبلدين إشتراكيين « شديدة التهذيب » ولكنها سلبية في روحها ، ومع ذلك فإن موشى بنتزور ، المبعوث الإسرائيلي إلى سويسرا ، طلب إلى اللجنة الدولية لرجال القانون – وهي منظمة معروفة بملاحقتها للأحكام الظالمة – أن تتدخل كوسيط . غير أن الأمين العام سيبان ماكبرايد أظهر تردده في باديء الأمر لأنه لم يسبق للجنة أن تدخلت في قضايا التجسس ، غير أنه وافق أخيراً على أن يجري التدخل بالإستناد إلى « مباديء إنسانية وعلى أساس سري من أجل تبادل كوهين مع أسرى معتقلين من قبل السلطات الاسرائيلية » . وكانت تقارير اللجنة حول طرق ممارسة القانون في سورية انتقادية ، كما أن الممثلين العرب في جنيف لم يعيروا اهتماماً لعرض ماكبرايد . وشرح الأمين العام للمنظمة فيما بعد أن من بين المصاعب التي حالت دون نجاح المحاولة أنه لم يكن بين السجناء العرب شخص من وزن إيلي كوهين .

وبعد فترة قصيرة ، اجتمع أحد موظفي السفارة الإسرائيلية في باريس ، وهو يعمل في مكتب الملحق العسكري ، مع ضابط ارتباط فرنسي تابع لمصلحة « الوثائق ومكافحة التجسس الفرنسية » (**Sdece**) . وطلب أن تعمل وكالة الإستخبارات الفرنسية كوسيط لدى المكتب الثاني السوري (احتفظ الجهتان بعلاقات وثيقة يعود عهدها إلى أيام الحكم الفرنسي لدولتي المشرق) . وكان هناك ضابط احتياط فرنسي برتبة كولونيل عاش في دمشق سنين طويلة وتزوج من سورية ، وهو يمتاز بصداقته الوثيقة بالرئيس الحافظ . وقد منح الصلاحية الكاملة للدخول في مفاوضات حول هذا الموضوع . وخول الكولونيل أن يعرض على دمشق عشرة من العملاء السوريين السريين ، وربع مليون دولار تسلم على شكل مواد طبية ، وسيارات مستشفى وتراكتورات وبولدوزرات يجري

تبادلها مع إيلي . وكدليل على حسن النية أودع الإسرائيليون مبلغ ٢٥٠ ألف دولار في مصرف سويسري ، وأصدروا شيكاً على بياض دون أن يضعوا عليه اسم المستلم .

وبعد أن استكمل الكولونيل أسباب المساومة قضى الأسبوع الأول من شهر أيار في دمشق مستفيداً من نفوذه للاتصال برجال الحكومة . وكانت مهمة تكتنفها الخيبة . إذ رفض الوليد طالب والسويداني مقابلته . كما لم تعر أية سلطة أخرى اهتماماً جدياً لاقتراحه . أما مكتب رئاسة الجمهورية فقد رفض بصراحة أن يمنحه أية مقابلة . فقد كان اللواء الحافظ يفضل تجنب أية مواجهة مع مبعوث فرنسي على أن يدلي بجواب سلبي . وهكذا عاد الكولونيل خالي الوفاض إلى باريس .

وعلى الرغم من كل ذلك ، تابعت الموساد ضغطها في الاتجاه نفسه مستخدمة هذه المرة وسائل غير مباشرة . فبمساعدة ضابط فرنسي آخر من المخابرات يتمتع بصلة طيبة مع أحد الملحقين العسكريين السوريين في أوروبا ، تقدمت الموساد بتنازل جديد : يمكن إعادة العملاء السوريين العشرة مع الأموال والتجهيزات المعروضة لقاء التأكيد بأن إيلي سيظل حياً . وقد قام المبعوثون السوريون في سويسرا بدراسة هذا العرض بدقة ، وجرى درس اتفاق غير نهائي حول هذا الموضوع ، عن طريق الوسيط الفرنسي . وقد تبادلت الأيدي شيكاً بمبلغ خمسة آلاف دولار أثناء هذه المفاوضات ، غير أن دمشق تراجعت عن الإعتراف بالمفاوضات ، وصرف النظر عن الموضوع . أما الضابط السوري الذي قبل سلفة الخمسة آلاف دولار ، فقد أرسل إلى منفى اختياري في سويسرا مستخدماً هذه الوديعة ليبدأ حياة جديدة .

وبينما كانت الموساد تحاول ترتيب حل مع السوريين كان كبار الموظفين في وزارة الدفاع وفي الأركان العامة يؤيدون اتخاذ تدابير أشد . والحقيقة أن انشقاقاً حدث في المجتمع العسكري حول الخطوات التي يجب اتخاذها لإنقاذ إيلي . فالمعتدلون كانوا يساندون الإجراءات الدبلوماسية

التي تتخذ من جانب وزارة الخارجية ، بينما كان أنصار الإجراءات العنيفة يطالبون بالقيام بعمل مباشر . وقد أكدوا أن التجارب الماضية أثبتت أن من العبث القيام بأية محاولة للتوفيق مع السوريين وخاصة في ظروف الإضطراب السياسي . واقترحوا إرسال وحدات خاصة من لواء المظليين لاختطاف رهائن ونقلهم إلى إسرائيل . وقالوا إن هذه العملية إذا رافقتها العروض المشار إليها ، مضافاً إلى الصدمة التي ستحدثها عملية الخطف فإن الأشخاص المخطوفين سيزودون إسرائيل بالقوة اللازمة لإرغام السوريين على التفاوض بشكل جدي .

والذين كانوا يؤيدون هذا الاتجاه لديهم سوابق تزيد في وزن وجهة نظرهم . فقد سبق للوحدة المختارة « يشيدا ١٠١ » وهي سلاح الكوماندوس الخاص التابع للقيادة العامة ، والذي انضم فيما بعد إلى المظليين ، سبق له أن قام بعمليات تسلل مماثلة في الماضي . وكان قائد هذه الوحدة مايير هارزيون ، الصغير الجسم ، والبعيد عن الأضواء ، خبيراً في الأراضي الواقعة على طرفي الحدود . وقد سبق له أن قام في مناسبات كثيرة بغارات في العمق على مصر والأردن وسورية حيث حصل على رهائن أمكن تبادلها مع الجنود الاسرائيليين ، ومع المخابرات الاسرائيلية . وقال أنصار فكرة العنف أن إسرائيل لم تنجح في أية مرة باسترداد أحد من رجالها إلا عن طريق تدابير تأديبية من هذا النوع .

وقبل عشر سنوات فُقد ضابط مظلي إسرائيلي برتبة رقيب اسمه أسحق جبلي بعد غارة جرت على الحدود الأردنية . وعندما تأكدت المودين أنه في أيدي العدو ، عرضت إسرائيل أن تبادله على جنود أحد الفيالق كانوا قد أسروا من قبل شعبة مكافحة التجسس الإسرائيلية شن بت **Shin Beth** ، ورفض الأردنيون عملية التبادل فتسللت قوات الكوماندوس التابعة لهارزيون في الأراضي الأردنية حتى بلغت الخليل وهي تبحث عن رهائن . فنقل عدد من مختاري القرى والموظفين الصغار إلى إسرائيل حتى أمكن تبادلهم أخيراً مع جبلي .

وفي السنة ذاتها أعتقل في سورية الرقيب أوري إيلان وأربعة من رفاقه ، بينما كانوا يقومون بمهمة أسندت إليهم من قبل المخابرات الإسرائيلية . فأنكرت دمشق وجودهم لديها إنكاراً قاطعاً . فتحرك فريق جرى انتقاؤه من « يشيدا ١٠١ » في عمق الأراضي السورية ، واستولى على سيارة جيب فيها أربعة من الموظفين السريين وملازم وضابطهم الشركسي . وما كاد نبأ هذه العملية يتصل بدمشق حتى اتخذت الإستعدادات عن طريق لجنة الهدنة لتبادل الجنود الأربعة مع جثة إيلان الذي انتحر ليتجنب الإنهيار أثناء التعذيب .

وعلى الرغم من هذه السوابق الناجحة ، فقد قال أخصام هذه الخطة أن محاولة خطف العرب لم يسبق أن تناولت موضوعاً ذي علاقة بالتجسس ، فإذا استعملت القوة على هذا الصعيد فستكون سابقة خطرة . ونظراً لعدم الإستقرار الذي يسود الحكم في سورية ، والعين الناقدة التي ينظر بها العالم العربي إلى إسرائيل فإن العمل العسكري لا يمكن أن يلقى القبول . وعلى هذا الأساس قرر أشكول أن لا بديل من الاعتماد على الوسائل الدبلوماسية .

وقد رفعت سياسة العدوان البعثية تجاه إسرائيل ، وما رافقها من إعلان حكم الموت على إيلي ، رفعت من حالة التوتر على طول الحدود ، وخوفاً من ردود الفعل أصدر اللواء صلاح جديد أوامره إلى قائد الجبهة الجنوبية فهد الشاعر بأن يعلن حالة الاستنفار في الجبهة إلى أن تسوى قضية كوهين . وأُرسلت إلى الجبهة تعزيزات من الدبابات والمدفعية الثقيلة . وراح الشاعر يستجمع قواه في انتظار الأسوأ .

وكان الموقف على الجبهة منذ بداية العام قد تدهور بسرعة بعد أن أصبح خط الهدنة مسرحاً لاصطدامات كثيرة . وقد سجل مراقبو الهدنة مئات الشكاوى : أُطلقت النار على قوارب الشرطة الإسرائيلية ، الكيبوتزيم يقصف بدون انقطاع ، وحدات من ذوي القبعات الخضراء مشمار هاغفول تعرضت لكمين ، وطرق الدوريات تزرع بالألغام . وعندما

استخدمت المراكز السورية في المرتفعات مدافع لا ارتدادية ضد الدبابات ، وكذلك مدافع الهاون لضرب الإسرائيليين ، استخدم الجيش الإسرائيلي الدبابات والمدافع الرشاشة لإسكات المدفعية . وفي منتصف آذار وقـع أول اصطدام حول مشروع تحويل المياه ، وعندما انطلق السوريون في الأشغال المبدئية لتحويل نهري بانياس والحاصباني رد الجيش الإسرائيلي مهاجماً المواقع فوق دان وقرية داكا ، فدمرت البولدوزر وقتل السائقون على الجانبين ، وبعد وقت قصير توقف العمل إلى أن طلبت سورية الحماية من الرؤساء العرب الذين تقرر اجتماعهم للمداولة في القاهرة في الربيع التالي .

وعدا عن الاصطدامات المتوالية بين الجيشين ، انفجرت حـرب الفدائيين على طول الحدود ، فقامت جماعات من العاصفة التي كانت تتسلل إلى المنطقة منذ بداية العام ، بتصعيد العمليات حيث قصفوا بالقنابل منشئات المياه الإسرائيلية ، وأخرجوا القطارات عن خطوطها ، ولغموا الطرق ، ونصبوا الكمائن لوسائل النقل ، ولغموا المنازل ، وأحرقـوا المنتجات الزراعية في المستعمرات اليهودية . وعلى الرغم من أن أكثر هؤلاء الفدائيين كانوا يجتازون الحدود إلى إسرائيل من الأردن ، فالمعلومات التي أرسلها إيلي كانت تشير إلى أن سورية كانت مصدر التعبئة ، ومكان التدريب ، والممول الرئيسي ، والمعلم السياسي للمنظمة . وقد قام المكتب الثاني على تدريب هؤلاء ليبرر « حرب التحرير الشعبية » التي التزمت بها القيادة الجديدة في سورية . وقد قال السويداني فيما بعد : « إن الحرب التقليدية القائمة على أساس التفوق في نوعية السلاح لن تنتهي بنا إلى شيء . لذلك فنحن لا نملك الخيار في شن حرب التحرير . وكانت الجزائر مثلنا وكذلك فيتنام » .

وقد وحدت إدارة أمين الحافظ خطتها مع منظمة التحرير الفلسطينية ، والقيادة العامة لفتح ، وسلاحها العسكري العاصفة ، وراح النظام البعثي يعزو لنفسه الفضل في أعمال الفدائيين ، فينشر بلاغاتهم في الصحـف

الخاضعة للرقابة ، ويذيع عن أعمالهم البطولية . وقد رفضت سورية بروح من التحدي جميع الإنتقادات التي وجهت إليها لمساندتها الحركة ، ومضت في تقريع جيرانها الذين أخطأتهم الشجاعة . وقالت محطة دمشق وهي تباهي الحكومات العربية الأخرى : «إن كل قطرة من دماء تسفح على تربة فلسطين ، تجلب لنا الشرف والكرامة أكثر من كل تلك الأقوال التي تطلق جزافاً خارج تلك الحدود» .

وكانت حكومة أشكول تشعر بالقلق من أثر هذا الوضع المتفجر على قضية كوهين . وتناقشت غولدا مايير في موضوعه مع سفراء الولايات المتحدة ، وبريطانيا ، وفرنسا ، والإتحاد السوفياتي . ثم دعت بعد ذلك الجنرال أودبول وأحاطته علماً بالموقف الخطر الناشيء عن إطلاق النار ، وأنذرت بأن الهجمات إذا استمرت فإن على دمشق أن تتحمل النتائج .

وأبرق مندوبو إسرائيل وسورية بشكاواهم الروتينية إلى لجنة الهدنة المختلطة وإلى جهاز المراقبة الدولية ، ولم تكن التحقيقات التي تلت ذلك سوى مجرد مهزلة . ففي كل قضية كان مراقبو هيئة الأمم المتحدة يتدخلون أولاً لوقف إطلاق النار ، ثم تقوم كل محطة من محطات المراقبة على طول الحدود بالإبراق عن نتائج تحقيقها إلى مركزي المراقبة الرئيسيين في طبرية والقنيطرة . ثم يقوم فريق من ذوي القبعات الزرقاء بزيارة مواقع النزاع فيستجوبون المقاتلين ، ثم يستجوبون شهود العيان من المدنيين . ثم تنقل المعلومات إلى رئيس لجنة الهدنة الذي أعد تقريره ورفعه إلى رئيس هيئة المراقبة الدولية الجنرال أودبول . ثم أضاف القائد النروجي توصياته وأرسل الملف إلى الأمين العام يوثانت .

وتم استلام هذه التقارير في مقر هيئة الأمم المتحدة ، وراح رؤساء المكاتب يقرأونها ويدرسونها بدقة ثم يضيف إليها الخبراء تفسيراتهم الخاصة . ثم تجري ترجمة الوثائق إلى اللغات الرسمية الثلاثة ثم توزع على الوفود وتدرج في الملفات الضخمة . وطلب السفير السوري جورج طعمة اجتماعاً عاجلاً لمجلس الأمن لدرس «آخر أعمال العدوان المرتكبة من

جانب إسرائيل » . بينما قام ميكائيل كومي بتقديم شكوى مماثلة . وعندما قُدّم الحادث أخيراً إلى مجلس الأمن أنكر كل من الطرفين مسؤوليته عن المناوشات وطويت القضية .

وسواء كان ذلك مقصوداً أو على سبيل الصدفة ، فقد اشتدت حدة البيانات الحربية للموظفين السوريين في الأسابيع التي أعقبت إعلان الحكم على إيلي . وكذلك حملات التهديد من قبل أعضاء مجلس الوزراء . وفي استعراض جرى بمدينة حلب في الذكرى العشرين لانسحاب القوات الفرنسية من سورية خطب أمين الحافظ في الجماهير عن ضرورة محو إسرائيل من وجه الأرض . وصرخ قائلاً في لهجته الخطابية التي تستنزل الرعد والدماء : « إن تحرير فلسطين يقتضي أن نحشد جميع الطاقات العربية في أوسع إطاراتها » . أما نائبه الشديد الأطناب نور الدين الأتاسي ، الذي أثارته نصيحة بورقيبة بالدخول في مفاوضات مع إسرائيل ، وكذلك إقامة علاقات دبلوماسية بين تونس وألمانيا الغربية ، فقد حث إخوته العرب على فرض عقوبات اقتصادية على بون ، وعلى الإعتراف بألمانيا الشرقية ، وطرد تونس من الجامعة العربية .

وأما وزير الدفاع ممدوح جابر الذي أثار حنقه ضرب إسرائيل لمشروع المياه العربي ، فقد طالب القيادة العربية الموحدة بشن هجوم على مدفعية الجيش الإسرائيلي . غير أن الفريق علي علي عامر رفض أن يدرس الطلب السوري . وقد قوبلت طلبات بعثية أُخرى بالبرود ذاته من قبل رؤساء الحكومات العربية الذين أنذروا أمين الحافظ بضرورة الإمتناع عن إثارة اليهود . وحث عبد الناصر على الإعتدال مؤقتاً « وإلى أن نستطيع تحقيق هدفنا الأخير تحرير فلسطين » . غير أن قادة البعث استمروا في الدعوة إلى عمل مشترك ضد إسرائيل . وفي جمع حاشد في دمشق سخر أمين الحافظ من نظرائه المصريين وقال هازئاً : « الذي أعلن نفسه رائداً للقومية العربية ... ماذا ينتظر ؟ لقد ذهبت إلى أول مؤتمر عربي للقمة قبل ١٨ شهراً ، وكنت أحمل انطباعاً بأن المؤتمر سيضع مخططات لتحرير

فلسطين . ولكن بدلاً من ذلك واجهونا بخطة لتحويل مياه الأردن . والآن يقال لنا أن هذا أيضاً مستحيل . هل هذه هي ملامح القائد الناجح ؟ »

ووقفت إسرائيل هادئة من دعوة أمين الحافظ إلى الحرب . وفي آخر جلسة عقدها الكنيست قبل الإنتخابات ، قدم رئيس الوزراء ليفي أشكول مسودة مشروعه لتسوية أزمة الشرق الأوسط . واقترح في هذا المشروع مفاوضات مباشرة مع العرب ، وقال إن السلام يجب أن يتفق عليه مع إسرائيل بأوضاعها الحاضرة . وأضاف أشكول : « كل عربي يعرب عن مخاوفه من عدوان يشن من جانبنا هو ضحية الدعاية ، هذا إذا لم يكن واحداً من أولئك الذين قال التلمود أنهم يعرفون الحقيقة ولكنهم يثورون عليها » .

وقد أقلقت حوادث القتال على طول الحدود ، وكذلك مطالبة البعث بعمل عربي موحد ضد إسرائيل ، المحامين الفرنسيين . فقد كانوا يخشون أن لا يساعد جو القتال على وساطة بشأن إيلي . وعندما عاد الأستاذ ميرسيه إلى باريس بعد أسبوع من المداخلات العقيمة ، أبرق إلى الأتاسي في صباح ١٧ أيار مذكراً إياه بتعهده في أن يعد اللقاء بينه وبين أمين الحافظ . وكاحتياط أبعد بعث المحامي ببرقية إلى الرئيس يطلب فيها أن يستقبل في « مهمة استرحام » . والبرقيتان كانتا تطالبان بجواب سريع . وكان الأستاذان لا يزالان في انتظار الجواب عندما رن جرس الهاتف في منزل أريغي ، وكان النقيب مندهشاً عندما استمع إلى صوت حدس وهو يقول له : « لقد خدعك السوريون فقد صدر إعلان يقول أن حكم الإعدام سيجري تنفيذه عند الفجر ، وتلي الخبر في نشرة الأنباء الأخيرة من محطة دمشق ، ثم نشرته محطة باريس . واقترح حدس على المحامي أن يتصل بالفاتيكان . وعلى الرغم من الساعة المتأخرة فقد استطاع أريغي أن يؤمن اتصالاً بمكتب الكاردينال سيكونيني ، وطلب إليه أن يتوجه

إلى الفاتيكان بنداء أخير . وفي الوقت نفسه كان ميرسيه يحاول الاتصال بقصر الرئاسة في دمشق وعندما تحقق الاتصال عند الساعة الثامنة .. كان الوقت قد فات .

المشهد في ساحة المرجة

طلع الفجر يوم الاثنين على مدينة دمشق وهو مثقل بجو محفوف بالخطر . فإدارة أمين الحافظ التي تعرف الغضب الذي أثاره حكم الموت الصادر ضد إيلي ، وتعرف الضغط الذي تعرض له أشكول وأعضاء وزارته في سبيل اتخاذ موقف العنف ، كانت تخشى أن يقوم الجيش الاسرائيلي بعمل ما على الحدود في يوم تنفيذ الحكم ، أو بعد ذلك بقليل . ولمواجهة هذا الاحتمال أصدر قائد الجيش أوامره بوضع كافة الوحدات المرتبطة بالقيادة الجنوبية في حالة استنفار كاملة . ولكي يقطع الطريق على عملية إنقاذ محتملة صدرت الأوامر إلى قسم من حامية دمشق بالانتشار . فتحركت المشاة والمدفعية والقوات المدرعة إلى المراكز الاستراتيجية في العاصمة . ولكن على الرغم من التدابير المطمئنة فقد اجتاحت دمشق موجة من الشائعات : قام المخربون الاسرائيليون بلغم المكان الذي ستجرى فيه عملية الشنق ، أفواج من المخابرات الاسرائيلية يساعدها المظليون تسللت إلى المدينة وستشن هجوماً على السجن ، وحدة من قوات الكوماندوس محمولة بالطائرات ستنزل في المدينة لتحرر السجين وتنقله بإحدى طائرات الهليكوبتر . قادة البعث وضباط الجيش ليسوا في حالة ذعر ، ولكنهم ظلوا في مكاتبهم ينتظرون النهاية بفارغ الصبر .

وكان يوم الثلاثاء ١٨ أيار عندما وقفت سيارة شرطة سوداء ليموزين أمام الباب الحديدي لسجن المزة . وهبت نسمة دافئة على المنطقة مخلفة في الجو شعوراً بالهدوء والجمود . وبدأ سديم الصباح بالانقشاع بعد أن أثقل بذراته العشب المحيط بالمبنى . واقترب اثنان من رجال الشرطة العسكرية بحذر نحو السيارة من الجانبين ، ثم قاما بالفحص الروتيني القصير . وكانوا على وشك إعادة أوراق الهوية عندما قال رجل في المقدمة يرتدي الثياب

العادية : « لقد جئنا بالحاخام » وألقى الحارسان نظرة على داخل السيارة ليروا الحاخام اليهودي ثم سمحوا للسائق بالتحرك إلى داخل الساحة .

وساعد أحد رجال الشرطة السرية الحاخام على الخروج من سيارة الليموزين ، وقاده إلى السلم حيث اجتاز ردهات طويلة إلى الطابق الثاني ، وفتح باب زجاجي ، واقتيد الحاخام نسيم أندبو بدون مراسم إلى مكتب المراقب . وقد وصف المشهد بعد ذلك صحفي سوري فقال : « انحنى الملازم الأول نعيم ببرود وأخبر الحاخام أن حكم الاعدام الذي صدر ضد الجاسوس إيلي كوهين سينفذ خلال ساعة ، وعلى الرغم من أن اليهودي الهرم يعرف ذلك إلاّ أن لونه امتقع عندما استمع إلى هذه الكلمات وبدأ بالصلاة .

وقد أحيط الحاخام أندبو بالإعدام منذ مساء اليوم السابق ، وقبل الساعة العاشرة مساء بقليل اتصل المدير العام لوزارة الداخلية بضابط الشرطة المسؤول عن حارة اليهود وأمره بأن يحضر « المسؤول غير الرسمي » عن الجالية اليهودية في دمشق ، وهو تاجر يعيش في « الحارة » ، إلى وزارة الداخلية على الفور . وقام الضابط بإحضار الحاخام ثم قام بنقله شخصياً إلى الوزارة .

واستقبل القائم بأعمال وزارة الداخلية عبد الكريم الجندي « الممثل غير الرسمي » في مكتبه ، ويذكر الحاخام اليهودي ، الذي هرب فيما بعد إلى بيروت ، أن الجندي أخبره بدون مقدمات وبالسرية الكاملة أن إيلي كوهين سيشنق عند الساعة الرابعة من صباح اليوم التالي . وأنذره الوزير الوكيل بأن لا يذكر شيئاً عن عملية الشنق المنتظرة أمام أحد « حتى ولا زوجتك » . وكان قد طلب إلى الجندي أن يقول الحاخام أندبو أنهم سيمرون عليه في صباح اليوم التالي ليرافق رجلاً محكوماً بالإعدام إلى المشنقة كي يقدم إليه النصائح الدينية المعتادة . كما أن عليه أن يعد الترتيبات اللازمة لاستلام الجثة . وأضاف الجندي : « تذكر أن أي مظاهرة أو إظهار عاطفة نحو كوهين بين جماعتك ستعامل بقسوة » .

ولم تكن هناك أية حاجة لما ذكّر به نائب الوزير ، لا سيما وأنه يعرف جيداً أن ليس في دمشق من اليهود من يجرؤ على الاحتجاج أو على إظهار مشاعره الحقيقية في أي موضوع ، فضلاً عن أن يكون ذلك ذا علاقة بعميل اسرائيلي . وكانت الجالية اليهودية قد أظهرت قبل عام فقط رد فعل ضد الحكومة على أثر حادث توج مرحلة قاسية من الاضطهاد والقمع . فالثلاثمائة عائلة يهودية التي بقيت في الحي اليهودي كانت تشكو من مضايقات الشرطة ومن مصاعب اقتصادية عندما هاجم أحد قطاع الطرق في ١٧ شباط ٩٦٤ الأخوين الصغيرين جوزيف واسحق حاصباني ، بينما كانا عائدين من المدرسة ، فطعن جوزيف في قلبه وسقط ميتاً في الشارع ، أما اسحق الذي سارع لنجدته فقد أصيب بجراح شديدة . وقد ألقى هذا الحادث الجالية كلها في أحضان الحداد . غير أن الخبر الذي اتصل بالجالية عن أن الجاني قد أخلي سبيله دون أن تلصق به أية تهمة أثار موجة من السخط . وقد حمل شعور اليأس والخيبة ، الذي أصاب الجالية ، حمل القيادة على التصرف بسرعة . ومع ذلك فقد جرى تنظيم احتجاج سلمي فتحول تشييع الجثمان إلى أعظم تجمع يهودي شهدته دمشق منذ زمن بعيد . فسار عدة مئات من اليهود في هدوء غاضب وهم يرافقون النعش إلى مقبرة محلية ، وذلك على الرغم من الحظر الذي فرضته الشرطة على مثل هذه المظاهرات . غير أن حركة التحدي هذه ما لبثت أن تحولت إلى كارثة إذ ازداد ضغط الشرطة ، كما ازدادت التوقيفات الكيفية وعرضت إدارة الحافظ مشاهد من المحاكمات ضد الصهيونية التي وجهت إلى الموقوفين تهمة « محاولة الخروج غير المشروع » و « الميول الصهيونية » و « التجسس لحساب اسرائيل » .

ومنذ جرى توقيف إيلي كوهين انتقلت الشروط التي تعيش فيها الجالية اليهودية إلى الأسوأ ، فقد فرض على جميع اليهود أن يبقوا داخل « الحارة » التي فرضت عليها حراسة قوية . كما صدر قرار حكومي يمنع على اليهود أن يبتعدوا عن إطار قطره ميلين ونصف ميل ، ولا يسمح ليهودي بأن ينتقل من أحد أقسام المدينة إلى قسم آخر بدون إذن خاص

من الشرطة « إذن تجول » . وهكذا ساءت الأوضاع الاقتصادية تدريجياً حتى أن عدداً من العائلات كانوا يعيشون في حالة قريبة من الفقر الكامل . وكانت الجالية تخشى نتائج قضية كوهين ، وتتوقع مهما كانت هذه النتائج أن يزداد الضغط والاضطهاد .

وكان الحاخام أندبو في مكتب المراقب قبل نصف ساعة تقريباً من وصول طبيب السجن يرافقه العقيد الضللي . وخلال دقائق كان الجميع في طريقهم إلى « صف الموت » حيث كان إيلي في الانتظار وكان المراقب قد شاهده بعد الظهر في زنزانته عندما كان يقوم بعملية تفتيش روتينية . وأصدر الملازم الأول نعيم مجموعة من التعليمات مشفوعة بالشتائم ثم وجه أوامره إلى الحراس . وقبل أن يغادر طلب إلى السجين أن يتحمم ويحلق ذقنه مضيفاً أنه سينقل في وقت لاحق من هذه الليلة . من المحتمل أن إيلي قد دهش لهذا القرار . فالانتقال من سجن لآخر كان يجري عادة في ساعات الصباح الباكرة . وبالإضافة إلى ذلك فليس من المحتمل أن ينقل السوريون سجيناً سياسياً خطراً إلى سجن توقيف بعيد في تدمر من أجل إعدامه . وأحكام الإعدام العلنية تنفذ عادة في ساحة المرجة بينما ينفذ الإعدام رمياً بالرصاص في سجن المزة . كما أن التعليمات تمنع تنفيذ أحكام الإعدام في أيام الثلاثاء (يوم زيارة المساجين) وأيام الجمعة (يوم الراحة عند المسلمين) . ومع ذلك فقد كان إيلي يعرف بالتجربة أن القواعد والأعراف لا صلة لها بالسوريين الذين لا يمكن التنبؤ بخطواتهم . وتلاشت شكوكه كلها عندما قال له الحارس المناوب المسؤول عن الزنزانات في الطابق السفلي في وقت الغداء أنه سيسمح له بلقاء الحاخام في وقت لاحق من ذلك المساء . وفي الساعة الحادية عشرة أحضر له الحارس ذاته ثوباً رمادياً (الثوب الذي لبسه يوم توقيفه) وأمره بأن يخلع ملابس السجن الحمراء .

وعندما وصل الموظفون كان إيلي هادئاً . وفتح الباب الخشبي الثقيل ودخل العقيد الضللي إلى زنزانته الموحشة يتبعه الملازم الأول نعيم والرقيب

عزة . وبقي الحاخام أندبو متخلفاً في الردهة وكتبت مجلة الجندي ، وهي الناطقة بلسان الجيش السوري ، عن هذه المقابلة تقول : « كان السجين واقفاً في منتصف الزنزانة ، ولم يكن لديه شك في وقع الأقدام التي استمع إليها وهي تقترب ، كان رجلاً قاتماً مربوع القامة ، ذا وجه قوي ، وعينين بنيتين واجفتين ، ارتسم على فمه خط من الصلابة والعناد » .. وبدأ العقيد الضللي في تلاوة الحكم من ورقة في يده . وكان يتكلم بهدوء ولكن بسرعة . وكان السجين يصغي وقدماه منفرجتان قليلاً ، وعلى وجهه ابتسامة خفيفة . وكان بين الحين والآخر يحني رأسه ويبدل من وقفته.

وانتحى الضللي جانباً بعد أن انتهى من قراءته ، وسمح للحاخام أندبو أن يقضي بضعة دقائق مع المحكوم عليه بالإعدام . ولكن لم يغادر أحد الزنزانة ، وجرت الصلوات أمام أعين الفضوليين ، وحاول الحاخام أن يقول بعض الكلمات ولكن تغلبت عليه عواطفه وقد تجاوز الثمانين من العمر ، فقال باللغة العربية : « إنها إرادة الله يا بني فيجب أن تقابلها بالرضى » . وهز إيلي رأسه بصمت . ثم طلب إليه الحاخام أن يردد (الفيدوى) وهو اعتراف يتلوه اليهودي قبل إعدامه . (وفقاً للمعتقدات اليهودية يكون قد صلى مع إيلي لا من أجله) . وأنشد الحاخام أندبو بصوت منخفض بالعبرية ، وكان إيلي يعيد كل جملة يقولها : « يا إلهي القادر على كل شيء اغفر لي ذنوبي وخطاياي ، من يوم ولدت وحتى هذه الساعة ، واكتبني في الجنة من القديسين الذين ضحوا بأنفسهم لإعلاء اسمك وشعبك إسرائيل . فلتبق روحي هادئة في القبر حتى تقوم لملاقاة مصيرها في يوم البعث الذي يأتي في نهاية العالم » .

وخطا المراقب إلى الأمام إشارة إلى أن الوقت قد فات على إجراء الصلاة الثانية . فقد كان السوريون متشوقين إلى إخراج إيلي من المزة . وقالت مجلة الجندي : « بعد أن ألقى النظرة الأخيرة على زنزانته زرر معطفه وقال : أنا حاضر . وتقدم رقيب وبيديه الأغلال فوضع إيلي يديه وراء ظهره مذعناً ... وأحاط به الجنود الخمسة الذين كانوا ينتظرون في

الردهة . ومشى معه الحاخام ، وتبعهم الضباط ... وتقدم الجميع حارسان باللباس الأزرق ونزل الجميع من الردهة ببطء» .

وشق الموكب طريقه إلى السلم ثم إلى ساحة حيث فتح أحد الحراس الباب الحديدي . وعندما دخل الموكب إلى الساحة وقع ضابط من المكتب الثاني على تصريح إخلاء سبيل ، وكان الضباب قد انقشع بسرعة دراماتيكية . وعند دواليب الشاحنة العسكرية التي كان محركها يدور دون أن ينقل طاقة الحركة ، جلس عريف بين رجليه مدفع رشاش . وقفز جنديان إلى خلف السيارة وجلسا على مقعد خشبي ، وكان سلاحهما موجهاً إلى السجين . وصعد إيلي حيث تبعه حارسان آخران . أما الرقيب المناوب فقد أخذ مكانه إلى جانب السائق .

وتسلل أربعة جنود متوجين بالقبعات الحمراء إلى سيارة موسكوفيتش سوداء لامعة ، ورشاشاتهم من نوع ساموفال جاهزة للاطلاق . والتحق حرس من الشرطة العسكرية بالسيارة الليموزين بينما كانت تنطلق بسرعة . وكانت صفارة الانذار تدوي وكذلك الأنوار الملونة تلتمع على طول الأميال الثمانية التي تمتد بين السجن ودمشق . وقد قامت الوحدات الخاصة التي استنفرت من الجيش ، وكذلك نقاط المراقبة من الشرطة بتفتيش الجنود الذين وزعوا بطريقة استراتيجية على طول الطريق . وكان المشاة النظاميون يقومون كل اثنين على حدة ، بأعمال الدورية على طول الطريق . وكان كل فريق على مشهد من الفريق الذي يليه ، كما كان هناك حراس يقومون بمهمة المراقبة فوق وتحت كل جسر ، وعزز عدد الحراس في المواقع غير الحصينة . وبعد أن انتهت من مهمتها عادت كلها إلى المزة .

وعلى الرغم من أن العسكريين السوريين كانوا يتوقعون المشاكل لم يحدث شيء يؤخر سير القافلة ، واتخذت تدابير أمن دقيقة في وسط العاصمة التي كانت خالية وصامتة . وعند الساعة الثالثة صباحاً دخلت قافلة السيارات ساحة سعد الله الجابري ووقفت في زاوية من شارع الجمهورية أمام المبنى ذي الثلاث طبقات ، والذي شيد على شكل ليكون

مقراً للشرطة المركزية . ووقفت الشاحنة التي تقل إيلي إلى جانب مدخل في الممر الخلفي . ودفع أحد الجنود بالسجين إلى الأرض ، وأمسك به الحراس حين وقف منتصباً . وبدا وهو يمشي على ضوء الأنوار الأمامية للسيارات شاحب اللون ولكنه متماسكاً كما يبدو للآخرين على الأقل .

واعتبرت الشرطة المبنى منطقة عسكرية . وكل رجل في المنطقة كان في حالة الوظيفة : الشرطة السريون ، ورجال الدوريات المسلحون ، كانوا متمركزين عند كل مخرج في الأروقة والردهات والممرات . واقتيد إيلي بسرعة على السلم إلى الطابق الثاني ، ثم أدخل إلى أحد المكاتب ، كانت الغرفة من حجم مناسب غير أنها كانت ملأى برجال الشرطة وضباط الجيش حتى بدت وكأنها أصغر مما هي بكثير . وأشار ضابط برتبة نقيب إلى كرسي أمام طاولة خشبية . وأرغم أحدهم إيلي على الجلوس ووضع أمامه ورقة وقلم رصاص . ثم قال له ضابط آخر أن في إمكانه أن يكتب الرسالة الأخيرة وأن يكون متأكداً بأن هذه الرسالة ستصل إلى الجهة المقصودة .

وزادت الوجوه التي كانت تحدق في إيلي في اضطرابه وارتباكه . ولكنه بينما كان يستعد للكتابة هزّته عيون سبق أن تعرف عليها . وكان أمامه مباشرة العقيد أحمد سويداني وقد استند إلى طاولة وبدا كأنه سعيد بما عهد إليه من الإشراف على إجراءات تنفيذ الحكم . فقد كان في الأسابيع القليلة الماضية في الاتحاد السوفياتي بناء على دعوة وجهت إليه من قبل المخابرات العسكرية السوفياتية حيث تمتع بأحسن ما تستطيع أن تهبه موسكو . غير أن هاتفاً تلقاه يوم الأحد من أمين الحافظ اضطره لقطع رحلته . فقد قرر الرئيس أن عملية الاعدام يجب أن تجري بدون تأخير ، وقبل أن يمارس المتطرفون في حزب البعث ضغوطاً جديدة . فقد كان بعض المتآمرين يحاول أن يجعل من قضية كوهين سبباً لانقلاب جديد ، ولذلك قال حافظ للسويداني إن عليه أن يعود فوراً ليحول دون وقوع أية حركة جديدة .

وحاول إيلي التركيز في رسالته إلى زوجته . فناشد ناديا أن تعتني بالأولاد ، وأن تحافظ على اتصالها بعائلته وأضاف : « عليك أن تتزوجي حتى لا يبقى الأولاد بدون أب ... إنني لا أريدك أن تضيعي أوقاتك بالبكاء والحداد على أمور مضت بل انظري دائماً إلى المستقبل » . وختم رسالته بالقبلات والسلامات إلى الجميع ثم وقع باسمه . ثم عاد فحرر الرسالة باللغة العربية بأمل أن تتسلم ناديا إحدى الرسالتين بيدها .

وبعد أن تلا العقيد الرسالة أدخل الحاخام أندبو محروساً حيث سمح له بالصلاة الثانية . وكانت عينا الحاخام مليئة بالدموع عندما بدأ يتلو التعويذة : « اسمعي يا إسرائيل ... » وتلعثم الحاخام . وخيل إلى مندوبي الصحف في الغرفة أنه نسي الكلمات ، فأخذ إيلي بيد الرجل الهرم وراح يتابع تلاوة التعويذة . ثم راحا يتلوان معاً : « إلى يديك أسلم روحي ، فقد أعدتني إليك يا الله ، يا حق » .

ثم طلب إلى إيلي الوقوف ، وقادته مفرزة للنزول إلى الشارع . وهناك اصطف أعضاء المحكمة العسكرية الستة . وخطا إيلي مئات الأقدام الأخيرة نحو المشنقة بخطوات ثابتة ورأس مرفوع .

وبدت ساحة الشهداء ، أو ساحة المرجة ، التي تصل بين سوق ساروجة الأسطوري بمآذنه وقببه العربية التي تنطق بعظمة خلت ، وبين وسط المدينة الحديث الذي يعج بالصخب والضجيج ، بدت وكأنها مدينة محتلة . وقد جمد الجيش منطقة تبلغ أبعادها الميلين ، والساحة العامة تغص بالجنود المسلحين الذين وجههم العقيد سويداني من سيارة لاندروفر مفتوحة إلى ساحة النصر القريبة ، ولم تغفل الحامية موقعاً يمكن أن يصدر عنه أي حادث . وكان العملاء السريون في ألبسة عربية وأوروبية يختلطون بالجماهير أمام فندق أمية القديم ، بينما كان الشرطة بلباسهم الرسمي متمركزين على أسطحة المنازل وفي الشرفات ، وفي الساحات الخلفية والممرات الضيقة . وفي ممر الاسفلت الذي يشق حقل الزهور المربع الشكل بالقرب من النصب التذكاري الذي يخلد ذكرى إنجاز الخط التلغرافي بمكة ، قام الجيش ببناء

منصة خشبية وسياج بشري من الجنود الذين يعتمرون خوذاً فولاذية ، وهم الفئة المختارة في لواء الفدائيين ، جاءت لتلف المكان بشريط مضاعف.

واستيقظت دمشق باكراً على الحادث ، ذلك أن إذاعة النبأ في نشرة منتصف الليل الإخبارية التي أعلنت زمان عملية الشنق ومكانها ، دفعت إلى هذا المكان بما لا يقل عن عشرة آلاف عربي تجمهروا في الساحة . وكانت الهمسات التي تدل على فقدان الصبر تتقاطع مع صيحات التهديد الصادرة عن الجماهير التي كانت تتسابق للحصول على مكان في الحلقة الأمامية . وبينما كان الجنود الذين يحيطون بالجماهير يحاولون السيطرة عليها ساد الساحة صمت فجائي ، إذ تقدم الموكب على طول نهر بردى في اتجاه المشنقة بينما سلطت عليه موجات من الأنوار الغامرة . ثم اخترق الصمت صيحات متجددة من الشتائم عندما تبينت الغوغاء وجه العميل الاسرائيلي إيلي كوهين .

وصل إيلي مع الموكب العسكري إلى حافة المنصة ، حيث صدرت إليهم الأوامر بالوقوف بالقرب من جماعة تضم خمسين من الصحفيين المحليين والأجانب ، والمراسلين من بلدان أوروبا الشرقية والبلدان العربية المجاورة . (وجهت الدعوة إلى الصحف لحضور تنفيذ الإعدام من قبل وزير الإعلام مشهور زيتون الذي قال لهم : « وهكذا تستطيعون أن تنقلوا لقرائكم كيف أخذ العدل مجراه ») . واقترب العقيد الضللي من السجين ووجه إليه بكبرياء السؤال التقليدي : هل لديك ما تقول ؟ ولم يكن السؤال هنا سوى مجرد شكليات . إذ كانت إذاعة دمشق ، وكذلك التلفزيون تسجلان كل لحظة ابتداء من برنامج الساعة التاسعة قبل الظهر . وبدأ إيلي في الحديث بصوت ثابت إلى درجة مذهلة : « أنا آسف لما فعلت . وأؤكد كل اعترافاتي السابقة » ، ثم توقف لحظة قبل أن يتابع بهدوء أكثر : « خلال نشاطي كعميل في المخابرات الاسرائيلية لم يكن لي شركاء سوى العرب الخمسة الذين حوكموا وحكموا معي » . ثم نظر إيلي في وجه العقيد الضللي إشارة إلى أنه انتهى . وهنا كان لدى رئيس المحكمة سؤال أخير :

«هل لإيلي ودائع داخل سورية أو خارجها يريد نقلها أو تحويلها ؟ » فأجاب إيلي بسرعة : لا ليس عندي شيء .

وأخذ المكلف بتنفيذ حكم الإعدام إيلي من يده وقاده إلى الدرجات حيث المنصة الخشبية ، وبدا العقيد الضللي وكأن همته قد فترت بينما كان يراقب الرجلين وقد وصلا إلى حبل المشنقة . ومنظر الإسرائيلي البغيض وهو يرتعد أمام الجلاد هو مشهد يحلو للجماهير ومشاهدي التلفزيون أن يتذكروه ، وقد يساعد على محو الاحترام الذي أضمره كثيرون لأعماله ومغامراته غير أن الخصم كان مصمماً على أن يموت بكرامة لنفس السبب الذي دفع بالضللي لأن ينشد العكس . لقد مضى على إيلي أربع سنوات تقريباً وهو يخرب الخطط السورية ، وكان يبدو أنه مصمم على متابعة رسالته هذه حتى نهايتها .

ووقف الجلاد خالد أبو سليم ، الذي كان يحمل لقب « المعلم » ، إلى جانب المحكوم في وسط المنصة . وبإشارة من الضللي التفت المعلم إلى السجين فرفض إيلي القلنسوة السوداء . وانطلق المعلم في تنفيذ واجباته بخبرة وبسرعة . ومنذ ربط عقدة الحبل وحتى مات إيلي ، لم تسجل الساعة التي كانت تتحرك ببطء سوى ٩٠ ثانية . وفي الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والخمسين أعلن عن موت أول مواطن إسرائيلي نفذ فيه حكم الإعدام في سورية . وقد علق على الرداء الأبيض الذي غطى الجثة ، التي كانت تتأرجح من الحبل ، إعلان يحمل صورة الحكم التي كتبت بأحرف كبيرة يتمكن الجميع من قراءتها .

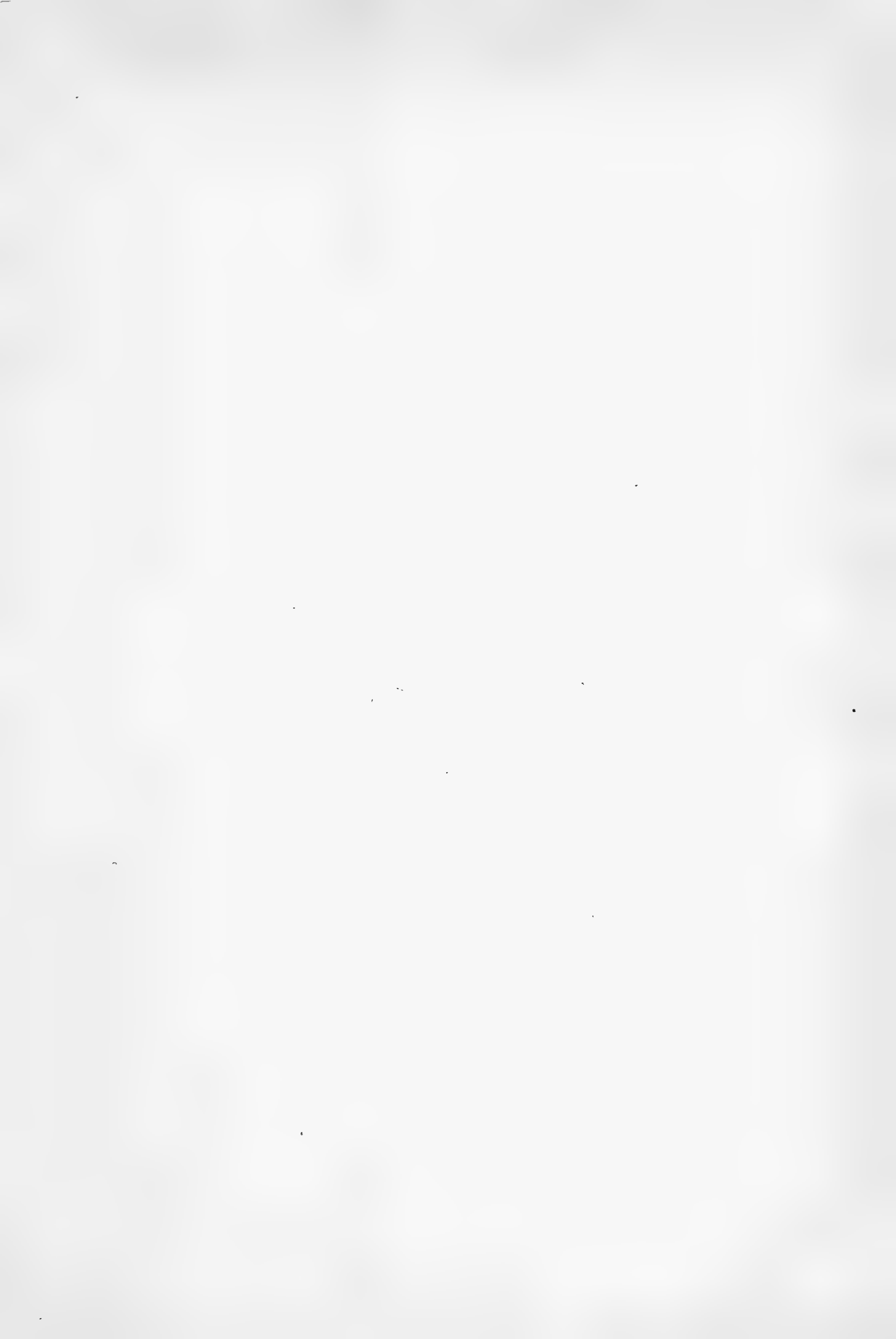
وانتهت الليلة بمثل ما بدأت حمراء رمادية ، فقد كان نورها الخافت يتحدى ظلمة المناسبة ، وما كادت قشعريرة الفجر تهدأ في مطلع النهار ، حتى راحت مواكب جديدة من المتفرجين تمر أمام منصة المشنقة ، بينما كان الجنود يراقبون مواطنيهم بحذر شديد . وقامت جماعة من الدروز التي وصلت متأخرة لتشهد عملية الشنق برقصة سيوف مروعة . وفي الساعة العاشرة صباحاً ، أي بعد ست ساعات من تنفيذ حكم الإعدام أنزلت

الجثة ونقلت لإجراء الفحوص عليها . وتفرق الناس دون أن يرووا غليلهم من المشهد وهم يتمتمون بعبارات القدح والشتيمة .

وفي فترة الصباح كانت إذاعة دمشق تتابع وصفها لعملية الشنق كما كان التلفزيون السوري يعرض أفلاماً عن الإجراءات مع المارشات العسكرية . وفي وقت لاحق من ذلك اليوم قام ضابط من المكتب الثاني وقوى الأمن الداخلي بمراقبة إجراءات الدفن في المقبرة اليهودية التي تقع إلى الجنوب الشرقي من حارة اليهود ، حيث كان الحاخام أندبو وعدد قليل جداً من اليهود يقيمون صلوات الحزن .

الكتاب الخامس

الخاتمة



سوريـــة

بعد تنفيذ حكم الإعدام بإيلي كوهين قدم المكتب الثاني إلى اللواء أمين الحافظ تقريراً عن الأضرار السياسية والعسكرية التي سببها إيلي كوهين . ولما كان التقرير الذي اشتمل على أسماء بارزة من قادة البعث وضباط الجيش يهدد الحكم بأن يجثو على ركبتيه ، لذلك تعرضت الإدارة لموجة جديدة من العزل والتحويل في الأجهزة المدنية والعسكرية . وكان من النتائج المباشرة لقضية كوهين اشتداد صراع القوة داخل حزب البعث . فقد كانت حدة الصراع بين المعتدلين والمتطرفين تزداد باستمرار . وقد فجر الجناح اليساري هذه القضية لمهاجمة اليمين وزيادة الطلبات بالمزيد من الإصلاحات . واحتياطاً ضد أية محاولة انقلابية طرد الرئيس أمين الحافظ يوسف زعين الناطق بلسان الجناح اليساري في الحزب من رئاسة الوزارة ، وذلك في أيلول ١٩٦٥ واستبدله بصلاح البيطار الأكثر اعتدالاً ، **وبعد شهرين أُرغم رئيس الأركان صلاح جديد ، الرئيس الإسمي للجناح اليساري في القوات المسلحة ، على الاستقالة ، ونقل أتباعه إلى مراكز أقل حساسية . أما العقيد سويداني رئيس المكتب الثاني فقد استبدل بالمقدم عزيز معروف .**

وقد حاول البيطار بمساندة الحافظ والجناح اليميني في الحزب أن يحقق السلطة المدنية على الجيش ، غير أن الخصومات بين الزعامات المدنية والعسكرية انتقلت بالموضوع إلى صعيد الصراع العقائدي ، فالجناح اليساري الذي يساند جديد راح يزايد على جميع الأجنحة الأخرى في تبنيه للمبادىء الاشتراكية ، وفي منتصف شهر كانون الأول حاول اليساريون المتطرفون أن يقوموا بحركة عصيان داخل الحزب غير أنهم هزموا في التصويت وأخرجوا .

وفي صقيع فجر بارد ٢٣ شباط ١٩٦٦ قامت وحدات من المشاة **موالية لجديد والسويداني** ، تساندهما وحدة من الدبابات التابعة لفرقة المدرعات اللواء سبعين ، بمحاصرة المباني الاستراتيجية في العاصمة ، **بينما أحاط رجال الكوماندوس من جماعة سليم حاطوم بمقر الرئاسة في ساحة أبو رمانة** ، وراحوا ينتظرون صدور الأوامر بالهجوم . وعند بداية الهجوم التجأت أم أمين الحافظ وزوجته وأولاده الثلاثة إلى علم أبيض في منزل دبلوماسي أجنبي كان يعيش إلى جانب ذلك المكان ...

وأصيب الفريق بجراح طفيفة عند هجوم رجال الكوماندوس على منزله ، غير أنه استمر في قتال **جماعة حاطوم** أربع ساعات متوالية . ولم يتخل أمين الحافظ عن المقاومة إلا بعد أن قتل مئة من رجال الحرس الجمهوري ذوي القبعة الحمراء ، واستطاع أن يتسلل من باب خلفي للذهاب إلى قصر الضيافة ، حيث ارتدى ملابس مدنية وهرب من الحي .

وبعد أن قام عزيز معروف بتمشيط البلاد كلها بحثاً عن أمين الحافظ عثر عليه أخيراً مختبئاً في العاصمة ، فأوقف الرئيس السابق ، **بعد أن أسندت إليه تهمة الخيانة العظمى مع عدد من معاونيه في نفس الغرفة ، وعلى نفس المنصة التي استخدمت في محاكمة إيلي كوهين قبل عام . وإلى يمينه كان العقيد صلاح الضللي الحاكم الذي أرسل إيلي إلى المشنقة .** وقد كان هذه المرة أقل جرأة على الكلام مما كان يوم حاكم إيلي من فوق منصة الحكم . وكانت إجراءات المحاكمة مختصرة **فحكم على حافظ والضللي بالسجن مدى الحياة وأعيدا إلى سجن المزة .**

وفي حزيران ١٩٦٧ عندما أثبت الجيش السوري أنه غير قادر على وقف زحف الجيش الاسرائيلي الذي اجتاح مرتفعات الجولان ، وقاتل على بعد ٥٠ كيلو متراً من دمشق ، وأعلنت الإدارة البعثية الجديدة العفو عن الجميع فيما عدا قبضة من الأخصام السياسيين ، وناشدت المنفيين العودة إلى وطنهم والالتحاق بحركة الجهاد . واستفاد حافظ من القرار غير أنه لعدم ثقته بيساريي البعث اجتاز الحدود إلى لبنان خلال ساعات

قليلة . فمنح هناك حق اللجوء السياسي واستقر في بيروت غير أنه تابع نشاطه التآمري على الرغم من القوانين المفروضة على اللاجئين . وبعد عام آخر أي في تموز ٩٦٨ نبذ الاشتراكيون من أعضاء القيادة القوميةوالقوميين العرب خلافاتهم ، ووفقاً للتقاليد الشرق أوسطية اتحدوا مع أعدائهم القدامى ليكونوا جبهة ضد الجبهة التقدمية المتحصنة داخل الوطن . والتحق مئات من الضباط في أوروبا ومن المنطقة بهذه الجبهة التي اتخذت لبنان قاعدة لها . وبينما كان هؤلاء يضعون مخططات المستقبل انفجر الوضع في العراق وتسلم السلطة الفريق أحمد حسن البكر والزمرة المعتدلة من حزب البعث . فتحرك حافظ ومعاونيه إلى بغداد لا سيما وأن نشاطهم في بيروت أثار سخط الحكومة السورية وضايق السلطات اللبنانية . وفي بغداد قاموا على تأليف حكومة في المهجر تحت رعاية النظام العراقي الحديد ، منتظرين اللحظة السياسية المناسبة لإعلان الحرب داخل الحزب بعد أن قام المنفيون بتنظيم وتدريب وحدات من جماعتهم على حرب العصابات استعداداً لغزو سورية .

أما الفريق صلاح جديد التي أدت سياسته المتطرفة إلى التعجيل في إعدام إيلي كوهين فقد برز وكأنه الرجل القوي وراء المؤامرة . وهو ماركسي لينيني متحمس ذو ميول صينية (يفتخر بأنه حفظ غيباً كل أقوال الرئيس ماو تسيتونغ)، وكان يساند جديد الجناح اليساري المتطرف من حزب البعث الذي يعتقد أنه الرجل القادر على تطهير ثورة آذار ٩٦٣ ، وتطهير الحزب من العناصر التي انحرفت به عن الطريق الثوري السليم . وبحركة سريعة صوتت الأكثرية اليسارية في المجلس الوطني لقيادة الثورة لصلاح جديد كرئيس لها وانتخبته أميناً عاماً لحزب البعث . فأصبح حليفه المدني نور الدين الأتاسي ، وهو طبيب فاشل وابن عائلة سنية بارزة ، رئيساً للدولة ، وحليفه المدني الآخر يوسف زعين ، الذي هو أيضاً سني مارس جراحة التجبير في الجزائر قبل أن يصبح وزيراً للاصلاح الزراعي في حكومة الحافظ ، رئيساً للوزراء . أما وزير الخارجية العلوي ابراهيم ماخوس وهو أيضاً طبيب ممتهن فقد احتفظ بمنصبه كما أشغلت جميع

المناصب الوزارية الأخرى من قبل مساندي صلاح جديد . وأقدم البعثيون الجدد فوراً على وضع منهاج تقدمي ، فشنوا حملة جديدة ضد الرجعية ، ووضعوا مخططاً اقتصادياً وعسكرياً حذوا فيه حذو دول أوروبا الشرقية ، ونفذوا برنامجاً متطرفاً للتأميم ، وعززوا قوانين الاصلاح الزراعي . وسمحوا لزعيم الحزب الشيوعي خالد بكداش بالعودة من المنفى ، ونظموا العمال في حرس شعبي ، وساعدوا الروس في تشديد قبضتهم على البلاد .

وقام النظام الجديد بحملة تطهير ضد العناصر اليمينية ، وشملت هذه الحملة بورجوازيين من رجال الدولة القدامى الذين أخرجوا من وظائفهم قبل عام ٩٥٨ كما أن السياسيين المحافظين ، وشيوخ العشائر ، وقادة الاخوان المسلمين ، وكذلك الناصريين اليمينيين ، وحتى الاشتراكيين حوكموا وحكموا بالسجن مدداً طويلة . أما مصير قادة البعث الذين اعتقلوا ليلة الانقلاب فلم يكن أفضل بكثير . فمن سخرية الأقدار أن عفلق والبيطار تقاسما الزنزانة ذاتها مع خصمهما منيف الرزاز الذي أطاح بهما قبل أشهر قليلة . فقد اتهمهم البعث الجديد بالاعتدال في السياسة الاقتصادية ، وفي العلاقات العربية والدولية . فأرغموا على الاستقالة . وبعد قضاء فترة قصيرة في السجن اقتيدوا إلى الحدود اللبنانية في عملية نفي إجبارية .

وكانت التغييرات في القوات المسلحة توازي في عمقها ما حدث على الصعيد السياسي ، فأعمال التطهير المتوالية حرمت الجيش مما بقي فيه من ضباط مقتدرين ، بحيث خلا الجيش تقريباً من القيادات وراح مئـات من الضباط يبحثون عن ملجأ لهم في العراق والأردن ولبنان ومـصر . غير أن حليف جديد العقيد أحمد سويداني كوفىء على ولائه ، إذ أصبح رئيساً للاركان ورقي إلى رتبة عميد . وكان مصيره النهائي أفضل على كل حال من أولئك الذين أرغمهم على الخروج من السلطة . فبعد انهيار الجيش السوري في حرب الأيام الستة وجدت فيه القيادة فريسة سهلة ، فأرسل في زيارة طويلة إلى الصين الشيوعية ، وبينما كان هناك نقل إلى

مركز أقل أهمية حيث عين بدلاً منه اللواء مصطفى طلاس .

وعلى الرغم من أن سليم حاطوم البعثي اليميني خرج سليماً من النزاع على السلطة ، فأسندت إليه قيادة القوات الخاصة ، ورفع إلى رتبة عميد ، ولكنه كان يراقب بقلق متزايد الزمرة المدنية ـ العسكرية الجديدة في حزب البعث التي تولت زمام الحكم وانحدرت بسورية مسافة أعمق في إطار الكتلة السوفياتية ، ولما كان هو العضو الوحيد غير اليساري بين الضباط الكبار لذلك أصبح بدون حلفاء في الهيئة الحاكمة الجديدة . أما وزير الدفاع الجديد الفريق حافظ الأسد الذي يكن له شعور الصداقة فقد حافظ على ولائه لصلاح جديد . وهكذا بدأ حاطوم يتآمر للثورة على البعثيين الجدد مع ضباط من الطيران والفرقة المدرعة ومصلحة مكافحة التجسس . غير أن المكتب الثاني الذي كان يراقب الوضع سحق المؤامرة قبل أن تتخذ شكلها النهائي . **وهكذا أوقف حاطوم أرسل إلى سجن المزة** . ولكن ما كادت تدابير الأمن تخف حتى تفتحت أبواب السجن واستطاع المتآمرون أن يفروا ، واستطاع حاطوم أن يستعيد سيطرته على وحدات الكوماندوس وقام بحركته الانقلابية في فجر الثامن من أيلول .

غير أن الحرس الذي أنشأه النظام الجديد استطاع بالتعاون مع الحرس الأزرق أن يخذل عملية العصيان ، غير أن الثوار استطاعوا أن يأسروا جديد والأتاسي وأن يبادلوا بهما على حرية حاطوم وضباطه . وشرح حاطوم فيما بعد : « قررنا الانسحاب مؤقتاً إلى الأردن » . وفي عمان نزل ومعاونوه في فندق الأردن الفخم حيث انطلقوا في شن حملات عنيفة على البعثيين الجدد . غير أن حاطوم « الوطني » انتهز أخيراً فرصة العفو العام الذي أعلن نتيجة لحرب حزيران وعاد بقصد القتال ضد إسرائيل ، فصدر الأمر بتوقيفه عند وصوله إلى مطار دمشق الدولي ، حيث نقل إلى سجن المزة . وتألفت محكمة عسكرية عند توقف القتال فحكمت عليه بالموت . ونفذت فيه حكم الإعدام زمرة من الجند في ساحة السجن في ٢٦ حزيران ١٩٦٧ .

وقد انعكست آثار عدم الاستقرار التي أحدثها البعث الجديد على شخصيات أخرى تناولت مهمة إيلي في سورية . فبعد عام من حرب الأيام الستة ، أي في ١٩ تموز ٩٦٨ أعفي سفير سورية في باريس الدكتور سامي الجندي من منصبه واستدعي إلى دمشق ، حيث أنب على تأليف كتاب عن المشكلة الفلسطينية بدون موافقة وزارة الخارجية ، كما اتهم بإجراء اتصالات لم يؤذن له بها بوزير الخارجية الاسرائيلية أبا ايبان أثناء حرب الأيام الستة . فجرى توقيفه وحوكم وسجن لمدة ثلاثة أشهر وثلاثة أسابيع . وبعد إخلاء سبيله في الأول من شهر تشرين الثاني غادر سورية سراً إلى بيروت ثم استقر أخيراً في باريس .

أما عقوبة السجن التي حكم بها على المتعاونين مع إيلي : فالملازم الأول معزى زهر الدين وجورج سيف مددت عقوبتهما إدارياً وهما لا يزالان في سجن تدمر . أما ماجد شيخ الأرض فلم يستطع احتمال المعاملة القاسية التي لقيها في سجن الصحراء فانتحر في حزيران ١٩٦٩ .

اسرائيـــل

بعد يوم من تنفيذ حكم الإعدام ، وعندما اعتلى ليفي أشكول المنصة في قرية رامات هاشارون ليتوجه إلى الجماهير بمناسبة الذكرى الأربعين لتأسيسها ، كان يبدو وكأنه يقاوم شعوره بالغضب . والصحافة الـتي تنتظر منه الخطاب السياسي المعتاد إذا بها تفاجأ بمشهد من مشاهده الإنفعالية النادرة . فقد طرح جانباً النص الذي أعده للإلقاء ، وراح يتحدث عن إيلي فقال وهو يتأجج غضباً : « لقد كانت المحاكمة مثلاً فاضحاً لانتهاك العدالة . فقد حرم إيلي كوهين من أبسط الحقوق البدائية التي يمنحهـا كل بلد متحضر للإنسان كمخلوق بشري . وجرى الإعدام بالإستناد إلى حكم سياسي لم تكن له أية صلة بالعدالة . لقد احتمل كوهين مصيره بنبل وسكون ... لقد مات موت الأبطال ، مات ضحية للدسائـس الداخلية ، وللصراع القائم بين الدول العربية » . وشجب ديفيد بن غوريون وكان مواطناً عادياً عملية الإعدام فقال في أشدود : « إنه عمل يدعو للإشمئزاز يقوم به الأكثر عداء لنا من بين جيراننا » .

أما وزيرة الخارجية غولدا مايير فقد انتابتها موجة من الغضـب والاستياء عندما عرضت بإجراءات المحاكمة . فقالت : « حكم إيلي دون أن تتاح له فرصة الدفاع عن نفسه » . وقال أحد الناطقين باسمها فـي وزارة الخارجية : « ليس في العالم بلد متحضر جرت فيه محاكمة وإعدام جاسوس في أيام السلم » . وعلى صعيد الكنيست وصف إسرائيل غاليلي زعيم حزب اهدوت افودا الحكم بأنه « بربرية كريهة » . أما زميلـه باروخ أرديتي من كتلة المعارضة الحرة هيروت فقد اقترح تعديل القانون الإسرائيلي بحيث لا يقتصر إعدام الجواسيس على زمن الحرب فقط غير أن اقتراحه هزم في الكنيست .

وبينما كانت تجري اجتماعات حاشدة في اللد ، وبئر السبع ، وفي عدد من المدن الأخرى ، قاد بن غوريون مظاهرة احتجاج من قبل اليهود المصريين من يافا حتى بيت يام . والتقت الصحافة الإسرائيلية لأول مرة على موضوع واحد هو التنديد بدمشق لانحرافها عن القانون ، وسخريتها بموجبات الرحمة ، وقالت جريدة هيروت اليمينية في مقال افتتاحي : إن موت إيلي كان سببه الكراهية المتعصبة ضد إسرائيل التي ينافس السوريون عليها زملاءهم في الجامعة العربية ، ويحاولون أن يتفوقوا فيها على كل من عداهم . أما جريدة هابوكر الحرة فقد اتهمت سورية بأنها « عاملت إيلي بالوحشية التي أصبحت صفة لازمة لنظام ذلك البلد » ووصفت جريدة جيروسالم بوست العمل بأنه بربري حتى بالنسبة لمقاييس العدالة السورية التي ليست في الأصل عالية . أما جريدة دافار التي تنطق بلسان الحزب الحاكم ماباي فقد هددت دمشق قائلة : « إنها ستدفع ثمن سلوكها المخجل » .

وشجبت نقابة المحامين الإسرائيلية سلوك السوريين في رسائل بعثت بها إلى جميع الجهات القضائية في العالم ، وفي باريس وجد الأساتذة ميرسيه وأريغي وتالانديه أن أحداث الأشهر الأخيرة قد تجاوزت كل تجاربهم السابقة ، فتحدثوا بغضب عن شعورهم تجاه « انتهاك دمشق للعدالة وحقوق الإنسان عندما منعت حق الدفاع عن رجل يواجه المحاكمة » . وذلك في تقرير رفعوه إلى رئاسة نقابة المحامين الفرنسيين . وقد أدان نقيب المحامين الفرنسيين السوريين علناً ، ومنح المحامين إذناً خاصاً بأن يبلغوا كتاب احتجاجهم الأخير للسفير الجندي وللرئيس الحافظ .

وفي بيانات أخرى وجهها إلى الصحافة ، وصف ميرسيه وأريغي المصيبة في قضية كوهين بقولهما: «لم يسبق لرجل، مهما كان نوع الجرائم التي يتهم بها، سبق له أن واجه في ساعة إعدامه عزلة كتلك التي واجهها كوهين .. كانت إسرائيل على استعداد لتفعل كل ما في استطاعتها في سبيله . ونحن لا نعرف أن شعباً آخر بذل كل هذه المساعي لإنقاذ حياة

إنسان ... غير أن إيلي كوهين لم يعلم أن أهله وأصدقاءه وبلاده فعلت كل ما تستطيع لإنقاذه . لقد سار إلى المشنقة ظاناً أن بلده تخلى عنه » وانتهى المحامين إلى القول : « لقد كان عملاً شائناً لن يستطيع السوريون أن يخلوا أنفسهم منه في أي يوم من الأيام » . هذا وقد أغرق مكتب الرئيس أمين الحافظ بالرسائل والبرقيات التي تدين هذا العمل .

وكانت جريدة البعث سريعة في الرد على الحملة من محطة دمشق ، فقد أذاعة محطة دمشق مقالها الافتتاحي بعنوان « بعد كوهين » ، وقد جاء فيه : « إن حكم الإعدام الروتيني الذي نُفِّذ في كوهين هو للحفاظ على مصلحة البلاد الوطنية ، وليكون مثالاً لكل العملاء في البلدان العربية . لقد ذهب كوهين غير أن كثيرين آخرين منتشرون في العالم العربي ، وهم مختبئون في ملاجئهم ويعملون بدون خوف بعيداً عن أيدي العدالة » . وهاجم المعلق الدول الأجنبية والمصالح المالية التي تدخلت لإنقاذ كثيرين من أمثال كوهين من الشنق الذي يستحقونه . ثم قال : « إن ما قامت به سورية لا يرضي الولايات المتحدة ولا الصهيونية ، كما لا يرضي تلك البلدان العربية التي استغلت هذه القضية لتزرع الشكوك حول سياسة سورية . إنه لا يجوز لنظامنا أن يصبح هدفاً للهمسات ... والذين نشروا الشائعات حول تهريب كوهين واستبداله بمواطنين سوريين مسجونين في فلسطين المحتلة يستحقون أن يصبحوا الآن هدفاً لمثل هذه الإتهامات». (١)

وعندما اشتدت الحملات ضد البعث ، حاول السوريون الذين لم يزعجهم انعدام التوافق بين أقوالهم ، أن يقللوا من أهمية الأعمال التي قام بها كوهين ، قائلين إن قصص إنجازاته هي من صنع المخابرات الأمريكية ، وذلك انتقاماً من كشف شبكة التجسس الأمريكية في وقت سابق من هذا العام . ووصل ماخوس وزير الخارجية إلى درجة من الغضب حملته على تقديم شكوى إلى الحكومة اللبنانية حول « حملة الأكاذيب »

---

(١) إذاعة دمشق ٢١ أيار ١٩٦٥ .

التي تشنها الصحافة وعن إفشاء بعض الأمور التي يسيء كشفها إلى القوات السورية المسلحة . ووصلت دمشق إلى حدّ التهديد بأن تحاكم غيابياً رؤساء تحرير صحف الحياة والمحرر والصفاء إذا عجزت الحكومة اللبنانية عن اتخاذ إجراء ضدهم . ولكي يردّ أمين الحافظ على موقف الصحف العربية العدائي قال : « لن تغير الأكاذيب ولا أساليب الضغط من سياستنا نحو الجواسيس ، فليس لدى سورية سوى حكم واحد تصدره ضد جميع الكوهينات » .

ولم تقصر السلطات الإسرائيلية في مطالبة رئيس لجنة الهدنة أريك سبار للسؤال عما حدث بجثة إيلي كوهين . وأجابت دمشق متهربة من الموضوع ان كوهين دفن في المقبرة اليهودية بحضور حاخام الطائفة . وقد تسلم رئيس الوزراء الإسرائيلي الميجر زفي شبان مذكرة تحمل هذا الخبر ولكنها لم تذكر شيئاً عن موضوع نقل الجثة .

وعلى الرغم من الرفض الظاهر ، فقد استمرت إسرائيل في البحث عن إعادة توطين الجثة ، وطلبت غولدا مايير من الفريق أودبول التدخل غير أن مركزه على أهميته لم يكن له وزن بالنسبة للسوريين . وفي ٢٠ أيار أحاطت دمشق سبار علماً أن الحكومة قررت عدم إعادة الجثة لأن القوانين السورية تحرم تحريك الجثث من البلاد بعد عملية الدفن .

غير أن استحالة التعامل مع السوريين لم تثبط عزيمة إسرائيل كاليف مدير مصلحة شؤون الهدنة . ذلك أن دمشق كانت تتراجع في أمور كهذه ولو بعد مفاوضات طويلة . وقد سبق للسوريين أن ردوا بمثل هذا التصلب والعناد قبل أن يعيدوا بقايا عميل الـ C.I.A إلى زوجته في الولايات المتحدة . ومن أسباب التفاؤل الأخرى أن إسرائيل سلمت قبل شهرين جثتي اثنين من الفدائيين السوريين اللذين قتلا أثناء عمليات عسكرية . لذلك كان كاليف واثقاً من أن دمشق ستقبل أخيراً ، غير أن رؤساءه في وزارة الخارجية ، الذين كانوا يعتقدون بأن ضغط المنظمات الدولية والحكومات الصديقة قد يشجع السوريين على تغيير رأيهم بسرعة ، راحوا يطلبون

المساعدة من الصليب الأحمر ولجنة حقوق الإنسان الدولية في جنيف .

وكان السفير إيتان قد أقنع الكي دورسيه في هذه الفترة بالمفاوضة مع دمشق، غير أن الجهود التي بذلها وزير الخارجية كوف دو مورفيل كانت غير مجدية . وفي محاولة يائسة أبرقت ناديا إلى الحاخام أندبو في باريس ولكنها لم تتلق أي جواب . والطريقة الفظة التي رفض بها السوريون هذه التدخلات زادت في قوة الشائعات التي انتشرت سابقاً عن أن إدارة الحافظ كانت حريصة على منع أي تشريح للجثة قد يكشف عن آثار التعذيب .

وعندما ظهر أن الدبلوماسية قد فشلت ، قيل أن إسرائيل حاولت ما كان يعتقد موظفو الموساد أنه أكثر فعالية في استعادة الجثة . ففي ليلة ٢١ حزيران تسلل أربعة رجال وهم يحملون المجارف إلى مقبرة اليهود في دمشق وراحوا يفتحون القبر الذي كان قريباً من الجدار الواقع في الجنوب الغربي من المقبرة ، وبعد أن أخرجوا الجثة حملوها إلى الطريق ، وبالتعاون مع شريك خامس وضعوا الصندوق الخشبي في شاحنة صغيرة ، وساقوها في اتجاه بيروت . وعلى بعد عدة أميال من نقطة الحدود السورية اللبنانية أخرج الرجال الأربعة الجثة من الكفن وساروا باتجاه الحدود على أقدامهم بعد أن حددوا موعداً للقاء بشاحنة أخرى على الطرف الآخر من الحدود .

وعندما وصل هذا الموكب إلى تخوم قرية الزبدانية جذبت رائحة الجثة المتفسخة أحد الكلاب فأيقظ عواؤه سيده وكان نائماً بالقرب من قطيعه ، وراح الراعي يطمع في الحصول على مكافأة لما ظن أنه اكتشاف لعملية تهريب فاستدعى دورية سورية إلى المكان . وعندما شعر الرجال الأربعة باقتراب حرس الحدود انطلقوا راكضين . وعندما قصرت المسافة بينهم وبين مطارديهم أرغموا على ترك الجثة ، وهربوا إلى داخل الحدود اللبنانية . وقد دهش الجنود عندما شاهدوا جثة مضى شهر على دفنها ونقلوها إلى مخفر الشرطة في الزبدانية . ولما عجزوا عن حل اللغز اتصل أحد قضاة القرية فوراً بدمشق لإحاطتها علماً بالحادث . وكشف التحقيق عن أثر حبل المشنقة في العنق . واتصل خبر الجثة بموظفي مكافحة التجسس

فتعرفوا على جثة إيلي كوهين . فأوقف المكتب الثاني الحاخام أندبو وحارس المقبرة ، ولكنه أخلي سبيلهما نظراً لفقدان الأدلة التي تثبت إدانتهما . وأسدلت السلطات السورية على هذا الحادث ستاراً من الكتمان .

وفي الأشهر التالية طالب الميجر زفي شبان بإعادة جثة إيلي وسبعة من المواطنين الذين لا يزالون في السجون السورية . غير أن السلطات السورية التي أعقبت إدارة أمين الحافظ تجاهلت هذا الطلب بالإضافة إلى طلبات هيئة الصليب الأحمر الدولية . وعندما انتهت حرب الأيام الستة في حزيران ٩٦٧ اعتقل الإسرائيليون ٥٩١ سورياً ، ولم يكن لدى دمشق سوى طيار إسرائيلي واحد جريح ، وجثتي آخرين ومدني مات في السجن . فوافقت القدس على تبادل السجناء بالجرحى وجثة ميت واحدة غير أنها أصرّت على استلام جثة إيلي . غير أن سورية أصرّت هنا أيضاً على عدم تسليم الجثة . وصمد الإسرائيليون عند موقفهم إلى أن وردت كلمة من المودين تفيد بأن حياة الطيّار في خطر . وعند هذا قبلوا بالشروط التي عرضتها دمشق . وبعد عام واحد ، وعندما هبط طياران سوريان خطأ بطائرتيهما على الأراضي الإسرائيلية ، فكر الإسرائيليون مرة أخرى بالمقايضة على بقايا كوهين على سبيل المساومة ، غير أن دمشق عادت فرفضت هذا الطلب رفضاً قاطعاً .

المحتويات

الكتاب الرابع

الكتاب الخامس